

# چوڑ المغفور

تأليف: توماس هاردی

ترجمہ: سامی نائش

راجہ: حسن محمود

منشی نور الازہری

WWW.BOOKHALL.NET



# منتدى سور الأزبكية

---

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

# چوڊا المنصور

بإشراف  
الإدارة العامة للثقافة  
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة  
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية





# چوڊ المغمور

تأليف  
توماس هارڊي

ترجمہ  
حسن محمود

ترجمہ  
سامي نائيد

الناشر

مكتبة الانجلو المصرية

١٩٦٤

هذه ترجمة كتاب :

Jude The Obscure

تأليف :

Thomas Hardy

# مقدمة

توماس هاردى

( ١٨٤٠ - ١٩٢٨ )

( ١ )

عاش « هاردى » طفولة جادة اتسمت بحب القراءة والإقبال على التحصيل ، وكان لأمه الفضل الأكبر فى دفعه إلى هذا الطريق وتشجيعه على سلوكه ، ولا غرو فقد كانت سليلة أسرة عريقة امتدت جذورها فى ولاية « دورسيتشير » لأجيال عديدة وأثمرت شجرتها عدداً من أهل الثقافة والعلم . لقد دفعته أمه إلى دراسة اللاتينية والفرنسية دراسة خاصة بدأها منذ نعومة أظفاره بعيداً عن مدرسة القرية ، وشجعها على ذلك ما لمسته فيه من رغبة ملحة فى التحصيل ، وقدرة على تحمل مشاقه . كانت ترى فيه صورة شبابها الذى أمضته فى بيت يقدر الثقافة ويشجع التعليم ، كما كان « هاردى » يرى فيها « السيدة الجادة والنتاج الطبيعى لريف « دورسيتشير » بكل عمقه ، ومهابة وسماحته » . وأغلب الظن أنه كان يتخيل أمه وهو يرسم شخصية « السيدة يوبرايت » فى قصته العظيمة « عودة ابن البلدة » . على أن السنوات التى قضاها فى مدرسة القرية لم تسكد تنتهى حتى طلب منه أبوه أن يسلك الطريق الذى يوصله إلى مهنة الهندسة المعمارية ، وبذلك انتقل « هاردى » إلى مكتب المهندس « جون هيكس » فى دورسيتشير ، وكان متخصصاً فى بناء الكنائس وترميمها . بعد ذلك رحل « هاردى » إلى لندن ليستزيد من العلم وهناك التحق بمكتب مهندس آخر يدعى سير « آرثر بلومفيلد » . ومن السهل علينا أن نلص آثار دراساته المعمارية وخبرته التى اكتسبها فى مطلع شبابه فى مجالات البناء والهندسة المعمارية فى كثير من كتبه وفى وصفه الدقيق الحى للأبنية الكثيرة

والآثار العديدة التي جاء ذكرها في كتبه . وفي قصته « جود المغمور » استخدم « هاردى » عليه الهندسى على نطاق واسع وبخاصة عندما يصف الكنائس والكنائس الجامعية وهو يتحدث عن هذه الأماكن في إسهاب حديث العالم الخبير . كذلك يستخدم « هاردى » الكثير من العلم الذي تلقاه في مكتب أستاذه « بلومفيلد » عندما يتحدث عن أبنية عصر « استعادة الملكية » في إنجلترا وهو الطراز المعمارى الذى تخصص فيه هذا الأخير . وبمرور الزمن أصبح هيام « هاردى » بالهندسة المعمارية اتجاها نفسيا أصيلا ملك عليه حاسته الفنية في الكتابة القصصية وفي البناء الشعري للاجتماع التي ظهر بها على العالم في أوائل القرن العشرين ، ومنها ملحمة الخالدة « الحكام » التي تميزت بالبناء الرصين والتكامل الدقيق لعناصر عديدة متداخلة من خلال فرشاة واسعة تضم العديد من الأحداث والشخصيات . على أن حب « هاردى » للهندسة لم يكن هو الحب الوحيد الذى ملك عليه حياته إذ أن الهزة الأولى التي أحس بها في مطلع العمر عندما أقبل على دراسة الفرنسية واللاتينية لم تفارقه رغم تفوقه في الهندسة وإحرازه الكثير من جوائزها . وعلى الرغم من نجاحه في الهندسة المعمارية أخذ يعد نفسه إعداداً جديداً يمكنه من الكتابة ومن اتخاذها حرفة حياته التي امتدت حتى عام ١٩٢٨ . وما بلغت النظر أنه ، عندما هجر الهندسة إلى الكتابة ، أقبل على التأليف في ثقة كبيرة بما كان يبشر بأن كاتباً عظيماً وشاعراً فذاً أصبح في طريقه إلى الظهور . وهو وإن كانت كتاباته الأولى تبشر بخير عظيم فقد رفض أن تقرر به لتمامه النجاح الأولى ، فأكب من جديد على الدراسة المتعمقة في فصول ليلية ملحقة بكلية الملك في لندن لاستكمال الناحية الأكاديمية التي عجز عن استكمالها في صدر حياته . وفي الفصول الليلية استطاع أن يتعمق دراسة اليونانية بجانب اللاتينية التي درسها في طفولته . وفي تلك الفصول درس أيضاً اللاهوت والأدب القديم ، والفلك ، والتاريخ ، وكل هذه الدراسات كانت المعين الذى لا ينضب ، والمنبع الذى اغترف منه عند ما شرع يكتب الشعر أولاً ، ثم القصة ثانياً ، ثم عندما عاد مرة أخرى إلى الشعر ، بعد أن انقطع عن الكتابة القصصية .

( ٢٣ )

وبظهور قصة « جود المغمور » ، وما أثارته من ضجة ونقاش بين النقاد ورجال الدين ، انتهت مرحلة الكتابة القصصية في حياة « هاردى » ، ولعله رضى في أعماق نفسه عن هذه الضجة التي أثارها القصة في كل من إنجلترا والولايات المتحدة ، بل لقد سر بها إذ جعلته يجر الكتابة القصصية ويتحول كلية إلى الشعر وكان يعتبر أنه الأداة الطبيعية للتعبير الفنى . وقبل أن يتوقف عن الكتابة القصصية كان قد أمضى من حياته الأدبية ما يقرب من عشرين عاما أنتج خلالها عدداً كبيراً من القصص منها المجموعة التي يطلق عليها « روايات وسكس » نسبة إلى « إقليم وسكس » التي اتخذت مسرحاً لحواشيها ، كما أطلق النقاد على خمس من هذه المجموعة اسم « روايات الشخصيات والبيئة » وهي « عودة ابن البلدة » عام ١٨٧٨ و « عمدة كاستربريدج » عام ١٨٨٦ و « الخطابون » عام ١٨٨٧ و « تس سليلة آل دوبرفيل » عام ١٨٩١ و « جود المغمور » عام ١٨٩٦ . لقد اتسمت هذه المجموعة بطابع الخشونة وفيها مرارة غير عادية وقسوة في بعض أجزائها وبخاصة القصتان الأخيرتان منها وهما « تس » و « جود » ولقد هوجمنا بشدة من عدد كبير من الناس كما اختلف النقاد في الحكم عليهما ، بل إن أحد رجال الدين في إنجلترا قال عن قصة « جود المغمور » إنها تحض الناس على الكفر لأنها تخلو من روح المسيحية الداعية إلى التفاؤل بالحياة والرجاء في الله ، وإن كان البعض أيضاً اعتبرها قصة دينية من الطراز الأول وتدعو إلى مكارم الأخلاق . ومهما يكن من أمر الاتهامات التي وجهها النقاد لهذه القصة ورأى الناس فيها في أوروبا وأمريكا فقد تحمس لها « هاردى » واعتبرها شيئاً جديداً في عالم القصة وقال عنها إنها « قصة يحكيها إنسان لإخوانه في البشرية من الرجال والنساء المكتئلى العمر » كما أنها محاولة للتصدي الأمين للجنون والحمى التي يصاب بها البشر وللهمز والكوارث التي تترى في أعقاب أقوى العواطف التي عرفتها البشرية . إنها تحسكي دون موارد الحرب المريرة المستعرة بين الجسد والروح وتتحدث عن الأمانى التي لم تتحقق .

على أن « هاردى » ، على الرغم من موهبته في كتابة القصة إلى الحد الذي يمكن القول معه إنه قصاص بالسليقة ، فإن كتابته للقصة جاءت على الرغم منه إذ أن عائلته الأولى انجذبت أولا إلى الشعر والشعر انتهى . و « هاردى » كشاعر يعتبر عالما من أعلام الدراما الشعرية في الإنجليز فإنتاجه الشعري في مراحل حياته كشف عن عبقرية أصيلة ، وإن كان إنتاجه في المرحلة الأولى من القارة بحيث لم يحظ بما يستحقه من الدراسة كتلك التي حظي بها إنتاجه في المرحلة الثانية وهي التي أعقبت إنقطاعه عن كتابة القصة . في هذه المرحلة كان إنتاجه الشعري من الغزوة والقوة والتنوع ما أكسبه مركزا متميزا بين شعراء أوائل القرن العشرين ، كما كان شعره من الأصالة بحيث يمكن القول إنه أتى بجديد في الكتابة الشعرية . والواقع أن ملحمة « الحكام » تميزت ببراعة خاصة في البناء الفني ووضوح في الفكرة وأصالة في التعبير وهي دراسة متعمقة للمفاهيم العامة للإرادة الواحدة الشاملة وهي في نواح عديدة تعتبر استكمالاً للملحمة الشعرية التي كتبها شوينهور وسماها « العالم فكرة وإرادة » . وعن المجموعات الشعرية العديدة التي ظهرت بعد ذلك ، ومنها « أشعار وسكس في الماضي والحاضر » و « سخرات الأيام » و « هجاء المناسبات » ، وعلى الرغم من النغمة القانطة السكيبية التي تتخلل سطورها وكلماتها ، يقول النقاد إن « هاردى » استطاع أن يكتب شعرا جديدا لا هو بالفناني ولا هو بالدرامي بل مزيج من النوعين ، كما أنه جديد في مرارته وموسيقاه المقيدة . وإن روحه في أشعار هذه الفترة لتتسم بميل واضح نحو الرومانسيين الذين كتبوا الشعر في إنجلترا في أواخر القرن التاسع عشر ومن أظهرهم الشاعر « شيللي » كما يدل على ذلك هيام « هاردى » بالأطفال والحيوانات والطبيعة بصفة عامة . بل إن صفات الرومانسيين وأفكارهم وأحاسيسهم لتتضح كثيرا في مجموعاته التي منها « قصائد قديمة وحديثة » و « صور من الناس » و « أغاني وتفاهات » و « أوهايم بعيدة » وكل هذه قد أضافت ثروة جديدة للأدب الإنجليزي بصنعة خاصة والأدب العالمي على وجه العموم .

« ومأساة الأمانى التى لم تتحقق ، لأن قوى قدرية غاشمة هائلة غامضة عمياء تسيطر على مصائر البشر وتعمل فى قسوة شديدة على هدم ما يبنيه الإنسان بكده وعرقه وإفساد خططه هى الفكرة الأولى التى خرج بها « هاردى » من دراساته للآداب القديمة ، ومن قراءته للشعر اليونانى القديم والمقالات اللاتينية التى امتلأت بها طفولته الأولى . من هذه الفكرة ذات الصلة بمأساة « بروميثيوس طليقاً » و « بروميثيوس مقيداً » صاغ المحاور التى تدور حولها قصصه وبخاصة قصص الشخصيات والبيئة ، وجميعها تعكس هذه الفلسفة القديمة التى تعلق بها « هاردى » وصاغها شعراً ونثراً . ولعل قصة « عودة ابن البلدة » وكذلك قصة « تس سيلة دبرفيل » توضحان هذه الفلسفة أكل توضيح . أما قصة « جود المغفور » فإنها تتحلل قليلاً من قيود هذه الفكرة إذ أنه يخرج بموضوعها إلى مجال جديد مبتكر هو مجال القصة الفلسفية الاجتماعية التى تعالج موضوعاً خطيراً هو الزواج وعلاقته الوثيقة بالتكوين النفسى للناس وحقوق البشر فى الحرية . وعلى الرغم من صعوبة علاج مثل هذا الموضوع الشائك علاجاً فنياً صحيحاً ، فإن « هاردى » نجح فى أن يجعل من القصة أداة سهلة لعلاج موضوع الزواج فى إطار اجتماعى وإن كان يبدو غريباً بعض الشيء إلا أن ملاحظته كانت معروفة لمن عاش فى إنجلترا فى تلك الحقبة التى يتحدث عنها . كذلك استطاع « هاردى » أن يجعل القصة تستوعب كثيراً من آرائه فى الدين والسلوك الاجتماعى ، كما اتسعت لمحاورات دينية طويلة تدور حول موضوعات كثيرة كانت محل بحث ونقاش بين الناس فى أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر . لقد اتسعت القصة أيضاً لآراء جماعات كان يطلق عليها « العجاليون » نسبة إلى العجالات التى كانوا يكتبونها ويوزعونها على المحافل المختلفة ولعل فى التسمية شىء من الهزء بهذه الجماعة . ومن هذه الجماعات أيضاً « الانشاققيون » الذين خرجوا على كنيسة إنجلترا ، و « المهدانيون » ، و « الميثوديون » .

( ٤ )

وقصة « جود الغمور » تدور حول الحياة الفاجعة التي عاشها بناء فقير يدعى « جود فاولى » ، وكان يطمح إلى أن يحظى بتعليم جامعى . غير أن آماله فى هذا النوع من التعليم تحطمت فى قسوة بسبب غرور المسؤولين فى « كرايستميستر » ، مدينة الجامعة ، وتقاعسهم عن مساعدته ونفورهم منه مما حزن فى نفسه وهلا حياته حزناً وألماً . على أن هذا البرود الذى صادفه من رجال العلم بالجامعة لم يقعه عن مواصلة الدراسة التى هام بها حباً ، وإن كان حبه للعلم قد اصطدم اصطداماً رهيباً بالقدر والأعيبة . لم تكن روحه فقط هى التى خسرها فى هذا الصراع ، وإن كانت خسارة الروح لا تترك مكاناً لخسارة أخرى ، بل إن حياته أيضاً حطمتها أنانية امرأتين اعترضتا سبيله بحيلة من حيل القدر . إحدى هاتين امرأتين اسمها « أرابيلا دون » ويقول عنها « هاردى » : « أنثى سميكة الجلد ، حيوانية الزعة » . لقد استطاعت أن تسرقه من نفسه وتقوده إلى الزواج منها معصوب العينين ، وسرعان ما يتحول الزواج إلى قيد يترك آثاراً أليمة فى نفس كل منهما ، وأخيراً تنتهى العلاقة الزوجية بهروب الزوجية . أما المرأة الأخرى فهى « سو برايتفيلد » ، مخلوق أثيرى تهوى الحياة الذهنية وتتذبذب كثيراً فى آرائها ومعتقداتها وتقف أمام الحب حائرة كطفل ، وهى الوجه الآخر لشخصية « أرابيلا دون » .

وفى جزء كبير من الكتاب تلعب قوانين الزواج دوراً أساسياً فى رسم خطوط المأساة التى عاشها البطالان كما تتأثر بها الحوادث التى خاضتها شخصيات القصة . لقد راح « هاردى » يدلل على أن القانون المدنى ينبغى أن يكون ، كما قال « ديدرو » ، إلهاماً علينا لقانون الطبيعة ، ولا شىء غير هذا . على ذلك لا بد أن يلغى الزواج ويصبح كما أنه لم يكن ، بمجرد أن يتحول إلى قيد ينوء به أحد الطرفين . واستمرار الزواج هو الذى يفتح الطريق هنا أمام عناصر المأساة لى تظهر ووراءها سبيل من السكوارث استندما « هاردى » فى براعة كبيرة لى يقيم



بها الشكل الدرامى للقصة . هذه العناصر ذاتها تنفيذ فى ما يذكره « أرسطو طاليس »  
عن وظيفة المأساة فى تطهير النفس البشرية وإزالة ما بها من أدران .

وبالإضافة إلى قوانين الزواج فى رسم خطوط المأساة . نجد أيضا الصعوبات  
التي توجد فى كثير من المجتمعات ، والتي يعانى منها كل من يطلب العلم دون الاعتماد  
على العون المادى الذى ييسر سبيل الدرس والتحصيل . لقد ارتد « جود » عن  
أسوار الجامعة الفقيرة وعاش طوال حياته يرنو ببصره إليها يكفيه منها النظر  
والسمع ، والخيال دون الحقيقة ، والأوهام الحلوة الجميلة التي تسرى فى أوصاله  
كخمر إلهية وتبتعد به عن واقعه الآليم .

أما شخصية « سوبرايتيهيد » فهي فى رأى بعض النقاد أول تصوير روائى  
للرأة الحديثة وليدة التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي ظهرت فى أواخر  
القرن التاسع عشر . بل هي نفسها المرأة التي تزعمت الحركات النسوية ، « المرأة  
العزباء ذات اللون المصفر والبدن الرقيق والكيان الضئيل ، والتي تهيم بالأمور  
العقلية وتدعو إلى التحرر من التقاليد وتخرج إلى ميدان العمل معتمدة على عقلها  
ولا ترى داعياً يدعو بنات جنسها إلى اتخاذ الزواج وسيلة لكسب العيش » .  
و « سوبرايتيهيد » صورة حية لنساء المدن الجديدة اللاتي خرجن لاكتشاف  
الحياة وبعضهن أفاد من التجربة ، غير أن « سو » عند ما عادت كانت التجربة قد  
تركزت فى نفسها جراحا عميقة دامية .

س . ن



# الباب الأول

في

ميريجرين



« كثيرون حقاً هم الذين أضاعوا  
عقولهم بسبب النساء حتى أصبحوا  
عبيداً لهن . كثيرون حقاً هم الذين  
ذهبوا ربحهم وتكبروا طريق الصواب  
وارتكبوا المعاصي من أجل المرأة .  
فيا أيها الرجال كيف لا تأنس بنات  
حواء في نفوسهن القوة وهن يشاهدن  
ما يستطعن أن يفعلنه بكم ، » .

( ازدراس )

كان المعلم على أهبة الرحيل ، فخيم الحزن لفراقه على القرية ، وجثم على صدر الجميع ثقل هائل . أعاده الطحان في « كريسكومب » عربته الصغيرة وجوادها لينقل عليها حاجاته القليلة إلى المدينة التي اعتزم أن يرحل إليها . لم تكن هذه المدينة لتبعد غير عشرين ميلاً وكانت العربية مناسبة تماماً لما يملك من أمتعة قليلة ، فسكنه مؤجر له بفرشه من قبل أصحاب المدرسة . أما قطعة الأثاث الوحيدة الكبيرة التي يملكها بالإضافة إلى حقيبة كتبه فكان البيانو الذي سبق أن اشتراه في سوق عامة خلال العام الذي راودته فيه فكرة تعلم العزف على آلة موسيقية . غير أنه بمجرد أن ضعفت حماسته لهذه الفكرة ، انقطع عن العزف وعن القيام بتدريباته اليومية ، وسرعان ما أصبح المعزف مصدر أداماً للمتاعب ، وبخاصة عندما ينتقل المعلم من منزل إلى آخر .

وفي ذلك اليوم كان قسيس الناحية قد غادر القرية ، إذ أنه يكره مناظر التغيير والتوديع ، لهذا اعتزم الابتعاد عن المكان حتى يصل المعلم الجديد ، ويتخذ مقامه ويعود كل شيء إلى هدوئه .

وأمام المعزف الرابض في بهو المنزل ، وقف حداد القرية ومعاون المزرعة ، كما وقف المعلم نفسه ، وقد استبدت الحيرة بهم جميعاً ، قال المعلم إنه حتى لو نجحوا في نقل البيانو إلى العربية ، فإذا يصنع به عندما يصل إلى مدينة « كرايستمينستر » حيث تكون إقامته مؤقتة في مبدأ الأمر .

وبنما كانوا يفكرون بحشاً عن حل ، جاءهم غلام في الحادية عشرة من عمره وأخذ يعاونهم في حماسة وأقبل يشترك في عمليات الحزم والنقل . فتح الغلام فيه بالكلام فخرج صوته يقطر خجلاً وهو يقول : « أيها السيد ، تملك عمى مخزناً كبيراً للوقود ، وفي مقدورك أن تحتفظ بمعزفك فيه فترة من الزمان حتى تجد لنفسك مكاناً تقيم فيه » . وقال الحداد : « يا لها من فكرة صائبة ! » .

وسرعان ما استقر رأى الجميع على أن يذهب الحاضرون في وفد إلى عمسة الغلام . وهى عجوز لم تزوج — كى يسألوها عما إذا كانت توافق على أن يترك المعلم معزفه فى مخزنها فترة من الزمان . وفى نفس الوقت توجه الحساد ومعاون المزرعه إلى المخزن ليتأكدوا من مدى ملائمة للفرص . وبقى الغلام والمعلم وحدهما .

قال المعلم فى نغمة رقيقة : « هل أنت آسف لرحيلى يا « جود » ؟ » . واغرو رقت عينا الام بالدموع فلم يكن من التلاميذ النظاميين الذين يلقون بالمعلم يومياً وليس فى نفوسهم من عاطفة خاصة سوى ما يصحب التلاقى اليومي من شعور العادة والتكرار ، ولكنه كان تلميذاً بالمدرسة الليلية قد قبله المعلم بين تلاميذ فصله متفضلاً فى ذلك عليه . أما التلاميذ النظاميون فوقفوا فى تلك اللحظة عن بعد يتطلعون إلى ما يجرى أمامهم ولا يفعلون شيئاً كأنهم بعض حوارى التاريخ العازفين عن الإقبال على أى عمل يتطلب منهم المبادرة إلى بذل المعونة .

وبحركة سريعة فتح الغلام الكتاب الذى منحه إياه السيد « فيلوتسون » على سبيل الذكرى ، وأبدى أسفه على هذا الفراق . قال السيد « فيلوتسون » : « وأنا أيضاً أشعر بالأسف لفراقك » .

قال الغلام متسائلاً : « ولم أنت راحل يا سيدى ؟ » .

— آه ، يا لها من قصة طويلة . إنك لن تفهم وجهة نظرى فى هذا يا « جود » ومن المحتمل أن تدركها عندما تتقدم بك السن قليلاً .

— « أظن أننى قادر على ذلك الآن يا سيدى » .

— « حسناً . لا تتحدث عن هذا الموضوع فى كل مكان . أنت تدرى ما الجامعة ، وما الدرجة الجامعية . إنها الشئ الذى لا بد منه لكل من يريد أن يتخذ من التعليم مهنة . وخطتى ، أو قل حلم حياتى ، أن أصبح جامعياً ، وبعد ذلك أصبح قسيساً . وأنا إذ أذهب إلى مدينة « كرايستمينستر » لأعيش هناك ، أصبح قريباً من مركز النشاط العلمى . ولو كنت أنوى أن أحقق مشروعى على

صورة ما ، فإنني أعتبر وجودي بالقرب من الجامعة لا بد أن يهيء لي فرصة العمل على تحقيق مبدئي وهذا أفضل بالنسبة لي مما لو كنت في أي مكان آخر .

وعاد الحداد ورفيقه . كان مخزن الوقود الذي تملكه الآنسة « فالو » يمتاز بالجفاف فأصبح لذلك مناسباً للغرض الذي ذهبوا من أجله ، كما كانت هي على استعداد لأن تخصص للبياتو مكاناً فيه ، وعلى ذلك ترك المعزف في المدرسة حتى يعود الرجال من أعمالهم في المساء فيتعاونوا جميعاً على نقله ، وبذلك اطمأن المعلم على مصير معزفه .

وأخذ الغلام « جود » يعاون في نقل أمتعة المعلم الخفيفة إلى العربة . وفي الساعة التاسعة ، صعد السيد « فياوتسون » إلى ظهر العربة وجلس بجوار حقيبة الكتب وغيرها من الأمتعة وتحركت العربة بعد أن ودع أصدقاءه .

وبينما كانت العربة على أهبة السير قال المعلم والآنسة تعاو وجهه : « لن أنساك يا « جود » . كن عاقلاً ولا تقسو على الحيوانات والطيور ولا تكف عن القراءة أبداً . إذا حدث وجئت إلى « كرايستمينيستر » لا تنس أن تفتش عنى حتى تعثر علىّ وهذا حق من حقوق الصداقة القديمة » .

ودلفت العربة خلال المزارع الخضراء ، واختفت وراء بيت القسيس ، وعاد الغلام إلى مكانه من حافة البئر حيث كان يقوم برفع المياه قبل أن يذهب إلى صديقه ومعلمه ليعاونه في نقل أمتعته إلى العربة . كانت شفتاه ترتجفان . وعندما رفع غطاء البئر لينزل الدلو إلى القاع ، توقف قليلاً ومال بجسمه إلى الأمام وقد اكتسى وجهه بمسحة من الجذ كبتلك التي تعلو وجه طفل يحس بهوم الحياة قبل الأوان . كان البئر الذي ينظر فيه قديماً كقدم القرية نفسها . ومن مكانه بدا للغلام كخط دائري طويل ينتهي بقرص لامع من المياه الرقراقة على عمق مائة قدم . وبالقرب من فتحة البئر نمت طبقة من الطحلب الأخضر يحيط بها نبات السرخس العريض الوريقات . أخذ الطفل يحدث نفسه في نباتات تمثيلية كتلك التي تصدر عن غلام هو أنى النزعات قائلاً لنفسه : « سبق أن وقف المعلم في نفس هذا المكان وكان يسحب



الماء من قاع البئر في أوقات شبيهة بهذه . لأنه إن يأتى إلى هذا المكان مرة أخرى .  
لقد رأيته ينظر إلى قاع البئر عندما يستولى عليه التعب ، تماماً كما أفعل أنا الآن ،  
وعندما يقف قليلاً ليستريح قبل أن يحمل المياه إلى البيت ! ولكنه كان من الذكاء  
بحيث أسرع بالرحيل ولم يقبل أن يعيش في مكان صغير حامل الذكر كهذا المكان !

وطفرت من عيني الغلام دمعته سقطت في أعماق البئر . كان الصباح مضياً  
ونشرت أنفاس الغلام نفسها على الهواء الساكن كأنها غلالة سميكة ، وقطعت  
حبل التفكيره صرخة مفاجئة تقول : « إلى الماء أيها الماجن الغر الكسول » .

صدرت الصرخة من عجوز ظهرت عند باب الحديقة الموصل إلى كوخ صغير  
قريب . وفي سرعة أشار الغلام بيده إشارة تدل على الاستجابة ، وشرع يسحب  
الماء من بطن البئر بجهد يبدو كبيراً على طفل في حجمه . وبعد أن أفرغ الدلو  
الكبير في إناءين أصغر حجماً ، توقف قليلاً ليلتقط أنفاسه اللاهثة وبعدها حمل  
الإناءين وسار بهما وسط الممرات الخضراء الموحلة حتى وصل إلى قلب قرية  
« ميريجرين » الصغيرة .

كانت القرية صغيرة المساحة ، عميقة الطراز ، تنام في حجر ربوة مرتفعة  
متصلة بمنحدرات « وسكس » الشمالية . وعلى الرغم من مسحة القدم التي تكسو القرية  
بأكملها ، كانت البئر بجزئها البارز فوق الأرض هي الأثر الوحيد الباقي دون أن  
يزاله أى تغيير ، وبذلك ظل يحكى قصة القرية في عصورها السابقة وسيظل كذلك  
ليحكى قصتها فيما يقبل من الأيام ، فكثير من المساكن ذات السقوف الملونة  
المصنوعة من القش وأغصان الأشجار ، وذات السكوات والقمرات الدائرية  
أزيلت في السنوات الأخيرة ، كما اجتث عدد كبير من الأشجار وظل ملقى على  
الأرض الخضراء . وفضلاً عن ذلك ، فإن الكنيسة الأولى في القرية ، تلك التي  
كانت في الأصل محدودبة الجوانب ، مبرجة القمة ، مسنمة السقف ، هدمت جوانبها  
وأصبحت الآن إما كومة من صخور الرصف وحجارة الطريق ، وإما شواهد  
تستخدم في بناء حظائر الماشية ، أو تدخل في بناء مقاعد الحديقة والأسوار الصخرية

للأفنية والمهزات المقامة وسط أحواض الزهر المنتشرة في كل مكان . وحل محل تلك الكنيسة المغرقة في القدم بناء جديد عال من طراز قوطى حديث غريب على الذوق الإنجليزى ، بناء أقامه فوق قطعة جديدة من الأرض مهندس من بين أولئك الذين ناصبوا التاريخ العداء فأعملوا يد التخريب في آثاره وكان ذلك المهندس قد جاء من لندن وقفل راجعا إليها في نفس اليوم . إن قطعة الأرض التى أقيمت فوقها الكنيسة ، وهى معبد المسيحيين فى تلك الناحية والتى ظلت مأوى دائماً لرهبان المسيحية ، لم يكن لها أثر واضح وسط المروج الخضراء التى كانت من قديم الأزل جزءاً لا يتجزأ من المقبرة الملحقة بالكنيسة . أما المقابر التى عفت آثارها فلم يعد يدل عليها سوى عدد قليل من الصليبان الحديدية الرخيصة التى ضمن صانعوها أن تعيش خمس سنوات .

## ( ٢ )

وعلى الرغم مما فى جسد « جود فاولى » من ضعف ، فإنه حمل الإنايين المليئين بالماء إلى الكوخ دون توقف إلى أن بلغ بابه الذى وضعت عليه لوحة صغيرة زرقاء مستطيلة كتب عليها بحروف صفراء « دروزيلا فاولى — خبازة » . وفى داخل النافذة الصغيرة ذات الإطار الازدوازى علامة تدل على أن المنزل من بين البيوت القليلة القديمة الباقية وشوهدت خمس أوان زجاجية بداخلها قطع من الحصى وبحوار الأواني صحاف من خشب الصفصاف تحوى قطعاً من الكعك .

وبينما كان الغلام فى الجزء الخلفى من المنزل يفرغ الإنايين مما فيهما من ماء ، التقطت أذناه مناقشة حامية تدور داخل المنزل بين عمته « دروزيلا فاولى » من جهة ، وبين عدد من أهل القرية راحوا ، عقب رحيل المعلم ، يتحدثون عن هذا الحادث وما يتصل به من تفاصيل ، كما أخذوا يخوضون فيما يحمل له المستقبل منبئين .

وعندما دخل عليهم الغلام . قالت امرأة من بين المجتمعين ، ولم تكن من أهل « ومن يسكن هذا الغلام ؟ » .

لك أن تسأل هذا السؤال أيتها السيدة « وليامز » إنه حفيد أخى جاء إلى هنا أخيراً فى أثناء تفهيك عن القرية . « أما العجوز التى تطوعت بهذه الإجابة فكانت امرأة طويلة نحيلة ، من عادتها أن تتحدث عن التافه من الأمور فى لهجة مسرحية وكانت تمنح السامعين فقرات من حديثها كل فى دوره فتتجه يمينا وتقول : جاء من « فلسطين » فى جنوب « وسكس » منذ عام مضى وكان هذا من سوء حظه يا « بليندا » . ثم تتجه برأسها إلى اليسار وتكمل حديثها قائلة : وفى « فلسطين » كان يعيش مع والده الذى قضت عليه الحمى فى يومين اثنين كما تعالين يا « كارولين » ليت العناية الربانية لحقتك وأخذتك إلى جوارها مع أمك وأبيك ! لو حدث هذا لكان من النعم الكبرى عليك أيها الغلام التعس ! ولكننى استقدمته ليعيش معى هنا حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإن كنت مضطرة إلى تركه يكسب عيشه بعرق الجبين ، فهو الآن يعمل فى مزرعة المواطن « تراواتام » حيث يقوم بدفع العصافير عن زراعته ، وفى العمل منجاة له من الفساد . ما الذى يجعلك تشيح بوجهك عنا يا « جود » ؟ قالت ذلك للغلام عندما رأته يتجه إلى الجانب الآخر من الغرفة حتى يتحاشى نظراتهم التى ألحبت وجهه كسياط من نار .

قالت غسالة القرية : « أحسنت الآنسة » فاوى « صنعاً عندما استدعت الغلام ليقم معها » وأضافت تقول : « يهون عليك وحدتك ، وليجلب لك الماء من البئر ، وليغلق لك الردادات الخشبية عندما يحين الليل ، وليعاونك فى أعمال الخبز » .

أما الآنسة « فاوى » فلم تؤمن على كلام غسالة الملابس ولكنها التفتت إلى الغلام وقالت : لم لم تجعل المعلم يأخذك معه إلى « كريستميبيستر » حيث يجعل منك طالب علم ؟ ثم راحت تقول فى نغمة ساخرة : أؤكد لكم ما من غلام آخر يفوق هذا الغلام فى حب العلم فهو مصاب بجنون الكتب ، وايس هذا بالشيء الغريب فأفراد عائلتنا يعانون كثيراً من هذا المرض ، فابنة عمته « سو » مثله تماماً كما سمعت إذ أننى لم أرها منذ سنوات عديدة ، وإن ولدت فى هذا المكان وفى نفس هذه الغرفة . إن ابنة أخى وزوجها لم يستأجرا منزلاً لسكناهما فهب

زواجهما لفترة عام أو أكثر ، ولم يصبح لهما سكن إلا ... حسناً ، أفضل إلا أخوض في هذا الأمر الآن . « جود » ، عزيزى ، أنصحك ألا تزوج طول حياتك ، فليس لفرد من أسرة « فاولى » أن يقدم على هذا الأمر . كانت وحيدتهما « سو » ما زالت طفلة صغيرة يا « بليندا » حتى وقعت القطيعة بيننا واحسرتاه على الفتاة الصغيرة عند ما علمت بما اعترى علاقتنا من تغيير .

وعند ما أدرك « جود » أن الاهتمام العام أصبح موجهاً نحوه مرة أخرى ، غادر الغرفة إلى المخبز حيث أكل الفطيرة المخصصة لإفطاره . وعند ما حانت اللحظة التى يعود فيها إلى عمله ، سار فى الحديقة ثم قفز فوق السياج ومشى فى الممر الواقع خلف الكوخ متجهاً نحو الشمال حتى وصل إلى منخفض واسع مهجور يقع وسط أحد المرتفعات المزروعة بالقمح ، وكانت هذه البقعة المترامية الأطراف هى ميدان عمله الذى يخدم فيه السيد « تراواتام » المزارع . وفى الحال سار متجهاً إلى وسط الحقل .

كانت الحانة البعيدة للحقل ذى اللون الأسمر تتجه نحو السماء فى كافة اتجاهاتها وتتلاشى شيئاً فشيئاً فى غمار الضباب الذى أحاط بكل شيء فزاد من تأثير الوحشة الضاربة فى المكان على سمعته . أما الأثر الوحيد الذى شاب تجانس المنظر العام فكان كومة باقية من العمام الماضى قائمة وسط الأرض المنزرعة ، بينما رفرت الغربان السود بأجنحتها فى الهواء عند ما أحسست به يسير على جانبي الطريق الذى يمشى فيه الآن قوم لا يعرفون أين جاءوا وإن سار فيه فى الماضى عدد كبير من أفراد أسرته التى عدا عليها الموت .

قال يحدث نفسه : « يا لقمح هذا المكان ! » .

ظهرت الخطوط الحديثة التكوين الناتجة عن عزق الأرض وشقها كأنها خطوط بارزة فى قطعة من قماش سميك ، فأضفت على المكان جواً من الواقعية الجامدة بحيث أزلت ما كان عالماً به من سعة الخيال وحرمة من مسحة القدم التى كانت رانية عليه فبدت هذه البقعة جديدة فى كل شيء . صغيرة لا يتعدى عمرها

بضعة أشهر . هذا وإن كانت كل ذرة من ذرات المكان وكل حفنة من طينة تحمل في أعطافها قدراً كبيراً من الذكريات كما ترتبط بها أصداء أغنيات انطلقت في عهود خوال في أيام حصاد، كما انطلقت على الهواء كلمات تعبر عن أفعال تدل على الشجاعة والإقدام . كل جزء من الأرض التي يقف عليها الآن ، كانت في يوم من الأيام مسرحاً للنشاط وحلبة للبهجة وسباق الخيل ، وملعباً للمشاحنات والمراهنات . وجماعات من جامعي بقايا الحصاد جلسوا القرفصاء في ضوء الشمس وامتلأ المكان بأعدادهم . ومواثيق حب تبادلتها أفراد من القرية القريبة بين حصاد القمح . وفي أسفل السياج الذي ينفصل هذا الحقل عن مزرعة نائية كثيراً ما وهبت الفتيات أنفسهن لعشاق كانوا يضمنون عليهن بنظرة عند ما يأتي الحصاد التالي . وفي هذا الحقل القديم، كم من رجل سعى إلى امرأة يبتشها غرامه ويعقد معها عهود الحب ، وفي الحصاد التالي ارتعش جسده لسماع صوتها بعد أن أوفى بعهده في كنيسة القرية المجاورة . كل هذا لم يكن موضع اهتمام « جود » كما لم يكن موضع اهتمام الغربان السود التي حوّمت حول المكان . فبالنسبة إليهم جميعاً ، كانت البقعة لا تعدو أن تكون مكاناً منعزلاً ، وهي في نظر « جود » ميدان صالح لأن يعمل فيه ، وفي نظر الغربان مخزن للحبوب صالح للأكل فيه .

وتحت الحكومة سابقة الذكر ، وقف الغلام ممسكاً بجرسه الذي يحدث به صليلاً عالياً متكرراً . وعند كل صلة صاعدة عن الجرس تنزع الغربان فتتكيف عن نقر السنابل والتقاط الحب وتحوم في السماء ضاربة جوانبها بأجنحتها النحيلة المصقولة كقائني من معدن قوى ثم تعود لترمقه بنظرات تتم عن القلق وتحط بعيداً عنه مواصلة أكلها .

ظل « جود » يهر الجرس هذا سريعاً متواصلاً حتى كل ذراعه وأخيراً تماكنته الشفقة على الطيور المسكينه التي تعرضت للحرمان بسبب ما يقوم به من عمل ضار بها . كانت هذه الطيور مثله من حيث إنها تعيش في عالم لا يريد لها فلم يزعجها ولم يخفها ؛ وشيئاً فشيئاً أخذ ينظر إليها على اعتبار أنها كائنات صديقة لا حول لها ولا قوة ، وأخيراً أصبحت بالنسبة إليه كائنات تحس نحوه بشيء من الاهتمام

الذى افتقده في البشر جميعا . فعمته كثيراً ما كانت تقول له إنها لا تأبه له ولا تهتم به .  
هنا توقف عن الصاولة فعادت الغربان إلى مكانها على الأرض .

قال « جود » في صوت عال : « يالك من كائنات صغيرة جميلة ! سأعطيك بعض  
الطعام . لا تخافى منه ما يكمنينا جميعا والمزارع ، تراوتام ، لا يمانع في أن يمنحك  
شيئا من هذه الحبات العزينة . كلى واشبعى إذن يا صغيراتى العزيزات ! » وجحات  
الطيور على الأرض وبقيت لحظة تأكل تاركة خلفها بقعا سوداء على صفحة الأرض  
السمراء . وأحس « جود » بالسعادة تغمره لما لاحظها عاينها من شهية قوية كما  
أحس بالحيط الرقيق السحري الذى يجمع بين هذه الطيور وبينه فقد كانت أرواحها  
ضئيلة حزينة كما كانت روحه ضئيلة حزينة فألقى بجرسه بعيدا عنه فقد أصبح  
في نظره شيئا حقيرا مهينا للطيور ولنفسه على اعتبار أنه صديق لهذه الطيور .  
ولجأة أحس بضربة قوية على ظهره تتبعها صدمة عالية فأدرك لدسته أنها صادرة  
عن الجرس ففرع في مكانه وفزعت الطيور هي الأخرى ونحولت عيونها  
المبهورة نحو المزارع وكان يقف أمامها بكيانه الهائل ، وهنا ترنح جسد « جود »  
الضئيل تحت وطأة نظرات « تراوتام » النارية وهو يهز الجرس بيده ويقول  
في سخرية مرة :

« كلى واشربى يا صغيراتى العزيزات . أليس كذلك أيها الغر ؟ كلى واشربى  
حقا ! سأعافيك عفا بال لم تر مثله من قبل لأرى إذا ما كنت تستطيع أن تقول  
مرة أخرى « كلى واشربى يا صغيراتى العزيزات ! » وكنت أيضا تدسكع عند العلم  
بدلا من أن تسرع بالجىء إلى هنا أليس كذلك ؟ هل هذه هي طريقتك في الكسب  
الحلال ؟ إنى أمنحك ستة بنسات في اليوم مقابل حماية فحى من الغربان !

وبينما كان « تراوتام » يشنف أسماع « جود » بهذا المنطق القوي كان يقبض على  
ذراع الغلام بيده اليسرى ويهز جسده النحيل هزا عنيفا . ومن حين لآخر أخذ  
يضربه على ظهره بالجرس فيتردد صدى الضربات في جوانب الحقل كله .

صاح الغلام وهو يلف حول نفسه ويدور دورات سريعة كما تلف السمكة حول

نفسها عندما يخرجها صيادها من الماء . كان كل ما حوله يلف ويدور في حركة دائرية . التلال المحيطة ، الكومة أمامه ، المزروعات الممتدة ، الممرات المستطيلة ، الغربان السود :

« لا تضربني ياسيدي ، أتوسل إليك ألا تضربني إني ، إني ياسيدي ، قصدت فقط أن أقول في الأرض حب كثير . لقد رأيتهم وهم يبذرونه وتستطيع الغربان المسكينة أن تقنات بالقليل منه ولن يضيرك أن فعلت هذا أيها السيد . لقد أمرني السيد « فيلوتسون » بأن أكون باراً بهذه الطيور . آه . آه . آه .

وأثار هذا التفسير الصادق نائرة المزارع ربما أكثر مما لو لم يفتح « جود » فاه . واستمر صاحب الأرض يضرب الغلام الذي لم يتوقف عن الدوران بينما ظل صدى الضربات يتردد في جوانب الحقل حتى وصل إلى أسماع العمال الذين كانوا يعملون في الحقول المجاورة لئيلهم أن « جود » يقوم بمهمته في طود الطيور والعصافير عن حقل « تراوتام » بنشاط وهمة ، كما ظلت الضربات تتردد أيضا من أعلى برج الكنيسة الجديدة ، تلك التي ساهم المزارع بأمواله في إقامتها ليثبت للملا تقانيه في حبه لله والإنسان .

وأخيرا تعب « تراوتام » من القيام بواجبه التأديبي فترك الغلام يرتجف ويحاول الوقوف على قدميه . وعندما رآه هكذا أخرج من جيبه درهما وناولوه للغلام كأجر على عمل اليوم ثم أمره بأن يرحل إلى بيته دون رجعة .

وفي سرعة كبيرة ابتعد « جود » عن صاحب الأرض وأخذ يسير في أحد الطرق التي تخترق الحقل وهو يبكي . لم يكن بكأوه مجرد شعوره بالآلم ، وإن كان ألمه مبرحا ، كما لم يكن بكأوه لإدراكه ما في المجتمع البشري من عيوب ، ذلك المجتمع الذي يرى أن ما يصلح للطيور لا يصلح للإنسان ، بينما الطير والإنسان من مخلوقات الله . لكن بكأه كان لشعوره بأنه امتن نفسه وأصاب كرامته بالخزي ولم يمس عليه في تلك الناحية سوى عام واحد ، وعلى ذلك فن المحتمل أن يصبح حالة على عنته وعيبا ثقيل عليها مدى حياته .

لم يرد أن يظهر في القربة أمام الناس وهو على هذه الصورة الفكرية المضطربة  
ففضل أن يعود إلى حيث يقيم مخترقا طريقا جانبيا يمر خلف سياج عال ، ويحترق  
برية مغطاة بالكألا وهنا رأى عشرات من حشرات الأرض تتلوى على سطح التربة  
الرطب كما هي عاداتها في مثل هذا الجو في ذلك الوقت من العام . لم يكن من السهل  
عليه أن يسير قدما دون أن يسحق بقدميه بعضاً منها في كل خطوة يخطوها .

وإن كان « جود » قد عانى كثيراً من تعذيب « تراوتام » له ، إلا أنه كان غلاما  
لا يقوى على الإساءة إلى أى شيء . فسا من مرة جلب إلى البيت معه عشا من  
العصافير إلا وبات في فراشه ساهراً . وكثيراً ما يعود بالعش ومابه من مخلوقات  
صغيرة عاجزة إلى المكان الذي انتزعه منه . وقلما كان يقوى على مشاهدة الأشجار  
وهي تقطع من مكانها فكان يحس أنها تتألم ، كما أن تشذيب أغصانها في المراحل  
المتقدمة من عمرها عندما تكون جذوعها مترعة بالعصارة فتفيض منها ، كان دائماً  
مصدر حزن له في طفولته الباكورة . هذا الضعف في شخصيته ، كما يحاول البعض أن  
يسميه ، يدل على أنه من الأشخاص الذين خلقوا ليتألموا كثيراً قبل أن يسدل  
الستار الأخير على حياة لا نفع فيها ولا ضرر . الآن هو أفاق لنفسه فأخذ يسير  
يحذر على أطراف قدميه وسط الحشرات المنتشرة أمامه دون أن يثأ واحدة منها .

وعندما دخل إلى الكوخ وجد العجوز تبيع رغيفاً لصبية . وعندما ذهبت  
الصبية إلى حال سبيلها قالت العمة : « لم عدت الآن في هذه الساعة المبكرة ؟ » .

— « فصلت من العمل » .

— « ماذا تقول ؟ »

— « طردنى السيد « تراوتام » لأننى سمحت للغربان أن تأكل قليلاً من

حبوبه ، وها هو ما تبقى لى من أجر وهو آخر ما لى عنده ! »

وبحركة مسرحية ألقى بقطعة النقود على المائدة .

قالت العمة وهى تحبس أنفاسها : « آه . . . »



ثم انطلقت تلقى عليه محاضرة في أن حملة سينو به طيلة الشهور التالية وهو عاطل لا يفعل شيئاً وتقول :

— « إذا كنت لا تستطيع أن تطرد الطيور من الحقل فما الذي يمكنك أن تفعله ؟ والآن لا تنظر إلى هكذا أيها الغلام المدلل إن المزارع « تراوتام » لا يفضلني كثيراً وعليك أن تدرك ذلك جيداً ولكن الأمر كما قال أيوب : « وأما الآن فقد ضحكك على أصاغري أياماً ، الذين كنت استنكف أن أجعل آباءهم كلاب غنمى . »

كان أبوه على كل حال أجيراً عند أبي ، وكان جنوناً منى أن أدعك تذهب إليه لتعمل عنده ، وما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك ، بل كان يجدر بي أن أنأى بك عن هذا المصير . كانت العجوز غاضبة على « جود » لا لأنه أهمل واجبه فحسب ، بل لأنه عرض كرامتها للهانة بذمها به إليه . لقد سلقته بالسنة حداد لهذا السبب بالذات وهو الأصل ، أما العامل الأخلاقى فيأتى بعد ذلك

— « ما كان ينبغي لك أن تدع الطيور تأكل نبات المزارع « تراوتام » . لا شك أنك مخطئ في ذلك . « جود » ، « جود » ، لم لم ترحل من هنا في صحبة صديقك المعلم إلى « كرايستمينيستر » أو إلى أى مكان آخر ؟ ولكن لا أيها الطفل المسكين فما حدث قط أن وجد في أسرتك شخص طفيلي ولن يوجد واحد من هذا النوع قط ١ . »

وبعد أن ظل الغلام صامتا قليلاً يفكر قال : وأين توجد هذه المدينة الجميلة يا عمى ؟ هذا المكان الذى ذهب إليه السيد « فيلوتسون » ؟ .

يا لله ١ . يجدر بك أن تعرف أين توجد مدينة « كرايستمينيستر » . إنها تقع على مسيرة بضعة أميال من هذا المكان . وهى بقعة لن تحلم بالذهاب إليها لأنها تفوق كل ما تقدر عليه أيها المسكين . هذا هو رأي .

— وهل سيقى السيد « فيلوتسون » هناك بصفة دائمة ؟ .

— وكيف لي أن أعرف ذلك ؟ .

— ألا أستطيع أن أذهب إلى هناك لأراه ؟ .

لا ، أبداً ! كإنى بك لم تعش وتكبر في هذا المكان ، وإلا ما سألت سؤالاً كهذا . لم يكن لنا صلة قط بالقوم في « كرايستمينيسترس » ، كما لم يكن للقوم هناك صلة بنا هنا .

وخرج من البيت وقد زاد ما في نفسه من شعور بأن وجوده أمر غير مرغوب فيه . وفاق شعوره هذا ما كان يحس به في الماضي من شعور مماثل ، فاضطجع على ظهره فوق كومة من القش بالقرب من حظيرة الخنازير وكان الضباب في تلك اللحظة قد خفت كثافته حتى بانّت معالم الشمس من ثناياه . وفوق وجهه جذب قبعته المصنوعة من القش وأخذ ينظر من خلال فرجاتها الضيقة ويتأمل في أشعة الشمس اللامعة وهي تتكسر في ثنايا الضباب . لقد اكتشف أنه كلما تقدمت به السن زادت مسؤولياته ، وأن الحوادث لا تسير وفقاً لما توقعه . أدرك أن الطبيعة بمنطقها في تناول الأمور بغيضة إلى نفسه بغضا يجعله يسقطها من حسابه وأن فكرة الرحمة بنوع من الخلاق عن طريق القسوة على نوع آخر منها قد ملأت نفسه اشمزازاً وأخالت بروح التناقض والانسجام عنده . وكلما كبرت بك السن ، وشعرت بأنك في المركز من عمرك ولم تعد نقطة من محيطها كما كنت تشعر وأنت لم تزل بعد طفلاً ، تملكك رعشة ، كما شاهد لدى نفسه في تلك اللحظة . كل ما حوله يظهر أمامه كأنه براق متعب وزاه مجلجل وبرزت الأصوات والأضواء كأنها تضرب هذا المحبس الانفرادي الصغير المسمى بالحياة وتمز كيانه هذا عنيفا وتثنيه ثنياً .

ليته يستطيع فقط أن يحول بين نفسه وبين التقدم في السن ! ليته يستطيع . فهو لا يريد أن يكبر حتى يصبح رجلاً .

وكأى غلام آخر . بدأ ينسى ما هو فيه من تعاسة وما يحس به من هزيمة

وأستسلام فقفز واقفاً . أخذ يعاون عمته بقية الصباح . وفي المساء ، عند ما لم يعد ثمة ما يعمله ، ذهب إلى القرية حيث سأل أحد المارة عن الطريق المؤدى إلى « كرايستمينيستر » .

« كرايستمينيستر » ، أوه ، حسناً . إنها تقع بعيدة هناك وإن كنت لم أذهب إليها قط . لا ، لست أنا الذى أذهب إلى « كرايستمينيستر » . ما حدث أن كان لدى ما أفعله فى مكان كهذا .

لقد أشار الرجل إلى اتجاه شمالى شرقى ، وكان هذا هو نفس الاتجاه الذى يقع فيه الحقل حيث لحقت « جود » المبهمة وأصابته الذلة فى ذلك الصباح ، فأحس بالضيق لهذه المصادفة ، حيث إن خوفه مما وقع له فى ذلك الحقل زاد من رغبته فى الاستزادة من المعلومات المتعلقة بهذه المدينة .

لقد أخبره المزارع من قبل بأنه لا يريد أن يراه فى حقله مرة أخرى . إلا أن « كرايستمينيستر » تقع عبر هذا الحقل والطريق الذى يخترقه ليصل إليها طريق عام وعلى ذلك خرج من القرية فى هدوء ، ونزل إلى المنخفض نفسه الذى كان مسرعا لعقابه وشاهد إذلاله فى ذلك الصباح . سار فى طريقه لا يلقى على شيء وأخذ ينقل قدميه فى صعوبة وسط الممر الطويل الصاعد على الجانب الآخر من التل إلى نقطة يلتقى عندها هذا الممر بالطريق العام . كانت هذه النقطة مجموعة صغيرة من الأشجار تنتهى عندها الأرض المفاجئة ، ولم يبق أمامه سوى برية كثيفة مقبضة تمتد على مدى البصر .

### ( ٣ )

ما من مخلوق يرى وسط الطريق الكبير الأبيض المنبسط ، أى على كلا جانبيه وهو يمتد صعداً ويهبط تدريجياً حتى يختلط بالسماء عند خط الأفق البعيد .

وعند القمة تماماً تقطعه ممرات مغطاة بالحشائش الخضراء وتتعامد عليه . من هذه الممرات ممر « أكندل » وهو الطريق الرومانى الوحيد فى الناحية كلها . سارت

هذه الجادة القديمة تمتد أمامه وتمتد أميالا عدة ، تنثنى نحو الشرق والغرب . وإلى وقت قريب ما زال كثير من الأحياء يذكرونه ، كانت قطعان الأغنام والماشى تقطع هذه الجادة وهى فى طريقها إلى الأسواق . أما الآن فما من أحد يطردها ولذا غطاها الكلال وكستها الحشائش .

لم يسبق لغلان أن سار شمالا وابتعد كثيرا عن القرية التى أحضره إليها حال جاء به ذات مساء مظلم قبل الآن ببضعة أشهر . وحتى هذه اللحظة لم يدر بخلفه أن مثل هذه البقعة من الأرض الواسعة المنبسطة يمكن أن تمتد أسفل المرتفع الذى تربض عليه قريته ، وأن نصف الدائرة الشمالية بأكملها الواقعة بين الشرق والغرب والممتدة أربعين أو خمسين ميلا نشرت نفسها الآن أمامه وانبعث منها جو رقيق وهواء صاف لم يسبق له أن رأى مثله من قبل .

وعلى مسيرة من الطريق شاهد غلان للحجوب قديم البناء ، حائل اللون من تأثير الجو ، مبنيا من الطوب الأحمر والقرميد يطلق عليه أهل الناحية اسم « البيت الأسمر » . كان على وشك أن يمر به تاركا إياه خلفه عند ما لاحظ سلما خشبيا يتدلى من حافة السقف فوقف يتأمله ويفكر فى أنه كلما ارتفع عن سطح الأرض اتسعت أمامه دائرة الرؤية . وفوق الجزء المنحدر من السقف وقف رجلان يصاحان من ألواح القرميد فانهطف فى سيره متجها نحو البناء .

وعند ما فرغ من التطلع فى شوق إلى الرجلين ، جمع أطراف شجاعته وصعد السلم حتى أصبح بجوارهما .

— « حسنا أيها الغلام . وماذا ترمى من وراء صعودك إلى هنا ؟ » .

— « أردت فقط أن أعرف أين تقع مدينة « كرايستمينيستر » من هذا المكان » .

« كرايستمينيستر » ! إنها هناك بالقرب من ذلك المرتفع . فى مقدورك أن تراها من هنا وخاصة فى يوم رائق وما يومنا بالذى يناسب ذلك .

والتفت العامل الآخر ونظر إلى الناحية المشار إليها وبدأ عليه أنه يرحب بأية فرصة يمكن أن تخرجه من سياق عمله الرتيب وقال : « في العادة ، لا يستطيع المرء أن يراها في جو كهذا . أما الوقت الذي يمكنك أن تراها فيه فلحظة الغروب عندما تغوص الشمس في لهب متوهج وحينئذ تبدو المدينة ولا أدري كيف تبدو ، . قال الغلام في لهجة جادة : « تبدو كما أورشليم في عليائها » .

— ومع ذلك أنا ما فكرت فيها على هذه الصورة قبل الآن قط ...  
والكننى لا أستطيع أن أرى أثرا « لكرايستمينيستر » اليوم .

وشرع الغلام هو الآخر يمد بصره في اتجاه المدينة ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا فنزل من مكانه فوق البناء . وبعد أن أسقط من تفكيره « كرايستمينيستر » وموقعها --- وذلك بالنظر إلى صغر سنه وحبه للتنقل من موضع إلى آخر — سار في طريقه وهو يفتش بعينه في الجرف القريب منه عن أشياء طبيعية يمكن أن تشير انتباهه . وعندما مر بمخزن الحبوب وهو في طريق عودته إلى « ميريجرين » ، لاحظ أن السلم ما زال في مكانه وأن العاملين أنبيا عمل اليوم وذهبا من حيث أتيا .

كانت الشمس قد أشرفت على المغيب وفي السماء ضباب خفيف لم يخفف بعد وإن خف كثيرا عن ذى قبل ، إلا في المناطق المجاورة من الأرض وعلى طول مجرى النهر حيث ترتفع نسبة الرطوبة في الهواء . ومرة أخرى اتجه تفكيره إلى « كرايستمينيستر » وود أن يرى عن بعد ، ولو مرة واحدة ، هذه المدينة الجميلة التي كثيرا ما سمع عنها ، طالما أنه سار نحوها وقطع في طريقها هذه المسافة الطويلة . غير أنه حتى لو بقي هنا ، فلا شيء يضمن له أن الهواء سوف يرق ويصفو ما به من ضباب قبل مجيء الليل . ومع ذلك أحس برغبة في البقاء حيث بدأت تختفي عن نظره الرقعة الشمالية من الأرض الممتدة أمامه وهي تميل في اتجاه القرية التي لا تبعد سوى بضع مئات من الياردات .

وارتقى السلم ليلقى نظرة أخيرة على البقعة التي سبق أن حدد موقعها العاملان .

ثم صعد إلى أعلى جزء من السقف، وهو الجزء المحدودب الذى يعنو طبقة القرميد ، وقد لا يستطيع لأيام عدة قادمة أن يعثر على مكان له مميزات هذا المكان . ومن المحتمل أن تهبه المقادير طلبته فى أن يرى « كرايستمينيستر » لو أنه صلى لله مبهتلاً . يقول الناس إنك إذا صليت لله أقبلت عليك الدنيا طواعية ، حتى لو أن مثل هذا الأمر قد لا يحدث فى بعض الأحيان . لقد قرأ فى كتاب من الكتب أن رجلاً شرع يبنى كنيسة ، ولما لم يكن لديه المال اللازم لإتمامها ، خر ساجداً على ركبتيه وأخذ يصل إلى الله وهنا جاءته النقود فى البريد التالى ، ورجل آخر حاول نفس التجربة ولم يأت له المال ، ولكنّه اكتشف بعد ذلك أن السروال الذى يلبسه فى أثناء صلاته صنعه يهودى خبيث . ولم يكن هذا بالثى الذى يابط همة « جود » إذ أنه استدار على السلم وجثا على إحدى درجه مبهتلاً إلى الله كي يزول الضباب .

وبعد أن انتهى من صلاته جلس ثانية وظل ينتظر وبعد انقضاء خمس عشرة دقيقة خف الضباب وارتفع حتى خلا منه الأفق الشبان تماماً ، كما خف وارتفع فى كل مكان آخر . وقبل الغروب بربع ساعة تحركت السحب الغربية من مكانها . ولما كانت الشمس قد تعرت الآن فقد انسابت أشعتها فى خطوط واضحة تمرق من خلال طبقتين من السحب ذات الألوان الزرقاء والخضراء . وسرعان ما أدار الغلام رأسه فى الاتجاه القديم .

وفى إطار المنظر الطبيعى الممتد أمامه اجتمعت عدة دوائر من نور كانت تشبه الياقوت الأصفر . وبانصرام الدقائق زادت شفافية الهواء فتكشفت دوائر الياقوت الأصفر عن دوائر اللريح ونوافذ وأسطح المنازل مصنوعة من القرميد المصقول علاه البلل ، وغيرها من البقع المضيئة التى تشاهد فوق السلام الحلزونية والقباب والتماثيل وغيرها من المعالم التى أخذت تبرز تدريجياً من خلال الضباب .

كانت هذه « كرايستمينيستر » على التحقيق ، سواء أكانت مكشوفة المعالم أو متدثرة بغلالات رقيقة من السحب والضباب .

أخذ «جود» يحملق في المنظر أمامه بعينين مبهورتين حتى فقدت النوافذ ودورات الرياح لمعانها واختفى وهجها فجأة كأنها شموع تنطفئ ، وأصبحت المدينة الغامضة وقد دثرها الضباب . وعند ما التفت «جود» إلى الغرب وجد أن الشمس هي أيضا اختفت وتحول المنظر إلى ظلام مقبض للنفس وبدأت الأشياء القريبة منه تتشكل بأشكال المخلوقات الخرافية الغريبة وتلون بألوانها .

وفي اضطراب شديد نزل السلم وقفل عائداً إلى البيت وهو يركض في الطريق محاولاً أن يبعد عن خياله صور المردة والعفاريت والمخلوقات الأسطورية التي سمع بها وقرأ عنها . كان يدرك جيداً أن عمره لا يناسب هذه المخاوف الصبغانية ومع ذلك أحس بموجة من الفرح تغمره عند ما شاهد برج الكنييسة والأضواء المنبعثة من نوافذ الكوخ ، وإن لم يكن هو المكان الذي ولد فيه ، كما أن عمته التي تقيم فيه لم تكن لتأبه كثيراً لشخصه .

وفي داخل هذا الكوخ الذي تملكه العمة العجوز والذي جعلت منه متجراً ذا النافذة المكونة من أربعة وعشرين لوحاً زجاجياً صغيراً داخل إطار من رصاص ، بعض هذه الألواح تأكدت من طول الزمن إلى الحد الذي تصعب معه رؤية الأشياء الصغيرة الرخصة الثمن المعروضة بداخله . في داخل هذا الكوخ وفي الأماكن المحيطة به ترك «جود» كيانه الخارجى فترة طويلة من الزمن بينما نمت أحلامه حتى أصبحت ذات حجم هائل بقدر ما تضاعفت الأشياء المحيطة به .

ومن خلال الحاجز الصلد المسكون من نجاد طباشيرية باردة ، ممتدة في ارتفاع إلى الشمال كان «جود» يرى دائماً بعين خيالة مدينة رائعة الجمال تذكره بأورشليم الجديدة . كان في أحلامه هذه قدر من خيال للرسام يفوق ما يحويه خيال كاتب من كتاب سفر الرؤيا الغامضين ، ويقل عما لدى بائعي المجوهرات منه . لقد استوت المدينة في خياله كيانا محسوساً وبرزت فيه بروزاً واضحاً كما فرضت نفسها على حياته فرضاً . قد يكون مصدر كل هذا شعوره بأن الرجل الذي يهبه هو احترامه ويقدر فيه علمه وأهدافه في الحياة يعيش فعلاً في تلك المدينة حياة عادية وإن كان يختلط بعلماؤها ومفكرها .

وفي فصول المطر والرعد والشتاء المقيض لم يدر بخلده أن « كرايستمينيستر » هي الأخرى تتعرض للمثل ما تتعرض له بقية الأماكن وإن كان يعرف أن المطر ينزل هناك . وكلما استطاع أن يتخلص من أعباء العمل في القرية فترة من الزمان — وقبلما يستطيع ذلك — كان يذهب سراً إلى البناء الأسمر القائم فوق التل وبطيل النظر في صبر وعناد في اتجاه « كرايستمينيستر » فكان يوغق أحياناً إلى رؤية قبة أو منارة ، وفي أحيان أخرى يرى عاهوداً ضئيلاً من الدخان له في تقديره قدسية تشبه قدسية البخور .

ثم جاء وقت خيل إليه أنه أو صعد إلى سطح البناء عقب حلول الظلام — أو لو أنه سار قليلاً بعد هذا البناء — فلا بد أن يرى عن بعد أضواء المدينة . غير أن هذا الإجراء لا بد أن يترتب عليه أن يعود في الطريق وحيداً . حتى هذا الاعتبار لم يأنه عن عزمه فهو بلا شك بمستطيع أن يضع في نفسه قليلاً من الرجولة .

وفي اللحظة المناسبة قام بنوى تنفيذ ما عزم عليه ، ولم يكن الوقت متأخراً عند ما وصل إلى مكان المراقبة وكان ذلك عقب الغروب مباشرة . ولكن سحبا سوداء قادمة من السماء الشمالية الشرقية تصحبها رياح من نفس الجهة نشرت ألوية الظلام قبل موعدها ولكنه كوفيء على مجوده فرأى شيئاً ، لم يكن ما رآه صفوفاً من المصابيح كما توقع ، ولكنه رأى هالة من النور أوضباً متوهجاً ينتشر أمامه ويغطي السماء السوداء خافه فظهرت المدينة أمامه وكأنها لا تبعد سوى مسافة قصيرة لا تعدو ميلاً أو ميلين .

وأخذ يسائل نفسه عن المكان الذي يقيم فيه المعلم في تلك اللحظة وسط هذا الضياء المتوهج . وإنه ليتساءل عن ذلك وهو الذي يحس بحائل يحول بينه وبين التفكير في أحد من سكان « ميريجرين » وكأنه بالنسبة إليهم لا وجود له في دنيا الأحياء . خيل إليه أنه يرى « فياوتسون » وسط الضياء المتوهج يسير على مهل كصورة من بين الصور المرسومة على قاعدة تمثال « نهوخذ نصر » . لقد



ترامى إلى سمعه أن البسببات تعبر الفضاء بسرعة عشرة أميال في الساعة والآن تقفز  
الفسكرة إلى رأسه فتتهرج شفتاه عن ابتسامته وهو يدير رأسه إلى الجهة الشمالية  
الشرقية ويستنشق الهواء في حماسة كما لو كان يحب من شراب طهور .

وصاح يقول وهو يخاطب النسيم في حنان ورقة : ويحك أيها النسيم ... !  
منذ ساعة واحدة كنت في « كرايستمينيستر » تجوب طرقاتها ، وتداعب دوائر  
الرياح فيها ، وتمسح بكيناك الرقيق وجه السيد « فيلوتسون » ، وتشرب إلى  
خيائمه فيستنشقك دون أن يدري ، وها أنت الآن في هذا المكان أستنشقك  
وأحس بك وأنت تملأ صدري ! .

ولجأة هبت على وجه « جود » ريح قادمة من بعيد وكأنها رسالة آتية من قبل  
روح من الأرواح . كانت الرسالة على صورة نغمات موسيقية تعكس رنين أجراس  
تعلن للدنيا : « نحن هنا في سعادة كاملة ! » .

وفي أثناء هذه الیقظة العقلية أصبح لا يعي شيئاً عن وجوده المادى ، ولم ينهه  
إلى هذا الوجود سوى قطيع من الخيول في أسفل التل الذى يقف فوقه . وظهر  
أفراد هذا القطيع في مكانهم هذا بعد مسيرة نصف ساعة في طريق متعرج صاعد  
من بطن منخفض هائل . كانت الخيول محملة بالهجم وهى عادة تأتى إلى هذا المكان  
المرتفع سائرة في الطريق الذى تسلكه الآن وهى تجر وراءها عربة يسير بجوارها  
حامل ومساعدته وغلام صغير . أخذ الغلام يضع قطعة كبيرة من الحجارة خلف  
إحدى العجلات ليحول دون اندفاع العربة إلى الخلف وليسمح للخيول المتعبة  
اللاهثة بلحظة من الراحة ، بينما تناول الحمال ومساعدته من فوق الحمل قنينة شراب  
أخذوا يصبان منها ويشربان . كان الرجلان متقدمين في السن ، وكان صوتاهما  
يدخلان البشر على نفس حائرة وحيدة كمنفس « جود » فأقبل عليهما وسألها إذا  
ما كانا قادمين من « كرايستمينيستر » . أجاب الرجلان : حاشا لله ! كيف نأتى  
ومعنا هذا الحمل الثقيل ؟ .

— إن المكان الذى أسألكما عنه هو تلك البقعة هناك . لقد أصبح « جود »

الآن مرتبطاً « بكر ايستمينيستر » ارتباطاً عاطفياً حتى أصبح الخجل يعقد لسانه  
عند ما يذكر اسم ذلك المكان كما لو كان عاشقاً يكتبني بالتمنيح دون التصريح عند ما  
يتحدث عن محبوبته . كان في حديثه معهم ما يشير إلى مصدر الضوء في السماء بينما  
لا تلاحظ عيونهما الكليّة شيئاً مما يشير إليه .

قال أحد الرجلين . « حقا أكاد أرى بقعة بعيدة تقع إلى الشمال الشرق من السماء  
وهي تفوق غيرها لمعانا . يوسفى أننى لم ألاحظها قبل الآن . لا بد أن تكون هذه  
البقعة هي « كرايستمينيستر » . في تلك اللحظة سقط من « جود » كتاب صغير كان  
قد أحضره ليتسلى بقراءته وهو في طريقه الى هذا المكان . وعند ما انحنى على  
الأرض ليلتقط الكتاب ، رمقه الحمال بنظرة فاحصة وهو يقول . « واه لك أيها  
الشاب لا بد لك من أن تعمل على إعادة بناء عقلك وتنظيم تفكيرك قبل أن تصبح  
قادرا على قراءة ما يقرأون هناك . »

قال الغلام ، « وكيف ذلك ؟ »

وشرح الحمال يتكلم وكان كلامه من قبيل التسلل بالحديث . « إنهم لا يهتمون  
هناك بما نهتم به نحن معشر العاديين من الناس . إنهم لا يتحدثون سوى اللغات  
الغريبة عنا كما لو كانوا يعيشون في عهد برج بابل عند ما كانت كل جماعة تتكلم لغة  
تختلف عن لغة الجماعة الأخرى . إنهم يقرءون ما يقرءون بنفس السرعة التي تطير  
بها الصقور الليلية وتحوم في السماء . جميع أوقاتهم مخصصة للدراسة ، وما من شيء  
سوى الدراسة والتأمل في أمور الدين ، وهذا أيضا في حد ذاته دراسة ، فأنا  
لا أستطيع أن أفهم أبدا موضوعات الدين . نعم إنه مكان كل ما فيه جد في جد .  
ومع ذلك فالطرق لا تخلو من قطط الليل . ألا تدري أن القوم في تلك المدينة  
يصنعون القوس بنفس السهولة التي يزرعون بها رؤوس الفجل ؟ ومع ذلك فاعداد  
قوس واحد يحتاج إلى وقت — كم من السنوات يا د بوب ، ؟ . هل تكفي خمس  
سنوات لتحويل الجلف المزارع الثرائر إلى واعظ جاد رصين يخاف من الانحراف  
العاطفي ؟ لو كان في الإمكان فعل هذا فالقوم هناك يفعلونه ، ويفعلونه بمهارة تضاهي

مهاراة الصناع الحاذقين فهم يصنعون من الأشخاص العاديين قسيسين لهم لحى طويلة ويرتدون أردية سوداء فمخفاضة وصدریات وقبعات وباقات بيضاء وهى نفس الملابس التى جاء ذكرها فى الكتاب المقدس . وكل من يرتدى هذه الملابس يتغير شكله حتى يتعذر على أمه فى بعض الأحيان أن تتعرف عليه . هذا هو عملهم هناك ، وهذه صنعتهم .

— « ولكن ، كيف عرفت أن ... »

— « لا تقاطعنى يا ولدى ، لا تقاطع من هم أكبر منك سناً . ادفع الحصان الأمامى جانباً يا « بوب » ، حتى ينفصح الطريق أمام القادم . اعلم أننى مشغول الآن بالحديث عن الحياة فى الجامعة ، وأنها حياة رفيعة المستوى ولا يمكن لأحد أن ينكر ذلك وإن كنت أنا نفسى لا أهتم كثيراً بأولئك الذين يعيشون فى ذلك المكان . وكما أننا نقف هنا الآن بأجسامنا الضعيفة على هذه الهضبة ، كذلك هم يقفون هناك بعقولهم الجبارة ولا شك أن البعض منهم يستطيع أن يكسب الكثير من المال عن طريق الكتابة . بعضهم قوى البنية صغير السن يستطيع أن يربح الكثير عن طريق التفوق فى المباريات الرياضية . أما عن الموسيقى ، فهناك موسيقى رائعة تملأ كل مكان فى « كرايستمينيستر » والمرء قد يكون متديناً وقد لا يكون كذلك ، ولكنه لا بد أن يشترك مع الآخرين ليجرد أن يسمعهم ينشدون أناشيدهم الدينية . وفى المدينة طريق ضخم هائل وهو الطريق الرئيسى فيها وليس فى العالم طريق آخر يشبهه . هذا ما أعرفه عن « كرايستمينيستر » وإنه لشيء يسير .

عند هذه اللحظة كانت الخيول قد استراحت وعادت إلى حالتها الطبيعية . وبعد أن ألقى « جود » على الضوء البعيد نظرة أخيرة ، استدار على عقبيه وسار بجوار رفيقه العليم بيواطن الأمور والمستعد دائماً لأن يزوده أثناء المسير بقدر أكبر من المعلومات عن المدينة وأبراجها وقاعاتها وكنائسها ومحافلها الزاخرة . وعند ما وصلت العربة إلى نقطة تفرق عندها الطارق ، شكر « جود » صاحبها فى حرارة على ما زوده به من معلومات قيمة وأخبره أنه يود لو استطاع أن يتحدث عن « كرايستمينيستر » بتمام البراعة وذلك الذكاء .

قال الحمال في تواضع : هذا كل ما أمكننى أن أحصل عليه من معلومات خلال تجوالى في هذه المنطقة . لم يسبق لى أن ذهبت إلى هناك غير أننى جمعت معلوماتى من هنا . ومن هناك وكلها رهن إشارتك . إن رجلا مثلى يتجول كثيرا ويتخاطب بالناس من شتى الطبقات ، لا بد أن يكون على علم بالكثير من الأمور . زد على ذلك أنه كان لى صديق يقوم بتنظيف أحذية النزلاء فى فندق « كرويتزر » فى « كرايستميديستر » . هذا الصديق كان لى بمنزلة الأخ طيلة السنوات الأخيرة .

واستمر « جود » يسير وحيدا فى اتجاه بيته وكان غارقا فى التفكير فلم يشعر بالخوف ولجأة أحس بأن سننى حياته زادت سنوات إذ كانت أهنيته الكبرى أن يعثر على شىء يتشبث به ويلقى عليه أنقال همومه ، كان حلم حياته أن يجد مكانا يستحوذ على إعجابه الكامل فهل تكون تلك المدينة هى ضالته وهل يجد فيها ما يهوى لو ذهب إليها ؟ أتكون تلك المدينة هى المكان الذى يود أن يستقر فيه ليرقب ما يدور بين جوانبه من أعمال تخلب ليه ؟ أيمكن له أن يبقى هناك ويتخذ لنفسه مهنة نبيلة فيصبح كأحد شخصيات التاريخ التى قرأ عنها دون أن يخاف الزاوية ودون أن يلقى العقبات التى قد يضعها فى طريقه الأوغاد والسفلة ؟ وبقدر ما كانت هالة النور المنبعث من المدينة قبلة عينيه وهو يحماق فيها ، بقدر ما أضحت المدينة ذاتها قبلة عقله وموضع تفكيره الآن وهو يتلمس طريقه فى الظلام .

قال يحادث نفسه : « يالها من مدينة كلها ضياء » . وأضاف أيضا يقول بعد أن قطع بضعة خطوات فى الطريق الطويل : « فى مثل هذه المدينة تنمو بذور المعرفة وترعرع شجرة وارفة الظلال » .

« يالها من بقعة يتسكون فيها معلو الرجال وتجمع عواكبهم . »

« إنها قلعة كبيرة جنودها من رجال العلم والدين » .

وبعد أن هدأت هذه الأفكار واستقرت فى خياله خيم عليه السكون فترة من الزمان أخذ يقول : « حقا . يالها من بقعة من بقاع الدنيا أجد فيها ضالتي وهى تلائمنى تمام الملاءمة » .

## ( ٤ )

سار الغلام في ط يمه ثقيل الخطى تائه الفسك ممتزقا في تفكير عميق . بعض هذا التفكير ما كان ليصدر إلا عن مجوز مجرب ، وبعضه الآخر يتسم بطابع البساطة والسذاجة اللتين يتسم بهما تفكير من هم أصغر منه سناً . في تلك الأثناء أدركه عابر سبيل سريع الخطو يضع على رأسه قبعة واسعة ومثيرة ذات ذيل طويل مستدق وساعة تتدلى منها سلسلة تهتز اهتزازاً عنيفاً وتصدر عنها ومضات سريعة كلما سار صاحبها متبخرأ في مشيته . كان هذا العابر يسير على سائتين رفيفتين فيهما حذاء خفيف . ولما كان « جود » قد بدأ يشعر بالوحدة أثناء سيره حاول أن يلحق به وفاتحه الحديث .

— حسناً أيها الشاب . إنني أفي عجلة ولا بد لك من أن تسير أسرع من ذلك لو أردت أن تجاريني في مشيتي . أتعلم من أكون ؟

— « نعم أظن ذلك ، أنت الطبيب « فيلبرت » .

— « عجباً . أمروف أنا إلى هذه الدرجة في كل مكان ؟ نعم . هذا ناشىء عن كونى شخصية عامة محبة للخير » .

كان « فيلبرت » من أدياء الطب الجوالين يعرف جيداً العامة من الريفيين ، بينما لا يعرفه أحد خارج نطاقهم وهو يتعمد ذلك كي يتجاشى الأبحاث عن حقيقة أنه . كان مرضاه جميعاً من سكان الأكواخ وكانت شهرته الواسعة في أنحاء وسكس قائمة على هؤلاء المرضى وحدهم . وكانت مكانته في عالم الطب أضعف من مكانة غيره من أدياء هذه المهنة الأثرياء الذين يعتمدون في عملهم على نظام دقيق للإعلان ، فهو بقية باقية من أدياء الطب القدماء . كانت المسافات التي يقطعها على قدميه هائلة فهي تشمل إقليم « وسكس » كله تقريباً . وفي يوم من الأيام شاهده « جود » يبيع لعجوز من عجائز القرى القريبة قذينة بها دهن الخنزير كعلاج لساقها المريضة وذلك في مقابل جنيهه تؤديه له على أقساط صغيرة تدفعه كل أسبوعين كثمان لهذا العقار

العجيب . المستخرج ، حسب قوله ، من حيوان نادر الوجود يعيش في جبل سينا ويتطلب صيده جهداً جهيداً ومغامرات قد تودي بحياة من يتعرض لها . ووجوده ، على رغم عدم اطمئنانه للأدوية التي يصنعها هذا الطبيب ويقدمها للناس ، أحس أنه لا بد أن يكون شخصاً أفاد كثيراً من تجواله وتعدد أسفاره ، كما لا بد أن يكون مصدراً لا يرق إليه الشك من مصادر المعلومات التي لا تمت بصلة للهبة نفسها .

— « أعتقد أنك لا بد أن تكون قد ذهبت يوماً إلى « كرايستمينستر » أيها الطبيب ؟ »

أجاب الرجل الطويل النحيل : نعم ذهبت إلى هناك مرات عديدة ، « فكرايستمينستر » هي أحد الأماكن التي أتردد عليها .

— إنها مدينة رائعة لكل من يطلب العلم أو الدين . أليس كذلك ؟

— في مقدورك أن تقول ذلك يا ولدى ، وهذا إذا كنت قد رأيتها . عجباً ، إن أولاد العائلات العجائز اللاتي يفسدن الثياب ويعملن في المكاتب يستطعن التحدث باللاتينية ! حقيقة إنهم لا يتحدثون اللاتينية الصحيحة بل لاتينية ركيكة تعودنا أن نسمعها أيام التلذذ وكنا نسميها حينئذ لاتينية الكلاب والقطط .

— وهل يتحدث القوم هناك اللغة اليونانية ؟

— على أي حال تدرس اليونانية لطلاب اللاهوت الذين يعدون لأن يكونوا أساقفة أو مطارنة ، وذلك حتى يتمكنوا من قراءة العهد الجديد في لغته الأصلية .

— تتوق نفسي إلى تعلم اللاتينية واليونانية .

— أمنية نبيلة . ولكنك لو أردت ذلك فلا بد من أن تقرأ كتابين في القواعد اللغوية الخاصة بهما .

— في نيتي أن أذهب إلى « كرايستمينستر » في يوم من الأيام .

— وعندما تقرر ذلك لا بد أن تقول لكل من سيقابله هناك إن الطبيب « فيلبرت » هو صاحب الدواء الشهير الذي يشفى المصابين وبقية أجزاء الجهاز الهضمي شفاء مؤكداً من كافة الأمراض . كما يشفى أمراض أخرى كالربو وضيق التنفس ، وثمن العلبة منه شلنان ونصف ، وقد أجازت الحكومة بيعه .

— وهل تستطيع أيها الطبيب أن تزودني بكتابي قواعد هاتين اللغتين إذا وعدتك بأن أنشر هذا الذي تقول على كل من يسكن في هذه النواحي ؟

— إنني على استعداد لأن أبيعك كتيبي التي كنت أستخدمها أيام الدراسة .

— شكراً لك يا سيدي شكراً جزيلاً . قال « جود » ذلك بلهجة العارف بالجميل ، المقدر للإحسان ، ولكنه قالها وهو يلهث إذ أن السرعة الهائلة التي كان يسير بها الطبيب جعلت « جود » يقفز بجواره كالكلب كما سميت له ألماً في جنبه .

— من الأفضل لك أيها الشاب ألا تتبعني أكثر من ذلك . والآن سأقول لك عما سوف أفعله . سأزودك بكتابي القواعد وسأعطيك دروساً مبدئية شريطة أن توصي كل من سيقابله في القرية بأن يستعمل المرهم الذهبي للدكتور « فيلبرت » كما يستعمل حبوب الحياة وأقراص النساء .

— وأين أقابلك لأتسلم منك كتيابي القواعد ؟

— بعد أسبوعين من الآن سأمر بهذا المكان في الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة . إن حركاتي المشبهة في دقتها بحركات الكواكب في أفلاكها .

قال « جود » : سوف أقابلك في نفس هذا المكان وفي نفس هذا الوقت .

— أحضر معك بعض الطلبات لشراء أدويتي .

— نعم أيها الطبيب ، سأفعل ذلك .

هناك توقف « جود » عن السير بجوار الطبيب وانتظر بضع دقائق حتى

يستعيد أنفاسه اللاهثة ثم عاد إلى بيته يخالجه شعور بأنه أنجز عملا هاما لا بد أن يقربه من « كرايستمينستر » .

وفي الأسبوعين التاليين أخذ « جود » يتجول في المنطقة وعلى فمه ابتسامة تدل على ما يجول في داخل نفسه من أفكار كانت بالنسبة إليه كأنها أشخاص تعترض طريقه وتومئ إليه برؤوسها . كان يبتسم وعلى وجهه ذلك الإشعاع الفريد في جماله الذي كثيراً ما يفرد الوجوه الشابة عند ميلاد إحدى الأفكار الرائعة كأن مصباحا علويا أخذ يضيء داخل نفوسهم الشفافة ويوحى بأن السماء أصبحت قريبة منهم .

وفي أمانة وإخلاص وفي « جود » بوعدة للطبيب الذي أصبح الآن موضع ثقته الزائدة وتقديره العظيم ، فأخذ « جود » يحبب القرى القريبة سيرا على الأقدام يدعو له قبل مجيئه . وفي المساء المتفتق عليه وقف « جود » ينتظره على الهضبة في نفس المكان الذي اغترقا عنده وكان في وقفته لا يبدى حراكا .

وفي الموعد المحدد جاء المتجول وأصبح على قيد أنملة منه . وعندما سار وجوده إلى جواره ظل الطبيب يسير بنفس الخطوات السريعة دون أن يبطله قليلا ، وخبل إلى « جود » لدهشته أنه لا يعرف صديقه الصغير ، وإن كان مرور الأيام الأربعة عشر قد زاد في طول النهار وجعل الأمسيات تبدو أكثر ضياء . خبل إليه أن السبب في أن الطبيب لم يتعرفه يعود إلى أنه يرتدى قبعة جديدة . وأخيراً حيا « جود » الطبيب الذي قال وهو يتطلع بعينيه إلى الآمام : نعم يا ولدي ؟ .

— لقد جئت .

— أنت ؟ ومن تكون ؟ نعم ، حقا . هل جئت ومعك طلبات للشرا ، أيها الغلام ؟ .

— نعم ، وأخبره « جود » بالأسماء وعناوين القرويين الذين رغبوا في أن يجربوا حبوب الطبيب وعقاره ذا الشهرة الواسعة ، وفي عناية كبيرة استودع الطبيب هذد الأسماء مفكرته

وارتعش صوت « جود » وهو يقول : وكتابا بالقواعد الخاصة باللغتين اليونانية واللاتينية ؟ .



— « وماذا عنهما ؟ »

— وصلت بأن تعطيني كتابيك اللذين كنت تستعملهما وأنت لم تزل طالباً صغيراً .

آه ، نعم . نعم . نسيت كل شيء عنهما . كان اهتمامي موجهاً إلى أولئك الذين يعتمدون في حياتهم على . وها أنت ترى أيها الصديق أنني لا أستطيع أن أنشغل بأشياء أخرى كما أحب وأشتهى .

وتجمل « جود » بالصبر حتى يصل إلى حقيقة أمر هذا الطبيب . وأخيراً قال في صوت يقطر حزناً : ألم تحضرهما معك ؟ .

— لا ، ولا بد أن تجيئني بطلبات أكثر من ذلك ويجب أن تكون هذه الطلبات من أناس في حاجة إلى أدويتي ، وفي المرة القادمة سأتيك بالكتبتين حسب طلبك .

وتوقف « جود » عن المسير . كان غلاماً بسيطاً ولكن نعمة البصيرة المفاجئة التي تمنحها السماء في بعض الأحيان للصغار أرتته فجأة من أي طينة رخيصة صنع منها دعوى الطلب هذا . وأدرك « جود » لتوه أن هذا الدعى لن يكون أبداً مصدر إشباع عقلي . وعند ما تساقطت الأوراق عن تاج الغار الذي صنعه في خياله لهذا الرجل انتحى ناحية من الطريق واتسكأ على إحدى البوابات وأخذ يبكي بكاء مراراً .

وأعقب الشعور بخيبة الأمل فترة همدت فيها نفسه وركد تفكيره . كان من الميسور له أن يحصل على كتب القواعد من « الفردستون » غير أن هذا كان لا بد أن يتطلب منه مالا كثيراً ومعرفة بالكتب ، وهو وإن كان لا ينقصه شيء من ضروريات الحياة إلا أنه لم يكن يملك مالا خاصاً يستخدمه في قضاء حاجياته . في ذلك الوقت أرسل السيد « فياوتسون » يطلب البيانو فأوحت هذه المناسبة له بفكرة : لم لا يكتب للدلم راجياً إياه أن يتفضل في إرسال كتب القواعد هذه

من « كرايستمينستر » ؟ لم لا يضح خفية للعلم خطابا داخل البيانو ؟ لم لا يطلب منه أن يرسل إليه نسفا قديمة مستعملة عليها سحر الجو الجامعي ؟ إنه لو أخبر عتمته بنيتة هذه فقد يعرض الموضوع كله للضياع ، لذا كان من الواجب عليه أن يعمل بمفرده ولا يخبر إنسانا بما ينوى أن يفعله .

وبعد أن فكر في الأمر بضعة أيام أخرى شرع يعمل . وفي اليوم المقرر انقل البيانو وضع الخطاب سرا داخل الصندوق الخشبي للعزف وكتب عليه اسم صديقه وموضع إعجابه . وخشى أن يكشف اعتمته « دروزيلا » عن سره الدفين لئلا تدرك الدافع له فترغمه على أن يتخلى عن مشروعه . أخيرا أرسل البيانو إلى صاحبه وبقى « جود » ينتظر على أحر من الجمر ، وظل يتردد على مكتب البريد كل صباح قبل استيقاظ عتمته . بعد ذلك وصلت إلى القرية ربطة صغيرة ، وعند ما نظر إلى جوانبها وجد أنها تحوى كتابين صغيرين ، فأخذ الربطة إلى مكان بعيد وجلس على جذع شجرة وشرع يفتحهما ليعرف ما بداخلها .

ومنذ اللحظة الأولى التي أحس فيها بالنشوة التي تصاحب تفكيره ، كلما فكر في « كرايستمينستر » وما يتصل بها من أحلام وأمال ، ظل يقترح زناد فكره في صبر وجلد كي يصل إلى معرفة كنه الطريقة المؤدية إلى نقل أصول لغة من اللغات إلى لغة أخرى . وأنتهى به التفكير إلى أن القواعد الخاصة باللغة الأجنبية لا بد أن تتضمن في المقام الأول قانونا ، أو نظاما ، أو مجموعة دلالات لها طبيعة التعبير الرمزي التي لو توصل إلى معرفتها مرة لاستطاع بمجرد تطبيقها أن يحول حسب هواه كل كلمة في حديثه إلى ما يقابلها في اللغة الأجنبية . إن فكرته الفجة هذه كانت في الواقع خطوة نحو الدقة الرياضية المعروفة في كل مكان باسم قانون « جريم » ، وهي لا تعدو أن تكون صورة مبالغ فيها للقوانين البدائية حتى لا تبدو في مظاهر الكمال المثالي .

وهكذا افترض أن كلمات اللغة الأجنبية لا بد أن توجد دون استثناء فتخفيه

تمت كلمات لغة الفرد ، وإن يستطيع أن يكشف سرها سوى أولئك الذين  
يملكون ناصية هذا الفن . وهذا الفن تضمنه الكتابان سابقا الذكر .

وعندما لاحظ أن الرابطة تحمل طابع « كرايستمينيستر » شرع في تمزيق  
أربطتها ، ثم فتحها وتناول كتاب القواعد اللاتينية وكان في الصدر مباشرة عند  
ذلك كاد لا يصدق عينيه .

كان الكتاب قديما لا يقل عمره عن ثلاثين عاما امتلأت صفحاته بالبقع  
وبكتابات لا معنى لها وبحروف لا تمت بصلة لحروف المطبعة ، كما اكتست  
جوانبه بتواريخ تعود إلى عشرين عاما مضت ، غير أن هذا الأمر لم يكن هو  
السبب الذي من أجله عثرته الدهشة إذ أنه أدرك لأول مرة في حياته حقيقة معينة  
هي أنه لا قانون للنقل من لغة إلى لغة كما سبق أن أوحى له سذاجته ، بل إن كل كلمة  
في كل من اللغتين اللاتينية واليونانية لا بد أن تعيها ذاكرته ، وإن يتم ذلك إلا بعد  
عناء السنين .

أتى بالكتابين جانبا ، ثم اضطجع على جذع الشجرة ، وفي هذه الأثناء  
تحول إلى إنسان تملكته التعاسة . وكما تعود أن يفعل في مثل هذه المواقف ،  
جذب قبعته على وجهه وأخذ يرقب الشمس بينما أشعتها تنسلل إليه خلال فرجاتها  
الضيقة : إذن هذه هي اللغة اللاتينية . وهذه هي اللغة اليونانية . يا للخدعة الكبرى .  
إن السحر الذي توقع أن يجده بمجرد وصول هذين الكتابين أصبح بالنسبة إليه  
عناء بعناء بني إسرائيل في أرض مصر .

أي عقول تلك التي تحتويها رموس الناس في « كرايستمينيستر » وفي معاهدها  
العظيمة فيحفظون عن ظهر قلب كلمات لا عد لها ولا حصر ! إنه لا يملك عقلا  
كمذه العقول حتى يستطيع أن يضطلع بهذه المهمة الشاقة . وبينما أخذت الأشعة  
الضعيفة للشمس الغاربة تنسلل إليه من خلال فرجات قبعته ، تمنى لو أنه لم يرب  
كتابا ، وتمنى ألا يرى كتابا آخر ، كما تمنى لو أنه لم يولد إلى هذه الحياة . كان من

الممكن أن يمر به عابر سبيل فيسأله عن خطبه ومن ثم يحذره بأن أفكاره أكثر تقدماً من أفكار واضعي تلك الكتب ، وبذلك ينزل كلامه على نفسه برداً وسلاماً ، غير أنه لم يقترب منه أحد ، ففي تلك اللحظة لا يفعل أحد ذلك عادة . وبينما هو على هذه الحال يعاني من وطأة إدراكه للخطأ الهائل الذي وقع فيه ، أخذ يتمنى من صميم قواذه لو أنه يستطيع أن يعرف من هذا العالم المكتئب .

### ( ٥ )

وخلال الأعوام الثلاثة أو الأربعة التي تلت ، كان الناس في تلك النواحي يرون عربية قديمة غريبة تسير في الأزقة الضيقة والممرات الجانبية الواقعة قريباً من « ميرجرين » بطريقة غير مألوفة .

فبعد شهر أو شهرين من تسلبه الكتابين استطاع أن يتغلب على ما أثاره تعلم اللغات القديمة من عقبات وأصبح قادراً على اعتياد ما يحره تعلم هذه اللغات عليه من مشاق . والواقع أن خيبة الأمل التي أحس بها في مطلع الأمر إزاء محاولاته لتفهم طبيعة اللغات القديمة تحولت بعد فترة وجيزة إلى أن تكون وسيلة من الوسائل التي لجأ إليها لتعظيم رسالة « كرايستمينيستر » في نظره . وإن تعلم اللغات ، سواء كانت لغات قديمة أو حديثة ، رغم كل الحوائل والعقبات التي أصبح الآن يحس بها في نفسه والتي أصبحت تحول بينه وبين تعلمها ، كان بالنسبة إليه عملاً بطولياً وهو لذلك ازداد حباً لهذه اللغات حتى فاق حبه لها حبه لطريقة تعلمها . إن المادة التي تحاكي الجبل في ضخامتها والتي تتضمن الأفكار التي تضمنها بطون هذه المتون المغطاة بطبقات من التراب والمسماة بعيون الآداب القديمة ، كانت بالنسبة إليه حافزاً على العمل الدائب والجهد الصابر لاستيعابها وتمثل جوانبها كلها .

لقد بذل من نفسه الشيء الكثير حتى يجعل من حياته مع عمته العجوز العانس شيئاً مفيداً لها وذلك بمعاونتها بكل ما يستطيع من قوة ، فبما الخبز الصغير واتسعت أعماله نتيجة لهذه الجهود مما جعل العمة تشتري في مزاد حصاناً كبير السن متدلى الرأس بمبلغ ثمانية جنيهات ، كما اشترت بجنهيات قليلة عربية متداعية يسمع لعجلاتها

عند السير صرير وكان فوقها خيمة حائلة اللون وكان على « جود » أن يخرج بعربة الخبز ثلاث مرات أسبوعيا فيمر على أصحاب الأكواخ والسكان الذين يعيشون حول « ميريجرين » في عزلة عن الناس .

أما الغرابة التي نوهنا عنها سابقاً فكانت تكمن في المقام الأول في الطريقة التي يسوق بها « جود » العربة أكثر مما تكمن في العربة نفسها . لقد حول « جود » الجزء الداخلي من العربة إلى مكان للذاكرة يزاوّل فيه الجزء الأكبر من عملية تربية ذاته وتعليمها . وبمجرد أن عرف الحصان معالم الطريق وتعلم مواقع البيوت التي لا بد من أن يتوقف عندها لحظة ، كان « جود » يترك العنان معلقاً بذراعه ثم يفتح الكتاب بطريقة بارعة مستخدماً في ذلك قطعة من الجلد مدلاة من الخيمة المنصوبة فوق العربة كما يضع على ركبته معجماً للكلمات الصعبة ومن ثم ينهمك في قراءة مقطوعات بادئاً بأسهلها « لقيصر » و « فرجيل » و « هوراس » حسب الحال ، متبعاً في دراساته طريقة بدائية تستغرق منه وقتاً وجهداً كبيرين وتجعل قلب رجل التربية ذى الشعور الرقيق يكاد ينفطر عليه حزناً وألماً . وعلى الرغم من كل ذلك كان « جود » يفهم ما يقرأ دون أن تخطئ عيناه روح الأصل الذي يقرأ له بل يستشرفها من ثنايا السطور ، وهذا في ذاته نصر كبير له . ومن الكتب التي استطاع أن يحصل عليها طبعات قديمة تحمل اسم « دلفن » . ولما كانت هذه الطبعات بطل استعمالها فقد أصبح ثمنها قليلاً وكانت لهذا السبب مناسبة له وإن لم تكن كذلك لطلاب المدارس . وهكذا استطاع هذا الطالب الوحيد المتجول ، رغم ما يعترض سبيله من صعاب ، أن يقرأ المتون الأساسية والتعليقات عليها والملاحظات التي تعاون على فهمها ، كما استطاع أن يفيد منها جميعاً في تعليم نفسه كما لو كان يفيد من معاونة زميل له أو أستاذ يمر به . وعلى الرغم من أن تلك الأساليب المرتجلة ما كانت لتصنع منه شخصاً متعمقاً في الآداب اللاتينية واليونانية إلا أنها كانت كافية لتدفعه إلى السير في الطريق الذي اختطه لنفسه .

وبينما كانت هذه الصفحات القديمة ، التي طالما عبثت بها أيدي أناس ربما أصبحوا في القبور ، تظفر باهتمامه وتملك عليه لبه ، وبينما هو يفتش في تلك

الصفحات عن نبات أفكار من كتبها ، أفكار عفا عليها الزمن ، قام الحصان الأعرج العجوز بمتابعة سيره وإنجاز جولاته . في تلك الأثناء كان توقف العربى يقطع عليه حبل تفكيره ، وكثيراً ما كان يعود إلى نفسه على صوت عجوز وهى تصيح : « أريد اليوم رغيفين أيها الخباز وأعيد رغيفاً من أمس » .

وفي أثناء مروره فى الحوارى كان كثيراً ما يمر بجمهرة من المشاة دون أن يراهم . وشيئاً فشيئاً بدأ الناس يتحدثون عن طريقة فى ربط العمل باللعب ( إذ هكذا كانوا ينظرون إلى شغفه بالقراءة ) . وهى طريقة إن كانت مقبولة لديه إلا أنها ليست مأمونة لدى أولئك المارة الذين يمشون فى نفس الطريق . وبدأ التذمر ثم أبلغ أحد سكان الأماكن المجاورة رجل الشرطة بأنه لا يجوز لصي الخباز أن يقرأ فى أثناء ركوبه العربى وأصر على أنه من واجب الشرطى أن يفاجئه متلبساً بجرمه ثم يقوده إلى المركز فى « الفردستون » كى يغرم لارتكابه أموراً خطيرة فى الطريق العام وعلى ذلك كمن له رجل الشرطة على الطريق .

وذات يوم أوقفه وحذره من نتيجة عمله . ولما كان من واجبات « جود » أن يستيقظ فى الثالثة صباحاً كى يشعل النار فى فرن الخبز ويخلط العجين ويسوى الخبز الذى يقوم بتوزيعه أثناء اليوم ، كان عليه أن يأوى إلى فراشه مباشرة بعد العجين . وعلى ذلك ، لو أنه عجز عن قراءة تلك الآداب القديمة وهو فى الطريق إلى زبائنه ، لتعذر عليه أن يودى هذا الواجب إطلاقاً ، أما الشيء الوحيد الذى يستطيع أن يفعله فى هذه الظروف فهو أن يقرأ أثناء سير العربى بينما يرقب الطريق بنظرة حادة ويتلفت بانتباه حوله وبمجرد أن يقع بصره على إنسان قادم نحوه من بعيد ، وبخاصة رجل الشرطة ، يسرع بإخفاء كتبه ، أما رجل الشرطة ، فالحق يقال إنه لم يتعرض كثيراً لعربة « جود » على اعتبار أنه فى مثل هذه المنطقة النائية عن العمران يصبح « جود » نفسه هو الذى يتعرض للخطر . وكثيراً ما كان الشرطى يتبعد عن طريق العربى ليجرد أن يلح خيمتها البيضاء من وراء أسيجة المنازل .

و ذات يوم ، وكان قد تقدم فى السن كثيرا وقارب عامه السادس عشر ، كان فى طريق عودته إلى البيت يجالده متعثرا فى قراءة أحد الكتب اللاتينية الصعبة وهو كتاب «كارمن سيكيولارى» .

فى تلك اللحظة شعر أنه يمر فوق الحافة العلوية للهضبة أمام ( البيت الأسمر ) وهو مخزن الحبوب المعروف لديه جيدا ، وكان الضوء قد تغير وكان شعوره بهذا هو الذى دفعه إلى أن يتطلع إلى السماء فوجد أن الشمس فى طريقها إلى المغيب . فى تلك اللحظة بدأ القمر يحتل مكانه فى كبد السماء ويبدو من وراء الأشجار بدرا كاملا . هنا قفزت إلى رأسه ذكرى قصيدة شعرية ولجأة غزت روحها عقله إلى درجة أن شعوره القديم العارم الذى دفعه ذات مرة ، منذ سنوات خلت ، إلى أن يجثو على ركبتيه ويلتصق بالسلم قد عاوده الآن فأوقف الحصان ونزل من العربية وبعد أن تلفت حوله ليمتأكد من أنه وحيد فى المكان ، وما من أحد يرقبه ، جثا على حافة الطريق والكتاب مفتوح فى يده وأدار وجهه إلى القمر ، ذلك الآله المشرق الذى بدأ كأنه يرقب تصرفاته فى ذكاء صامت ، بعد ذلك أدار وجهه نحو موكب الضياع المترجع فى الناحية الأخرى من السماء وأنشد يقول :

( يا ( أبولو ) العظيم ، يا ( ديانا ) القوية ، يا آلهة الغابات ، لكم جميعا آخر ساجداً ) .

ووقف الحصان فى مكانه لا يبدى حراكا حتى انتهى من تلاوة القصيدة العصماء ثم عاد يرتلها مرة أخرى بتأثير دافع وثى خفى لم يدر بخلده قط أنه بمسطيع أن يجعله يخضع لسلطانه فى وضوح النهار .

وبعد أن عاد إلى البيت أخذ يعن النظر فى تطيره الغريب ، وأخذ يسأل نفسه أكان ذلك التطير أصيلا فيه أو شيئا عابرا . كما أخذ يفكر فى قصور ذاكرته ، ذلك القصور العجيب الذى تسبب فى أن يخرج عن الطريق السوى وبأقرب من الأفعال ما لا يتفق مع طبيعته وعاداته ، هو الذى كان يعد نفسه ليكون كاهنا متدينا وذلك بالإضافة إلى أن يكون دارسا من دارسي الآداب القديمة . لقد حدث ذلك نتيجة

لإقباله الشديد على المطالعة فى الأسفار الوثنية وتعمقه فى استيعاب أصولها . وكلما أمعن النظر فى نفسه وفيما يأتى من أعمال ازداد إقتناعه بتناقض سلوكه واختلاط تفكيره . بدأ يسأل نفسه هل المكتب التى يقرأها هى التى تتفق وهدفه فى الحياة حقاً ؟ لم يجد دئمة توافقاً كبيراً بين الآداب الوثنية القديمة وبين كليات دكرايستمينستر ، التى أنشئت فى العصر الوسيط والتى تمثل قصة كنيسة فى بديع البناء .

وفى النهاية استقر رأيه على أن هيامه بالقراءة يجعله ينفعل بانفعالات لا تناسب وتربية شاب مسيحي ، إذ أضاع وقته فى قراءة شعر دهوميروس ، دون أن يهتم بقراءة العهد القديم باللغة اليونانية ، هذا وإن كان يملك نسخة منه قديمة ابتاعها بالمراسلة من أحد باعة الكتب المستعملة ، وعلى أثر ذلك هجر اللهجة الأيونية المعروفة لديه إلى لهجة أخرى جديدة ، ولفترة طويلة اقتصر فى قراءاته تقريباً على الأناجيل وأعمال الرسل فى طبعة دجرايس باخ ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه تعرف على أدب آباء الكنيسة الأول عن طريق عشوره فى الفردستون ، ذات يوم عند أحد باعة الكتب القديمة هناك على بعض الأسفار سبق أن تركها لديه أحد القساوسة وفاء لدين وكانت هذه تدور حول حياة أولئك الآباء القديسين .

وكنتيجة أخرى لذلك التغيير فى الاتجاه شرع يزور فى أيام الآحاد كل الكنائس القريبة وهناك يقرأ الكتابات اللاتينية من القرن الخامس عشر . وفى إحدى هذه الزيارات قابل عجوزاً محدودبة الظاهر على درجة عظيمة من الذكاء قرأت كل ما استطاعت أن تحصل عليه من الكتب فأمدته بمزيد من القصص والحكايات المترعة بالخيال الساحر الجميل عن مدينة النور والحكمة . على هذا صمم تصميمياً على أن يذهب إلى هناك . ولكن كيف السبيل إلى أن يعيش فى هذه المدينة الغريبة ؟ إنه حالياً لا يملك دخلاً ثابتاً ، ليست له صناعة أو عمل يعيش من ورائه ، بينما هو يكرس وقته جميعه للدراسة وتحصيل العلم وقد يمتد به الحال سنوات عدة .



وما الذى يحتاج إليه الناس أكثر من غيره ، الطعام ، اللباس ، المأوى ، وهو وإن عمل فى ميدان تزويد الناس بالطعام فإن يكون دخله من وراء ذلك سوى شئ ، ضئيل هزيل ، وهو يحس بكره شديد للعمل فى تزويد الناس بالملبس . أما العمل الثالث فهو شئ يحبه وتميل نفسه إليه والناس يبنون فى المدينة فليتعلم فن البناء ؟ وهنا أخذ ينسكرك فى عمه المغمور ، والد « سوزان » وهو نقاش للمعادن يعمل فى الكنائس وله ولع بفن العصور الوسطى فى شتى مجالات هذا الفن . ان يكون مخطئاً إن اقتفى خطوات عمه وعمل فترة فى فنون هى من بقايا النفس الجياشة إلى الدراسة والبحث .

وكقدمة لعمله الجديد جلب عدداً من الأحجار السهلة القطع ، فالمعدن لا يسهل الحصول عليه ، وبعد أن توقف عن الدراسة فترة ، أخذ يستغل أوقات فراغه فى تقليد الأعمدة ورءوسها الموجودة فى كنيسة الحى .

وفى « الفردستون » كان يوجد بناء من نوع بسيط . وبمجرد أن وجد بديلاً له يقبل العمل عند عمته فى مخبزها الصغير ، تقدم لتوه إلى هذا البناء وعرض عليه مساعدته مقابل أجر تافه فكانت أمامه بذلك الفرصة لتعلم مبادئ العمل على الحجارة . وبعد فترة من الزمان ، ذهب أيضاً إلى بناء من بنائى الكنائس يقيم فى نفس الجهة وتعلم على يديه أصول ترميم الأبنية المتهمة لعدد من كنائس القرى القريبة . لم يغرب عن باله قط أنه كان يزاوّل هذه الحرفة كوسيلة للعيش فى أثناء متابعته لدراسته التى اعتبرها أكثر الأمور مناسبة له .

ومع ذلك فقد كان محباً لهذه الحرفة لذاتها ، واتخذ له الآن مسكناً فى المدينة الصغيرة يقيم فيه أثناء الأسبوع ويفادّره فى أمسيات السبت عائداً إلى قرية « ميريجرين » ، هكذا بلغ « جود » التاسعة عشرة من عمره وجاوزها بقليل .

( ٦ )

وفى يوم من أيام السبت ، أثناء هذه الفترة الهامة من حياته ، كان عائداً من

« الفردستون » إلى « ميريجرين » ، والساعة قد شارفت على الثالثة بعد الظهر :  
كان الطقس رائقاً ، دافئاً ، والجو من أجواء الصيف البديعة فسار يحمل أدواته  
على ظهره وفي سائته أزاميله الصغيرة تصطدم بالكاتب فتحدث صاصلة مكتومة .  
كان اليوم من أيام نهاية الأسبوع فترك عمله مبكراً وغادر المدينة سالكا طريقاً  
طويلاً لم يعتد أن يسلكه في بقية الأيام وذلك لأنه كان ينوي أن يمر على مطحن  
للغسل بالقراب من « كريسكومب » ليقوم بمهمة سبق أن وعد عمته بقضائها  
من أجلها .

كان في حالة نفسية بديعة ويبدو عليه أنه اهتدى إلى طريقة للعيش الهادئ  
في ( كرايستمينستير ) لمدة عام أو عامين مع الالتحاق بإحدى هذه القلاع للعلم  
تحقيقاً لحلم حياته الأوحده .

كان في مقدوره طبعاً أن يذهب إلى تلك المدينة منتحلاً لنفسه أية صفة غير أنه  
فضل أن يدخلها وهو أكثر اطمئناناً وأشد وثوقاً من ناحية المصدر الذي يعتمد  
عليه في معاشه . وعندما رجع بدأ كراته إلى ما قام بعمله في هذا الشأن امتلاً صدره  
بشعور مريح وأحس بالرضا والاطمئنان . ومن وقت إلى آخر ، وهو في طريقه  
يسير حديثاً ، أخذ يلتفت يمنة ويسرة متأملاً ما حوله من صور الطبيعة ، غير أنه  
لم يكن ليرى شيئاً ، فركبته هذه لم تزد على أن تكون مجرد تكرار آلى لما اعتاد  
أن يفعله في أوقات فراغه . أما الشيء الوحيد الذي سيطر على حواسه في تلك  
اللحظة فكان مدى نموه الفكري .

— « لقد بلغت مبلغ أوساط الطلاب في القدرة على قراءة العادي من النصوص  
في الأدبين اللاتيني واليوناني ، وبخاصة في الأول » .

كان هذا هو الواقع بالنسبة له فقد بلغ في هذه اللغة من الماهرة مبلغاً جعله  
يملاً لحظات تجواله المنفردة بأحاديث لائمية متخيلة .

— « قرأت قسمين من الإلياذة ، هذا بالإضافة إلى بلوغ قدر لا بأس به من

الدراسة لمقطوعات معينة من الكتاب التاسع مثل «أحاديث فيونكس» ، في القسم التاسع والصراع بين «هكتور» و «أجاكس» ، في القسم الرابع عشر ، وظهور «أخيل» ، وهو أعزل من السلاح في القسم الثامن عشر ، والحركات الجنائزية في القسم الثالث والعشرين ، وقرأت أيضا شيئا من شعر الشاعر اليوناني القديم «هزiod» ، وشيئا من كتابات المؤرخ «ثيوسوديدس» ، كما قرأت كثيرا في العهد الجديد باللغة اليونانية . وددت لو لم يكن هناك سوى لهجة يونانية واحدة .

— «ودرس» شيئا من الرياضيات بما في ذلك الكتاب الأول والسادس والحادي عشر والثاني عشر للرياضي السكندري العظيم «أقليدس» ، كما درست شيئا من علم الجبر ، شيئا يسيرا لابعود المعادلات البسيطة .

— «وعرفت شيئا من تاريخ آباء الكنيسة» ، كما عرفت شيئا من التاريخ الروماني والانجليزي .

— «ليست هذه الأشياء سوى بداية متواضعة ، ولكنني لن أتمكن من إحراز شيء من التقدم في الدراسة هنا ، وذلك لما ألاقبه من صعاب في الحصول على الكتب ، على ذلك لا بد لي من أن أسعى جهد طاقتي كي أستقر في «كرايستمينستر» . وبمجرد أن يتم هذا ، وبفضل المساعدة التي سأحصل عليها هناك ، لا بد أن أحرز تقدما كبيرا إلى درجة تبدو معها معرفتي الحالية عبثا أطفال لا بد لي من أن أقتصد بعض المال ، وسأفعل ذلك بالتأكيد ، وستفتح هذه الكليات أبوابها وتستقبلني ، أنا الذي لا يمكن أن تستقبلني الآن بغير الازدراء وسوف يأتي هذا الترحيب لو انتظرت عشرين عاما . سوف أحصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت قبل أن تخمد همتي .

وهكذا ظل في أحلامه وخيالاته وأخذ يتصور نفسه وقد أصبح أسقفا بعد أن عاش حياة نقيمة طاهرة عاقلة ، حياة مسيحية حقيقية ، وياله من مثال سيضر به لغيره من الناس . وإذا أصبح دخله خمسة آلاف جنيه في السنة فسيتبرع منها بأربعة آلاف وخمسمائة جنيه بطريقة ما ، ويعيش حياة رغدة بالمبلغ الباقي . ولكنه بعد

مزيد من التفكير اكتشف أن عمل الأسقف شيء سخيف ، لذا سوف يكتفى بأن يصبح كبيراً للشماسة ، وقد يكون المرء مفيداً صالحاً في وظيفة كبير الشماسة كما هو كذلك في وظيفة الأسقف . مع ذلك عاد إلى فكرة الأسقف مرة ثانية .

-- « وحتى يتم ذلك ، وبمجرد أن يستقر في المقام في « كرايستمينيستر » ، سوف أقرأ جميع الكتب التي لم أستطع الحصول عليها هنا : « ليفوس » ، و « تاسيتوس » ، و « هيرودوتس » ، و « اسكيانوس » ، و « سوفوكليس » ، و « أريستوفانيس » .

— « ها ها ها . يا للغرور وباللطيش .

وانطلقت الأصداء قادمة من الناحية الأخرى من السياج متقمصة أصواتاً رقيقة ، لكنه لم يلاحظ شيئاً فقد كانت أفكاره جميعها تسير في مجراها الذي اتخذته لها .

— « يوربيدس » و « أفلاطون » و « أرسطوطاليس » و « لوكريتيوس » ، و « ابسكيتيس » و « سينكا » و « أنطونيوس » . بعد ذلك لا بد لي من أن أتقن أموراً أخرى . على أن أقرأ « آباء الكنيسة » ، قراءة دقيقة شاملة . على أن أقرأ « بيد » ، و « تاريخ الكنيسة » ، قراءة عامة . على أن أتعلم اللغة العبرية إماماً عاماً . حتى هذه اللحظة لم استطع أن أتعلم سوى الحروف الأبجدية لهذه اللغة ! .

— يا للغرور وباللطيش .

— « ولستنى أستطيع أن أعمل في جد إذ لدى قدرة هائلة على تحمل المشاق ولأنى لأشكر الله على ذلك . نعم مستصبح « كرايستمينيستر » أمى الحنون ، وأصبح أبناً المحبوب الذى تقر بها عيننا » .

وفي أثناء استغراقه العميق في هذه المشروعات التي يرسمها للمستقبل أخذ يبطئ تدريجياً في سيره حتى توقف تماماً وأخذ ينظر إلى الأرض كما لو أن مصباحاً سحرياً

يعكس صـور المستقبل . وجأة اخترق سمعه صوت حاد وأحس بشيء بارد ناعم  
الملمس يسقط عليه ثم يتدحرج عند قدميه .

وبنظرة واحدة أدرك ماهية هذا الشيء . إنها قطعة من كراع الخنزير يستعمله  
الريفيون عادة لدهان أحذيتهم ولا يصلح لأي شيء آخر سوى هذا . والخنازير  
كثيرة في هذا الجزء من شمال « وسكس » حيث تربي وتسمن في أعداد كبيرة .

وعلى الجانب الآخر من السياج الممتد أمامه رأى مجرى مائيا صغيرا ، فأدرك  
للمرة الأولى أن الأصوات الضعيفة والضحكات المكتومة التي اقتحمت نطاق  
أحلامه واختلطت بها لا بد أن يكون مصدرها هناك ، فارتقى الجسر وأخذ ينظر  
من فوق السياج فرأى على الجانب البعيد من القناة بيتا ريفيا صغيرا متصل به  
حديقة وحظائر للخنازير . وعلى حافة القناة أمامه رأى ثلاث فتيات صغيرات  
جائيات على الأرض وبجوارهن دلاء وصحاف مملوءة بأمعاء الخنازير وهن يغسلنها  
في المياه الجارية في القناة . وفي خبث تطلعت إليه واحدة منهن . وعندما لاحظت  
الفتيات أنهن جذبن انتباهه وأنه شرع يطيل النظر إليهن تحشمن في جلستهن  
وأطبعن شفاههن واستأنفن ما يقمن به من عمل في جد واجتهاد .

قال « جود » في عنف : « شكراً » .

قالت إحدى الفتيات لجارتها كما لو كانت لا تشعر بوجود الشاب الغريب :  
« لم ألق بها . أؤكد لك ذلك » .

أجابت الثانية : « ولا أنا » .

قالت الثالثة : « كيف تفعلين ذلك يا آنى » .

— « لو أقيمت شيئا لكان ما أقيمته غير هذا » .

— « أف . إنى لا أهتم له » . ثم أغرقت الفتيات الثلاث في الضحك واستأنفن  
عملهن دون أن يرفعن عيونهن إليه . ولم ينقطعن عن تبادل التهمة فيما بينهن .  
وزادت سخريته وهو يمسح وجهه بعد استماعه إلى ملاحظتهن .

وقال موجهها الحديث إلى الفتاة التي تجلس في المقدمة :

— « حقا ، است أنت التي أقيمتها ! لا لست أنت » .

أما الفتاة التي وجه إليها الحديث فكانت نحيلة ذات عينين سوداوين ، ولم تكن على درجة كبيرة من الاناقة وإن بدت كذلك من بعد بالرغم مما اتسمت بها بشرتها من خشونة . كان لها صدر مستدير بارز وشفتان مملئتان وأسنان منتظمة ، أما وجهها فكان كله نضارة . كانت أنثى بكل ما في هذه الكلمة من معنى فهي الدوافع الحيوانية مجسمة لا أكثر ولا أقل . وأحس بأنها مكلفة من قبل قوة خفية كي تقوم بتحويل اهتمامه من الآداب الإنسانية الرفيعة وما تبعته في نفسه من رؤى سامية ، إلى وقائع الحياة وأحداثها التي تصطارع في عقول من حوله .

قالت الفتاة في جراءة : « إن تجد هنا من يخبرك شيئا » .

— « ومهما تكن طبيعة تلك الفعلة فهي مفسدة لمال الغير » .

— « ليس هذا بالأمر الهام » .

— « ولكنك ترغبين في التحدث إلى علي ما أظن » ؟ .

— « نعم ، لو رغبت أنت في ذلك » .

— « وهل أصعد أنا إليك ، أم تأتين أنت إلى » ؟ .

ومن المحتمل أن الفتاة أحست بفرصة في الأفق . التقت عيناها بعينه وهو يتحدث إليها فأحست بأن ومضة ذكاء خاطف انطلقت فكانت إعلانا صامتا عن مولد تجاوب بينها وبينه ولم يكن هو بالشخص المسئول عن ذلك التجاوب . لقد اكتشفت اختياره لها من بين ثلاثين ولم يكن اختياره مجرد تصميمه على التعارف ، بل إطاعة لأوامر صادرة عن سلطة عليا تقف عادة في طريق سيئى الحظ من الرجال أمثاله فيتلقون أوامرها دون أن يحسوا بذلك وخاصة عندما يمتزج هدف حياتهم الأكبر بجنس النساء .

قالت وهي تنهين واقفة : « إلى بما هو ملقى هناك » .

وأدرك أن إشارتها هذه لم تصدر عن شعور متعلق بأبيها وما يقوم به من عمل فوضع على الأرض سلته التي تحوى أدواته والتقط قطعة اللحم الملقاة في الطريق ، وبمعاونة عصاته ارتقى السياج حيث كانت الفتاة تقف في مواجهة على الجانب الآخر منه وسار الاثنان في اتجاه الجسر الخشبي الصغير وكانت القناة تفصل بينهما . وعندما اقتربت الفتاة من الجسر أخذت تمتص الهواء بفمها بطريقة لم يلاحظها من قبل وصارت تنقل ما بداخل فمها من هواء من ناحية إلى أخرى وراء صدغيها وبذلك برزت على سطح خدها الأملس المستدير ، كأنما نشأت بسحر ساحر ، هزمة كاملة التكوين استطاعت أن تبقىها في مكانها على خدها طالما ظلت هي على ابتسامتها . لم تكن هذه العملية ، عملية إنتاج الهزومات حسب الطالب ، بالشيء الجديد إذ عرف سرها كثير من النساء . هذا وبالرغم من أن كثيرات منهن حاولن القيام بهذا العمل ، إلا أن عدداً قليلاً استطاع أن ينجح فيه .

وهكذا تقابل الاثنان وسط الجسر الصغير وألقى « جود » بقطعة الكراع جانباً وكأنه ينتظر منها أن تفسر له السبب الذي من أجله أوقفت من سيره بهذه الطريقة التي تخلو من اثرقة والتي اعتبرها فتحة جديداً في عالم الحرب والقتال .

غير أن الفتاة أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى في دلال وفخر ، وأخذت تهتز إلى الأمام وإلى الخلف ويدها على حديد الجسر ، وظلت على هذه الحال حتى دعاها داعي الفضول لحولت عينيها إليه وأخذت تفحصه في اهتمام كبير .

— « من المحتمل أنك تفكر الآن في اننى لا يمكن ان اقدفك بشيء . »

— « لا . بالتأكيد . »

— « اننا نقوم بهذا العمل مساعدة من الوالدى وهو بالطبع يريد منا ألا نلقى بأى شيء منه إذ انه يقوم بتحويل هذه الأجزاء إلى شحم يستخدم في طلاء الأحذية . »

وكانت الفتاة تقول ذلك وهى تشير إلى القطعة الملقاة على الأرض المغطاة بالحشائش .

سألها في لهجة مؤدنة تنم عن قبوله لكلامها وإن كان رأيها فيما قالت لا يخلو من الريبة : « وما الذى يجعل لإحدى الفتاتين الآخرين تقوم بإلقاء هذه القطعة على ؟ إنى أعجب لذلك » .

— « الطيش .. فلا تخبر إنسانا بأننى أنا التى فعلت ذلك . أرجوك » .

— « وكيف أستطيع ! إنى لا أعرف » .

— « حقا إلا . وهل أخبرك بأسمى ؟ »

— « أرجو » .

— « ادعى أراييلادون ، واسكن هنا .

— « كان لابد أن أعرف هذا الاسم جيداً لو أننى كنت أتردد كثيراً على هذه الناحية ، غير أننى أسير عادة في هذا الطريق العام دون أن أتوقف في أى جزء منه » .

— « يعمل أبى في تربية الخنازير وتساعدنى هاتان الفتاتان في تنظيف الأمعاء وإعدادها لصنع السجق » .

ظل « جود » والفتاة يتحدثان لحظة ، ثم لحظة أخرى وهما في مكانهما يتطالع كل منهما إلى الآخر ، وكل منهما متكئ على سياج الجسر . هذا النداء الصامت ، نداء المرأة للرجل الذى عبرت عنه في وضوح شخصية « أرايلا » ضيق عليه الخناق وشده عليه بقوة واحتجزه في هذا المكان ضد نيته ، بل بالأحرى ضد إرادته وبطريقة جديدة على تجربته .

قد لا يكون من المبالغة فى شيء أن يقال إن « جود » حتى هذه اللحظة لم ينظر إلى امرأة على اعتبار أنها امرأة لحسب ولكنه كان دائماً ينظر إلى النساء على اعتبار أنهن كائنات خارجات عن نطاق حياته وأغراضه . وأخذ يطيل النظر إلى عينيها ثم فها ثم صدرها ثم ذراعيها المكشوفتين الممتلئتين البضتين وكاتتا مبتلتي متأترتين ببرودة الماء فتعددت ألوانهما كما بدتا كعمودين قوين مصنوعين من رخام .



— « يالك من فتاة جميلة الطلعة » . غمغم « جود » بذلك القول وإن لم يكن بحاجة إلى الكلمات ليعبر بها عما يحسه من تأثير سحرها وقوة جاذبيتها .

قالت الفتاة في نبرة حادة : « ليتنا نتلاقى أيام الأحاد » .

أجابها يقول : « لا أظن أن ذلك في مقدورى » .

— « أقول لك هذا وتستطيع أن تضعه في موضع التفكير . وحتى هذه اللحظة لا يوجد شخص بالذات يسعى للتقرب منى وقد يظهر واحد فى مدى أسبوع أو أسبوعين » .

قالت ذلك دون أن تعلق الابتسامة وجهها فاخفتت منه الهزمت .

وأحس أنه مغلوب على أمره . ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً وقال :

— « هلا سمحت لى بأن أقابلك » .

— « لئننى لا أمانع فى ذلك » .

وعند هذه اللحظة نجحت فى أن تستعيد هزمت واحدة وذلك عندما أدارت وجهها جانباً وقامت بعملية امتصاص الهواء ، تلك الحركة الصغيرة العجيبة التى سبق ذكرها .

ولما لم يكن « جود » ، حتى تلك اللحظة ، بمدرك وجودها أمامه تمام الإدراك فإنه خاطر وقال : « الأحاد القادم وهذا يعنى باكر . أليس كذلك ؟ » .

— نعم .

— وهل أمر عليك .

— نعم .

واستضاء وجهها بومضة صغيرة من ومضات البشر الذى يخلقه النجاح . وبينما كانت تدير له ظهرها لتنزل حافة القناة المعشوشبة لتذهب حيث تقف صديقتها نظرت إليه بعينيهما الناعستين نظرة رقيقة حاملة .

وحمل « جود » على كتفه سلة الأدوات ثم استأنف سيره في غمرة من نشاط مفاجيء لم يعرف له مصدرا . والتقط أنفاسا من جو جديد عليه ظل عبيره عاقبا به أينما ذهب بعدها وظل كذلك لفترة لم يستطع تحديد مداها بالضبط وإن كان يحس أنه منعزل عن ذلك الجو وكأنه محجوب عنه بلوح من زجاج . أما نواياه في القراءة وخططه في العمل والدراسة ، تلك الخطط التي انتهى إليها قبل ذلك بوقت قصير فإنها انهارت الآن انهيارا عجيبا وتراجعت إلى ركن من نفسه تراجعا لا يدرك كنهه .

.. « لا بأس من ذلك فما هذا سوى أمر بسيط لا يخرج عن كونه مناسبة للتسلية والزويج عن النفس . » قال ذلك محدثا نفسه وهو يحس إحساسا غامضا بأن هنالك نقضا ، أو بالأحرى زيادة في مجال التكوين الطبيعي لهذه الفتاة ذات التأثير العميق عليه مما ترتب عليه التجاؤه إلى التماس أسباب اللهو والتسلية كمبرر يفسر اهتمامه بها . وأدرك أن ثمة شيئا فيها يتعارض تماما مع ذلك الجانب من نفسه الذي سبق أن وهبه للدراسات الأدبية و « لكرائستمينيست » حلم حياته الأعظم . لم يكن مصدر هذا الاعتراض شعوره بأصول العفة ومستزماتها . غير أنه رأى هذا الاعتراض بعقله رأى العين وظل يحس به لحظة قصيرة عابرة كما يحدث أن يلمح المرء في ضوء مصباح ضعيف بعض الكتب منقوشة على حائط في نفس اللحظة التي تسبق انطفاء المصباح وقبل أن يلف الظلام كل شيء . غير أنه سرعان ما اختفى من تفكيره هذا الخاطر الملى بمصيره ، كما تاهت منه حقائق الأشياء وذلك بمجرد أن أحس ببداية تلك المتعة الجديدة الغامرة ، متعة اكتشافه لمنفذ تخرج منه إنفعالاته العاطفية ، منفذ لم يكن له عهد به من قبل وإن كان على قيد أنملة منه فكان عليه أن يذهب لمقابلة ذلك المخلوق المثير من الجنس الآخر في يوم الأحد التالي .

وفي هذه الأثناء انضمت الفتاة إلى رفيقتهما وانكبت في صمت على عملها الذي تضمن عمليات التركيز والتكميخ لأمعاء الحنازير في المياه الجارية للقناة الصغيرة .

وقالت المدعوة « أنى » وكان قولها مقتضيا : « هل وقع فى شباكك صيد أيتها العريضة ؟ » .

وغنمتم « أرابيلا » تقول فى أسى : « لا أدرى . ليتنى ألقىت عليه شيئا آخر غير ذلك الذى ألقىته . »

— « رياه . إنه ليس بالاشخصية الهامة . وإن كان من المحتمل أنك تظنين غير ذلك . كان يعمل فى « ميريجرين » على عربة الخبز التى تملكها العجوز « دروزيلا فاولى » وظل هناك إلى أن انتقل إلى « الفردستون » ، ومنذ ذلك الوقت أصبح منهمكا فى القراءة وانشغل بها بصورة دائمة وهو يود أن يلتحق بالجامعة ، إذ هكذا يقولون . »

... « لا يهمنى من يكون أو ما ذا يكون فلا تتركى نفسك نهبا للأفكار يا صغيرتى . »

— « أوه ، حقا ما تقولين ؟ خلى عنك خداعنا . لم إذن ظلمت تتحدثين إليه إذا كنت لا تتوين أن توقعيه فى شركك ؟ وسواء أردت أن تقتنصيه أو لم تريدى فإنه بسيط كطفل . رأيت ذلك بعينى رأسى وأنتما تتناجيان على الجسر وظل يتطلع إليك كأنما لم يسبق له أن رأى امرأة فى حياته قط . على أية حال ، فى مقدور أية امرأة أن تستولى عليه بمجرد أن تسلك الطريق الصحيح . »

## ( V )

وفى اليوم التالى كان « جود فاولى » يجلس فى غرفة نومه ذات السقف المنحدر وينظر إلى مكتبه المكسدة على المائدة أمامه ثم ينقل بصره منها إلى الدائرة السوداء على ملاط الحائط فوقها ، تلك الدائرة التى رسمها لهب المصباح فى الشهور الأخيرة .

كان الوقت بعد ظهر يوم من أيام الأحاد وقد مر على التقائه « بارابيلادون » أربع وعشرون ساعة وخلال الأسبوع المنصرم كله كانت نيته معقودة على

تخصيص هذا الأصل لفرض معين ألا وهو قراءة الإنجيل باللغة اليونانية مرة أخرى بعد أن حصل على نسخه جديدة تفضل نسخته القديمة طبعاً وإخراجاً وتفسير وفقاً لنصوص «جرايس باخ» المعدلة ذات التعليقات والهوامش المحققة. كانت هذه النسخة تملأه زهواً إذ حصل عليها بعد اتصالات متعددة بالناشر في لندن ، وهي المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك .

كان يتوقع متعة كبيرة من وراء قراءته التي خصص لها هذا الأصل في بيت عمته تحت سقفه الهادي . كما كان يفعل من قبل وحيث ينام حالياً ليلتين كل أسبوع غير أن شيئاً جديداً حدث بالأمس ، شيئاً اعترض مجرى حياته المناسب في هدره فأحس كما لا بد أن يحس الثعبان عندما ينسلخ عن جسده جلد الشتاء فلا يدرك ما يتميز به جلده الجديد من نصارة وقوة ،

لقد رفض «جود» أن يخرج لملاقاة «أرابيلا» وجلس متكئاً على مرفقيه وكتابه مفتوح أمامه ويداه تحيطان بعارضتيه وشرع يقرأ بادئاً بأول صحيفة في الكتاب : «العهد الجديد» .

وهل وعدّها بالمرور عليها في منزلها ؟ وعدّها بكل تأكيد . ولوف تبقى المسكنة في البيت تنتظره وبذلك يضيع عليها الأصل كله بسببه هو . إنه يحس أن بها شيئاً ما ، يجذبه إليها وذلك غير الوعود فلا ينبغي أن يخسر ثقته به . وهو وإن كان قد خصص للقراءة أيام الآحاد بطولها وكافة أمسيات الأسبوع عدا مساء الأحد إلا أنه لا شك يستطيع أن يستغنى عن أصيل واحد يخصصه للرياضة والاستمتاع ، وإن كان غيره من الشباب لا يكتفون في رياضتهم واستمتاعهم بيوم واحد . ثم إنه عقب هذه المرة قد لا يراها ثانية إذ بالتأكيديسيصبح لقاءهما أمراً متعذراً لو أخذت في اعتبارها مشروعاته للدراسة .

وباختصار أحس كأن ذراعاً هائلة ذات قوة عاتية جبارة أطبقت عليه وحاصرته من كل جانب ، وهو شعور لا يمت بصلة للدوافع والمؤثرات التي اعتاد قبل أن يستجيب لندائها ويخضع لسلطانها . وبداله أن هذا الشعور لا يقيم وزناً

كبيراً لعقله وإرادته ولا يأبى لمراميه السامية بل ساقه أمامه كما يسوق المعلم تلميذه الحرون ، ودفعه في طريق أوصله إلى أحضان امرأة لم يحس نحوها بشيء من الاحترام ، كما خلت حياتها من أى عنصر مشترك مع حياته اللهم إلا وحدة المكان .

لم يعد يتم د بالعهد الجديد ، وما هو مكتوب عنه بل قفز واقفاً وعبر الغرفة إلى حيث توجد ملابسه فارتدى أفضلها وسرعان ما غادر البيت وسار في مرجاني يقطع الوادى الوسيع المازروع بالحنطة الذى يقع بين القرية وبيت د أرايلا ، القائم وحده وسط منخفض وراء الهضبة .

وفى أثناء سيره نظر إلى ساعته وقرر أنه يستطيع أن يعود بعد ساعتين على أكثر تقدير وبذلك سيبقى أمامه وقت كاف للقراءة عقب تناوله الشاي .

وبمجرد أن وصل إلى السكوخ الواقع بجوار المجموعة الضعيفة من شجيرات السرخس حيث يلتقى المسر الجانبي بالطريق العام أخذ يسرع الخطى منحرفاً إلى اليسار ثم نزل الجانب المنحدر من الوادى متجهاً إلى الغرب من البيت الأسمر .

هنا ، عند بداية الطبقة الطباشيرية ، اقترب من الغدير الذى ينبثق منها وظل يعبر بحذائه المجرى حيث وصل إلى مسكن د أرايلا ، فهبت في وجهه قادمة من وراء البيت روائح الخنازير وأصواتها المنكرة . ودخل الحديقة وقرع الباب بمقبض عصاه .

لا بد أن شخصاً ما لمح من خلال النافذة إذ أن صوتاً يشبه صوت الرجال ارتفع من داخل المنزل يقول :

— « ها قد أتى صديقك ليتودد إليك يا د أرايلا ، فاذهي إليه يا بنيتى . »  
واقشعر جسد د جود ، اسماعه هذه الكلمات فالتودد فى سبيل الزواج لا يوحى به مظهره ، كما لم يدر بخلده قط أن يأتى وفى نيته أن يتودد لأحد . كل ما كان ينوى عمله هو أن يتمشى معها قليلاً ويقبلها . أما التودد فكان بالنسبة إليه إمرأً ينطوى على غرض يتعارض وآراءه . وفتح الباب فدخل إلى البيت ، وفى هذه اللحظة

نفسها نزلت « أراييلا » من أعلى المنزل وهي ترتدى ثوبا جديدا للخروج .

قال الأب وكان رجلا يتفجر حيوية وله سوانف سوداء طويلة :

— « تفضل بالجلوس أيها السيد . ما اسمك ؟ » أما نغمته في الحديث فكانت النغمة الحادة القوية نفسها التي طرقت سمع « جود » أثناء وقوفه خارج المنزل .

همست « أراييلا » في أذن « جود » قائلة : « أرى أن نخرج في الحال . أليس كذلك ؟ »

قال : « نعم . لنمش سويا حتى نصل إلى « البيت الأسمر » ، ثم نعود ، ولن يستغرق ذلك منا أكثر من نصف ساعة » . وبدأت « أراييلا » وسط محيطها المضطرب الحالي من النظام غاية في الاناقة حتى أن « جود » أحس بالراحة لأنه جاء وفاء لوعده .

وهكذا اختفت من نفسه جميع الشكوك التي كانت حتى هذه اللحظة تهاصره وتضيق عليه الخناق .

وبدأ الاثنان سيرهما بالارتقاء إلى الحافة العليا المنخفض العظيم ، وفي هذه الأثناء كان يأخذ بيدها معاونا إياها على الصعود ، ثم بعد ذلك اتجها إلى اليسار في الطريق المحاذي لقمة الربوة وسارا فيه حتى نقطة تقاطعه مع الطريق العام بالقرب من « البيت الأسمر » السابق الذكر ، وهو المكان الذي سبق أن كان شاهدا على ما اختلج في نفسه من شقوق لرؤية « كرايستمينيستر » غير أن « جود » نسي كل ذلك الآن وشرع لسانه يشقشق أمام « أراييلا » بالهذر الرخيص في حماسة فاقت كل ما كان يحس به لو أنه دخل في نقاش فلسفي مع أقطاب الفكر في الجامعة التي خلبت لبه واستحوذت على إعجابه في الفترة الأخيرة . وفي غضون حديثه المتحمس مع « أراييلا » جاوز البقعة التي سبق أن جثا فيها على ركبتيه احتراما « لديانا » و « فينوس » دون أن يذكر أن ثمة أناسا كمؤلاء في الأسطورة القديمة وأن الشمس ليست إلا مصباحا نافعا يستخدم في إزالة طبقات الظلام عن وجه « أراييلا » .

سار في صحبة « أرايلا » وساعده على السير خفة في جسده لا يمكن وصفها .  
 هكذا أحس طالب العلم الناشئ وعالم اللاهوت المرجى وأستاذ المستقبل المرتقب ،  
 ذلك الذي كان يعد نفسه ليسكون أسقفا وغير ذلك من مناصب العلم والدين .  
 أحس بأن شرفا عظيما لحقه ومجدا مؤثلا أصابه من جراء ما أبدته تلك الفتاة  
 الريفية الجميلة من موافقة على أن تصحب في مسيرة قصيرة ترتدى في أثناءها ثياب  
 الأحد ، على ما لهذه الموافقة من تفضل كبير وتنازل ما بعده تنازل .

وفي أثناء سيرهما بلنا مخزن الحبوب الملحق « بالبيت الأسمر » ، وهنا كان  
 يفوى أن يعود أدراجه ولسكنهما ، بينما كانا يتطلعان من تلك البقعة إلى الوادي  
 العلوي المنبسط أمامهما ، استرعى انتباههما عامود من الدخان الأسود الكثيف  
 صادر عن محيط المدينة الصغيرة التي تقع بينهما على بعد مياين تقريبا .

قالت « أرايلا » : هذا حريق فلنجر لتتفرج . هيا بنا فالمكان ليس  
 بعيد .

وكان الحنان الذي نما الآن فجأة بين ضلوعه لم يترك له أية إرادة تمكنه من  
 الوقوف في وجه رغبته التي ارتاح إليها لأنها أمدته بسبب البقاء معها مدة أطول  
 فقاما في سرعة وأخذا ينزلان المنحدر جريا ولسكنهما عندما وصلا إلى الأرض  
 المستوية في قاع الوادي وقطعا في سيرهما مسافة ليست بالقصيرة اكتشفا أن البقعة  
 التي بها الحريق تقع على مسافة أبعد عما تراءى لهما .

ومع ذلك ، استمرا في سيرهما ولسكنهما لم يوصلا إلى البقعة المرجوة إلا قبيل  
 الخامسة إذ أوفت المسافة على ستة أميال من « هيريجرين » وثلاثة من بيت  
 « أرايلا » . وفي اللحظة التي وصلا فيها إلى مكان الحريق كانت النار قد اخمدت .  
 وبعد أن أمضيا وقتا قصيرا في مكان الحادث عادا من حيث أتيا وكان طريقهما  
 هذه المرة وسط مدينة « الفردستون » .

قالت « أرايلا » إنها تريد أن تشرب شيئا من الشاي فدخلا إلى نزل شعبي

على الطريق وطلبا ما أرادا . وما كان ما طلباه هو الشاى وليس البيرة . - كان عليهما أن ينتظرا وقتا طويلا ، وفي غضون ذلك تعرفت خادمة النزل على «جود» وهمست بذلك إلى سيدتها الواقفة إلى الخلف مبدية دهشتها إذ أن شخصا «كجود» معروف فاجب العلم والدراسة ، شخصا ظل على حد قولها في «مستوى عال من الامتياز» يمكن أن يهبط فجأة إلى مستوى «أرابيلا» فيخرج معها ويخالسها . أدركت «أرابيلا» ما يدور أمامها فعندما وقعت عينها على النظرة الجادة المفعمة بالميل والانعطاف في عيني رفيقها أغلقت ضخمة منخفضة تدل على فرحة الانتصار الذى يملأ قلب المرأة المستهترة عندما ترى أنها تلعب لعبتها بنجاح .

جلس الاثنان سويا وأخذتا يتلفئتان حولهما في الغرفة ويتطلعان إلى صورة شمشون ودليلة المعلقة أمامهما على الجدار ، ويتأملان الدوائر الواضحة على غطاء المائدة من أثر أكواب البيرة ، وينظران إلى المباحق أسفل الموائد وإلى ما يملأ هذه المباحق من نشارة الخشب . كان للنظر بكلياته وجزئياته أثر مقبض وهو الأثر الذى يخلفه في نفسه عدد قليل من الأماكن من بينها الحانات وخاصة في أمسيات الآحاد عندما تدسل إليها أشعة الشمس الناربة ويتوقف فيها تقديم الخمر فيضطر عابر السبيل المسكين إلى الجلوس فيها دون أن يفعل شيئا فاما من ملجأ آخر يأوى إليه .

وبدأ النهار ينصرم والظلام ينتشر ولم يستطيعا أن ينتظرا الشاى أكثر من ذلك وقال «جود» : « ما الذى يمكن أن نعمله الآن وأمامنا مسيرة ثلاثة أميال ؟ » .

قالت «أرابيلا» : « فى مقدورنا أن نطالب قليلا من البيرة على ما أظن . »

- « بيرة ! أوه ، حقا . لقد نسيت ذلك تماما . إنه لمن غير اللائق أن نجىء إلى مشرب عام مخصص للبيرة فى مساء يوم من أيام الآحاد . »

- « ولكننا لم نفعل ذلك ، »

- « لا . إنما لم نفعل ذلك . »



وفي هذه اللحظة تمنى لو أنه ابتعد عن هذا المكان غير المناسب ولكنه مع ذلك صاح يطالب البيرة وفي الحال أحضرت إليه .

رفعت « أرابيلا » كوب الشراب وذاقت ما بداخله فبدل عليها التأفف . عندئذ . شرب « جود » قليلا وقال : « ما خطها ؟ ما عدت أفهم في أنواع البيرة كثيرا . أحبا حقاً ولكني لا أشربها ذ أثناء القراءة بل أفضل عليها القهوة . على أى حال لا بأس بها على الإطلاق . »

— « هذه البيرة مغشوشة . لا أستطيع أن أقربها » ، ثم ذكرت « أرابيلا » أسماء ثلاثة أو أربعة عناصر تضاف عادة إلى شعير البيرة وحشيشة الدينار مما أثار دهشته وعجبه الشديد .

قال « جود » في لهجة مرحة : « ما أكثر ما تعرفين . » وعلى الرغم من ذلك ، عادت « أرابيلا » إلى كأس الشراب وشربته عن آخره وبعدها استأنفا السير . كان الظلام قد خيم على كل شيء ، وبمجرد أن خرجا عن نطاق المدينة أخذتا يسيران وزاد التصاقهما ببعضهما ، وعجبت « أرابيلا » في نفسها لأنه لم يحط خصرها بذراعه ، ولكنه لم يفعل بل قال ما خيل لايه أنه أمر ينطوى على كثير من الجرأة والإقدام . قال : « أمسكي بذراعي . »

تناولت « أرابيلا » ذراع « جود » وأمسكت به إمساكا كاملا حتى نهاية الكتف ، وأحس « جود » بحرارة جسدها وبعد أن وضع عصاته تحت ذراعه الأخرى ، أمسك بيمينه يمناها مسكة طبيعية .

قال : « إننا الآن على خير ما يرام أيتها العزيزة . أليس الأمر كذلك ؟ »

قالت : « نعم . » ثم أضافت وكأنها تقول هذه المرة لنفسها : « ولكنك لست ببعض الشيء . »

في تلك اللحظة كان « جود » يقول في نفسه : « كم كنت متعجلا ! » هكذا سار الاثنان حتى وصلا إلى سفح الهضبة حيث استطاعا أن يشاهدا معالم الطريق

الأبيض وهو يمتد أمامهما خلال الظلام المتكاثف . من هذه البقعة كان الطريق الوحيد الموصل إلى بيت « أرابيلا » يمر بأعلى المنحدر ثم ينزل ثانية إلى قاع الوادى . وقبل أن يسيرا الاثنان فى الطريق صعدا وكادا بصطدما ن برجلين يسيران فوق الحشائش دون أن يراهما أحد . قال أحد الرجاءين وهما ينزلان التل : « أف لهؤلاء العشاق . إن المرء ليقابلهم هائمين على وجوههم فى العراء فى كافة فصول السنة وكل الأجواء فليس غير العشاق والكلاب الضالة . »

ابتسمت « أرابيلا » ابتسامة باهتة .

قال « جود » : « وهل نحن عشاق ؟ »

— « أنت الذى تعرف . »

— « ولكن هل يمكنك أن تخبرينى ؟ »

ومالت « أرابيلا » برأسها على كتفه كأنها تمنحه الجواب على سؤاله . واستجاب « جود » لشارتها فوضع ذراعه حول خصرها ثم جذبها نحوه وقبلها .

سار الاثنان سويا ولم يكن سيرهما ذراعا بذراع بل وفقا لرغبتها عناقا فى عناق . قال « جود » فى نفسه : « على أية حال ، ما الذى يهم طالما أن الظلام يسود المكان . » وعندما أصبح الاثنان فى منتصف الطريق الصاعد إلى قمة التل توقفا عن السير كما لو أنهما اتفقا على ذلك وشرع يقبلا ثانية . أخيرا وصل إلى القمة وهنا قبلها مرة أخرى .

قالت فى رقة : « فى مقدورك أن تترك ذراعك كما هو لو كان هذا يعجبك . »

وفعل ذلك وهو يفكر فى مدى ثقتهما به .

على هذا المنوال سار الاثنان متجهين إلى حيث تسكن ، وكان هو قد ترك مسكنه فى الثالثة والنصف وفى عزمه أن يعود إلى بيته فى الخامسة والنصف حيث يستأنف قراءة « العهد الجديد » .

وعندما وقف أمام بيتها يودعها بقبلة ، كانت الساعة قد أشرفت على التاسعة .  
دعته إلى الدخول ولو لدقيقة واحدة إذ بدون ذلك كان الأمر لا بد أن يبدو شاذا  
غريبا ، كما لو كانت قد خرجت في الظلام وحيدة ، فنزل على إرادتها ودخل المنزل  
وراءها . وبمجرد أن فتحت الباب وجدت ، بالإضافة إلى والديها ، عددا من  
أهل الحى يجلسون في الغرفة فتحدث الجميع إليهما في لهجة تنم عن التهنئة والتبريك  
فقد اعتبر الموجدون « جود » خطيبا « لأرابيلا » .

ولما لم يسكن الحاضرون من الذين يمتنون بصلة إلى مجتمعه وطبقته ، فقد  
أحس بالضيق لأنه غريب عنهم . لم يكن هذا في حسبانها بل كان كل ما قصد إليه  
أن يمضى مع « أرابيلا » أصيلا يتمتع النفس فيه بلذة السير معها ومصاحبتهما .

لم يطل البقاء معهم أكثر مما يستغرقه الحديث القصير مع زوجة أبيها ، وكانت  
امرأة هادئة المظهر لا يبدو عليها أن لها قدرا من الشخصية كما لا يبدو عليها أن لها  
ملامح تكشف عن طبيعتها وتبين اتجاهاتها في الحياة . وبعد أن ألقى على الجميع  
تحية المساء ، خرج إلى الطريق الموصل إلى المنحدر ، وهو يحس بالراحة لمغادرته  
المكان . غير أن هذا الإحساس بالراحة الذي غمر نفسه منذ لحظة لم يلبث أن  
زایلها إذ سرعان ما استعادت سلطانها عليه ، ومشى في الطريق وهو يحس كما لو كان  
شخصا آخر ، يختلف تمام الاختلاف عن « جود » الأمس ، هو الذي يسير الآن .  
ماذا كانت كتبه بالنسبة إليه ؟ ماذا كانت نواياه وخططه التي ظل أمينا عليها  
حريصا على تنفيذها حتى هذه اللحظة بالنسبة إليه ؟ كانت جميعها مضيعة للوقت .  
والأمر على كل حال يتوقف على رأيك في تحديد ذلك . وأحس للمرة الأولى في  
حياته أنه يعيش في الدنيا وأنه لا يضيع حياته سدى . من الأفضل له أن يحب  
امرأة لا أن يتخرج في جامعة أو يصبح قسيسا حتى ولا بطريقا .

وعندما عاد إلى البيت كانت عمته قد آوت إلى فراشها وأحس كأن شعورا  
عاما بتفريطه وإهماله ارتسم على جميع الأشياء التي واجهته فصعد إلى أعلى المنزل  
دون أن يحمل معه نورا ، وعندما دخل إلى غرفته انقبضت نفسه وزادها الظلام

حزنا إذ رأى كتابه ملقى في مكانه مفتوحا كما تركه قبل مغادرة البيت ، وخيل إليه أن الحروف الكبيرة التي يتكون منها عنوان الكتاب تنظر إليه في الضوء الضعيف الذي ترسله النجوم إلى داخل الغرفة عاتبة ومؤنبة . كانت الكلمات كميني جسد دب فيه الموت ولا تزالان مفتوحتين .

### « العهد الجديد »

كان عليه أن يرحل في الصباح التالي مبكرا ليبقى أسبوعا بعيدا عن منزل عمته كما تعود أن يفعل . لقد كان الشعور الذي راوده عندما ألقى بالكتاب الذي لم يتم قراءته داخل سلة أدواته هو شعور التفاهة ، شعور الضياع والعدم .

لقد أبقى « جود » مغاوراته العاطفية سرا حتى على نفسه ، بينما على العكس من ذلك أخذت « أرايلا » تذيع تفاصيلها على كل أصدقائها ومعارفها .

وفي ضوء الفجر أخذ يسير في نفس الطريق الذي قطعه في الظلام قبل ذلك بوضع ساعات وبجانبه محبوبته . سار حتى وصل إلى التل وهنا أخذ يمشي في ببطء ثم توقف عن المسير .

في هذه البقعة بالذات قبالها القبلة الأولى . ولما كانت الشمس لم يمحض على بزوغها وقت طويل ، فن المحتمل أنه ما من أحد مر في ذلك الطريق منذ أن سارا فيه سويا . نظر إلى الأرض عند قدميه ثم أخرج من صدره آهة طويلة . وعندما أمعن النظر استطاع أن يميز في التراب المبتل بندى الصباح آثار أقدامهما عندما احتضن كل منهما الآخر في قوة ورغبة . أما هي فلم تكن هناك الآن فتولى خياله رسم صورتها على أديم الأرض بدقة تحاكي دقة المطرقات . وبرز وجودها السابق أمامه بينما أحس هو بفراغ هائل في قلبه لا يقوى أى شيء على أن يملأه . وبالقرب من المكان رأى صفافة مبتورة الرأس تختلف عن كافة الصفصافات في العالم . قد تكون أحب رغبانه إلى نفسه في تلك الساعة وأقواها تأثيرا عليه ، هي أن تزول من الوجود وتتلاشى كلية الأيام الستة التي لا بد أن تمضي قبل أن يراها مرة أخرى لو قدر له أن يعيش حتى الأسبوع التالي .

وعقب هذا بساعة ونصف أقبلت « أرايلا » في صحبة زميلتيها اللتين شوهدتا معها يوم السبت السابق على المقابلة . مرت الفتيات الثلاث بمسرح القبة - وبالصفاة التي كانت الشاهد الوحيد على ما حدث بينهما دون أن تعير « أرايلا » أيا منهما التفاتا ، وإن كان لسانها لم يكشف لحظة عن التحدث إلى زميلتيها في نفس هذا الموضوع .

« وماذا قال لك بعد ذلك ؟ »

« بعد ذلك قال — وأخذت « أرايلا » تعيد أمامهما كلمة كلمة كل ما قاله « جرد » لها وهو في غمرة انفعالاته العاطفية ولو كان في هذه اللحظة يسترق السمع من وراء السياج لاستولت عليه الدهشة وملاء العجب لأن قدرا قليلا للغاية مما فعل وقال في تلك الليلة اعتبرته « أرايلا » من أموره الخاصة التي ينبغي أن توجهها عن الآخرين .

قالت « آني » في بهجة غير مفهومة : « نجحت في أن تجعلهم يهتم بك ولو بقدر ضئيل . كنت أعتقد لو لم تحقق هذا القدر من النجاح : ما أجل أن يكون المرء مثلك . »

وبعد لحظة قالت « أرايلا » في صوت خفيض ثم نغاته عن إحاسيس جنسية مستورة : « نعم . نجحت في أن أجعله يهتم بي . ولكنني أريد منه أكثر من ذلك . أريد منه أن يتزوجني . لا بد أن أملكه ولا يمكن أن أعيش بدونه إذ أنه من الرجال الذين يحظون بإعجابي وأطلع إليهم في اشتياق . سأفقد عقل لو لم أهبه نفسي . عندما رأيته لأول مرة أحسست بأنني لا بد أن أفعل ذلك »

— « لو كان كما تفكرين شابا مستقيما أمينا فلا بد لك من أن تستولى عليه وتخذى منه زوجا لك ، ويتحقق ذلك لو شرعت في اصطیاده بالطريقة السليمة . »

وبقيت « أرايلا » تفكر لحظة ثم قالت : « وما هي تلك الطريقة السليمة ؟ »

قالت سارة ، الفتاة الثالثة : « عجباً . لست على علم ؟ » .

— « أؤكد لك أنني لا أعلم . — غاية على في هذا الشأن أن الفتيات عادة يسمحن بقدر بسيط من الملاعبة والغزل ولا يتركن قتيانهن يتجادون في ذلك . »

نظرت الفتاة الثالثة إلى الثانية وقالت : « يا للعجب . إنها لا تعلم ! »

— « وهذا علماً بأنك ولدت ودرجت في مدينة كبيرة . حسناً . لا بأس من أن نعلمك شيئاً ولو قليلاً ، ونأمل أن تفعل أنت نفس الشيء معنا . »

— « وما الذي تقصدانه بقولكما الطريقة الفعالة للظفر برجل ؟ هل تظنان أنني من السذاجة بحيث لا أعرف ما ترميان إليه ؟ » .

— « أقصد أن نظفري بزواج . »

— « إن شخصاً مثله ذا شخصية متزنة وعقل كبير ، ما هو بالجندى وما هو بالبحار وما هو بالعامل البسيط ، وما هو بالشخص الذي يستغل ضعف النساء لا يستحق أن يهمل بالطريقة التي تفكران بها ، حاشا لي أن أكون سبياً في الإضرار بمثل هذا الصديق . »

— « حسناً . ولكن مع شخص كهذا طبعاً لا . . . »

نظرت الفتاتان كل منهما إلى الأخرى وأخذتا يتبادلان الضحك وتديران عيونهما في حركات مازحة لاعبة ثم اقتربت أحدهما من « أرابيلا » وأسرت لهما بشيء وإن لم يسكن بالقرب منهما غريب ، بينما ظلت الفتاة الأخرى ترقب في لهفة وجه « أرابيلا » وما يبدو عليه من تعبير ..

قالت « أرابيلا » في ضعف وتراخ : « آه . . . من المحتمل أنني لم أنظر إلى المسألة من هذه الزاوية . ولكن لفرض أنه ليس جاداً في نواياه ؟ ألا يجدر بالمرأة أن تنأى بنفسها عن مثل هذا المصير ؟ »

— « لو أردت أن تنوزي بشيء ذي قيمة لا بد لك من المغامرة . وبالإضافة

إلى ذلك لا بد لك قبل أن تفعل شيئاً أن تتحقق من أنه جاد في مطلبه ومن أنه على خلق . اعتقد أنك في صحبة مثل هذا الرجل ستسكون في مأمن من كل ضرر . ليت الفرصة واتتني ! إن عدداً كبيراً من الفتيات يفعلن ذلك وإلا ما تزوجن على الإطلاق .

وسارت « أرايلا » في طريقها وهي غارقة في تفكير صامت وهمست تقول لنفسها : « سأجرب معه هذه الطريقة . »

## ( ٨ )

وفي عطلة نهاية الأسبوع كان « جود » كعادته يسير في الطريق الموصل إلى بيت عمته في « ميريجرين » وكان قادماً من مسكنه في « الفردستون » . لقد أصبح لهذه الرحلة الآن سحرها الخاص بالنسبة إليه إذ لم تقتصر أغراضها على مجرد رؤية قريبته العجوز العابسة . وقبل أن يرتقى التل انحرف جهة اليمين آملاً أن يحظى من « أرايلا » بنظرة قد لا تدخل في حساب المقابلات والمواعيد المتفق عليها . وقبل أن يصل إلى حيث تقيم لاحظت عيناه الیقظتان قمة رأسها وهي تتمشى خلف سياج حديقة بيتها . وعند ما دخل إلى البيت وجد أن ثلاثة خنازير صغيرة قفزت من فوق الحظيرة وهربت بينما وقفت « أرايلا » تحاول وحدها أن تعيدها إلى مكانها الأول بعد أن فتحت باب الحظيرة على مصراعيه . وعندما وقع نظر أرايلا « على « جود » رقت ملامح وجهها ولانت خطوطه وتراخت عيناها أمامه في رقة ودلال ، وفي أثناء لحظة السكون التي أعقبت ذلك شقت الخنازير الثلاثة طريقها وخرجت من الحديقة .

قالت « أرايلا » في صوت عال وهي تتظاهر بالهدوء والسكينة على الرغم من وجود من تحب : « أدخلت هذه الخنازير إلى الحظيرة هذا الصباح فقط إذ جاءوا بها من مزرعة « سبادولت » بالأمس حيث اشتراها أبي بثمان مرفيع وهي تود العودة إلى هناك . يالها من مخنوقات غبية ! هلا أغلقت باب الحديقة وساعدتني على

إعادتها إلى مكانها ؟ ما من أحد في البيت خلاف أُمى العجوز وسنفقد هذه الخنازير لو لم نبذل مجهودا كبيرا كي نعيدها إلى مكانها في الحظيرة .

تقدم « جود » للعاونة في إعادة الخنازير إلى مكانها وأخذ يركض هنا وهناك وسط حقول البطاطس والكرنب ، وأحيانا كان هو و « أرابيلا » يتلاقيان أثناء الركض . وبعد جهد جهيد تمسكن الاثنان من إعادة الخنزير الأول ، ثم نجحا في إعادة الثاني بعد جهد أكبر . أما الخنزير الثالث ، وكان ذا ساقين طويلين كما كان عنيد الطبع ، سريع الحركة فإنه تسلسل من فتحة في سياج الحديقة وخرج إلى الطريق .

قالت « أرابيلا » : « سيضيع حتما لو لم نركض وراءه . تعال معي لنلحق به » .

اندفعت « أرابيلا » بقوة خارج الحديقة وبجوارها « جود » وبذلت جهدا كبيرا حتى لا ينفذ الخنزير عن أبصارها وأخذ الاثنان يصرخان على نفر من المارة لوقف الحيوان الشارد ، ولكنهم كان دائما يتخلص من مطاردية .

قال « جود » : « دعيني آخذ بيدك يا عزيزتي فقد تعبت من الجري » .

وفي رضا كامل مدت إليه يدها ، وكانت الآن حارة بتأثير ما بذلت من جهد في أثناء الركض .

سار الاثنان سويا وكان سيرهما خيبيا .

قالت « أرابيلا » ، « تعرف هذه الحيوانات الطريق الذي جاءت منه ، وهي تفعل ذلك كلما سنحت لها الفرصة ، لذا ينبغي أن تنقل بواسطة العربات » .

في هذه اللحظة كان الخنزير قد وصل إلى الوادي المفتوح حيث راح يركض بكل ما وهبته ساقاه الصغيرتان من خفة وسرعة . وبمجرد أن وصل « جود » و « أرابيلا » إلى قمة الهضبة ، أصبح من الواضح أمامهما أنه لا مناص من أن يقطعا الطريق ركضا إلى بيت المزارع الذي جاء منه هذا الحيوان . هذا لو أراد أن يظفرا به مرة أخرى . ومن مكانهما العالي شاهدا الخنزير في بطن الوادي وكان



يشبه نقطة صغيرة تتحرك في خط مستقيم وتتجه إلى بيت صغير قديم يقع في أقصى الوادى .

صاحت « أرابيلا ، تقول : « لافائدة من الركض الآن إذ سيصل إلى هناك قبلنا وعلى ذلك فلنصرف النظر عنه طالما تأكدنا من أنه لم يسرق ولم يفقد في الطريق إلى هناك . سيعرف القوم هناك ما حدث ، وبالتالي سوف يرسلونه إلينا . أوه يا عزيزى « جود ، كم أشعر بحرارة الجو ، .

وبدون أن تخفف قبضتها على يده استدارت جانبا وألقت بنفسها على الأرض المغطاة بالشوك وفي نفس اللحظة جذبته إليها فسقط على ركبتيه .

— « أستمعك العذر فقد كنت أن ألقى بك إلى الأرض . أليس كذلك؟ إننى فى غاية التعب . »

تمددت « أرابيلا ، بجسدها المستقيم كسهم على أديم التل المنحدر وهى تطيل النظر إلى السماء المنبسطة فوقها وكانت يدها الحارة تقبض على يد « جود ، فقال على مرفقيه بجوارها .

استمرت « أرابيلا ، تقول : « ركضنا كل هذا الطريق دون جدوى . ، قالت ذلك بينما جسدها يخفق فى نبضات سريعة متلاحقة واحتقن وجهها وانقرجت شفاتها الحمراء والممتلئتان وتغطى جلدتها بقطرات صغيرة من العرق .

قال « جود ، : والآن ، لم لا تتحدثين يا عزيزتى ؟ ،

— « نقطعت أنفاسى من الجرى . إننا قطعنا الطريق إلى أعلى التل ركضا . ،

كان الاثنان فى خلوة كاملة ، خلوة تتميز بالوضوح التام وتقسيم الفراغ الشامل ولا يمكن أن يقترب منهما مخلوق دون أن يرياه وهو ما زال منهما على مسافة . كانا فوق قمة من القمم العالية فى المنطقة والمروج الفسيحة البعيدة المحيطة « بـ كرايستمينيستر ، تلوح لهما عن بعد ، وما كان « جود ، يفكر فى ذلك فى تلك اللحظة .

قالت « أرايلا » : « أرى فوق هذه الشجرة شيئاً صغيراً لطيفاً . إنها حشرة زاحفة ذات ألوان خضراء وصفراء من أجمل ما يرى . »

نهض جالسا وقال : « أين هي ؟ » .

— قالت : « لا تستطيع أن تراها » من مكانك . يجب أن تأتي إلى هنا . انحنى « جود » ومد رقبته إلى الأمام ثم قال : « لا أستطيع أن أراها » ، وجذبه « أرايلا » إلى جوارها في رفق وهي تقول : « انظر إلى غصن الشجرة حيث يتفرع . إنها هناك بالقرب من الأوراق المتهتزة . »

قال والجزء الخلفي من رأسه ملتصق بجذعها :

« إنني لا أراها الآن . واسكنني سأراها حتماً لو وقفت على قدمي » . وفي الحال نهض على قدميه ووضع نفسه في خط مستقيم مع اتجاه بصرها .

قالت « أرايلا » في غضب وقد أشاحت بوجهها عنه : « يالك من غبي . » قال وهو ينظر إليها من عل : لا يهمني كثيراً أن أراها أيتها العزيزة ، وليس لي حاجة إلى ذلك . هيا انهضي . » — « ولم ؟ »

— « أود أن أقبلك ولقد انتظرت ذلك طويلاً . »

استدارت « أرايلا » بوجهها إلى ناحيته وظلت لحظة ترمقه من طرف خفي ، ثم همت واقفة وعلى شفتيها غضبة خفيفة وقالت في اقتضاب : « لا بد أن أعود الآن » .

ومضت بسرعة في الطريق إلى بيتها ومن ورائها « جود » .

قال الفتي متوسلاً : « قبلة واحدة فقط . »

قالت : « لا . لن أسمح لك بذلك . »

قال « جود » في دهشة : « ما الذي حدث ؟ »

ظلت شفقتها متفوسشين من الغضب وسار د جود، وراءها كحمل أليف إلى أن أبطأت في سيرها فشت بجواره وهي تتحدث إليه في هدوء في موضوعات مختلفة وانهز كلا حاول الإمساك بيدها أو التثبيت بخصرها . هكذا نزل الاثنان التل وسارا في الفضاء المجاور للمنزل أبيها فدخلت بعد أن أومأت له برأسها مودعة إياه في حركة تدل على تعال مهين له .

قال د جود، يحدث نفسه وهو ينسحب من حضرتها في حزن متجه نحو الطريق المؤدى إلى د ميريجرين ، : « أعتقد أنني تصرفت معها بحرية أكثر مما ينبغي . »

وفي صباح الأحد التالي كان بيت د أرايلا ، كما هو العادة مسرحا لحفل كبير يعقد كل أسبوع وبعدي فيه عشاء خاص . في تلك اللحظة كان أبوها أمام مرآة صغيرة مدلاة من سياج النافذة يقوم بحلق عارضيه بينما تجلس د أرايلا ، وأما على مقربة منه وهما يقومان بإعداد نبات الفول وتجهيزه للطهو . في تلك اللحظة مرت جارة للأسرة وكانت في طريقها إلى بيتها عائدة من قداس الصباح . وعندما رأت تلك الجارة السيد ودون، بجوار النافذة أومأت إليه برأسها بحية ثم دخلت المنزل .

وسرعان ما تحدثت الضيفة مع د أرايلا ، في لهجة مرحة فقالت :  
« رأيتك تركضين مع أحد الفتيان . هيء — هيء — هل ثمة أمل في أن ينتهي هذا إلى شيء ؟ » .

ودون أن ترفع د أرايلا ، رأسها ، رمقتها بنظرة تتم عن إدراكها لما قصدت إليه تلك المرأة .

— « بلغني أنه سيقصد « كرايستمينيستر » بمجرد سنوح الفرصة . »  
قالت د أرايلا ، وهي تنففس كالتمرة الغاضبة : « وهل سمعت ذلك مؤخرًا ؟ »  
— « أوه ، لا . ولكن الجميع يعرفون عنه ذلك وتلك خطته . إنه هنا باق  
م (٥)

حتى يجد الوسيلة التي توصله إلى هناك . وإلى أن يتمحق له هذا لا بد له من أن يتجول في صحبة شخص ما . إن شباب اليوم لا يوثق بهم كثيرا وهم يفضاون أن يكونوا كالطيور التي تنتقل من فنن إلى فنن . ما كانت الأمور كذلك في أيام شبابي .

وعندما رحلت الثائرة قالت « أراييلا » لأمها لجأة « أريد منك أن تذهبي مع أبي هذا المساء عقب تناول الشاي لزيارة أسرة « ادلين » والسؤال عن الأحوال هناك . ولكن ، لا ، هناك قناس المساء في كنيسة « فينزورث » ويمكنكم أن تذهبا إليهم . »

— « حقا ؟ وماذا تخبئين لهذا المساء . »

— « لا شيء ، لا شيء . كل ما في الأمر أنني أود أن أكون وحدي في البيت ، فهو خجول ولا يمكن أن أدعوه للدخول وأتحدثنا . سيفلت من بين أصابعي لولم أصطنع الحذر في معاملته وإني لأحس نحوه باهتمام كبير . »

— « سندهب طالما أن هذه رغبتك . هذا لو كان الطقس جميلا . »

وعند الأصيل التقت « أراييلا » « بجود » وتمشت معه وكان قد مضت عليه الآن أسابيع دون أن يفتح كتابا في اللغة اليونانية أو اللاتينية أو في أية لغة أخرى . وأخذ الاثنان يتجولان ويجوبان المنحدرات حتى وصلا إلى الممر المغطى بالعشب الأخضر الواقع بحذاء الجرف فسارا فيه إلى السد الدائري الذي بناه البريتون القدماء فأخذ « جود » يفكر في السنين التي مرت على هذا السد وفي الرعاة الذين مروا به منذ إنشائه ، وقد يكون ذلك قد حدث قبل مجيء الرومان إلى هذه البلاد ، ومن الوديان المنبسطة تحتهم ارتفعت إليهما أصوات أجراس الكائنات وسرعان ما توحدت هذه الأصوات جميعها في نغمة واحدة سريعة ولم تلبث أن توقفت .

قالت « أراييلا » بعد أن أصغت إلى دقات الأجراس : « والآن لا بد أن نعود أدراجنا . »

وافق « جود » على ذلك إذ طالما أنه قريب منها لا يأبه كثيرا للمكان الذي هو

فيه ، وعندنا وصلا إلى حيث تسكن قال : « لا لن أدخل . لم أنت في عجلة للدخول هذه الليلة ولم يخيم الظلام بعد ؟ »

قالت « انتظر لحظة » . ثم حاولت أن تفتح الباب واسكنها وجدته موصدا بالمفتاح .

قالت : « آه لقد ذهبا إلى الكنيسة . » وبعد أن فتشت عن المفتاح خلف ممسحة الأحذية عثرت عليه وقامت بفتح الباب وهي تسأله في رقة :

— « والآن ، هلا دخلت لحظة ؟ سنكون وحدنا تماما ، »

قال في ابتهاج : « سأدخل بكل تأكيد . »

كان الموقف الآن قد تغير تغيراً غير متوقع .

دخل الاثنان المنزل وسأله « أرايلا » عما إذا كان في حاجة إلى قليل من الشاي واعتذر عن ذلك لتأخر الوقت وقال إنه يفضل أن يجلس ويتحدث إليها . خلعت « أرايلا » سترتها وقبعتها وجلس الاثنان بجوار بعضهما البعض جلسة طبيعية تماما .

قالت في صوت ناعم : « لا تمنسني أرجوك . فأني أخشى على قشرة البيض . الأفضل أن أضعها في مكان أمين . » وبدأت تحل رباط ياقة ثوبها .

قال الفتى المحب : « ماذا عندك ؟ »

— « معي بيضة . إنها بيضة دجاجة من نوع ممتاز . إنني أقوم بتفريخ نوع من الدجاج نادر للغاية وإنني أحمل البيضة معي في كل مكان وستفرخ في أقل من ثلاثة أسابيع . »

— « وأين تحمليها ؟ »

— « هنا » قالت ذلك وهي تضع يدها على صدرها وتخرج البيضة وكانت ملفوفة في قطعة من الصوف ومن فوقها قطعة من جلد الخنزير وقاية لها من الكسر .

وبعد أن أرتها له أعادتها إلى مكانها من صدرها وهي تقول : « والآن احذر  
الاقتراب مني إذ أنني لا أريد أن أعرضها للكسر وعند ذلك أبدأ هذا الأمر  
مرة أخرى .

— ولم نقومين بهذه الأفعال الغريبة ؟

— « هذه عادة قديمة وأعتقد أنه من الأمور الطبيعية للبرأة أن تخرج إلى  
الدنيا أشياء حية . »

قال وهو يضحك : « هذا شيء يخرجني كثيرا » .

— « هذا ما تستحقه ، والآن ، لن تنال مني أكثر من ذلك » .

استدارت حول مقعدها ثم قدمت له خدها في رفق وحذر .

— « ليس هذا بالشئ الجميل » .

— « كان يحذر بك أن تظفر بي منذ لحظة عندما كنت لا أحمل البيضة » .  
ثم أردفت تقول في تحد : « لاني بدونها الآن » . سحبت البيضة من صدرها مرة  
أخرى وقبل أن يصل إليها أرجعتها إلى صدرها وهي تضحك فرحة بهذه اللعبة  
الجديدة . لقد نشب بين الاثنين صراع قصير انتهى بأن دس يده في صدرها وأخرج  
البيضة فاحمر وجهها خجلا ، وهنا أحس هو الآخر بحرج الموقف فاضطرب لذلك  
أشد الاضطراب .

ظل الاثنان ينظران إلى بعضهما البعض وهما يلثمثان ثم وقف وهو يقول : -  
« أعطني قبلة واحدة » . أستطيع الآن أن أقبلك دون أن أسبب إتلافا لممتلكات  
الغير . « أعطني قبلة ثم أذهب » .

ولسكنها قفزت واقفة هي الأخرى وصاحت تقول : « عليك أن تمسك بي  
أولا ، جرى وراها وكان الجانب الداخلي من الفرفة مظلم . ولما كانت النافذة  
صغيرة ولا تسمح بدخول ضوء كاف لم يستطع أن يكتشف ماذا حل « بأرايلا »  
حتى سمع ضحكها وهنا أدرك أنها ارتقت السلم فاندفع وراها .

## ( ٩ )

مضى شهران في اثنائهما تقابل الاثنان بانتظام ولم تكن ارايلا راضية تماماً عما يجري بينهما فهي دائماً فريسة لخيالات تتوقع وتتعجب .

و ذات يوم قابلت د ارايلا ، الطبيب المتجول د فلبرت ، وكغيرها من سكان الأكوخ القاطنين في تلك المنطقة ، كان د فلبرت ، معروفا لديها جيداً فبدأت تحدثه عن تجاربها وهي منقبضة النفس . ولكنهما سرعان ما أصبحت منشرفة الصدر وكان ذلك عقب رحيله عنها مباشرة . في ذلك المساء كانت د ارايلا ، على موعد مع د جود ، الذي جاء وكان يبدو مهموماً .

قال لها : « إني راحل . أظن أنه ينبغي على أن أرحل الآن . من الخير لكينا أن نفصل . ليت ما حدث بيننا لم يكن ! أعرف أنني المسئول عما حدث ولكن إصلاح ما فسد لا تزال فرصته باقية . »

وبدأت د ارايلا ، تجشش بالبكاء وتقول : « من أين لك العلم بأن فرصة إصلاح ما فسد لم تضع نهائياً ؟ الكلام سهل والفعل أصعب . لأنني لم أخبرك بكل شيء بعد . » قالت ذلك وهي تنظر في وجهه والدموع تترقق في عينيها .

قال « جود ، وقد اصفر وجهه : « ماذا ؟ لا . لا تقولي هذا . »

« نعم . ماذا أفعل أو هجرتي الآن . »

« اوه د ارايلا ، كيف تقولين ذلك يا حبيبتي . إنك تعرفين أنني إن هجرتك مهما حدث . »

« حسناً إذن . »

« ليس لي من موارد الرزق ما يمكنني أن أعتد عليه كما تعلين وإلا فمن المحتمل أنني كنت أفكر في الزواج منك قبل الآن . أما والحال هكذا فلا بد أن نتزوج وما من شيء آخر أتمنى أن أقوم به الآن . »

— « ظننت أيها العزيز أنك قد ترحل لهذا السبب بالذات وتتركني أجابه الموقف وحدي . »

— « إنك تدركين أحسن من أي إنسان آخر أنني منذ شهر مضى لم أكن أحلم بالزواج لأنه يقضى على خططي قضاء تاما . أقصد خططي قبل أن أتعرف بك أيتها العزيزة . ولكن ، ماهي هذه الخطط على كل حال . إنها لا تزيد على أن تكون أحلاما عن الكتب ، وخيالات عن الدرجات العلمية ، وأوهاما عن المناصب العليا وكلها بعيدة المنال . إننا سنزوج بكل تأكيد وسنزوج مهما يكن الأمر . »

في تلك الليلة خرج « جود » يتمشى وحده في الظلام وهو يحادث نفسه ويحاورها كان يدرك في أعماق عقله الواعي إدراكا لا يرقى إليه الشك أن « أرابيلا » لا تساوي في عالم النساء شيئا كثيرا . ومع ذلك ، فالعادات الشائعة بين شباب المناطق الريفية تقضى بأن من يتورط منهم في علاقة عاطفية مع امرأة فلا بد له من أن ينفذ ما وعد به احتراماً لكلمته مهما ترتب على هذا الفعل من نتائج . ولكي يريح ضميره أعطى « أرابيلا » قيمة لا تتفق والواقع في شيء ، قيمة رمزية ففسكرته عن « أرابيلا » وليست « أرابيلا » نفسها . هي بالنسبة إليه في المقام الأول وهذا ما يحول بخاطره .

وفي يوم الأحد التالي قامت الكنييسة بإعلان مواعيق الزواج على أهل المنطقة وقال الناس جميعا إن الشاب « فاولي » غر أحق ، فما أتعب ما انتهت إليه قراءاته ولا بد أنه سيلجأ إلى بيع كتبه ليشتري أدوات للطبخ .

أما الذين قدروا ما كان ، ومن بين هؤلاء والدا « أرابيلا » فقد أعانوا أن ماقرره « جود » يتفق تماما وما يتوقعه الناس من شاب قويم الخلق صادق الطوية مثله كي يصلح ما ارتكبه من خطأ في حق حبيبة قلبه البريئة . والقسيس الذي قام بزواجهما كان يبدو عليه الرضا أيضا بهذا الزواج .

وهكذا وقف الاثنان أمام القسيس وأقسم كل منهما يمينا مغالطة بأن يظل



طول حياته على نفس الاعتقاد و بنفس الشعور و بنفس الأمانى التى انطوى عليها صدره خلال الأسابيع القليلة التى سبقت زواجهما .

وعما لوحظ أن الدهشة لم تأخذ أحداً من حضروا هذا الزواج لما سمعوه من موافق وعهود نطق بها كل من العروسين بقدر عدم دهشتهم للزواج .

ولما كانت عمه « جود » تملك مخبراً ، فقد صنعت له كعكة العرس وقالت له فى مرارة إن هذه الكعكة هى آخر ما تصنعه لشخص خليلق بالرثاء عديم القيمة مثله كما تمنى على الله لو أنه قضى نحبه من سنين مضت ودفن فى قبر واحد مع أبيه وأمه بدلا من أن يعيش ويرى المتاعب ألواناً . من هذه الكعكة تناولت « أرايلا » بعض الشرائح صانعة منها لفتين أرسلتهما الى رفيقتهما «أنى وسارة» اللتين عاونتاها فى تجهيز لحم الخنزير ولم يفتها أن تكتب على كل من اللفتين « لذكرى نصيحة مفيدة . »

لم يكن مستقبل العروسين بالذى يوحى بالثقة حتى لاكثر الناس تفاؤلا حيث لم يزد « جود » عن كونه واحداً من عمال البناء فى التاسعة عشرة من عمره يعمل بنصف أجر إلى أن يمضى الزمن المناسب فى المهنة بينما زوجته عاطلة تماماً تعيش معه فى سكنهما الجديد بالمدينة حيث فكر « جود » أولاً أن من الصالح أن يبقيا فيها . غير أن حاجته الملحة إلى أن يزيد من دخله الضئيل دفعته إلى أن يسكن كوخاً صغيراً منزلاً يقوم على جانب الطريق بين « البيت الأسمر » و « ميريجرين » حيث يستطيع أن يفيد من بعض الخضروات التى تنمو فى الحديقة الصغيرة ، كما يستطيع أن يفيد من خبرة زوجته فى تربية الخنازير . ولكن هذه الحياة لم تكن هى التى توقعها عندما أقبل على الزواج ، كما أن سكنه الجديد اقتضى أن يسير مسافة طويلة من « الفردستون » وإليها يوميا ، أما « أرايلا » فأحست على أية حال أن هذه الأشياء لا تعدو أن تكون إجراءات مؤقتة للتغلب على موقف صعب . ومهما يكن من الأمر فإنها حصلت على زوج وهذا بالنسبة إليها هو الشيء الهام فى الموضوع كله . زوج له قدرة كبيرة على الكسب ويستطيع أن يزودها بما تحتاج من ملابس وبما تحب من قبهسات وذلك بمجرد تخويفه ودفعه فيقبل على مراولة مهنته ،

وأيضا بمجرد أن يعطى الأمور العملية اهتمامه بدلا من الانكباب على كتبه التي لا نفع فيها .

وهكذا في ليلة زفافهما قاد « جود » « أرايلا » إلى الكوخ الصغير تاركا وراءه غرفته القديمة في بيت عمته حيث أنجز فيها قدرا كبيرا من دراساته الشاقة في الأدبين اليوناني واللاتيني .

وعندما خلعت « أرايلا » ملابسها أمامه لأول مرة سرت في جسده رعدة خفيفة وخاصة عندما شرعت تحل ضفيرة صناعية طويلة كان من عادتها أن تعقصها في عقدة كبيرة خلف رأسها . لقد فحضت ضفيرتها ثم علقتها فوق المرأة التي اشتراها « جود » بمناسبة زواجهما .

قال في استمزاز لجاني : « ماذا . أليس هذا شعرك الطبيعي ؟ »

— « أوه ، لا . فلدى الطبقات العالية ان تكون طبيعية » .

— « هذا هراء . قد يكون صحيحا في المدن . ولكن الأمر يختلف في الريف . وفوق ذلك ، لديك من الشعر الطبيعي ما يكفي فيما أعتقد . أليس كذلك ؟ »

— « نعم لو قست الأمر بمقاييس أهل الريف . ولكن في المدن ينتظر الرجال أن يروا من شعر المرأة قدرا أكبر . وعندما كنت أعمل ساقية في حانة « بالدبركهام » .

— « تعملين ساقية في حانة بالدبركهام ؟ »

— « لم أكن بالضبط ساقية بل كنت أعمل على تجهيز الشراب في إحدى المشارب العامة هناك ولم أبق في هذا العمل طويلا . هذا كل ما في الأمر إذ ساعدني بعض الناس في الحصول على هذا العمل فقبلته للتسلية . وأنت في « الدبركهام » ، كلما زاد كسبك كان ذلك أفضل فأهل هذه المدينة أكثر حبا للترف من جميع أصدقائك الذين يقيمون في « كرايستمينيستر » . وفي « الدبركهام » تلبس كل سيدة من سيدات المجتمع الراقى شعرا مستعارا وهذا ما أخبرني به صبي الحلاق » .

شرع يفكر وفي نفسه شعور بالضيق إذ على الرغم من أن ما ذكرته له «أرابيلا» قد يسكون إلى حد ما صحيحا ، إلا أنه كان يعلم أن الكثير من الفتيات ذوات الطوية البريئة ينتقلون كل يوم من الريف إلى المدن حيث يبقين دون أن يفقدن سمة البساطة في كل ما يتعلق بحياتهن وزينتهن ، بينما يبدى فريق آخر من أولئك الفتيات ميلا قويا نحو التصنيع في كل ما يفعلن ويصنجن على درجة كبيرة من المهارة في تقليد ما تقع عليه عيونهن بمجرد أن ينظرن إلى الشيء نظرة عابرة . على أية حال ، قد لا يكون ثمة جريمة في أن تضيف امرأة إلى شعرها الطبيعي شعرا آخر صناعيا . وعلى ذلك ، صمم «جود» على ألا يفكر بعد الآن في هذا الموضوع .

في مقدور العروس في العادة أن تثير اهتمام الناس بها لعدة أسابيع عقب زفافها حتى لو انتابت الصعاب المالية حياتها الزوجية وحتى لو اكتنف مستقبلها الشك في حياة مستقرة . لقد اتسمت ظروف حياتها بالشذوذ ، كما كان أسلوبها في تقبل واقع حياتها يتجه بها نحو التهرب من مجابهة الحقائق المرة ونحو التشبث بالآوهام الجميلة التي لا بد أن تدفى صدر العروس في أيامها الأولى .

كانت السيدة «جود فاوولي» تسير في طرقات «ألفردستون» في يوم من أيام السوق وفي مشيتها تتجلى هذه السمة الخاصة التي تميزت بها «أرابيلا» في الأيام الأولى من زواجها ، عندما التقت بصديقتها «آني» التي لم تكن قد رأتها منذ ليلة الزفاف . وقبل أن يبدأ الحديث ، أخذتهما ، كما هي العادة ، نوبة من الضحك فالعالم بالنسبة لهما شيء يشير الضحك دون أن يعرفا لذلك سببا .

قالت الفتاة للعروس الشابة : «هكذا نجحت الخطة . أليس كذلك ؟ كنت أعلم أن نجاحها محقق وخاصة مع شخص طيب القلب مثله خليك بك أن تفخرى به ،

قالت السيدة «فاوولي» في هدوء : «وإني لكذلك» .

— «ومنى تتوقعين الحادث السعيد ؟»

— «اسكتي . ليس هنالك حادث سعيد مطلقا» .

— «ماذا تقولين ؟»

— « كنت مخطئة فيما ظننت . »

— « أوه ، أرايلا . » « أرايلا . » يالك من مخلوقة على قدر كبير من الخبث . مخطئة ! لقد فهمت الآن . يالك من عبقرية ماهرة . هذا شيء ما خطر ببالى رغم ما لدى من تجارب كثيرة . لم يذهب تفكيري إلى أبعد من الهدف الأصلي من وراء تلاقيكما . أما أنا فأن ألبأ إلى الخديعة لتحقيق الزواج . »

— « لا تسرعى فى اتهامى بالالتجاء إلى الخديعة . ليس فيما فعلت أية خديعة كل ما فى الأمر أننى لم أكن أعلم حقيقة المسألة . »

— « دعينى أسألك ألم تنتقل إليه عدوى الخادعة فيخدعك هو الآخر كلما التقى بك فى أمسيات السبت ؟ ومهما يكن من الأمر لا بد أنه كشف حيلتك وإنها لحيلة مزدوجة ورب السماء . »

— « إني لا أنكر الحيلة الأولى أما الثانية فلا . أف لك . أما هو فلن يهتم كثيرا بل سيستر عندما يعرف أننى كنت مخطئة فى ظنى وعند ذلك سيخمرنى بدعواته الصالحة وهذه طبيعة الرجال . ما الذى فى استطاعتهم أن يفعلوا خلاف ذلك ؟ لقد تم الزواج وانتهى كل شيء . »

وعلى الرغم من هذا ، أخذت « أرايلا » وفقا للتطور الطبيعى للأشياء تحس بالقلق كلما اقتربت اللحظة التى لا بد لها من الكشف فيها عن أن الذعر الذى أثارته لم يكن على أساس . جاءت هذه اللحظة عندما كانت « أرايلا » مع زوجها ذات مساء فى غرفة نومها فى الكوخ المنزول على جانب الطريق حيث اعتاد « جود » أن يأوى إليه بعد عمل شاق متصل استغرق اليوم كله . كان قد آوى إلى غرفته ليستريح وعندما دخلت عليه زوجته كان يتأرجح بين النوم واليقظة فلم يكن على علم كامل بوجودها أمام المرأة الصغيرة تخلع ملابسها بينما هو مضطجع على فراشه .

حدث واحد منها أعاده إلى وعيه الكامل . كان وجهها مائلا على صفحة المرأة أمامه فاستطاع أن يلحظ أنها تقبلى بابرار الهزيمة المذوه عنها سابقا على الخدين

ابراراً صناعياً عن طريق امتصاصها للهواء في قدرة عجيبة . خيل إليه في تلك اللحظة أن الهزمتين في الفترة الأخيرة من حياتهما سوياً أنزل ظهوراً على خديهما مما كانتا في أثناء الأسابيع الأولى من تعارفهما .

قال فجأة « لا تفعل ذلك يا « أرابيلا » ليس فيما تفعلين من ضرر ولكنني لا أحب أن أراك تفعلين ذلك . »

استدارت إليه وهي تضحك وتقول : « ربا . لم أكن أدري أنك ما زلت مستيقظاً . يالك من ساذج . ليس هذا بالشئ الذي يستحق اهتمامك . »

— « أين تعلمت هذه الحركة ؟ »

— « لم أتعلمها في مكان معين . عندما كنت أعمل في المشرب العام . كانت الهزمتان تظهران على وجهي دون كبير تناء إذ كنت أكثر امتلاءً أما الآن فالأمر مختلف . »

— « ليس للهزمتان أهمية عندي ولا اعتقد أنها ترفع من قيمة المرأة وبخاصة المتزوجة التي لها قوام ممتلئ مثل قوامك . »

— « يخالفك أكثر الرجال في رأيك هذا . »

— « لا يهمني رأى أكثر الرجال . وعلى أية حال ، كيف عرفت هذا الرأى ؟ »

— « كنت أسمع ما يقولون عندما كنت أعمل داخل غرفة تعبئة الشراب . »

— « أوه ، إن تجاربك السابقة التي اكتسبتها من المشرب العام هي التي جعلتك قادرة على اكتشاف البيرة المغشوشة عندما ذهبنا إلى المشرب العام ذات يوم من أيام الأحاد ، عندما تزوجتك كنت أظن أنك لم تبتعدى عن بيت أبيك قط . »

— « كان ينبغي عليك أن تكون أكثر علماً من ذلك ، وأن ترى أن بقائى

حيث ولدت لم يكن ليجعلنى أتميز بهذا القدر من التهذيب ، وليس في بيتنا من

العمل ما يدعو إلى أن أبقى فيه والمثل يقتضى فتركته وبقيت فى الحان ثلاثة أشهر فقط .

— « قريباً ستجد من الأعمال ما يشغل كل وقتك أيتها العزيزة . أليس كذلك ؟ »

— « وماذا تعنى ؟ »

— « أقصد طبعاً أن أعمالاً صغيرة عليك أن تعملها . »

— « أود . »

— « متى يحدث ما نوهت به ؟ هلا أخبرتنى بالضبط بدلاً من استخدام عبارات خاصة كما فعلت ؟ »

— « تريد أن أخبرك ؟ »

— « نعم . أخبرينى عن التاريخ »

— « ليس لدى ما أخبرك به . كنت مخطئة . »

— « ماذا تقوينى ؟ »

— « كنت مخطئة . »

جاء « جود » على السرير ناظراً إليها ثم قال : « وكيف حدث هذا ؟ » .

— « فى بعض الأحيان تتخيل النساء أشياء غير حقيقية . »

— « ولكن — إنى لم أكن مستعداً لمثل هذا الأمر . ليست لدى قطعة واحدة من أثاث ولا أكاد أمتلك شيئاً واحداً . ... »

ما كان يجدر به أن أسرع بالزواج وأقودك إلى بيت ينقصه كل شيء . لولا أنك زودتني بأخبار جعلت من واجبي أن أعمل على إنقاذك سواء كنت مستعداً للزواج أو غير مستعد . يا لله !

— « لا فائدة ترجى من الكلام فى هذا الموضوع فما كان لا يمكن الرجوع فيه . »

— « لم يبق لدى ما أقوله الآن » .

قال ذلك في بساطة ثم تمدد على الفراش وانقطع جبل الحديث بينهما .  
وعند ما نهض في الصباح التالي بدا عليه أنه ينظر إلى الدنيا نظرة أخرى  
مختلفة . أما عن الموضوع الذى أثير بينهما ، فكان مجبراً على أن يقبل كلامها .  
وفى موقف كهذا ما كان بمستطیع أن يفعل شيئاً آخر ما دامت الأفكار التقليدية  
سائدة . ولكن كيف سادت هذه الأفكار ؟ .

لقد بدأ يدرك بشكل غامض أن هنالك خطأ ما فى نظام اجتماعى يتطلب تقويمه  
العمل على إلغاء خطط ومشروعات استغرق وضعها سنوات من العمل المتصل  
والتفكير الدائم كما استدعى وضعها أيضاً من الإنسان أن يهمل فرصته الوحيدة  
التي تثبت بها أنه أرقى الحيوانات طراً ، وكى يسهم بعمله فى تيار التقدم العام الذى  
شمل جيله بأكمله . كل ذلك من جراء انتمسار وقى لغريزة قصيرة الأجل فانية  
ليس فيها شيء من طبيعة الرذائل وكل ما يمكن أن يقال عنها إنها قرينة للضعف  
البشرى . كان يميل إلى أن يسأل ما الذى فعله هو ، أو ما الذى فقدته هى بسبب  
ما هما بصدد حتى تحقق عليه لعنة الوقوع فى فخ يصيبه بالشلل ، وقد يصيبها هى  
أيضاً بالعجز الكامل مدى الحياة ١ .

من المحتمل أن يكون هنالك جانب من حسن الحظ. فى أن السبب المباشر  
لزوجته أصبح الآن لا وجود له ، وإن ظل الزواج قائماً .

( ١٠ )

حان الوقت الذى يجب فيه على « جود » وزوجته أن يذبحا الخنزير الذى  
أطعماه وسمناه فى حظيرتهما أثناء أشهر الخريف . لقد عزموا على أن يكون الذبح  
بمجرد ظهور ضوء الصباح حتى يتمكن « جود » من الذهاب إلى « ألفردستون »  
دون أن يتأخر عن عمله أكثر من ربع يوم .

كان الليل يبدو هادئاً بشكل عجيب فأطل « جود » برأسه من النافذة قبل حلول

الفجر بفترة طويلة ، فلاحظ أن الأرض مغطاة بطبقة من الجليد لا يتفق سمكها مع جو الفصل من السنة وخيل إليه أن مزيداً من الجليد يتساقط .

قال « أرايلا » : « أخشى ألا يستطيع الجزار أن يأتي اليوم » .

— لا تخش شيئاً ، فلا بد أن يحضر . ينبغي أن تنفض وتغلي الماء حتى يكون كل شيء جاهزاً عند ما يأتي « تشاللو » ليسخنه ، وهذا وإن كنت أفضل حرق الجلد بالنار على سلخه .

قال جود : « سأمنع وإنني لأفضل الطريقة الشائعة بين أهل المقاطعة التي جئت منها .

نزل السلم ثم أشعل النار تحت إباء الماء وأخذ يحشد لها الكثير من سيقان الفول الجافة وظل طول الوقت يعمل من غير شئعة يستضيء بلهبها بينما وهج النار يخمر الغرفة بريق خاطف يبهج النفس وإن كان شعور « جود » بالبهجة شابهة أفكار أوجدها ما يشعل النار من أجله . كانت هذه الأفكار تدور حول تسخين المياه لانزاع الشعر من جسد حيوان ما زال على قيد الحياة وصوته ما فقى يتردد في ركن من أركان الحديقة . وفي السادسة والنصف ، وهو وقت مجيء الجزار ، كانت المياه في القدر قد وصلت إلى درجة الغليان ونزلت « أرايلا » من أعلى المنزل وقالت : « هل وصل تشاللو ؟ » .

— لا .

انتظر الاثنان فترة أخرى والضوء يتزايد في السماء وتوسع رقعته رغم ما يتسم به من وهن يصاحب الفجر عادة في الأيام الشديدة البرودة . خرجت « أرايلا » من البيت وأطالت النظر إلى الطريق وبعد أن عادت إلى مكانها في الغرفة قالت : « أعتقد أنه إن يأتي اليوم . أرجح أنه أفرط أمس في الشراب وليس الجليد قطعاً من الكثرة بحيث يعوقه عن الحضور .

— « إذن لا مناص من أن نؤجل الذبح ، وإن نخمر سوى الماء الذي غليناه . قد يكون الجليد متراكماً في الوادي وبذلك لن يقوى على الحضور .



— « لا نستطيع أن نوجد الذبح وخاصة لأن الحيوان استنفد طعامه ولم يبق منه شيء بعد أن تناول صباح أمس آخر وجبة من طحن الشعير . »

— « صباح أمس ؟ وما الذي أكله منذ ذلك الحين ؟ »

— « لا شيء . »

— « ماذا هل تعرض لآلام الجوع ؟ »

— « نعم إننا نفعل ذلك دائماً قبل ذبح الحيوان بيوم أو يومين . وفي هذا إنقاذ لنا من متاعب تنظيف الأحشاء . ألا تعرف ذلك ؟ يالك من جاهل . »

— « كان هذا إذن سبب ضياعه طوال أمس . ياللسكين ! »

— « حسناً . لا بد لك من أن تقوم باخترام الجلد مستخدماً في ذلك القضيب الحديدي ، ولا مفر من ذلك . سأريك الطريقة وسأقوم بها أمامك . كنت أفضل أن يقول « تشاللو » هذا العمل إذ أن الخنزير كبير الحجم جداً ومع ذلك سلة السكاكين والأدوات الخاصة بالجزار هنا أرسلها بالأمس وفي وسعنا أن نستخدمها . »

قال « جود » : « لن أتركك تقومين بمثل هذا العمل . سأقوم أنا به مادام لا بد منه . »

ذهب « جود » إلى الحظيرة وأخذ يزيح الجليد المتراكم بضع ياردات ووضع المقعد الصغير ذا الأرجل الثلاث وأحضر السكاكين والحبال ، في تلك اللحظة أطل على هذه الترتيبات طائر من أقرب شجرة ولما لم يسر لم رأى هذا المنظر المنذر بالاشؤم ابتعد عنه وإن كان جائعاً . في تلك اللحظة أقبلت « أرابيلا » وقصد « جود » الحظيرة والحبل في يده ثم عقل الحيوان المروع الذي أخذ يصيح صياح الدهشة ثم تطور صياحه إلى صراخ متصل يعبر به عما في نفسه من غضب ، ففتحت « أرابيلا » باب الحظيرة وتعاون الاثنان في رفع الضحية المسكينة إلى الكرسي الصغير فكانت سيقان الخنزير إلى أعلى . وبينما أخذ « جود » يشدد قبضته على

الخنزير ضفطت «أرابيلا» على صدره وعقلته بالحبل حتى لا يبدى حراكا . وتغيرت نغمة الصوت الصادر عن الخنزير فلم يكن بالصوت الدال على الغضب بل كان صوتا ينم عن اليأس ، منعقا : مستطيلا ، بطيئا ، يائسا .

قال «جود» : «والذى نفسى بيده أفضل أن أفقد هذا الخنزير على أن أذبحه لقد أطعمت هذا الحيوان بيدي .»

— «لا تكن رقيق القلب غبيا . هالك السكين اللاصقة المدببة . افعل بها ما تشاء دون أن تغرسها عميقا .»

— «سأغرسها بإحكام حتى ينتهى الأمر ، هذا هو المهم .»

صاحت «أرابيلا» : «لا تفعل ، يجب أن يكون اللحم خاليا تماما من الدم ولتحقيق ذلك لا بد أن يموت موتا بطيئا وإلا ستعرض لخسارة كبيرة إذ يصبح اللحم أحمر مشبعا بالدم . فلتلئس النوريد فقط وهذا كل شيء .» إنى أعرف هذه الأمور معرفة جيدة إذ ألفتها منذ الصغر والجزار البارع هو الذى يترك الذبيحة تدمى لفترة طويلة . ينبغي أن تترك الحيوان فترة لا تقل عن ثمانى أو عشر دقائق حتى يسلم الروح .»

— «سأجعله يسلم الروح فى أقل من نصف دقيقة لو استطعت مهما يحدث اللون اللحم .» قال ذلك فى إصرار وهو يزيل الشعيرات الخشنة النابتة فوق حنجرة الخنزير كما يفعل الجزارون . وبعد أن غرس السكين فى الطبقات العليا من الشحم دفعها بكل قوته داخل رقبة الحيوان .»

صاحت «أرابيلا» : «على اللعنة إذا كنت أكرر قولى . ها أنت تغرس السكين فى لحم الحيوان أكثر مما يجب رغم كل ما قلته لك .»

— «اهدنى بالله يا «أرابيلا» وارحمى الحيوان المسكين .»

— «ارفع الدلو إلى أعلى لتلتاق فيه الدم ثم كف عن الكلام .»

وإن كان «جود» قام بعملية الذبح بطريقة خلت من كل فن إلا أنها تمت فى

رفق وتدفقت الدماء في فيض غزير بدلا من أن تنسكب نقرة ورام نقطة كما أرادت « أرابيلا » . هنا دخل صراخ الحيران في مرحلته الثالثة والأخيرة وهي مرحلة حشجة الموت وتركزت عيناه على « أرابيلا » وفيهما تعبير واضح صريح يدل على أنه أدرك أخيرا خيانة أولئك الذين كانوا يظنونهم أصدقاءه الأوفياء .

قالت « أرابيلا » : « دعه يسكب عن إخراج هذه الأصوات التي قد تدفع أحداً إلى المجيء هنا وإلى لا أود أن يعرف الناس أننا نقوم بمثل هذا العمل بأنفسنا » .

التقطت « أرابيلا » السكين بعد أن ألقت بها « جود » إلى الأرض ودفعتهما في فتحة العنق وشقت القصبة الهوائية نصفين وهنا صمت الخنزير لساعته وأخذت أنفاسه الأخيرة تنسرب من خلال الثقب .

قالت « أرابيلا » : « هذا أفضل » .

قال « جود » : « ياله من عمل قبيح » .

-- « ومع ذلك فلا بد لنا من أن نذبح الخنازير » .

أخرج الحيوان حشجة أخيرة وعلى الرغم مما في سيقانه من قيود أخذ يحرك ساقيه بكل ما تبقى فيهما من قوة . وبعد أن توقفت انسكاب الدم الأحمر في نقط متقطعة لفظت الذبيحة كمية من الدم الأسود المتجمد .

قالت « أرابيلا » : « هذا ما نريده وها هو لفظ أنفاسه الأخيرة : يا للخنزير من مخلوق خبيث ، إنه دائماً يحتفظ بقدر من الدم » .

وجاءت الزفرة الأخيرة على غير توقع من « جود » فجعلته يترنح في مكانه وعندما استعاد توازنه تعثرت قدماه بالإلقاء الذي سبق أن وضعه ليبتلق فيه الدم . صرخت « أرابيلا » صرخة مدوية وقالت : « لن أستطيع الآن أن أجهز أى قدر من الدهن ، إنك ضيعت كل شيء » .

أصلح « جود » من وضع الإثاء الذي لم يبق فيه سوى القليل من السائل الحار بعد أن تناثر الجانب الأكبر منه فوق سطح الجليد مكوّنا منظرا كئيّبا موحشا في أعين أولئك الذين نظروا إليه على أنه شيء آخر خلاف اللحم الذي تتغذى عليه ، أصبحت الآن شفتا الحيوان وخياشيمه داكنة اللون وتراخت عضلات السيقان .

قال « جود » : « شكرا لله لقد مات . »

قالت « أرايلا » في سخرية : « وما دخل الله في عمل مرهق كدبح خنزير . هلا أعلمتي ؟ للناس المساكين أن يأكلوا ليعيشوا . »

قال « جود » : « أعرف ذلك ، أعرفه جيدا . إنني لا ألومه ، ولجأة أحسا بصوت قريب منهما يقول لهما :

« أحسنكما صنعا يا شباب . ما كان في مقدوري أن أقوم بما قمتما به على وجه أفضل واتحل على اللعنة لو كان الأمر بخلاف ذلك ، وعندما رفعا رأسيهما إلى مصدر الصوت الأجهش وقع بصرهما على منتر « تشاللو » بجسمه البدين وهو ينحن على البوابة ويرمقهما بنظرات فاحصة .

قالت « أرايلا » : أنت سعيد بوقوفك هناك حيث ترمقنا بنظراتك . لقد أصبح اللحم مشبعا بالدم ولا يصلح الأكل وإن يساوى الآن شيئا في سوق اللحم وكل ذلك بسبب تأخره في الهجي . . »

أبدى « تشاللو » أسفه لتأخره في الهجي . وقال وهو يمز رأسه : « كان الواجب عليكما ألا تأسرعا فتدبجا الحيوان ، وبخاصة أنت ياسيدتي في ظرفك الدقيق الذي أنت فيه في الوقت الحاضر . »

قالت « أرايلا » وهي تنفجر ضاحكة : « لا تشغل نفسك بهذا الأمر كثيرا . وضحك « جود » كذلك . وكان في ضحكه شعور واضح بالمرارة .

أظهر « تشاللو » من الحماسة والنشاط في عمليات السلخ والتنظيف ما يمكن أن

يعتبر نوعاً من التعويض عن تأخره في الحضور للذبح . وأحس « جود » أنه غير راض عن نفسه بسبب فعلته ، وهو وإن كان على بينة مما به من نقص في فهم المسائل العامة ، إلا أنه أدرك أن إسناد الذبح إلى شخص آخر لا يغير من الوضع شيئاً . فنهض الجليد الأبيض مضرجا بدماء حيوان مثله لا يتفق منطقياً مع آرائه . بصفته من عشاق العدالة فضلاً عن كونه مسيحياً . ولكنه لم يستطع أن يرى كيف يمكن لإنسان مثله أن يرأب هذا الصدع . إنه كان دون شك كما سبق أن سمته زوجته ، رقيق القلب غيباً .

إنه أصبح الآن يكره السير في الطريق الموصل إلى « ألفردستون » ، إذ كان يحس أن لهذا الطريق عيوباً تتطلع إليه في استخفاف . أما معالم الطريق والآثار القائمة على جانبيه فتذكره كثيراً بما حدث بينه وبين زوجته من عشق وهيام . ولكن يقيم حاجزاً بين عينييه وهذه المعالم ، انهمك في القراءة أثناء سيره إلى عمله وعودته منه . ومع ذلك أخذ يشعر في بعض الأحيان أنه ، على الرغم من اتجاهه إلى الكتب ليتأهبى بقراءتها عن واقعه المرير ، لم يكن بمستطيع الهرب من تفاهات حياته أو الحصول على قيم الأفكار ونادرها ، شأنه في ذلك شأن غيره من العاملين الكادحين . وعندما مر ذات يوم بالقرب من البقعة الواقعة بجوار القناة ، حيث تم التعارف بينه وبين « أرابيلا » سمع أصواتاً كنتك التي سمعها حينذاك إذ كانت إحدى صديقات « أرابيلا » تتحدث إلى فتاة تجلس في كوخ على الطريق ، ف شعر أنه هو نفسه كان موضوع الحديث بين الفتاتين ، ومن المحتمل أن الدافع لهاتين الفتاتين على الحديث عنه أنهما لمحاه قادمة من بعيد . لم تدرك الفتاتان أن حوائط الكوخ كانت من الرقة بحيث استطاع « جود » أن يسمع حديثهما عند اقترابه منهما .

« على أية حال كنت أنا التي أرشدتها إلى الطريق ، من لا يغامر بشيء لا يكسب شيئاً . هذا ما قلته لها حينذاك ولو لم أقل لها ذلك لما نجحت في أن نصبح زوجته . »

« ما زلت أعتقد أنها كانت تعرف تماماً أنها خلوت كل شيء عندما أخبرته بأنها . . . »

أية صورة بشعة رسمتها تلك المرأة « لارا بيلا » ، أية تهمة نسبتها إليها وأقامت منها سبباً يدفع إلى أن يجعل منها خالصة فزوجة كانت الأقوال التي وردت على لسان تلك المرأة غاية في السوء وظلت تعصف به بعنف حتى أنه عندما وصل إلى الكوخ الذي يعيش فيه دفع سلة الأدوات داخل باب حديقة واستأنف السير دون توقف وكان قد عزم على أن يتوجه إلى حيث تعيش قريبته العجوز ليتناول لديها شيئاً من الطعام ، فذهب إلى هناك وبقى عندما إلى وقت متأخر من الليل . وعندما عاد إلى بيته . وجد زوجته منهمكة في إذابة شحم الخنزير وإعداده للطعام إذ كانت طوال اليوم في جولة خارج البيت فتأخرت في إنجاز أعمالها ومنها إذابة شحم الخنزير ولما كان يخشى أن يقول شيئاً يؤسف عليه بسبب ما سمعه في الطريق فقد كان مقلاً في حديثه . غير أن « أرا بيلا » لم تكف عن الكلام وفي أثناء حديثها ذكرت أنها في حاجة إلى نقود . وعندما لمحت طرف السكتاب ، باديا من جيبه أضافت أنه في حاجة إلى أن يزيد من كسبه فقال :

« إني لا أربح أكثر من أجر عامل مبتدئ » ، ولا يكفي مثل هذا الأجر الضئيل لإعالة زوجة يا عزيزتي .

« إذن ما كان ينبغي لك أن تتخذ لنفسك واحدة » .

« والآن يا « أرا بيلا » ، هذا شيء سيء للغاية إذ أنك تعالين جيداً كيف تم هذا الزواج » .

« أعترف لك صادقة بأنني كنت أظن أنني أقول الحقيقة عندما حدثتكم في هذا الموضوع - كان هذا أيضاً رأى الدكتور « فيلبرت » . كم كنت سعيداً عندما وجدت أن المسألة ليست كما توقعت .

وأسرع « جود » يقول : « لا ، لا . لا أقصد هذا ، بل أقصد ما حدث قبل ذلك . أعرف أن الخطأ لم يكن مرجعه إليك . ولكن أصدقاءك من الفتيات لم

يخلصن لك النصيحة ولو لم ينصحنك ، أو لو لم تنصحن بنصيحتهن لكاننا في هذه اللحظة متحررين من قيد مهما قيل فيه فهو قيد يسبب لكليتنا ضيقا وعننا شديدين وقد يكون ذلك أمراً يثير الحزن في النفس ، ولكن هذه هي الحقيقة .

— « ومن الذى حدثك من أصدقائي ؟ أية نصيحة تقصد ؟ لا بد من أن تجربني . »

— « أفضل ألا أقول شيئاً في هذا الموضوع . »

— « ولكنك بالتأكيد ستفعل ، ومن واجبك أن تتكلم ولن يشرفك أن تمتنع عن الكلام . »

— « حسناً جداً سأتكلم . وبدأ يتحدث ويشير في رفق إلى ما نأى إلى عليه خاصاً بزواجه وأخيراً قال :

— « ولكنني لا أود أن أتحدث كثيراً عن هذا الموضوع فلنكف عن ذكره . »

وانهار أسلوبها الدفاعي وأخذت تضحك ببرود وتقول : « ليس هذا بالامر الهام فلكل امرأة الحق في أن تتصرف بهذه الطريقة التي تصرف بها وهي مسئولة عما تتعرض له بسبب تصرفها . »

— « إنني لا أوافقك على ما تقولين يا « بيلا » ... قد يكون للبرأة الحق في ذلك لو لم ينتج عن تصرفها إلحاق الأذى بالرجل مدى حياته ، أو إلحاق الأذى بها في حالة نكوص الرجل . وقد يكون تصرفها فضولاً لو أن ضعف اللحظة ينتهي بانتهاء اللحظة ، أو حتى بانتهاء العام . أما إذا كانت النتائج كبيرة الأثر على هذه الصورة فلا ينبغي للبرأة أن تأتي من الأعمال ما يوقع بالرجل إذا كان يتسم بالأمانة ، أو يوقع بها هي إذا لم يكن الرجل كذلك . »

— « وماذا كان ينبغي على أن أفعل ؟ »

— « كان ينبغي عليك أن تمنحيني بعض الوقت . لم تشغلين نفسك الليلة كي تذيبى شحم هذا الخنزير ؟ أرجو أن تسكني عن هذا الآن ! »

-- « إذن لا بد لي من أن أقوم بإذا بته غدا صباحا فلن يبق طويلا دون أن يفسد » .

-- « حسنا جدا - فلتفعل » .

( ١١ )

في الصباح التالي ، وكان يوم أحد ، استأنفت « أرابيلا » عملها حوالى العاشرة وفي استئنافه تذكرت حديث الليلة السابقة فعاد إليها نفس المزاج العنيد .

-- « وهل تقول القصة التى يتناولها الناس فى « ميريجرين » بأننى نصبت لك فخا ثم أوقعتك فيه ؟ يالك من صيد ثمين أرسله الله لى »

وبينما كانت دماء « أرابيلا » توشك على الغليان وقع بصرها على عدد من كتب الأدب القديم ، الحبيبة لدى « جود » فوق منضدة حيث يجب ألا تكون .

تملك « أرابيلا » ضيق شديد عندما رأت تلك الكتب فتناولتها كتابا كتابا وألقت بها على أرض الغرفة وهى تصيح : « لا أستطيع أن أرى هذه الكتب فى طريق على هذه الصورة » .

قال « جود » : « اتركى كتبى وشأنها لا تمسيها . فى استطاعتك أن تبعديها عنك إن شئت أما أن تمسكيها بيديك الملوئين بالشحم فهذا أمر ان أقبله إذ انه يملأنى شمزا . »

كانت أصابع « أرابيلا » قد تاوتت بالشحم مما ترتب عليه حدوث آثار واضحة على أغلفة الكتب التى أمسكت بها وظلت تقذف بها وتبعثرها على الأرض فى إصرار وتعمد . وعندما طفح الكيل لم يتمالك نفسه فقبض على ذراعيها بيديه كي يمنعها من الإمساك بالكتب وفى هذه الأثناء انحلت عقدة شعرها فانزلقت صفائرها على أذنيها .

قالت « أرابيلا » : « اتركنى . »

-- « عدينى أولا أن تتركى كتبى وشأنها . »



ترددت « أراييلا » قليلا ثم قالت : « اتركني » .  
— « عديني أولا » .

وبعد لحظة قالت : « إني أعذك » .

وهنا تركها تذهب فعبرت الغرفة متجهة نحو الباب وخرجت منه إلى الطريق العام وقد بدا على وجهها الانقباض والتجهم ، وفي الطريق بدأت تسير ذهاباً وجيئة وهي تجذب شعرها في اهتياج فتزيد من فوضاه ، كما تحمل بضعة أضرار في ثوبها . كان صباحاً جميلاً في يوم من أيام الآحاد والجو جاف رائق كثير الصقيع وأجراس كنيسة « ألفردستون » تدق فيحمل النسيم القادم من الشمال رنينها والناس يسرون في الطريق وقد ارتدوا خير ثيابهم — منهم العشاق الذين يسرون اثنين اثنين تماماً كما كان « جود » و « أراييلا » يسيران في نفس الطريق قبل بضعة أشهر . وبدأ المارة يتطلعون إلى المنظر الشاذ الذي كانت « أراييلا » تمثله وهي عارية الرأس مهوشة الشعر محتلة الثياب وأكمامها مرفوعة إلى ما بعد مرفقيها بينما تنضح يداها بالشحم السائل . تصنع أحد المارة الخوف منها فقال كمن يحدث نفسه :

— « يا كريم خلصنا » .

صاحت « أراييلا » تقول : انظروا أيها الناس كيف يعاماني زوجي . إنه يرغبني على العمل أيام الآحاد بدلاً من أن يدعني أذهب إلى الكنيسة كما ينبغي أن أفعل . إنه يجذبني من شعري ويشد ثوبي . « استولى الغضب على « جود » فاندفع خارجاً من البيت كي يعيدها إلى الداخل بالقوة . وفجأة فقد حرارته وهدأت نفسه إذ انبثق في صدره شعور بأن كل ما بينهما زال فإن يعنيه في كثير أو قليل ما يقع منها . عندئذ وقف أمامها يتأماماً وهو لا يبدي حراكاً .

أيقن أن حياتهما دمرت تماماً ، وأيقن أن الذي دمرها هو ما ارتكبه من زلة كبرى بأقدامهما على زواج قائم على عقد دائم أوحى به شعور عابر مقطوع الصلة بالدوافع الأصلية التي من شأنها أن تجعل المرء يتحمل قيود الحياة الزوجية دون ملل أو شكوى .

قالت وفي صوتها رنة التساؤل : « أعازم أنت على أن تسيء إلى كما أساء أبوك إلى أمك وكما أساءت عمته إلى زوجها ؟ إنك وأفراد عائلتك من أصحاب الأمزجة الشاذة وبخاصة عندما تسكونون أزواجاً وزوجات » .

ومعها « جود » بمفطرة تتم عن الدمشق والاستغراب لما قالت فتوقفت عن الكلام وأخذت تسير ذهاباً وجيئة حتى أصبحت بالتعب . عند ذلك غادر المكان ، وبعد أن تحول قليلاً على غير هدى ، سار في اتجاه « ميريجرين » قاصداً منزل عمته وكانت صحتها في تدهور يوماً بعد يوم .

قال « جود » بدون مقدمات وهو يجلس أمام النار : « أسألك يا عمي سؤالا وأود منك أن تجيبني عليه . هل أساء أبى معاملة أمى وهل أساءت عمى معاملة زوجها ؟ »

رفعت العمة عينيهما الذابتين ونظرت إليه من أسفل قلنسوتها القديمة التي لا تفارق رأسها وقالت : « من الذي أخبرك بهذا ؟ »

— « سمعت حديثاً فوددت أن أعرف كل شيء يتعلق بهذا الموضوع . »

— « لم يكن الخطأ من صنعك على أية حال . » إنها زوجتك ، وأكاد أجزم أنها هي التي تخوض في مثل هذه الأمور ويدفعها غباؤها إلى فعل ذلك . على أية حال ، لا أستطيع أن أخبرك بشيء ذى بال وكل ما هنالك أن أباك وأمك لم يتمكنا من العيش سوياً فافترقا . كانا عائدين من السوق في « الفردستون » وكنت أنت طفلاً صغيراً عندما تشاجرا ليآخر مرة وافترقا نهائياً . وكان ذلك فوق التل بجوار البيت الأسمر . بعد ذلك مباشرة توفيت أمك ، باختصار أغرقت نفسها فأخذك أبوك إلى جنوب « وسكس » ولم يعد إلى هذا المكان بعد ذلك قط . هنا تذكر أن أباه لم يكن ليذكر شيئاً عن الفترة التي قضاها في شمال « وسكس » كما لم يذكر شيئاً عن زوجته حتى لحظة مماته . »

« ونفس الشيء حدث لعمتك . فعندما أهانها زوجها كرهت أن تعيش معه ورحلت مع ابنتها الصغيرة إلى لندن . إن أفراد أسرة « فاوى » لم يخلقوا للحياة

الزوجية ، ولم يناسبنا قط هذا النمط من الحياة . إن شيئاً ما يجري في دمائنا ويجعلنا ننفر من القيود ونحب الانطلاق لذا كان ينبغي علينا أن تصفى لنصيحتي ولا تزوج .

.. « في أى مكان قرر أبى وأمى الاتصال ؟ هل قلت أنهما قررا الاتصال باقرب من البيت الأسمر ؟ »

— « بعده بمسافة قصيرة . وعلى وجه الدقة حيث يتفرع الطريق إلى « فينووث » وحيث يقوم النصب الدال على الطريق . في هذه البقعة بالذات أقيمت ذات مرة مشنقة وهذه ليست عديمة الصلة تماماً بالقصة التي نحن بصددتها ، ولكن لنضع ذلك الآن . »

وعندما جل الظلام ترك « جود » بيت عمته العجوز كما لو كان ينوى الذهاب إلى بيته ، لكنه بمجرد أن وصل إلى المنخفض الواسع ظل يسير فيه حتى بلغ بركة كبيرة مستديرة . كان الجليد على حاله وإن لم يكن شديد البرودة بوجه خاص . وشيئاً فشيئاً طلعت النجوم الكبيرة في السماء فوقه وأخذت في كائنها تتألق . وضع إحدى قدميه على حافة الجليد ثم وضع الأخرى بجوارها فانهار الجليد تحت ثقل جسمه ولكن ذلك لم يمنعه من السير . بل حفزه إلى مواصلة المشي حتى وصل إلى قلب البركة بينما كان الثلج يتكسر تحت أقدامه محدثاً أصواتاً عالية . وعندما كان يقترب من قلب البركة أخذ يتلفت حوله ثم قفز إلى أعلى وهنا عاد صوت تكسر الجليد إلى سابقه . ولكن « جود » لم يسقط إلى داخل البركة . مرة أخرى قفز في الهواء ولكن تكسر الثلج كان قد توقف وهنا عاد إلى خارج البركة وقفز منها إلى الأرض المجاورة .

إن شيئاً أدهشه . ما الذي دار في خله ومنعه من إتمام ما نوى عليه ؟ لقد ظن أنه عاجز عن قتل نفسه لنقص في شعوره بالكرامة والعزة .

لقد لفظه الموت واحتقر شأنه ورفض أن يأخذه لينقذه من عذاب نفسه . ما الذي يستطيع أن يفعله كي يذل نفسه أكثر من أن يضع حداً لحياته ويقضى على وجوده ؟

أى عمل يكون أقل نيلا من الاتجار وأكثر ملاءمة لحالته النفسية الراهنة ،  
 في استطاعته أن يدمن الشراب ، وهذا قطعاً ما أراد أن يفعله في تلك اللحظة  
 وإن كان قد غاب عن ذاكرته ، فالشراب هو الملجأ الطبيعي الذي يلجأ إليه  
 اليائسون من لا وزن لهم ولا قدر . هكذا عرف لم يذهب بعض الناس إلى الحانات  
 حيث يعبون الخمر عباً ، وهنا أسرع بالنزول من فوق التل وسار في اتجاه شمالي  
 حتى وصل إلى مشرب عام صغير لا يرتاده أحد ، وعندما دخله وجلس إلى إحدى  
 الموائد وقع بصره على صورة شمشون ودليلة معلقة على الحائط فتذكر أنه زار  
 هذا المكان في صحبة « أرابيلا » في أول يوم أحد عقب تعارفهما ، فطلب خمرًا  
 وظل يشرب في نشاط وخفة ساعة من الزمان وربما أكثر .

وعندما عاد إلى بيته يترنح في ساعة متأخرة من تلك الليلة ، أحس أن كل ما كان  
 يعمل في نفسه من انقباض قد زال ، وأن فسكره صفا ورأسه خفت فبدأ يضحك  
 عالياً ويسأل نفسه في دهشة كيف يمكن أن تستقبله « أرابيلا » وهو على هذه  
 الصورة الجديدة . كان الظلام يملأ البيت عندما عاد . ولتغثه في السير أضاع وقتاً  
 طويلاً قبل أن يجد نورا يضيء به المكان ، ومن ثم وجد أن الأنوار المتخلقة عن  
 تخفيف الخنزير ومن نشر كميات الشحم وشرائح اللحم واضحة إلا أن الشحم واللحم  
 لم يكن لهما وجود . غير أنه وجد بضع كبات كتبت بها زوجته على مظاروف قديم  
 علقت فوق نفاخة اللهب بجوار المصطلي وجرت الكتابة كالآتي :

« ذهب إلى بعض الأصدقاء لأقيم عندهم وإن أعود . »

بقي في البيت لا يبرحه طيلة اليوم التالي . وتخاص من بقايا الخنزير ، بإرسالها  
 إلى « الفردستون » وقام بجهد شامل لتنظيف المكان ثم أغلق البيت بالقفل ووضع  
 المفتاح في مكان معروف « لأرابيلا » حتى تجده لو عادت . وذهب إلى « الفردستون »  
 ليعمل في أشغال البناء .

وعندما عاد إلى البيت ليلاً وجد أن زوجته لم تحضر في أثناء غيابها . ومرة  
 اليوم الثاني دون أن تحضر ، وكذلك اليوم الثالث ، وأخيراً جاءه خطاب منها

تخبره فيه أنها أصبحت لاتطبق العيش معه ، وأنه خامل الذكر عديم النشاط ، وأن أسلوب حياته لا يعنىها في قليل أو كثير ، وأنه لا أمل لها في أن يتحسن وضعه أو وضعها في المستقبل القريب . واستمر الخطاب يقول إن والديها كانا يفكران في إمكان الهجرة إلى استراليا إذ أن لحم الخنزير لم يعد بالتجارة الراجعة في تلك الأيام وأنهما قررا أخيرا أن يساغرا وتفرح عليه أن يوافق على أن تصحبهما إلى هناك ، فامرأة مثلها لابد أن تجد هناك من الفرص ما يفوق ما تجده الآن في بلاد ميت كبلدها .

أجاب « جود » على خطابها قائلاً إنه لا يمانع بتاتا في سفرها بل بالعكس يعتقد أن سفرها عمل ينطوى على الحكمة طالما أنها تود أن تسافر ، وطالما أن السفر قد يكون لصالح كل منهما . وبعد أن انتهى من كتابة خطابه ، وضع بداخله ما حصل عليه من بيع لحم الخنزير وأضاف إليه كل ماله من مال ولم يكن هذا بالشيء الكثير .

من ذلك اليوم انقطعت عنه أخبارها إلا ما كان يسمعه عنها بطريق الصدفة رغم أن أباه وأفراد عائلتها لم يبادروا بالسفر بل ظلوا حتى فرغوا من بيع أمتعتهم وممتلكاتهم ، وعندما علم أن بيما عانيا كان على وشك الانعقاد في بيت والد « أرابيلا » ، أحضر « جود » عربية صغيرة وضع عليها أثاث بيته وممتلكاته الشخصية وأرسلها إلى هناك حيث يمكن أن تباع لحساب « أرابيلا » مع غيرها من الأشياء ، أو حيث يمكن أن يباع منها القدر الذى يتفق ورغباتها .

بعد ذلك انتقل إلى « الفرديستون » واتخذ لنفسه مسكنا هناك . وفى أثناء تجواله فى المنطقة وقع بصره فى نافذة أحد الحوانيت على الإعلان اليدوى الذى يعلن عن بيع أثاث حميه . وعندما دقق النظر فى تاريخ البيع وجدده قد مضى أجله دون أن يظن له فيذهب باقرب من مكان البيع . وعقب ذلك ببضعة أيام دخل دكانا مظلماً لأحد سماسرة المزايدات وكان يقع فى الشارع الرئيسى للمدينة . ومن بين مجموعة كبيرة من الأشياء التى لاتجميعها رابطة كأواني الطبخ والمشاجب ،

والشمعدانات النحاسية ، والمرايا المتحركة وغيرها من الأشياء المسكدة في الجزء الخلفي من المتجر كان يبدو أنها مجلوبة لتوها من حلقة بيع ، استطاع أن يعثر على صورة صغيرة داخل إطار وكانت الصورة صورته .

كانت صورة له سبق أن صورها لنفسه وضع لها إطارا لدى صانع قريب ثم قدمها إلى « أرايلا » للذكرى عقب زواجهما مباشرة . كانت الصورة لاتزال تحمل إهداءها له وتاريخ هذا الإهداء ، ولابد أن « أرايلا » ألقت بها مع بقية الأشياء التي رغبت في أن تتخلص منها عن طريق البيع العلني .

قال الواسطة « السمسار » الذي لم يلاحظ أنه صاحب الصورة إذ رآه يطيل النظر إليها وإلى الأشياء الأخرى أمامه : « هذه مجموعة صغيرة أشتريتها من حلقة بيع علني عقدت في الأكواخ التي تقع على الطريق إلى « ميريجرين » . إن إطار الصورة مفيد للغاية ويمكن لك أن تستخدمه بعد أن تنزع الصورة عنه وتستطيع أن تشتريه مقابل قليل من المال .

كشف هذا الحادث الصامت الذي وقع مصادفة ، الموت الكامل لكل عاطفة رقيقة في قلب الزوجة ، كما أصبح هذا الحادث هو الضربة الصغيرة النهائية التي قضت على كل حب في قلبه . فدفع المبلغ الصغير الذي طلبه التاجر منه وأخذ الإطار وبداخله الصورة . وعندما عاد إلى بيته ألقي بالإطار والصورة في نار المصطلي .

وبعد بضعة أيام بلغه أن « أرايلا » وأبويها قد رحلا عن البلدة . كان قد أرسل لها مقترحا عليها أن يأتي ليوذعها قبل سفرها كاجراء شكلي على الأقل ، ولكنهما رفضت الفكرة على اعتبار أنها هي التي رغبت في السفر ، فسلم بوجهة النظر هذه ، ومن المحتمل أنها كانت على حق في ذلك . وفي المساء التالي لسفر زوجته وعقب انتهائه من عمله ، خرج يتمشى في ضوء النجوم وفي الطريق الذي ألفه جييدا وهو الطريق الموصل إلى أعلى الهضبة وهي التي كانت مسرحا لحياته العاطفية . كان الشعور الغالب عليه حينذاك أنه عاد أخيرا إلى حياته الطبيعية .

ولم يستطع أن يجمع شتات نفسه فبينما كان يسير في طريقه القديم المعهود ، بدا له أنه لم يزل صديقا ، لم يضاف الزمن إلى عمره يوما واحدا منذ وقف يحلم على قمة ذلك التل عندما ثارت حماسته «لكرابستمينديستر» ، وتأججت لهفته على تلقى العلم لأول مرة .

قال . « ومع ذلك ، أنا الآن رجل يافع ولى زوجة . والأكثر من ذلك أنني بلغت مرحلة النضج التي عندها يختلف الرجل عادة مع زوجته ، ثم يفقد حبه لها ، ثم يتعارك معها ، وأخيرا ينفصل عنها » . في تلك اللحظة ، تذكر أنه يقف في مكان لا يبعد كثيرا عن المكان الذي قيل عنه إنه المكان الذي تم فيه الانفصال بين أبيه وأمه .

وفي نقطة أبعد من تلك قليلا ظهرت قمة المرتفع التي خيل لآليه في وقت من الأوقات أنها تمثل مدينة « كرايستمينديستر » وعندما رأى لوحة المسافات ظاهرة على جانب الطريق أمامه ، اقترب منها وقرأ الرقم المحفور عليها وهو الرقم الذي يوضح عدد الأميال التي تفصله عن المدينة ، وهنا تذكر أنه ذات مرة ، في أثناء عودته إلى البيت ، حفر على ظهر هذه اللوحة بأزميله ، وكان ماضى النصل ، بضع كلمات يعبر بها عما يجيش في صدره من آمال . كان قد فعل ذلك في الأسبوع الأول لعمله الجديد قبل أن تحوله عن أهدافه في الحياة امرأة لاتصلح له ولا تليق به ، وسأل نفسه عما إذا كانت الكتابة لاتزال على حالها ، وعما إذا كان في الإمكان قراءتها ، فذهب إلى اللوحة وأزاح بيده ماتراكم عليها من أعشاب . وعلى ضوء عود ثقاب استطاع أن يقرأ ما سبق أن نقشه في حماس شديد .

## إلى هناك

ج. ف.

إن مرأى هذه الكلمات ، وبقائها على وضوحها ، وسط ما يحيط بها من حشائش أشعل في صدره شرارة من اللهب القديم . لاشك أنه يجب أن يعيش

حياته ، ويبلو حاوها ومرها طبقا للخطة التي رسمها لنفسه وأن يتجاشى أحزانه السقيمة حتى لو رأى القبح مجسما في كل ما يحيط به ، وأن يعمل الخير بنفس راضية ، وهذا ما سمع أنها الفلسفة التي اعتنقها ونادى بها فيلسوف يدعى « سبينوزا » .

لقد سمع أن فيلسوفا يدعى « سبينوزا » ، تلخص فلسفته في جملة واحدة هي : « العمل الخير بنفس راضية » فقرر أن يصبح هو الآخر من أتباع هذه الفلسفة . وقد يضطر إلى الدخول في صراع مع حنطه السيء ويعود إلى العمل على تحقيق تواياه الأولى .

وعندما انتقل إلى بقعة أخرى تبعد قليلا عن الأولى ، ظهر الأفق أمامه ممتدا في اتجاه شمالي شرقي وأشرق في السماء هالة من نور ضعيف ، سحابة سوداء بحجم الكف لا يمكن أن يراها سوى فرد يتمتع بنعمة الإيمان وكان ذلك كافيا له كي يشد رحاله إلى « كرايستمينيستر » بمجرد أن تنتهي فترة تلبذه الصناعية .

ومن ثم عاد إلى مسكنه وقد تحسن مزاجه فجثا يتلو صلاته .



# البَابُ الثَّانِي

فِي كَرَايَةِ تَمْيِيزِيسْتَر



« ابرحمه الله ، خرج إلى الدنيا  
والضياع نصيبه » .

« سوينبيرن »

« علم نفسه فارتفع شأنه بين أهل  
الحى .

ونما حبه مع الزمن وكبر ، .

« أوليد »

## في « كرايستمينيستر »

كانت المرحلة التالية الجديرة بالذكر في حياة « جود » حين ظهر يسير قاطعا ذلك الطريق الذي أظله صغيرا ، وعرف فيه بعد ثلاث سنوات حبه وخطوبته لأرايالا ثم قطع حياتهما الزوجية المضطربة . كان يسير في اتجاه مدينة « كرايستمينيستر » عند نقطة تبعد ميلا أو ميلين إلى جنوبهما الغربي .

وأخيرا وجد نفسه بعيداً عن جو « ميريجرين » و « الفرديستون » إذ أنه هجر عمله ، حاملا أدواته فوق ظهره ، وهو في طريقه إلى شيء جديد ، بداية كان يتطلع إلى تحقيقها منذ ما يقرب من عشرة أعوام ، وحالت دون ذلك خطوبته وتجربة زواجه من « أرايالا » .

أصبح « جود » الآن شخصا يمكن وصفه بأنه شاب له ملامح قوية جادة تدل على أن صاحبها مستغرق في تفكير عميق . أما وجهه فكان كالحلزون وعيناه كالحيتين كذلك . وله لحية سوداء مهذبة الشكل تبدو بالنسبة لنموها وكثافتها أنها تناسب من هو أكبر منه سنا ، كما أنها بالإضافة إلى شعره الغزير المجعد مصدر للمتاعب فيعاني منها كثيرا . وخاصة عند ما يضطر إلى تمشيها ليزيل ما يعلق بها من الغبار الذي يتطاير من الصخور التي يقوم بنحتها . أما مقدرته في هذا العمل فإنه اكتسبها في الريف فقط فهي تشمل ، بالإضافة إلى نحت الصخور وتهذيبها ، قطع الأحجار وإعدادها للبناء فوق المقابر ، والتجديد العادي للكنائس القديمة والنحت بصفة عامة . ولو أنه في لندن لكان من المرجح أن يصبح من الفنانين المتخصصين فيكون : بناء للنماذج ، أو نماحا لأشكال النباتات أو أوراق الشجر ، أو ربما مثالا .

في ذلك الأصيل استقل عربة من « الفردستون » ، إلى أقرب قرية تقع في اتجاه المدينة ، وهو الآن يقطع الأميال الأربعة الباقية لرغبته في المشي لا حاجته إليه فهو يتصور دائما أنه لا بد أن يصل المدينة هكذا سائرا على قدميه في هذا الطريق .

أما الدافع الذى دفعه للذهاب فكان غريبا ومصدره يمت بأكبر الصلة للناحية الانفعالية أكثر من الكيان العقلى كما هو الحال لمن هم فى سنه من الشباب . وفى يوم من الأيام وهو يسكن « الفردستون » توجه إلى « ميريجرين » لزيارة خالته العجوز ولاحظ بين الشمعدانات النحاسية على رف المائدة صورة لفتاة لها وجه صغير رقيق التقاطيح تضع فوق رأسها قبعة واسعة الأطراف تتبدل فوق خصل من الشعر المتألق كهالة من نور . وعندما سأل عن صاحبة الصورة أجابته الحالة العجوز فى خشونة بأنها إحدى بنات خذولته وتدعى -- سوبرايدهد ، وهى من الفرع المكروه فى الأسرة . وبعد أن وجه عدة أسئلة إلى العجوز فى هذا الشأن عرف منها أن قريبته هذه تسكن « كرايستمينيستر » وإن كانت الحالة لم تستطع أن تدله على المكان الذى تعيش فيه الفتاة ولا العمل الذى تقوم به .

لم تقبل الحالة أن تتنازل عن الصورة « لجود » ، ولكن الصورة ظلت تضغط على خياله فى قوة وفى النهاية أصبحت عنصراً أساسياً من مكونات عقله الباطن ودافعا خفيا يدفعه إلى أن يتبع صديقه الملم حيث يعيش فى « كرايستمينيستر » .

توقف « جود » على قمة منحدر وعر وأخذ يمتع نظره بمنظر المدينة عن بعد فبرزت أمامه بأبنيتها الصخرية ذات السقوف المرتجلة وارتفعت بروسها على الحدود القريبة لمقاطعة وسكس ، وكانت الأبنية يميل الواحد منها على الآخر فتتشابك أعناقها وتتعانق أطرافها كقطعة حية فى جسد حى . وإلى أقصى الشمال يتدفق نهر « التيمز » فى هدوء بين حقول تلك المملكة القديمة . أما الأبنية فكانت فى لحظة الغروب تقبع فى هدوء بينما دوارة هنا وأخرى هناك تظهر فوق الأبراج والقباب فتتحول المنظر من صورة كالحة إلى أخرى ذات التماع .

وعندما وصل إلى قاع المنخفض سار على الطريق المستوى بين أشجار الصفصاف وقد تلاشى كيانها فى ضوء الغسق وسرعان ما وصل إلى أول خط المصايف التى تضىء المدينة وبعض هذه المصايف بالذات سبق أن أضاءت السماء بضياء بهيج كان له تأثير السحر على عينيهِ المتعبتين فى فترة الأحلام التى مرت به منذ سنوات .

وأصبحت المصباح الآن توميء إليه بصورتها الباهتة في جو شديد الغموض كأنما تزهّد في وجوده على الرغم من انتظارها لإياه كل هذه السنين وعلى الرغم مما بدا عليها من شعور بالمرارة والحيرة لتأخره عن الجيء .

كان في سيره قريب الشبه « بديك هيننجتن » ، ذلك التاجر الفذ ذو الانجاعات الروحانية والذي ما كان للكسب المادى تأثير على نفسه فهو يقطع طرقات الجزء الخارجى من المدينة وفي مشيته الحذر الذى تنسم به خطوات المستكشفين ولم ير شيئاً يذكر من روح المدينة في ضواحيها الواقعة على هذا الجانب منها فطلبته الأولى أن يحصل على مكان بأوى، إليه وأخذ يختبر بكل عناية الأماكن التى يحتمل أن تهيم له إقامة بأقل تكاليف ممكنة . وبعد بحث استأجر غرفة في ضاحية تسمى « بيرشيبيا » وإن لم يدخل فى علمه عندئذ أنها تدعى كذلك ، وهنا نزل . وبعد أن شرب قليلاً من الشاي بدأ نشاطه فى قوة .

كانت ليلته بقيمة القمر ، شديدة الريح . ولكى يستكشف طريقه وقف تحت مصباح ونشر أمامه خريطة المدينة أحضرها معه ، وأخذت الريح تتجاذب أطراف الخريطة بشدة وتهزها بين يديه هزا . ولكنه استطاع أن يستكشف منها الطريق الذى يسلكه كي يصل إلى قلب المدينة .

وبعد أن سار مسافة طويلة ، ودار حول الأبنية دورات عديدة وصل إلى بناء قديم من العصر الوسيط واستطاع أن يدرك من واجهته أنه إحدى المباني فدخلها وطاف خلالها ووصل إلى أركان لم يسبق أن رأت الصباح . وبجوار هذه الكلية رأى أخرى ، وعلى بعد قليل من الثانية وجد ثالثة وهكذا أحس بأنفسه المدينة الوقورة تطوقه من كل جانب . وكلما مر بأثار من أبنية أو دور لا تنسجم مع روح المكان غمض بصره عنها كأنه لم يرها .

وبدأ جرس يدق فأرهف السمع حتى جاءت الدقة الواحدة بعد المائة فخيل إليه أنه أخطأ فى العد إذ لا بد أن تكون الدقات مائة لا غير .

وعندما أغلقت الأبواب ، ولم يعد فى مكنته أن يخترق المربعات الداخلية ،

ظل يتسكح تحت الأسوار وبالقرب من البوابات الضخمة ويتحسس بأصابعه أشكالها وما عليها من نقوش بارزة . ثم مرت الدقائق واختفى الناس من أمامه بعد أن كان يراهم ذاهبين قادمين يتحركون في كل اتجاه ، وما زال يدلف وسط الظلال المنتشرة حوله . لقد أمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته متأملاً بين الخيال هذه المناظر الخيالية إلى نفسه فاذا بهم لو أنه أراح خياله الجهد ليلة واحدة لحسب وكلما أضاء مصباحه وسط الظلام المتكاثف وسقط النور فوق الأبنية والمنشآت المترصة رأى على خط الأفق البعيد المظلم ظلال البروج المشيدة وصور الأطراف المسننة للمعاقل الضخمة . وفي بطن الممرات المظلمة التي أصبحت تملأ الآن تماماً من المارة ، والتي أصبح وجودها نفسه في تلك اللحظة نسبياً منسياً ، أخذت تبرز إلى الأروقة المترصة على الطريق صور لمشربيات وأفنية خارجية ، من طراز بهي مزركش ترجع عمارته إلى العصر الوسيط ، ويزيد من مسحة القدم التي تسكو جنباتها رائحة العفن الصادرة عن الحوائط القديمة النخرة . خيل إليه من الأمور المستعجدة تماماً أن تلك الغرف المتداعية والقاعات القديمة يمكن أن تكون موطناً للفكر وموطناً للعلم وساحة للمعرفة والحكمة .

ولما كان لا يعرف مخاوفاً في هذا المكان ، بدأ يحس بانزعاج كيانه عن كل ما يحيط به كما لو أنه شبح يتحرك . وجعلته هذه الفكرة يشد أنفاسه شداً ويستغرق في تفكير عميق أسكرته فكرة أنه تقمص شبح نفسه وعند ذلك منح كل تفكيره لما حوله من آثار تبدو هي الآن هي كأنها أشباح رايدة في زوايا الأبنية ،

ففي أثناء الفترة التي قضاهما في التحضير لهذه المغامرة الكبيرة ، وهي الفترة التي اختفى فيها كل ظل لزوجته وكل أثر لأثاث بيته ، كان قد أقبل على القراءة بنهم شديد ، حتى استطاع أن يدرس ، بأكثر قدر مستطاع لمن في مركزه وظروفه ، تاريخ حياة الأعلام الذين أمضوا شبابه داخل هذه الأسوار الرهيبة ولم يتركوها في سنوات النضج التي تلت ذلك . بعض هؤلاء الأعلام برزت صورهم الآن في خياله وكانت صوراً مستمدة من قراءاته السابقة وطلعت على غيرهم من حظوا من اهتمامه بالقدر الأقل . أما الريح وهي ترتطم بالاركان والزوايا والأعمدة وقوائم

الأبواب فكان صوتها يذكره بحركات أولئك الأعلام كما أن احتكاك أوراق الشجر وسيقان النباتات حمل إليه همس تلك النفوس الحزينة . كذلك ذكرته الظلال الهائمة حوله بالأجسام النحيلة لأولئك القوم وهم يتحركون في عصبية ظاهرة ، ويعطفون عليه في وحدته . ووسط طبقات الظلام المتكاثف حوله كان الأمر يبدو وكأنما اصطدم بتلك الأشباح العظيمة دون أن يحس بكيانها المادى .

أصبحت الطرقات الآن خالية تماماً من الناس ولكنهم لم يجرؤ على السير فيها خوفاً من تلك الأشباح ، ووسط هذه الأشباح خيل إليه أنه يرى شعراء من قديم الزمان وشعراء حديثين . شعراء في عهد « شكسبير » وآخرين قضوا نحبهم منذ فترة طويلة . بل إنه رأى شبح ذلك الشاعر الغنائى المفرد الذى ما زال مقامه يبعثنا ولم يرحل . وأمام عيني « جود » مر موكب الفلاسفة من أصحاب الفسك ولم يكونوا جميعاً من أصحاب الحياة المعروفة والوجوه الصارمة والشعر الأشيب كما يبدوون فى الصور المدلاة على الجدران ، ولكن كان منهم من توردت وجوههم وامتشقت قلوبهم وخفت حركاتهم كما لو كانوا فى شرح الشباب . كان منهم أعلام الدين متدثرين بمسوح الكتمان وأقرب هؤلاء إلى إدراك « جودفاوى » المؤسسون الحقيقيون للجماعة الدينية المسماة « بالعجالية » ( وهم الذين يعتمدون على العجالة أو المقال المختصر لنشر دعوتهم ومن بينهم القس « نيومان » ) وكان منهم أيضاً الثلاثة الكبار : الخطيب المتحمس ، والشاعر الملهم ، والأديب الرامز . الذين ما زالت أصداء تعاليمهم تتردد فى أذنيه وتؤثر فى مجرى حياته كلها . وفى فيض التأملات التى أخذت بجماع نفسه اكتشف أنه يكره الابتسام إلى هؤلاء الثلاثة الكبار فى نظره وذلك فى حضرة الشخصيات الأخرى من أبناء المكان حيث يبدوون حوله ، منهم القاضى ذو الشعر المستعار ، والسياسى والعاشق المتبذل ، وعالم المنطق ، والمفكر المتشكك . والمؤرخ الخلق العارضين ومع ذلك يكتب عن المسيحية فى احترام شديد . منهم أمثال هذا الأخير وإن اختلطوا بكل الفئات وخيروها . ومنهم أيضاً المؤمنون المخلصون . كل هؤلاء ترددوا على المكان فى حرية مطلقة وجابوا أنحاده .



أخذ يتأمل رجال السياسة في اتجاهاتهم المتباينة ، أولئك الذين عرف عنهم صرامة التفكير والبهمة عن الخيال الحالم وبفكر في حياة العالم والخطيب والصاير والمسكافح وحياة الرجل صاحب العقل الذى نمى بقدر نموه في سنوات العمر ، والذى ضم عقله وتوقف عن التفكير كما زادت سنوات حياته :

رأى بعين خياله خليطاً عجيباً من أقطاب العلم وأقطاب اللغة يرون أمام عقله بوجوه مفكرة وجبهة معروفة ونظرة واهية كنظرة الخفافيش ، ثم رأى شخصيات من أصحاب المناصب الرسمية كالحفاظين ونواب الملك ، ولم يكن لهم كثر أهولاء . ورأى أساطين القضاء وأعلام القانون وشخصيات أخرى صامدة مضمومة الشفتين لم يعرف عنها سوى أسمائها . وعند ما مرت أمامه صور رجال الدين منحما من نفسه اهتماماً أكبر بسبب ما سبق أن جاش في صدره من آمال وأحلام وثيقة الصلة بهولاء . ومن هذه الطائفة رأى بعين خياله عدداً كبيراً يتميز بعضهم بالقلب الكبير ، وبعضهم بالعقل الكبير . رأى ذلك الذى اعتذر عن الكنيسة باللغة اللاتينية . رأى المؤمن الطاهر مؤلف « ترنيم المساء » وبالقرب منه رأى الواعظ المتجول ، وهؤلاف الترانيم الغيور على الدين ، ذلك الذى شابت حياته العائلية كل أنواع الصعاب وهو فى ذلك مثله هو سواء بسواء .

وجود نفسه يدخل مع هولاء جميعاً فى أحاديث بصوت عال كما لو كان ممثلاً فى إحدى الفواجع القديمة يوجه الخطاب للشفرجين ويناجيهم من أمام المسرح . وظل على هذا المنوال ثم سكنت لجأة فى رعدة إذا اكتشف سخانة ما يفعل ففعل تلك الكلمات المتقطعة التى خرجت من فمه طرقت أسماع طالب أو مفكر جالس أمام المصباح خلف الحوائط فرفع رأسه من تحت المصباح متسائلاً فى عجب عن الصوت وما يدل عليه وأدرك الآن أنه ، من حيث كيانته المسمى أصبح منفرداً بالمدينة القديمة باستثناء مواطن هنا ومواطن هناك يسير عائداً إلى بيته فى ساعة متأخرة من الليل ، كما أدرك أنه على وشك أن يصاب بالبرد من جراء جلوسه فى العراء .

من خلال الظلام سمع صوتاً حقيقياً يستخدم اللهجة المحلية : « أيها الشاب

مضى عليك وقت طويل وأنت جالس على هذه الصخرة فإذا تريد أن تفعل ؟ »

نطق بهذه الجملة شرطى ظل يرقب « جود » دون أن ينفطن هذا الأخير إليه .  
فعاد « جود » إلى البيت ثم آوى إلى فراشه بعد أن قرأ قليلا عن حياة أولئك الرجال وما أسدوه إلى العالم من خدمات وذلك فى كتاب أو كتابين عن رجال الجامعة . وبينما هو يقترب من النوم أخذت شفتاه تتمتمان بكلمات وجل من الأقوال الخالدة هؤلاء الرجال . بعض هذه الأقوال والجل يقولها بصوت عال وبعضها لم يكن يفهم معناه كأنما أشباح عمدة تتمصته ، كل شبح يتحدث حديثاً خاصاً . أحد هذه الأشباح شرع يناجى « كرايستمينيستر » ويقول : « أيتها المدينة الجميلة ! يا لجمالك الوقور الحبيب إلى النفس الذى يشبع الهدوء والسلام . إنك بمنأى عن الخلافات المذهبية الحادة التى تقسم بها عصرنا هذا ! يا لجلال طلعتك ! سحرك الدائم ينادينا ويقودنا إلى الهدف الأسمى ، إلى الكمال الأعلى ! »

صوت آخر كان صوت صاحب « قانون القمح » الذى خيل إليه أنه رأى شبحه فى مربع الناقوس الكبير وكأنه ينطق بالعبارات التاريخية التى نطق بها فى أهم خطاب له وقال : قد اكون على خطأ ياسيدى فيما أقول ولكن اعتقادى هو أن واجبى نحو وطنى المهتد بالجماعة يتطالب منى أن أنادى بضرورة الالتجاء إلى العلاج العادى الذى يجب اللجوء إليه الآن فى مثل هذا الموقف وهو الحصول على الطعام الضرورى للناس من أى ركن من أركان العالم « تستطيعون إذا شئتم أن تطردوني غدا من منصبى ولكنكم ان تحرموني من الشعور بأبنى مارست الحق المخول لى وأن هذه الممارسة تمت نتيجة لدوافع شريفة بعيدة عن الطمع ، وعن الربح المادى ،

بعد ذلك أتى حديث الأديب المماكر صاحب المقال الخالد عن المسيحية :  
« كيف يجوز لنا أن نصفح عن عدم التقات العالم الوثني ذى المجتمعات الفلسفية القديمة واستهتاره المقصود حياى تلك الشواهد القوية ( المعجزات ) على القدرة الربانية العاوية ؟ لقد أدار حكماء اليونان والرومان ظهورهم للنظر الرهيب وغفلوا عما لحق بالقوانين الخلقية والسلطة المادية من تغيرات » .

ثم سمع الشاعر الذي يعتبره النقاد آخر المتفائلين :

هذه الدنيا صنعها صانع  
وصانعها لكل فرد دنسا ١

• • •

وكل جهد يبذل هو لتثبيت أقدام  
البشرية نتيجة لخطئة عامة .

ثم سمع عبارة أحد المتحمسين الثلاثة : مؤلف كتاب «الدفاع» : « في اعتقادي  
أن اليقين المطلق بمقائيق اللاهوت الطبيعي نشأ عن تجميع مقصود لسلسلة من  
الاحتمالات ... الاحتمالات التي لا ترقى إلى مرتبة الشبوت المنطقي قد تخلق لدى المرء  
نوعاً من اليقين الفعلي . »

ثم تتمم شغفناه بأمور أقل تعقيداً من سابقتها :  
« لماذا نسقط مغشياً علينا ونرهب الحياة بمفردنا إذا كان الموت ديناً علينا  
نؤديه وحدنا ؟ »

كذلك سمع بعض الفقرات ينطقها الشيخ ذو الوجه القصير على اعتبار أنه  
أحد المتأملين في أمور العالم . هذه الفقرات تقول :

« عندما أتأمل قبور العظماء النعماء يموت في نفسي كل شعور بالحسد . وعندما  
أقرأ النقوش التذكارية على قبور من عرف عنهم الجمال تتطهر نفسي من الشهوات .  
وعندما أرى أحزان الوالدين مسجلة على شواهد القبور يذوب قاي أسي وينفطر  
حزناً . وعندما أرى قبور الوالدين أنفسهم لا أجد فائدة ترجى من وراء التأسي  
على من سبقونا ولا بد أن نلحق بهم إن عاجلاً أو آجلاً »

وبعد هؤلاء جميعاً تكلم كادن ذو صوت رقيق النبرات فذكر العبارات التالية  
الوديعه التي أحبها منذ طفولته الباكرة .

« يا إلهي علمني كيف أعيش حتى لا أخشى الموت وأعتاده ،

كما اعتاد فراشى .

يا إلهى علنى كيف أموت . . .

وفى أثناء ذلك استغرق فى سبات عميق ولم يفق حتى الصباح واختفى الماضى بأشباحه ولم يعد أمامه سوى الحاضر بكل شواهد فأسرع بالجاوس فى فراشه ونخيل إليه أنه نام أكثر مما يجب فقال :

— « يا إلهى . نسيت كل شىء عن قريبتى الجميلة ، كما نسيت طول الوقت أنها هنا ! ونسيت أيضاً صديقى القديم معلم القرية . »

وكلماته عن صديقه المعلم ربما ينقصها الحماس الذى تحدث به عن قريبتيه .

( ٢ ) /

اضطر « جود » تحت وطأة الحياة وضرورتها أن يفكر فى نفسه ومعاشه . ف شعر بالجانب الشعرى من روحه ينهار وبقيته المجلوة دائماً بجليل الأفكار ونيلها يخجو بريقها وتظلم ، وكان لزاماً عليه أن ينهض للبحث عن عمل ، يعيش منه حتى لو كان عملاً يدوياً بسيطاً فهذا النوع من العمل يكاد يكون باعتراف الجميع هو الوحيد المسمى عملاً .

وعندما سار فى شوارع المدينة بحثاً عن هذا الذى ينشده ، اكتشف لدهشته أن الكليات الجامعية تغير مظهرها فى عينيهِ فلم تعد تبسم له أو ترحب بمقدمه ، بل إن بعض أبنيتها بدا عليها التعالى والعظمة والبعض تبدو كمقابر الأسرات القائمة فوق الأرض كأن مسحة غريبة تشيع فى كل الأبنية . واختفت منها تماماً أرواح العظام .

وشرع يتأمل ما حوله من أبنية وبدرسها لاكتناقه فنان بل كان أقرب إلى الصانع الفاحص لإنتاج زملاء له أفنوا حياتهم فى المهنة وسنخروا عضلات أذرعهم للتشييد والبناء . وأخذ يتفحص النماذج المصبوبة ويتحسس جوانبها كواحد من المطالعين على سر صنعتها ثم يقول عنها إنها عسيرة الصنعة أو سهلة الأداء وإذا

ما كان إنجازها استغرق وقتاً قليلاً أو كثيراً ، واحتاج إلى ذراع قوى أو أنها مناسبة الأداة التي استعملت فيها .

إن ما كان بالليل بالغاً حد الكمال بدت حقيقة بالزهار وبها ما بها من عيوب قلت أو كثرت ، رأى في وضوح ما لحق الإنشاءات القديمة من اعتداءات غاشمة على قدسيته ، وإهانات وإساءات ، فهاجت نفسه لحال الكثير منها وذاب حسرة وألماً كما لو كانت تلك الأبنية كائنات تمزقت أوصالها وأنحنت أجسادها بالجراح ، وتشوهت ملامحها في أثناء افئتهاها مع الزمن وتقلبات الطقس واعتداءات الإنسان .

إن ما رآه من انهيار في هذه الوثائق التاريخية نهبه إلى أنه لم يبدأ عملياً كما كان يفتوى . إذ جاء ليعمل ويعيش بالعمل وما هو الصباح أو شك على الانقضاء . كان من الأمور التي تبعث الأمل في النفس إدراكه بأنه حيثما تسكّر العمارات المهتمة والأبنية القديمة المتهاوية لا بد لمن كان مثله يحترف البناء أن يجد فرص العمل مهيأة لذا أخذ يفتش عن الطريق المؤدى إلى بيت البناء معتمداً في ذلك على بيانات سبق أن أعطيت له في « ألفردستون » وعند ما وصل إلى هناك سرعان ما وقرت سمعه الأصوات المألوفة لديه أصوات الأزاميل وحجارة السن .

كان فناء المكان مصنفاً صغيراً لتجديد حجارة الأبنية المهتمة ، في أنحائه عدد كبير من النماذج الصخرية المنحوتة ذات الخطوط المستقيمة والدوائر الكاملة وجميعها تشبه ما سبق أن رآه على الحوائط القديمة والأبنية المهتمة من نماذج ورسوم . وعملية التجديد هذه كبيرة الشبه بما تلقىه السكيات الحديثة من تفسيرات حين تتكلم عن الشعر القديم ولعل بعض هذه الرسوم في عهدها الأول كانت تعتبر نثراً وهي جديدة وما على نماذجها ورسومها من مسحة القدم تو شك أن تسكتسب صفة الشعر وليس هذا بالأمر اليسير التحقيق لمعظم الرجال وإن كان سهلاً ميسوراً لأي بناء مهما صغر حجمه وهان شأنه .

سأل عن رئيس العمال في المصنع الصغير وفي أثناء ذلك أخذ يتلفت حوله متطلعا إلى المتسلسلات الزخرفية والبراقع الرأسية والطرات المستعرضة والأنايب الأسطوانية والشرفات والمثريبات والمخصنات وجميعها قائمة فوق موائد النحت الصخرية ومصاطب التشغيل بعضها أوشك على الإنجاز وبعضها أنجز فعلا وفي طريقه إلى أن يرفع من مكانه . وجميعها تتميز بدقة المصنع ورشاقة الخط وبساطة الأداء واستقامة الزوايا وتطابقها . أما الرسوم الناقصة التي تتكون منها الفسكرة الأصلية فكانت مطمورة في حوائط المباني القديمة حيث الدوائر المشاومة والخطوط المموشة وخطب القواعد وإهمال التنظيم .

وفي تلك الفترة أحس بفيض من النور يحاو بصيرته وأدرك لتوه أن هذا المكان المتواضع يشكل دائرة للجهود البشرية لا تقل أهمية عن غيرها من دوائر العلم والدراسة التي تضمها أعرق الكليات . غير أن هذه الفسكرة ما لبثت أن ذابت تحت تأثير فسكرته القديمة فهو وإن كان على أتم الاستعداد كي يقبل أى عمل يقدم إليه بناء على توصية من رئيسه السابق ، إلا أنه لن يقبله إلا على اعتباره أنه إجراء مؤقت فقط ، هذا هو الشكل الذى اتخذته لديه رذيلة القلق السائدة في عصرنا الحديث .

أكثر من هذا ، لاحظ أن العمليات في خيز الوجوه لم تكن غير عمليات نقل وترقيع وتقليد بما دعاه إلى أن يتخيل أن ذلك لا بد راجع إلى سبب محلي مؤقت ، وما خطر بباله في تلك اللحظة أن طراز العصر الوسيط في الفنون صار جثة هامة كحفريات من الحفريات التي يعثر عليها الباحث مطمورة بين الطبقات الفحمية وأن تطورات أخرى في العالم حوله تظهر ولم بعد فيها مكان للبحار القوي وكل ما يمت له بصله ، ولم يكن قد اكتشف ذلك العداء المميت بين المنطق المعاصر وتلك النزعة الخيالية إلى توقير ما يراه هنا كثيرا من فن .

ولما لم يوفق إلى الحصول على عمل قرر الانتقال إلى مكان آخر وهنا تذكر قريته . وكان إحساسه بوجزدها في مكان ما لا يبعد كثيرا عن مكانه يراوده

كثيرا ويقوى فى صدره تدريجيا حتى يكاد يصل إلى أن يكون شعورا طاغيا متحكما : وكم تمنى لو استطاع أن يستحوذ على تلك الصورة الجميلة لها . وأخيرا كتب لحالته كى ترسلها له فوافقت واسكنها رجليه فى إلحاح ألا يجلب المتاعب على نفسه وعلى الأسرة بذهابه لزيارة الفتاة أو أقاربها . ولما كان شخصا رقيقا فإنه لم يعد العجز بشئ بل اكتفى بأن وضع الصورة فوق رف المكتبة وقبلها دون أن يدري لذلك سببا . شعر بالراحة ، وخيل إليه أنها من مكانها العالى ترقبه وهو جالس يتناول الشاي وكان ذلك بالشئ الذى يدخل السرور على نفسه المتلهفة على ما يربطها بانفعالات الحياة فى المدينة .

بقى عليه أن يفكر فى صديقه القديم معلم القرية ومن المحتمل أنه أصبح الآن قسيسا وقورا . ولكنه لا يستطيع أن يبدأ فى تلك اللحظة جهوده للبحث عن شخص فى مركز محترم ، وهو فى حال غير مهيأة وطرائق حياته مازالت غير مستقرة ، وهكذا بقي فى عزله . وعلى الرغم من أن الناس ظلوا يروحون له ويغدون ، إلا أن عينييه لم تريا أحدا منهم . ولما لم يكن قد اختلط بالمقيمين فى المكان بعد فإنه أحس كأن المكان غير قائم بالنسبة إليه . أما النقوش التى تمثل القديسين والأنبياء التى تزين النوافذ حوله ، والصور المعلقة فى الممرات والاهباء ، والنصب الضخمة ، والتماثيل النصفية . والدعائم المصورة على هيئة رهوس وتيجان . كل هذه بدت كأنها تنفس الهواء الذى يتنفسه . وكأنى غريب قادم للمرة الأولى إلى بقعة يتمثل فيها الماضى بكل صوره ، رأى ذلك الماضى يعلن عن نفسه بأسلوب قوى واضح لم يعتده السكان الأصليون لتلك البقعة ولم يألوه .

ظل أياما عدة يتجول فى الممرات المستقيمة والأفنية المربعة داخل كليات الجامعة وأدهشه الأصداء العجيبة الصادرة عن وقع أقدامه على الأرض كأنها المطارق تدق دقا هادئا متتابعا . ولما كان غرامه « بكرايستمينستر » ، فى ازدياد مضطرد فإن ذروة هذا الغرام تجسدت فى معرفته لكل ما يتعلق بتلك الأبنية والانشاءات من النواحي المادية والفنية والتاريخية معرفة فاقته ما لدى سكان تلك الأبنية .

وفي تلك اللحظة التي جرد نفسه فيها في المكان الذي ظل يحلم به فترة طويلة أدرك أنه مازال بعيدا بعدا كبيرا عن تحقيق هدف حياته . وحائط واحد فقط يقوم حائلا بينه وبين الاتصال بالشباب السعيد من معاصريه الذين يشاركونه حياته العقلية وهم شبان لا ينشغلون بشيء طوال يومهم غير القراءة وتسجيل الملاحظات والحفظ واستيعاب ما يقرأون . حائط واحد ولكن ، ياله من حائط !

وفي كل يوم ، وفي كل ساعة ، بينما يخرج باحثا عن عمل ، يرى هؤلاء الفتية في حضورهم وخروجهم يمتلك بهم ويسمع أصواتهم ويرقب حركاتهم . وبتأثير جهوده الطويلة المتصلة في مجال إعداد نفسه للبحث . إلى هذا المكان يجد في حديث بعض هؤلاء الفتية وخاصة الممتازين منهم ، اتفاقا معهم في الآراء والمعتقدات . ومع ذلك يبعد عنهم بعدا شاسعا كما لو أنه يعيش في المريخ . وذلك حق فهو عامل بسيط فقير حديث عهد بالحياة ، وعندما مروا به لم يلحظوه ولم يسمعوا صوته بله أن يستضيئوا بنور عقله كما يفعلون مع أقرانهم في الداخل . ومهما كانوا بالنسبة إليه فإنه بالنسبة إليهم لم يكن شيئا مذكورا . ومع ذلك خيل إليه أنه بمجيئه إلى هذا المكان يمكن لحياته أن تتصل بحياتهم .

على أن مستقبله مازال أمامه . ولو واتاه الحظ واستطاع أن يحصل على وظيفة مناسبة بذلك يمكن أن يتغلب على ما يعترضه من صعاب . هكذا شعر بفضل الله عليه إذ وهبه الصحة الجيدة ، كما وهبه القدرة على العمل وبذلك أحس بشجاعته تنمو وبهمته تكبر . إنه في اللحظة الراهنة يقف خارج أبواب كل الأماكن بما في ذلك الكليات الجامعية ، وقد يصبح في يوم من الأيام داخلها ، داخل صروح النور والمعرفة . وقد يطل في يوم من الأيام على بقية العالم من خلال زجاج نوافذ هذه الصروح .

وبعد فترة تسلم رسالة جاءته من ورشة نحاس الصخور تقول إن عملا ينتظره . وكان ذلك أول تشجيع له فقبله دون تردد .

كان جوده صغير السن ، قوى البنيان وإلا لما استطاع أن يقوم بما أخذ على



عاقبه من أعمال ومهام منها الدراسة لفترة طويلة من الليل عقب عمل متصل يستغرق النهار بطوله . وأول شيء قام به بعد أن استقر في مكانه هو أن اشترى مصباحاً ذا مظلة دفع فيه مبلغاً كبيراً وبذلك استطاع أن يحصل على ضوء كاف يعينه على القراءة . ثم اشترى أقلاماً وورقاً وبعض الكتب التي هو في حاجة إليها ولم يستطع أن يحصل عليها قبل مجيئه إلى هذا المكان . وعندما تم له ذلك قام بتعديل نظام غرفته ، وهي غرفة واحدة مخصصة لإقامته ونومه . لقد عدل أثاثها بطريقة أثارت عاينه حفيظة صاحبة البيت إذ أنه شدد ستاراً من قماش وبذلك أصبحت له بدل الغرفة غرفتين استطاع أن يقرأ في إحداها قراءة شغلت ليله .

ولما كان زواجه وما ترتب عليه من اكتراء لبيت صغير ليميش فيه مع زوجته ، ومن شراء لأثاث تبدد واختفى في أعقاب رحيل تلك الزوجة مما سبب له خسارة مالية فادحة . فإنه لم يستطع أن يقتصد شيئاً من النقود بل ظل يروح تحت أنقال الضائقة المالية منذ أن قام بمغامرته الجنونية في الزواج ، وظل في تلك الضائقة حتى بدأ يتسلم أجره . وعندما جاءت النقود اشترى كتاباً أو كتابين وبعدها لم يبق له ما يشتري به ناراً يتدفأ بها . وفي الليالي الباردة ذات الرياح الثائرة القادمة من المروج القريبة كان يجلس تحت المصباح وعلى رأسه قبعة وفوق جسده معطف وفي يديه قفازن من الصوف .

ومن خلال نافذته يستطيع رؤية الأبراج العالية للكنيسة الكبيرة ويشاهد قبعتها الهائلة حيث ينطلق من تحتها صوت جرس المدينة الكبير . أما برج الكلية العالي ونوافذه المستطيلة . وشرفات الكلية القريبة من الجسر ففي وسعه أن يراها بذهابه إلى السلم الخارجى للبيت الذى يسكن فيه ، وهذه المناظر يستخدمها في شحذ همته كلما تطرق الوهن إلى إيمانه بالمستقبل .

وككل المتحمسين من أصحاب الخيال ، أقدم على تنفيذ خطته دون أن يتجرى تفاصيلها بل اكتفى بالتقاط أفكار هامة من أفواه بعض الذين يتصل بهم دون لخص أو ترو . وفي اللحظة الراهنة يقول في نفسه إن ما يريد أولاً هو أن يستعد بالمال والمعرفة ثم ينتظر بعد ذلك ما تأتى به الأيام من فرص قد تجعل منه طالباً

جامعياً ... الحكمة وسيلة من وسائل الدفاع ، والمال كذلك . غير أن ميزة المعرفة أنها تهب الحياة لمن يملكها . لقد تملكته الرغبة في العلم والدراسة إلى الحد الذي لم يستطع معه أن يفكر في إمكان تنفيذ ما يحلم بتحقيقه .

وفي تلك اللحظة تسلم خطاباً من خالته العجوز بشأن الموضوع الذي سبق أن ضايقها وأحزنها وهو خشيتها من ألا يكون من الثبات والقوة فيعجز عن الابتعاد عن طريق قريبته « سو هرايت ديد » ، وبقية أفراد الأسرة وكانت الخالة العجوز تظن أن والده « سو » عاد إلى لندن كي يقيم هناك بينما ظالت الفتاة في « كرايستمينستر » وما جعل الخالة أَرْضاً لا تَرْضَى عن التقائهما أن الفتاة تعمل صانعة أَوْرسامة في مخزن للسلع الدينية المستعملة في تزيين الكنائس وفي رأي الخالة — أن هذه وثنية لا تتفق مع التعاليم الإنجيلية التي تعتنقها الخالة « دروزيلا فاولي » ، وإن اتفقت مع التعاليم الكاثوليكية .

ولما كان اهتمام « جود » بالأمور العقلية يفوق اهتمامه بالأمور الدينية ، لم يحفل كثيراً باتجاهات « سو » في ذلك الشأن ولم يتأثر بما ذكرته خالته في خطابها من آراء تتعلق بهذا الموضوع ، وإن نظر باهتمام خاص إلى ما ذكرته بشأن مكان إقامة الفتاة . وعندها سئحت له أول فرصة للتجوال في المدينة ، أخذ يسير أمام الحوانيت التي تتفق مع وصف خالته واستطاع أن يرى في أحدها شابة تجلس وراء مكتب صغير ، تشبه الصورة التي سبق أن رآها شبيهاً كبيراً . فغامر بالدخول واشترى سلعة صغيرة وأخذ يتبأطاً في الحفل فلاحظ أن الذين يعملون فيه كلهم نساء وهن يبعن الكتب الدينية الخاصة بطائفة الإنجيليين وأدوات الكتابة والمطبوعات المختلفة والهدايا من تماثيل صغيرة وصور للقسيسين داخل إطارات على الطراز القوطي ، وصلباناً من الأبنوس عليها رسم مجسم للسيد المسيح . واستولى الخجل عليه حتى حال بينه وبين النظر إلى الفتاة وهي وراء مكتبها فقد كانت من الجمال والرشاقة بحيث لم يتطرق إلى ظنه أن مثل تلك الفتاة الجميلة يمكن أن تصبح في يوم من الأيام ملكاً له . وتحدثت الفتاة إلى إحدى المرأتين الجالستين فيما وراء آلة عد النقود فاكشف في نبرات صوتها بعض الصفات المعينة التي يتميز بها صوته .

كان الصوت رقيقاً منمها ولاكنه صوته هو فماذا تعمل في تلك اللحظة ؟ استرق النظر حوله فرأى أمامها لفافة من معدن الزنك طولها ثلاث أو أربع أقدام ذات جانب مصبوغ باللون الأسود ، وهي ترسم أو تنقش عليها عدداً من الحروف المستخدمة في الكتابة الكينسية والعبارة تقول : « لتقدس اسم الله » . قال يناجى نفسه : « يا له من عمل جميل رقيق يتفق والروح المسيحية » .

عرف الآن سبب وجودها في ذلك المكان ، وأدرك أن مهارتها في هذه الأعمال ورثتها عن أبيها الذي كان متخصصاً في نقش الآيات الدينية على المعادن . واللوحة مقصود بها أن تعلق لتعاون في العبادة .

خرج من الحانوت وكان من السهل أن يتحدث إليها عندئذ هنالك ولكنه كره أن يفعل لما في ذلك من عدم وفاء لرغبة الخالة التي عاملته حقاً بخشونة غير أنها تولت تربيته . ولاكونها عاجزة عن السيطرة على تصرفاته أضفى على رغبتها قوة لا تقبل في مجال المنطق .

وعلى ذلك انسحب من أمام « سو » دون أن يلقاها وكانت لديه أسباب أخرى فهي تبدو في غاية الاناقة إذا ما قورنت به وهو في ثياب العمل الخشنة ، وعلى ذلك لم تطاوعه نفسه بمقابلتها الآن وهو الشعور نفسه الذي أحس به حيال السيد « فيلوتسون » . ثم من الجائز أنها متأثرة بضغائن أسرتها فتحتقره بقدر ما يسمع لليسيجي في ذلك ، وخاصة عند ما يقص عليها ذلك الجزء المؤلم من تاريخ حياته المتعلق بزواجه من امرأة من المؤكد أنها لن تحوز إعجابها .

وهكذا ظل يرقب « سو » من بعيد ونفسه راضية لمجرد شعوره بأنها هناك إذ أن هذا الشعور ملأه حياة وأملا . غير أنها ، مع ذلك ، ظلت بالنسبة إليه مثلاً أسمى وأخذ ينسج حول شخصيتها خيالات جميلة مستمدة من أحلام اليقظة .

عقب ذلك بأسبوعين أو ثلاثة ، كان « جود » في صحبة بعض الأشخاص يقفون

أمام كلية « كرويدسر » في شارع « الدتايم » ويتعاونون على نقل صخرة رملية كبيرة من عربة تقف بجوار طوار الطريق وذلك استعداداً لرفعها إلى أعلى الجدار الذي يقومون بإصلاحه . وعندما وقف الرجال على أهبة الاستعداد قال رئيسهم : « تكلموا عندما تبدءون في الرفع . هيا ! » عند ذلك أخذ الرجال يرفعون الحجر إلى أعلى .

وبينما هو يشارك في رفع الحجر حانت منه التفاتة فرأى قريبته بالقرب منه وقد توقفت عن المسير حتى تزال العقبة من طريقها . نظرت الفتاة في وجهه بعينيهما اللامعتين الغامضتين اللتين جمعتا بين الذكاء والركة أو خيل إليه ذلك ، وشاع فيهما الغموض أما ملاح فيهما من تعبير فكان هو نفسه مارسم على شفثيهما واستمد وجوده من كلمات عابرة حدث أن وجهتها إلى واحدة من بنات جلدتها فوجد هذا التعبير طريقه إلى وجهه دون أن يدري من أين جاء . أما هي فلم تحس بوجوده أكثر مما تحس بوجود ذرات التراب التي يثيرها تحريك يديه في الصخر فتعلق بأشعة الشمس .

كان قربها منها يملأ نفسه بشتى الأحاسيس والأفكار فسرت الرعشة في جسده وأدار وجهه عنها بدافع من الخجل الغريزي حتى يحول بينها وبين التعرف عليه وإن كان أمر تعرفها عليه مستبعدا حيث لم يسبق أن رآته، ومن الجائز أنها لم تسمع باسمه قط . كان في مقدوره أن يلحظ أنها وإن كانت في أعماقها فتاة ريفية فإن سنوات الصبا التي قضتها في « لندن » وسنوات النضج التي أمضتها في هذا المكان أزالته عنها كل أثر من آثار الريفية فيها .

وعندما اختفت من أمامه استأنف عمله وهو يفكر فيها . لقد وقع تحت تأثيرها القوى الغلاب فلم يفتن إلى تسكوبنها العام وقوامها وشكلها . ونذكر الآن أنها ليست على بسطة من الجسم بل إنها خفيفة ونحيلة ومن النوع الذي يوصف بأنه أنيق . هذا كل ما استطاع أن يراه منها . لم يكن فيها شئ من الفخامة بل حركتها تقدم بالعصبية . وهي بمثابة حركة وحياة ومع ذلك فما من فنان يستطيع أن يصفها

بالأناقة والجمال وهذا ما أدهشه ومأث نفسه عجباً . لقد ابتعدت كثيراً عن البساطة  
الريفية التي اتسم بها وها هي ، في ذلك المجال بزته بشكل واضح ؟ كيف أمكن  
الفتاة من دمه ومن سلالاته النعسة المشئومة أن تبلغ تلك الدرجة من الظرف  
والرقة ! إنها لندن التي صنعت ذلك وإليها يرجع الفضل .

ومن تلك اللحظة ، والانفعالات الخفيفة التي تراكمت في صدره وزحمت  
كنتيجة حتمية للوحدة التي عاش فيها ، والجو الشاعري الزاخر بالمعاني والمثل  
الذي أحاط به ، تتجمع وتستقر حول تلك الشخصية الخيالية . وأدرك في وضوح  
أنه ، على الرغم من استعداداته لبذل نفسه رخيصة في سبيل إطاعة رغبة خالته ،  
سرعان ما أحس بالعجز عن مقاومة رغبته في مقابلتها والتعرف بها .

فتظاهر بينه وبين نفسه بأنه لا يفكر فيها إلا على اعتبار أنها فرد من أفراد  
عائلته واتضح لنفسه هذا المنحى طالما أن أسبها بقوة تحول بينه وبين التفكير  
فيها على صورة أخرى غير هذه الصورة .

أما السبب الأول فكان لأنه متزوج ومن الخطأ إذن أن يفكر في هذه الفتاة  
وهو على هذه الحال . والسبب الثاني أنهم ما أبناء خؤولة وليس من الحكمة أن يقع  
أبناء الخؤولة في الحب حتى لو كانت الظروف موالية لذلك . أما السبب الثالث ،  
لحتى لو كان طليقا غير مرتبط بزوجة ، ففي أسرة كآسرتة حيث ينتهي الزواج دائماً  
بكارثة محزنة فإن الزواج من فتاة تجرى في عروقها نفس الدماء التي في عروقه  
من شأنه أن يزيد من تأثير الظروف المعاكسة وهنا يتحول الحادث المحزن إلى  
فاجعة رهيبية .

لهذه الأسباب أخذ يفكر في « سو » على اعتبار أنها فرد في أسرته وإليها  
نفس الاهتمام الذي يوليء لكل من يلوذ به من أبناء جلدته وعليه أن ينظر إليها  
نظرة عملية كفرد يشعر نحوه بالفخر والاعتزاز ، يحادثه ويحييه ، وفيما بعد يدعوه  
إلى تناول الشاي معه طالما أن العواطف والانفعالات الموجهة إلى مثل هذا الفرد  
لا تعدو أن تكون صادرة من قريب لقریب . يريد بها الخير فتصبح بالنسبة إليه

نجما هادياً ، وقوة دافعة ملهمة ، ورفيقة في تعبدته وفقاً للمذهب الإنجيلي ا وصديقة  
وفية ورفيقة حانية ا

( ٣ )

وكنتيجة للبؤثرات المختلفة المعروفة ، اتجه بغريزته نحو السعى إلى الاقتراب  
منها في حذر فذهب في الأحد التالي إلى قداس الصباح بالكنيسة المبهجة بكلمة  
الكاردينال ليلقي عليها نظرة أخرى بعد أن اكتشف أنها كثيراً ما تذهب إلى  
هناك .

ولما لم تحضر انتظرها في وقت الأصيل من نفس اليوم وكان يوماً رائعاً  
جميلاً . وهو يعرف أنها لو جاءت فسيكون مجيئها من الجانب الشرقي للربع  
الأخضر الكبير ، وهو الطريق الوحيد الموصول إلى البناء ، لذا وقف في ركن على  
الطريق ينتظر بينما جرس الكنيسة يدق . وقبل بدء القداس بدقائق رآها تسير  
تحت حوائط الكلية .

وعندما لمحها انتقل إلى الجانب المقابل ثم تبعها داخل البناء وقد أحس  
بالفرحة تملأ صدره لأنه لم يكشف لها عن نفسه حتى تلك اللحظة . كان يسكفيه  
حينئذ أن يراها بينما هي لا تراه ولا تعرفه .

ظل يتسكع في المشى فترة والقداس منعقد في الكنيسة إلى أن وضع في أحد  
المقاعد . كان الأصيل حزينا ساكنا يتطلب من كل فرد من العاديين الكادحين  
أن يشعر بأن الدين ضرورة ملحة ، وليس مجرد حلية يتحلى بها أفراد الطبقات  
الغنية العاطلة . وبمعاونة فيض النور المتدفق من النوافذ العليا لمحراب الكنيسة  
استطاع أن يرى جمهرة المصلين الجالسين في الناحية المقابلة للجهة التي يجلس فيها  
وكانت الرؤية ضعيفة لقلة الضوء في تلك الناحية ، غير أنه استطاع أن يلمح دسوة  
بين الجالسين . لم يمض وقت على اكتشافه لمكانها بين المصلين حتى بدأ المنشدون  
يرتلون النصف الثاني من التريمة التاسعة عشرة بعد المائة وهو النصف الذي يبدأ

بالفقرة : « أين سبيلي لإصلاح ما أفسدت ؟ » عند تلك الفقرة بدأت نغمات الأرقع  
تتغير فسمع نغمات أخرى حزينة وخاصة عندما أنشد المنشدون : « بماذا يستطيع  
الشاب أن يزيل الشوك عن طريقته ؟ »

كان هذا هو نفس السؤال الذى يدور بخلد « جود » فى تلك اللحظة . ياله من  
مخلوق حقير تعس إذ يترك لنفسه الجبل على الغارب فيشتت بهى امرأة ويسمح لتلك  
النفس أن تتهاذى فى غيها حتى يصبح لهذا التهاذى تلك النتائج المفجعة وهنا يتحدث  
نفسه بأن يضع حداً لحياته أو أن ياجأ إلى الشراب طلباً للعزاء ونشدانا للسلوى .  
كانت الموسيقى تملأ المكان حول فرقة المنشدين بنغمات دوارة كالموج المتدفق . ولما  
كان عقله دائم التفكير فى القوى الربانية التى تسير حياته ، لم تمكن هناك غرابة فى  
اعتقاده أن الترنيمة أوحى بها سلطة عليا لا تغفل فساقتها إليه فى تلك اللحظة التى  
تطأ فيها قدماه لأول مرة ذلك البناء القدسى . ومع ذلك كانت تلك الترنيمة هى  
الترنيمة العادية المخصصة لليلة الرابعة والعشرين من ايام الشهر .

أما الفتاة التى بدأ يحس نحوها عاطفة تميز بالركة الزائدة ، فكانت فى تلك  
اللحظة تسبح فى فيض النغمات نفسها التى طرقت أذنيه . إن مجرد فكرة أنه يتقاسم  
وإياها الإنصات إلى تلك النغمات أفعمت نفسه سروراً . ومن الجائز أنها من يترددن  
كثيراً على ذلك المكان . وهو إذ يراها هكذا منعومة جسداً وروحاً فى الكنيسة  
هياماً وتدلها . وهذا قطعاً بتأثير العمل والعادة . لا بد أن يذنه وبينهما الشئ الكثير  
من الصفات المشتركة . وبالنسبة لشباب حساس وحيد مثله ، يكون شعوره بأنه  
وجد أخيراً مرسى لأفكاره المضطربة ، مما قد يزوده بإمكانات اجتماعية وروحية  
كبيرة كأنها لمن كان على جبل « حرمون » وطوال القداس ظل هكذا وسط  
جر من النشوة الغامرة . .

ود جود ، وإن كان ضامناً على نفسه فى الاستمتاع بهذا الشعور ، فلا يبعد أن يجد  
من يقول له إن الريح تهب من قبرص لا من الجليل .

وظل فى مكانه حتى غادرت مقعدها وسارت أمامه دون أن تلتفت ناحيته .

وعندما بلغ الباب كانت في منتصف الطريق العام . ولما كان مرتديا ملابس الأحد ، أحس بالرغبة في تعقبها والكشف لها عن نفسه . ولكن لم يكن مستعداً تماماً لمثل هذا العمل ، وهل من واجبه أن يفعل وفي نفسه ما استيقظ فيها من شعور ؟

فعلى الرغم من أنه طول الوقت يبرر شعوره بالانجذاب نحو تلك الفتاة باعتبارات دينية في أثناء الصلاة فإنه لم يكن جاهلاً تماماً بحقيقة ذلك الشعور فهي بالنسبة إليه شخص غريب والقراءة — القراءة التي يدعيها مجرد تظاهر وأخذ يقول : لا ، فمثل هذا العمل ان يكون ولا يجوز لرجل متزوج مثلي أن يسعى إلى التعرف بها . ومع ذلك كانت « سو » إحدى قريباته وتصلها به وشائج الدم . أما كونه متزوجاً — حتى لو لم يكن لزوجته وجود في ذلك الجزء من العالم — فن الجائز أن يصبح ذلك الأمر في مصلحته بـ«كيفية ما ، فقد يكون من تأثير هذه الحقيقة أن تنزع « سو » من عقلها كل اعتقاد بأنه يسعى للتعرف بها لأغراض عاطفية وبذلك يصبح اتصاله بها طبيعياً حراً لا حرج فيه ولا خوف منه . وعندما أدرك أنه لا يأبه كثيراً إذا ما كان الاتصال بينهما وبينه يتسم بالحرية والبعد عن الحرج والخوف شعر بقلبه ينفطر .

وقبل هذا القداس بأيام كانت الشابة الجميلة الرقيقة « سوبرايد هيد » ذات العينين الجذابتين تقضى إجازة قصيرة بعد ظهر أحد الأيام فغادرت البناء الذي تقيم فيه وذهبت لتريض في ضواحي المدينة وفي يدها كتاب . وكان اليوم من الأيام الرائقة التي كثيراً ما تمر بإقليم « وسكس » وغيره من الأقاليم وتتوسط أياما باردة ممطرة كأنما دسها دعاية آلهة الطقس . وسلى ذلك أخذت « سو » تضرب في الأرض مسافة ميل أو ميلين حتى وصلت إلى بقعة أكثر ارتفاعاً من المدينة التي خلفتها . كان الطريق الذي سارت فيه يمر وسط حقول خضراء وعندما وصلت إلى صخرة بارزة توقفت عندها قليلاً حتى تفرغ من قراءة صفحة في الكتاب الذي تحمله وبعدها نظرت وراها إلى الأبراج والقباب والشرفات القديم منها والحديث .



وعلى الجانب الآخر من الصخرة رأيت أجنيلياً أسود الشعر ، شاحب الوجه يجلس فوق الحشائش بجوار لوح عليه عدد من التماثيل المرمرية الصغيرة وبعضها من البرونز وكان يعيد تنظيمها فوق اللوح وتوطئة لحماها والسير بها . أما التماثيل فكانت في أغلبها نسخاً مصغرة تمثل شخصيات أسطورية تختلف كل الاختلاف عما اعتادت الفتاة أن تراه من هذا النوع . ومن بين هذه الشخصيات «فينوس» آلهة الجمال و «ديانا» آلهة الصيد وتماثيل أخرى «لابولو» و «باخوس» و «مارس» . والتماثيل وإن بعدت عنها مسافة طويلة فإن معالمها كانت واضحة تماماً وسط الشمس المائلة إلى المغيب .

وفي غمرة الضوء اللامع المنعكس على الحشائش الخضراء استطاعت الفتاة أن تميز ملامح كل تمثال تمييزاً واضحاً ، ولما كانت التماثيل تقع على خط النظر بينها وبين أبراج الكنيسة فقد أثارت رؤيتها في نفسها سلسلة من الآراء والخواطر المتضاربة نتيجة لما ثار في نفسها من مقارنات . وبمجرد أن رآها الرجل هم واقفاً وخلع قبعته في أدب وقال في نبرة تنفق ومظهره الغريب عن المكان . « تماثيل ، اوفي رشاقة وسرعة رفع اللوح بما عليه من تماثيل مختلفة الأنواع والأشكال ، ووضعها فوق رأسه ثم سار به إليها حيث أنزله على الصخرة البارزة التي اتكأت عليها . وفي بادئ الأمر قدم إليها تماثيله الصغيرة ومن بينها تماثيل ملوك وملكات . ثم قدم إليها تماثلاً لشاعر من الشعراء الغنائيين ، ثم تماثلاً لـ «أكيوبيد» المجنح إليه الحب ولكنهما هزت رأسها .

قالت الفتاة وهي تلس بأصابعها تماثلي «فينوس» و «أبولو» وهما أكبر التماثيل : « بكم تبيع هذين التماثيلين ؟ » قال الرجل إنها تستطيع أن تأخذهما بعشرة شلنات . فقالت : « لا أستطيع أن أدفع مبلغاً كهذا . » ثم قدمت له مبلغاً أقل بكثير من المبلغ الذي طلبه ودهشت إذ مد الرجل يده إلى التماثيل وانتزعتهما من مكانهما ثم سلهما إليها فضمت يديها عليهما كأنهما تمسك بشيء ثمين .

وبعد أن دفعت الثمن ورحل الرجل بدأت تفكر فيما ينبغي لها أن تفعله

بالتمايلين . لقد ظهرا لها ، وهما بين يديها ، غاية في الضخامة وغاية في التجرد من الملابس . ولما كانت ذات مزاج عصبي اقشعر بدنهما بمجرد تفكيرها في ذلك الذي فعلته . وعندما قبضت على التمايلين بيديها تلوث قفازاها وسترتها بتأثير الطبقة الجيرية التي تغطي سطح التمايلين . وبعد أن حملتهما بين يديها مسافة لا بأس بها خطرت لها فكرة انتزعت على أثرها بعضاً من أوراق الشجر وبعض الأغصان النامية فوق السياج القريبة منها ولغمت فيها حملها بقدر ما تسمح به الأغصان والأوراق وبذلك بدا ما تحمل كأنه لفة كبيرة من الأغصان والأوراق الخضراء جمعها هار من هواة الطبيعة المتحمسين .

قالت الفتاة : « على أي حال ، أي شيء مهما صغر هو في نظري أفضل من تلك التمايل الكنسية الصماء الثابتة على مدى السنين » ، ومع ذلك كانت لا تزال في حالة من الذعر واضحة متمنية لو أنها لم تقدم على شراء تلك التمايل العارية .

وبين لحظة وأخرى ، أخذت تسترق النظر إلى ثنايا الأوراق لتتأكد من أن ذراع « فينوس » لم ينكسر . أخيراً جاءت بحملها الذي يمت إلى الوائنة القديمة بصلة إلى أكبر مدينة مسيحية في البلاد سالكة في سيرها طريقاً مهماً موازياً للطريق الرئيسي واتجهت إلى المنزل الذي تقيم فيه ودخلته من باب خلفي ثم صعدت لتوها إلى غرفتها حيث وضعت حملها . وفي الحال فتحت صندوقاً تحتفظ فيه بأخص متعلقاتها وحاولت أن تضع فيه ما اشترته من البائع الجوال . وعندما وجدت أن الصندوق لا يتسع لهذه الأشياء كلها . أحضرت قطعاً كبيرة من الورق الأسمر ولفقتها فيها ثم أوقفتها على الأرض في ركن من الغرفة .

كانت مس « مونتوفر » صاحبة المنزل سيدة متقدمة في السن تضع على عينيها عوينات وتلبس ملابس شبيهة بملابس الراهبات وهي على درجة كبيرة من البراعة في فهم الطقوس الدينية نظرياً وعملياً ، ومن المترددات على كنيسة القديس « سيلاس » في ضواحي « بيرشيبيا » السابقة الذكر ، وهي الكنيسة التي شرع « جود » هو الآخر يتردد عليها في الآونة الأخيرة . كانت السيدة ابنة قسيس فقير متقاعد ،

وعندما رحل إلى العالم الآخر منذ سنوات، خرجت الابنة إلى الحياة بكل شجاعة كي تنجو من الفاقة فاستأجرت حانوتاً صغيراً لبيع التذكارات الدينية والأدوات الكنسية، وبفضلها تطور الحانوت حتى وصل إلى ذلك الوضع الممتاز الذي عرف به بعد ذلك، وتضع هذه السيدة حول جديدها صائياً وسبحة، لا تزين بهما وتحتفظ بهما ظهر قلب العام المسيحي كله بما يحويه من أعياد ومناسبات دينية.

جاءت الآن هنا تدعو «سو» إلى فنجان من الشاي، وعندما وجدت أن الفتاة لا تستجيب لندائها دخلت الغرفة في نفس اللحظة التي كانت الفتاة تهم بوضع رباط حول كل لفافة من اللفافتين اللتين تحتفظ بالتمثالين داخلهما.

قالت المرأة وهي ترمق التمثالين من ثيابا اللفافتين: «أرى أنك اشتريت بعض الأشياء الخاصة أيتها الآنسة» برايد هيد، أليس كذلك؟، قالت «سو»: «أجل. اشتريت أشياء بسيطة كي أزين بها غرفتي».

— «كنت أعتقد أنني زينتك لك غرفتك زينة كافية». قالت الآنسة «فتوفر» ذلك وهي تتلفت حولها وتنظر إلى صور القديسين داخل إطاراتها المصنوعة على النمط القوطي، وإلى الجذاذات الحاوية للنصوص الكنسية وغير ذلك من السلع والأدوات التي لم يجد الحانوت من يشتريها أقدمها وضياع بهجتها فاستخدمتها صاحبة الحانوت في تزيين الغرفة المتواضعة. مزقت المرأة ثقباً صغيراً في الغلاف الأسمر محاولة أن تنفذ بنظرها إلى داخل اللفافة وهي تقول: «ماذا بداخلها؟ يالها من لفافة كبيرة! عجباً! هل أرى هنا تمائيل؟ إلى أرى اثنين منها. من أين لك بهما؟»

— اشتريتهما من بائع جوال.

— «هل هما لقديسين؟»

— «نعم»

— « ومن هما هذان القديسان ؟ »

— « القديس بطرس .. والقديسة مريم المجدالية . »

— « حسن . انزلى الآن وتناولى الشاى ثم اذهبي لإتمام ذلك النهر الموسيقى وذلك لو تبقى فى المنزل بعد ذلك ضوء كاف . »

تلك العقبات الصغيرة فى طريق استمتاع « سو » بشيء لا يبعدو أن يكون نزوة عابرة أوجدت لديها رغبة عميقة فى أن ترفع الأربطة عن اللفافتين وتمتع ببصرها بالنظر إلى ما بداخلهما . وعندما آوت ، إلى فراشها وأصبحت فى مأمن من كل متطفل ، أخذت تنزع اللفائف عن التمثالين فى هدوء وبعد أن وضعتهما فوق الحزانة الجانبية ووضعت شمعتين مضيئتين على جانبي التمثالين آوت إلى فراشها وألقت بجسدها عليه وشرعت تقرأ فى كتاب أخرجه من صندوقها ولم يسبق للآنسة « فنتوفر » أن علمت بوجوده . كان الكتاب من تأليف « جيبون » وقرأت الفصل الذى يدور حول حكم الإمبراطور « جوليان » المرتد ومن حين إلى آخر أخذت تنو ببصرها إلى التمثالين اللذين بدا عليهما أنها غربان عن المكان سيما وأن الغرفة تعج بالتذكارات الدينية . وأخيراً ، وكأنما الموقف يوحى بالعمل السريع ، هممت واقفة وتناولت من الصندوق كتاباً آخر — وكان ديوان شعر فتجته على قصيدة مألوفة لديها تقول :

« ها قد غزوت وفتحت يا أيها الجليلي الضعيف الواهن الجسد .

كما أن الدنيا لحقها الهرم من لمسات أنفاسك ! »

وظلت تقرأ القصيدة حتى نهايتها ثم أطفأت الشموع ونامت .

كانت لا تزال فى العمر الذى يقبل فيه صاحبه على النوم العميق الهادئ ومع ذلك ظلت تلك الليلة ساهرة لا يغمض لها جفن ، وكذا فتحت عينيها سقط عليهما فيض من الضياء صادر عن مصباح فى الطريق العام ، وكان الضياء كافياً لإظهار التمثالين المصنوعين من الرخام الأبيض وهما فى مكانهما فوق الحزانة الجانبية يمثلان التناقض بعينه ويكشفان عما بينهما وبين ما يحيط بهما من تعارض كما من

في طبيعة التذكارات الدينية وجسد المسيح المصلوب داخل إطار من الفن القوطي وقد حوّل الضوء الضعيف إلى مجرد صليب لا تبنى السمات . أما الجسد فراحته معاملة في طيات الظلال المتخلفة عن الضوء ، وفي لحظات الميضة هذه دقت ساعة الكنيسة دقات تدل على انصرام حبل الليل وقرب انبثاق الفجر . ونفس هذه الدقات وصلت أسماع شخص آخر كان مكباً على كتبه في بقعة من المدينة نفسها لا تبعد كثيراً عن هذا المكان . ولما كانت الليلة من ليالي السبت التي ينام فيها دجوده دون أن يضبط عقارب ساعتها الدقاقة لتوقظه في ساعة باكورة من يوم الأحد ، ظل ساهراً يقرأ لساعات أكثر مما تعود أن يفعل في الأيام الأخرى من الأسبوع . في تلك اللحظة كان يطالع في جرد واجتهاد ترجمة « جرايز باخ » للمهد القديم . وفي نفس اللحظة التي كانت فيها « سو » تتأمل تمثالها وتمتع عينها بالتطالع إليهما ، كان من الممكن لرجل الشرطة والمواطنين الذين يمرون تحت نافذة « جود » في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، لو أنهم توقفوا عن السير لحظة ، أن يسموا كلمات غريبة ومقاطع غير مألوفة تتردد في حمية وحماسة وهي كلمات ومقاطع يجذب إليها « جود » انجذاباً كبيراً ويسحره رنينها رغم استعصائها على الفهم إذ كانت تشبه شيئاً كما لآتى :

« لكن لنا إله واحد الأب الذى منه كل شيء ونحن إليه ،

وظلت الكلمات تندفق ويعلو رنينها على ما عداها من الأصوات . وبينما صوت غلق الكتاب وانطباق صفحاته يسمع من بعيد ، كانت الكلمات الغريبة والمقاطع المستعصية على الفهم تخرج من النافذة على الشكل التالى :

« رب واحد يسوع المسيح الذى به كل شيء ونحن به ا »

( ٤ )

كان « جود » بارعاً في فنه وواسع الأفق في كل ما يتعلق بذلك الفن كعادة العمال المهرة الذين نلتقى بهم في المدن الصغيرة الواقعة في قلب الريف . وفي لندن

بأبى العامل الذى يمنحت العقود والميازيب المتممة لأشكال الأوراق أن ينظف الحواشى الداخلة فى تكوينها كما لو أن الأمر يتضمن الخط من كرامته لو أنه حاول أن يحقق الكمال فيما ينجز . وعند ما لا يجد « جوده » ما يقوم به من أعمال النقش على الطريقة القوطية أو الزخرفة الاتباعية التى تتم عن طريق المسند الحجرى ، فإنه يقوم بنقش الشواهد أو بالكتابة على القبور ، وهو يجد متعة فى القيام بهذا البديل الذى كثيراً ما يحل محل فنه الأصيل .

وفى المرة الثانية التى رآها فيها كان معتلياً إحدى السقالات يقوم بتنفيذ عمل من تلك الأعمال سابقة الذكر داخل إحدى الكنائس . وكان هناك قداس صباحى قصير . وعندما أقبل القسيس ليقوم بواجبات وظيفته نزل « جوده » وجلس وسط الأفراد القلائل الذين يؤلفون جمهرة المصلين ، وانظر حتى ينتهوا من الصلاة لىكى يستأنف عمله . وحتى قارب القداس على الانتهاء أو كاد لم يلاحظ أن «سو» إحدى الحاضرات قد صحبت الأنسة « فنتوفر » على كره منها .

جلس يرقب كتفهما الجميلتين ولفئاتها الرشيقة وإيماءاتها المناسبة وركعاتها التى تؤديها بغير افتعال فأخذ يسأل نفسه هل من الميسور أن تصبح مثل هذه المخلوقة الرائعة ذات التقى والورع عززاً له على تحمل أثقال الحياة وأعبائها لو حسنت الظروف ! لم تكن لطفته على استئناف عمله هى التى دفعته إلى مزاولته إياه بمجرد أن بدأ المصلون يتركون أماكنهم ويتجهون إلى خارج المكان ، بل الذى دفعه إلى ذلك هو عجزه ، فى تلك البقعة المقدسة ، عن مواجهة المرأة التى بدأت تغزو قلبه بطريقة لا يمكن وصفها ، فالأسباب الرئيسية الثلاثة التى دعت به إلى الإحجام عن التعرف « بسوبرايد هيد » لا تزال قائمة رغم أن اهتمامه بها كان من النوع القوى المغامر المتأصل الذى لا يضعفه شيء . ولكن كان من الواضح أيضاً أنه ليس بالعمل وحده يحيا الإنسان وأن «جوده» ، كإنسان من البشر ، هفا قلبه إلى الحب . وثمة رجال كانوا يدفعونه فى إسراف وتبذل نحو تلك الفتاة ملحين فى طلب الصحبة البسيطة السهلة التى ما كانت لترفض منحهم إياها ، تاركين ما تبقى بعد ذلك للقدر وتصاريفه ، وليس « جوده » من هذا النوع أولاً .

ولكن كلما مرت الأيام ، وبخاصة الليالي ، بما فيها من وحدة وحرمان ، زاد تفكيره فيها رغم ما يسببه له ذلك من ألم ممض ، كما وجد نفسه وقد استسلم إلى كل ماهو خيال ، وإلى كل ماهو مخالف للأصول المرعية والتقاليد العسامة ، وإلى كل ماهو غريب غير متوقع ، وفي أثناء النهار كان تأثيرها يحاصره ويضيق عليه الخناق فيرتاد الأماكن التي تتردد عليها وهو غارق في التفكير فيها وأخيرا وجد أن لا مناص له من الاعتراف بينه وبين نفسه بأن ضميره قد يكون هو الخاسر في هذه المعركة الأخلاقية .

وبما لا شك فيه أنها كانت ، بالنسبة إليه ، علما من أعلام المثالية النبيلة . وقد يكون في التعرف عليها علاجا يبرىء روحه من تلك العاطفة المفاجئة الهوجاء ، وارتفع في قرارة نفسه صوت يهمس بأنه وإن كان يهوى التعرف بها فإنه لا يود أن يشفى من هذا الهوى .

ومن وجهة نظره الأصلية أصبح من المؤكد تماما أن الموقف يتطور نحو مجافاة شريعة الأدب . فمن الرذائل أن تصبح فتاة « كسو » عشيقه لرجل أجبرته قوانين بلاده على أن يحب « أرايلا » وحدها حتى الرمح الأخير . هذا الانحراف في حد ذاته يعتبر بالنسبة إليه بداية أخرى غاية في السوء ، ولا سيما أنه ينوى الإقدام على مشروع جديد . لقد تمكن منه هذا الاعتقاد إلى درجة أنه في أحد الأيام ، وكان يعمل كمعادته في إحدى السكنائس القريبة وحيدا فأحس بأن من واجبه أن يصلى لله حتى يعينه على ضعفه . ولكن على الرغم من رغبته القوية في أن يكون مثاليا في هذه الأمور ، عجز عن الاستمرار فيما عقد عليه العزم حيث وجد أنه من الشاق على المرء أن يرجو الخلاص من الإغراء عندما تكون رغبته الكامنة في أعماق نفسه أن يصادف إغراء يأخذ بجماع نفسه . بهذه الطريقة التمس لنفسه المعاذير . وأخذ يقول لنفسه : « على أية حال ليس الأمر بالنسبة لي مجرد ضربة من ضربات الحب المفاجيء كما وقع لي في المرة الأولى ، ولكنني أرى أنها رائعة الجمال بشكل غير مألوف . ومن جهة أخرى تبعث رؤيتها في نفسي الرغبة في المشاركة

العقلية كما تبعث الحنين إلى العاطفة الجياشة التي تملأ جوانب وحدى. بهذا الأسلوب من المناجاة ظل يتعمد في محرابها وقد داخه الشك في أن تكون هذه العاطفة نتيجة حتمية للعناد البشرى مهما كانت فضائل «سو» ومهما كانت مواهبها وخصالها الدينية فن المقطوع به أن تلك الفضائل والمواهب والخصال ليست السبب المباشر لهيامه بها .

وذات أصيل جاءت إلى الفناء الذى يعمل فيه فتاة صغيرة يبدو عليها الخجل والتردد . وبعد أن رفعت طرف ثوبها لكيلا تعلق به ذرات التراب توجهت إلى المكان الذى يجلس فيه صاحب الفناء .

قال أحد العمال وهو يدعى العم ( جو ) : « تلكم فتاة جميلة ! » . وأضاف آخر : « ومن تكون تلك الفتاة ؟ »

— لا أدرى . رأيتها تتجول فى مكان قريب من هنا . عجباً ! تذكرت الآن . إنها ابنة ذلك الرجل البار « برايد هيد » الذى قام بصنع الحديد المطروق فى كنيسة القديس « سيلاس » منذ عشر سنوات وبعدها رحل إلى « لندن » لا أدرى ماذا يعمل الآن ولا أظن أنه أصبح الآن شيئاً مذكوراً طالما أنها تركت « لندن » إلى هنا .

وفى تلك اللحظة بالذات كانت الفتاة الصغيرة قد دقت بيدها على باب المكتب متسائلة عما إذا كان السيد « جود فاوى » موجوداً فى فناء المكان ، ولكن حدث أن « جود » كان قد غادر المكان لبعض شأنه فى ذلك الأصيل . وعندما بلغها خبر ذلك بدت على وجهها مسحة من خيبة الرجاء وغادرت المكان على عجل . وعندما عاد وأخبروه بكل ما حدث واصفين إياها له قال : « عجباً ! إنها قريبى «سو» . »

أخذ يرنو ببصره جهة الطريق الذى سلكته فى أوبتها ولكنها كانت قد اختفت . لم تبق لديه الآن أية فكرة لتحاشيها ، بل على العكس من ذلك عقد النية على زيارتها فى نفس ذلك المساء . وعندما باغ الغرفة التى يقيم فيها وجد خطأ با



منها . ولأنه أول خطاب يتلقاه منها وهو رغم بساطته يعتبر في حد ذاته وثيقة من تلك الوثائق التي عندما يتأملها المرء يدرك الفوره ما يمكن أن تحمل في طياتها من خطير النتائج . إن مجرد خلو ذهن من إمكان حدوث أساة تتحدث عنها صفحات مثل هذه الرسائل الأولى التي ترسلها النساء إلى الرجال أو يرسلها الرجال إلى النساء ، رغم ما تتميز به هذه الرسائل من صفات البراءة ، يجعلها في حالة وقوع المأساة شديداً جديراً بالاهتمام كما يصيب على هذه الصفحات مسحة من الصرامة قد تبلغ في بعض الحالات حد الرعب .

كانت رسالة « سو » تتميز بالبراءة الكاملة والبساطة البالغة . خاطبته قائلة : « جود » يا قريبي العزيز ، « وذكرت أنها علمت ، عن طريق المصادفة المحضة أنه يعيش بالقرب منها في « كرايستمينيستر » لذا عتبت عليه لأنه لم يتصل بها ليخبرها بذلك وصارت تؤكد أنه كان في الإمكان أن يقضيا معا وقتاً طيباً إذ هي وحيدة دون رفيق يؤنسها أو صديق يملأ فراغ حياتها ، ولما كانت على وشك الرحيل . فقد أسفت لضياع تلك الفرصة ضياعاً قد يكون نهائياً .

وعندما علم بأخبار رحيلها عن المكان انتشر العرق البارد على صفحة وجهه ، إذ كانت المصادفة مفاجأة له مما دعاه إلى الإسراع في الكتابة إليها ذاكر أن مساء اليوم نفسه ، عقب الفراغ من كتابة الخطاب بساعة واحدة ، سوف يقابلها عند الصليب الذي يخلد ذكرى الشهداء .

وبعد أن سلم الخطاب لأحد الغلمان ليحمله إليها ، ندم على أنه في غمار لطفته على الإسراع في الكتابة إليها طلب منها أن تقابله بعيداً عن المكان الذي تقيم فيه ، بينما كان ينبغى عليه أن يخبرها بأنه سوف يزورها حيث تقيم . والواقع أن عادات البلاد اقتضت منه أن يقابلها بعيداً عن المكان الذي تقيم فيه . ولهذا السبب لم يفكر في شيء آخر خلاف ما كان متبعاً ، ولسوء حظه سبق له أن قابل « أرايلا » بهذه الطريقة التي بدت غير لا ثقة لفتاة عزيزة على نفسه مثل « سو » ومهما يكن من شيء فالأمر خرج الآن من يده لذا أخذ يسير في اتجاه المكان الذي اقترحه

للبقابلة قبل حلولها بيضع دقائق وكانت المصاييح المشعلة حديثاً بدأت تغمر المكان بنورها الوضاء .

كان السكون يخيم على الطريق الواسع إذ خلا تقريباً من المارة على الرغم من أن الوقت لم يكن متأخراً ، وعلى الجانب الآخر رأى شبحاً انضح أنه هي وفي نفس اللحظة اتجه الاثنان نحو نقطة التلاقي ، وقبل أن يصلها أحد منهما صاحبت تقول : « ان آتى لمقابلتك فهذه أول مرة الاقيك فيها ولا بد أن تأتى أنت إلى هنا ، » .

كان صوتها يرتعش قليلاً وإن كان فضى النبرات نافذ الأثر . سارا في خطين متوازيين وانتظر « جود » حتى بدأت تقترب منه وعندئذ اقترب هو أيضاً منها وكان مكان تلاقيهما هو نفسه المكان الذى تقف عنده في أثناء النهار عربات الخالين ، وهو خلو منها الآن .

بدأ يقول في خجل المحب : « آسف إذ طلبت منك أن تأتى لمقابلتي بدلا من أن أمر عليك . غير أنى ظننت أن تلك الطريقة قد توفر لنا الوقت وبخاصة إذا كنا ننوى السير قليلا . » قالت في بساطة وصراحة كمن يحدث صديقاً عرفة وألفه طويلا : « أوه ، خل عنك ذلك . الحقيقة هي أنه ليس لدى مكان أستطيع أن أستقبل فيه الناس وما رميت إليه هو أن المكان الذى وقع عليه اختيارك كان غاية في القبح ، وإن كان من الواجب ألا أستعمل كلمة القبح في هذا المجال ، بل الأوفق أن أقول إنه مكان مقبض يوحى بالتطير لما يثيره في النفس من تشاؤم . ولكن ، أليس هذا مدعاة للسخرية إذ تبدأ الأمور بيننا على هذه الصورة بينما لم أعرف بك بعد ؟ وهنا أخذت تنقل عينها فيه من أعلى إلى أسفل في تطالع المتشوف وإن لم يطل النظر إليها .

وأضافت تقول : « يظهر أنك تعرفنى أكثر مما أعرفك ، » .

— « نعم ، كنت أراك من وقت إلى آخر ، » .

— « كنت تعرف من أنا ومع ذلك لم تقل شيئا ! أما الآن وقد بدأنا نتعارف

فإنى على وشك أن أترك هذا المكان ، »

— « وهذا من سو ، حظى فأنا وحيد هنا وأكاد أكون بلا صديق . الواقع أن لدى هنا صديقاً قديماً وهو يسكن بالقرب من هذا المكان ولكننى أفضل ألا أتصل به الآن ولانى لأتساءل إذا ما كنت تعرفين شيئاً عنه ؟ لأنه يدعى السيد « فيلوتسون » وأظن أنه يعمل قسيساً فى مكان قريب من هنا . »

— « لا بل إنى أعرف شخصاً يدعى « فيلوتسون » وهو يسكن ريف هذا المكان فى بقعة تدعى « لمسدون » وهو يعمل معلماً لصيدى القرية . »

— « آه ! أظن أنه هو نفس الشخص الذى أسأل عنه ، ولكن مستحيل أن يظل كما كان معلم صيدى ! هل لديك علم بالجزء الأول من اسمه وهل يدعى « ريتشارد » . »

— « نعم ، إنه كذلك ، فقد سبق أن حولت إليه بعض المطبوعات وإن كنت لم أره . »

— « إذن عجز عن تحقيق مأربه ! » وهنا بدا الحزن على وجه « جود » ، إذ كيف يستطيع أن ينجح فى مشروع خاب فى تحقيقه « فيلوتسون » العظيم . كان من الممكن أن يسبب له هذا الخبر تعاسة بالغة لو لم يتلقه فى حضرة « سو » الجميلة . أدرك أن فشل « فيلوتسون » فى مشروعه العظيم ، مشروع مواصلة دراسته فى الجامعة ، لا بد أن يملأ نفسه هو حسرة وكدا بمجرد أن تذهب عنه « سو » وتتركه لنفسه .

وبلا سابق مقدمات قال : « ولما كنا نعتزم السير ما رأيتك فى أن نذهب إليه ونزوره فى منزله ؟ إن الوقت مازال مبكراً . »

وعندما وافقت على ذلك سار الاثنان ثم صعدا تلامه على الأشجار وسرعان ما ظهر فى السماء برج الكنيسة ذو المنارة المربعة وبعدها ظهر مبنى المدرسة وهنا سألا شخصاً يسير فى الطريق إذا ما كان السيد « فيلوتسون » فى بيته فى تلك اللحظة فعلموا أنه لا يغادر بيته أبداً فدقا على بابه وعندئذ رأياه أمامهما وفى يده شجرة

مضيئة وعلى وجهه تعبير يدل على الدهشة وكان وجهه قد لحقه الضنى وأصابه الهزال منذ رآه « جود » آخر مرة .

هكذا كان اللقاء بالسيد « فيلوتسون » بعد كل هذه السنين . كان اللقاء متسهما بطابع البساطة وعدم الكلفة مما تسبب عنه القضاء على هالة النور التي أحاطت — في خيال « جود » — بشخصية المعلم منذ اللحظة التي افترقا فيها . وفي نفس الوقت خلق هذا الطابع في نفسه شعورا بالعطف على « فيلوتسون » على اعتبار أنه شخص تعذب وعانى الكثير من الضيق من جراء فشله في تحقيق آماله . قدم « جود » نفسه إلى « فيلوتسون » وقال إنه جاء ليراه كصديق قديم طالما شمله بعطفه في أيام طفولته الأولى .

قال المعلم وهو غارق في التفكير : « أنا لا أذكرك على الإطلاق . أتقول إنك كنت أحد تلاميذي ؟ نعم ، لاشك في ذلك ، ولكن تلاميذي يحصون حتى هذه اللحظة من حياتي بالآلاف وهم يتغيرون بالطبع كثيراً إلى درجة أني لا أذكر منهم سوى أفراد قلائل ومن بين هؤلاء من أقوم حالياً بتعليمهم . »

قال « جود » وهو يحس أنه أخطأ بمجيئه : كنت أحد تلاميذك في « ميريجرين » .

— « نعم ، عملت هناك فترة قصيرة . وهل هذه أيضاً تلميذة قديمة ؟ »

— « لا ، إنها إحدى قريباتي . . . وسبق أن كتبت إليك طالبا تزويدي

ببعض الكتب الخاصة بقواعد اللغة فأرسلتها إلى لو كنت تذكر . »

— « آي . نعم ! أذكر هذا الحادث بعض الشيء . »

— « كان جميلا منك أن تفعل ذلك وأنت الشخص الأول الذي عاوتني على

سلوك سيئ الدراسة . في اليوم الذي غادرت فيه « ميريجرين » ، وبينما كانت

حاجاتك نحلة على العربة ودعمتي وأخبرتني أنك تعزم أن تكون من خريجي

الجامعات ، وبعدها تصبح من رجال الدين ، كذلك أخبرتني أن الدرجة الجامعية

ضرورية للغاية لكل من يريد أن يكون من رجال الدين أو يحترف التعليم . »

— « أذكر أنني فكرت في كل ذلك بيني وبين نفسي ولكن يدهشني كثيراً

أننى لم أحتفظ بذلك السر فى نفسى . على أى حال هجرت الفكرة من سنوات مضت . »

— « أما أنا فما نسيتهما قط فهى التى أتت بى إلى هنا وحملتنى إليك كى أراك فى هذه الليلة . »

قال « فياوتسون ، : ادخل أنت وقرىبتك .

دخل الاثنان إلى بهو المنزل وكان هناك مصباح له مظلة من الورق تعكس الضوء على عدد من الكتب فد « فياوتسون » يده وانتزع المظلة حتى ينتشر النور فى المكان ويستطيع كل منهما أن يرى الآخر بطريقة أفضل . هنا سقط الضوء على وجه « سو » الصغير الرقيق ، وعلى عينيها الممثلتين نشاطاً وحياة ، وعلى شعرها ، كما سقط على ملاح « جود » الجادة . وكما سقط على وجه المعلم وقوامه مظهرأ إياه شخصاً نحيل الجسد مغرقاً فى التفكير ، فى الخامسة والأربعين من العمر رقيق الشفتين أنيق الفم ، يميل بجسده إلى الأمام قليلاً ويلبس معطفاً قصيراً حائل اللون مزقاً عند الوسط والمرفقين .

وسرعان ما تجددت الصداقة القديمة بين المعلم وتلميذه تجددأ لا شعوريا وأخذ المعلم يتحدث عن تجاربه كما أخذ الشاب والفتاة يتحدثان عن نفسيهما . أخبرهما المعلم أنه مازال يفكر فى الكنيسة وأنه على الرغم من فشله فى الالتحاق بها وفقاً لما أراده لنفسه فى ماضى السنين ، مازال يريد الالتحاق بها عن طريق الحصول على درجة جامعية تخول له ذلك . أخبرهما أيضاً أنه راض عن وظيفته الراهنة وإن كان فى حاجة إلى من يساعده فى أداء عمله .

اعتذر الضيفان عن البقاء لتناول العشاء إذ كانت « سو » مضطرة للعودة إلى نزلها قبل حلول الظلام وطريق العودة من « كرايستمينيستر » طويل . وعلى الرغم من أن الاثنين لم يتناولوا فى حديثهما غير الموضوعات العامة ، كان « جود » فى دهشة كبيرة عندما اكتشف ما لتلك الفتاة التى تمت له بصلة القرابة من تأثير عميق عليه . إذ بلغت من الرقة مبلغاً جعل كل ماقالته أو فعلته ينم عن شعور مرهف

وإحساس فياض ، فالفسكرة المثيرة تجعلها تنطلق في سيرها ركضاً وهو من ورائها يلمث . أما سرعة تأثرها بموضوعات خاصة وحاستها لبعض النقاط فيحمل من جانبت الآخرين على حمل الغرور . وبقلب مثقل بالهموم ، لاحظ أنه بينما شعورها نحوه لا ينطوى إلا على صداقة خالصة بريئة كان حبه لها في ازدياد . بدأ يحس أن أن الظلمة التي تسكتنف طريق عودته إلى البيت لا تسكن في الليل المنتشر في كل مكان بقدر ما تسكن في الفسكرة الدائرة حول رحيلها عن المكان .

قال في أسف واضح : لم ترحلين عن « كرايستمينيستر » ؟ وكيف تطاوعك نفسك على ترك مدينة أثر في تاريخها رجال مثل « نيومان » و « رارد » و « كيبل » ؟ قالت وهي تضحك : « نعم ، إنهم حقاً فعلوا ذلك وإن كانت المسألة هي إلى أي حد أمكن هؤلاء أن يؤثروا في تاريخ بقية العالم ؟ ياله من سبب عجيب يتلسه المرء للبقاء أما أنا فما كنت لأفكر في شيء كهذا ! »

وطفقت تقول : « يجب أن أعود توأ إذ أن علاقتي بالآنسة « فوتوفر » ليست على ما يرام ومن الأفضل أن أرحل الآن ، »

— « وكيف وقع الخلاف بينكما ؟ »

— « حطمت بعض التماثيل التي كنت أقتنيها . »

— « وهل فعلت ذلك عن عمد ؟ »

— « نعم . وجدت هذه التماثيل في غرفتي وعلى الرغم من أنها كانت ملكاً لي فإنها ألقت بها على الأرض ووطئتها بقدميها لأنها لم تسكن من النوع الذي يتفق وذوقها الفني . بل لأنها حطمت رأس أحدها وذراعيه تحطيماً كاملاً وسحقته بكعب حذاءها . ما أفظع ذلك ! »

— « أعتقد أنها وجدت في هذه التماثيل شيئاً موهلاً في الكاثوليكية والمبدأ الرسولي . أغلب الظن أنها دعت هذه التماثيل شخصاً بابوية وتحدثت عن الاتهالات للقسيسين . »

— « لا . إنها لم تفعل شيئاً من هذا بل نظرت إلى الأمر نظرة أخرى مختلفة تماماً . »

— « إذن فأنا دهش لما فعلت ! »

— « نعم كانت هناك أسباب أخرى مختلفة حدث بها إلى الخط من شأن القديسين الذين ألوذ بهم لذا اضطرت إلى الرد عليها وصممت على عدم البقاء والانتقال إلى عمل آخر أحس فيه بأننى أكثر حرية . »

— « ولم لا تقومين بالتدريس مرة أخرى ؟ بلغنى أنك حاولت ذلك مرة . »

— « لم أفكر أبداً فى أن أعود إلى التدريس إذ أننى فضلت العمل كرسامة . »

— « دعينى أطلب من السيد « فيلوتسون » ، أن يهين لك عملاً فى مدرسته فإذا رغبت فى هذا النوع من العمل ، وإذا التحقت بكلية المعلمات وحصلت على شهادة تربوية ، لا بد أن يصبح دخلك من التعليم ضعف ما تكسبين الآن من العمل كرسامة ، كما لا بد أن يتضاعف وقت فراغك . »

— « اطلب منه ذلك فليست أمانع . أما الآن فلا بدلى من الدخول فوداعاً أيها العزيز « جود » ! وافرحته لأننا تقابلنا أخيراً ! يجب ألا نختلف لمجرد أن آباءنا فعلوا ذلك . أليس كذلك ؟ »

ورفض « جود » أن يجعلها تحس تماماً بمدى اتفاقه معها فى رأى . وفى النهاية تركها وسار وحده فى الطريق المهجور المؤدى إلى حيث يسكن .

— أصبحت رغبته ملحة فى أن يتمكن من الاحتفاظ « بسوبرايد هيد » قريبة منه ، لذا هرع فى اليوم التالى إلى « لمسدون » ، يرى بنفسه السيد « فيلوتسون » ويطلب منه أن يمنح قريبته عملاً فى مدرسته ولو لم يكن المعلم ميالاً لهذا .

قال المعلم : « إن ما أحتاج إليه هو معلمة أمضت عاماً واحداً فقط فى دار للبعلات . بالطبع قريبتك صالحة للعمل فى مدرستى ولكن لم يسبق لها العمل فى التعليم . وهل حقاً لم يسبق لها أن مارست التعليم ؟ هل حقاً تود أن تتخذ التعليم مهنة لها ؟ » .

وأخبره « جود » أن « سو » مستعدة لأن تفعل ذلك . وأن حماسه فى إقناع

السيد « فيلوتسون » بمزاياها الطبيعية النادرة ، تلك المزايا التي كان « جود » يحمل عنها كل شيء ، كان لها تأثير كبير على المعلم حتى أنه قبل أن يستخدمها في مدرسته كما شرع في نفس الوقت يؤكد « لجود » على اعتبار أنه صديق مخلص له أنه ما لم تكن عاقدة العزم على الاستمرار في إعداد نفسها لمهنة التعليم عن طريق القيام بتدريب عملي في إحدى دور المعلميات فإن وقتها وجهدها لا بد وأن يتعرضا للضياع إذ ما سوف تحصل عليه من عملها لا يعدو أن يكون مالا قليلا لا ينفعها بشيء .

وفي اليوم الذي أعقب هذه الزيارة تسلم « فيلوتسون » من « جود » رسالة وضح فيها أنه قام مرة أخرى بسؤال « سو » والتأكد من أنها حقاً تنوى الاستمرار في مهنة التعليم . ذكر أنها أصبحت تتقبل الفكرة في حماسة متزايدة وأنها وافقت على الحضور ولم يدر في خلد المعلم لحظة وهو من عاش حياته في عزلة أن لطفة « جود » وحماسته في تدبير الأمر « اسو » يمكن أن ينشأ عن شعور نحوها يغير شعور التعاون الطبيعي الشائع بين أفراد الأسرة الواحدة .

### ( ٥ )

جلس معلم القرية في مسكنه الملحق بالمدرسة ، وكان المسكن والمدرسة بناء حديثاً ، وأخذ بلقي ببصره عبر الطريق الموصول إلى البناء القديم الذي تقيم فيه «سو» . لقد تمت الترتيبات سريعاً وكان من المتفق عليه أن تعين طالبة من طالبات المعلميات للتدريس بمدرسة السيد « فيلوتسون » . ولما لم تتمكن الطالبة من القيام بعملها في المدرسة حلت « سو » محلها على الفور . كل هذه الإجراءات المؤقتة وما يماثلها لم تكن لتتم إلا لحظة حضور مفتش التعليم لزيارة المدرسة في دورته السنوية الثانية حيث كانت موافقته ضرورية للتنفيذ .

الواقع أن الآنسة « برايديد » لم تكن جديدة تماماً على مهنة التعليم إذ سبق لها أن مارسته في «لندن» فترة تقرب من العامين ، وإن انقطعت عنه بعد ذلك . واعتقد « فيلوتسون » أنه يستطيع أن يستخدمها لديه دون ما صعوبة ورغب فعلا في ذلك بعد أن مضى على بقائها معه ثلاثة أو أربعة أسابيع . إذ وجدها ذكية تماماً كما



وصفها له ، جود ، . وأين هو صاحب العمل الذى لا يود أن يحتفظ بعامل مجد يوفر له نصف متاعبه ؟

كان الوقت صباحا والساعة جاوزت الثامنة والنصف بقليل عندما وقف « فيلوتسون » ينتظر « سو » وهى تعبر الطريق إلى المدرسة فيسير خلفها وفى التاسعة إلا ثلثاً ظهرت «سو» فعلا وعلى رأسها قبعة صغيرة فنظر إليها وأخذ يقرب حركاتها كأنها شىء غريب . جاءت اليوم يتضوع منها سحر عجيب لا يمت بصلة إلى مهارتها كمعلمة تربي الأطفال . ذهب هو الآخر إلى المدرسة حيث تقف ( سو ) فى الناحية الأخرى من الغرفة وظلت أمام نظره النهار بطوله . حقاً إنها معلمة ممتازة !

كان جزءاً من واجبه أن يعطيها فى الأمنيات دروساً خاصة . وبمقتضى مادة من مواد القانون كان عليه أن يدعو سيدة متقدمة عليها فى السن للحضور فى أثناء الدرس الذى يجمع بين معلم وتلميذته فى مكان واحد . فسكر «ريتشارد فيلوتسون» فى سخر مثل هذا الإجراء فى موقف كهذا لاسيما وأنه فى عمر يقرب من عمر والد الفتاة التى يقوم بتلقيها الدروس . غير أنه نفذ القانون بأمانة فجلس مع تلميذته فى غرفة تضم السيدة « هاوز » ، وهى أرملة تشرف على البيت الذى تقيم فيه « سو » ، وفى أثناء الدرس كانت الأرملة تشغل نفسها بالخياطة . الواقع أن تنفيذ هذه الفقرة من القانون ما كان بالشئ الذى يمكن تحاشيه إذ أن المنزل لم يحو غير غرفة جلوس واحدة فلم يكن من بقاء السيدة « هاوز » معها من بد .

وفى بعض الأحيان ، بينما « سو » تقوم بحل مسائل الحساب تحت إشرافه ، كانت تلقى عليه نظرة عابرة مصحوبة بانسامة خفيفة كما لو كانت تتوقع منه كأستاذها أن يدرك كل ما كان يدور فى خلدتها فى تلك اللحظة من عمليات حسابية صحيحة أو خاطئة . والواقع أن « فيلوتسون » لم يكن يفكر فى الحساب على الإطلاق واسكنه ينسكرفيها هى بطريقة جديدة تبدو له غريبة بعض الشئ باعتباره فى موقف المعلم . ومن الجائز أنها كانت تدرك هذا الاتجاه الجديد فى تفكيره .

وأعده أساميع استمر عملهما فى نظام رتيب وجد فيه « فيلوتسون » متعة لنفسه .

وبعد ذلك حدث أن أطفال المدرسة كان عليهم أن يذهبوا إلى « كرايستميسترس »  
 ليشاهدوا معرضاً لمدينة أورشليم نظير عملة صغيرة ، تبرعاً منهم لصالح التعليم .  
 فسار الأطفال في الطريق اثنين اثنين بينما سارت « سو » بجوار أطفال فصلها  
 رافعة مظلتها الصغيرة وأصابعها مضمومة بقوة على مقبضها وفي الخلف يسير  
 « فيلوتسون » مرتدياً معطفه الطويل الفضفاض وهو يتوكأ على عصاه وكان غارقاً  
 في نوبة التفكير التي دأبته منذ أن جاءت « سو » لتعمل في مدرسته . كان  
 الوصول مشمساً مترباً وعندما دخل الاثنان إلى المعرض لم يكن هناك سواهما غير  
 عدد قليل

وفي وسط القاعة ظهر رسم مجسم للمدينة القديمة بينما وقف بجانبه صاحب  
 المعرض وعلى وجهه علامات التظاهر بالدين والإغراق في خدمته والتضحية في  
 سبيله وفي يده مؤشر يشير به للأطفال ويدلهم على الأجزاء المختلفة من المدينة  
 ويريمهم الأماكن التي عرفوا أسماءها من قراءتهم للإنجيل مثل جبل « موريا » ،  
 ووادى « يهوشافاط » ، ومدينة « صهيون » ، والأسوار والبوابات التي تقع خارجها  
 هضبة مرتفعة فوقها صليب أبيض صغير . قال الدليل : « يدعى هذا المكان جبل  
 « الجلجثة » .

قالت « سو » للعلم وهي تقف بجواره خلف الأطفال : « أغلب ظني أن هذا  
 الرسم رغم كثرة تفصيلاته ، يعتبر بعيداً عن الواقع . وإلا كيف يستطيع أى  
 إنسان أن يقول إن « أورشليم » كانت على هذه الصورة في الوقت الذي عاش فيه  
 المسيح ! إننى على ثقة من أن ذلك الرجل يجمل حقيقة الأمر » .

— « هذا الرسم مصنوع وفقاً لأفضل الخرائط المعتمدة على الخيال مع زيادة  
 الآثار الباقية في المدينة »

قالت : « أظن يكفي هذا الآن ولا سيما أننا لسنا من سلالة اليهود . لم تكن المدينة  
 في عهدها الغابر متميزة بشئ . ولم يكن سكانها بالقوم الفضلاء كما كان الحال في أثينا  
 وروما والإسكندرية وغيرها من المدن العريقة » .

— « ولكن بافتاتى الغالية فكبرى في قيمة تلك المدينة لنا كسيحيين ! »

هنا صممت حيث كان من السهل إلخامها . بعد ذلك لمحت خاف الأطفال المتسكاً كئيين حول الرسم شاباً يرتدى سترة بيضاء خفيفة ينحني بكل جسده فوق الجزء الذى يمثل وادى « ياهوشافاط » ، وراح يتأمله فى اهتمام كبير وكان وجهه محتفياً تماماً وراء البروز الذى يمثل جبل الزيتون .

قال المعلم : « انظرى إلى قريبك « جود » . لعلمه يظن أننا لم نزل كفائتنا من التفرج على « اورشليم » ا . »

صاحت الفتاة بصوتها الناعم السريع النبرات : « آه .. إننى لم أره ! جود ما أعظم انهماك فى تفحص ما أمامك ! »

أعاد الصوت « جود » إلى وعيه فرفع رأسه وهذا رآها فقال : « أوه ، سوء ، قالحا فى رعشة تم عن الفرحة والارتباك الخفيف . »

— « طبعاً أولئك هم تلاميذك الصغار ! رأيت تلاميذ المدارس يأتون فى أوقات الاصيل فظننت أنك قد تأتين ، ولكننى أصبحت منهمكاً فى تفحص الرسم لدرجة أننى لم أدر أين أنا . يا لقدرة هذا الرسم على الرجوع بالناس إلى غابر السنين ! أليس كذلك ؟ فى مقدورى أن أتأمله لعدة ساعات ولكن لسوء الحظ ليس أمامى سوى دقائق قليلة ، إذ أننى مشغول بعمل أؤديه بالقرب من هذا المكان . »

قال « فيلوتسون » فى دعابة خفيفة : « إن قريبك من الذكاء بحيث تستطيع أن تنقد هذا العمل نقداً مرا . إنها تشك فى صحة هذا المشروع ولا تثق بدقة تفصيلاته . »

قالت « سو » فى عصبية : « لا أيها السيد « فيلوتسون » ، لست تماماً كما تقول ، أكره أن أدعى بالفتاة الذكية فثمة عدد كبير ممن يدعون بالفتيات الذكيات ، كل ما هنالك أننى قصدت — لا أدري ماذا قصدت — هذا الرسم من الأمور التى لا يفهمها أحد ! »

قال « جود » فى حماسة : « أعرف ما تقصدينه وأظن أنك على حق »

— « هذا حسن يا جود » . أعرف أنك تثق بي ا ، ثم قبضت على يده في حركة سريعة ، وبعد أن ألقت على المعلم نظرة عتاب . التفتت إلى « جود » وكان في صوتها رعشة أحسبت أنها لا تتفق مع موقف عادى كهذا الموقف . كانت خالية الذهن تماما عن مدى تعلق قلب الاثنين بها في تلك اللحظة العاطفية ، وعن عمق الاضطرابات التي هي على وشك أن تصيب مستقبل كل منهما بسببها .

ولما كان الرسم يمتاز بمزايا تعليمية كبيرة ظل الأطفال يتفرون فيه لفترة طويلة . وبعد الأصيل بقليل ، عادوا كلهم إلى « لمسدون » بينما رجع « جود » إلى عمله . وفي طريقه إلى العمل ظل يرقب صف الأطفال وهم يسرون في ملابسهم النظيفة ومعطفهم السميك وبجوارهم « فيلوتسون » يسير مع « سو » واستولى على « جود » شعور بالاستياء لأنه يقف وحده خارج النطاق الدائم لحياة هذين الشخصين . لقد دعاه « فيلوتسون » لزيارتها في مساء الجمعة وهو الوقت الذي يخلو فيه من دروس « سو » . عند ذلك تعهد « جود » في حراسة زائدة أن يفيد من هذه الفرصة .

أخيرا عاد التلاميذ والمعلمون إلى منازلهم . وفي اليوم التالي دهش « فيلوتسون » عندما رأى على السبورة في الفصل الذي تدخله « سو » رسما بالطباشير يبين في جلاء صورة عامة لمدينة « أورشليم » ، بما تحويه من معالم تفصيلية دقيقة .

قال : « ظننت أنك لم تهتمى بالرسم ولم تلحظي كل ما يحويه من تفصيلات » .

قالت : « الأمر كما تقول ولكنني تذكرت هذا القدر التليل بما رأيت » .

— « هذا يزيد كثيراً على ما استقر منه في ذاكرتي » .

في تلك اللحظة كان مفتش التعليم يقوم بزيارة مفاجئة لبعض مدارس المنطقة كي يقوم على طبيعة العمل في هذه المدارس . وبعد هذا الوقت بيومين ، وفي وسط دروس الصباح ، فتح باب الفصل في هدوء ودخل السيد المبجل ملك الرعب الذي طالما أخاف ناشئة المعلمين .

وبالنسبة للسيد « فياوتسون » لم تسكن المفاجأة بالشئ الخيف إذ أنه سبق أن عانى متاعب هذا الموقف مرات ومرات ولم يعد يهره أقل اهتمام . لكن فصل « سو » كان في الناحية الأخرى من الغرفة وكان ظهرها للدخل ، لذا جاء المفتش ووقف خلفها وأخذ يرقبها وهي تقوم بعملها واستمر كذلك لفترة قبل أن تنبهه إلى وجوده وأخيراً استدارت وأدركت أن اللحظة الراهية التي طالما ترقبها قد حانت وكان وقعها عليها شديداً فهدرت منها صرخة تدل على الرعب . أما « فياوتسون » فبتأثير شعور قوى لا يدرك كنهه ، وإن عرف أن مصدره هو العطف عليها ، وجد نفسه يقف بجانبها في الملاحظة التي يستطيع فيها أن يحول دون سقوطها فاقدة الوعي ولكن سرعان ما استرجعت أنفاسها وأطلقت من فمها ضحكة . وبعد رحيل المفتش أحست برد الفعل وكان قوياً فاكنتى وجهها لونا شديداً البياض مما دعا « فياوتسون » إلى أن يأخذها إلى غرفته ويقدم لها شرباً منعشاً . وعندما عادت إلى رشتها وجدته قابضاً على يدها .

قالت في حلق : « كان يجدر بك أن تنهني إلى أنى معرضة لمثل هذه الزيارة المفاجئة ! ويل ، ماذا أفعل ! هذا المفتش لابد أن يكتب لأصحاب الشأن بما يفيد عدم صلاحيتي للتدريس وبذلك أفقد احترامهم إلى الأبد » ،

— « ان يفعل ذلك يا فتاتي الغالية فأنت أفضل معلمة رأيتها في هذه المهنة » .

وأخذ يتطلع إليها في رقة زائدة إلى درجة أنها تأثرت بكلامه وندمت على أنها لامته . وعندما استعادت قواها عادت إلى البيت .

أما « جود » فكان في تلك الأثناء ينتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر . وفي يوم الأربعاء والخميس السابطين دلى الجمعة أحس برغبة ماحة في أن يراها مما دفعه إلى السير في الظلام في الطريق المؤدية إلى القرية . وبعد أن عاد إلى غرفته ليقرأ وجد نفسه عاجزاً تماماً عن تركيز عقله في الصفحة التي يقرأها وفي يوم الجمعة المنتظر ، بمجرد أن نهض من فراشه وصنع لنفسه على عجل قليلاً من الشاي ، غادر البيت

دون أن يحسب حساباً لبرودة الطقس وفي داخله شعور بأن «سو» تود أن تراه . كانت الأشجار التي يسير تحتهما تعمق من ظلمة الساعة فتزيد المكان وحشة وتملاً نفسه تشاؤماً وقلقا . لم يكن على حق في هذا التشاؤم وذلك القلق ، فهو وإن كان يدرك أنه يهواها فقد أدرك كذلك أنه لا يستطيع أن يكون بالنسبة لها أكثر مما هو في تلك اللحظة .

وعندما استدار حول رأس الطريق المؤدى إلى القرية كان أول شيء وقع عليه بصره شخصين يسيران جنباً إلى جنب تحت مظلة واحدة والشخصان خارجان من مبنى الأبروشية . ولما كان هو بعيداً عنهما بعداً كبيراً لم يستطيعا أن يرياه ولكنهما أدرك لأول وهلة أنهما «سو» و « فيلوتسون » وكان ممسكاً بمقبض المظلة رافعاً إياها فوق رأس «سو» وكانا على الأرجح عائدين من زيارة راعي الكنيسة ، ومن الجائز أن الزيارة لبعض الأعمال المتعلقة بالمدرسة . وفي أثناء سيرهما في الطريق المبتل المهجور رأى «جود» « فيلوتسون » يضع ذراعه حول خصر الفتاة التي بادرت بإزاحتها في رقة ولكنهما عاد إلى هذه الحركة مرة أخرى وهنا امتثلت وهي تتلفت حولها بسرعة وبدأ عليها الضيق . لم تنظر خلفها تماماً وعلى ذلك لم تر «جود» الذي غاص خلف سياج الطريق كمن أصيب بضربة قاصمة ، وبقي في مكانه متوارياً حتى وصل الاثنان إلى الكوخ الذي تقطنه «سو» فدخلته بينما استأنف « فيلوتسون » سيره إلى المدرسة التي لم تكن لتبعد كثيراً عن بيت «سو» .

صاح «جود» من نبرة الألم الممض الصادر عن حب يائس وقال :

«رباه ولكنني يبدو شيخاً بالنسبة لها ... شيخاً طاعناً»

لم يستطع أن يتدخل . ألم يكن زوجاً لأرابيلاً ؟ ولم يستطع أن يسير أكثر مما سار ، لذا غير طريقه في اتجاه «كرايستمينيستر» ، وكل خطوة من وقع قدميه كانت كأنها تعلن أنه لا يجوز له بحال أن يقف في طريق المعلم وعلاقته «بسو» . كان « فيلوتسون » يكبر الفتاة بما يقرب من عشرين عاماً ، ولكن ثمة زيجات سعيدة

عديدة تمت رغم هذا التفاوت الكبير في السن . أما سمة السخرية التي أحاطت به في حزنه فصدرها اعتقاده بأن علاقة الود التي نشأت بين قريبته والمعلم كان هو وحده السبب في وجودها .

## ( ٦ )

كانت العجوز راقدة على الفراش مريضة في ماريجرين ، فذهب « جود » لرؤيتها في يوم الأحد التالي وكانت الزيارة نتيجة لما اضطرع في نفسه من ميل لمقاومة المرور على قرية ( لمسدون ) حيث يستمتع بجلاسة ذليلة يقضيها مع « سو » وفي أثنائها يلجم لسانه فلا ينبس بالكلمة التي هي أقرب الكلمات إلى قلبه ولا يكشف عن حقيقة المنظر الذي يعذبه .

أصبحت العجوز الآن لا تقوى على مغادرة فراشها وانشغل في الفترة التي أمضاها معها بالعناية براحتها . كان الخبز الصغير قد بيع لأحد الجيران فاستطاعت الخالة أن تعيش على ثمنه ، وذلك بالإضافة إلى فضلة من مال مدخر بينما عاشت معها أرملة من نفس القرية تقوم على خدمتها . وعندما اقترب موعد عودته إلى عمله صمم على أن يتحدث إلى خالته حديثاً قصيراً هادئاً يدور حول قريبته الشابة .

« هل ولدت « سو » في هذا البيت ؟ »

« أجل وفي نفس هذه الغرفة — كانا يعيشان هنا في ذلك الوقت ، .

« ولكن ما الذي جعلك تسأل هذا السؤال ؟ »

« أردت فقط أن أعرف ، »

قالت العجوز ذات المظهر الحشن : « لا بد أنك تقابلها وتحدث إليها ما الذي سبق أن قلته لك عنها ؟ »

— « قلت لى ألا أقابلها ،

— « وهل تجاوزتبا أطراف الحديث ؟ »

— « نعم »

« إذن كيف عن ذلك فقد نشأها أبوها على كراهية أسرة والدتها ، كما أنها ان تحترم عاملا بسيطا مثلك سيما وأنها أصبحت الآن من قتيات المدينة المغرورات .  
إني ما أحسنت الذان بها قط إذ كانت دائما ذاك الخلق القمى . الناصر الجسور  
ذا الأعصاب المشدودة ، ولما كلت لها الضربات لوقاحتها ،

« حدث ذات يوم مثلا أن كانت تحوض البركة بعد أن خلعت حذاءها وجورها  
وجذبت ملابسها إلى ما بعد الركبتين . وقبل أن أصرخ في وجهها معنفة إياها على  
فعلتها قالت : « إلى الأمام أيتها الحالة ! ليس هذا بالمنظر الذى ينظر إليه —  
المؤدبين من الناس ! »

— « كانت طفلة صغيرة حينئذ »

— « كانت بالتأكيد فى الثانية عشرة »

— « ولكننا الآن أكبر وأصبحت من النوع الوديع المفكر الخجول ، كما  
أنها شديدة الحساسية . »

صاحت العجوز وهى تنهض من فراشها : « العقل يا جود ! »

— « لا .. لا .. طبعاً لا .. »

— « إن زواجك من تلك المرأة المدعوة « أرايلا » لا يمكن أن يدانيه فى  
السوء أمر آخر ، ولكننا رحمت الآن إلى الجانب الآخر من العالم وإن يقلبك  
شبهها مرة أخرى . ولكن سيحدث لك ما هو أسوأ لو أنك تعلقت « بسو »  
رغم القيود التى تغالك الآن . وإن كانت هذه الفتاة تظهر لك شيئاً من الود  
فلا ينبغي أن تفسر هذا بأكثر مما يجب . ولو نظرت إلى رقبتها على أنها أكثر  
من مجرد أمان طيبة صادرة من فتاة نحو قريبها ، فهذا هو الجنون المطبق ، أما إذا  
كانت رخيصة مبتذلة فن الجائر أن تقودك إلى الدمار . »



— « لا تتحدثى عنها بالسوء .. أرجوك » .

ومنح خلاصاً عندما دخلت عليهما رفيقة العجوز ، وهى فى نفس الوقت مرضتها ولا بد أنها كانت تنصت للحديث إذ أنها شرعت تسرد ذكرياتها عن الأعوام المنصرمة وتعتمد فى حديثها عن الماضى أن تذكر ( سوبرايد هيد ) وتصفها على اعتبار أنها كانت فتاة صغيرة غريبة ، وهى ما زالت تلميذة فى مدرسة القرية قبل رحيل أبها إلى لندن ، وكيف أنها ، عندما قام القسيس بتنظيم قراءات ودروس إلقاء ، وقفت على المسرح — وكانت أصغر الجميع سناً — وعليها معطفها الصغير الأبيض وفى قدميها حذاءها وحول وسطها حزامها الوردى وما أعجبها عندما أنشدت قصيدتى « أكسيسيور » و « الغراب » ، وكانت أثناء الإلقاء تعقص حاجبيها الصغيرين وتدور حول نفسها فى قوة وتقول وهى تحدث الفراغ حولها كأنما الواقف أمامها شخص حقيقى « وأنت أيها الغراب الأسود الفظيع العاتى الهارب من شيطان الظلام . خبرنى ما اسم صاحب الأمر والنهى فى مملكة الليل .. » .

وأضافت المرأة المريضة تقول فى تراخ : « كانت تصر فى إلقاءها على إظهار الطائر المنبوذ بطريقة واضحة ، بينما وقفت مرتدية حزامها الصغير وأدوات التثيل الأخرى التى استطاع كل فرد أن يراها فى وضوح . وأنت أيضاً يا « جود » ، كنت فى طفولتك تتظاهر برؤية أشياء فى الهواء . وأشياء أخرى كثيرة ذكرتها الجارة كي تبرهن بها على براعة « سو » .

قالت الجارة : « لم تكن « سو » بالجسورة واسكنها تستطيع أن تقوم بالأعمال التى لا يقوى على القيام بها سوى الغلمان ولقد سبق لى أن رأيتها وهى تضرب الأرض بقدميها ثم تنزل المنزلق الثلجى الطويل الذى ينتهى بالبركة بينما خصلات شعرها تتطاير فى الفضاء وضفائرها تهتز خلفها وترتقص على صفحة الماء مكونة أشكالاً تشبه الصور المرسومة على الزجاج ثم تصعد المنزلق الخلقى دون توقف وكانت الوحيدة بين الغلمان . وعند ما يهتفون لها تقول لهم : « لا تكونوا

وقحين أيها الغلبان . ولجأة تعود إلى البيت مسرعة فيحاول الغلبان أن يغروها بالخروج ثانية ولكنهما ترفض في إصرار .

هذه الرؤى المسترجعة لسو لم يكن لها من نتيجة إلا أن تزيد من تعاسة « جود » وتقعده عن السعى في حبها فرحل عن بيت العجوز في ذلك اليوم وقلبه مثقل ولم تطاوعه نفسه أن يلقى نظرة عابرة كما اعتزم على المدرسة ليرى الغرفة التي نعمت بوجود « سو » فيها ، وسار في طريقه .

كان الوقت أمسية الأحد وتجمع بعض القرويين الذين عرفوه عندما كان يقيم في ذلك المكان ، وكانوا يرتدون أفضل ملابسهم . وحياه واحد منهم تحية مفاجئة فزع لها « جود » وخاصة عندما سمعه يقول : « هانت وصلت إلى هناك » ، وظهر على « جود » أنه لم يفهم شيئاً .

— « أقصد أنك وصلت إلى هناك ، إلى مكان العلم والمعرفة ، إلى ( مدينة النور ) . فظالمنا حدثنا عنها وأنت بعد صـغير ! هل رجدت فيها كل ما توقعتم ؟ » .

صاح « جود » نعم وه أكثر .

— « أما أنا فذهبت إلى هناك ذات مرة وبقيت ساعة ولكنني لم أر فيها شيئاً يستحق الذكر بل وجدت أبنية قديمة متهدمة وكنائس لم يتم بناؤها وملاجئ ناقصة وركوداً في كل مكان » .

— « أنت مخطيء يا « جون » ، فهناك أشياء كثيرة لا تراها عين من يسير في الطرقات فالمدينة مركز ممتاز للفكر والدين معا وهي الدعامة الفكرية والروحية لدولتنا وكل ما لاحظته هناك من هدوء ظاهري ، ما هو إلا الحركة الدائمة في سكونها وهدوئها . إنه ( هجوع المغزل ) لو جاز لي أن استخدم تشبيه أحد الكتاب الكبار في هذا المقام » .

— « على أي حال ، قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون . ولكنني كما قلت

لم أر شيئاً مما تقوله في اللحظة التي أمضيتها هناك . فدخلت إحدى الحانات وطلبت قدحاً من البيرة ورغيفاً من الخبز وقطعة من الجبن وبقيت هناك حتى حان وقت عودتي . أرجو أن تكون قد تمكنت من الالتحاق بإحدى الكليات هناك .

قال «جود» : « آه . لا . بل ما زلت أبعد ما يكون عن إدراك هذا الهدف ، — وكيف كان ذلك ؟ » .

وضرب «جود» بيده على جيبه .

وقال الآخر : « هذا بالضبط ما توقعناه ! مثل هذه الأماكن ليست لمن هم مثلك بل إنها لأولئك الذين يملكون المال الوفير » .

ومع ذلك فالملاحظة كانت كافية لتحويل انتباه «جود» عن العالم الشعري الذي يعيش فيه في الحقبة الأخيرة من حياته حيث أخذت شخصية معنوية تشبهه من بعيد أو قريب تفرق عقله في فيض من تقديس الفنون والعلوم وتدعم جهوده ، وتقوى سعيه لاكتساب مكان له في جنة المتعلمين . في تلك اللحظة ، أحس بأن آماله تضاءلت وتجمدت داخل نطاق صغير في ركن من أركان نفسه . لقد أحس في الفترة الأخيرة أنه عاجز عن القيام بما تتطلبه دراسة اللغة اليونانية من جهد وبخاصة لغة «كتاب الفواجع الشعرية» .

كان في بعض الأحيان يحس بوطأة التعب عقب الانتهاء من عمل اليوم فلم يكن في طاقته أن يركز انتباهه تركيزاً يمكنه من القيام بالتطبيق اللازم لما يحفظ من قواعد ونظريات لغوية . وشعر بحاجته إلى من يعاونه على الدرس ، إلى صديق قريب منه يرشده في وقت قصير إلى ما قد يتطلب منه في بعض الأحيان قضاء شهر كامل من العمل المضني حتى يستخلص من بطون الكتب العميقة التبويب ، البالية التنظيم ما لا علم له به .

أصبح من الضروري أن القاطعة بالنسبة له الآن أن يزن الحقائق في دقة تفوق ما اعتاد أن يفعله في الفترة الأخيرة وبدأ يشك في الفائدة التي تعود عليه من قضاء

ساعات فراغه في عمل غامض الهدف ، يدعى (دراسة خاصة) دون أن يهتم بما يمكن أن يتمخض عنه القيام بمثل هذا العمل من نتائج مفيدة له .

وفي طريق عودته قال يناجي نفسه : « كان لا بد أن أفكر في ذلك قبل الآن . كان ينبغي ألا أبدأ المشروع على الإطلاق قبل أن أرى في وضوح الطريق الذي أسير فيه ، أو الهدف الذي أرمى إلى تحقيقه . هذا التسكع والتحويم خارج أسوار الكليات كما لو كنت أتوقع أن يمتد منها ذراع سحري يجذبني إلى داخلها لن يكون من ورائه نتيجة إلا بدلي من أن أحصل على معلومات خاصة » .

وفي الأسبوع التالي راح يبحث عن هذه المعلومات ، وجاءت الفرصة ذات أصيل عندما رأى سيداً متقدماً في السن يبدو عليه أنه عميد لإحدى الكليات ، يسير في الطريق العام الذي يخترق متنزهاً عاماً حيث تصادف ، أن كان « جود » جالسا . واقترب السيد المبهجل ، فأخذ « جود » يتطالع إلى وجهه في لهفة ، وكان يبدو طبيبا رحيا وإن كانت عليه مسحة من التحفظ . وعندما عاد « جود » إلى نفسه أحس أنه لا يقوى على النهوض ليحادثه . ولكنه بعد هذا الحادث أصبح على درجة من الاقتناع بحيث وجد من الخير لنفسه أن يكتب لبعض هؤلاء السادة والأساتذة من ذوى المكانة والشهرة موضحا لهم حقيقة حاله . سارداً طرفاً من الصعاب التي تواجهه في سبيل التحاقه بإحدى الكليات ، طالبا النصيحة منهم .

وفي خلال الأسابيع القليلة التالية تعمد أن يجلس في أماكن معينة من المدينة بحيث يستطيع أن يلتقي نظرة عابرة على عدد من مشاهير العمداء والعلماء والأساتذة ذوى الأسماء اللمعة . ومن بين هؤلاء اختار لنفسه ، بعد تفكير طويل ، خمسة ممن يتوسم فيهم حب الخير وبعد النظر . وبعد ذلك شرع يكتب لكل من هؤلاء خطابا يشرح فيه بإيجاز الصعاب التي تنتاب حياته ملتصقا بالمشورة فيما يتعلق بموقفه الصعب .

وبعد أن أرسل خطاباتاه شرع عقله ينتقد محتوياتها ويتمنى لو أنه لم يرسلها وأخذ يناجي نفسه قائلا : « ليست هذه سوى رسائل رخيصة خالية من الذوق

تغلب عليها صفة التطفل والاندفاع كخطابات طلب الوظائف الكثيرة الانتشار في أيامنا هذه . ليتنى كنت أكثر حذراً فلا أخاطب الغرباء بهذه الطريقة ! من الجائز أن يظنوا أنى غشاش أو أفاق أو منجل الشخصية من مدى علمهم برغم أنى عكس ذلك ... من الجائز أنى بهذه الصفات . .

وبالرغم من ذلك ، وجد نفسه ما زال متشبثاً بالأمل في أن يتسلم رداً ما على محاولته الأخيرة لإيقاظ روحه فأخذ ينتظر يوماً بعد يوم قائلاً لنفسه من الحق المطبق أن ينتظر ، ومع ذلك ظل ينتظر . وفى أثناء انتظاره هذا تزلزل كيانه لخبر سمعه عن « فيلوتسون » إذ سمع أن « فيلوتسون » يعتزم ترك مدرسته بجوار « كرايستمينيستر » والانتقال إلى أخرى أكبر منها تقع إلى جنوبها في « وسكس » الوسطى . ما معنى ذلك ؟ وما أثره على ابنة خالته ؟ هل هذه ، كما هو الواضح ، خطوة من المعلم لزيادة دخله ، حيث يدبر المعيشة لشخصين بدلاً من واحد ؟ من يدري ؟ . وكانت العلاقات العاطفية التي تربط « فيلوتسون » بالفتاة الصغيرة التي يهيم « جود » بها حباً ، جعلت من الأمور التي تعافها نفسه أن يسعى للعلم طالباً المشورة في أموره الخاصة .

وفى الوقت نفسه لم يتنازل السادة الأفاضل الذين كتب « جود » لهم بالرد على رسائله وبذلك عاد إلى وحدته بل زاد عليه الانقباض الناشئ عن ضعف الرجاء . وبالتحريات الخاصة أدرك في وضوح أن التقدم لنيل منحة دراسية من بين المنح المفتوحة للجميع ، هو طريقه الأوضح والسليم في موقف كهذا . لكنه لو فعل ذلك فلا بد من إعداد خاص وقدرة معينة على الدراسة والتعليم . ولكن من المستحيل حقاً على من كان مثله يقرأ بلا نظام ثابت ، مهما تنوع اطلاعه ودق فهمه ، ومهما كان عدد السنوات التي أمضاها في هذا الاطلاع وقد زادت على العشر ، من المستحيل عليه أن ينافس أولئك الذين أمضوا حياتهم تحت إشراف أساتذة مدرسين وعملوا وفقاً لنظام دراسية مقرر .

أما الطريق الآخر ، وهو الطريق الرسمي المعتاد ، وبه يستطيع أن يشتري

الدخول بدراهمه فكان يبدو له أنه الطريق الوحيد المفتوح أمام من هم على شاكلته . أما صعوبة سلوك هذا الطريق فترجع إلى ما يتطلبه السير فيه من مال . وشرع يدرس طبيعة هذه العقبة فتأكد لديه أنه بالمعدل الذى يستطيع بمقتضاه أن يقتصد بعض المال لا بد له ، فى أفضل الظروف ، من أن يقضى خمسة عشر عاماً قبل أن يتمكن من التقدم بوثائق تثبت مقدرته المالية إلى عميد إحدى الكليات ثم أداء امتحانات القبول بعد دفع رسومها ولم يجد فى مثل هذا المشروع بارقة أمل .

على أنه رأى أية روعة عجيبة خلافة وأى أثر عميق تركه فى نفسه هذا المكان وملحقاته . أن يذهب إلى هناك ويعيش هناك ، أن يتجول وسط الكنائس وقاعات الاجتماعات حيث تمتلئ نفسه بروح المكان ، ذلك كان ، لشبابه الحالم هدفه وبخاصة كلما أحس أن البقعة كلها تناديه من وسط هالات النور التى تسبح فيها فوق الأفق . صاح بنفس اللهفة التى أبداهها « روبنسون كروزو » على قاربه الكبير : « كيف السبيل إلى الوصول إلى هناك ؟ أما الباقى فمسألة جهد ووقت » . كان من الأفضل له كثيراً لو أنه لم يقترب من هذه البقعة الخداعة هذا الاقتراب الشديد ، أو لو أنه ذهب إلى مدينة أخرى تشتهر بالحركة والنشاط التجارى بغية جمع المال معتمداً على مواهبه ومن ثم ينظر إلى مشروعه فى وضعه الطبيعى نظرة شاملة . على أى حال كل ما كان واضحاً أمامه لا يتعدى الحقيقة القائلة بأن المشروع كله قد انهار من أساسه كنفقاعة الصابون وذلك بمجرد أن سلط عليه شعاعاً من التفكير المتزن ، وهنا نظر إلى نفسه من خلال سنى حياته التى انقضت فجاءت أفكاره قريبة من أفكار الشاعر ( هاينى ) : « ومن فوق عيون الشباب الملتمة بنور الأمل والحماس رأيت قلنسوة المهرج ذات الألوان المختلطة ترتفع فى سخرية » .

ولحسن الحظ لم يؤذن له بأن يفهم خيبة أمله على حياة عزيزته « سو » بإشراكها فى هذا الانهيار . أما التفصيلات المؤلمة الخاصة بإدراكه قصوره فوجد

أن من الواجب إعفاءها منها بقدر استطاعته . وقبل كل شيء لم تعرف سوى جزء صغير من الكفاح التعس الذي خاضه وهو أعزل فقير غر .

لقد تذكر دائماً ذلك الأصيل الذي استيقظ فيه من الحلم . ولما كان لا يدرى ماذا يصنع بنفسه ، صعد إلى غرفة مثمرة الأضلاع في أعلى جزء من منارة مسرح فريد في طريقة إنشائه كان قد أقيم وسط هذه المدينة القديمة الفذة في هندستها . كان للغرفة نوافذ دائرية يمكن للناظر منها أن يرى المدينة بكل مبانيها . ومرت عيناه جوداً ، على الأبنية جميعها مستعرضاً إياها واحداً بعد الآخر والعقل مشغول والنفوس محزونة ومع ذلك لم تفارقه شجاعته . يا لملك الأبنية وما تثيره في نفسه من أفكار وما يتصل بها من امتيازات لم تكن له وليس له فيها نصيب ! ومن الأسطح العالية لدار المكتبة العظيمة حيث لم تسمح له فرصة دخولها قط انتقل ببصره إلى الأبراج المتعددة وإلى القاعات والأبنية الهرمية السقوف وإلى الشوارع والحدائق والكائنات والأفنية المسقوفة المربعة وهي في مجموعها تكون المنظر العام للمدينة ، وإنه لمنظر فريد في جماله . رأى أن مصيره ليس مع هذه المناظر ولكنه مع العمال الذين يكادحون بأيديهم طول الوقت في الجيرة الفقيرة حيث يعيش هو نفسه وحيث لا يعترف بها على الإطلاق زوار هذه المدينة ومعجبوها كجزء من أجزائها ومع ذلك فلولا هذه الطغمة الفقيرة ما استطاع قارىء يجد أن يقرأ ولا مفكر رصين أن يعيش .

وانتقل ببصره من المدينة إلى الريف خلفها ، حيث الأشجار التي حجبها وجودها الذي كان في مبدأ الأمر الدعامة التي يتكئ عليها قلبه والتي أصبح فقدانها إياها الآن عذاباً قاتلاً . ولولا هذه الضربة لسكان من الممكن أن يتحمل قدره . ولو كانت «سو» رفيقا له لاستطاع أن ينزل عن تطلعاته بنفس راضية . أما وهو محروم من صحبتها فلا بد من أن يضار كثيراً بتأثير ما يتعرض له من توتر شديد نتيجة لرغبته العميقة في تحقيق ما يطمح إليه . وبما لا شك فيه أن «فيلوتسون» سبق له أن مر في أزمة عقلية شبيهة بتلك ، غير أن الله وهبه نعمة التأسي ( بسو ) الرقيقة الحلوة . أما هو ، فما من معز .

وبعد أن نزل إلى الشارع ، سار في طريقه قدما حتى وصل إلى إحدى الحانات حيث دخلها وجلس يشرب بسرعة عدة أكواب من البيرة وغادرها وكان الوقت ليلا وعلى ضوء المصابيح هرول إلى المنزل الذي يقيم فيه ليلاحق العشاء وما كاد يجلس إلى مائدته حتى أحضرت له مدبرة البيت خطابا وضعت أمامه بحركة تدل على ما توليه من أهمية خاصة . وعند ما نثار إليه لاحظ أنه يحمل طابع إحدى السكيات التي سبق أن راسل عمداها وعندئذ صاح : « وأخيرا .. واحدة ! » .

كانت الرسالة قصيرة ولم تكن بالضبط ما توقع بالرغم من أنها كانت من العميد ذاته ، وكان نصها كالآتي :

سيدى :

قرأت رسالتك باهتمام واستنادا إلى وصفك لنفسك على اعتبار أنك من الطبقة العاملة أستطيع أن أقول إنك ستحظى بفرص أكبر للنجاح في الحياة لو أنك بقيت في محيطك والتصقت بمهنتك وذلك أفضل من تغيير طريق حياتك وهذا ما أنصحك به .

إلى السيد ج. فاوى : بناء

المخلص لك

( ت . تيتوفيني )

هذه النصيحة المخرفة في التعقل أثارت ثائرتها ، إنه أدرك كل ذلك من قبل وعرف أنه طريق الصواب ، ومع ذلك ، فهذه النصيحة كانت تبدو عقب سنوات عشر من العمل والكفاح كأنها صدمة على وجهه . أما تأثيرها على نفسه الآن فإنها جعلته ينهض من أمام المائدة في تخاذل وينزل السلم ويخرج إلى الطريق ، وذلك بدلا من أن يخلد كمعاداته إلى القراءة . سار في الطريق ثم دخل إحدى الحانات وشرب بضع كمثوس من الشراب محدثا ضجة كبيرة ثم أخذ يتسكع دون أن يشعر إلى أن وصل إلى بقعة وسط المدينة تسمى « ألفورويز » حيث أخذ يحلق في الجماهير في ذهول كأنه في غيبوبة . وعند ما عاد إلى صوابه بدأ يتحدث



إلى رجل الشرطة المدين هناك . تشاءب الشرطي ومد ذراعيه ورفع نفسه درجة فوق أطراف قدميه وابتسم ثم نظر إلى « جود » في دعاية وقال : « هل شربت أيها الشاب » قال « جود » في مرارة : « لا .. كنت بدأت الشراب » . ومهما كانت درجة انشائه بالخمر فقد كان عقله على درجة كافية من التنبه . فسمع جزءا من ملاحظات رجل الشرطة ولم يعب شيئا من كلامه بعد ذلك إذ راح يفكر في أفراد الطبقة السكادحة ، وهو منهم ، أولئك الذين يجمعوا عند تلك البقعة ولا ينظر أمرهم ببال أحد . هذه الجماعات لها تاريخ ضارب في القدم يفوق في عراقة أقدم كلية من كليات المدينة . لطالما زخرت البقعة بالناس وضمت كتلا متراسة حوت أنواعا من الجماعات البشرية التي تلاقت بقصد القيام بأعمال فاجعة أو تنفيذ مهام ، أو للجنون الساخر المنطلق ، جاءوا جميعا ثم ذهبوا بعد أن أصدروا قرارات غاية في الخطورة . ففي تلك البقعة ، وقف الناس وتحدثوا عن « نابليون » وضياع « أمربكا » ، وقطع رأس الملك شارل ، « وحرقت الشهداء » ، « والحروب الصليبية » ، « والفتح النورماندى » . ومن الجائز أيضا أنهم تيمدوا عن وصول « قيصر » فاتحا . في هذا المكان تقابل الجنسنان للحب والبغض والزواج والافتراق . هنا انتظر بعضهم بعضا وتعذبوا وانتصروا فيما بينهم ولعن بعضهم بعضا متحاسدين وبارك بعضهم بعضا متصالحين .

بدأ يدرك أن الحياة في المدينة هي كتاب الإنسانية وأنها أشد حيوية وأكثر تنوعا وأعرق تركيزا من الحياة في الجماعات . أولئك السكادحون والسكادحات من الرجال والنساء الذين يمرون أمامه الآن هم حقيقة « كرايستمينيستر » وهم سرها الدفين وإن لم يعرفوا سوى القليل عما يدل عليه اسم المدينة من معنى . تلك كانت واحدة من مهـازل الأمور . فجاعات السكان المؤلفة من الطلاب والمدرسين الذين عرفوا بعضهم بعضا بطريقة ما لا يؤلفون فيما بينهم « كرايستمينيستر » بالمعنى الحقيقي أبدا .

نظر إلى ساعته ثم سار متأثرا بفكرته هذه حتى جاء إلى قاعة عامة تعزف فيها موسيقى راقصة . ووجد المكان مكتظا بفتيان المتاجر الصغيرة وفتياتها

وأفراد من الجند وصغار الصنائع وغللمان لم يتجاوزوا الحادية عشرة يدخنون ونساء من طبقة محترمة وهي طبقة هاويات الموسيقى الراقصة . لقد عثر على الحياة الحقيقية في ( كرايستمينستر ) . كانت الفرقة الموسيقية تعزف والجواهر تمشي في المكان متزاحمين ومن حين لآخر يصعد رجل إلى المنصة ويفنى أغنية هزلية .

أحس بأن روح « سو » تحوم حوله وتمنعه من الغزل والشراب والاختلاط بالفتيات اللعوبات اللاتي يعاينتهن طلبها للرح . وعند العاشرة غادر المكان عائداً إلى البيت واختار طريقاً أطول كي يمر بأبواب الكلية التي أرسل عميدها إليه الخطاب .

كانت أبواب الكلية قد أوصدت وبدافع داخلي تناول من جيبه قطعة من الطباشير يحملها معه دائماً باعتباره عاملاً من عمال البناء وكتب فوق الحائط ما يلي :

« غير أن لي فهماً مثلكم . لست أنا دونكم . ومن ليس عنده مثل هذه ؟ » .

« أيوب : إصحاح ١٢ فقرة ٣ » .

## ( ٧ )

ارتاحت نفسه لصفعة الاحتقار التي وجهها لأهل العلم . وفي الصباح التالي ضحك ملء شديقه لغروره . ولكن ضحكه لم يكن طبيعياً إذ أنه أعاد قراءة الخطاب الذي جاءه من عميد الكلية ، وأعاد التفكير فيما تضمنته سطور من حكمة أثارت في مبدأ الأمر ثم جمدت أوصاله بعد ذلك حزناً ، وانقباضاً . حقاً لقد اعتبر نفسه مجنوناً .

ولما كان قد حرم من دلائل العقل ومقومات العاطفة لم يقو على العودة إلى عمله إذ كلما أحس بالاستسلام لقدره المقسوم كطاب علم وقع ما يعكس صفوه هذونه كعلاقته الميئوس منها « بسو » ، تلك المخلوقة الرقيقة التي كان من نصيب حياته أن يلتقي بها هي بالذات دون غيرها من النساء أجمعين . أما فكرة فقدتها لها بتأثير

زواجه الأول فكانت دائماً تلح عليه إلحاحاً شديداً وها هي تعود إليه الآن بكل قوتها وتهاجمه في إصرار قاس . وفي النهاية ، عندما عجز عن تحمل وطأة الفكرة اندفع مرة ثانية إلى حياة « كرايستمينيستر » . الحقيقة مغرقاً نفسه في خضمها طلباً للسلوى ، وهو الآن يبحث عن روح « كرايستمينيستر » في حان مظلم منخفض السقف يقع في نهاية ربيع قديم . في ماضى الأيام كان الحان مكاناً معروفاً لعدد من القوم . وفي أوقات أسعد من هذه كان يمكن أن تفرحه رؤياه ليجرد أنه قديم عتيق . هنا جلس طوال يومه مقتنعاً في قرارة نفسه بأنه شخص معطوب النفس لا يرجى منه شيء .

وفي المساء يتوافد زبائن الحان واحداً إثر واحد و « جود » في مكانه من ركن الحان وقد جف معين ماله فاقبلت إلا بكسرة من البسكويت . أخذ يقلب بصره في رفاقه المتجمعين في المكان وبكل الثبات والتفان الصادرين عن رجل مضى عليه في الشراب وعبه وقت طويل أخذ يدرس رفاق الحان المتجمعين هناك وصادف الكثيرين منهم مثل « تنسكريلور » تاجر الحديد القديم الذي بدا عليه أنه كان في ماضيه متديناً وهو الآن زنديق مرتد ، ومثل الدلال ذي الأتف المتورم . كذلك تعرف على عاملين من عمال البناء القوطي مثله ويدعيان « العجم جيم » و « العجم جو » . كان هناك أيضاً بعض كتبة الدواوين ومساعد لأحد خياطي الملابس الكهنوتية وسيدتان تلهوان بالأخلاق وتظهران اتجاهات أخلاقية متنوعة تختلف باختلاف الأفراد المصاحبين لهما وبطابق عليهما أسماء مستعارة ، فالأولى تدعى « خميعة الرحمة » والثانية « نمش الوجه » . وكان هناك بعض المهتمين بالسباق المطلقين على مايجرى في دوائر المراهقات ، كما كان هناك أيضاً ممثل مسرحي متجول وشابان مغامر من طريدى الكليات الجامعية كانوا قد تسلسلوا إلى الحان ليقابلا شخصاً في شأن من شؤون تربية الكلاب فبقيا هناك وظلا يشربان ويدخنان الغليون القصير في صحبة أولئك السادة المهتمين بالسباق الذين سبقوا الإشارة إليهم ، ولم ينقطعوا عن النظر إلى الساعة . تناول الحديث موضوعات عامة وتعرض مجتمع « كرايستمينيستر » للنقد وتحدث الجميع في عطف زائد عن النعائس المدروسة عن

أعضاء مجالس الكليات وعن القضاة وعن غيرهم من أعصاب السلطة ، بينما الآراء المتعلقة بما ينبغي عليهم أن يفعلوه في مجال الحياة والعمل كي يكتسبوا احترام الآخرين ظلت تناقش بطريقة ذكية خالية من كل تعصب .

أما ( جورد فاول ) فبتأثير غروره وسلاطة لسانه وجسارته كشاب قوى الذهن ثمل من كثرة الشراب أخذ يلقي بملاحظات دون اهتمام . ولما كانت أهدافه في الحياة لم يمتورها أى تغيير لسنوات عدة فشكل شيء قاله الآخرون تحول على لسانه بطريقة سحرية عجيبة إلى أن يكون موضوعا يدور حول المنح والدراسة الجامعية مع محاولة إظهار مدى تفوقه بالنسبة للآخرين بشكل متعمد صارخ يثير في نفسه الحسرة والاشفاق وذلك عند ما يعود إلى حالته الطبيعية .

كان يقول لنفسه : « لا أشعر بأى تقدير لآى جهنم من جهابذة الكليات سواء أكان رئيساً أم عميداً أم زميلاً أم عالماً حائزاً لدرجة الأستاذية اللعينة ! إن ما أعرفه جيداً هو أنني قادر على هزيمتهم في ميدانهم لو أنهم فقط منحوني الفرصة لمنازلتهم وأظهر لهم من على ما لم يسمعوا به حتى الآن ، وجاء صوت طريدى الجامعة من زاوية الحان وكانا يتحدثان حديثاً خاصاً عن الحانات .

قال ( تيسكريلور ) : « كنت دائماً مغرماً بالكتب . هكذا سمعت ولهذا لا أشك فيما تقول أما بالنسبة لى فالامر مختلف إذ كنت دائماً أعتقد أن الأمور التى يتعلمها المرء من خارج الكتاب أكثر من تلك التى يستمدّها من القراءة واعتنقت هذا الرأى واتبعته ، وإلا لما كنت دلي ما أنا عليه الآن ، .

قال العم « جو » : « إنك تعد نفسك كى تكون من رجال الدين . أليس كذلك ؟ وحيث أنك عالم على هذه الدرجة العالية من العلم لم لا ترىنا عينة من علمك ؟ هل يمكنك أيها الشاب أن تقول لنا « قانون الإيمان » كما هو مكتوب باللغة اللاتينية ؟ هذا ما فعلوه عندما أرادوا فى بادى أن يمتحنوا شخصاً مثلك .

قال « جورد » فى تنال : « فأنا إذا أستطيع أن أفعل ذلك ، صرخت لإحدى السيدات تقول : « ليس هذا بالشخص الذى يستطيع ذلك . إنه لمغرور .

قال أحد طریدی الجامعة : كل ما يطلب منك هو أن تتفلى فك ، أنت يا خميرة الرحمة ، « ليصمت الجميع » . ثم أفرغ في جوفه كل ما في الكأس من شراب وأخذ يندق به على المائدة وهو يصرخ قائلا : « سيقول لنا السيد الميجل الجاس في ركن الحان « قانون الإيمان » باللغة اللاتينية وذلك مساهمة منه في تهذيب الجامعة وإصلاحها » .

قال « جود » : « لا . . لن أفعل » .

قال مساعد صانع الملابس الكهنوتية : « أجل . قم وحاول ! »

قال العم « جو » : إنك لن تستطيع أن تتلوه !

قال « تنسكريلور » : « أؤكد لك أنه يستطيع ذلك » .

قال « جود » : « أقسم لكم أنني أستطيع ! ولإثبات ذلك أعطوني كأسا صغيرة من الوسكى المثلج وسأتلو عليكم « قانون الإيمان » باللاتينية دون توقف » .

قال طالب الجامعة وهو يخرج من جيبه ثمن الكأس : « هذا طلب معقول » .

سكبت الساقية الشراب في كأس ومزجته بالطريقة المطلوبة وبدأت كأنما كانت بمن قدر عليهم العيش وسط أحط المخلوقات . قدم الكأس « لجود » الذي أفرغ محتوياته في جوفه وسرعان ما انتصب في مكانه وأخذ يخطب بلا توقف في لغة لاتينية فصيحة :

« بالحقيقة أو من بآله واحد . الله الأب ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، ما يرى وما لا يرى » .

صاح أحد الجامعيين : « حسن ! لاتينية رائعة ! » . ومع ذلك ، لم يكن لديه أدنى فهم للكلمة واحدة . وخيم السكون على الجميع ووقفت النادلة في مكانها بينما صوت « جود » يرن في القاعة الداخلية حيث كان صاحب الحان في غفوة فقام ليرى ما الخبر ، ولكن « جود » ظل يخطب في قوة واستمر يقول باللاتينية دون توقف :

« صلب عنا على عهد « بيلاطس البنطى » وتألم وقبر وقام من بين الأموات  
فى اليوم الثالث كما فى السكتب » .

قال الفتى الجامعى الآخر فى استهزاء : « هذه عقيدة مجمع « نيقيا » ، ولكننا  
وددنا أن نسمع عقيدة الحوارين ا » .

« ولكنكم لم تقولوا ذلك ا كل مغفل يعرف أن عقيدة مجمع « نيقيا » هى أقدم  
عقيدة فى التاريخ المسيحى ا » .

قال الدلال : « ما علينا . استمر . . استمر . . ا » .

ولكن سرعان ما بدا الارتباك على « جود » واختل تفكيره ، وعجز عن  
الاستمرار فوضع يده فوق جبهته وظهرت على وجهه علامات الألم .

قال « تىكريلور » : « أعطوه كأساً أخرى وبذلك تعود إليه الكلمات الضائعة  
ويستمر فى إلقائه » . وألقى أحد الجالسين بـ « شمن كأس جديدة سرعان ما جاءت  
ومد « جود » ذراعه لياخذها دون أن ينظر إليها . وبعد أن تجرع ما فيها عن  
آخره استأنف الإلقاء باللاتينية وقد عادت الحياة إلى صوته الذى أخذت نبراته  
ترتفع كلما قارب النهاية كما يفعل القسيس وهو يصلى برعيته :

« نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب . نسجد له ونمجده  
مع الأب والابن الناطق فى الأنبياء . وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية  
ونعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر  
الآتى ، آمين ، » .

« مرحى ا » صرخ عدد من الجالسين وقد استموتهم الفقرة الأخيرة حيث  
كانت الأولى والوحيدة بين غيرها التى أمسكهم أن يتعرفوا معناها .

وهنا بدا على « جود » كأنه يزيج الضباب عن عقله وهو يحملق فى وجوه  
الجالسين حوله . صاح يقول : « ما أتم إلا جماعة من المنغفين ا من منكم يستطيع  
أن يعرف إذا كنتم قد تلوت « قانون الإيمان » أو شيئاً آخر ؟ قد أكون خدعتكم

وسخرت منكم وغررت بعقولكم الفارغة ! انظروا إلى أى درك أسفل نزلت ،  
وبأى طغمة من الفوغاء والسفلة التقيت !

أما صاحب الحان الذى كان قد أُنذر لإيوائه كل عجيب شاذ من الناس فقد  
خاف اثلاً لتثبب معركة في حانه ، لذا هب واقفاً ، ولكن « جود » في يقظته العقلية  
المفاجئة ، أدار ظهره للجماعة وغادر الحان حانقا مشمئزاً وأغلق الباب خلفه محدثاً  
دوباً مسكتوما .

سار مسرعاً في الطريق الضيق ثم داف إلى الطريق العام المتسع وسار فيه حتى  
وجد نفسه خارج المدينة ناسياً رفاقه بعد أن انقطعت عنه أصواتهم . وظل  
مندفعاً في سيره بتأثير حنين ساذج للخلق الوحيد في العالم الذى يمكن أن يجعل  
طيرانه إليه ممكناً ، وهى رغبة لا تقوم على أساس من العقل . ولكنه لا يرى  
موضع الخطأ فيها الآن . وفى خلال ساعة واحدة ، وكان الوقت بين العاشرة  
والحادية عشرة ، دخل قرية ( المستون ) . وعندما وصل إلى البيت الصغير الذى  
تقيم فيه ( سو ) رأى نوراً في الغرفة السفلى فافترض أن الغرفة المضيئة لا بد أن  
تكون غرفتها وكان افتراضه صحيحاً . اقترب من الحائط ودق على زجاج النافذة  
وهو يقول في ضيق : « سو ، سو ! » ولا بد أنها عرفت صوته إذ أن النور  
اختفى من الغرفة وبعدها ففتح الباب وظهرت ( سو ) وفى يدها شمعة .

« هل أنت ( جود ) ؟ نعم هو أنت ! ما ذا دهاك يا ابن الحال ؟ » .

قال وهو يرتجى بجسده على عتبة البيت : « لاني ، لاني لم أستطع يا ( سو ) أن  
أمنع نفسي من المجيء ! لاني في غاية التماسه وأنا جريح الفؤاد ولا أستطيع أن  
أحتمل حياتي ! لذا انغمست في الشراب وعربدت وجدفت على الله . لقد تفوهت  
بأمور مقدسة في أما كن دنسة وتلفظت بكلمات قدسية لا ينبغى أن يقال إلا والمراء  
خاشع ! آه ياسو ، هلا فعلت شيئاً لمعاونتي ! اقتليني مثلاً فلن بضيرني أن أموت !  
كل ما يهمنى ألا تسكرهيني وأن تلبذيني كما كرهني ونبذني كل إنسان آخر » .

« أنت مريض أيها المسكين . لا لن أنبذك . بالطبع لن أفعل ذلك . ادخل

وارتح قليلاً واز بعد ذلك ما يمكن أن يعمل من أجلك . والآن استند إلى ذراعى دون كلفة . وقادته إلى داخل البيت وهى تقبض على الشمعة بإحدى يديها وتسند به بالأخرى — ثم أجلسته فى المقعد الكبير الوحيد فى المنزل القليل الأثاث ومدت قدميه وخلعت له حذاءه . وعندما تاب إلى رشده قال فى صوت يخنقه الحزن ويعبر عن الانسحاق والندامة : « ( سو ) يا أعز الناس » .

سأله إذا ما كان يريد أن يأكل شيئاً ولكنه هز رأسه علامة الرفض وبعدها أخبرته بأن يذهب اينام وبأنها سوف تنهض مبكرة فى اليوم التالى لتعد له الفطور ثم حيمته تحية المساء وصعدت السلم .

عقب ذلك مباشرة راح فى نوم عميق ولم يستيقظ حتى الفجر . وفى البدء لم يدرك أين هو ولكن شيئاً فشيئاً اتضح موقفه وأدرك بعقله الواعى ما يتضمنه هذا الموقف من شناعة تجلب عليه العار . لقد اطلعت ( سو ) على أسوأ ناحية فيه . على أكثر جوانبه عارا وخسة . كيف السبيل إلى أن يواجهها الآن ؟ لابد أن تكون الآن فى طريقها إلى النزول من غرفتها فى أعلى المنزل لتعد له فطوره كما سبق أن أخبرته بذلك . وعندئذ سيواجهها بكل عاره . لم يقر على تحمل الفكرة لذا وضع حذاءه فى قدميه وتناول قبعته من فوق المشجب وغادر البيت فى هدوء .

كانت الفكرة المأساة عليه أن يذهب إلى مكان مجهول حيث يتوارى عن الأنظار وقد يركن إلى الصلاة . أما البقعة الوحيدة التى خطرت بباله فكانت « ميريجرين » . وذهب إلى ( كرايستمينيستر ) ومر على البيت الذى يقيم فيه وهناك وجد خطاباً من صاحب العمل ينبئ به بأنه قرر فصله . وبعد أن جمع حاجياته خرج وأدار ظهره للديانة التى كانت شوكة فى جنبه وسار جنوباً إلى ( وسكس ) . لم يبق فى جيبه شيء من المال حيث كانت مدخراته الصغيرة موضوعة فى أحد البنوك فى ( كرايستمينيستر ) ولحسن الحظ لم يكن مسها بعد . ولما وصل إلى « ميريجرين » كانت وسيالته الوحيدة هى أن يمشى . ولما كانت المسافة بعد عشرين ميلاً تقريباً وجد أن لديه وقتاً يستأنف فيه ما بدأه من تفكير :



وفي المساء وصل إلى ( ألنردستون ) حيث رهن صديريته . وبعد أن خرج من المدينة وسار ميلا أو ميلين نام بجوار كومة على الطريق وفي الفجر استيقظ وأزاح عن ملابسه ما علق بها من قشور النباتات وسيقانها ثم استأنف سيره ثانية في الطريق الأبيض الطويل الصاعد إلى التل والمؤدي إلى المنخفضات الواقعة في الجهة الأخرى منه وكانت تلوح له من بعد .

سار ووراءه على قمة التل علامة الطريق التي حفر عليها قبل سنوات ما يرمز إلى آماله .

وصل إلى قريته القديمة وقت الإفطار وكان متعبا غطت ذرات الوحل ملابسه ولكنه كان محتفظا بصفاء عقله . وجلس بجوار البئر يفكر في مأساة حياته وفي الدرك الأسفل الذي أنزلق إليه . وعند ما شاهد حوضا قريبا منه قام وغسل وجهه ثم استأنف سيره إلى بيت خالته العجوز وهناك وجدها في فراشها تتناول فطورها وبجانبتها العجوز التي تعيش معها .

— « ما ذا ؟ هل طردت من عملك ؟ » قالت الخالة وهي تتأمله من خلال عيينين غائرتين تحت جفنين ثقيلين كغطائي قدرين . لم تر تلك العجوز سببا آخر لظموره أمامها بهذا المظهر الزرى ، هي التي تقوم بحياتها على الصراع الدائم للحصول على المال الذي تعيش عليه .

قال في تناقل : « نعم . أظن أنني في حاجة إلى قليل من الراحة » .

وبعد أن تناول شيئا من الطعام صعد إلى غرفته القديمة وتمدد على فراشه بكامل ملابسه . وغفت عيناه لحنلة وعند ما استيقظ كان كن وجد نفسه وسط الجحيم . كان حقا في جحيم ، بجحيم الخيبة المستعرة ، الخيبة في الآمال والخيبة في الحب . فـ فكر في تلك الهوة التي تردى فيها قبل أن يترك هذا الجزء من العالم وكان يخيّل إليه حينئذ أن تلك الهوة أعرق الهوات جميعا وأشدّها ظلاما ، ولكنها الآن لا تبدو عميقة كمّاك التي تردى فيها أخيرا . كانت الأولى تعبيراً عن انهيار

الخطوط الأولى التي تحمى مكن آماله ، أما الثانية فكانت انهباء الخطوط الثانية .

لو أنه امرأة لصرخ تحت وطأة التوتر الذى يغوء تحت ثقله . ولما كان محروما من تلك النعمة ، نعمة الصراخ والحويل ، بتأثير ما جعله الله عليه من رجولة أخذ يصير على أسنانه فى تعاسة هائلة أبرزت حول فم خطوطا واضحة كتلك التى شوهدت حول فم كاهن « ترواده » قبيل موته ، كما أظهرت بين حاجبيه تجاعيد عميقة .

وهبت رياح حزينة بين أغصان الشجرة ودوت خلال المدخنة كما تدوى نفثات الأرغن . وأخذت كل ورقة من أوراق اللباب المتسلق فوق حائط المقبرة القريبة المهجورة تميل على جارتها فى دلال . وأخذت دوارة الرياح القائمة فى أعلى الكنيسة الجديدة ذات البناء القوطى الفيكتورى تدور . مع ذلك بدا أن الرياح الخارجة ليست هى على الدرام مصدر تلك التأوهات العميقة ، بل كان هناك صوت بشرى عرف « جود » مصدره بعد لحظة . كان الكاهن يصل مع خالته فى الغرفة المجاورة وتذكر « جود » أن حديثا كان يدور هناك وجاء فيه اسمه . وسرعان ما توقفت الأصوات وخيل إليه أن شخصا يعبر الممر لجلس فى فراشه وصاح : « من هناك ؟ » .

واتجه الخطو جهة باب غرفته التى فتحت وأطل منها رجل وكان كاهنا شابا .

قال « جود » : « أظن أنك السيد « هاى ريدج » فقد ذكرت خالتي اسمك أكثر من مرة . هاأنا عدت توأ إلى البيت ولست أكثر من شخص ساء حاله ، وإن حدث فى وقت من الأوقات أن كنت أكن فى نفس أفضل النوايا . أما الآن فهأنت ترانى منقبض النفس انقباضا لا بد أن يؤدي بى إلى الجنون وقد يكون السبب كثرة الشراب أو أمورا أخرى لا أذكرها الآن » .

وفى بظم كشف للكاهن عن مشروعاته الأخيرة موليا دون أن يهرى القليل من اهتمامه للجانب العقلى من أحلامه وطموحه إلى العلم والثقافة ، بينما حظت مشروعاته السكهنوتية بالجانب الأكبر من عنايته وإن كانت حتى الآن لم تخرج عن كونها جزءا صغيرا فى خطته العامة للتقدم والرقى .

وفي ختام حديثه مع الكاهن أضاف قائلاً : « والآن أعرف جيداً أنى كنت أحق والذنب ذنبى وأنا غير آسف على ضياع آمالى فى الدراسة والحياة الجامعية ولا أقبل أن أبدأ من جديد حتى لو كنت واثقاً من النجاح ولم أعد أهتم الآن بأن أوفق اجتماعياً والكنيى أحس أن من واجبى القيام بعمل ما ، عمل هام وإنى حزين على الكنيسة وعلى ضياع الفرصة فى أن أكون خادماً من خدامها » .

وأما الكاهن ، الذى كان حديث عهد بهذه الناحية فقد زاد اهتمامه بقصة «جود» ومأساته ، وأخيراً قال : إذا كنت تحس برغبة حقيقية فى أن تصبح قسيساً ، ويبدو ذلك واضحاً من حديثك الذى يدل على أنك رجل مفكر متعلم ، ففى مقدورك أن تلتحق بالكنيسة كواحد من يسمح لهم بخدمتها دون أن يسكنوا أعضاء فيها وكل ما أود منك أن تفعله الآن هو أن تصمم تصميماً قوياً على الامتناع عن الخمر » .

— « فى استطاعتى أن أمتنع عن ذلك دون كثير عناء لو تبقى لى أى قدر من الرجاء كى يعيننى على ذلك ا » .



## الباب الثالث

في « ميلشستر »



وأسنى عليك أيها العريس فلن نحدد  
عزوسا، أخرى مثلها ، ا  
سافو. ( ه. ت. هوارن )

## (١)

كانت فكرة جديدة ، تلك التي تستهدف تحقيق الحياة الكنسية في صورتها الروحية وهجر الحياة العقلية بمادياتها . وفي مقدور المرء أن يعط غيره وينفع الناس دون الحصول على تقديرات الاعتياد من مدارس « كرايستمينيستر » ، بل يسكنى لذلك قدر من المعرفة المألوفة . فالحلم القديم الذي ولد في مخيلة « جود » ، ثم نما حتى جعله يرى نفسه بعين الخيال أسقفاً ، لم يكن الدافع إليه الحماس الأخلاق أو الدين ، بل الطموح الدينى متخفياً وراء الزى السكهنوتى . وخشى أن تكون خطئته كلها فبيدت وإن لم تولد أصلاً في هذا المجال وتحولت إلى قلق اجتماعى مقطوع الصلة بالدوافع السامية بل هو في أساسه نتاج صناعى لانتشار المدنية ، وفي هذه اللحظة يوجد آلاف من الشباب يسرون في نفس الطريق المؤدى إلى تحقيق كسب ذاتى . وأن الشخص الخاضع لمطالب الحواس يأكل ويشرب ويحيا مع زوجته في استهتار خلال أيام طيشه لأقرب إلى نفوس الناس منه .

أما أن ينضم إلى الكنيسة بهذه الطريقة التي لا تتطلب إعداداً علياً فلا يستطيع خلال حياته العملية كلها أن يرقى بمستواه عن كاهن بسيط يقضى أيامه في قرية مجهولة أو في حى فقير من أحياء المدينة ، فهذا مسلك قد ينطوى حقاً على مسحة من الأرومة الطيبة أو عظمة التضحية ، أو يسكون هو الدين الحق والطريق إلى تطهير النفس الخلق بكل تائب .

أسعده الوضع الذى برزت فيه الفكرة الجديدة وخاصة عندما قارن بينها وبين نواياه السابقة بينما جلس وحيداً كئيلاً ، وقد يقال إن اتجاهه الجديد سدد ضربة قاضية لآماله في حياة عفاية عريضة ولدت جرثومتها في صدره ونمت فترة تقرب من اثني عشر عاماً . إن « جود » ظل على حاله ، متقاعساً عن تنفيذ رغبته الجديدة بينما شغل في القرى المجاورة بمهام تافهة كإقامة شواهد للقبور ونقش أسماء الموتى . وللعدد القليل من فلاحي تلك القرى الذين تعطفوا وتنازلوا فهزوا له رموسهم محبين ، بدا « جود » ظاهرة اجتماعية خاصة تنطوى على الفشل في الحياة ، أو مجرد كم عديم القيمة .



والأهمية الإنسانية لمشروع «جود» الجديد — إذ لابد أن يكون لمعظم مشروعات التضحية وإنكار الذات أهمية إنسانية — خلقها خطاب جاءه من «سو» وحمل تاريخاً حديثاً ، وكان واضحاً أنها قلقة ومتهاجة فلم تذكر الكثير عن أحوالها وكل ما ذكرته دار حول نجاحها في «سابقة للحصول على منحة دراسية تخول لها الالتحاق بدار للمعلومات في «ميلشستر» لتعد نفسها لمهنة التعليم التي اختارتها ويعود إليه لخدمها سبب اختيارها لها . وفي «ميلشستر» كلية اللاهوت . و«ميلشستر» مكان هادئ يدخل الراحة على النفس ، وجوها يكاد يكون كنسياً خالصاً ، وهي بقعة ليس لعلوم الدنيا ولا للتفكير المتأنيق الحديث مكان فيها . وفي مدينة كهذه الشعور بالذات ، وعنده الكثير ، قدر أعلى مما للبريق الشخصي الذي يفتقر «جود» إليه .

ولما كان مما لابد منه أن يظل فترة في مزاولة صناعته ، وفي الوقت ذاته يعود إلى دروس اللاهوت التي أهملها في «كرايستمينيستر» مستعياً عنها بالدراسات القديمة «فأى شيء يناسبه الآن أفضل من الحصول على عمل في «ميلشستر» ويقرأ ما يود من كتب في علم اللاهوت . أما اهتمامه الزائد بالمكان الجديد فكان كله من صنع «سو» في حين أنه ، في الوقت ذاته ، لابد من اعتبارها في مجال القدرة على خلاق هذا الاهتمام أقل مناسبة لهذا العمل مما كانت أولاً ، فتلك حقيقة حوت من التناقض في مجال الأحكام الأخلاقية ما لا يخفى عليه ، غير أنه خضع للضعف البشري وداعبه الرجاء في أن يتعلم كيف يمنحها حبه باعتبارها صديقة وقريبة فقط .

وفسّر في أن يميز سنوات حياته المستقبلية عن طريق بدء خدمته الدينية في سن الثلاثين ، وهي سن جذبت اهتمامه كثيراً إذ عندها شرع مثله الأعلى يعلم الناس في الجليل لأول مرة . وسوف يهيء له ذلك من الوقت ما يمكنه من الدراسة واكتساب المال الذي يعاونه على تحقيق أمله المنشود وهو الالتحاق بإحدى الكليات اللاهوتية .

وجاء عيد الميلاد وذهب والتحق «سو» بدار المعلومات في «ميلشستر» .

وكان هذا الوقت بالنسبة لجود أسوأ أوقات السنة من حيث حصوله على عمل جديد فكتب إليها مقترحا تأجيل حضوره شهراً أو نحو ذلك حتى يطول النهار . ووافقت مظهرة من التقبل ما جعله يتمنى لو لم يبدأ اقتراحا كهذا - ومن الواضح أنها لم تكن انتهت به كثيراً ، وإن كانت لم تؤنبه مرة واحدة على بجيئه إلى مسكنها في تلك الليلة وما تلا ذلك من اختفائه المفاجيء . كما أنها لم تذكر كلمة واحدة عن علاقتها بالسيد « فيلوتسون » .

ونجاة ، مع ذلك ، وصل من « سو » خطاب مليء بالانفعالات العنيفة . قالت إنها وحيدة بائسة وإنها تضرع المكان الذي يتم فيه كراهية شديدة إذ كان بالنسبة لها أسوأ بكثير من الرسم السكنى الذي عملت فيه من قبل بل أسوأ مكان في العالم ، وتحس أنها محرومة تماما من الأصدقاء لذا رجته أن يتوجه إليها على الفور وإن كانت لا تستطيع أن تراه إلا في أوقات قليلة فنظام المؤسسة التي قادتها إليها الأقدار يتسم بالصرامة إلى حد ما . والسيد « فيلوتسون » هو الذي نصحتها بالذهاب إلى ذلك المكان والالتحاق به وهي الآن تتمنى لو لم تصغ إليه .

ومن الواضح أن « فيلوتسون » لم يكن موقفا تماما في مشروعاته فأحس « جود » بفرحة ليس لها ما يبررها . وجمع أشياءه القليلة وذهب إلى « مياشستر » راضى النفس بشكل لم يعرف له مثيلا لعدة شهور .

ولما كان ذهابه إليها يعتبر بداية لصفحة جديدة في حياته ، فقد أخذ يبحث عن نزل متواضع حسن السمعة لا يسمح لنزلائه بشرب الخمر . وأخيراً عثر على واحد له هذه الصفات ويقع بالقرب من المحطة . وبعد أن حصل على شيء من الطعام ، خرج إلى الطريق العام وسار في ضوء الشتاء الضعيف ، مرتقيا جسر المدينة ، ثم دار إلى الركن المؤدى إلى حي الكاندرائية . وكان الضباب شديدا في ذلك اليوم فتوقف هنيهة أسفل الأسوار ثم أخذ يتطلع إلى أجمل مجموعة من العمارات الهندسية في إنجلترا . ووضح بناء الكاندرائية أمامه إلى المنارة وهي ترتفع في السماء حتى اختفت قمتها العالية في غمار السحب المحيطة بها .

في تلك اللحظة بدأت المصاييح تضيء . وبعد أن استدار نحو الجهة الغربية من البناء مشى حوله واستبشر كثيراً عندما رأى الكتل الصخرية ملقاة في كل مكان مما دل على أن إصلاحها على نطاق كبير يجري في الكاندرائية . وأوحى له ما رأى ، من خلایا ما اكتنف معتقداته من خرافات ، أن الذي رآه من صنع قوة آمرة ذات بصيرة نفاذة وهي بذلك الذي تضعه في طريقه ، تهيم له عملاً في مجال تخصصه في هذه اللحظة وهو ينتظر الدعوة إلى عمل آخر أرفع مقاماً .

ثم أحس بموجة دافئة تغمره وذلك عند ما أدرك كم أصبح قريباً من الفتاة ذات العينين النجلاوين والوجهة الحريضة يعلوها تاج من الشعر الأسود الفاحم ، فتاة ذات نظرة براقة تفيض رقة أحياناً — أشبه بالفتيات اللاتي رآهن في الصور البارزة والرسوم التي تمثل المدرسة الأسبانية . إنها تعيش هنا في نفس هذا الحي في أحد المساكن المواجهة للجهة الغربية للكاندرائية .

سار في الطريق الواسع المغطى بالحصى وانتجه إلى البناء وهو من أبنية القرن الخامس عشر ، وكان في ماضيه قصراً وهو الآن دار للخدمات له نوافذ بعضها مربع الجوانب وبعضها مسحوب الزوايا ، وأمامه فناء يحجبه حائط عن الطريق العام . وفتح « جود » البوابة الخارجية متجهاً إلى الباب الداخلي ، وعند ما سأل عن قريته « سو » خرج إليه من قاده في رفق إلى غرفة الانتظار . وبعد فترة قصيرة جاءت . وعلى الرغم من أنه لم يمض على بقائها في هذا المكان سوى وقت قصير للغاية ، إلا أنها لم تكن كما اعتاد أن يراها . لقد فارقتها حركتها الرشيدة وأصبحت انثناءاتها وإيماءاتها خطوطاً ميتة ، كما غادرتها أيضاً الدقة في الأداء ، والركة في الإقبال التي تميزت بها دائماً . ومع ذلك ، لم تكن هي المرأة التي خطت أناملها الخطاب الذي انطوى على أمراستدعائه ، فقد كان من الواضح أنها تسرعت في كتابته بتأثير فكرة عابرة عماها ما تلا ذلك من تفكير هادي خلف أسفها لما بدر منها ، وربما كان لمظهرها الحالي صلة بما سبق أن بدر منه في حق نفسه وكرامته . لقد كان « جود » مغلوباً على أمره تماماً بتأثير انفعالاته العاطفية .

— « ألا زلت تعتقدين أنني شخص بئس كسير النفس لمجيئى إلى منزلك ثم رجيل على الصورة المهمة التي تذكرينها ؟ » .

— « أوه ، حاولت كثيراً ألا أفعل هذا ! لقد أدليت أمامي من الكلام بما يكفي لأدرك السبب فيما حدث وآمل ألا يخامرني شك في صلاحيتك الخلاقية أيها المسكين ! وإنى لمسرة لمجيئتك ! » .

كانت ترتدى ثوباً قائم اللون له باقة وهرية صغيرة ، وكان جميلاً في بساطته وهو يلتف حول جسدها في انسجام واضح . أما شعرها الذي اعتادت أن تصففه وفقاً لأحدث الأساليب فإنه أصبح الآن مقصوصاً ومرفوعاً إلى أعلى ، وكان يلوح عليها طابع الفتاة التي يتحكم في هندامها وزينتها نظام صارم ، بينما شمع من أعماق نفسها إشعاع داخلي ، على أن ذلك النظام لم يقو على النفاذ إلى تلك الأعماق .

وأقبلت عليه في دلال وأدرك أنها لم تتوقع أن يقبلها — وإن كان يتحرق شوقاً إلى ذلك بمقتضى اعتبارات أخرى خلاف قرابته لها . ولم يلاحظ أية علامة تشير إلى أنها كانت تنظر إليه باعتبار أنه حبيبها أو أن هذا يمكن أن يحدث في يوم في الأيام ، ولا سيما أنها عرفت عنه كل ما كان من شأنه أن يشينه في نظرها ، حتى لو كان من حقه أن يعاملها على اعتبار أنه حبيبها . لقد عاونه هذا الوضع في تدعيم عزمه على الإفصاح لها بمشكلات زواجه السابق بعد أن عمل جاهداً على تأجيله المرة بعد المرة خشية أن يفقد نعمة صداقتها له .

وخرجت إلى المدينة في صحبته وسار الاثنان سوياً وتحدثا في كل شيء . قال إنه يود أن يشتري لها هدية صغيرة وعندئذ اعترفت له في شيء من الخجل أنها جوعانة إذ لا تقدم المدرسة للطالبات سوى قدر ضئيل من الطعام فكان غاية ما تتمناه في الدنيا في تلك اللحظة أن تجمع بين الغذاء والشاي والعشاء في أكلة واحدة كبيرة تلتهمها التهاماً . على ذلك قادها إلى حان وطلب لها الطعام الذي يقدم هناك ولم يكن بالشيء الكثير . وعلى أية حال ، هياً له المكان فرصة نادرة للاجتماع والتحدث في حرية حيث لم يكن هناك أحد غيرهما .

وحدثته عن حياتهم — في دار المعلمات وما يكتنفها من مشاق وعن طبائع زميلاتهن اللاتي قدمن من شتى أنحاء المقاطعة وكيف كان عليهن أن تنهض في الصباح الباكر لتحفظ دروسها في ضوء مصباح غازي صغير على ما في ذلك من حرمان يصعب على شابة مثلها حديثة العهد بالحياة أن تتحملة . وأصغى إلى كل ما قالت ولم يكن ذلك كل ما أراد أن يسمعه منها ، وخاصة ما يتعلق بعلاقتها « بفيلوتسون » الذي لم يتحدث عنه بشيء . وعند ما فرغا من الجلوس والأكل وضع يده على يدها في حركة عابرة فنظرت إليه وهي تبهشم ثم أخذت يده في يدها الصغيرة الناعمة دون حرج وصرعت تفجص أصابعه واحداً واحداً في عناية وتمهل كما لو كانت تعانين قفازاً ترغب في شرائه .

قالت : — « يداك خشتان يا « جود » . ألا ترى ذلك ؟ » .

— « نعم ولا بد أن تصبح يداي هكذا لو قدر لهما أن تقبضا على الأزميل والدماق طول النهار » .

— « ولكنني لا أكره ذلك وأظن من النبيل أن ترى يدا المرأة مطبوعتين بطابع العمل الذي يقوم به . على أية حال ، يسرنى قبل كل شيء ، أنني التقيت بدار المعلمات هذه . انظر كم سوف أحس بالحرية والاستقلال عقب هذين العامين اللذين أقضيهما في الدراسة ! إنني أتوقع أن أنجح بامتياز كبير واسوف يستخدم السيد « فيلوتسون » نفوذه كي يحصل لي على مدرسة كبيرة أشرف على إدارتها » .

وأخيراً ها هي تمس الموضوع مسأرة رقيقة . قال « جود » : « راودتني بعض المخاوف وشككت في أن السيد « فيلوتسون » يهتم بك اهتماماً يفوق القدر المعتاد ، ومن المحتمل أنه يرغب في الزواج منك » .

— « لا تكن غراً أحق ! » .

— « أظن أنه ذكر شيئاً يتعلق بهذا الموضوع » .

— « وما ذا بهم لو فعل ؟ أية أهمية لرجل عجوز مثله ؟ » .

— « وخلي عنك ذلك يا دسو » ، ليس هو بالعجوز إلى هذا الحد وأعرف ذلك جيداً مما سبق أن رأيته بعيني » .

— « إنك لم تره وهو يقبلني — هذا ما أنا واثقة منه تماماً » .

— « لا . بل رأيته يضع ذراعه حول خصرك » .

— نعم . أذكر ذلك ولاكنني لم أتوقعه .

— « أنت تحاولين التخلص يا دسو » وذلك منك لا يدل على الشفقة ! .

وبدأت شفقتها الممتلئة بالحساسية ترتعش وعينها تطرف وكانت على وشك أن تقول شيئاً .

— « أعرف ان الغضب لا بد أن يتولاك لو أخبرتك بكل شيء . وهذا هو السبب في أنني لا أود أن أقول لك شيئاً ! » . وقال وهو يحاول أن يهددها :

— « حسنا للغاية أيتها العزيزة .. وليس من حق أبدا أن أسألك ولا أرغب قط في أن أعرف شيئاً » .

قالت في عناد كاد يصبح جزءاً من طبيعتها : « سأخبرك بكل شيء ! إليك ما فعلت :

وعدت - وعدت - أن أتزوجه عقب انتهاء من الدراسة بعد مضي عامين من الآن وبعد حصولي على الشهادة بقضى مشروعه أن تفتح سوريا مدرسة في مدينة كبيرة يتولى هو التدريس فيها للصبيان وأقوم أنا بتعليم البنات كما يفعل عادة رجال التعليم المتزوجون من نساء يعملن في نفس الميدان ، وبذلك نحصل على دخل طيب .

— « مرحي ، مرحي ، يا دسو » ، هذه قطعاً فكرة سليمة وما كان في مقدورك أن تفعل شيئاً أفضل » .

وأخذ يحملني في وجهها وتقابات العيون وانعكس في عينيها ما انطوت عليه

كلماته من عتاب . وهنا سحب يده بعيداً عن يدها وأدار وجهه صوب النافذة متحاشياً النظر في وجهها فتطلمعت إليه بدون اكتراث ولم تتحرك .

قالت دون أن يبدو عليها انه مال ما : « عرفت أنك ستغضب ا حسن حسن .  
لنى محطة على ما أعتقد ا ما كان ينبغي لى أن أسمع لك بالمجى . لترانى ا الأوفى  
ألا تقابل الانسب أن تراسل فى أمور عادية وفى فترات متباعدة ا » .

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذى لا يقوى على تحمله . ومن المحتمل أنها أدركت  
هذا الضعف فيه . فعاد إليه رشده فى الحال وقال فى سرعة : نعم . سيكون لك  
ذلك . على أية حال ، خطوطك لن تجعل الأمر مختلفاً بالنسبة لى ومن حقى أن  
أراك كلما رغبت وسأفعل ذلك ا » .

— « إذن لا تجعلنا نطرق هذا الموضوع ثانية فهو يفسد جلستنا هذه الليلة .  
ماذا يهم ما سوف يفعله المرم بعد عامين من الآن ا » .

وكانت بالنسبة إليه لغزا غامضا فترك الموضوع عند هذا الحد وقال لها بعد  
أن انتهى من الطعام : « هل توافقين عن أن نذهب إلى الكتدرائية ونجلس  
فيها ؟ » قالت وما زال فى صوتها أثر للضائقة . نذهب إلى الكتدرائية ؟ .

نعم وإن كنت أعتقد أن من الأوفى لى أن أجلس فى محطة السكة الحديد  
فهى مركز النشاط فى المدينة الآن وقد مضى عهد الكتدرائية وانقضى ا » .

— « يا لك من فتاة حديثة الزعة ا » .

— هكذا تكون لو أنك عشت فى العصور الوسطى كما فعلت أنا فى السنوات  
القليلة الماضية كانت الكتدرائية مكانا صالحا للجلوس منذ أربعة أو خمسة قرون ،  
أما الآن فإنها فقدت أهميتها وما أنا بالفتاة الحديثة بل أنا قديمة قدم العصور  
الوسطى بلى أكثر . ليمتك تدرك ذلك ا » .

وبدا عليه أنه حزين فصاحت تقول : لا ، لن أقول أكثر من ذلك فى هذا  
الموضوع ا إنك لا تدري كم أنا سيئة الخلق ، من وجهة نظرك على الأقل ،

وإلا لما اهتممت بي إلى هذا الحد ولما علمت بمعرفة ما إذا كنت مخطوبة أم لا .  
أما الآن فلدينا الوقت لكي نسير قليلا وبعد ذلك لا بد لي من العودة وإلا  
فلن يسمح لي بالدخول .

وصحبها إلى الباب الخارجى ثم افترقا . ونشأ لديه اعتقاد بأن زيارته لها في تلك  
الليلة المشثومة كانت السبب في تطور العلاقة بينهما وبين « فيلوتسون » وبلوغها  
حد الخطبة ثم الزواج ولن يكون من وراء ذلك بالنسبة له إلا الشقاء وسوء  
الحال . لقد أنبته على فعلته الماضية بتلك الصورة ولم يكن تأنيبها له عن طريق  
الكلام ومع ذلك خرج في اليوم التالى يبحث عن عمل ولم يكن هذا بالأمر السهل ،  
كما هو الحال في « كرايستمينيتر » لقلة أعمال البناء في « ميلشستر » ، الهادئة ،  
وما يتبع ذلك من تراخ في قطع الصخور وتهذيبها . وعلى الرغم من كثرة العاملين  
في هذا الميدان ، حشر نفسه في زمرة هؤلاء ، وكان أول عمل حصل عليه هو  
القيام ببعض أعمال النحت في مقبرة تقع على التل ، وفي النهاية التحق بالعمل الذى  
كان يفضل أكثر وهو تجديد الكاتدرائية بما يتضمنه ذلك من تغيير شامل  
للحجارة الداخلية .

مثل هذا العمل قد يحتاج إتمامه إلى سنوات . أما هو وكان على ثقة تامة في  
قدرته على استخدام الدقماق والأزميل ، فقد أدرك أن أمر بقائه في ذلك المكان  
ومدته يعود إليه هو .

أما السكن الذى اخذ به بالقرب من البوابة الرئيسية للحي فما كان ليثنين شخصا  
بعد نفسه ليكون من خدام الكنييسة إذ أن إيجاره كان يمثل نسبة من أجره  
تزيد على ما يدفعه غيره من العمال والصناع لإيجار المساكينهم ، وكانت الفرقتان  
اللتان يتألف منهما مسكنه مزينتين بصور الأماكن التى سبق أن عملت فيها  
صاحبة المسكن وعاشت باعتبارها خادما أمينين . أما قاعة الاستقبال الكبرى في  
أسفل المنزل فكان بها ساعة حائط كبيرة استقرت فوق رف المدفأة وقد نقش عليها  
إهداء يتضمن أنها قدمت لنفس السيدة المبهجة كهدية من زملائها في المهنة بمناسبة



زواجها . وأضاف « جود » ، إلى أثاث الغرفة ماحله معه من صور دينية وتماثيل صنعها بيديه ولذلك عد كسبها مناسباً ، باعتباره ساكناً جديداً للشقة الحالية .

وفي مكتبات بيع الكتب بالمدينة وجد عدداً كبيراً من الكتب اللاهوتية وبذلك استأنف دراسته بروح أخرى واتجاه جديد مختلف عما اتبعه في المرة السابقة .

رغب هذه المرة في أن يريح نفسه من قراءة كتب آباء الكنيسة الأولى وأعمال الكتاب المشهورين من أمثال « بالي » و « تيلور » ، فشرع يقرأ كتباً « لنيومان » و « بوتزي » وغيرهما من المؤلفين الدينيين الحديثين .

واستأجر آلة هارمونيوم للعزف الموسيقى وضعها في مسكنه وشرع يتدرب على العزف عليها والتغنى بشتى الترانيم معها .

## ( ٢ )

— « غداً يومنا العظيم . ألا تعلمين ؟ إلى أين نذهب ؟ »

— « لدى إجازة من الثالثة حتى التاسعة فأى مكان نستطيع الذهاب إليه ثم العودة خلال هذه الفترة يناسبني . أما الأبنية القديمة والآثار يا « جود » فلا تثير اهتمامي » .

— « إذن قلعة « واردور » وبعدها « فونت هيل » لو رغبتنا . كل ذلك في نفس اليوم » .

— « قلعة « واردور » قوطية البناء وأنا أكره الفن القوطي » .

— « لا . بالعكس تماماً فهمى بناء كلاسيكى وكورنثى على ما أعتقد . وبداخلها عديد من الصور » .

— « حسن . هذا يكفى . أحب كلبة كورنثى هذه . سنذهب » .

بعد بضعة أسابيع اتصل الحديث بينهما على هذه الصورة . وفي اليوم التالي تأهباً للرحيل وأصبح كل جزء من أجزاء الاستعداد للرحلة المرتقبة يثير خيال « جود » الذي لم يجرؤ على أن يفكر في حقيقة الحياة المتنافضة التي يحياها . أما تصرفات « سو » معه فكانت لفرأ حبيباً إلى نفسه ولم يستطع أن يزيد .

وفي الموعد جاء سحر الذهاب إلى باب الكلية لملاقاتها وسحر ظمورها في ملابسها البسيطة الشبيهة بملابس الراهبات كزى مفروض لا مختار ، ثم سحر السير الوئيد إلى المحطة . وأخيراً أصوات الحمالين وضجيج القطارات وكل ما يرسم الحياة الجارية في شكلها الدائم . وما من أحد نظر إلى « سو » لبسطة ملابسها فأدخل ذلك الراحة على قلب « جود » لعله بأنه هو وحده يعرف أسرار الجمال الذي أخفته تلك الملابس . وأن مبلغاً صغيراً لا يجاوز الجنيهات العشرة تنفقه « سو » في دكان الأقمشة لا يمت بصلة لحياتها الحقيقية أو لذاتها الخاصة ، يمكن أن يجعل أهل « ميلشستر » يتطلعون إليهما . وظن كسارى القطار أنهما عشيقتان فوضعهما وحدهما في مقصورة .

قالت هي : « هذه منه نية طيبة وإن كانت مضیعة »

ولم يجب « جود » على هذه الملاحظة التي ظن أنها قاسية بلا مبرر ، كما أنها لم تسكن صحيحة تماماً .

ووصلوا إلى المنزه الكبير والقلعة وارتادوا قاعات الصور ووقف « جود » أمام بعضها وخاصة تلك التي تعبر عن نزعة دينية كصور « ديل سارتو » ، و « ساسوفيراتو » ، و « كارلو دولشي » ، وغيرهم . وإلى جواره وقفت « سو » تتأمل صابرة . ومن لحظة إلى أخرى أخذت تسترق النظر إلى وجهه وهو يتأمل صور العذارى والعائلة المقدسة والقديسين بينما تتغير ملامحه وتكسوها مسحة من الاحترام والتسامي . وبعد أن تفرغ تماماً من التطلع إليه تنتقل إلى صورة أخرى من صور ليلى أو رينلودز في انتظار وصوله . وكان من الواضح أنها مهتمة

الآن بقربها ، كما يهتم المرء بشخص يجاهد للخلاص نفسه من مأزق سبق له هو أن وقع فيه ثم تخلص منه .

وعندما خرجا من قاعة الصور كان مازال أمامهما وقت طويل فاقترح «جود» بمجرد تناول شيء يأكلانه ، أن يسيرا عبر المنطقة المرتفعة وبلغا الناحية الشمالية للمنطقة التي كانا حينئذ يقفان عليها وبذلك يستقلان القطار العائد إلى « ميلشستر » من محطة أخرى تبعد عنهما سبعة أميال . أما « سو » وكانت على استعداد للدخول في أية مغامرة يمكن أن تعمق من احساسها بما تتمتع به من حرية في ذلك اليوم ، فوافقت في الحال على هذا الاقتراح وبذلك سارا في الطريق وعن خلفهما المحطة القريبة .

وكانت الأرض أمامهما منبسطة كما كانت واسعة الجنبات عالية المستوى فانهمكا في الحديث وسارا في طريقهما وانزع « جود » من وسط خميلة صغيرة عصاة طويلة استعان بها « سو » على السير . وكانت العصاة تفوقها طولاً وفي نهايتها إثناء كبيرة وبذلك بدت الفتاة كأنها راعية من راعيات النعم . وبعد أن قطعاً من الطريق نصفه ، عبرا طريقاً رئيسياً متجهاً نحو الشرق ، وهو الطريق القديم الموصول من لندن إلى « لاندزاند » ، فتوقفا عن السير وظلا ينظران إليه ويتحدثان عما أصابه من خراب بعد أن كان يعج بالحياة والحركة . وأخذت الريح تضرب الأرض حاملة أكواما من القش والحشائش .

وعبرا الطريق وسارا ولكن بعد نصف ميل ظهر التعب على « سو » وبدأ « جود » يقلق عليها . لقد سارا مسافة طويلة وإذا لم يتمكنوا من الوصول إلى المحطة التالية ليركبا القطار فسيصبح الموقف سيئاً . ولفترة طويلة لم يريا كوخاً واحداً في المنطقة الفسيحة المنزرعة وأخيراً جاءا إلى حظيرة الأغنام وبلغا الراعي وكان يقيم سياجاً في الأرض فأخبرهما أن المنزل الوحيد القريب في المنطقة هو منزل والدته وهو منزله في نفس الوقت . وقال ذلك وهو يشير إلى منخفض صغير أمامهما

يتصاعد منه دخان ضعيف أزرق . ودعاها إلى مواصلة السير إلى هناك وأوصاها بالجلوس فترة للراحة .

وفعلا هذا ودخلا البيت وصاحبه عجوز يخار فيها من الأسنان وكانا معها مؤدبين إلى أقصى ما يمكن أن يكون عليه الغريب عندما تتوقف فرصته الوحيدة في الحصول على المأوى والراحة على رضا صاحب البيت .

وقال « جود » : « هذا كوخ صغير جميل » .

— « ليس لي علم بذلك ولاكنني لا بد أن أغطي سقفه سريعا بالطين وأكسوه بالقش . أما من أين لي الطين والقش فهذا مالا أعرفه تماما إذ أن القش أصبح من فداحة الثمن بحيث يكون استخدام الصفائح اللامعة أرخص » .

وجلس الإثنان يستريحان وبعدها دخل الراعي وقال وهو يهز لهما يده في حركة عصبية : « لا تهتما لوجودي وأبقيا هنا كيفما تريدان ولاكن لا تفكرا في الرجوع إلى « ميلشستر » بالقطار هذه الليلة فإن تستطيعا فانكما لا تعرفان طبيعة المنطقة جيدا . إنني على استعداد للسير معكما جزءا من الطريق لو أردتما ، ولكن القطار سيكون قد غادر المحطة » .

فهبوا واقفين وتأهبوا للسير .

— « في استطاعتكما أن تقضيا الليلة هنا ، أليس كذلك يا أماه ؟ نحن نرحب بكما في بيتنا . إن تجدنا النوم مريحا في هذا المكان ومع ذلك فالبقاء هنا لن يكون أسوأ من السير إلى المحطة في هذه اللحظة » . وبعد أن قال الراعي ذلك التفت إلى « جود » وقال في صوت خفيض :

— « هل أنتم متزوجان ؟ » .

قال « جود » : « لا » .

— « أوه ، ولاكنني لا قصد بهذا السؤال سراً . لست أنا بالشخص الذي

يسىء إلى أحدا إذن تستطيع هى أن تذهب إلى غرفة أمى بينما تنام أنت معى فى الرحبة الخارجية . وباستطاعتى أن أوقفكما فى الصباح الباكر لتلحقا بأول قطار يعود إلى « ميلشستر » . لقد فاتكما آخر قطار الآن . »

وبعد تفكير ترر الإثنين أن يقبلا هذا الاقتراح وجلسا يشاركان الراعى وأمه فى إخلاء المائدة بما عليها من صحاف قالت « سو » : « أنا أفضل هذه الحياة . فى منأى من جميع القوانين إلا قوانين الجاذبية والتكاثر » .

قال « جود » ، وقد زاد من حنقه عليها ما قفز إلى ذاكرته فى تلك اللحظة خاصا بارتباطها بالمعلم : « تظنين أنك تحبين هذا النمط من الحياة ! ليس هذا بصحيح فأنت من تناج المدنية الحديثة » .

— « بل إننى لست كذلك يا « جود » . أنا حقاً أحب القراءة وما يشبهها من أنواع النشاط الفكرى ولستكنى أتلف على العودة إلى أيام طفولتى الأولى وتحببها .

— « وهل ما زلت تذكرين طفولتك الأولى إلى هذا الحد ؟ بل أنت فى نظرى تبدين خالية من كل المعتقدات التقليدية » .

— « وهل تظن ذلك ؟ ولستكنك لا تدري ما بداخل نفسى » .

— « وما هذا ؟ » .

— « إنسان إسماعيل » .

— « إنك إحدى فتيات المدينة . هذا أنت » .

وبدا عليها اعتراض شديد وانصرفت عنه .

وفى الصباح التالى أيقظهما الراعى كوعده ، وكان الصباح زائفاً فقطعا الأميال الأربعة إلى القطار فى رحلة ممتعة . وعندهما وصلا إلى « ميلشستر » واتجها إلى حى الكاتدرائية وبدأت أسطح البناء القديم الذى يضم « سو » مرة أخرى تظهر أمام عينيها ، بدا عليها الفرع وتمتت تقول : « أتوقع شراً » .

ودقا الجرس الكبير ثم انتظرا .

ـ « أوه . إشتريت لك شيئا كدنت أنساه » . « قالت ذلك في سرعة » ثم أخذت تفتش في جيبها وتقول : « إنها صورة لى جديدة ، هل تأخذها ؟ »

ـ « وهل تسألينى ! »

وأخذ الصورة فرحا وجاء البواب . وعندما فتح الباب بدت على وجهه نظرة تنذر بالويل . ودخلت « سو » والتفتت خلفها وهزت له يدها .

### ( ٣ )

أما الشابات السبعون اللاتى تراوحت أعمارهن على الأغلب بين التاسعة عشرة والواحدة والعشرين أو أكثر ، وهن اللاتى ملأن فى هذا التاريخ الدار الشبيهة بالدير والمعروفة بدار المجلات « بميلشستر » ، فقد ألفن فيها يبنهن مجتمعما شديد التنوع تضمن بنات العمال الفنيين والقسيسين ، والأطباء ، وأصحاب المتاجر الصغيرة ، والمزارعين ، وأصحاب معامل الألبان ، والجنود ، والبجارة ، والقرويين . وفى المساء السابق على ذلك الذى وصفناه جلسن فى القاعة الكبرى للدار وانتشر يبنهن خبر مؤداه أن « سو برايد هيد » لم تمض ليلتها فى الدار .

وقالت طالبة من الصف الثانى وكانت على خبرة بالشبان : « خرجت مع صديقتها الشاب ورأتها الآنسة « تريزلى » فى صحبته فى المحطة — لسوف تنال جزاءها عندما تعود » .

وقالت فتاة شابة حديثة الالتحاق بالدار : « قالت عنه أنه ابن خالها » .

وفى زبرة خشنة ، قالت الطالبة المسئولة عن نظام الفصل : « ذلك العذر سبق أن ذكر فى هذه المدرسة فى مناسبات عديدة كهنه ولم يعد بالذى ينقذ نفوسنا » .

والواقع أنه منذ عام واحد فقط وقع فى الدار حادث محزن أسفر عن سقوط إحدى الطالبات فى حبائل الاغراء وكانت تتنحل نفس العذر للخروج مع صديقتها

الشاب . وتنتجت عن هذا الحادث فضيحة ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت إدارة الدار تضيق ذرعا بالشبان الذين يدعون القرابة للطالبات .

وفي التاسعة نودي على الأسماء ورددت الأنسة « تريزلى » اسم « سو » ثلاث مرات دون أن تسمع جوابا .

وفي التاسعة والرابع وقفت الطالبات يرتلن وبعدها جثون للصلاة ، ثم ذهبن للشاء وكل واحدة منهن تقول للأخرى أين « سو » يريد هيد ؟ أما بعض الطالبات اللاتي شاهدن « جود » من النافذة فقد أحسسن باستعدادهن لتقبل العقاب الذى ينتظر « سو » مقابل حصولهن على قبلة واحدة من ذلك الشاب ذى الوجه الرقيق ولم يكن يبدن من تصدق قصة القرابة هذه .

وعقب ذلك بنصف ساعة آوت الفتيات إلى فراشهن وجوههن الرقيقة متجهة إلى أعلى وسقط عليها ضوء المصباح الغازية الصنوبرية التى ترسل ضوءها الممتدح على طول قاعات النوم وتعكسه على الوجوه النائمة فتبدو هذه وكأنها نقش على كل منها كلمة ، الجنس الأضعف ، وهو الجزء المفروض على النساء جميعا . ما من جهود تستطيع أن تخلق من ضعفهن قوة ، بينما قوانين الطبيعة باقية كما هى شديدة لا تلين . كن على هذه الصورة منظرا رائعا حزيننا بينما هن لا يشعرن بما فى المنظر من روعة حزينة وإن يكتشفن ذلك حتى تتكشف حياتهن المقبلة عما تحمله لهن السنون من انفعالات وأزمات نفسية أشبه بما يتعرض له من ظلم ووحدة وكوارث الموت وحمل الأطفال وولادتهن . عند ذلك فقط تعود عقولهن إلى التفكير فى مأساة حياتهن ولكن بعد فوات الأوان .

وجاءت إحدى المشرفات تطفىء الأنوار ، وقبل أن تفعل ذلك تلقى بنظرة أخيرة على سرير « سو » الذى ظل خاليا . وعلى مائدة الزينة الملاحقة به وكانت كغيرها ، رصت عليها أشياء صغيرة متعددة كتلك التى تهواها البنات ومن بينها صور داخل إطارات وكانت مائدة « سو » تؤلف معرضا صغيرا للصور من بينها صورتان كل منهما داخل إطار مخملي أنيق .

قالت المشرفة : « ومن يكونان هذين الرجلين ؟ ألم يسبق لها أن قالت شيئاً عنهما ؟ أقول لكم صراحة إننا هنا لانسبح بعرض أية صور ماعدا صور الألقاب » .

وقالت طالبة في الفراش التالي : « أحد هذين الشخصين ، وهو المتوسط العمر المعلم الذى عملت معه ويدعى « فيلوتسون » .

— « والآخر ، طالب الجامعة فى ردايه الجامعى وقلنسوته ، من يكون ؟ » .

— « صديق ، أو بالأحرى هكذا كان . لم يسبق أن جاء اسمه على لسانها » .

— « وهل الشخص الذى جاء يسأل عنها هو أحد هذين الشخصين ؟ »

— « لا . »

— « أو أياها أنت من ذلك ؟ »

— « تماما . ذلك كان شاباً له لحية سوداء . »

ولم تلبث الاضواء أن أطفئت وظلت الفتيات حتى اللحظة التى أسدن أنفسهن فيها للكبرى يتحدثن عن « سو » ويتكهن بمصيرها ويتساءلن عما قامت به من أعمال فى « لندن » و « كرايستمينستير » ، قبل التحاقها بدار المعلمات ، بينما غادر عدد منهن الفراش وأخرجن رؤوسهن من النوافذ الصغيرة وأخذن يتطلعن إلى الواجهة الغربية الواسعة للكاتدرائية المقابلة والبرج الحازونى الذى يرتفع خلفها .

وعندما استيقظن فى الصباح التالى استترقن النظر إلى فراش « سو » فوجدن أنه مازال خاليا . وبعد دروس الصباح الباكر التى تلقى عادة على ضوء المصابيح الغازية ، وبعد صعودهن إلى غرفهن لارتداء ملابسهن استعداداً لتناول الفطور ، أخذ جرس البوابة الكبيرة يدق بشدة . وخرجت المشرفة ثم عادت مسرعة لتقول بأن أوامر مديرة الدار تقضى بالالتحدث الفتيات مع طالبة « سو » برايدهيده دون تصريح . وعندما جاءت « سو » إلى عنبر النوم ، يبدو عليها الإضطراب والتعب ، سارت فى صمت متجهة إلى الزاوية التى فيها فراشها ولم تقبل عليها واحدة



من زميلاتنا لتجنيها أو للتحرى عما حدث . وعندما نزان إلى الدور السفلى وجدنا أنها لم تدبرهن إلى قاعة الطعام لتناول طعام الإفطار وهنا علمنا أنها عوقبت عقاباً شديداً وأمرت بالانزاع غرفة منعزلة لمدة أسبوع حيث تبقى سجيناً تأكل وتذاكر وحدها .

عند ذلك شاع جو من التذمر المكتوم بين الفتيات إذ اعتقدن أن القرار غاية في الشدة ، ثم وقعن على مظالمه ورفعنهن إلى عميدة الدار طالبن فيها بإلغاء العقوبة التي وقعت على « سو » ، ولكنهن لم يظفرن برد . وقبل المساء ، عندما بدأت معلمة الجغرافيا تلقي دروسها ، جلست الفتيات في قاعة الدرس وأذعن مكنوفة .

وأخيراً قالت المعلمة : « وهل تقصدن أن تتوقعن عن العمل ؟ بهذه المناسبة أقول لقد ثبت بالبرهان القاطع أن الشاب التي خرجت معه « سو » في الليلة الماضية ، ليس من أقربائها لسبب واحد وهو أنها ليس لها قريب مثله ، وكتبت الدار إلى « كرايستمينيستر » لتتأكد من ذلك . وقالت زعيمة الفتيات : « إننا نميل إلى أن نأخذها بكلمتها » .

— « ولكن هذا الشاب سبق أن فصل من عمله في « كرايستمينيستر » ، لإدمانه على الشراب ولتلفظه في الحانات والمقاهي بعبارات تنطوي على الكفر والإلحاد ، وجاء إلى هنا فقط لكي يكون بالقرب منها » .

ومع ذلك ، بقين ساكنات متمسكات برأيهن وغادرت المعلمة الغرفة لتستفهم من رئيساتنا عما يجب عمله .

وأخيراً ، وقبل الغسق ، سمعت الطالبات في أثناء جلوسهن صيحات صادرة عن فتيات الصف الأول ، وكن في فصل مجاور ، وافتحمت إحدى الفتيات المكان لتقول إن « سو برايد هيد » تسالت من النافذة الخلفية للغرفة التي احتجزت فيها وهربت في الظلام عبر الأرض الفضاء واختفت . أما كيف تمكنت من مغادرة الحديقة ، فما من إنسان استطاع تعليل ذلك إذ كان النهر يحده الحديقة من الجنوب وباب الدار الخلفي مغلق بالمفتاح .

وزهبت الفتيات لمشاهدة الغرفة الخالية حيث كانت النافذة الواقعة بين البراقع  
الرأسية في الجز، الأوسط منها مفتوحة . ومرة أخرى فتشت الأرض الفضاء  
بمعاونة فانوس وتم البحث داخل كل شجيرة وداخل كل دغل ولكنها لم تكن  
مختبئة في أى من هذه . ثم سئل حارس البوابة الأمامية وبعد تفكير قال إنه  
سمع من الناحية الخلفية صوت سقوط جسم في مياه النهر ، ولكنه لم يهتم الأمر  
لاعتقاده أن عددا من البط كان يسبح في النهر قادما من ناحيته العليا .

وقالت إحدى المملكات : « لا بد أنها عبرت النهر سيرا على قدميها ! »

وقال حارس البوابة : « أو أغرقت نفسها . »

وفزعت المشرفة للفكرة ولم يكن مصدر فرعها احتمال موت « سو » تقدر  
تعرض الدار لحملات الصدف ، التي لو أضيفت إلى فضيحة العام السابق لا بد أن  
توصم الدار لفترة طويلة وصمة مشينة .

وبعد أن أحضر عدد أكبر من المصاييح . وبعد أن فتش النهر استطاعوا  
أخيرا أن يميزوا في الوحل على الضفة الأخرى . وكانت متصلة بالحقول انصالا  
مباشرا . بعض آثار أقدام صغيرة ، وكان هذا برهانا قاطعا على أن الفتاة المروعة  
خاضت في المياه إلى عمق يصل إلى كتفيها تقريبا إذ كان ذلك هو النهر الرئيسي في  
البلاد وجاء ذكره مقرونا بالاحترام في كافة كتب الجغرافيا . ولما كانت « سو »  
لم تصب المدرسة بوصمة إغراق نفسها فقد أخذت المشرفة تنظر إليها نظرة عطف  
وأعربت عن ارتياحها لذهاب هذه التلميذة .

وفي الليلة عينها لزم « جود » غرفته القريبة من بوابة حي الكاتدرائية . وكان  
من عاداته في مثل هذا الوقت من كل يوم ، وبعد حلول الظلام ، أن يدخل الحى  
الهادى ويقف أمام البناء الذى يضم « سو » كي يرقب الظلال المنعشة عن رؤوس  
الفتيات وهن يتحركن ويلحظ صورهن تنعكس على الستائر فيتمنى لو لم يكن لديه  
ما يفعله سوى أن يجلس طول اليوم قارئاً متعلما لكل ما يستهان بهراءته وتعلبه  
من قبل الكثيرات من صاحبات الرموس الفارغة من يسكن ذاك البناء . أما في

هذه الليانة ، فبعد أن فرغ من احتساء الشاي عكف على قراءة المجلد التاسع والعشرين من مجموعة مؤلفات « بوسى » عن آباء الكنيسة وهى مجموعة سبق أن اشتراها من بائع يتاجر فى الأشياء القديمة بـشمن ظن « جود » حينئذ أنه رخيص رخصاً لا مثيل له بالنظر إلى أن الكتاب مرجع لا يقدر بـشمن . وفى أثناء انهماكه فى القراءة خيل إليه أنه يسمع نقرأ خفياً على زجاج النافذة ، ثم تكرر النقر من بعد . ولا بد أن شخصاً ألقى بحصاة أو هنا وبواقفاً ثم رفع الراداة فى لطف فسمع صوتاً آتياً من أسفل النافذة يقول : « جود » !

-- « سو » !

-- « نعم . إني هـى ! أيمكننى أن أصعد إليك دون أن يرانى أحد ؟ »

-- « نعم ! »

-- « إذن لا تزل . اغلقى النافذة . »

وبقى فى مكانه وكان يدرك أنها تستطيع أن تدخل البيت فى يسر حيث كان الباب الأمامى لا تغلقه سوى أكرة فى قدرة أى إنسان أن يديرها كما هو الحال فى معظم المدن الريفية القديمة . لقد لجأت إليه فى مخبتها ، تماماً كما لجأ هو إليها عندما كان فى مخنة ، فباللهما من مخلوقين متماثلين ؛ وظالت تلك الفكرة تدور فى رأسه ويده على أكرة باب غرفته ، وأخيراً سمع حفيف ثوب يتحرك فى سرعة فوق السلم المظلم ورآها أمامه فى ضوء المصباح . وأقبل عليها ليمسك بيدها فوجدتها لزجة باردة كيد جنينة من جنيات البحر ، ورأى ملابسها لاصقة بجسدها كالآثواب التى تسكسو التماثيل التى ترى فى ردهات « البارثينون » . وقالت من خلال أسنانها المصطنكة : « إني أشعر ببرد شديد . هل يمكننى أن أقرب من النار يا « جود » ؟ »

وعبرت الغرفة إلى حيث المصطفى الصغير الذى يحوى ناراً ضعيفة ولكن ، بينما كانت قطرات المياه تتساقط منها وهى تخطر فى الغرفة ، ظهر جلياً سخافة ما كانت تتوهم من تجفيف لجسدها وملابسها .

قال « جود » يسألها فى فزع ونبرات صوته تنم عما فى نفسه من عطف عليها :

— « ما هذا الذى فعلته أيتها العزيزة ؟ »

— « عبرت أكبر نهر فى البلاد . هذا ما فعلت ! سجنوني فى المدرسة لخروجي معك فظهر لى ما ينطوى عليه هذا السجن من ظلم وعجزت عن تحمله وعلى ذلك تسلمت من النافذة وهربت عبر النهر » . كانت الألفاظ تخرج من فمها كما لو أنها تتحدث حديثاً عادياً ولكنها ، قبيل نهاية الحديث ، أخذت شفتاها الرقيقتان القرمزيتان ترتعشان وعجزت عن مغالبة البكاء فانفجرت باكياً

قال : « أيتها العزيزة « سو » لا مناص من أن تخلعى جميع ملابسك . وماذا بعد ذلك — لا بد أن نستعير بعض الملابس من صاحبة البيت . سأذهب إليها لأطلب منها ذلك »

— « لا . لا ! بالله عليك لا تدعها تعلم بوجودي . إننا أشد ما نكون قرباً من المدرسة وأخشى أن يأتوا إلى هنا ليجثوا على . »

— « إذن لا بد أن تلبسى ملابسى . وهل تعارضين فى ذلك أيضاً ؟ »

— « أوه ، لا . . »

— « حلتى التى ارتديها أيام الأحاد ما رأيتك فيها ؟ إنها قريبة منى الآن . »  
والواقع أن كل شيء فى غرفة « جود » كان أنيقاً مرتباً . ولما لم تكن طريقة أخرى غير ذلك ، فتح درجا وأخرج منه أفضل حلله كلها وبعد أن هزها فى يده قليلاً قال : « والآن كم من الوقت تحتاجين لارتدائها ؟ »

— « عشر دقائق » .

وغادر الغرفة إلى الشارع وأخذ يسير ذهاباً وجيئة ، وعندما سمع الساعة تدق النصف بعد الساعة قفل راجعاً وجلس فى مقعده الكبير الوحيد وعند ذلك رأى مخلوقاً نحيلاً متهاكاً يشبهه وهو فى أيام الأحاد شبهاً مضحكاً . فأثارت فى مظهرها الضعيف كوامن نفسه بحيث أحس بقلبه يتفطر عطفاً عليها . كانت ملابسها المبتلة منشورة فوق مقعدين آخرين وعندما جلس بجوارها أحمر وجهها خجلاً ولكن ذلك لم يستمر سوى لحظة قصيرة .

— أظن يا «جود» من غير اللاتق أن تراني هكذا وملابسي منشورة هنا ومع ذلك ، أى هراء هذا الذى أتقوه به ، ليست هذه سوى ملابس امرأة ، مجرد نسيج لا حياة فيه . ليتنى لم أحس بالضعف والمرض ! . هل لك أن تجفف ملابسى الآن ؟ أرجوك يا «جود» أن تفعل وسأبحث لنفسى عن مكان آوى لى فيه فالوقت مازال مناسباً لذلك .

.. « لا . لن تفعل ذلك إذا كنت مريضة . لا بد أن تبقى هنا . «سو» ، أيتها العزيزة ، ما الذى أستطيع أن أفعله من أجلك ؟ »

.. « لا أدري ! لا أستطيع أن أتغلب على هذه الرجفة . ليتنى أحس بشيء من الدفء فى أوصالى ! » ووضع «جود» فوقها معطفه الكبير بالإضافة إلى ما كان عليها من ثياب ثم هرع إلى أقرب حان وعاد وفى يده زجاجة صغيرة وقال « هاك زجاجة من أحسن أنواع البراندى . والآن إشربى أيتها العزيزة . إشربى الزجاجة كلها . »

— « لا أستطيع أن أشرب من الزجاجة . » عندئذ أحضر كوباً وسكب فيه قليلاً من الخمر ثم مزجه بالماء وقدمه لها فتأففت من شربه قليلاً ولكنها أفرغته فى جوفها ثم اضطجعت فى المقعد الكبير .

وعقب ذلك شرعت تروى له قصتها فى نظام منذ اللحظة التى افترقا فيها . ولم تكن فى وسط القصة تعثر صوتها ومالت برأسها إلى الأمام ثم توقفت عن الحديث وراحت فى سبات عميق . ولما كان قلقاً عليها ، خائفاً لئلا تصاب ببرد يضر بصحتها ، شعر بالفرح يملأ نفسه عندما سمع أنفاسها المنتظمة فاترب منها فى هدوء فلاحظ أن خديها الزرقاوين بدأ يصطبغان بحمرة دافئة كما لاحظ أن يدها الممدودة لم تعد باردة وحينئذ وقف وظهره إلى النار يتأماها فرآها وبدت له كملاك من ملائكة السماء :

— ٤ —

وقطع حبل تأملاته صوت أقدام تصعد السلم فأمرع إلى الملابس المنشورة فوق المقعد لجمعها ثم دفع بها أسفل فراشه وجلس يتراً . وسمع طرقاتاً على باب غرفته وبعدها مباشرة فتتح الباب وأطلت منه صاحبة المنزل .

— « أوه ، لم أدر أنك في الغرفة أيها السيد «فاولي» . رغبت فقط أن أعرف ما إذا كنت تطلب العشاء . أرى أنك تستضيف شاباً بهذه الليلة » .

— « نعم أيتها السيدة . ولكنني لن أنزل للعشاء هذا المساء فهل تتفضلين باحضاره ؟ أود أيضاً أن أتناول بجانب الطعام قدحاً من الشاي » .

كان من عادته أن ينزل إلى المطبخ حيث يتناول طعامه في صحبة أفراد الأسرة تخفيفاً من أعباء صاحبة المنزل التي بادرت باحضار عشاءه في تلك الليلة . أما هو فأخذ منها عند الباب .

وعندما نزلت المرأة ، وضع إناء الشاي بجوار المصطلى ثم أخرج ثياب «سو» من مكانها تحت السرير فوجدتها لم تجف ، ووجد رداء من الصوف السميك مازال محتفظاً بقدر كبير من الماء فأعاد نشر كل الثياب وزاد من النيران وعاد إلى تفكيره بينما البخار يتصاعد من قطع الملابس خارج المدخنة .

ولحظة قالت الفتاة : « جودا ! »

— « نعم » الآن كيف حالك ؟ .

— « أحسن . أنا على ما يرام . عجباً ! لقد نمت . أليس كذلك ؟ كم الساعة الآن ؟ ليس الوقت متأخراً بالتأكيد » .

— « إنها الآن بعد العاشرة » .

قالت في فزع : « حقاً ؟ وماذا أفعل الآن ؟ »

— « لا بقي حيث أنت » .

... « هذا ما أود أن أفعله ، ولكنني لا أدري ما سوف يقال عني وما الذي ستفعله ؟ »

... « سأجلس هنا طول الليل أقرأ بجوار النار فغدا الأحد ولست مضطراً إلى الخروج من البيت . قد يكون من الجائز أنك ستنفذين نفسك من مرض خطير لو بقيت حيث أنت . لا تجزعي على فأنا على ما يرام . أنظري ماذا أحضرت لك . إليك بعض الطعام . وعندما اعتدلت في جلستها أخذت تنففس في حزن وهي تقول : « أحس أنني مازلت ضعيفة . كنت أظن أنني في حالة طيبة وما كان ينبغي لي أن آتي إلى هنا . أليس كذلك ، ولكن العشاء منحها شيئاً من القوة . وعندما أحسست قليلاً من الشاي واستراحت أصبحت يقظة ومرحة .

أما الشاي الذي شربته ، فلا بد أنه كان قوياً ، وأنه ظل على النار فترة طويلة لاذ بدأ عليها عقب تناولها إياه أن السكري ابتعد عن جفنها ، بينما أحس هو الذي لم يشرب شيئاً ، أن رأسه تدور حتى لفحت حديثها انتباهه .

قالت وهي تقطع حبل الصمت الذي ساد بينهما لحظة : « دعوتي ربيبة المدنية أو ما يشبه ذلك . أليس كذلك ؟ كان غريباً أن قلت ذلك » .  
... « وماذا ؟ » .

... « ذلك خطأ كبير فإنا سوى الصيغة السلبية ، لهذا الذي تدعيه » .

... « أنت تتفلسفين فالصيغة السلبية ، كلام يتسم بالعمق » .

قالت تسأله وفي لهجتها شيء من المرح : « حقاً ؟ وهل أبدولك أنني مثقفة ؟ » .

... « لا . لست مثقفة . غير أنك لا تتحدثين كما تتحدث البنات الصغيرة . البنات المجردة من المزايا » .

... « كأن لدى بعض المزايا . أنا لا أعرف اللاتينية واليونانية وإن كنت أعرف قواعد هاتين اللغتين ... ولكنني أعرف معظم الروائع اليونانية

واللاتينية من خلال ترجمتها إلى الإنجليزية ، كما أعرف كتباً أخرى كذلك قرأت  
للبرير و « كانالوسى » و « مارييتال » و « جوفينال » و « لوسيان » و « بومونت  
وفلشر » و قرأت « ليو كاتشيرو » و « سوكلرون » و « دى براتوم » و « ستيرن وفو »  
و « سموليت » و « فيلدنج » و « شكسبير » ، و قرأت الإنجيل وغيره واكتشفت  
أن كل جاذبية الأجزاء النائية من تلك الكتب انتهت بقراءتها .

قال وهو يتنهد : « لقد قرأت أكثر مما قرأت أنا ! كيف حدث أن قرأت  
بعض تلك الكتب على غرايتها ؟ » .

قالت فى اهتمام : « كان ذلك عن طريق الصدفة . تشككت حياتى وتحدثت  
بسبب ما يسميه الناس بخصلة فى . أنا لا أشعر بخوف من الرجال على اعتبار أنهم  
رجال ولا أخشى مما يكتبون .

لقد اختلطت بهم — بواحد أو اثنين منهم على وجه خاص — وكان  
اختلاطى على أساس أننى أتنمى إلى جنسهم . أريد أن أقول إننى لم أحس نحوهم  
بذلك الاحساس الذى يتعلم النساء أن يحسسنه تجاه الرجال وهو إحساس الحذر  
من إعتدائهم على عفافهن فإنا من رجل — باستثناء المتوحشين عبيد شهواتهم —  
يجرؤ على التعرض لامرأة بالليل أو بالنهار فى بلادنا أو خارجها ما لم يدع إلى ذلك  
وما لم تشر إليه المرأة بنظرة منها كأنما تقول : « تعال إلى » وبدون ذلك فهو فى  
خوف منها مقيم . وما لم تقل المرأة هذه الكلمة ، وما لم تفصح عنها بنظرة ، فلن  
يقرب الرجل من المرأة . ومهما يكن من أمر ، ما كنت على وشك أن أقوله  
هو أننى عندما كنت فى الثامنة عشرة من عمرى نشأت بينى وبين أحد الطلاب  
فى كرايستيمينيستر ، علاقة صداقة حميمة . علمنى ذلك الشاب أموراً كثيرة كما أعارنى  
كتباً ما كان يمكن أن أحصل عليها لولاه .  
— « وهل انتهت هذه الصداقة ؟ » .

— « نعم . فالمسكين مات بعد عامين أو ثلاثة من حصوله على درجته العلمية  
ومفادته الجامعة فى « كرايستيمينيستر » .



— « أعتقد أنك كنت تقابلينه كثيرا ؟ » .

— « نعم . تعودنا أن نخرج سويا ونسير على الأقدام مسافات طويلة نقرأ وغير ذلك من الأعمال وكانت علاقتنا كذلك التي تنشأ بين شاب وآخر لا بين شاب وقتاة . طلب مني أن أشاركه حياته ووافقت ولكنني عندما اتصلت به في « لندن » وجدت ، أنه يضم شيئا يختلف عما فهمت إذ أراد مني في الواقع أن أكون خليلته ولكنني لم أكن أحبه وعند ما قلت إنني مصممة على تركه مالم يتنازل عن فكرته فعل ذلك ومن ثم تقا سينا غرفة واحدة وعشنا سويا خمسة عشر شهرا . لقد أصبح فيما بعد كاتباً من كتاب الافتتاحيات في صحيفة يومية من أكبر صحف « لندن » وظل كذلك حتى دهمه المرض وكان لا بد من أن يرحل خارج البلاد للاستشفاء .

قال إنني أشقيته بتمنعي وإصراري على الابتعاد عنه بالرغم من أننا كنا نعيش تحت سقف واحد ولم يكن ليصدق أن شيئا كهذا يمكن أن يصدر عن امرأة .

ثم عاد إلى أرض الوطن واسكنه قضي نحيبه عقب عودته مباشرة . فسبب لي أزمة نفسية عنيفة وأنبني ضميري على قسوتي معه ، وإن كنت مازلت أرجو أنه مات بذات الرثة وليس بسبب صدى .

سافرت إلى « ساند بيرن » كي أحضر جنازته وكنت الشخص الوحيد الذي توجه للتعزية في موته . لقد ترك لي شيئا من المال وذلك لأنني أشقيته على ما أعتقد هكذا الرجال دائما ، إنهم يفوقون النساء نبلا .

— « يا له السموات ! وماذا فعلت بعد ذلك ؟ » .

— « آه . هأنت الآن غاضب علي ! » قالت ذلك وبدأ في نبرات صوتها الفضي نعمة مفاجئة تدل على الحزن ثم أضافت تقول : « ما كنت لأقول لك شيئا لو أنني عرفت أنك ستغضب ! » .

-- « لا لست بغاضب . اخبريني بكل شيء . » .

-- « حسن . استثمرت تقوده في مشروع وهمي وفقدتها . وعشت وحدي قريبا من « لندن » لفترة وبعدها عدت إلى « كرايستمينستر » إذ أن أبي ، وهو الآخر يعيش في « لندن » ويعمل نقاشا على المعادن ، رفض أن يستقباني في متجر العاديات حيث وجدته . قلت لك إنك لا تدري كم أنا سيئة ! » .

ونظر إلى المقعد الكبير ذي المساند وأطال النظر فيه كما لو أنه يدرس من جديد تلك المخلوقة التي آواها في بيته وأخذت نبرات صوته ترجف وهو يقول : « مهما يكن نوع الحياة التي عشتها يا « سو » ، فإنني أعتقد أنك بريئة ، كما أوهن بأنك متحجرة ! » .

-- « لست كما تظن بريئة تماما وخاصة إذا كنت : » نزع الغطاء عن جسد كساه خيال لك السامي » .

قالت ذلك وهي تضحك وان كان من الممكن أن يكتشف انها تجش بالبهكاه وهي تقول : « ولكنني لم أسلم نفسي قط لعشيق إذا كان ذلك ما تقصد . لقد ظلمت دائما كما بدأت . »

-- « اني اصدقك تماما ولكن بعض النساء ما كن ليظلمن كما بدأت . » .

-- « ربما لا . إن نساء أفضل مني ما كن ليفعلن ذلك . يقول الناس عنى بسبب ذلك إنني ذات طبيعة باردة ، أى أنني خالية من الشعور بالجنس ، ولكني لا أهتم بما يقولون ! بعض الشعراء من ذوى الاهتمام الخاص بشئون الجنس كانوا دائما في حياتهم اليومية بعيدين عن هذه الأمور . »

-- « وهل ذكرت للسيد « فيلوتسون » شيئا عن ذلك الصديق الجامعي العالم ؟ »

-- « نعم فعلت ذلك منذ مدة طويلة فما أخفيت هذه القصة عن أحد » .

-- « وماذا قال ؟ » .

-- « لم يقل شيئا يدل على استهجان له بدر مني بل قال إنني كل شيء بالنسبة

له مهما فعلت ؛ وقال كلاما آخر غير هذا . »

وأحس بانقباض شديد . لقد بدا كأنها تباعد عنه تدريجياً بسلوكها الغريب وعدم إحساسها بأنوثتها .

ولجأة قالت تسأله في صوت رقيق يتعارض تماماً مع ما صدر عن نفس تلك المرأة التي قصت الآن عليه قصتها في استمثار كبير :

— « هل أنت حقاً لا تحس من نحوى بضيق أيها العزيز « جود » ؟ إني لا أتردد عن الاسماء إلى أى فرد في الدنيا إلاك ! »

— « لا أدري إن كنت حائقا عليك أم لا . كل ما أدريه الآن هو أنني أهتم بك اهتماماً زائدا ! »

— « وما اهتمامي بك إلا كاهتمامي بأى شخص آخر سبق أن عرفته . »  
 — « وليس أكثر من ذلك ؟ ويحيى ، ما كان ينبغي لي أن أسألك هذا السؤال . على أية حال لست مضطرة إلى الإجابة على سؤالى ! » وحلت فترة صمت أخرى طويلة . وأحس أنها تعامله بقسوة وإن لم يستطع أن يتبين حقيقة ذلك على وجه الدقة . لقد جماعها مظاهر الإسلام الذى اتسمت به تبدو وكأنها أقوى منه . ولكى يغير مجرى الحديث طفق يقول : « إني جاهل تماماً بالأمور العامة وإن كنت عملت عملاً متواصلاً . تعلقت بدراسة علوم اللاهوت كما تعلين وماذا تظنين ينبغي لي أن أفعل لو لم تكوني معي الآن ؟ كان ينبغي أن أؤدى صلاة المساء وأظن أنك لا تمنعين في أن . . . »

قالت : « أه . لا . لا . أفضل ألا أفعل إذا لم يضرك ذلك . لا أحب أن أكون منافقة ولا أود أن أبدو أمامك كذلك . »

— « ظننت أنك لن تشتركي معي في الصلاة فلم أعرض عليك ذلك . يجب ألا تنسى أنني آمل أن أصبح في أحد الأيام قسيساً أنفع الناس . »

— « أنت تعد نفسك لذلك ؟ أظن أنك سبق أن ذكرت أمامي شيئاً كهذا . ليس كذلك ؟ »

— « نعم . »

— « إذن ما زلت مقبلا على عزمك . ظننت أنك غيرت رأيك . »

— « طبعاً لا . في مبدأ الأمر ظننت أنك تشاركيني شعوري إزاء هذا الموضوع حيث أنك عشت في « كرايستمينيستر » واختلطت بأهلها واطلعت على اتجاهاتهم الدينية ، كما أن السيد « فيلو آسون . . . »

قالت « سو برايد هيد » في حماس زائد :

— « إنني لا أحترم « كرايستمينيستر » ولكنني أقدر بعض التقدير حياتها العقلية والمسئول عن ذلك هو صديق الذي حدثتك عنه . كان أكثر من عرفت من الرجال تساهلاً في أمور الدين بيد أنه أفضلهم خلقاً . وأمر العقل في « كرايستمينيستر » تشبه النبيل الجديد المعجب في زجاجات قديمة . وفي تلك المدينة أيضاً لا بد أن يزول العصر الوسيط عن كل شيء . لا بد أن ينسحق عنها كاية ذلك الطابع وإلا فستزول من الوجود « كرايستمينيستر » نفسها . طبعاً في بعض الأحيان لا يقوى المرء على مقاومة ما يحس به من ميل خفي لتقاليد الدين القديمة كما يزاول شعائره هناك في إخلاص وتأثر فربق من المفكرين ، واسكنني عندما أعود إلى نفسي وأصبح في تمام حواسي أقول :

« بالجلال الرهيب المنبثق من القديسين »

لشد ما أراه أجزاء ذارية متساقطة - من أجساد آلهة مشنوقة ! »

— « سو ، است بالصديقة الخاصة لي وإلا لما تفوهت بمثل هذا الكلام ! »

— « إذن أسحب هذا القول أيها العزيز « جود » . » قالت ذلك في تأثير

عاطفي وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى .

— « مازلت أعتقد أن « كرايستمينيستر » لديها الكثير مما يعد رائعا بالرغم

من حنق عليها لأنني لم أوفق في الذهاب إلى هناك » . قال « جود » هذه الكلمات في

رقة ظاهرة وهو يقاوم في نفسه دافعا خفيا بان يحملها على البكا .

قالت ولم يزايلها حنقها عليه لمعارضته إياها : « إنها مكان للجمل والخنول العقلي ولا يراها كذلك سكانها من السوقه والسكيرين والشعاذين ، لجميع هؤلاء يقبلون الحياة كما هي بيننا الغالبية العظمى من رجال الكليات ليسوا كذلك . أنت مثلا برهان حتى على ذلك . إنك أحد الذين خلقوا لـ « كرايستمينيستر » عندما كانت مهداً للعلم إذ أنك تحس بعاطفة قوية نحوها ولـ « كنك » بلا مال وبلا آمال وبلا أصدقاء . زحك أولاد الأغنياء وأزالوك عن الطريق . »

« حسن . في مقدورى ان أضرب صفحات عن الماديات إذ أن اهتمامى موجه إلى شيء أسمى من ذلك بكثير . »

وأضافت تقول فى إصرار : « أما أنا فاهتمامى موجه إلى شيء أوسع وأصدق . فى وقتنا الحاضر يتخذ العقل فى « كرايستمينيستر » ، لنفسه طريقا معيناً بينما يسير الدين فى طريق آخر وبذلك يصطدم الإثنان وتتعارض مصالحهما كخروفين يقنطحان . »

— « وما رأى السيد « فيلوتسون » . »

— « بالله من مكان يكثُر فيه المؤمنون بالبرود والدرأوش ومؤاخو الأشباح ! » .

ولاحظ وجوده أنه كلما هم بالحديث عن المعلم حولت الكلام إلى بعض التعميمات عن تلك الجامعة وتقصيرها وكان « جود » أشد ما يكون لطفة على معرفة جانب من حياتها باعتبارها ربيبة « فيلوتسون » وخطيبته ولـ « كنك » ما كانت تشفى غليله من هذه الناحية .

قال : « حسن . هذه بالضبط طبيعتى فأنا أخشى الحياة وأرى الدنيا دائماً تعج بالأشباح . »

وتمتت تقول : « ولـ « كنك » عزيز على كريم معى ! » .  
وانخلع قلبه لسماعه هذه الكلمات ولم تنبس شفاته بكلمة .

وأضافت تقول في لاجاجة تقصد بها إخفاء حقيقة شعورها وهي حيلة عرفها عنها . « أرى أنك مازلت في مرحلة ( التبشير بوساطة العجالة ) أليس الأمر كذلك ؟ والآن دعني أرى في أى عام كنت أنا في هذه المرحلة ؟ مررت في هذه المرحلة عام ألف وثمانمائة و . . . » .

— « إنك تهزئين بناحية من النواحي التي لا أحبها في نفسي يا « سو » .

والآن هل تفعلين ما أطلبه منك ؟ في اللحظة الراهنة أقرأ اصحاحا من الإنجيل وبعدها أقوم إلى الصلاة كما سبق أن أخبرتك . هل لك أن تتناولى كتابا من المكتبة أمامك ثم تجلسين وظهرك إلى الناحية الأخرى تاركة أيدي وشأني ؟ هل أنت متأكدة تماما أنك لا تودين أن تشاركيني الصلاة ؟ » .

— « سأمتع عيني بالتطلع إليك وأنت تصلي » .

— « لا . لا تسخرى مني يا « سو » ! » .

— « حسن للغاية سأفعل ما تأمرني به وإن أضايته . قالت ذلك وفي كلامها نبرة طفل ينوي أن يعدل من سلوكه . وتحقيقا لهذه النية من جانبها أدارت له ظهرها وكان بالقرب منها إنجيل آخر صغير . وفي أثناء قيامه بالصلاة تناولت الإنجيل وشرعت قلب صفحا نه ثم قالت في خبث :

« هل تأذن لي بأن أصنع لك إنجيلا جديدا كذلك الذي صنعتته لنفسى في « كرايستميستر » ؟ » .

— « نعم . وكيف صنعت ذلك ؟ » .

— « أدخلت بعض التعديلات على كتابي القديم فزعت منه الرسائل والاناجيل وصنعت منها كتيبات صغيرة مرتبة حسب تسلسلها الزمني بادئة برسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل « كورنثوس » ، ثم اتبعتها ببقية الرسائل ، وفي نهاية المجموعة وضعت الاناجيل وبعد أن فرغت من ذلك أرسلتها للتجليد .

وقال صديقي فني الجامعة السيد . . . . ، ولكن لا داعي لذكر اسمه فليرحمه الله قال إن الفكرة ممتازة وعند ما شرعت بعد ذلك في قراءة المجموعة وجدتها أكثر إثارة للنفس ، وأكثر وضوحاً .

وسئل « جود » تعبيراً عن شعوره بالخطيئة . وقالت وعينها تنظلعان إلى صفحات ( نشيد سليمان ) : « يا لها من بهيمة أدبية ، ذلك الملخص المذكور في مطلع كل إصحاح لتفسير طبيعته الملحمة الشعرية . لا تنزعج فما من إنسان يدعى أن الله أوحى إليه بعناوين الإصحاحات . الواقع أن الكثيرين من علماء اللاهوت لا يحفلون لمثل هذه العناوين . ومن الأمور التي تدعو إلى السخرية حقاً أن نفكر في الأربعة والعشرين كملاً أو أسقفاً جالساً متجهماً الوجود منهمكين في كتابة مثل هذا الكلام . »

ونظر إليهم — « جود » وفي عينيه ألم دفين وتمتم يقول : « إنك تشبهين « فولتير » في طريقة تفكيرك ! » .

— « حقاً ! إذن إن أفتح في بكلمة وإن كنت أود أن أقول ليس للناس أن يحرفوا الإنجيل ! أنا أكره كل احتمال مخادع يحاول العبث بما تنطوى عليه تلك الأنشودة العاطفية الرائعة الخارية على حب إنساني طبيعي يذهل العقل ، وبخاصة عند ما يكون العبث عن طريق الإستمالة بعبارات كنيسية جوفاء وهكذا امتلاء حديثها بالإفغال ، بل كان يفيض غضباً بسبب تعنيفه وتمدد عينها بالدموع وهي تقول : « وددت لو أن لي صديقاً هنا يشد من أذري ، ولكن ما من أحد بجانبى قط . »

قال وهو يتناول يدها ويعجب لإحمامها الشعور الشخصي في مناقشة عابرة : « ولكن يا عزيزتي « سو » يا أعز الأصدقاء . أنا لست ضدك ! » .

وأخذت تصرخ وهي تدير وجهها عنه حتى لا يرى عينها الممتلئتين بالدموع : « نعم أنت ضدي . بل أنت ضدي ! أنت في جانب القوم في دار المعلمات . على

الأقل يبدو لي أنك كذلك . ما زلت مصممة على أنه من السخف الزائد تفسير بعض النصوص مثل : « أين ذهب حبيبك أيتها الجميلة بين النساء » بقوانسا : « الكنيسة تؤكد عقيدتها » .

— « حسن . إذن ليس هذا ! إنك تجعلين من كل شيء أمراً شخصياً ! أما أنا فأميل الآن كثيراً إلى تفسير هذه الكلمات تفسيراً دنيوياً . أنت تعرفين أنك بالنسبة إلى أجمل النساء وكوني واثقة من ذلك » .

— « ولكن ليس لك أن تصرح بذلك الآن ! » قالت ذلك . وقد مات بنبرات صوتها إلى الشدة وبعدها تقابلت العيون وتصافح الإثنان كما يتصافح أعراساً واثقين . واكتشف « جود » سخافة اختلافهما في موضوع لا يعدو أن يكون افتراضياً محضاً كما أدركت هي حماقة البكاء على ما هو مكتوب في كتاب قديم كالإنجيل . واستمرت تقول في نغمة هادئة إذ كان « جود » الآن أكثر منها قابلية للإنفجار : « أنا لن أندخل في معتقداتك . أبداً مطلقاً ! ولكنني أود حقاً وأشتاق كثيراً إلى أن أدفع رجلاً إلى تحقيق أهداف سامية ! عند ما رأيته وعرفت أنك تود أن تصبح من أصدقائي اعتقدت - ودعني أعترف لك - أن ذلك الرجل قد يكون أنت . ولكنك تعتنق الكثير من المعتقدات بنيسة طيبة بحيث لا أدري ما ذا أقول » .

— « حسن أيتها العزيزة . ولكنني أعتقد أن على المرء أن يثق في صدق بعض الأمور فالحياة قصيرة ولن تتمكن من البرهنة على صدق كل شيء قبل الثقة بهذا الشيء . لناخذ المسيحية » .

— « بل خذ شيئاً آخر » .

— « أنت على حق . ومن الجائز أنني فسرت في ذلك فعلاً ! » وكان حينئذ يفكر في علاقته بأرابيلا .

ونظرت إليه في اطمئنان وبدأ كأنما صوتها يحاول التفتاد إلى صدره ثم قالت :



« ان ألع عليك فى السؤال إء سيعامل كل منا الآخر معاملة رقية وان يسىء كل منا الآخر أو يضايقه بعد الآن . أليس كذلك ؟ » .

قال : « سةظلمن دائماً موضع اهتمامى » .

— « وسةظلم أنت أيضاً كذلك لأنك سليم الطوية غافر لأخطاء عزيزتك الصغيرة المشاكسة « سو » .

وأشاح بوجهه عنها إء عذبه ما بدا منها من رقة يجهل أصلها . أكانت تلك الرقة هى نفسها التى حطمت قلب الصحفى التعس ؟ هل دوره هو قادم ؟ ولكونها كانت عزيزة على قلبه ! وتمنى لو استطاع أن يتغلب على شعوره بأنها امرأة كما تغلبت هى فى سهولة على شعورها بأنه رجل . ولو نجح فى ذلك لأصبحت بالنسبة إليه رفيقا نادر المئال حيث أن اختلافهما فى الرأى حول موضوعات جدلية ليس له من نتيجة سوى التقريب فيما بينهما فى أمور الحياة . لقد كانت أقرب إليه من أى امرأة أخرى فلم يدر بخلده أن الزمن أو العقيدة أو بعد الشقة يمكن أن يفصله عنها .

غير أن حزنه على عدم إيمانها بمتدساته عاوده مرة أخرى . وظلا فى مكانهما حتى داهمها النعاس ثانية وأخذته هو الآخر سنة من النوم . وكلما استيقظ أزاح ملبسها وأخذ يحرك النار فى المدفأة من جديد . وحوالى السادسة نهض من مكانه وأشعل شمة فوجد أن ثيابها جفمت تماما . ولما كان المقعد الذى تجلس فيه مريحا أكثر من مقعده ، فقد ظلت نائمة داخل معطفه الكبير ككعكة طازجة ساخنة أو غلام من الذين عاشوا فى بلاط الإله « زيوس » . وبعد أن وضع بجوارها ملبسها ضربها بيده على كتفها ضربة خفيفة ثم نزل السلم وأخذ يتمشى فى فناء الدار سابحا فى ضوء النجوم .

( ٥ )

وعند ما عاد إلى غرفته كانت قد ارتدت ملابسها فقالت له : « هل أستطيع أن أغادر البيت الآن دون أن يرانى أحد ؟ لم تستيقظ المدينة بعد » .  
— « ولكنك لم تأكل شيئاً » .

— « لا أريد أن آكل شيئاً . ليمتنى لم أهرب من تلك المدرسة فالأمور في ضوء النجم — بار تبدو مختلفة تماماً . أما ما الذى سيقوله السيد « فيلوتسون » فهذا ما لا أعلمه ! كان التحاقى بتلك الدار تحفة رائعة لرغبته هو وإنه الرجل الوحيد في العالم الذى أكن له الاحترام ، بل إنى أشعر نحوه بالخوف . أرجو أن يعفو عى وإن كنت أتوقع منه تعنيفاً شديداً » .

وشرع « جود » يقول : « سأذهب إليه وسأشرح له » .

— « أوه لا . لا تذهب . لا يهمنى رأيه . ليظن فى ما يريد وسأفعل ما يحلو لى » .

— « ولكنك قلت الآن فقط ... » .

— « حسن . ولكننى سأفعل ما أحب مهما تكن الظروف . فكرت فيما سأفعله . سأذهب إلى شقيقة إحدى زميلاتى فى دار المعلمات وكانت قد دعته لزيارتها فى بيتها . لديها مدرسة فى « شاستون » التى تبعد ثمانية عشر ميلاً عن هذا المكان وسأبقى هناك حتى تنتهى هذه الزوبعة ثم أعود مرة أخرى إلى دار المعلمات » .

وفى اللحظة الأخيرة نجح فى أن يجعلها تقبل منه قدحاً من القهوة صنعه لها على موقد صغير يحتفظ به فى غرفته لإستخدامه . عند نهوضه فى الصباح وذهابه إلى عمله قبل أن يستيقظ أفراد البيت الذى يسكنه

قال : « والآن إليك ما أتبلغين به مع القهوة وبعدها نغادر البيت . تستطيعين أن تتناول فطوراً كاملاً عندما تصلين إلى هناك » .

وغادرا المنزل في هدوء وصحبها إلى المحطة . وبينما الإثنان يسيران في الطريق ، برزت رأس من أحد النوافذ العليا في البيت ثم اختفت سريعا ، كان يبدو على «سو» أنها ما زالت آسفة على ما بدر منها من تسرع كما تمننت لو أنها لم تتمرد على النظام ! وعندما انفصلا أخبرته أنها سوف تتصل به بمجرد أن يعاد قيدها ضمن دار المعتلات . وعلى رصيف المحطة وقفا سويا وعلى وجهيهما ارتسمت مظاهر التماسية ، وكان من الواضح أنه أراد أن يقول لها أكثر مما قال . . وعندما وصل القطار قال لها في عجلة : « أريد أن أقول لك شيئا . بل أريد أن أقول شيئين أحدهما حسن والآخر ردىء ! »

قالت : « جوده ، إنى أعرف أحدهما ولا يجدر بك أن تفعل ! »

— « أفعل ماذا ؟ »

— « لا يجوز لك أن تقع في حبى . أريد منك أن تمطف على . وهذا يكفى ! » .

وامتلا وجهه بشقى الإنفعالات الحزينة إلى حد أنها اضطربت وأخذتها الشفقة عليه وهى تتطلع إلى منظر وجهه من نافذة القطار مودعة . وتحرك القطار وبعد أن هزت يدها الجميلة اختفت ولم يعد يراها .

كانت « ملشستر » فى يوم الأحد الذى غادرتها فيه «سو» مدينة مقبضة بالنسبة إلى «جوده» الذى عاف النظر إلى حى الكاندرائية ولم يقصد إلى الكنيسة مرة واحدة . وفى الصباح التالى تسلم منها خطابا كتبته له بدقتها المعهودة بمجرد وصولها إلى منزل صديقتها أخبرته فيه بوصولها وبالمكان المريح الذى حلت فيه وأضافت تقول : « إن ما أكتب لك عنه أيها العزيز « جوده » هو فى الواقع أمر أبلغتك إياه لحظة فراقنا . كنت معى آية فى الطيبة والإخلاص وعندما اختفيت عن ناظرى أحسست فى قرارة نفسى بمدى ما فى ذلك الذى أبلغتك به من قسوة وعقوق . ومنذ تلك اللحظة صار ذلك القول يعذبنى فلو أردت أن تحببى يا « جوده » فإليك ما تريد ولن اعترض أبداً عليه ولن أطلب منك مرة ثانية أن تكف عنه ! والآن لن

أتحدث إليك في هذا الموضوع مرة أخرى . وكل ما أطلبه منك أن تغفر لصدقتك قسوتها وغفلتها ، والألا تسبب لها النجاسة بقولك إنك لا تغفر لها .

ومن نافلة القول أن نذكر هنا ما أجاب به « جود » على هذا الخطاب وما خيل إليه أن يفعله لو أنه كان متمتعاً بحريته فلو أنه كان حراً لما تركها تعيش في بيت صديقة لها . أحس بأن من حقه إن كان يثنى بالنصر في حالة نشوب صراع بينه وبين « فيلوتسون » حول أيهما يحق له أن يمتلكها .

على أية حال ، أوشك « جود » أن يحمل خطاب «سو» القصير الموجز أكثر مما يحتمله .

وبعد بضعة أيام وجد نفسه منساقاً وراء أدل خادع هو انتظار خطاب آخر منها ولكنه ظل ينتظر دون جدوى . وبتأثير شعوره العميق بالوحدة ، أرسل إليها خطاباً آخر أوضح فيه رغبته في زيارتها في يوم من أيام الآحاد إذ كانت المسافة التي تفصلهما لاتزيد على ثمانية عشر ميلاً .

وفي اليوم التالي لليوم الذي أرسل فيه خطابه انتظر رداً ولكنه لم يتسلم شيئاً . وجاء اليوم الثالث ولم يحضر موزع البريد وكان يوم السبت . ولما كان « جود » في حالة من القلق يرثى لها ، أرسل إليها خطاباً تصيراً يقول فيه إنه سوف يحضر في اليوم التالي إذ كانت نفسه تحذره بأن شيئاً وقع . وخطر له أول ما خطر ، وهو الشيء الطبيعي في موقف كهذا ، أنها مرضت من جراء خوضها في مياه النهر ، ولكنه سرعان ما فكر في أن شخصاً آخر لا بد أن يرأسها في ظرف كهذا . هذه التكهينات وضع حداً لها وصواه إن مدرسة القرية في ناحية « شاستون » ذات صباح صاف في يوم من أيام الآحاد ، وكان وصوله بين الحادية عشرة والثانية عشرة عندما تكون الناحية خالية من الناس إذ في تلك اللحظة يتجمع الجزء الأكبر من السكان داخل الكنيسة حيث يرتلون وينشدون .

وفتحت له فتاة صغيرة وقالت : الآنسة « برايدهيدي » في الدور العلوى من المنزل . هل تفضل بالصعود إليها ؟

قال « جود ، في لطفة : « هل هي مريضة ؟ »

— « إنها ليست على ما يرام ولكن مرضها ليس بالخطير . »

ودخل المنزل وارتقى السلم وعند ما وصل إلى الطابق العلوى سمع صوتاً يرشده إلى الطريق وكانت « سو » هي التي نطقت بإسمه . وعند ما فتح أحد الأبواب وجدها ترقد على فراش صغير في غرفة ضيقة . صاح وهو يرتجى بجانبها ويتناول يدها بين يديه : « يا أسفاه » يا سو ، كم حدث ذلك الملم لم تكتبي إلى ؟ .

قالت : « أصبت بنزلة من نزلات البرد الشديدة وكان في وسعي أن أكتب إليك غير أنني لم أرد ذلك » .

— « ولم لم تكتبي ؟ لم تخيفيني هكذا ؟ » .

— « نعم وهذا ما كنت أخشاه ولكنني قررت ألا ، ألا أكتب إليك مرة أخرى . رفض القوم في دار المعلمات أن يقبلوني ثانية وهذا هو السبب في أنني لم أستطع أن أكتب إليك » .

— « وماذا بعد ذلك ؟ » .

— « رفضوا أن يقبلوني . ليس هذا لحسب بل إنهم قبل مغادرتي للدار تعطفوا على بنصيحة » .

— « وما هي ؟ » .

ولم تجب إجابة مباشرة بل قالت : « أقسمت ألا أذكر لك شيئاً يا « جود » ، يا له من أمر مهين محزن » .

— « وهل الأمر متعلق بنا ؟ » .

— « نعم » .

— « ولكن لا بد أن تخبريني » .

— « زودهم بعض الناس بأخبار عنا لا أساس لها من الصحة وعلى ذلك

اعتقدوا بأننا لا بد أن نزوج بأسرع مما نستطيع التقاداً لسمعتي ! ها أنذا أخبرتك بكل شيء . وليتني لم أفعل ! .

— « مسكينة أنت يا دسو ، ا ، ا . »

— « ولكنى لا أنكر فيك على هذه الصورة ! خطر لي فعلاً أن أنظر إليك بالطريقة التي يظنون أنني أنظر بها إليك . واسكنني لم أشرع في ذلك بعد . اكتشفت أن علاقة القرابة التي بيننا لم تكن سوى علاقة صورية فقط ، طالما أننا تقابلنا وتصرفنا كما يفعل الغرباء . أما عن زواجي منك أيها العزيز « جود » فاعلم ، لو أنني كنت أفكر في ذلك ، ما كان ينبغي لي أن ألتقي بك كثيراً . ما خطر ببالي قط أنك تفكر في الزواج مني حتى كان ذلك المساء عندما بدأت أظن أنك تضر لي شيئاً من الحب . ما كان ينبغي لي أن أرفع معك السكفة إلى ذلك الحد . الخطأ خطئي وأنا الملوثة دائماً ، . »

وبدا الحديث بينهما يفقد حيويته واندفاعه وشرعا ينظر كل منهما إلى الآخر نظرة فيها حزن وأسى ، واستمرت تقول : « كنت مغمضة العينين . في مبدأ الأمر لم ألاحظ شعورك أبداً نحوى . كم كنت قاسية في معاملتي على اعتبار أنني محبوبتك فلم تنبس بكلمة وتركنتي حتى اكتشفت ذلك بنفسى ! لقد أصبح سلوكك معي معروفاً للجميع فظن الآخرون بالعابح أننا نأتى أمراً نلام عليه . إنني لن أبقى بك بعد الآن ! ، »

وقال في بساطة : « نعم يا دسو ، إننى المألوم أكثر مما تظنين . كنت حتى قبيل مقابلتنا الأخيرة أدرك تماماً أن الشك فيما أحسه نحوك من عاطفة لم يتطرق إليك . إننى أعترف أن تلاقينا كغريبين حجب عنا الشعور بالقرابة وكانت هذه إحدى الحيل التي لجأت إليها معك . ولكن ألا تظنين إننى استحق منك العطف لأخفائي انفعالاتي الخاطئة ، الخاطئة جداً ، طالما لم يسكن لي حيلة فيها ؟ ، . »

وأدارت له عينيها وكان فيهما ما ينم عن الشك ثم اتجهت بوجهها بعيداً عنه كما لو أنها تخشى الصفح عنه .

ووفقا لكل قانون من قوانين الحياة والحب كانت القبة هي الرد الوحيد الذى يتفق وحاجاتها النفسية وطبيعة تلك اللحظة . الرد الذى . بتأثير إغرائه ، قد تغير «سو» من اهتمامها المتحفظ من نحوه . وبعض الرجال فى موقف كهذا سرعان ما يضربون بوساوسهم عرض الحائط ويقدمون على مثل هذا العمل متناسين شيئين أحدهما تصريح «سو» بشأن مشاعرهما الحيادية وثانيهما التسجيلاين الخطيئين المحفوظين داخل خزانة الكنيسة الواقعة فى الناحية التى تعيش فيها «أرايلا» . أما وجوده فلم يأت عملا كهذا والواقع انه جاء ليخبرها عن فاجعة حياته . كانت القصة دلى طرف لسانه ومع ذلك فى لحظة هذا الشقاء لم يقو على البوح بها بل فضل أن يظل محتفظا بالحوائل المعترف بها والقائمة بينهما .

وقال فى حزن : « طبعاً أعرف أنك لاتهتمين بى أى اهتمام خاص . بل ينبغى ألا تهتمى بى وأنت على حق فى ذلك . إنك تخصصين السيد « فياوتسون » ، وأظن أنه زارك أخيراً ؟ » .

وقالت فى إيجاز وقد تغير وجهها : نعم وإن كنت لم أطب منه المحي . طبعاً أنت مسرور لذلك ولستكننى ان أهتم لو أنه انقطع عن المحي . » .

وكان من الأمور المحيرة لجود ، وهو العاشق الولهان ، أن تضطرب محبوبته لاستسلامه البري لمنافسه ، وفى نفس الوقت تستهجن منه أن يكشف لها عن شعوره بحبها . وانتقل من ذلك إلى شىء آخر .

— « أيتها العزيزة «سو» ستمر هذه الأزمة سراعاً . إن المهيمنين على دار المجلات ليسو هم العالم بأجمعه وفى مقدرك بكل تأكيد أن تلتحقى بأى معهد آخر .

وقالت فى حزم : « سأطلب مشورة السيد فياوتسون » .

وعادت من الكنيسة تلك السيدة الرحيمة التى استضافت «سو» فى منزلها . وعندئذ انضرم جبل الحديث العاطفى . وعند الأصيل رحل «جود» وقد

امتثلت نفسه بتعاسة لاسبيل معها إلى رجاء ، غير أنه رأى محبوبته وجلس معها وتحدث إليها . واتصال كهذا يمكن أن ينجح الرضا الكامل بقية حياته أما تنازله عن حقوقه العاطفية فيها فكان درساً هاماً وضرورياً لمن كان قسيساً ناشئاً وكان عليه أن يتعلمه .

وفي اليوم التالي عندما استيقظ من نومه شعر بالحنق عليها وقرر أنها غير محقة ، بل إنها متقلبة . وعقب ذلك مباشرة وصله منها خطاب جاءه في حينه كمثل على نزعتها النفسكيرية التي بدأ يتهين معالمها في شخصيتها . أما الخطاب فلا بد أنها كتبت به بمجرد رجيله عنها :

« اغفر لي سورة الغضب التي تملككتني بالأمس ا كنت بالنسبة إليك شيئاً غايه في القبح . أعرف ذلك وأنا لهذا أحس بتعاسة شاملة . وكان كريماً منك ألا تغضب . . أتوسل إليك أن تظل على صداقتك لي برغم أخطائي ونقائصي وإني أعدك وعداً صادقاً أن أعمل على تعديل سلوكي .

اني قادمة إلى « ملشستر » يوم السبت كي أستعيد حوائجي من دار المعلمات وفي استطاعتي أن أقضي معك نصف ساعة ، لو رغبت في ذلك .

( صديقتك النادمة على ما بدر منها )

أما « جود » فقد صفح عنها في الحال وطلب منها عندما تأتي أن تمر عليه . حيث يعمل في إصلاح أبنية الكاتدرائية .

( ٦ )

في غضون ذلك ، كان رجل في أوسط العمر يحلم حلماً رائع الجلال يدور حول كاتبة الخطاب السابق . إنه « رتشارد فيلوتسون » معلم القرية الذي انتقل حديثاً من المدرسة الصغيرة المشتركة في « لمسدون » القريبة من « كريستيمينيستر » إلى مدرسة للصبيان أكبر منها في « شاستون » مسقط رأسه وتقع فوق تل يبعد



عن «كرايستمينستر» ، ستين ميلا إلى الجنوب الغربي مباشرة .

وبجرد النظرة العابرة إلى المكان وما يحويه من أدوات تكفي للدلالة على أن مشروعات المعلم وأحلامه التي طالما استهوته بسحرها ، زالت وحل مكانها غيرها لانتم بصلة للكنيسة أو الأدب . وبالرغم من أن المعلم كان يميل في صميمه إلى البعد عن الواقع ، وأنه اتجه الآن إلى كسب المال وادخاره لغرض عمل هو البناء بزوجة قد تدير - لو ارادت - إحدى مدارس البنات القريبة من مدرسته ولمثل هذا الغرض تقدم «لسو» ناصحا إياها بالإلتحاق بالتدريب العملي ولا سيما أنها ما كانت لتزوجه في عجلة

وحوالى الزمن الذى انتقل فيه «جود» من «ميريكرين» إلى «ميلشستر» حيث اندفع مع «سو» فى مغامرات ، كان المعلم فى «شاستون» يستقر فى الدار الجديدة لمدرسته . وبعد أن فرغ من تنظيم الأثاث ووضع السكتب فوق الرفوف ، ودق المسامير ، بدأ يجلس فى غرفته فى ليالى الشتاء المظلمة ويحاول استئناف دراساته القديمة التى تضمن فرع منها دراسة الآثار الرومانية البريطانية . وأنها لدراسة لاجدوى منها لمعلم بالمدارس الابتدائية ، وإن كانت تحوى مادة تلافيلوتسون دراستها باعتبارها معينا للعرفة لم يستغل بعد ، وخاصة بعد انصرافه عن مشروعه لاستكمال دراسته الجامعية ، وباعتبارها أيضا موضوعا عمليا مناسباً لأوائك الذين عاشوا حياتهم ، وهو منهم ، فى مناطق منعزلة تكثر فيها هذه الآثار التى تكشف عن الأفكار السائدة عن مدينة ذلك العهد .

كان استئناف الدراسة فى الوقت الحاضر المظاهر الخارجى الواضح لهواية «فيلوتسون» - والسبب الظاهرى لخروجه وحيدا إلى الحقول حيث تكثر السدود والخزانات والمصاطب ، كما كانت الداعى إلى سجن نفسه فى البيت مع عدد من الأوعية الفخارية والألواح القرميدية ، بدلا من التردد على منازل جيرانه الجدد الذين كثيرا ما أظهروا رغبتهم فى مصداقته . ولكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقى أو كل السبب ، على أى حال . وهكذا حدث فى أمسية من الشهر

عندما تقدم الوقت كثيرا - إلى ما يقرب من منتصف الليل - على أقل تقدير - كان مصباح يشع ضوءا من نافذته ويرسله على زاوية حادة مع قمة التل ناشرا إياه على مساحة واسعة من أرض الوادى الواقع إلى الغرب ، معلنا كما لو كان كلاما عن أن الشخص المنهمك في الدراسة في ذلك المكان لم يكن كذلك تماما .

وكانت الغرفة بما تحويه من كتب وأثاث ومعاطف وجلسة المعلم إلى المائدة ، وحتى ومضات النار في المدفأة ، تعلن نفس القصة النبيلة التي تدور حول الدراسة الدائبة المتصلة وهي تشرف كثيرا شخصا يخلو من مزايا تفوق ما كونها بجوده ، ومع ذلك ، فتلك القصة التي ظلت حقيقية حتى وقت قريب ، لم تعد كذلك الآن . فما كان ينظر إليه باهتمام لم يسكن تاريخا بل كان مذكرات تاريخية مكتوبة بخط نساى جرى وسبق أن أملاها قبل الآن ببضعة أشهر وهو الآن منهمك في قراءتها ومراجعة كتبها كلمة كلمة .

فن أحد الأدراج تناول لفافة مجزومة في عناية زائدة وتحوى عددا من الخطابات يعد صغيرا لو قورن بما يسكتبه الناس الآن . كان كل منها داخل مظروفه الذى جاءت فيه والكتابة عليه تحوى نفس الحروف النسائية التي كتبت بها المذكرات التاريخية . وتناول المظاريف واحدا بعد الآخر وقرأ ما بداخلها في استغراق شديد . وللهالة الأولى بدا كأن تلك الوثائق الصغيرة لا تتضمن شيئا خليقا بكل ذلك الإهتمام فكلها خطابات بسيطة صريحة ينتهى كل منها بتوقيع «سو» . . . . ولإنها الخطابات قريبة الشبه بتلك التي يسكتبها الناس من حين إلى آخر ويتوقعون لها أن تمزق عقب قراءتها مباشرة . الجزء الأكبر في كل منها يدور حول قراءة الكتب وغيرها من أنواع النشاط الثقافى الذى يدور داخل جدران دار من دور المعلمات ، وهي معلومات سرعان ما ينساها كاتبها بمجرد انتهاء اليوم الذى كتبت فيه . وفي إحدى هذه الرسائل - وكانت تحمل تاريخا قريبا - ذكرت كاتبته أنها تسلمت خطابا رقيقا منه أشارت فيه إلى نبل أخلاقه إذ قال إنه إن اذهب لرؤيتها أكثر مما ترغب في ذلك . . . ( فلم تسكن دار المعلمات بالمسكن الذى يجد فيه الزائر ترحيبا ) ، وبذا حقق رغبته العميقة في ألا يذاع خبر خطبتها وهو أمر

لابد أن يحدث لو تكررت زيارته لها . وظل المعلم يطيل النظر إلى تلك الفقرات ويسأل نفسه أى أثر من آثار الرضا يمكن أن يستخلصه من عبارات الشكر والجل الدالة على عرفان الجميل التى تشدق بها إحدى النساء بينما هى لا تسمع لحبيبتها بالحجى . لرؤيتها ؟ لقد شغفته المشبكة كثيرا .

وفتح درجا آخر فوجد فيه منظروفا أخرج منه صورة « لسو » وهى ما زالت بعد طفلة ، قبل معرفته لها بزمن طويل ، وكانت تقف تحت تكعيبية وفى يدها سلة صغيرة . ثم أخرج صورة أخرى لها وهى شابة وشعرها الناعم وعيناها السوداوان تؤلف صورة غاية فى الجمال وتفصح أيضا عما يكن وراء مظهر الخفة البادى عليها من عقل راجح . وكانت الصورة نسخة أخرى من تلك التى أهدتها « لجود » يمكن أن تهديها إلى أى إنسان آخر . وقرب « فيلوتسون » الصورة من شفتيه واسكنه سرعان ما أبعدهما عنهما عندما برزت أمام عينيهِ الفقرات المحيرة التى قرأها فى خطاياها . غير أنه فى النهاية أخذ يقبل الصورة فى حرارة وقوة تدرى بعاطفة شاب فى الثامنة عشرة من عمره .

كان وجه المعلم ينم عن ضعف صحى وتخلف واضح عن روح العصر زادت منه طريقتة فى حلاقة ذقنه وتهذيب لحيمته . وكانت تبدو عليه آثار خفيفة لرقه موروثه توحى برغبة عميقة فى عمل الخير وسلوك الصراط المستقيم . وحديثه يميل إلى البطء واسكن نبرات صوته تكشف عن براءة تنأى بالبطء عن مظنة العيوب . أما شعره الذى وخطه الشيب فى كل انحنائه فكان مجمعا ينبثق منه البياض من نقطة تقع فى مركز الرأس . وكان من عادته عندما يعكف على القراءة ليلا أن يضع فوق عينيهِ عوينات . أما زهده فى النساء فرجعه إلى انهماكه فى الدراسة وليس كراهيته لهن ، وحال هذا الإنهماك دون أن ينشئ بواحدة منهن .

يمثل تلك الاجراءات الصامتة تكرر حدوثها كثيرا فى عديد المرات عندما يكون فى منأى عن أنظار تلاميذه الصغار الذين كثيرا ما تصبح نظراتهم الحاطفة النفاذة شديدة الوطأة على المعلم الشديد الإحساس بذاته أثناء اهتمامه المحموم الراهن

«سو» بما جعله في ساعات النهار الأولى يهرب أن يقابل من جديد النظرات الثاقبة خشية أن يقرأوا سر الحلم في نفسه .

وبكل شهامة نزل على ما أبدته «سو» من رغبة في ألا يزورها في دار المعلمات ولكنه عندما وجد أخيراً أن صبره أو شك على النفاد خرج في أصيل أحد أيام السبت كي يفاجئها بالزيارة ، وهناك نزل عليه خبر رحيلها عن دار المعلمات نزول الصاعقة - وهو إجراء فسر بأنها طردت منها - وعندما عاد تعذرت عليه رؤية الطريق أمامه .

والواقع أن «سو» لم تكتب الخطيبها سطوراً في الموضوع بالرغم من أنه كان قد مضى عليه أربعة عشر يوماً . ودله تفكير قصير على أن أمراً كهذا لا يثبت شيئاً بل إن حرجاً طبيعياً يمكن أن يكون سبباً مناسباً لاصمتها إزاء موضوع كهذا فلا ملامة هناك .

وفي دار المعلمات أخبروه بالمكان الذي كانت تعيش فيه . ولما كان لا يخافه الشك في تصرفاتها ، اتجهت أفكاره ناحية أخرى هي ناحية الهيئة المشرفة على دار المعلمات فحنق على تلك الهيئة حنقا شديداً . وفي حيرته دخل «فيلوتسون» الكاتدرائية الملاصقة ، وكانت في تلك اللحظة في حالة فوضى شاملة بسبب الإصلاحات وجلس فوق قطعة كبيرة من الحجر الهش دون اعتبار لما قد يعلق بملابسه من تراب بينما عيناه الزائغتان تتبعان حركات العمال وسرعان ما أدرك أن المذنب ذائع الصيت «جود» عشيق «سو» من بين هؤلاء .

لم يكن «جود» قد تحدث إلى بطل طفولته منذ أن تقابلا بجوار نموذج أورشلیم . ولما كان قد أطلع على غير قصد منه على محاولة المعلم ، في الطريق الضيق للتودد إلى «سو» ، نمت في نفسه كراهية عجيبة للتفكير في شخص المعلم أو الإلتقاء به أو الإلتصال به على أى صورة من الصور . وعند أن نجح «فيلوتسون» في أن يجعل «سو» تعده ، وهذا أضعف الإيمان ، بالزواج منه ، ومنذ أن عرف «جود» بأمر هذا الوعد ، أدرك فيما بينه وبين نفسه أنه لا يرغب في رؤية المعلم أو الإلتتماع

إليه أو الإطلاع على ما يعنده لمستقبله من خطط ، أو حتى مجرد التفكير في الصفات الممتازة التي تتميز بها شخصيته . وفي نفس يوم زيارة المعلم كان «جود» يتوقع مجيء «سو» كما سبق أن وعدت . على هذا عندما وقع نظره على «فيلوتسون» وهو جالس على صخرة داخل الكنيسة ولحبه وهو يتقدم نحوه ليتحدث إليه ، أحس بشيء غير قليل من الإضطراب الذي لم يلاحظه «فيلوتسون» نظرا لما أصيب به هو الآخر من ارتباك .

والتقى الإثنين ثم انسحبا من أمام العمال متجهين إلى البقعة التي سبق أن جلس فيها «فيلوتسون» وقدم «جود» للمعلم قطعة من قماش سميك بعد أن نصحه ألا يجلس على الصخرة مباشرة .

قال «فيلوتسون» وهو يلقى بحمده على الصخرة وعيناه مستقرتان على الأرض في ذهول كما لو كان يحاول أن يتذكر أين هو : « نعم . نعم . إن أبقى معي وقتاً طويلاً ، كل ما في الأمر أنني سمعت أنك شاهدت أخيراً صديقتي «سو» الصغيرة فخطر لي أن أتحدث إليك في هذا الشأن . أود فقط أن أسأل عنها » .

قال جود في عجلة : « أظن أنني أعرف ما تريد ! أنت تسأل عن هربها من دار المعلمات وعن التجائها إلى ؟ »

— « نعم » .

— « حسن » .

وأحس جود لفترة برغبة شديدة تتعارض وكل مبدأ شريف في أن يدمر منافسه بأي ثمن . وعن طريق تقمصه لروح الحديعة والشر التي يلدها ، في قلب أكثر الناس تمسكا بالفضيلة ، الحب للبراءة ذاتها التي يحبها الشخص الآخر ، يستطيع «جود» أن يلحق بفيلوتسون من ألوان العذاب والحزيمة الشيء الكثير ، لو أنه فقط قال إن الفضيحة حقيقية وإن «سو» سارت معه شوطا بعيدا يصعب عليها بعده أن تكرر راجعة . ولكنه لم يستجب أبدا لهذا الدافع الغريزي ولم يزد عن أن قال : « يسرنى ما بدا منك من عطف دفعك إلى أن تأتي إلى متحدثنا

في صراحة عن هذا الأمر . أنت عليم بما يتقول الناس به . يقولون إنه ينبغي لي أن أتزوجها .

— « ماذا ! »

— « واني لأرغب في ذلك بكل جوارحي . »

وارتجف « فيلوتسون » ، وانكتسبت خطوط وجهه الأصفر صرانة كبتك التي ترسم على وجوه الموتى وقال : « لم يخطر ببالى أن الأمر على هذه الصورة ! يا الله ، لا تقل هذا ! »

قال « جود » مرتاعا : « لا — لا ! ظننت أنك فهمت ما قصدت إليه . قصدت أنني لو كنت في موقف يسمح لي بأن أتزوجها — هي أو أية امرأة أخرى — ثم أعيش حياة مستقرة بدلا من الحياة القلقة التي أعيشها الآن ، فإن ذلك لا بد أن يدخل السعادة على نفسي . »

وكل ما قصده في الحقيقة هو أنه بكل بساطة يحبها .

قال « فيلوتسون » ، في حزم من بفضل مجابهة الموقف بكل ثقله على معاناة مائتي به الأيام من آلام التوقع الطويل المرير ، ولكن طالما أن هذا الموضوع المؤلم أثير قل لي بربك ماذا حدث ؟ ثمة حالات — وهذه منها — لا بد أن تثار فيها بعض الأسئلة المحرجة حتى يمكن التغلب على الشكوك والإدعاءات الكاذبة . وحتى يمكن القضاء على عناصر الفضيحة . »

وهنا شرع جود يفسر ما حدث ويسرد الحوادث التي وقعت لهما وما صحبها من مغامرات ، ومنها الليلة التي أمضيها سويا في كوخ الراعي ، واستقباله لها في غرفته وقد غمر الليل جسدها ، وتوعكها بسبب سيرها في ماء النهر فترة طويلة ، والمناقشات التي تبعت ذلك ، ثم وداعه لها في الصباح التالي . وعندما فرغ من حديثه قال « فيلوتسون » : « حسن الآن واني أصدقك القول في كل شيء كما أوافق على ما تقرره من أن الشكوك التي أدت إلى ابتعادها عن دار المعلميات لا تقوم على أساس . »

قال « حود ، في لهجة قاطعة : « والأمر كما ذكرت تماما وأشهد الله على ذلك » ،  
ونهر المعلم وكان كل منهما يحس بأن موضوع المقابلة لا يمكن أن يؤدي بهما  
إلى الدخول في حديث آخر يتسم بالود والصداقة ويتناولان فيه ما وقع لها أخيرا  
من أحداث الحياة ، كما يفعل الأصدقاء عندما يلتقون . وبعد أن صحبه « جود »  
إلى داخل الكاتدرائية القديمة ليريد عينات من الإصلاحات الجارية فيها ، ودع  
« فيلوتسون » رفيقه الشاب وتمنى له يوما طيبا ثم رحل .

وكانت هذه الزيارة حوالى الحادية عشرة صباحا ولكن «سو» لم تأت . وعندما  
ذهب جود للغداء في الواحدة بعد الظهر رأى معبودته تقطع الطريق الخارج  
من منطقة « نورنجيت » وتسير كما لو كانت لا تنوى البحث عنه . وبعد أن لحق  
بها مسرعا قال لها إنه سبق أن دعاها لزيارة الكاتدرائية التي يعمل فيها ووعدت  
بالجئ .

— « ذهبت إلى دار المعلمات لاستعيد بعض الأشياء الخاصة بي هناك ، كان  
من المتوقع أن يقبل هذا الكلام على اعتباره أنه رد على تساؤله وإن لم يكن كذلك .  
ولما وجدها راغبة في مراوغته والتخلص من الرد على أسئلته ود أن يخبرها بما ظل  
يخفيه عنها حتى هذه اللحظة . أخيرا استجمع أطراف شجاعته وقال : « ألم تقابلي  
السيد « فيلوتسون » اليوم ؟ » .

— « لا . لم أره . ولكنني لا أقبل أن يحقق لإنسان معنى بسببه ، ولو وجهت  
إلى أسئلة أخرى في هذا الشأن فلن تحظى منى بأية إجابة » .

— « من الغريب أنك - ، ثم توقف عن الحديث وهو يحدها بنظرة .  
— « ماذا ؟ »

— « إنك في مجلسك لست بالرفقة التي تتسمين بها في خطاباتك ؟ »

قالت وهي تبسم ابتسامة تتم عن الفضول الشديد : « أحقا أبدو لك هكذا ؟  
يا للغرابة ! . ولكنني أشعر نحوك بنفس الشعور إذ بمجرد أن رحلت عقب  
تلاقينا أحسست بشيء من خيبة الأمل . . . »

ولما كانت تعرف حقيقة شعوره نحو ما رأى أنهما بدأ يسيران على أرض خطيرة وخیل إليه أن الوقت حان كي يتكلم كرجل شریف . غير أنه لم يتكلم ، واستمرت تقول : « هذا الشعور بخيبة الأمل هو ما جعلني أكتب اليك قائلة إنني لا أعارض في أن تحبني لو كانت هذه رغبتك ! »

إن ما قد يحس به « جود » من سرور غامر لما يتضمنه هذا الكلام أوحى ما يبدو أنه يتضمنه ، أضاع تأثيره في نفسه ما اتجه إليه عزمه وقر عليه قراره . لقد ظل في مكانه ساكنا إلى أن شرع يقول :

— « لم يسبق لي أن أخبرتك قط - »

وتمتت تقول : « نعم لقد قلت . »

— « أقصد أنني لم يسبق لي أن أخبرتك بقصة حياتي الماضية - بكل تاريخي السابق . »

— « ولكنني أستطيع أن أقرر . إنني أعرف هذه القصة على وجه التقريب ، »

ورفع « جود » إليها وجهه وفي عينيه تساؤل : هل يمكن حقا أن تكون على علم بزواجه من أرايلا ذلك الحديث الذي تم في ذلك الصباح وترتب عليه أن حال دون زواجه من « سو » بشكل يفوق ما يمكن للدوت أن يفعله ؟ لقد رأى في عينها أنها لا يمكن أن تكون على علم بذلك .

وظفق يقول في لهجة حزينة : « لا أستطيع أن أحدث إليك في شأن كهذا ونحن هكذا في الطريق العام ويجدر بك ألا تأتي معي إلى حيث أقيم ، وعلى ذلك لندخل إلى هذا المكان . »

كان البناء الذي وقفوا أمامه سوق المدينة ، وهو المكان الوحيد الذي تيسر لها دخوله وعلى ذلك دخلا وكان السوق انفض وخلت أفنيته من الناس ، كان يفضل أن يذهب معها إلى بقعة أكثر رقة وإسكن ، كما يحدث عادة ، فبدلا من أن يتوجها إلى مرج شاعري في أحضان طبيعة باسمة أو إلى مكان تحفه مهابة الدين وقديسية



العبادة حيث يقص عليها قصته ، أخذها إلى سوق المدينة وأخذ يسرد عليها حكاية حياته وهما يسيران فيه ذهاباً وجيئة فوق أرض مغطاة بأوراق الكرب التالفة وبين أكوام القاذورات المتخلفة من الخضروات المتعفنة والبقايا المتجلمة . وبدأ قصته القصيرة وختمها عند نهاية معينة ألا وهي أنه تزوج قبل سنوات وأن زوجته ما زالت على قيد الحياة . وقبل أن تتضح الإنفعالات على وجهها أسرعت بالكلام قائلة : « ولم لم تخبرني قبل الآن ؟ »

— « لم أقو على ذلك إذ كان من القسوة على نفسي أن أذكر هذه القصة » .

— « كان من القسوة على نفسك أن تذكر هذه القصة لذا فضلت أن تكون قاسياً على ولا تذكرها لي » .

وصاح يقول في عنف : « كلا أيتها العزيزة الحبيبة » . وهم يتناول يدها واسكنها سجنها من بين يديه ووضح لجأه كأنما مظاهر الثقة القديمة التي سادت بينهما تلاشت وانتهى أمرها وبقيت عداوة الجنس للجنس دون فرض من فروض التخفيف المبني على التوازن النسبي . كانت قبل تلك اللحظة زميلته وصديقتها ولم تعد كذلك الآن . وأخذت عيناها ترمقانه في صمت غريب ، واستمر يقول : « عرائي الحجل من حياتي بسبب تلك الواقعة التي أدت إلى إتمام الزواج . لا أقوى على تفسير تلك الواقعة الآن بدقة وكان في استطاعتي أن أفعل ذلك لو أنك نظرت إليها بطريقة أخرى .

واندفعت تقول وهي تضرب الأرض بقدمها في حركة عصبية عنيفة : « ولكن كيف أستطيع ؟ هاأنا قلت أو كتبت ما معناه إنني أسمح لك بأن تحبني ، أو شيئاً من هذا القبيل ! — وها قد بدا لي أن مسلكك من نحوى كان من قبيل العطف على . واحسرتاه لي ! » .

— « أنت تخطئين فهمي يا «سو» ! ما اعتقدت قط أنني أكون موضع اهتمامك وظللت كذلك إلى وقت قريب ، لذا قلت لنفسي لا يهم سواء أخبرتك

بهذه الواقعة أم لا ! وهل تحسبن نحوى بشيء من الإهتمام يا «سو» ؟ أنت تعرفين ما ذا أقصد بذلك ! أنا لا أحب كلمة العطف هذه .

وكان هذا سؤالاً لم ترد أن تجيب عليه في موقف كهذا .

ولكنها قالت في لهجة متسائلة سريعة : « أعتقد أنها - زوجتك - لا بد أن تكون آية في الجلال ، حتى لو كانت شريرة ! » .

— « إنها جميلة بالدرجة المألوفة » .

... « أجل منى لا شك ! » .

— « استمنا متشابهين في أقل القليل وما رأيتهما قط منذ سنين عديدة ولكنهما لا بد أن تعود يوما وإِنَّهن يفعلن ذلك دائماً » .

وقالت وشفقتها المر تعشتان تكشفان ، مع صوتها المتحشرج ، عما في نفسها من مرارة : « ما أغرب أن تظل بعيداً عنها هكذا ! أنت يا من تعد نفسك لخدمة الدين . كيف يمكن إذن للآلهة التي تتعبد في محرابها - أقصد تلك الشخصيات الخرافية التي تسميها بالقديسين - أن تشفع لك بعد ذلك ؟ والآن لو كنت أنا التي أقدمت على عمل كهذا لكان الأمر مختلفاً تماماً وغير ملفت للنظر إذ أنني على الأقل لا أعتبر الزواج من الأسرار المقدسة للكنيسة . إن نظرياً لك ليست على درجة من التطور كتطبيقاتك ! » .

— « سو . أنت لاذعة القول جارحة عند ما تودين أن تسكوني كذلك .

أنت كفولتير تماماً ! ولكن لا مفاصل من أن تعاملي كما تهوين ! » .

وعند ما رأت كم هو تعس خففت من حنقها عليه وقالت وفي صوتها كل التأنيب الذي يصدر عن امرأة جريحة القلب : « كان ينبغي أن تحبرني قبل أن توحى إلى بالسماح لك بأن تحبني ! لم أحسن نحوك ، قبل تلك اللحظة التي كنا فيها سوياً في محادثة السكة الحديد ، سوى - ، ولأول مرة أحسست بالانعاسة ، شأنها في

ذلك شأن ، جود ، وهى فى غمار محاولاتها كى تنأى بنفسها عن الإفعالات وقلا  
كلت جهودها بالنجاح .

وأخذ يتوسل إليها ويقول : « لا نبكى أيتها العزيزة ا » .  
— « أنا لا أبكى لأننى قصدت أن أحبك ، ولكنى أبكى لقلة  
ثقتك بى ا » .

ولما كانا داخل السوق محتفين تماماً عن أنظار المارة فى الخارج ، سمح لنفسه  
بأن يمد ذراعه كى يضمه حول خصرها وكانت هذه الحركة منه كفيلة بأن تعيدها  
إلى سابق عهدا فقالت وهى تراجع فى سرعة وتمسح عينيها : « لا ، لا . طبعاً  
لا . من النفاق الإدعاء أن هذه الحركة صادرة من قريب لقرييته ولا تمنى  
شيئاً آخر ا » .

وسارا فى طريقهما مسافة أخرى وبدا عليها أنها استرجعت رباطة جأشها .  
وكان قلبه لا بد أن يتوجع بدرجة أقل لو أنها بدت أمامه شخصاً آخر . لقد  
عرفها راجحة العقل واسعة الأفق برغم ما يبدو منها أحياناً من انفعالات  
وشطحات نسوية مناجئة لا بد منها لتدعيم مقومات الجنس عندها .

وقالت وهى تبسم : « إنى لا ألومك على أمور بدت منك دون قصد  
لذا ما أغبائى لو فعلت ا بل إنى ألومك هوأ لإخفائك الأمر عنى . على أى  
حال لا يهم ذلك كثيراً فالواجب أن يبتعد كل منا عن الآخر حتى لو خلت حياتك  
من ذلك الأمر » .

— « لا وما ينبغى لنا أن نفعل ذلك فهذه هى عقبتنا الوحيدة ا » .

قالت « سو » فى لهجة جادة ولكنها رقيقة فلم تكشف عما يحول فى خاطرها :  
« أنت تنسى أنه كان لا بد لى أن أحبك وأنتى أردت أن أكون زوجتك حتى  
للم تكن هناك عقبة ، ثم أدركنا أننا أبناء عمومة واحدة ومن غير المعقول أن  
يتزوج هؤلاء ثم إتنى بخطوبة لشخص آخر . أما عن استمرار العلاقات بيننا ،

وهي علاقات تنمو في جو من الود والصدقة ، فالناس من حولنا لا بد أن يحولوا دون استمرارها حيث أن آراءهم بشأن العلاقات بين الرجل والمرأة لا شك قاصرة كما يدل على ذلك حادث طردى من المدرسة . إن فلسفتهم لا تعترف إلا بالعلاقات القائمة على أساس من الرغبة الحيوانية . أما ميدان الاتصالات القوية العميقة ، وهو الميدان الواسع الذى تلعب فيه الرغبات الحيوانية دوراً ثانوياً - ما اسم هذا الدور ؟ هل نسميه دور الزهراء . لآلهة الملا الأعلى ؟ إن الناس لا يقيمون لهذا الدور وزناً .

ودلت قدرتها على الحديث المتزن المثقف على أنها أصبحت سيدها مرة أخرى . وقبل أن يفرقا استعمادت نظرتها الدالة على الحيوية ، ونفعتها المتأرجحة بين قطبين ، وسلوكها الرائع ، ورقتها في نقد الآخرين الذين هم من سنّها وجنسها والعطف على نقائصهم ومواضع قصورهم .

وهنا أصبح . جود ، قادراً على الحديث المنطلق فقال : « هناك أسباب عديدة حالت دون إخبارك . أول هذه الأسباب ما سبق أن قلت . أما ثانيها فهو ما كنت أعتقده دائماً من أننى ينبغي ألا أتزوج لأننى سليل أسرة غريبة في طباعها ، شاذة في أطوارها ، وهذا النوع من الناس لا يصلح للزواج » .

— « آه ومن علمك ذلك ؟ » .

— « قريبة عجوز وكانت تقول إن زواج أفراد أسرة « فاولى » ينتهى دائماً نهاية محزنة » .

— « هذا عجيب . كان أبى دائماً يقول نفس الشيء » .

ووقف الإيمان وقد تسلطت عليهما نفس الفكرة بكل قبجتها حتى على اعتبار أنها شيء مضمّر لا يرقى إلى مستوى الحقائق المدوسة . وحتى لو كان من الممكن أن ينشأ بينهما زواج فلا بد أن يعنى ذلك إحداث أمر غير لائق كما هو الحال عند ما نضع المر في الحنظل .

وقالت في خفية : « أوه . ولكن ليس هذا بالشئ الغريب . كان أفراد

أسرنا في الأعوام الأخيرة سيئ الحظ في اختيار الأزواج والزوجات وهذا كل ما في الأمر .

وبعد ذلك نظاهر الإنسان بأن كل ما حدث بينهما لا أهمية له ، وأنهما ما زالوا قادرين على أن يتصرفا على اعتبار أنهما من أسرة واحدة وعلى أن يكونا صديقين حميمين ، وأنهما ما زالوا قادرين على قضاء أوقات سعيدة جميلة عند ما يلتقيان حتى لو قلت مرات لقاءهما . لقد افترقا وهما على أتم ما يكون صداقة ، ومع ذلك كانت نظرته الأخيرة إلى عينيها مشبعة بالسؤال إذ شعر أنه ، حتى تلك اللحظة ، لم يدرك طبيعة أفكارها .

## ( ٧ )

وبعد هذا بيوم أو يومين جاءت الأخبار عن « سو » فعصفت به كأنها إعصارات .

وقبل أن يقرأ الخطاب الذي حوى تلك الأخبار ، توقع أنه من نوع جاد نوعا عندما وقع بصره على التوقيع في أسفله وكان باسمها كاملا ، ولم يسبق لها أن استخدمته على هذه الصورة في مراسلاتها إليه :

عزيزى « جود » :

لدى ما أخبرك به وقد لا يدهشك سماعه وإن كان بكل تأكيد سيصدمك باعتباره « خدمة سريعة » ( وذلك كما تقول شركات السكك الحديدية عن قطاراتها ) . سأتزوج من السيد « فيلوتسون » وسيتم ذلك في موعد قريب غايته ثلاثة أو أربعة أسابيع . كانت خطتنا كما تعلم الإنتظار حتى أنتهى من دراستي في دار المعلمات وأحصل على درجتى العلمية وبذلك يمكننى أن أعاونه في عمله لو استمدى الأمر ذلك . غير أنه أصبح يعتقد الآن أنه ما من فائدة ترجى من الإنتظار طالما أننى لم أعد ملتزمة بدار المعلمات . إنى شاكرة له هذا الصنيع إذ أن سوء موافى نتج عن

خطئى فى أننى عرضت نفسى للطرد من تلك الدار . فسكر فى وتمنى لى السعادة  
ولا تنس ذلك أبدا ولا ترفضه ....

### قريبك المحبة

« سوزانا فلورانسى مارى برايد هيد »

وانهار «جود» تحت وطأة الأخبار ولم يستطع أن يتناول فطوره وظل يشرب  
الشاي إذ كان فيه غاية فى الجفاف وأخيرا عاد إلى عمله وراح يباو الحياة كما يبيلوها  
من هم فى مثل موقفه مطلقا ضحكات ساخرة مرة . لقد تحول كل شئ فى عينيه إلى  
سخرية لاذعة ومع ذلك ، ماذا كان فى وسع الفتاة المسكينة أن تفعل غير هذا ؟  
أخذ يسأل نفسه هذا السؤال ولكنه أحس أن البكاء أفضل .

وفى أثناء عمله كان يقول : « إنك يا سوزانا فلورانس مارى ! لا تدربن للزواج

معنى . . .

أيمكن أن يكون ما ذكره خاصا بـ «واجه من » أرابيلا ، هو الدافع لها على  
ساوك هذا المسلك ، كما كانت زيارته لها وهو يخوض الدافع لها على عقد خطوبتها ؟  
بكل تأكيد هناك تلك الأسباب العملية والاجتماعية التى أدت بها إلى اتخاذ هذا  
القرار . غير ان «سو» لم تسكن بالإنسان ذى الميول العملية الذى يقيم للحياة  
حسابا تفصيليا دقيقا لذا اضطر إلى الاعتقاد بأن شعورا خفيا استولى عليها عقب  
اطلاعها على سره ودفعها إلى الخضوع لمحاولات « فياوتسون » للتقرب منها ، كما  
دفعها إلى الاعتقاد بأن أفضل طريق تتبعه للبرمنة على مدى مجانية شكوك إدارة  
المدرسة للحقيقة هو أن تزوجه دون تمهل باعتبار أن عملا كهذا هو النهاية  
الطبيعية لخطوبة عادية . لقد كانت فى واقع الأمر فى مأزق صعب . يا اسو المسكينة !

وضمم على أن يكون شهما فيتغلب على ضعفه ويتف بجوارها ولكنه لم  
يقو على الكتابة إليها متمنيا لها السعادة كطلبها وظل كذلك يوما أو يومين وفى  
نفس الوقت جاءه خطاب آخر من معبودته الصغيرة القلقة :

« جود »

هل تصحبنى إلى المذبح يوم زفانى ؟ لا أعرف شخصا آخر يستطيع أن يفعل ذلك على الوجه الأكمل كما تستطيعه أنت حيث أنك الشخص الوحيد من أقربائى المتزوج فى هذه الناحية ، حتى لو كان والدى على علاقة طيبة معى بحيث يقبل القيام بهذا العمل ، وهو ليس كذلك . كل ما أرجوه ألا ترى فى هذا العمل ما يضايقك فتشت فى كتاب الصلاة عن قداس الزواج ويبدو أن الأمر يبعث على الشعور بالمذلة لضرورة وجود فرد من ألصق الناس بى كي يصحبنى إلى المذبح . ينص قداس الزواج ، كما جاء فى كتاب الصلاة ، على أن عرسى اختارنى بمحض إرادته ووفقا لرغبته ولـكننى لا أختاره وعلى ذلك لابد من شخص يصحبنى ويسلبنى إليه كما لو كنت حمارة أو معزة أو أى حيوان مستأنس آخر . ايرحم الله آرائك المثل عن المرأة أنت ابن الكنيسة ورجل الدين ! ولـكننى نسيت فليس من حقى الآن ان اضجرك بدعابتى .

المحبة دائما

سوزان فلورانس مارى برايد هيد

واستجمع جود قواه مستلهما كل شجاعته وكتب يقول :

عزيزتى « سو » . . .

بكل تأكيد أتمنى لك السعادة ! وبكل تأكيد أيضا سوف أصبحك إلى المذبح فى يوم زفافك ، أود أن أقترح عليك اقتراحا . لما كنت بلا دار خاصة بك لا يجوز أن تخرجى إلى عرسك من دار صديقك وخطيبك والأوفى أن يكون خروجك من دارى وهذا ما أعتقد أنه أمر ضرورى طالما أننى — كما نقوين — أقرب الناس إليك فى هذا الجزء من العالم . لا أفهم لم توقعين خطابا منك بهذه الطريقة الخالية من دفء الصداقة وهى طريقة جديدة على . أنا واثق من أنك مازالت تمنحني بعض اهتمامك !

المحب لك دائما

« جود »

أما ماضيقه وأمضه أكثر من التوقيع فكان لدغة صغيرة أحس بها تؤلمه وظل صامتا حيالها ، ألا وهي الفقرة القائلة : الشخص المتزوج الوحيد . من أقربائي ، أى غرابله جعلته هذه الفقرة يبدو في عيني نفسه بادعائه أنه حبيبها ! لو ذكرت هذه الفقرة على سبيل المزاح لصعب عليه الصفع عنها . ولو ذكرت ما وهى تعانى حقا من شدة ، فهذا إذن شيء آخر !

لابد أن يكون اقتراحه بشأن خروجها إلى عرسها من بيته صادف هوى في قلب « فيلوتسون » ، إذ أنه أرسل إليه يشكره في حرارة ويعطى قبوله للفكرة وكذلك فعلت « سو » . وفي الحال انتقل إلى مكان آخر أكثر لياقة وذلك لكي يتحاشى فضول صاحبة المنزل ، وكانت كثيرة الشكوك من جهة بقدر رغبته في أن يحصل على مكان أكثر اتساعا ولائق بالمناسبة .

وكتبت تخبره بميعاد الزواج المقرر ، بعد الإتصال بها ، أن تأتى للإقامة عنده لابتداء من السبت التالى وهذا معناه أن يكون أمامها فسحة من الوقت تقدر بعشر أيام تقضيها في المدينة قبل الحفل المرتقب .

وفي اليوم المذكور جاءت بقطار العاشرة ولم يذهب لمقابلتها في المحطة نزولا على رغبته حتى لا يفقد بسببها عمل الصباح وأجره . هكذا قالت ( لو كان ذلك هو السبب الحقيقي ) ولسكنه أصبح بطيئتها خبيرا إلى حد أنه لو أشار إلى قابليتها للتأثر أثناء الأزمات العاطفية فقد يسىء ذلك إليهما إساءة بالغة . وعندما عاد إلى البيت وقت الغداء كانت قد استقرت تماما في الجزء الخاص بها من المنزل .

وفي نفس المنزل عاشت معه ولكن في طابق آخر . وكان الإثنين يلتقيان قليلا على العشاء ، وهو الوجبة الوحيدة التي تناولاها سويا ، وكان سلوكهما معه شبيها بسلوك طفل دائم الهلع . لم يكن يعرف شيئا عن شعورها فكان حديثهما آليا برغم أنها لم تكن تبدو متوعدة أو مريضة .

وكان « فيلوتسون » يأتى من حين إلى آخر ولكن حضوره على الأغلب في



اثناء غياب «جود» . وفي اليوم المحدد للزواج منح «جود» نفسه إجازة وتناول مع قريبته فطوره تلك هي المرة الأولى والأخيرة وخلال تلك الفترة العجيبة التي فيها يتناول الطعام معها في غرفته وكان قد استأجر ردهتها طول الفترة التي أقامت في بيته . وعندما رأت . كما هي عادة النساء مدى عجزه عن جعل المكان مريحا ، نهضت ونالت الأمر بنفسها .

وقالت فجأة : ماذا بك يا «جود» ؟ «وكان يتسكى» بمرفقيه على المائدة وذقنه فوق يديه متطلعا بعينه إلى بعيد كما لو انه ينظر إلى مستقبله مرسوما على نسيج المفروش أمامه .

— «أوه لاشيء» .

— «أنت اليوم أب . هكذا يسمون الرجل الذي يتولى تسليم العروس إلى عريسها» .

وكان في مقدوره ان يقول . إن عمر «فيلوتسون» قد يؤهله لاحراز هذا اللقب . ولكنه أثر الا يضايقها بهذا الرد الرخيص .

وظلت تتحدث دون توقف كما لو أنها تخاف ان تتركه غارقا في تفكيره . وقبل ان ينتهيا من تناول الطعام ندم كل منهما على أنه وضع ثقته في النظرة الجديدة للامور وودا لو أنهما تناولا طعامهما منفردين . ان ما عذبه وملا جوانحه هو أنه بالرغم من ارتكابه للخطأ بزواجه يأتي الآن ليعاون المرأة التي يحبها على الوقوع في الخطأ عينه ، وذلك بدلا من ان يحذرها من هذا الخطأ ويعاونها على أن تكون بمنأى عنه . كان على وشك ان يقول :

«وهل حقا قر قرارك ؟» .

وبعد أن فرغا من تناول الطعام غادرا المنزل في مهمة مشتركة وسارا سويا بفكرة أن تلك هي فرصتهما الأخيرة للاستمتاع بصداقتهما البريئة ، وبينما الإثنان يسيران في الشارع الموحد ، أخذت بذراعه وكأنما أوحى بهذه الحركة الأقدار

الساخرة وطبيعية « سو » العجيبة وقدرتها على إثارة الشجون في اللحظات الحرجة .  
لم يكن سبق لها القيام بمثل هذه الحركة قط . وعندما دلفا حول زاوية الطريق  
وجدتا نفسيهما بجوار كنيسة رومانية ذات أبراج عالية وسقوف منحدره وكانت  
كنيسة القديس توما . .

قال « جود » : هذه هي الكنيسة .

.. « حيث تقام طقوس زواجي ؟ »

.. نعم . .

واردفت تقول في فضول : حتما ! كم أود أن أدخل وأرى المكان الذي ان  
يمض وقت طول حتى أسجد فيه إتماما لتلك الطقوس :

ومرة أخرى قال في نفسه : « إنها لا تدرك معنى الزواج ! » .

وبدون معارضة من جانبه نزل على رغبتهما ودخل الإثنان الكنيسة من  
بابها الغربي وكان الشخص الوحيد في داخل البنداء الموحش عجوز تقوم على  
أعمال التنظيف و « سو » ما زالت تمسك بذراعه كما لو كانت تمسك بذراع شخص  
تهم به حبا . كانت بالنسبة إليه هذا الصباح مخلوقا حبيبا حلوا حلالة جارحة ،  
والكن تفكيره فيما ينتظرها من عقاب لإقدامها على أمر لا تعتقد فيه ولا تقره  
خفف عليه تذكره لما في قول الشاعر من ألم :

« لا أدري من أين تأتي ضربات كتلك التي تهوى فوق هامات الرجال ،  
ولا أستطيع أن أمتحن صفات الانوثة فيك »

وأخذ الإثنان يسيران على مهل في صمت محترقين بهو الكنيسة ومتجهين إلى  
حاجز المذبح حيث وقفا أمامه في صمت ثم استدارا عائدين وما زالت يدها حول  
ذراعه كأنهما زوجان ، زفا حديثا .

وكاد حضورهما إلى هذا المكان ، وهي المسؤولة الوحيدة عن ذلك يؤدي إلى ،  
تخطيم نفس « جود » .

فقات في صوت رقيق النغمات كصوت ذلك الالبيقورى في لذته وفي لهجتها  
دليل قاطع على صدقها : لاني أحب أن أفعل أشياء شبيهة بتلك . قال « جود » :  
« أعرف ذلك فيك ! »

— « مثل هذه الأفعال تفرحني لأنها قد تكون جديدة على . سأسير في بهو  
الكنيسة وبجاني زوجي . أليس كذلك ؟ »

— « لا شك أن ذلك سيحدث ! »

— « هل كان الأمر يختلف عن ذلك عندما تزوجت ؟ »

— « رحماك يا «سو» لا تكوني قاسية لهذا الحد - اصفحي عن أيتها العزيزة ،  
فما قصدت لإيلا ملك . »

قالت في حزن وتندت عيناها بالدموع : « آه ، ها أنا أراك منفعلا ولقد وعدت  
ألا أضايقك قط . وأعتقد أنه ما كان ينبغي لي أن أطلب منك أن تأتي معي إلى  
هذا المكان . قطعاً ما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك . وضع الأمر لي الآن . إن  
رغبتي الملحة في الجرى وراء المشيرات الجديدة كثيراً ما تقودني إلى هذه المآزق .  
سأعني ولاني اعلى ثقة من أنك ستفعل . أليس كذلك يا « جود » ؟ »

كان رجاؤها قويا حاراً إلى درجة أن عيني « جود » فاض فيهما الدمع بينما كان  
يضغط على يدها علامة الموافقة .

— « والآن لنبتعد عن هذا المكان سريعاً ولانتي لن أعود إليه مرة أخرى ! »  
ثم خرجا من البناء وسممت بوجهها شطر المحطة حيث تلتقي بفيلوتسون ولكن أول  
شخص قابلاه عند بلوغهما الطريق الرئيسي كان المعلم نفسه حيث جاء قطاره أسرع  
مما توقعت «سو» . لم يكن ثمة ما يعترض عليه في اتكاه «سو» على ذراع «جود»  
ولكنها سحبت يدها من ذراعه بسرعة وخيل إلى « جود » أن الدهشة بانث على  
وجه « فيلوتسون » . قالت وهي تبسم في براءة : « كنا نقوم بأعمال غاية في الظرف  
والإمتاع ذهبنا إلى الكنيسة حيث قمنا بتجربة لاحتفال الزواج . أليس كذلك  
يا « جود » ؟ » .

قال « فيلوتسون » في دهشة : « وكيف . كان ذلك ؟ »

وندم « جود » في قرارة نفسه على ما ظنه صراحة من جانبها لا لزوم لها .  
غير أنها سارت في كلامها شوطا بعيدا بحيث أصبح لزاما عليها أن تفسر كل شيء .  
وهذا ما فعلته بالتفام حيث أخبرته كيف سارت هي وهو في هو الكنيسة الداخلي  
حتى وصلا إلى المذبح .

وعندما رأى « جود » شعور الحيرة والاضطراب على وجه « فيلوتسون »  
قال محاولا أن يكون ظريفا مرحا : « سأشتري لها هدية أخرى صغيرة فهل لي كما  
أن تأتيا معي إلى حيث نبتاعها ؟ »

قالت : لا . بل إنى عائدة إلى المنزل في صحبة « فيلوتسون » .  
وبعد أن طلبت من « جود » ألا يبقى خارج البيت طويلا رحلت مع  
« فيلوتسون » .

وسرعان ما اجتمع بهما « جود » . وبعد وقت قصير أخذ ثلاثتهم يعدون  
العدة لحفل الزواج فشرع « فيلوتسون » يمشط شعره تمشيطة قويا شاملا واهتم  
ببياقة قميصه بحيث بدت صلبة . بل إنها بدت أصاب مما كانت في السنوات العشرين  
الماضية . وفيما عدا ذلك بدت عليه المهابة وجلال الفكر وكل ما ينبغي . بأنه  
يحب « سو » حتى العبادة فكان ذلك واضحا ، ومن الواضح أيضا أنها تحس بعدم  
استحقاقها لكل ذلك الحب الكبير .

وعلى الرغم من أن المسافة بين البيت والكنيسة كانت غاية في القصر فإن  
« فيلوتسون » استأجر عربة صغيرة ، وتجمع أمام البيت فريق من  
النساء والأطفال .

وكانت « سو » وعربسها يجهاوين من النساء . أما « جود » فكان معروفا  
لبعض من ظنوا أن العروسين من أقربائه جاءا من مكان بعيد ولم يخطر ببال أحد  
أن « سو » كانت حتى وقت قريب طالبة بدار المعلمات .

وفى العربة أخرج « جود » من جيبه هديته الصغيرة التى سبق أن وعد « سو » بها وكانت قطعة من قماش التل الأبيض ألقاها فوق قبعتهما فانسلت على وجهها وجسدها كتنار رقيق .

قالت : « تبدو هذه الغلالة وهى فوق القبعة غاية فى عدم الانسجام لذا سأخلعها » .

« أهـ كلا . لا تخليعيها » . قال « فيلوتسون » ذلك فامتثلت لكلامه .

وعندما وصل الجميع إلى الكنيسة وقفوا فى أماكنهم وجد « جود » أن الزيارة التى قامت بها « سو » فى صحبته قللت كثيرا من رهبة الموتف ولكن بعد أن كاد قداس الزواج يصل إلى منتصفه ود من كل قلبه لو أنه لم يقبل القيام بمهمة تسليمها إلى الحريس . كيف جرئت وطلبت منه فى تهور أن يقوم بذلك العمل رغم ما ينطوى عليه من قسوة على نفسها وعليه كذلك ! فى مثل هذه الأمور يختلف النساء عن الرجال اختلافا بينا .

أنتكون الحقيقة أنهما ، بدلا من أن يكونا أكثر حساسية كما شاع عنهما وذاع ، كانا أكثر تبادا فى الإحساس وأقل شعورا فى مثل هذا الموتف ! أو هل كان كل منهما شديد الرغبة فى الظهور بمظهر البطولة ؟

أو هل كانت « سو » بكل بساطة على درجة من الشذوذ النفسى بحيث استمرت لإيلاام نفسها وإيلاام لجرد إشباع لذتها فى ممارسة عادة قديمة لديها وهى تعذيب ذات نفسها ؟ وهل مست شغاف قلبها الشفقة عليه فعمات على دفعه إلى ممارسة مثل هذه العادة ؟ كان فى استطاعته أن يلحظ أن ملامح وجهها أصابها التوتر وعندما حانت اللحظة الحرجة ، لحظة قيامه بتسليمها إلى « فيلوتسون » لم تقو على السيطرة على نفسها . وقد يكون السبب فيما اعتراها من ضعف مضاجىء هو إدراكها لشعور قريبها الذى مادته للاشتراك فى مناسبة كهذه إلا بواقع من تقدير ذاتها وقد يكون مما انتوته أن تظل هكذا فى غيها الهادف إلى تعذيب

غيرها مرة بعد مرة وإلى إثنان أجساد ضحاياها بالجراح مرة بعد أخرى كنتيجة حتمية لشذوذها وتمردا .

وبدا على « فياوتسون » أنه لا يلاحظ شيئا وكأنه محاط بغمامة تحول بينه وبين رؤية انفعالات الآخرين . وبمجرد أن تم التوقيع بالاسماء ، وأشرف الموقف الحرج على غايته ، أحس « جود » بالراحة تسرى في مسارب نفسه .

أما الطعام في بيته فانهى بعد فترة وجيزة ، وفي الساعة الثانية خرج العروسان وعندما عبرا إفريز الشارع إلى حيث تقف العربات التفتت « سو » خلفها وشاعت في عينيها ومضة تدل على الذعر . أيمكن أن يكون سبب ذلك ما أقدمت عليه من تصرف ينطوى على حماقة شاذة في نوعها ولا تدرى هي إلى أى مدى ستقودها ؟ كل ذلك لجرد تأكيد استقلالها عن شخصيه بل الانتقام منه لعدم اطلاعها على سره ؟ وقد تسكون بطبيعتها محبة للخامرات مع الرجال لأنها كانت على جهل كجهل الطفلة لذلك الجانب من طبيعتهم الذى تبلى في سبيله قلوب النساء وحياتهن !

وعندما وضعت قدمها على سلم العربة استدارت وهي تقول إنها نسيت داخل المنزل شيئا . وتطوع كل من « جود » وصاحبة المنزل لإحضار ذلك الشيء ، غير أن « سو » قالت وهي تعود ركضا : « لا لأنه منديل وأعرف أين تركته » .

وتبعها « جود » إلا أنها عادت بمسكة به . وتطلعت في عينيها بعينيها الممتلئتين بالدموع ولجأة انفرجت شففتها كما لو أنها توشك على أن تجاهر بشيء . ولكنهما سارت في طريقهما . ومهما كان ذلك الشيء الذى تنوى أن تقوله فقد بقى في صدرها دون أن تتلفظ به .

## ( ٨ )

تساءل « جود » في عجب هل نسيت منديلها حقا ؟ أو أنها راغبة في التحدث إليه عن حب ولم تتمكن في اللحظة الأخيرة من حمل نفسها على البوح به ؟ وبعد أن رحلا عنه لم يقو على البقاء في بيته الذى أصبح يخيم عليه السكون .

ولما كان يخاف العودة إلى إغراق همومه في الشراب ، صعد إلى أعلى المنزل واستبدل بملابسه الداكنة ملابس أخرى بيضاء وبمخداته الخفيف آخر ثقيلًا وتوجه إلى عمله كالمعتاد ليمضى فيه النصف الباقي من النهار .

ولسكنه في الكاتدرائية خيل لإليه أنه يسمع صوتًا خلفه واستولت عليه فكرة أنها لابد عائدة . وأوحى له خياله أنها قد لا تذهب إلى بيت « فيلوتسون » وأخذ هذا الشعور ينمو في نفسه ويتحرك . وبمجرد أن دقت الساعة معاندة نهاية عمله ألقى بأدواته واندفع راجعًا إلى منزله يسأل . « هل جاء أحد يطلبني ؟ » .

ولم يكن هناك إنسان .

ولما كان من حقه أن يستخدم غرفة الجلوس أسفل الدار حتى الثانية عشرة من ذلك المساء ، ظل فيها طول المساء . وحتى عندما دقت الساعة دقائقها الإحدى عشرة وآوى أهل المنزل إلى فراشهم ، لم يستطع أن يبعد عن نفسه الشعور بأنها لابد عائدة لتنام في غرفتها الصغيرة الملاصقة لغرفته والتي سبق أن نامت فيها أياما عديدة . كانت تصرفاتها دائما من النوع الذي لا يمكن التنبؤ به فلم لا تأتي ؟ كان مستعدا عن طيب خاطر أن ينزع عن عقله فكرة أنها حبيبة قلبه وزوجه رجل آخر لو أنها فقط عادت إلى بيته لتعيش فيه كشريك في السكن وصديق دون أدنى التزام من جانبها . وكان طعام عشائه ما زال في مكانه على المائدة لم يمس ، وبعد أن خرج إلى الباب الأمامي وفتحته في رفق عاد إلى مكانه حيث جلس كما كان يجلس حراس الليل في قصة : « أمسيات منتصف الصيف » في انتظار طيف المحبوب .

وبعد أن تمادى في هذا الأمل الغريب ، صعد إلى أعلى المنزل وأطل من النافذة وأخذ يرى بعين الخيال فتاته وهي في رحلة المساء إلى لندن حيث تتجه مع « فيلوتسون » لقضاء إجازة قصيرة ، وأخذ يتصورهما سائرين في ثاقل في سدول الليل الرطيب ميممين شطر الفندق تحت نفس السماء التي يتطلع إليها الآن وامتدت فيها الفيوم ، ويرى أجزاء من القمر دون أن يتبين شكله ، بينما نجمة أو نجمتان

فقط من النجوم الكبيرة ، ظهرت له كحجابه سديمية واهنة الكيان . وأخذ يتخيل بداية جديدة لحياة « سو » وذلك لأنه أطل بعقله على المستقبل فشاهد ما وهى تقف وسط غدد من الأطفال الذين يشبهونها فى كل شيء . غير أن عزاء النشار إلى أولئك الأطفال وتأملهم باعتبار أنهم تخليد دائم لشخصها هى واستمرار أ كيد لمقومات وجودها حرم عليه كما حرم على جميع الملائين من أمثاله المائين وراه المثل الآلى وذلك بتدبير من الطبيعة التى لارد لأحكامها فقد حكمت ألا يكون الإنجاب من جانب واحد فقط ، رجل كان أو امرأة ، بل حتمت أن يكون تخليد الجنس عن طريق الامتزاج بين كائنين عضوين ، على ما فى ذلك من اعتداء على نقارة المنصر الواحد متمثلا فى الكائن العضوى . قال : « لو ضاعبت منى سديميتى أو طواها الردى لسميت إلى طفلها - طفلها هى وحدها - وبهذا تراح نفسى ا » وبهذا رأى ثانية فى مشقة ، كما رأى أخيرا فى تواتر متزايد استتار الطبيعة لعواطف الإنسان الرقيقة وعدم اهتمامها بأمانيه وطموحه .

وظهر حبه العاقى لسو فى الصباح والأيام التالية وازداد وضوحا . لم يعد يتحمل نور مصابيح « ميلشستر » وكان ضوء الشمس كإطلاء الباهت وزرقة السماء كعدن الزنك . ثم سمع أنباء عن قريبتة العجوز فى حالة سيئة من المرض فى « ميريجرين » ، ومع هذه أنباء أخرى حملها إليه خطاب جاءه من رئيسه السابق فى « كرايستمينيستر » يعرض عليه وظيفة دائمة لو أنه عاد للعمل عنده . وكانت الخطابات بالنسبة إليه تفريحا لسكريته . وذهب ليوزر « دروزيللا » العجوز ومن هناك قرر أن يرحل إلى « كرايستمينيستر » ليتحقق بنفسه من الفائدة التى تعود عليه لو أنه قبل ما عرضه عليه مخدومه السابق هناك ،

وجد عمته أسوأ بكثير مما أوضحه خطاب الأرملة « إلدن » وأدرك أن هناك احتمالا كبيرا - وإن لم يصل الأمر إلى درجة القطع - أن الضعف الذى تعاني منه سيظل عدة أسابيع بل شهور . وكتب إلى « سو » يخبرها بحالة العجوز ويسألها عما إذا كانت تود أن تراها قبل موتها واقترح عليها أن تهرع لمقابلته فى مساء اليوم التالى ، وكان يوم الإثنين ، عند طريق « الفردستون » أثناء عودته من



« كرايستمينيستر » وذلك لو تمكنت من اللحاق بالقطار الذى يلتقى بقطاره فى محطة « الفردستون » . وفى الصباح التالى ذهب إلى « كرايستمينيستر » وفقاً للخطة معتزماً مغادرتها إلى « الفردستون » بأسرع ما يستطيع حتى يلحق بمحبوبته .

وبدت له مدينة العلم فى هذه المرة غريبة إذ شعر كأنه أضاع كل الأحاسيس التى تربطه بها . ومع ذلك ، فبينما كانت الشمس ترسل أشعة نضرة وتنسج ظلالاً فوق الإنشاءات الهندسية والأشكال الزخرفية التى تزين وجهاً الأبنية وترسم صوراً الأبراج ونماذج للقباب فوق الثيل الأخضر الجديد النامى وسط مربع الكليات ، خيل إليه أنه لم يسبق أن رأى المكان أجمل وأبهى مما كان عليه فى تلك اللحظة .

وذهب إلى المكان الذى وقع نظره فيه على « سو » لأول مرة فرأى نفس المقعد الذى سبق أن شاهدها وهى تجلس فيه مكبة على رسومها الكنسية ، وهما يرى بعين خياله يدها وهى تقبض على فرشاة التاوين وقوامها الذى استحوذ على انتباهه عندما رآها لأول مرة . وكان الفراغ يحتمل مكانها الآن كما أنما فارقت الحياة ولم يعد ثمة من يقوم مقامها فى ذلك العمل الفنى الدقيق . أما شبحها فأصبح الآن الشيخ الوحيد فى المدينة كلها ، بينما أشباح رجال النسكر والدين التى أخذت مرة بجماع نفسه لم تعد قادرة على فرض وجودها الآن هناك .

ومهما يكن من أمر فها هو هناك . وتحقيقاً لما اعتزمه ، سار إلى مسكنه القديم فى « بيرشيدا » بالقرب من كنيسة « القديس سيلاس » المعروفة بطقوسها . أما العجوز صاحبة المنزل فبدأت على وجهها السرور لرؤيته . وعندما أحضرت له شيئاً من الطعام ، حيث كان الوقت ظهراً ، أبلغته أن مقول البناء الذى سبق أن استخدمه جاء يسأل عن عنوانه .

وتوجه إلى الساحة التى عمل فيها ولكنه سرعان ما شعر أن الحظائر والموائد والأدوات أصبحت شكلها بغيضاً لديه وأحس باستحالة عودته إلى المكان الذى أصبح الآن يضم بقايا أحلامه الضائعة ، واشتأقت نفسه إلى اللحظة التى يستقل فيها القطار المتجه إلى « الفردستون » عليه يقابل « سو » .

وبعد ذلك ، ولمدة نصف ساعة مشؤومة من العذاب والحزن خلفته في نفسه تلك الآثار المؤلمة ، عاوده ذلك الشعور الذي أشقاه كثيراً والذي جعله يعتقد في قرارة نفسه أنه لا يستحق ما يبذل في سبيله من جهود تستهدف صالحه سواء صدرت عنه أو قام بها الآخرون . وفي أثناء نصف الساعة هذه قابل « تيلر » السمكري المفلس الذي اقترح عليه أن يذهباً معها إلى أحد المشارب العامة لاحتساء الشراب . وسار الاثنان في الطريق إلى أن توقفا أمام مركز من أعظم مراكز « كرايستمينستر » الخائفة بالحياة وهو الحان حيث سبق له أن قبل ما وجه إليه من تحد دفعه إلى أن يتلو قانون الإيمان باللاتينية . ذلك الحان أصبح الآن نزلاً معروفاً له مدخل واسع جميل يؤدي إلى مشرب جدد تجديداً شاملاً وأعيد تأثيثه على طراز حديث منذ كان « جود » يسكن هذه المدينة .

واحتسى « تيلر » كأسه ورحل بعد أن قال إن المكان لم يعد يناسبه لفقدانه مسحة القدم التي كانت طابعه المميز . أما « جود » فلم يفرغ من كأسه بنفس السرعة بل وقف صامتاً ينظر حوله بعينين زائغتين وكان المكان حتى تلك اللحظة يكاد يخلو من الرواد . والجزء الخاص بتقديم الشراب انتزع من مكانه وأعيد تنظيمه من كل نواحيه وحلت قطع الماهوجني الجديدة المصقولة محل الأجزاء القديمة المغطاة بالطلاء السكتيب ، بينما رصت الأرائك المحشوة في مؤخرة الفسحة التي كان يقف فيها زبائن المكان . وكانت القاعة العامة مقسمة بالطريقة التقليدية إلى مقصورات تفصل الواحدة عن الأخرى حواجز زجاجية داخل إطارات من الماهوجني المصقول حتى لا يتعرض الجالسون داخلها للخجل والارتباك عندما تأتي الصدف بالمعارف قتلقتي العيون بالعيون ، وفي داخل المقصورة المخصصة لتجهيز الشراب ، مالت فتاتان من بين المكلفات بالخدمة فوق مجمعات البيرة ذات المقابض البيضاء ، وفوق صف من الصنابير الفضية الصغيرة المثبتة داخل هذه المجمعات ، وكانت الصنابير تسكب البيرة في أوان من الفخار .

ولشعوره بالتعب ، ولخلوه من العمل حتى اللحظة التي يقوم فيها القطار ، جلس « جود » فوق إحدى الأرائك وأمامه المرايا ذات الأحرف المشطورة وعلى

وجهمتها رفوف زجاجية تستقر فوقها أنواع الشراب الثمينة ذات الاسماء المجهولة لديه . وكانت هذه الأشربة في قنآن مصنوعة من الياقوت الأصفر والأزرق والأحمر ومن معدن الجاشيت . ودبت الحياة في المشرب بدخول عدد من زبائن الحان وجلسهم في المقصورة القريبة منه ، مع ما أثار ذلك من صخب نتيجة لتبادل النقود وما صحب ذلك من صليل في كل مرة توضع فيها قطع النقود فوق الموائد .

وكانت الفتاة القائمة على خدمة هذه المقصورة محتفية عن نظر وجود، على الرغم من أن المرأة خلفها تعكس صوراً كاملة لظهرها ، وكان يرى هذه الصور تترامى له بين لحظة وأخرى .

كان ينظر إلى تلك الفتاة دون اكتراث عندما أدارت وجهها إلى المرأة لترتب شعرها وهنا استولى عليه العجب إذ اكتشف أن الوجه الذي أمامه إنما هو وجه « أرابيلا » .

ولو أن هذه أنت إلى مقصورتك لرأته حتماً ، وإكتمها لم تأت حيث كانت الفتاة الأخرى هي المسكفة بالخدمة في المكان الذي يجلس فيه . وكانت « أرابيلا » ترتدى ثوباً أسود محلى بأساور بيضاء وياقة واسعة من نفس اللون . أما قوامها فامتلاء كثيراً وساعد على إبراز معالمه ما تضعه تبلى الناحية اليسرى من صدرها وهو باقة صغيرة من النرجس الجبلى . وفي المقصورة التي تقوم أرابيلا على خدمة روادها ينبوع مطلى بالفضة يقوم فوق مصباح مشتعل بالكحول ، ومن فوهته العليا يخرج لهبه الأزرق سحابة من البخار . وكان ذلك كله ظاهراً له في المرأة المثبتة خلفها والتي عكست وجوه الرجال المسكفة بخدمتهم وكان أحدهم شاباً أنيق المظهر ، خليع الحركات ومن المحتمل أنه من طلاب الجامعة . وكان هو يقص عليها إحدى الحوادث ومن الواضح أنها مضحكة .

صاحت في مرح : « أوه يا سيد ، كوكبان ، ما خطبك الليلة ! كيف تقص على مسامعي مثل هذه القصة الذي تخدش حياتي ! يا سيد « كوكبان » ، ما هيذا الذي

تستعمله لتجعل شاربك مجمداً على هذا النحوا الجليل ؟ .. » ولما كان الشاب حليق الذقن والشارب أثار السؤال ضحكاً عالمياً راح الشاب ضحيته .

وقال الشاب : « إلى حالا . أعطيني كأساً من الكيراشو وكبرتاً من فضلك ! » .  
وصبت له الشراب من إحدى الزجاجات الجميلة كما أشعلت عود نقاب قربته من سيجارته وهي تنحنى أمامه في دلال بينما أخذ الشاب ينفخ دخانه في الهواء . قال :  
« والآن خبريني أيها الجميلة هل جاءتك أخبار جديدة عن زوجك ؟ » .

قالت : « لا شيء . » .

-- « وأين يقيم ذلك الزوج ؟ » .

-- « تركته في استراليا وأعتقد أنه ما زال هناك حتى الآن » .

واستدارت عينا « جود » واتسعت مقلتاها .

-- « وما الذي جعلك تنفصلين عنه ؟ » .

-- « لا تسأل كثيراً وإياك أن تصدق ما يشاع عني من أكاذيب » .

-- « إلى الآن وناوليني بقية نقودي التي حبستها عني وقتاً طويلاً وبعد ذلك سأخترني في شوارع هذه المدينة العجيبة بطريقة لا تحسن بها » .

وناولته النقود من فوق الحاجز وعند ما اقترب منها أمسك بأصابعها ونشب بين الإصبعين صراع بسيط مصحوب بضحكات متكلفة وأخيراً حياها وغادر المكان .

وظل « جود » ينظر إلى ما يجري أمامه بعين الفيلسوف المشدوه . كم بدت « أرابيلا » الآن بعيدة عن حياته بعداً عجبياً ! لم يستطع أن يدرك حقيقة ما بينهما الآن من علاقة لم يبق منها سوى الاسم فقط لذا ، في حالته النفسية الراهنة ، لم يعد يقيم وزناً للحقيقة الواقعة وهي أن « أرابيلا » زوجته .

وغادر الزبائن تلك المقصورة التي تقوم « أرابيلا » على خدمتها . وبعد تفكير

قصير دخل « جود » واتجه رأساً إلى منصة الخدمة ولأول وهلة لم تتعرف عليه « أرابيلا » وعندما تقابلت نظراتهما جفلت واضطربت إلى أن أسعفتها مسكة من روح الدعاية تجلت في عينيها ودفعها إلى الكلام .

— « هذا أنت ؟ . ايرحمي الله ! ظننت أنك تعيش تحت الأرض . . . »

— « أوه . . »

— « لم أسمع عنك شيئاً ولم يخطر ببالى أننى سأتى يوماً إلى هذا المكان ! على أى حال هذا لا يهم ! ماذا أقدم لك هذا المساء ؟ هل تشرب كأساً من الوسكى بالصدودا ؟ هيا اطلب أى شىء فى المشرب وسأدفع عنك ثمنه من أجل صداقتنا القديمة . »

وقال دون أن يبتسم : « شكراً يا « أرابيلا » . ولكننى لا أود أن أشرب أكثر مما شربت . » والحقيقة أن ظهورها المفاجئ قضى بضربة واحدة على قابليته لتناول الخمر بأنواعها كما لو كانت « أرابيلا » دفعت به بعنف إلى أيام طفولته الأولى عندما كان شرابه الحليب مخسب .

— « هذا لسوء الحظ إذ فى مقدورك أن تطلب ما تريد دون أن تتكلف شيئاً . »

— « كم مضى عليك من الوقت هنا ؟ »

— « حوالى ستة أسابيع ولقد عدت من « سيدنى » منذ شهر ثلاثة . وأحببت دائماً هذا النوع من العمل . »

— « وما الذى أتى بك إلى هذا المكان ؟ »

— ظننت أنك قضيت نحبك وعندما وصلت إلى لندن قرأت إعلاناً عن هذه الوظيفة . لم أتوقع أن يعرفنى إنسان هنا حتى لو أردت أن أذكر الناس بنفسى فما سبق أن جهت قط إلى « كرايستميستر . »

— « ولم عدت من استراليا ؟ »

— « لدى من الأسباب ما جعلنى أقرر العودة . خبرنى ألم تصبح حتى الآن  
قطباً من أقطاب الجامعة ؟ » .

— « لا ،

— « حتى ولا موظفاً من موظفى الكنيسة ؟ »

— « لا ،

— « حتى ولا مجرد منشق من دعاة التجديد فى الدين ؟ »

— « ما زلت كما كنت ! »

— « هذا حق ويبدو عليك ذلك . »

وتركت أصابعها تعيث بمقبض مجمع البيرة وهى تتفحص زوجها القديم بكل  
دقة . لقد لاحظت أن يديها أصغر وأكثرت بياضاً مما كانتا وهما يعيشان معا .  
ولاحظ أيضاً أن بأحد أصابع اليد التى تجذب بها المقبض خاتماً به حجر يبدو أنه  
عقيق حر . لقد كان الحجر موضع إعجاب الشبان الذين ارتادوا المشرب ، وهم  
على حق فى ذلك .

وطفق يقول . « هكذا تعيشين كما لو كنت متزوجة وزوجك على قيد الحياة ! »

— « نعم . كنت أظن أنه قد يكون فى الأمر ما يخرج لو قلت عن نفسى  
لأننى أرملة كما كان ينبغى أن أفعل . »

— « هذا حق فأنا لست معروفاً كثيراً فى هذه النواحي . »

— « ما قصدت ذلك إذ كما قلت لم أتوقع أن أراك . بل لى فعلت ذلك  
لأسباب أخرى . »

— « وما هى هذه الأسباب ؟ »

قالت وهى تحاول التماس من الإجابة : « لا أحب أن أخوض فى ذلك الآن .  
لنى أكسب عيشى ولا أظن أننى فى حاجة إلى صحبتك . »

وهنا أقبل عليها شاب صغير حائق الذقن له شارب خفيف كأنه حاجب سيدة

وطلب شراها من عناصر غريبة فذهبت إليه وعكفت على خدمته . وقالت وهي تميل على « جود » : « ليس في مقدورنا أن نتحدث هنا : هلا انتظرتي حتى التاسعة ؟ قل نعم ولا تسكن أحق ! في استطاعتي لو أردت أن أنهي عملي قبل موعدي بساعتين . إنى لا أقم بالبيت في الوقت الحاضر ، وأخذ يفكر وأخيرا قال في حزن . « سأعود فن الأفضل لنا أن نفعل شيئا . »

— « لا تشغل نفسك بشيء ! أما أنا فإست مستعدة لعمل أى شيء ! »

— « ولكننى أحب أن أتحقق من أمر أو أمرين . وكما تقولين ليس في مقدورنا أن نتحدث هنا . حسن للغاية سأمر عليك هنا . »

وبعد أن ترك كأسه وما زالت مترعة ، غادر الحان وأخذ يسير في الطريق ذهابا وجيئة . يالها من صفعنة قاسية من صفعات القدر تعكر صفو الهدوء الخيم على علاقته الحزينة « بسو ! »

وعلى الرغم من أن كلام « أراييلا » كان مما لا يوثق به إطلاقا ، اعتقد باحتمال وجود شيء من الصدق في ادعائها بأنها لم ترد إزعاجه وفي اعتقادها بأنه فارق الحياة . ومع ذلك فثمة موقف واحد فقط يمكن أن يفقه وهو موقف الصراحة والصدق فالقانون هو القانون وهذه المرأة التى لا يوجد بينها وبينه أى انسجام أو اتصال ما زالت فى نظر الكنييسة قطعة من نفسه .

ولما كانت مقابلة « جود » لأراييلا فى المكان الذى اقترحته لا بد أن يترتب عليه عجزه عن اللحاق بسو فى « ألفردستون » ، كما سبق أن وعدنا بذلك ، أخذ يحز فى نفسه ألم ممض كلما تذكر هذا الأمر . ولم يكن المأزق بالشئ الذى يمكن تحاشيه . ويسكون ظهور « أراييلا » الآن عقابا إلهيا له على انسياقه وراء حب غير مشروع . وبعد أن أمضى المساء فى انتظار ثقيل وتسكع فى طرقات المدينة لا ضابط له إلا الابتعاد عن مداخل الكليات وبجامع العلم حتى لا يقع نظره عليها ، عاد إلى الحان وكانت الدقة الواحدة بعد المائة — للساعة الكبيرة المثبتة داخل برج

كلية الكاردينال يدوى رنينها فى الأفق حوله ، على ما فى ذلك من سخرية موجهة له جاءته من حيث لا يدري . وكانت الحان الآن مضادة فى كافة نواحيها بأضواء لامعة وأصبح المنظر كله أكثر بهجة إذ كانت وجوه فتيات الخدمة اكتسبت احمرارا حيث اكتست خدودهن بطبقة من الأصباغ الحمراء . وكن أكثر نشاطا وأكثر تحررا وأشد إنارة للفرائز ويفصحن عن انفعالاتهن ونزواتهن فى جرأة ظاهرة ويضحكن ضحكات مستوهنة دون احتشام .

وكان المشرب فى ذلك الوقت يموج بأناس من كافة الطبقات وسمع وهو ما زال بالخارج الدوى المكتوم الصادر عن أصواتهم ولكن عدد المترددين على المكان أخذ يقل تدريجيا فأوما برأسه إلى « أرايلا ، لتدرك أنه بالخارج فتقالبه بمجرد خروجها .

قالت وكان مزاجها راتقا ونفسها راضية : « واسكنك يجب أن تشرب شيئا معي أولا . هذا ما أفعله دائما كل ليلة قبل أن آوى إلى فراشى ولأنى أسمى ذلك مدمرة أتدثر بها قبل أن أستقبل النوم وينبغى أن تخرج قبلى وتلتظرنى لحظة فن الأفضل ألا يرانا أحد ونحن نسير معا . وبعد هذا تناولات كأسين من البراندى . وهى وإن كان يبدو على وجهها أنها احتست قدرا كبيرا من الشراب ، سواء عن طريق الشراب أو استنشاقها للكحول فى أثناء الساعات الطويلة التى أمضتها فى جو الحان ، إلا أنها أنت على ما فى الكأسين فى سرعة خاطفة . وشرب هو الآخر كأسه ثم غادر المكان .

وبعد لحظة لحقته وقد ارتدت معظما سميكا ووضعت على رأسها قبعة لها ريشة سوداء وقالت وهى تمسك بذراعه : « أسكن قريبا من هنا ولدى مفتاح أستخدمه للدخول فى أى وقت . ماذا تود فى أن أفعل ؟ » .

« أهو لاشيء على التحديد » . هكذا أجابها وقد تملكه شهور ممض وأحس بفواه تنور واتجهت أفكاره إلى « الفردستون » مرة أخرى . لقد تذكر القطار الذى فاته وما يمكن أن تحس به « سو » من خيبة عندما تصل إلى هناك دون



أن تجده ، كما أحزنه التفكير في ما أضاعه من متعة السير معها في ضوء النجوم في الطريق الطويل الخالي من المسارة والمؤدى إلى أعلى التل والموصل إلى « ميربحرين » فاندفع يقول : « كان لابد أن أعود إذ أخاف أن تكون عمى على فراش الموت الآن » .

— « سأذهب معك غدا صباحا وأظن أنه في استطاعتي الحصول على إجازة » وكان في اقتراج « أرابيلا » غرابة إذ لم يكن لديها من العطف عليه أو على ذوى قرباه أكثر مما لدى وحش كاسر ، فما بالها الآن تريد الذهاب إلى فراش عمته المحتضرة ومقابلة « سو » وعلى الرغم من ذلك قال « جود » بكل تأكيد تستطيعين المجيء معي إن رغبت » .

— « حسن . ستتدبر الأمر . إلى أن تتفق على إجراء ما ، ليس من المستحب أن يرانا الناس في هذا المكان حيث يعرفك الجميع وحيث يبدأ القوم يعرفوننى وإن كان الشك لا يداخلهم أبدا في وجود أية صلة بينى وبينك . ولما كان طريقنا في اتجاه المحطة ، فإننى أقترح أن نأخذ قطار التاسعة والدقيقة الأربعين ، وهو المتجه إلى « الدبريكهام » ، وسنصل بعد نصف ساعة على الأكثر وهناك نصبح في مأمن من عيون الناس ونفعل ما يحلو لنا إلى أن نقرر إذا ما كنا سنعان شيئا على الملا أم لا » .

— « افعل ما تريد » .

— « إذن انتظرنى حتى أعود فهذا هو البيت الذى أسكن فيه . وفى بعض الأحيان ، عندما أتأخر فى الخارج ، أمضى الليلة حيث أعمل حتى لا يظن الناس بى الظنون عند ما يروننى عائدا فى ساعة متأخرة » .

وقفلت راجعة بأسرع ما تستطيع وسارا لاثنان فى اتجاه المحطة حيث استقبلا الفطار المتجه إلى « الدبريكهام » فوصلاها بعد نصف ساعة وهناك دخلا حانئا شعبيا رخيصا يقع بالقرب من المحطة وكان وقت العشاء قد حل .

## ( ٩ )

وفي الصباح التالي ، بين التاسعة والعاشر ، عادا إلى « كرايستمينيستر » وكانا المسافرين الوحيدين في عربة الدرجة الثالثة . ولما كانت « أرايلا » قد اغتسلت وتزينت على وجه السرعة - وكذلك فعل « جود » - حتى تتمكن من اللحاق باقطار ، بدا على هندامها شيء من الإهمال كما كان وجهها أبعد ما يكون عن النظارة التي كانت طابعه المميز عند ما وقفت بالمشرب في الليلة السابقة . وعند ما خرجا من المحطة ، وكان أمام « أرايلا » نصف ساعة لتتسلم عملها في المشرب ، سار الاثنان في صمت وقطعا مسافة قصيرة خارج المدينة في اتجاه « ألفردستون » . ورفع « جود » رأسه وأخذ ينظر إلى الطريق الممتد أمامه وهو يقول في صوت خفيض « واحسرتاه لي ا » .

قالت : « ماذا ؟ مم تشكو ؟ » .

« إنه نفس الطريق الذي سلكته عند ما جئت إلى « كرايستمينيستر » منذ عامين ونفسي مترعة بالآمال الكبار ا » .

« على أى حال ومهما يكن من أمر الطريق فإن وقتي حان إذ لا بد أن أكون في المشرب قبل الحادية عشرة وكما قلت لك ، ان أسألك عن اليوم الذي أصبحك فيه لرؤية قريبتك العجوز وعلى ذلك من الأفضل لنا أن نفترق هنا ولا أحب أن أسير معك في هذا الشارع طالما أننا لم نصل فيما بيننا إلى اتفاق ا » .

« هذا حسن للغاية ولستك ذلك قلت هذا الصباح إن لديك ماتودين أن تهوحي لي به قبل أن نفترق ا »

« حقا لدى شيئان أود أن أخبرك بهما . أحدهما هام بوجه خاص ولا بد أن تعدنى بالاحتفاظ به على اعتبار أنه سر خطير . وأستطيع الآن أن أخبرك بهذا السر بمجرد أن تعدنى بذلك وإني كامرأة أمينة أرغب في أن تكون عليما به . إنه نفس الشيء الذي بدأت أقصه عليك في الليلة الماضية وإنه عن ذلك السيد الذي

يدير الفندق في مدينة «سيدنى» . وهنا أسرع «أرابيلا» في الكلام على غير عاداتها وبخاصة وهي تقول «هل تحتفظ بالأمور سرّاً؟» . وقال وقد فارقته حبله : «نعم . . . نعم . أعدك بذلك . طبعاً أنا لا أرغب في أن أذيع أسرارك على الناس» .

— «في أثناء جولتنا الحارية كان يقول إنه معجب بجمال وظل ياح على كى أقبل الزواج منه . ولم أكن أفكر قط في العودة إلى إنجلترا ثانية . ولما كنت وحيدة هناك في استراليا ولا أسرة عندي وبخاصة بعد عودة والدى إلى إنجلترا ، وافقت ثم نفذت ما وافقت عليه» .

— «ماذا ا وهل تزوجته؟ . . .»

— «نعم» .

— «وهل تزوجته زواجا قانونيا شرعيا في الكنيسة؟» .

— «نعم وعشت معه حتى قبل أن غادرت تلك البلاد بفترة قصيرة . كان هذا منى جهالة . أعرف ذلك ، ولكن هذا ما فعلت . والآن ها نذا أخبرتك فلا تغضب . إن المسكين يكتب لى ذا كرا أنه ينوى الحجى إلى إنجلترا وإن يعثر على «لوفعل» .

ووقف «جود» خافى القلب مشدوها .

قال : «ولم لم تخبرينى بذلك فى الليلة الماضية؟»

— «لم أفعل . هلا صا الحقنى إذن؟»

— «وعلى ذلك فى حديثك الذى دار بينك وبين زبائن المشرب عن زوجك كنت تعنيه طبعاً ولم تسكونى تعينينى أنا»

— «طبعاً . طبعاً . والآن هيا بنا ولا تثر مشكلة من لا شيء» .

قال : «ليس لدى ما أقول أكثر من ذلك ! ليس لدى ما أقول فى شأن الجريمة التى اقترفتها واعترفت بها» .

« جريمة إلف لك . إن القوم هناك لا يفكرون مطلقاً على هذه الصورة وأناس كثيرون يفعلون هذا . على أى حال لو نظرت إلى المسألة بهذه الطريقة فلا بد أن أعود إليه إذ كان مغرباً بي غراماً شديداً وعشت معه حياة كريمة وكنا كأي زوجين شريفيين في المستعمرة » كيف كنت أعرف المكان الذي كنت فيه ؟ »

« إن أريد في العتب عليك . في استطاعتي أن أذكر لك أموراً عدة ولا يمكنني لا أريد ، فهمي في غير موضعها . وماذا تريدني أن أفعل الآن ؟ » .

« لا أريد منك شيئاً ولكن شيئاً واحداً فقط أردت أن أخبرك به . يخيل إليّ أننا أمضينا الآن سوياً وقتاً طويلاً سأفكر طويلاً في ما ذكرت بشأن ظروفك الراهنة وسأخبرك بالنتيجة » .

وهكذا اغترقا . وظل يرمقها حتى اختفت في اتجاه الفندق وبعد ذلك دخل محطة السكك الحديدية وكانت تربية منه . ولما كان لابد من مرور ثلاثة أرباع الساعة حتى يستطيع أن يجد قطاراً يعود به إلى « الفردستون » فإنه أخذ يتسكع في طرقات المدينة على غير هدى حتى وجد نفسه في ميدان « الفوروز » فوقف هناك حيث اعتاد أن يقف ويتأمل شارع « شيف » وهو يمتد أمامه بكلياته الجامعية الواحدة بعد الأخرى في روعة لا تفوقها سوى روعة المناظر التي نشاهدها في مدن القارة الأوروبية ، كمنظر شارع القصور في مدينة جنوة إذ كانت أشكال المباني وأبعادها في نسيم الصباح واضحة وضوح الرسم الهندسي . ولكنه كان أبعد ما يكون الآن عن رؤية هذه الأشياء أو الحكم عليها إذ أخفاها عن عينيه شعور تبقّى معه من منتصف الليلة الماضية لا يمكن وصفه ، واتصاله بأرابيلا ، وهي معه حتى الفجر أضفى ذلك على وجهه الجامد مسحة تذكر الناظر إليه بهيئة من حقت عليه اللعنة . ليمتد استطاع فقط أن يحس نحوها شيئاً من الحزن إذ أن لأصبح أقل تعاسة بما هو الآن . غير أنه كان يشفق عليها ويزدرجها في نفس الوقت .

واستدار وعاد من حيث أتى . وبينما هو يقترب من المحطة جفل عندما سمع اسمه يردد الصدى مقاطعه ومصدر اضطرابه الصوت لا الاسم . ولدهشته الكبيرة

وجد « سر » تقف أمامه كأنها الرؤيا . وكانت حزينه مضطربة كما لو كانت في حلم وفيها الصغير يرتعش وعينها الزائغتان تعبر عما يحول في نفسها من عتب وتساؤل .

— « وافرحتاه يا جود ! يسعدني أن أراك هكذا في أحسن حال ! » قالت ذلك في صوت مختلط النغمات إلى النحيب أقرب . ثم تورد وجهها عندما أدركت ما يحول في نفسه من أنهما لم يتقابلا منذ زواجهما .

كان كل منهما يشيح بوجهه جانباً كي يخفى انفعاله عن الآخر ، كما تبادل كل منهما يد الآخر دون أن ينبس بكلمة . وسـ... أرا معا فترة إلى أن رمقته بنظرة خاطفة فيها إشفاق وهي تقول : « وصلت إلى محطة « ألفردستون » الليلة الماضية بناء على رغبتك ولم أجد أحداً ينتظرني هناك ولكنني توجهت إلى « ميريجرين » بمفردي وأخبرني القوم هناك أن صحة المعجوز أحسن قليلاً . فأضيت الليلة معها ولما لم تأت فرعت لغيا بك . ظننت أنه من المحتمل ، وقد وجدت نفسك في المدينة القديمة مرة أخرى ، أنك أحسست بشيء من اليأس بسبب زواجي ، ولأنك لا تجد من تتحدث إليه ، وخيل إلى أنك حاولت أن تفرق أحزانك بنفس الطريقة التي أقدمت عليها في الماضي عندما خاب أملك في الالتحاق بالجامعة ناسياً وعدك لي ألا تعيد الكرة . خيل لي أن هذا هو السبب في أنك لم تأت حسب اتفاقنا ! »

— « لهذا السبب أتيت كلاك طيب لتخرجيني من الهوة التي تردت فيها ولتخلصيني مما أنا فيه ! »

— « ظننت أن باستطاعتي المجيء بقطار الصباح لأحاول العثور عليك لكي ... لكي .. »

— « إنني أفكر دائماً فيما وعدتك به أيتها العزيزة ! إن أسقط مرة ثانية كما سقطت في الماضي ! كوني على ثقة من ذلك . قد أكون غير موفق فيما أقوم به من أعمال ولكنني لا أقدم على هذا الذي تظنينه . أكره مجرد التفكير في هذا الأمر . »

— « يسرنى أن يكون تأخرى عن الجىء . لا صلة له بهذا ولنكنك ، ... »  
وهنا تغيرت نبرات صوتها تغيراً طفيفاً وقالت : « لم لم تأت لمقابلتى فى الليلة  
الماضية حسب وعدك لى . ؟ » ...

— « أنا لم آت كما وعدت ويوسفنى أن أقول ذلك . كنت على موعد فى  
التاسعة وكان الوقت متأخراً فلم أستطع اللحاق بالقطار الذى يوصانى إلى حيث  
كنت ، كما لم أستطع أن أعود إلى البيت » .

وأخذ يتطلع فى شوق إلى محبوبته كما بدت ماثلة أمامه وكما تخيلها بعين خياله  
الرفيق أرق وأخلص صديقة فى حياته وأنها مخلوقة أنثوية البسيان تبدو روحها  
وهى مضطرب داخل ضلوعها فأحس بالخجل الشديد من نفسه لاسفاهه أثناء  
الفترة التى قضاه فى صحبة « أرابيلا » . ومن القسوة الشديدة ، بل من الخروج  
على قواعد الأخلاق أن يحاول إقحام ما استجد من وقائع على عقل مخلوقة  
لا ككل المخلوقات صلابه ، بل تنسم بالارقة الشفافة وتبدو فى بعض الأحيان  
أبعد ما تكون عن أن تصبح زوجة لرجل متوسط الحال مثله . ومع ذلك كانت  
زوجة لفيلوتسون ! كيف أصبحت هكذا وكيف عاشت هكذا ! كل ذلك مر  
بخطره وتحدى قوى التفكير عنده وهو يتأملها فى ذلك اليوم .

وقال لها وهو يتأملها : « وهل ستعودين معى ؟ هناك قطار يتحرك الآن .  
لأدرى كيف حال العجوز ! إذن بأسوأ أنت حقاً بسببى وتجشمت مشاق الطريق  
من أجلى ؟ لا بد أنك ركبت مبكرة للغاية كي تتمكنى من الحضور ! يالك  
من مسكينة ! »

— « نعم فالسهر حتى مطالع الفجر والانتظار دون أنيس ملائى قلقت عليك .  
وبدلاً من أن أذهب إلى الفراش عند ما أشرق الشمس جئت إلى هنا . والآن  
أنا أظالك بالآلا تعود إلى إخافتى هكذا مرة أخرى والآن تلقى على كيانك الخلق  
بلا داع ، .

ولم يكن متأكدًا تمامًا من أنها فزعت واستولى عليها الفلق على كيانه الخلق بلا داع . ولم يقبض على يدها حتى دخلا القطار . كانت العربية التي دخلها تبهو وكأنيها نفس العربية التي غادرها منذ وقت قريب عندما كان يجلس فيها مع امرأة أخرى . ها هو الآن يجلس مع « سو » جنبًا إلى جنب . وهي تحتل مكانها بجوار النافذة . وأخذ يرقب عن كثب دوائر جسدها وحدوده الرقيقة وتجاوريفه المشدودة ويقارن بين كل ذلك وبين انتفاخات جسد « أرابيلا » . وأدركت « سو » أنه يتطلع إليها ويرمقها بعينه إلا أنها لم تلتفت إليه بل ظلت تنظر أمامها كما لو كانت تخشى النظر في عينيه لئلا تثير بذلك نقاشًا قد يحجب عليها المتاعب .

إنك الآن يا « سو » متزوجة مثلي وأنت تعلن ذلك ومع هذا فقد ساقطنا الحياة أمامها ولم تمنحنا الفرصة كي نتبادل كلمة واحدة في هذا الشأن ، قالت في سرعة : ليس هناك ضرورة لذلك ! .

-- « على أي حال قد تكون هناك ضرورة وليكنني أرغب في أن... » .

-- « لا تتحدث عني باجود . ليتك تقلع عن ذلك ! إني حزينة لما حدث وأرجو أن تغفر لي هذا القول ! أين قضيت الليلة الماضية ؟ » .

ألقت عليه السؤال في براءة كاملة لتغير مجرى الحديث . وعرف ذلك وقال في بساطة : في « حان » ( وإن كان يريجه كثيرًا لو أخبرها بمقابلته لشخص لم يكن يتوقعه ) . واسكن اعتراف « أرابيلا » بزواجها في استراليا أوقعه في حيرة خشية أن يكون ما يصدر عنه من كلام مسيئًا لزوجته الجاهلة .

وسار الحديث بينهما واسكنه كان سقيمًا حتى وصلا إلى « الفردستون » وكأنا أراد أن يتقرب منها ويتبادل وإياها الحديث باعتبارها أهم شخص لديه ، استبدت به فكرة أنها لم تعد كما كانت قبلا وأنها تلوذ بشخص آخر هو « فيلوتسون » ،

ومع ذلك خيل لآليه أنها لم تتغير ولم يستطع أن يجد سبباً لذلك . وبقيت أمامهما الأميال الخمسة ومن السهل عليهما أن يقطعاهما سيرا على الأقدام أو بالسيارة حيث كان القسم الأكبر من الطريق يقطع التل من أسفله إلى أعلاه . ولم يسبق لجود قط أن قطعه في صحبة « سو » وإن فعل ذلك في صحبة امرأة أخرى . لقد أصبح في هذه اللحظة كمن يحمل مصباحاً تسببت أضواؤه القوية في طرد الذكريات الضعيفة المتبقية من عهد سابق .

وتحدثت « سو » ولاحظت « جود » أنها مازالت تحرص على ألا يمس الحديث شخصاً . أخيراً سأها عما إذا كان زوجها في صحة جيدة . قالت : « نعم إنه كذلك . من المحتم أن يظل في المدرسة طول اليوم وإلا لكان معي الآن . إنه غاية في الطيبة وهو شديد العطف على إلى درجة أنه لو صحبني فلا بد أن يصرف التلاميذ ويغلق المدرسة ولو كان في ذلك ما يتعارض مع مبادئه التي درج عليها إذ أنه لا يوافق بتاتا على الإجازات العارضة . وكل ما هناك أنني لا أدعه يصحبني . وشعرت أنه من الأفضل لي أن آتي بمفردي . أعرف أن العجوز دروزيلا غريبة الأطوار . ولما كان « فيلوتسون » يكاد يكون غريباً بالنسبة لها فقد يسأله حرجاً لئلا يكلبها . أما وقد اتضح لي أنها مازالت على شذوذها وغرابة أطوارها ، فإنني أشكر الله على أنني لم أطلب منه الحجى . »

وبينما كان هذا المديح يكال لفيلوتسون كان جود يسير في الطريق مطأطئاً الرأس وأخيراً قال : « يطيعك السيد « فيلوتسون » في كل شيء وهذا ما يجب أن يفعله . »

— « بكل تأكيد . »

— « لا بد أنك زوجة سعيدة . »

— « بالتأكيد وإنني كذلك . »

— « كان ينبغي لي أن أقول عروساً بدلاً من زوجة فلم يمس على زفافك

سوى أسابع قليلة وإنني . . . »



— « نعم أعرف ذلك . أعرف ذلك . » وكان يبدو على وجهها ما يتنافى وصفة التأكيد التي نطقت بها هذه الكلمات التي خرجت من بين شفثتها قصيرة قاطعة خالية من الانفعال حتى لكأنها منقولة عن قائمة الأحاديث التقليدية التي جاءت في كتاب دليل الزوجة إلى السلوك الحسن . كان « جود » يدرك سر كل ذبذبة من ذبذبات صوتها كما استطاع أن يقرأ كل سائحة من سوانح عقلها واقتنع أنها شقية وإن لم يمض على زواجها سوى شهر واحد . ثم ماذا دن اندفاعها الشديد هذا ومغادرتها لبيتها على هذه الصورة لرؤية قريب سبق أن تعرفت عليه ولم يمض على معرفتها له وقت طويل ؟ ليس لهذا الأمر دلالة فن طبيعة « سو » أن تأتي أفعالا كهذه ! .

— « هذا حسن أيتها السيدة ، فيلوتسون . » إلى أقدم إليك تمنياتي الطيبة الآن وفي كل وقت . »

ونظرت إليه نظرة عتاب .

وتتم يقول : « لا . أنت لست بالسيدة « فيلوتسون » بل « سو » يريد هيل ، العزيزة الطليقة من كل قيد . ولكنك لا تدركين ذلك لحياة الزوجية لم تطوك بعد ولم تمتص جزئياتك وتجعل منها ذرة فقدت كيائها ولم يعد لها وجود مستقل . »

وتجههم وجه « سو » وبدأ عليها أنها جرحت بهذا الحديث . وأخيرا قالت : « ولا أنت بالنسبة لحياة الأزواج على حد معرفتي بالأمور ، »

قال وهو يهز رأسه في حزن : « لقد حدث ذلك بالفعل ! . »

وعندما وصلا إلى الكوخ المنعزل الواقع تحت أشجار الشربين النامية بين البيت الأسمر وقرية « ميريجرين » ، ذلك الكوخ الذي عاش فيه مع « أرابيلا » حتى انفصلا ، أدار إليه رأسه متطلعا وكانت تسكنه في تلك اللحظة أسرة فقيرة يسكنو الغبار وجوه أفرادها ، فلم يسعه إلا أن قال : « هذا هو البيت الذي

سكنت فيه مع زوجتي طيلة الوقت الذي عشناه معا . لقد انتقلنا إليه عقب زواجنا مباشرة .

وأخذت تتطالع إلى الكوخ وهي تقول : « كان هذا الكوخ بالنسبة لك كالبيت الصغير الملحق بالمدرسة في « شاستون » بالنسبة لي الآن ! » .

— « نعم ولكنني لم أكن سعيدا فيه كما أنت سعيدة في بيتك الآن » .

وزمت على شفتيها كأنما تدفع عن نفسها التهمة بالكف عن الكلام . وسارا قليلا ثم تطلعت إليه لترى ورقع تصرفاتها عليه وكان يقول في رقة : « طبعاً قد أكون بالفت قليلا في تقدير سعادتك وما يدرى المرء أين وجه الحق » .

— « إياك أن تظن ذلك لحظة » يا جنود « حتى لو كنت تفوهت بذلك على سبيل النكاي . إنه في غاية الطيبة معي كما أنه دائماً يدعني وشأني ولا يحدهن حريق كما يفعل عادة كبار السن من الأزواج ، أنت مختلي لو ظننت أنني لست سعيدة لأنه يكبرني في السن كثيراً » .

— « لا يدور بخدي أي شيء يشينه أيتها العزيزة » .

— « ولن نقول أشياء تفضيني . أليس كذلك ؟ »

— « لن أقول » .

وكف عن الحديث ولكنهم عرف بطريقة ما أن « سو » بعد أن اتخذت من « فيلوتسون » زوجها ، شعرت أنها أنت أمرا ما كان ينبغي أن تفعله .

وراحا ينزلان إلى الحقل وعلى الجانب الآخر منه ترتفع القرية ، وهو الحقل نفسه الذي عوقب فيه من سنوات وضرب ضرباً مبرحاً من مالكة المزارع . وعندما نزلا إلى القرية واقتربا من المنزل ، وجدا السيدة « إلدن » بالباب . وبمجرد أن وقع نظرها عليهما رفعت يديها وصاحت تقول : نزلت إلى الطابق السفلي من البيت وما أظن أنكما ستصدقاني ! لقد صممت على مغادرة الفراش

وما من شيء يعيدها إليه مرة أخرى ، أما ماذا يمكن أن ينتج عن ذلك فهذا مالا علم لي به .

وعندما دخل البيت شاهدا العجوز جالسة بقرب المصطلى وقد لفت نفسها بملاءات كثيرة وكانت تديرهما وجها شديدا بوجه العازر كما رسمه الفنان الإيطالي « سيديا ستيانو » . ولا بد أن الدهشة كانت واضحة على وجهيهما إذ أنها قالت في صوت أجوف : « آه . . هل أخفتمكما ؟ صممت على عدم البقاء في الدور العاوى إذ أننى لا أريد أن أبقى هناك أكثر مما بقيت وذلك لجرد أن أرضى الآخرين ! هذا أكثر مما يستطيع المرء أن يتحمله وخاصة عندما يضطر إلى إطاعة أوامر تصدر إليه من لا يعلمون ! »

وأضافت تقول وهي تدير وجهها لسو : « آه . . لسوف تفسدين زواجك كما أفسد هو زواجه . هكذا يفعل جميع أفراد أسرتنا وأنت منهم . وكان ينبغي عليك أن تفعل ما فعلت . ومن يكون « فياوتسون » هذا معلم الصبية بين الرجال ! وما الذى جعلك تزوجينه ؟ . »

— « وما الذى يجعل كافة النساء يتزوجن أيتها الخالة ؟ » .

— « آه ! تقصدين أنك أحبيبت الرجل ؟ »

— « لا أقصد أن أقول أى شيء محدد . »

— « وهل تحبينه حقا ؟ » .

— « لا تسألينى هذا السؤال أيتها الخالة . »

— « فى استطاعتى أن أتذكر الرجل جيدا . إنه مخلوق مهذب محترم ، ولكنه يا إلهى ! أنا لا أود أن أجرح شعورك . هناك أشخاص فى كل مكان وما من امرأة على أى قدر من الرقة تستطيع أن تهمهم . لا أقول الآن إنه واحد من هؤلاء إذ لا بد أن تكونو عرفتة أكثر منى . »

واتنفضت «سو» واقفة وغادرت المكان وتبعها «جود» إلى الفناء الخارجى

للنزل حيث وقفت تبكي . قال في حزن : « لا تبكي يا عزيزتي ! إنها لا تقصد  
إيلا مكم وإسكنها أصبحت الآن شاذة الطباع » .

قالت « سو » وهي تحاول أن تخفف دموعها : « أوه . . . لا . . . ليس الأمر  
هكذا وليس يهمني إطلاقا خشونة طباعها » .  
— « وما الذى يبكيك إذن ؟ »

— « إن ذلك الذى تقول هو الصحيح ! » .

وقال جود متسائلا : « يا الله ! ماذا تقولين ؟ أأنت تحبينه ؟ » .

قالت في عجلة : « لا أقصد ذلك . أقصد ، كان ينبغي . . . . . أقصد ما كان  
ينبغي لى أن أتزوج ! »

وسأل نفسه مندهشا هل قصدت أن تقولى ذلك فى مبدأ الأمر ! وعاد الاثنان  
إلى الغرفة التى تجلس فيها العجوز ولم يعد أحد إلى الموضوع مرة أخرى . ومالت  
العجوز إلى « سو » فى انعطاف رقيق وقالت ما من واحدة من الشابات اللاتى لم  
يمض على زواجهن وقت طويل تقبل أن تسير كل تلك المسافة الطويلة كي تزور  
عجوزا مريضة مثلها . وعند الاصيل تأهبت « سو » للرحيل وكاف « جود » أحد  
الجيران كي يوصلها بعربته إلى « الفردستون » .

وقال « جود » : « سأصحبك إلى المحطة لو رغبت فى ذلك » .

ولسكنها رفضت بشدة أن يصحبها وجاء الرجل يقود عربته وساعدها « جود »  
على الركوب فيها ومن الجائز أنه أظهر لها من الاهتمام أكثر مما جازله أن يفعل  
لذ أنها رفاقته بنظرة ذات معنى .

قال وهو يتحاشى النظر فى عينيها : « أظن أننى أستطيع أن آتى لرؤيتك فى  
يوم من الأيام عندما أعود من « ملشستر » .

وأحنت رأسها وقالت فى صوت رقيق : « لا أيها العزيز . ما يجوز لك أن تأتى  
الآن ولا أظن أنك فى حالة نفسية تسمح بذلك » .

قال : « حسن للغاية والآن وداعا ! » وهزت له يدها ثم اختفت .

وتتم بقول في نفسه : « إنها على حق ! ان أذهب إليها ! » .

وأمضى المساء كله والأيام التالية محاولا بشقي الأساليب أن يسكب في نفسه الرغبة في رؤيتها وكادت أنفاسه تزهق في محاولات الصوم لإيقاف نفسه عن حبها . لقد شرع يطالع العظات التي تتحدث عن ضبط النفس ، كما أخذ يفتش في بطون كتب التاريخ الكنسي عن فقرات تعالج حياة النساك الذين عاشوا في القرن الثاني المسيحي . وقبل أن يعود من « ميريجرين » إلى « ميلشستر » كان في انتظاره خطاب من « أرايلا » أحييت رؤيته في نفسه شعورا بدنيوة الذات لعودته القصيرة إلى الاتصال بها ، وفاق هذا الشعور في قوته شعوره بالشئ نفسه لالتصاقه بسو .

أما الخطاب الذي رآه فكان يحمل خاتم بريد لندن بدلا من بريد « كرايستمينستر » . أخبرته « أرايلا » في خطابها أنها ، عقب افتراقهما في « كرايستمينستر » ببضعة أيام ، فوجئت بخطاب من زوجها الذي تزوجته في استراليا وعمل مديرا للفندق في سيدني وكان قد جاء إلى لندن وفي نيته البحث عنها . لقد استأجر في « لامبيث » حانا مرخصا مستكملا لجميع السرائط ورغب في أن تلحق به هناك لتعاونه في إدارته . قالت إن العمل في حد ذاته يبشر بمستقبل عظيم فالخان يقع في منطقة كثيفة السكان يهوى أهلها تناول الخمر ، كما قالت إن الدخل الحالي للخان يقدر بمائتي جنيه في الشهر الواحد وهو مبلغ يمكن مضاعفته بسهولة كبيرة . ولما كان هذا الزوج أخبرها بأنه يمكن لها حبا كبيرا ، وبسبب إلحاحه عليها واستعطافه إياها لكي تخبره بالمكان الذي تقيم فيه ، وحيث إنهما افترقا ونفساهما خاليتان من كل ضغن إلا من توتر قليل - ل ، وحيث إن عملها في « كرايستمينستر » لم يكن بالعمل الدائم الثابت ، لكل ذلك قررت أن تذهب إليه نزولا على رغبته . لقد كان الشعور الغالب لديها أنها تخص ذلك الزوج أكثر مما تخص شخصا آخر ، طالما أنها تزوجته زواجا صحيحا وعاشرته مدة أطول من تلك التي أمضتها مع زوجها الأول .

وهكذا ودعت «جود» بنفس صافية خالية من كل ضغن ، ودعته وهى تعتقد أنه لن ينقلب عليها - هى المخالفة الضعيفة - وإن يشى بها فيوردها مورد الهلاك بعد أن جاءت الفرصة لتنهض من جديد وتحمي حياة كريمة .

### ( ١٠ )

وعاد «جود» إلى «ملشستر» وقد اكتسبت فى نظاره أهمية خاصة لقرىها من المكان الذى تقيم فيه معبودة حياته . وفى مبدأ الأمر خيل إليه أن قربه من البقعة التى تقيم فيها «سو» يخلق سببا قويا لتشبهه بالإقامة فى تلك البقعة . ولكن لابد له من أن يرحل . أما «كرايستمينيست» فكانت مكانا مقبضا للنفس والإقامة فيها أصبحت عبئا لا تتحمله نفسه فى سهولة بينما أن قرب «ملشستر» من «شاستون» حيث تقيم «سو» الآن مع زوجها ، قد يسكب به نحر التخلب على العدو الذى يقاتله عن طريق الالتحام المباشر معه كما فعل قسيسو ورهبان عهود الكنيسة الأولى ، أولئك الذين فى مجال إظهار احتقارهم للهرب المشين من الغواية تحولوا إلى شركاء لها دون تأنيب . ولم يتوقف لحظة كي يفكر فى «أن الطبيعة المفتري عليها تنهض أحيانا إلى الانتقام لحقها السليب» وكثيرا ما يحدث ذلك فى ظروف كهذه .

وها هو الآن يعود فى نشاط المحموم إلى استئناف دراسته اللاهوتية - مع أن صدق نواياه فى هذا الميدان وإخلاصه للقيم العليا التى يعتنقها فى الحياة أصبحت أخيرا من الأمور التى يهدد الشك كيانها . لقد أفلقت روحه عاطفته القوية نحو «سو» ، ومع ذلك فإن عودته الشرعية إلى صحبة «أرابيلا» لعدة ساعات كان عملا أشد سوءا من كل شئ ، مهما كان من أمر إخفائها الحقيقة زواجها فى مدينة «سيدنى» وعدم إحاطته بوقائعه إلا أخيرا . لقد تمت له الغلبة على كل مغريات العودة إلى الشراب ، وهذا ما كان يعتقده بحق ، ذلك الشراب الذى لم ياجأ إليه فى واقع الأمر لرغبة فى حلو مذاقه ولكن هربا عما بنفسه من شقوة يعجز المرء عن تحملها . ومع ذلك لاحظ فى يأس أنه ، على وجه العموم ، كان شخصا مشبوب العاطفة جياش النفس بعدد الانفعالات فلا يصلح لأن يكون قسا مجيدا . أما

غاية ما يمكن أن يرجوه أنه في حياة كلها صراع داخلي متصل بين الجسد والروح  
قد لا ينتصر الجسد على الدوام .

وكهواية متصلة بعالم الدين ، أخذ ينمي مهارته البسيطة في الموسيقى الكنسية  
والغناء بالصوت المنخفض حتى استطاع أن ينشد ويؤدي النص في شيء من الدقة .

وعلى بعد ميل أو ميلين من « ملشستر » كانت هناك بيعة صغيرة أعيد بناؤها  
وقد تردد عليها في فترة سابقة ليقم فيها أعمدة جديدة بدلا من القديمة المتهاوية .  
وعن هذا الطريق تعارف مع عازف الأرغن في الكنيسة وبذا انضم إلى فرقة  
المنشدين كمنشد في الصوت المنخفض .

اعتاد أن يمشى إلى هذه الكنيسة مرتين كل أحد ومرات في بحر الأسبوع .  
و ذات مساء ، قبيل عيد القيامة بقليل ، اكتمل عقد المنشدين للتدريب ، وأزمعوا  
التدريب على إنشاد تسيديجة جديدة وإعدادها للأسبوع التالي وكان قد سمع أنها  
من وضع موسيقي من أهل مقاطعة « وسكس » . و اتضح لجود أن اللون الغالب  
على بناء التسيديجة هو اللون العاطفي وكلما أنشدوا المنشدون وأعادوا إنشادها  
تملكت أنغامها إلى أعماق نفسه وأثرت فيه تأثيرا عظيما .

وعندما انتهوا من الإنشاد توجه لتوه إلى عازف الأرغن وسأله عن التسيديجة .  
وكان التدوين الموسيقي مكتوبا بخط اليد وظهر اسم المؤلف في أعلى الصحيفة  
وبجواره العنوان : « عند قاعدة الصليب » .

وقال عازف الأرغن : « نعم . . . إنه من هذه الناحية وهو موسيقي محترف  
يعيش في « كينيتبرج » بين هذا المكان « و كريستمينيستر » وهذا الموسيقي معروف  
للقسيس وقد نشأ وتعلم في « كرايستمينيستر » وترن وفقا لتقاليدها فانعكس ذلك  
بوضوح على التسيديجة كما طبعها بذلك الطابع الخاص ، وأظن أنه يعزف في  
الكنيسة الكبرى هناك وله فرقة خاصة من المنشدين الذين يتدثرون بالملابس  
الكنهوتية أثناء إنشادهم . إنه يجيء إلى « ميلشستر » في بعض الأحيان ولقد

حاول ذات مرة أن يحصل على وظيفة عازف على الأورغن فى الكاتدرائية عندما حلت الوظيفة لىكنه لم يوفق وانتشرت التسيبحة وذاع صيتها فى كل الأوساط فى عيد القيامة هذا .

وبينما كان يسير فى الطريق عائداً إلى بيته وهو يترنم بنغمات التسيبحة اتجه عقله إلى التفكير فى مؤلفها وفى الأسباب التى دفعته إلى وضع موسيقاها . يا لهذا الموسيقى من شخص تجيش نفسه بشقى العواطف ! ولما كان فى حيرة أليمة من أمره بسبب وقوعه بين نارى « سو » و « أرابيلا » ، وبسبب قلقه وعذابه ضميره من جراء تعقد موقفه ، كم اشتاقت نفسه إلى معرفة ذلك الرجل ! قال يحادث نفسه : « إنه من بين جميع الناس يستطيع أن يدرك حقيقة مأسائى ! » .

ولو أن « جود » ود أن يختار من بين جميع الناس شخصاً يبوح له بدخيلة نفسه لكان هذا الموسيقى هو النجى إذ ما من شك فى أنه تعذب مثله كما أحس بقلبه ينفطر ولا بد أنه كابد لواعج الشوق .

وباختصار ، وعلى رغم عجزه عن تدبير الوقت والمال اللازمين للرحلة ، صمم على التوجه إلى « كينيتبردج » فى يوم الأحد التالى وكان فى تصميمه هذا كالطفل فى عناده . وفى اللحظة المناسبة بدأ رحلته فى ساعة مبكرة من الصباح إذ كان عليه أن يستقبل عدداً من القطارات فى أماكن متفرقة كي يصل إلى المدينة التى يقصدها فوصلها حول منتصف النهار . وبعد أن عبر الجسر إلى الضاحية القديمة ذات الأبنية العتيقة سأل عن بيت الموسيقى فأخبره الناس أنه يعيش فى بناء من الطوب الأحمر يقع على مسيرة بضع خطوات كما أخبروه أنه مر لتوه فى الطريق .

قال فى شوق : « وأى طريق ؟ » .

— « الطريق المؤدى من الكنيسة إلى البيت » .

وجد فى السير وسرعان ما ملح على مسيرة بضع خطوات منه رجلاً فى رداء أسود وعلى رأسه قبعة سوداء عريضة الحافة فأسرع الخطا وراءه وهو يقول :



« ثمة روح جائعة تسعى وراء روح شهبعة لا بد لي من أتحدث إلى هذا الرجل ، -  
ولم يستطع أن يدرك الموسيقى قبل أن يدخل بيته وعند ذلك نشأت مشكلة  
جديدة :

« هل الوقت مناسب للزيارة ؟ أيتقدم أم يحجم وأى الشئيين يفعل في هذه  
اللحظة وقد جاء إلى هنا والمسافة التي يجب أن يقطعها ليعود من حيث أتى كبيرة  
بحيث لا يستطيع أن ينتظر حلول المساء ؟ هذا الموسيقى ذو النفس الحية والشعور  
المرهف لن تتطلب مقابله إجراءات خاصة ومن المحتمل أن يصبح له ناصحاً أميناً  
في قضيته التي تنطوي على حب أرضى غير مشروع تسلل إلى شغاف قلبه في غفلة  
من العقل وفي تعارض مع إعداده الديني . وأخيراً دق جرس الباب مستأذناً في  
الدخول وبعد لحظة جاء إليه الموسيقى . ولما كان « جود » حسن البزة ، مرتب  
المهني ، برى المظهر ، احتفل الموسيقى بمقدمه احتفالاً خاصاً ، وإن كان الضيف  
على بينة من دقة موقفه وما يكتنف هذا الموقف من صعوبة في الإفصاح عن المهمة  
التي جاء من أجلها .

قال جود : « لقد انضمت إلى فرقة المنشدين في كنيسة صغيرة بالقرب من  
« ملشستر » وفي هذا الأسبوع تدرّبنا على إنشاد تسيبحة « عند قاعدة الصليب » ،  
وهي على ما أعتقد من تأليفك . أليس كذلك ؟ » .

— « نعم فقد فعلت ذلك أو ما يقرب منه ،

— « إنني أحب هذه التسيبحة وأعتقد أنها غاية في الجمال ، » .

— « هذا حسن ... هكذا قال لي أناس كثيرون . نعم . لاشك أنها سوف  
تدر على مالا وفيرا . هذا إذا استطعت فقط أن أطبعها وأنشرها على الناس .  
لدى مقطوعات أخرى كثيرة يمكن أن تضم لإيها وأحب أن أخرجها كلها في مجلد  
واحد إذ أنني لم أربح من وراء هذه التسيبحة شيئاً حتى هذه اللحظة . بالأولئك  
الناشرين ! إنهم دائماً يبحثون عن مؤلف مغمور مثلي ويشترون منه حق التأليف  
في مقابل مبلغ زهيد لا يزيد على ما أدفعه عادة للناسخ . أما التسيبحة التي تتحدث

عنها فقد أعرت لها لعدد من الأصدقاء الذين يقطنون هذا المكان « ميشستر » وهكذا قدر لها أن تجد من ينشدها ومن يسمعها . على أن الموسيقى ليست بالشئ الذى يقيم أود المرء وعلى ذلك فأنا أفكر جدياً فى هجرها . وفى أيامنا هذه لا يد لمن ينشد الغنى أن يشتغل بالتجارة وأنا أفكر فى الاشتغال بتجارة الخور وإليك قائمة بالأنواع التى أنوى أن أبيعها للناس . هذه القائمة ، وإن لم تصبح نهائية ، إلا أننى أستطيع أن أعطيك إياداً . وأعطى الموسيقى « جود » قائمة على شكل كتيب من عدة صفحات يزيناها دواش أحمر وتتضمن أسماء أنواع من النايذ والشمبانيا وأنواع من البورتر والشيرى وغير ذلك من الأنبيذ التى ينوى أن يتخذ من تجارتها ميداناً لعمله الجديد . غير أن « جود » تمسوى تحت صدمة المفاجأة باكتشافه الحقيقة الرجل الذى ظن أنه من أصحاب النفوس الرقيقة الحاملة وبذلك لم يستطع أن يفتح له صدره إيدى إليه باعتراقاته .

وأخذ الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث والكن فى تحفظ ، إذ عندما اكتشف الموسيقى أن « جود » ليس من أصحاب الجاه تغيرت طريقة معاملته له عما كانت فى بدء المقابلة وعند ما ظن أنه من أصحاب المنزلة الاجتماعية الممتازة . وبعد أن تتم بوضع كلمات متعثرة تصد بها التعبير عن شعوره نحو صاحب البيت وتمنته على روعة إنتاجه ، غادر « جود » المكان فى حرج ظاهر .

وطوال الوقت الذى أمضاه فى قطار الأحد البطيء عائداً إلى بيته ، وفى غرف الانتظار الخالية من التدفئة ، تملكه شعور بالانقباض لسذاجته التى أوحى إليه بأن يقوم بهذه الرحلة .

وعند وصوله إلى بيته فى « ميشستر » وجد فى انتظاره خطاباً جاء عقب مغادرته البيت مباشرة وكان رسالة قصيرة كتبها « سو » وذكرت فيها فى رقة زائدة أنها زدت أشد الندم على منعها إياه من الحجى لرؤيتها وأنها احتقرت نفسها لموقفها هذا المتسم بالرجعية والتأخر . كما ذكرت أن باستطاعته الحضور فى نفس اليوم الذى وصل فيه الخطاب بركوبه قطار الثانية عشرة إلاربعا

وبذلك يتمكن من تناول الطعام معها ومع زوجها في تمام الواحدة والنصف بعد الظهر .

وكاد يمزق شعره غيظاً لأنه تسلم الخطاب بعد فوات الوقت فلم يستطع أن ينفذ ما جاء فيه . غير أنه دأب أخيراً على تهذيب نفسه والاقتصاص منها كلما دعت الظروف إلى ذلك . وفي النهاية بدت رحلته الأسطورية إلى « كينتبرج » كما لو كانت تدخلا جديداً من القدر كي يبعده عن موطن الفتنة . أما الشعور الذي ظل يراود نفسه في الفترة الأخيرة ، وهو الشعور المنطوى على الضيق بالقدر وأساليبه ، فقد أخذ الآن ينمو في نفسه ويدفعه إلى الاعتقاد بتفاهة حياة الإنسان وعدم جدواها . لقد اشتاق إلى رؤية « سو » وغضب لأنه أضاع فرصة مقابلتها فقام لتوه وكتب لها موضحاً حقيقة ما حدث . قال إن معين صبره نفذ وإن يستطيع الانتظار حتى الأحد التالي لذا لا بد أن يهرع إليها في أى يوم من أيام الأسبوع ترغب في تعيينه .

ولما كانت الطريقة التي كتب بها خطابها تنسم بالحاسة الزائدة ، فإن « سو » رأت كمعادتها أن تؤجل كتابة ردها حتى الخدس السابق على الجمعة الحزينة . في ذلك الرد ذكرت أن في استطاعته زيارتها في مساء نفس اليوم ، لو رغب في ذلك ، وأوضحت أنها لم تستطع أن تستقبله قبل ذلك إذ كانت تعمل في المدرسة التي يديرها زوجها . على هذا حصل على أجازة من عمله في الكاتدرائية مضحياً في سبيل ذلك بأجره اليومي ورحل إلى حيث يلقاها .



# الباب الرابع

## « في شاستون »



« والذي يفضل شريعة الزواج -  
أو أية شريعة أخرى — على شريعة  
العمل لخير الإنسانية ونشر مقتضيات  
الفضيلة والمحبة ، لن يفوق قدره عند  
الله قدر الكتبة والفريسيين مهما كان  
مذهبه الديني » .

« ج ... ميلتون ،

## ( ١ )

ها هي « شاستون » الوافية البريطانية القديمة التي تسمى بريطانيا من كل شر .  
وكما قال الشاعر « درايتون » متغنياً بجمالها :  
« ومن أعماق نشأتها يقوم حديثها العجيب »

وهي كانت ، وما زالت ، في ذاتها مدينة الأحلام . فالصور الغامضة لقلعتها  
ولدورها الثلاث لسك النقود ، ولديرها الفخيم ذي النقوش الموحدة - وهو فخر  
سكان وسكس الجنوبية - وأشكال كنائسها الاثني عشرة ، وأضرحتها ، ونصبها ،  
ومستشفياتها ، وقلاعها المقامة من الحجارة البيضاء ، وقد تهدمت كلها الآن  
وتداعت قوائمها ، من شأنها كلها أن تدفع بالزائر برغم أنفه إلى خضم عميق من  
الأفكار الحزينة .

كانت البقعة مقبرة لملك ومملكة وعدد من رؤساء ورؤيسات الأديرة ومن  
القديسين والأساقفة وأصحاب الألقاب وسادة الريف . وإلى هذا المكان نقلت  
رفات الملك إدوارد الملقب بالشهيد وحفظت بكل عناية وتقديس وهذا هو  
ما أكسب « شاستون » شهرة واسعة وجعل منها مزاراً للتجاج من كل أجزاء  
القارة الأوربية ، وبذلك طارصيتها وذاع اسمها إلى ما وراء الشواطئ البريطانية .  
وإن اضمحلال الآثار الدالة على العصر الوسيط والمتبقية منه ، هو في نظر المؤرخين  
بداية النهاية لمنطقة من أشهر مناطق إنجلترا ، فتح اندثار الدير العظيم تردى المكان  
كله في هوة سحيقة من التلاشي إذ لقيت عظام الشهداء نفس مصير المتابر التي ضمتها  
فما من حجر واحد هناك يدل الباحث على مكان تلك الرفات .

ومع ذلك ما زال أثر الجمال الطبيعي لتلك المدينة باقياً هناك . وكذلك  
مظهرها الفذ ، وإن كان مما يثير العجب القول إن تلك الصفات التي لاحظها العديد  
من السكتاب الذين اشتهروا في عهود لم يكن فيها لجمال المناظر الطبيعية وزن خاص ،  
قد أهملت وغضت من شأنها الآن في تلك المدينة مما ترتب عليه أن بقعة من أقدم  
بقاع إنجلترا ذات الجمال الغريب أصبحت اليوم محرومة من الزائرين .



ولهذه المدينة موقع فريد فهمى على قمة منحدر رميب يعود إلى الارتفاع عند الجوانب الشمالية والجنوبية والخرمسة للدائرة السكنية صاعداً من أعماق وادى « بلاكمور » الطميين . وإن المتجول فى تلك المنطقة ليفاجأ بالقلعة الخضراء وما تمنحه إياه من منظر عام يضم أطراف ثلاث مقاطعات خضراء الحواشى هي جنوب ووسط وشمال وسكس ، كما يفاجأ بالطواء العليل فيعجب منه عباً ويمأله رثيئه . ولما كان الوصول إلى هذا المكان بالقطار الحديدية غير ميسور ، أصبح السير على الأقدام خير وسيلة لذلك . وبعد السير على الأقدام يأتى استعمال العربات الخفيفة ولا بد لأصحابها من المرور فوق ما يشبه البرزخ وهو يربط ذلك المكان بالهضبة الطباشيرية المرتفعة الواقعة على ذلك الجانب .

تلك هي ، وهكذا كانت ، « شاستون » التى نسيها العالم . لقد جعل موقعها من الماء مشكلة . والماء يبق مشكلة « شاستون » الأولى وطالما شوهده الناس والخيول والحمير وهم يجدون فى السير مصعبين فى المسالك الوعرة بنية الوصول إلى أعلى مكان فى المرتفع وهم يحملون بالقصاع والبراميل والأواني المترعة بالمياه المستخرجة من الآبار الواقعة عند سفح الجبل . وكثيراً أيضاً ما شوهده البائعون الجاثلون وهم يبيعون الماء بما قيمته نصف بنس للدلو الواحد .

هذه الصعوبة فى الحصول على المياه تضاف إلى أمرين آخرين عجيبين فى طبيعتهما . الأول أن المدفن الرئيسى للمدينة يقع فوق أعلى المرتفع ويؤلف ما يشبه جداراً خلفياً مطلساً على الكنييسة ، والأمر الثانى أن المدينة مرت فى سالف الأيام بفترة عجيبة من الفساد الخلقى والانحلال المذهبى والاجتماعى . هذا هو الأصل فى القول إن شهرة « شاستون » تقوم على اعتبارات ثلاثة يجسد فيها الإنسان عزاء له وسلوى ولا يجسد مثيلاً لها فى بقعة أخرى من بقاع العالم ، فشاستون مكان تيمور مدافنه السباء وتطاو لها أكثر مما تطاولها منارة كنيسة لها . و « شاستون » مكان يزيد فيه مشروب البيرة على الماء . وأخيراً هي مكان تكثر فيه أنصاف الحرائر من النساء ويفوق عددهن عدد الزوجات والفتيات حسنات السمعة . وكذلك قيل إنه عقب انقضاء العصر الوسيط كان أهل المدينة من الفقر

بحيث عجزوا عن دفع مرتبات قسيسيهم ومن ثم اضطروا إلى هدم كنائسهم والانصراف كلية عن عبادة الله وهو إجراء نحسروا عليه أثناء جلوسهم للشراب داخل حاناتهم في أصائل أيام الآحاد ففي تلك الأيام لم يكن أهل « شاستون » مجردين من روح الدعابة .

صفة أخرى تميزت بها « شاستون » وهي صفة حديثة ويبدو أنها ترجع إلى طبيعة موقعها . كانت المدينة مركزاً لأصحاب العربات الجائلة والمعارض المتنقلة وساحات ضرب النار وغير ذلك من النشاط الدوار الذي يتخذ من المعارض والأسواق مجالاً له . وبينما ترى طيور جارحة عجيبة وهي تتجمع فوق هضبة عالية حيث تهدأ في أماكنها استعداداً لرحلاتها الطويلة أو تهيؤاً للعودة من حيث أتت ، فإنه هنا في هذه المدينة المعلقة تقف القوافل الصفراء والخضراء جامدة وعلى جوانبها أسماء ليست محلية كما لو أدهشها تغيير عنيف في الأرض المنبسطة أمامها بحيث يعوقها عن مواصلة سيرها . إنها تبقى هنا عادة طوال الشتاء وفي نهايته تعود مرة أخرى إلى البحث عن مساكنها القديمة عندما يحل الربيع .

فإلى هذه البقعة الرطبة ذات الجو المتغير صعد « جود » للمرة الأولى في حياته قادماً من أقرب محطة للسكة الحديدية وكانت الساعة أشرفت على الرابعة بعد ظهر أحد الأيام . وبعد أن اقتحم قمة الجبل عقب جهد شديد من التسلق المضني ، أشرف على المنازل الأولى للبلدية المعلقة . ثم ترك هذه المنازل خلفه في سيره نحو البيت الصغير الملحق بالمدرسة . ولما كان الوقت ما زال مبكراً وجد أن الأطفال ما زالوا بالمدرسة يلعبون في جماعات تزوم كحشد من البعوض ، وعند ذلك مشى خطوات قليلة في « عطفة الدير » ومن هناك نظر إلى البقعة التي جعل منها القدر مقاماً لأعز شيء لديه في الوجود . وأمام المدرسة ... وكانت وسيعاً الأرجاء صخرية البناء ... نمت زائتان ضخمتان جذعاهما أملسان بلون جلود الفئران وهذا النوع من الأشجار لا ينمو إلا فوق المرتفعات الطباشيرية . وخلف النوافذ ذات المربعات والبراقع المستعرضة استطاع أن يلمح رؤوس التلاميذ تسكسوها تيجان من الشعر الأسود والأسمر والسكتفاني وهي تبدو واضحة حول الحواف السفلى

اتلك النوافذ . ولكي يقطع الوقت أخذ يمشى قليلاً في الساحة المنبسطة التي كانت في ماضى الأيام حدائق الدير وقلبه يدق على الرغم منه .

ولما لم يكن راغباً في الدخول حتى ينصرف الأطفال ، بقى في مكانه إلى أن سمع الأصوات الصغيرة وهي تحترق الهواء وبعدها ظهرت البنات الصغيرات في مرايلهن البيضاء وأثوابهن الحمراء والزرقاء يقفزن ويرقصن وسط الممرات التي خلطت فيها قبل الآن بقرون ثلاثة رئيسة الدير والكاهنة ومساعدة الكاهنة وخمسون راهبة . وعندما عاد وجد أنه ينتظر أكثر مما ينبغي إذ كانت «سو» توجهت إلى المدينة عقب انصراف آخر طفل بالمدرسة وكان ذهابها يرجع إلى تغيب السيد «فيلوتسون» طيلة أصيل ذلك اليوم حيث توجه إلى «شوتسفورد» لحضور اجتماع دورى للدرسين .

ودخل القاعة وجلس فيها بعد أن أخبرته الخادمة أن السيدة «فيلوتسون» سوف تعود بعد فترة قصيرة . وبالقرب منه شاهد معزفاً وكان هو نفس البيانو القديم الذي رآه عند «فيلوتسون» في «ميريجرين» وعلى الرغم من أن الضوء الضعيف داخل القاعة حال دون رؤيته لمفاتيح المعزف إلا أنه قام ودق عليها بطريقة المتواضعة ولم يستطع إلا أن يعزف التسيحة التي استولت على لبه طيلة الأسبوع السابق .

ومن خلفه تحرك شبح ولسكنه لم يعرفه اهتماماً ظناً منه أنها الخادمة وظل في مكانه حتى اقترب الشبح منه وضغط بيده على أصابعه ضغطاً خفيفاً — أما اليد صاحبة الأصابع فكانت صغيرة وخيل إليه أنه خبير بها . عند ذلك تنبه . قالت «سو» : «لا تتوقف عن العزف فإننى أحب هذه القسيحة وقد تعلمتها قبل مغادرتي لميلشستر وكان من عادة القوم في دار المعلميات أن يعزفوها كل يوم» .

— «ان أستطيع العزف وأنت أمامي . اعزفها أنت من أجلي» .

— «حسن وإني لا أمانع في ذلك» .

وجلست «سو» أمام البيانو وبدأ عزفها للقطعة ، وعلى الرغم من أنها تمتاز بالبراعة الفائقة فإنه كان شيئاً عالياً بالقياس إلى عزفه وكانت هي الأخرى ، لدهشته ، متأثرة بجو التسيبجة أيما تأثر . وعند ما فرغت من عزفها وشرع يحرك يده في اتجاه يدها تقابلت اليدين في منتصف المسافة فقبض بيده على يدها تماماً كما فعل ذبل زواجها .

قالت في صوت متغير تماماً : « إن نفسي لتتأثر كثيراً لهذه التسيبجة وهو شيء يشير السجوب لأن ... » .

— « لأن ماذا ؟ » .

— « لأنني لست من ذلك النوع تماماً » .

— « من النوع الذي لا يتأثر بسهولة ؟ » .

— « لم أقصد ذلك تماماً » .

— « ولكنك واحدة من هذا النوع إذ أن قلبك مثل ناي تماماً » .

— « واسننا كذلك في العقل » .

واستمرت في العزف وفجأة استدارت وبدافع غريزي مفاجي أمسك كل منهما يد الآخر مرة أخرى .

وأطلقت ضحكة صغيرة مختصبة بينما كانت تستنصص يدها من يديه في سرعة وهي تقول : « ما أعجب ذلك ، ما الذي دعانا إلى فعل هذا ؟ » .

— « إننا متشابهان كما سبق أن قلت » .

— « واسكننا اسننا كذلك في أفسكارنا ! وقد نكون متشابهين تأيلاً في مشاعرنا الصغيرة » .

— « وهي تشبهكم في الأفكار . ألا يكفي لسكني يكفر الإنسان أن يقول إن مؤلف هذه التريمة هو من أنفه من قابلت من الناس » .

... « ماذا ، وهل تعرفه ؟ » .

... « ذهبت إليه لأراه » .

... « ويحك ! فعلت ما فعلته أنا ، لماذا ؟ »

قال في خشونة : « لأننا لسنا متشابهين ؟ » .

قالت « سو » : « دعنا نتناول قليلا من الشاي .. أتفضل أن تشربه دنا بدلا من المنزل ؟ من السهل على أن أحضر الغلاية وأدوات الشاي فلسنا كما تعلم نعيش في المدرسة .. بل نقيم في ذلك البيت القديم الواقع عبر الطريق والمسمى بالأيكة القديمة . ياله من بناء عتيق مقبض يلا نفسي كآبة . مثل هذه الأبنية خليفة بالزيارة ولاكنها لا تصلح مكانا يعيش فيه الإنسان ، وإنني أحس بانسحاق نفسي كلما تذكرت كم من الخلائق قضت نحبها وكَم من النفوس درجت داخل ذلك البناء القديم . وفي الأماكن الجديدة الشبيهة بهذه المدرسة لن يعني المرء بشيء سوى حياته . فليس هنا ودعني أكف « إذا » بإحضار أدوات الشاي من البناء المقابل » .

وجلس في ضوء المصطلي وكانت « سو » قد فتحت بابها قبل مغادرتها المكان ، وعندما عادت وفي أثرها خادمتها تحمل لها أدوات الشاي ، جلست و « جود » في نفس الضوء الصادر عن المصطلي وفي هذه المرة تدعمه أسمع زرقاء صادرة عن المصباح الكهربائي الذي يشتعل أسفل الغلاية النحاسية .

قالت وهي تشير إلى الغلاية النحاسية : « إنها إحدى الهدايا التي قدتها إلي بمناسبة زواجي » .

قال : « نعم » .

وبدأت الغلاية تنفث بما في داخلها من ماء يغلي ويفور وخيل إليه أن في غنائها نغمة تسخر منه ، ولما بقي بغير من الموضوع قال : « هل تدلينني على طمعة

جيدة أقرأ فيها الأسفار المحذوفة من العهد الجديد؟ إنكم هنا في هذه المدرسة لا تقرأون هذه الأسفار على ما أظن .

— « لا لا . فقراءتها لا بد أن تثير الناس هنا ومع ذلك لدينا بعض أجزاء منها ولا أعرف عنها الكثير وإن كنت قد أغرمت بقراءتها عندما كان صديق الأول على قيد الحياة واسم هذه الطبعة « الأجزاء المحذوفة الأكبر » .  
« أظن أن هذا هو ما أريد بالضبط » .

قال ذلك واهتز كيانه في عنف عند سماعه كلمة « صديق الأول » وكانت تعني بذلك زميل الجامعة الذي عرفته في شبابه الباكر . وأخذ يسأل نفسه متعجباً عما إذا كانت ذكرت شيئاً عنه أمام « فيلوتسون » .

— « إن سفر « نيقوديموس » غاية في الرقة » . هكذا طمأنعت تقول حتى تباعد به عن أفكاره المشبعة بانفعالات الفيرة وقد قرأتها كمادتها مكتوبة على ملامح وجهه . والواقع أنهما عندما يتحدثان عن موضوع عادي كهذا لا بد أن ينشأ بينهما حديث آخر صامت يعبر عما يحول في صدرهما من عواطف حيث كانت العلاقة الروحية بينهما غاية في الإحكام . واستمرت تقول : « يشبه هذا السفر الكتاب الأصلي شبهاً دقيقاً وهو مقسم إلى آيات كغيره من الأسفار بحيث يتعذر في بعض الأحيان التفريق بينه وبين الأسفار الأخرى ولكن يا «جود» أما زلت كعهدى بك مهتماً بتلك الموضوعات ؟ أما زلت تدرس كتاب « الدفاع عن المسيحية ؟ » .

— « نعم ما زلت أدرس اللاهوت أكثر من أى وقت مضى » .

وهنا أخذت ترمقه في فضول فقال لها :

— « لم تنظرين إلى هكذا ؟ » .

— « ولم تود أن تعرف ؟ » .

— « إني على ثقة من أنك تستطيعين أن تخبريني بأى شيء أجعله في هذا الموضوع إذ لا بد تعلمت أشياء عديدة عن طريق صديقك العزيز المتوفى » .

قالت في لطف وكأنا تتقي غضبه : « دعنا من هذا الآن . هل ستذهب مرة أخرى في الأسبوع القادم إلى تلك الكنيسة التي تعلمت فيها التشبيحة الجميلة ؟ »  
— « ربما » .

— « سيكون ذلك رائعاً - هل آتي لأراك ؟ إنها تقع في هذا الاتجاه وباستطاعتى أن أسئلك القطار إليها في أصيل أى يوم » .

— « لا . لا تأتي » .

— « ماذا ؟ وهل لن نصبح أصدقاء كما كنا دائماً ؟ » .

— « لا » .

— « ما عرفت ذلك قط بل كنت أظن أنك ستسكون دائماً عطوفاً على » .

— « لا . لست كذلك » .

— « وما الذى فعلته . كنت أظن دائماً أننا - ... » .

وهنا ارتعش صوتها فتوقفت عن الحديث .

قال في اقتضاب : « فى بعض الأحيان يخيّل إلى أنك فتاة لمحب » .

وساد بينهما صمت مؤقت وجفاة قهرت واقفة في مكانها ، ولدهشته رأى على الضوء الضعيف المشتعل تحت الغلاية أن وجهها محترق .

قالت وقد عادت إلى صوتها زبرته الحزينة : « ليس في مقدورى أن أتحدث إليك بعد الآن يا «جود» ، ولا يجوز أن نبقي هكذا معا بعد أن تقدم بنا الوقت وازداد الظلام ، وبخاصة بعد كل هذا الذى قلناه . ينبغي ألا نجلس هنا ونتحدث بهذه الطريقة . نعم . يجب أن تذهب الآن إذ أنك تخطيء فهمي . إني عكس ما تقول تماماً وإن في قولك لقسوة ، رحاك يا «جود» . من القسوة أن تقول ذلك . ومع هذا لا أستطيع أن أخبرك بالحقيقة بل ينبغي ألا تصدم عندما تعرف أنني لا أستطيع أن أقاوم نزواتي ولا أرى الجمال إلا كعمل يمارس وليس كشيء

يحبس . بعض النساء تجيش صدورهن برغبة ملحة في أن يبين ويوادن الآخرون  
وذلك إلى جانب شعورهن الجارف بضرورة أن يمارسن الحب بأنفسهن ، وفي هذه  
الحال يسكتن عن أن يهينه بصفة دائمة المستحق له شرعا ودينا .  
ولكنك غاية في الاستقامة وسلامة الطوية يا « جود » بحيث لا يمكنك أن  
تفهمنى . أما الآن فلا بد أن ترحل وإنى لأسفة لأن زوجى ليس الآن بالمنزل .

— « وهل أنت آسفة حقا ؟ » .

« أظن أننى قلت ذلك وفقا للأصول المرعية . أما من جهة الواقع فلا أظن  
أننى حقا آسفة فوجود زوجى أو عدمه ليس بالنسبة لى بالأمر الهام وإن كان  
يحزننى أن أقول ذلك » .

ولما كانا قد بالغنا بعض الشيء فى القبض على الأيدى وتحمسهما عند بدء  
تلاقيهما فإن « سو » تعمدت الآن أن تلبس أصابعه بسلة خفيفة وهو يودعها  
استعدادا للرحيل . ولم يكمد يخرج من الباب حتى قفزت من مكانها فى حركة تتم  
عن القلق وفتحت الرداة الحديدية النافذة وكان هو قد أصبح الآن تحتها وهو فى  
طريقه إلى خارج البيت وقالت : « متى ترك هذا المكان لتنتقل القطار يا جود ؟ » .  
« ورفع إلهام رأسه فى استخراب وقال : إن الحافلة التى تنقل المسافرين إلى المحطة  
تتحرك من هنا بعد ثلاثة أرباع الساعة أو ما يقرب من ذلك » .

— « وما الذى تنوى عمله فى هذه الأثناء ؟ » .

— « أتجول فى المنطقة وقد أذهب إلى الكنيسة القديمة وأمضى هناك  
بعض الوقت » .

— « إنها لقسوة منى أن أدعك ترحل على هذه الصورة . لقد شجعت من  
التردد على الكنائس ولا لزوم للذهاب إلى واحدة منها فى الظلام . ابق هناك » .

— « وما تقصدين بهناك ؟ » .

— « أقصد هناك حيث أنت ، ومن الأفضل أن أتحدث إليك هكذا » .



كان عطفًا منك ورقة أن تضجى بأجر نصف يوم كامل كي تأتى اترانى . أنت أنت يوسف الأحلام يا . جود ، ، كما أنك تشبهه « دون كخوته » ، شهبها فاجعا . فى بعض الأحايين أتخيلك القديس « اسطفانوس » الذى كان يرى السماوات مفتوحة أمام عينيه وهو يرحم بالحجارة . واأسفاه لك أيها الصديق والرفيق المسكين . لسوف تتألم أكثر من ذلك ! »

ولما كانت النافذة بإطارها الصلب قامت حائلا بينهما الآن ، بداعلى « سو » أنها لا تجد حرجا فى الإكثار من الأحاديث الصريحة التى تخشى الخوض فيها عندما كانا معا لا يفصل بينهما فاصل . وظلت تتحدث ونفسها محتاجة : كنت أقول فى نفسى إن أوضاعنا الاجتماعية التى حددتها لنا قوانين الحياة الحديثة لا تمت بكبير صلة لما قد خلقنا عليه من طبائع وهذا لا يختلف كثيرا عن الشكل الظاهرى للنجوم بالنسبة لأوضاعها الحقيقية فى المجموعة النجمية التى تنتمى إليها . يدعوننى الناس بالسيدة « ريتشارد فيلوتسون » ، ويظنون أنى أعيش حياة زوجية هادئة مع صاحب هذا الاسم ، غير أنى لست هكذا ، بل أنا امرأة وحيدة تتجاذبنى تيارات الحياة وتمتلى صدرى بالعواطف الضالة والبغضاء التى لا يمكن تعليل مصدرها . والآن ينبغى ألا تنتظر أكثر عما انتظرت وألا تفوتك المركبة . تعال اترانى مرة أخرى وفى المرة القادمة لتسكن وجهتك المنزل مباشرة .

قال « جود » : « نعم - ومضى آتى ؟ » .

— « مثل غد من الأسبوع القادم . والآن إلى اللقاء » .

وعندما قالت ذلك مدت يدها وربت على جبهته مواسية وأجابها على توديعها إياه ثم اختفى فى الظلام .

وعند وصوله إلى شارع « بيمبورت » خيل إليه أنه سمع عجلات المركبة وهى تسير إلى المحطة . وعندما وصل إلى الموقف المخصص لها اكتشف أنها حقا قامت . ولما كان من المستحيل عليه أن يصل إلى المحطة سيرا على قدميه قبل وصول

القطار فإنه وطد نفسه على البقاء . انتظارا للقطار التالي الأخير الذى يتجه إلى  
« ميلشستر » فى تلك الليلة .

وأخذ يتجول فى المدينة فترة وابتاع شيئا يأكله . ولما كان لديه نصف ساعة  
أخرى ، قاده قدماءه إلى كنيسة « الثالث الأقدس » ومقبرتها الفخمة ذات الطرقات  
الواسعة المحاطة بأشجار الزيزفون . كان الظلام خنيا على كل شيء . ولما كانت  
أخبرته أنها تسكن فى الشارع المؤدى إلى « أولد جروف » بليس ، استطاع أن يكتشف  
البيت القديم الذى تعيش فيه مما ذكرت له من أوصاف .

وفى نافذة أمامية شاهد شجرة مشتعلة وكان لها يهز وراه من بعد إذ كانت  
الردادات مازالت مفتوحة . وفى مقدوره أن يرى بوضوح أرضية الغرفة حيث  
إنها أوطأ قليلا من الطريق الذى ارتفع فى مدى القرون العديدة التى مرت منذ بنى  
هذا البيت . ومن الواضح أن « سو » عادت توال إذ كانت تقف فى الردهة الخارجية  
للبنزل وقبعتهما فوق رأسها والردهة غطيت حوائطها كلها بالواح من خشب البلوط ،  
كما برزت من سقفها عوارض سميكة تدات فكادت تصل إلى ما قبل الرأس بقليل .

وكان رف المدفأة من نفس النوع السميكة من الخشب المعتلى . بالأعمدة  
المربوعة والنقوش البارزة . من الواضح أن مئات السنين تأخذ بتلايب شابة  
تمضى حياتها فى هذا المكان القديم .

وفتحت « سو » صندوقا صغيرا من خشب الورد وأخذت تنظر إلى صورة  
بداخله ، وبعد أن تأملتها لحظة قربتها من صدرها ثم أعادتها إلى مكانها فى  
الصندوق . وعندما أدركت أنها لم تغلق النوافذ تقدمت والشمعة فى يدها  
لتفعل ذلك .

وكان الظلام حالكا فى الخارج فلم تستطع أن ترى « جود » وهو يقف فى مكانه  
أما هو فرأى وجهها فى وضوح ولاحظ أثر الدموع فى عينيها الداكنتين ذات  
الرموش الطويلة .

وأغلقت دسو ، الردادات . واستدار ليقوم برحلته إلى بيته وظل يقول في نفسه : « صورة من تلك التي كانت تنظر إليها ؟ » . لقد سبق أن أهداها مرة صورته ولكنه يعرف أن لديها صوراً أخرى . هل هي صورته بكل تأكيد ؟

وعرف أن عليه أن يذهب لرؤيتها مرة ثانية وذلك بناء على دعوتها له . إن ذوى الهمة من الرجال الذين قرأ عنهم والقديسين الذين دعيتهم دسو ، بلا احترام بأنصاف الآلهة ، كان لا بد أن يرفضوا القيام بهذه المقابلة لو لم يكونوا واثقين من مضاعفة عزيمتهم . أما هو فقد عجز عن المقاومة . كان من الممكن أن يصلي ويصوم طوال الفترة السابقة على المقابلة ، ولكن الجانب البشري في نفسه أقوى من الجانب الإلهي .

## ( ٢ )

ومهما يكن من أمر ، إذا لم يكن الله هو الذي يقرر مصير الأمور ، فعلى المرأة يقع عبء ذلك ، إذ مع صباح اليوم التالي جاءته هذه الرسالة القصيرة :

« لا تأت في الأسبوع القادم ، وهذا لصالحك ! لقد أفرطنا بعض الشيء وذلك بتأثير تلك التسيبحة الحزينة بالإضافة إلى سحر الشفق . لا تفكر في أكثر مما يجب ، » . « سوزانا فلوارنس ماري » .

كان أثر الصدمة عليه شديداً . كان يدرك طبيعة مزاجها وانفعالات وجدها عندما كتبت هذه الكلمات . ولكن ، مهما يكن من أمر مزاجها ، لم يستطع القول إنها مخطئة فيما رأت . وعلى ذلك كتب يقول :

« إنني موافق . وأنت على حق فيما ذهبت إليه . هذا درس في الاستسلام على أن أحبه في هذه الفترة من السنة ، » . « جود » .

أرسل إليها هذه الرسالة ليامة عيد الفصح ، وبدأ قرارهما وكأنه صار نهائيا ،  
ولسكن قوى وتوانين أخرى كانت تعمل في صمت . وفي صباح الاثنين التالي لعيد  
الفصح تسلم برقية من الأرملة « أيدلين » إذ أمرها بالإبراق إليه في حالة حدوث  
ما يدعو إلى ذلك . كانت البرقية تقول :

« دخلت العجوز في غيبوبة . احضر حالا » .

وألقى « جود » بأدواته وغادر المكان . وبعد ذلك بثلاث ساعات ونصف  
كان يعبر الوهاد المحيطة « بميريجرين » والحقل المقنر ميما شطر القرية من أقصر  
طريق فيه . وبينما هو يصعد الجانب الآخر أقبل عليه أحسد العمال وكان يقف  
أمام الباب الخارجى يرقب مجيئه . لقد اضطررب هذا العامل قليلا وهو يهم  
بالكلام .

قال جود : « أدرك من وجهك أنها ماتت . يا للعجوز المسكينة ! » .

كان الأمر كما توقع ، وكانت السيدة « أيدلين » هى التى أرسلت العامل ليزوده  
بالأخبار قبل دخول المنزل .

وقال العامل : « ما كانت لتتعرف عليك وهى ترقد كعروس من عرائس  
الأطفال بعينين زجاجيتين ، فلا يهم إذن إن كنت موجودا أم لا » .

ودخل المنزل . وفي الأصيل ، عندما أنهت كل الترتيبات للدفن واحتفى  
عمال الدفن البيرة وانصرف الجميع : جلس وحيدا وسط الصمت الخيم على المكان .  
وكان لا بد من أن يتصل بسو رغم أنهما اتفقا على قطع ما بينهما من صلات ،  
فكتب إليها يقول :

« ماتت الحالة « دروزيلا » ، وكان موتها مفاجئا . ستكون الجنائز في أصيل  
يوم الجمعة » .

وظل يتجول في « ميريجرين » وفي أطرافها طيلة الأيام القليلة التى تلت ذلك . وفي

صباح الجمعة راح يتأكد من أن القبر أهد ، وأخذ يسأل نفسه عما إذا كانت دسوء ، تنوى الحضور . ولما لم تسكتب له في الفترة الأخيرة خيل إليه أنها لا بد آتية وأن حضورها هو الأرجح . ولأنه توقع حضورها بالقطار الوحيد الذي لا بد أن تستقله فإنه أغلق عند الظهر بابه وعبر الفضاء المزروع الموصل إلى الارتفاع المحاذي للبيت الأحمر ، وهناك وقف بتطلع إلى المنظر الفسيح إلى الشمال وإلى الفضاء القريب حيث تقع « ألفردستون » . وخلفها بميلين المح نقطة من بخار أبيض تندفع من يسار الصورة إلى يمينها .

وحق اللحظة كان عليه أن ينتظر طويلا إلى أن يتأكد من أنها حقا وصلت . وعلى أية حال انتظر ، وأخيرا جاءت إلى أسفل التل عربة كراء صغيرة ونزل منها أحد الأشخاص ثم عادت من حيث أتت ، بينما بدأ المارجل يصعد التل . وأدرك أنها هي . ولقد بدت له غاية في النحافة بحيث خيل إليه أنها قد تتحطم وتتلاشى من الوجود لو أنه ضمها إلى صدره ضمة قوية كتلك التي حرمت عليه ولم يعد من حقه أن يهبها لأحد . وفي الجزء الأكبر من الطريق الصاعد ارتفعت هامتها إلى أمة وأخذت مظهر الجزع المشتاق ، فأدرك لتوه أنها أحست بوجوده . وفي الحال ارتسمت على وجهها ابتسامة مبررة استمرت حتى وقف أمامها بعد أن قطع جزءا من الطريق .

وبدأت تقول في اندفاع عصبي : « قامت في نفسي من القسوة أن أتركك تحضر الجنازة وحدك ، وعلى ذلك أتيت في اللحظة الأخيرة » .

غمغم بقول : « إنك العزيزة وإنك المخلصة يا «سو» ! »

وفي قلق يكشف عن خداع طبيعتها المزدوجة وضعت حدا لمزيد من التحية وأسرعت في سيرها رغم أن وقت الدفن لم يكن يتحدث بعد وأن لحظة من لحظات الانفعال المختلط الممزوج بالشجن كتلك ما كان الزمان ليسمح بمثلها ، لذا كان «جود» يفضل أن يقف ويتأمل ويتحدث . أما هي فإما أنها لم تدرك ذلك ولما أنها تدركه أكثر منه ولا تسمح لنفسها بالانسحاق وراء هذه الانفعالات .

وسرعان ما انتهى الاحتفال الحزين البسيط، فقد كان سير المعزين إلى الكنيسة أقرب إلى الخطو السريع، إذ كان على منظم الدفن أن يعد بعد ساعة واحدة لجنائزة أخرى أكثر أهمية وتبعد أميالا ثلاثة . وهكذا دفنت « دروزيلا » في الأرض الجديدة بعيدا جدا عن أسلافها .

أما « سو » و « جود » فقد ذهبا إلى القبر معا ، وهما الآن يجلسان للشاي في البيت المؤلف واتحدت حياتهما أخيرا في هذا الواجب الأخير الذي كان عليهما أن يقرما به نحو قريبتهما المتوفاة .

وغنغمت « سو » تقول : « هل قلت إنها ظلت طول حياتها من المعارضين لنظام الزواج ؟ »

— « نعم ، وبخاصة زواج أفراد أسرتنا » .

وتقا بلت عيناها مع عينيه واستقرت عليهما لحظة .

— « إن أسرتنا من الأسر التي يخيم الحزن على أفرادها . ألا تظن ذلك يا « جود » ؟ »

— « كانت المسكينة تقول إننا لا نصلح كأزواج وزوجات . نحن حقا نشيع التعاسة أينما حللنا ، وأنا على الأقل أحد هؤلاء » .

وظلت « سو » على صمتها . وأخيرا قالت في صوت مرتعش : « ألا يجوز يا « جود » لأحد الزوجين أن يخبر ثالثا بأنه شقي في زواجه ؟ إن كان احتفال الزواج شيئا من صميم الدين فلا بد أن يكون لإيمان أحد الزوجين أمرا كهذا من الأمور الخاطئة . أما إذا كان الزواج مجرد عقد نافذ بين شخصين ، عقد أساسه التوافق في شؤون المنزل وأمور المادة التي تدور حول حصول الزوج على مركز في المجتمع والتخفف من أعباء الضرائب وتوريث الأموال والعقارات الأطفال وغيرها مما يثبت وجود الزوج كما يبدو أنها الحقيقة ، ألا يكون من حق الفرد أن يقول ، بل أن يعلن على رموس الأشهاد أن الزواج يشقيه ويسبب له الأذى والخسار ؟ »

— « سبق أن قلت لك ذلك على صورة من الصور ، .

وايكنها ظلت تقول : « أنظن أن هناك حالات عديدة لزواج يكره فيه أحد الطرفين الآخر دون ما خطأ واضح ؟ » .

— « نعم أعتقد ذلك وبخاصة عندما يشعر أحد الطرفين بعاطفة نحو طرف ثالث ، .

— « وحتى باستثناء ذلك ، ألا تعتبر الزوجة سيئة الخلق لو عافت نفسها الحياة مع زوجها لمجرد أن . . .

هنا تخرج صوته ، فحزر ما تود قوله . ومضت هي تقول :

— « ... لمجرد أن تحس بشعور مضاد ، تضايق طبيعي ، بعنت وشكاسة ، أو كيفما تسمى هذا ، على الرغم من أنها تحس بالاحترام والتقدير لهذا الزوج ؟ إنى فقط أبسط أمامك قضية من القضايا . ألا ينبغي لمثل هذه الزوجة أن تحاول التغلب على أنفعتها وتسعى للقضاء على دوافع التعنت فيها ؟ »

وهنا ألقى عليها نظرة قلقة وقال وهو يدير وجهه إلى الناحية الأخرى :  
« إن تكون هذه بأكثر من قضية من القضايا التي تتصارع فيها الخبرة مع المبادئ .  
وإذا تكلمت كرجل محب للنظام ، وآمل أن أكون كذلك ، وإن كنت أختنى أنى  
أست كذلك ، فينبغى لى أن أوافق على وجهة نظرك : أما إذا تحدثت من وحي  
الخبرة والطبيعة التي لا تتحرف بمنة أو يسرة فلا بد أن أرفض الموافقة على هذا  
القول . « سو » . إنى أعتقد أنك است سعيده ؟ » .

قالت محتجة : « إنى سعيده ، وهذا شيء مؤكد . كيف يمكن لامرأة تكون  
شقية ولم يمس على زواجها من الرجل الذي اختارته بمحض إرادتها أكثر من  
ثمانية أسابيع ؟ » .

— « محض إرادتها ! ، .

— « ولم تكرر هذا القول ؟ وإسكن على أن أعود بقطار السادسة . أما  
أنت فأظن أنك ستظل هنا ، أليس كذلك ؟ »

— « سأظل هنا أياما حتى أنجز أعمال الحائلة . هذا البيت قد انتهى الآن .  
— « هل أصبحك إلى القطار ؟ »

وهنا انطلقت منها ضحكة تعبر بها عن رفضها لما طلب ، وقالت :  
« لا أظن بل قد تصبحني جزءا من العاريت فقط » .

— « ولكن لا مفر لك من البقاء هنا ، إذ لن تستطيعي الرحيل هذه الليلة .  
لن يأخذك هذا القطار إلى « شاستون » ، فابقي حتى غد ، ولدى السيدة « أيدلين »  
مكان لك لو كنت لا تودين البقاء هنا » .

قالت في غموض : « ليسكن » . فإني لم أؤكد له أنني سأعود ،  
وتوجه جود إلى بيت الأرملة ليخبرها . وبعد فترة عاد وجلس في مكانه ،  
وقال في اقتضاب وعيناه على أرضية الغرفة :  
— « ما أبشع أن يتصادم مصيرنا على هذه الصورة يا سو » .

— « ولم هذا القول ؟ »

— « لا أستطيع أن أخبرك بنصيبي من المأساة . أما نصيبك فهو أنك ما كان  
يجدر بك أن تزوجيه . أدركت ذلك قبل أن تنومي بما قسيت به ، ولكنني قررت  
بينى وبين نفسي أن أبتعد ، وكان ذلك خطأ منى ، إذ كان ينبغي لى أن أتدخل » .

— « ولكن ما الذى يجعلك تفترض صحة هذا الزعم أيها العزيز ؟ »

— « لأننى أستطيع أن ألحظ دخيلة نفسك وأدرك حقيقة ما أنت فيه على  
الرغم من كل شيء . يا حماقى الصغيرة . »

ووضعت يدها على المائدة ، فمد يده ووضعها فوقها ، ولكنهما أسرعتا فمسحت  
يدها .

وصاح يقول : « سخييف منك هذا يا «سو» ، وخاصة بعد كل الذى ذكرناه .  
لأنى أكثر منك حرصا لو أن الأمر يتعلق بالأصول ، وإن اعترضك على مثل هذه  
الحركة البريئة ليدل على أنك مليئة بالمتناقضات المضحكة » .



قالت في ندم : « ربما كان ذلك مبالغة ، مني في التحشم . خيل إلى أنها إحدى جيلنا وأن لا لزوم لها الآن . هاك يدي تستطيع أن تمسك بها كما تريد . ترى هل ما أفعله الآن صحيح ؟ »

— « نعم . إنه صحيح للغاية . »

— « ولكنني لا بد أن أخبره بهذا . »

— « تخبرين من ؟ »

— « ريتشارد . »

— « أوه . طبعاً . لو رأيت ضرورة لذلك . واسكنك ستضاييقه بلا مبرر لو فعلت ذلك . »

— « حسن . واسكن أمتاً كد أنت أنك تفعل ذلك كأحد أقربائي ؟ »

— « بكل تأكيد . لم يبق لدى شعور بالحب أستطيع أن أمنحه لأي إنسان . »

— « هذا جديد على . وكيف حدث ذلك ؟ »

— « رأيت أرايلا . »

وأحسّت بالوجيعة لهذه اللطمة وقالت في فضول : « ومتى رأيتها ؟ »

— « عندما كنت في كرايستميسترس . »

— « عادت إذن ولم تخبرني بذلك . أظن أنك ستعيش معها الآن ؟ »

— « طبعاً ، وسأعيش معها كما تعيشين أنت مع زوجك سواء بسواء . »

وظالت تتطلع إلى أصص الزهر الموضوعة على النافذة وتتأمل ما فيها من إبر الراعي ونبات الصبار وقد ذوت جميعها لافتقارها إلى العناية . وأخذت تلقى ببصرها إلى أبعد من ذلك حتى بدأت عيناها تمتلئان بالدموع . فقال في نبرة ناعمة : « ما الخبر ؟ »

— « ولم تملكك الفرحة هكذا لعودتك إليها . لو كان ما اعتدت أن

تقول له لى مازال هو الواقع . أقصد لو لم تكن تقول حينذاك سوى الحقيقة ؟ طبعاً  
ليست هذه الحقيقة الآن ، وإلا كيف يمكن إقناعك أن يعرّد لأرابيلا هكذا  
سريعاً ؟

.. « أعتقد أنه وحي إلهى عاوناه على ساوك هذا الطريق . »

قالت فى شيء من الغضب : « آه . ليس هذا هو الواقع . أنت تعتمد إغاضتى ،  
وهذا كل ما فى الأمر ، لأنك تظن أننى لست سعيدة ! » .

.. « لا أعرف ، ولا أريد أن أعرف . »

.. « إن كنت شقية فى زواجى فذلك خطأى بل قل ذنبى ، وليس لأن من  
حتى ألا أبادله حباً بحب . لأنه يحترمنى دائماً ، وهو شائق جداً فى حديثه لعله العزيز  
واطلاعه الواسع . ما رأيك ؟ أينبنى للرجل أن يتزوج امرأة من سنه أو أصغر  
منه بثمانية عشر عاماً كما هو الحال معى ؟ »

.. « الأمر متوقف على شعور كل من الزوجين إزاء الآخر . »

ولم يشجعها على اصطناع أسباب الرضا بالنفس . لهذا كان عليها أن تسلك هذا  
الطريق دون معاونة منه . وهذا ما فعلته وفى صورتها ما ينم عن الهزيمة ويشبه البكاء .

.. « أظن ... أظن من واجبى أن أكون أمينة معك كما كنت أمينة معى .  
من الجائز أنك أدركت ما أود أن أفصح عنه ، وهو أنى إن كنت أحب السيد  
« فيلوتسون » كصديق ، لا أحبه كزوج ، ومن العذاب لنفسى أن أعيش معه  
تحت سقف واحد . هأنذا كشفت لك عن سرى الدفين ولم أستطع أن أمتنع  
نفسى عن البوح لك به بعد أن تظاهرت بأنى سعيدة . أظن أنك الآن لابد أن  
تحتقرنى إلى الأبد . »

وهنا أحنت رأسها ووضعت وجهها بين راحتيها وهما مدودتان فوق مفروش المائدة  
وأخذت تبكى فى صمت وتزفر زفرات متقطعة اهتزت لها المائدة الصغيرة الضعيفة .

وطفقت تقول ، وهي منكسمة على المائدة تبكى وتنوح :

— « لم يمض على زواجى سوى شهر أو شهرين ، ولقد قيل إن ماتجفل المرأة منه فى أثناء فترة الزواج الباكرة تعتاد تحمله ، بل لاثابه له كثيرا بعد مرور بضعة أعوام . يشبه ذلك إلى حد كبير القول بأنه ما من خسارة تترتب على قطع عضو من أعضاء الجسد طامًا فى طاقة المرأة أن يعتاد على ساق أو ذراع خيشة ، ولم يقو وجوده على الكلام . وبعد جهد قال : « ظننت أن فى الأمر خطأ ما . أوه لقد ظننت ذلك حقا ، »

— « ولكن ليس الأمر كما تظن . ما من خطأ إلا ما جهلت عليه من شر خبيث . وأغاب ظنى أنك تسمى ذلك فى تمردا على الحياة الزوجية بـ «زى» إلى سبب لا أستطيع الكشف عنه ولا يمكن أن يكون مقبولا لدى الناس كافة . إن ما يعذبني كثيرا هو أنني لا بد أن أستجيب لرغبات هذا الرجل وإن كان على خلق . يعذبني أيضا ذلك العقد الخفيف الذى يربطني به والذى يرغمني على إتيان أمور فى موضوع يقوم أصلا على الاختيار والطوعية . أيتها يضر بني أو يسيء معاملتي أو يأتي من الأعمال ما أستطيع أن أتحدث عنه كمبرر لشعورى نحوه ! غير أنه لم يفعل شيئا سوى أنه أصبح بارد العاطفة وذلك منذ اللحظة التى اكتشف فيها شعورى نحوه ! هذا هو السبب فى أنه لم يحضر الجنائز ، كما أنه يحس أنني غاية فى التعاسة ، ولا أدري ماذا أفعل . لا تقترب مني يا «جود» ، لأنه ينبغي ألا تفعل ! أرجوك ألا تقترب مني . »

غير أنه كان قد قفز إلى جوارها واضعا وجهه أمام وجهها أو بالأحرى أمام أذنهما إذ كان وجهها من الأشياء التى لا يمكن الاقتراب منها . — « قلت لك لا تقترب مني يا «جود» . »

— « أعرف أنك قلت ذلك . كل ما أريد هو أن أسرى عنك . إن ما بك من هم نشأ من أنني تزوجت قبل أن ألتقي بك . أليس الأمر كذلك ؟ كان من الممكن أن تصبحي زوجتي يا «سو» لو لم يحدث ذلك . أليس كذلك ؟ »

وبدلا من أن تجيب عن تساؤله نهضت من مكانها بسرعة . وبعد أن قالت

لأنها تود الذهاب إلى قبر العجوز الراحلة في ساحة الكنيسة كي تسترد هدوء نفسها غادرت البيت ، وظل هو في مكانه . ولكنه بعد لحظة شاهدا تعبر الساحة الخضراء إلى بيت السيدة « أيدلين » . وبعد لحظة جاءت صبية لتأخذ الحقيبة وتخبئه أن « سو » غاية في الإرهاق ولا تقوى على رؤيته ثانية في تلك الليلة .

وفي غرفته الصغيرة المنعزلة في بيت العجوز المتوفاة ، جلس يرقب بيت الأرملة « أيدلين » وظلال الليل تطويه . كان يدرك أن « سو » تجلس في داخل ذلك البيت وحيدة كسيرة الفؤاد مثله . فتذرع كعادته بحبل الصبر وأمل خيراً .

وآوى مبكراً إلى فراشه ليستريح . ولكنه نام نوماً منقطعاً لعله بأن « سو » قريبة منه . وقبيل الثانية صباحاً عندما بدأ ينام نوماً أكثر عمقا أيقظه صوت رفيع النبرة عالي النغمة كان يسمعه دائماً في أثناء إقامته في « ميريجرين » . لأنه صوت أرنب سقط في كمين منصوب فأخذ يصرخ . وكما هي عادة هذه المخوقات الضعيفة المسكينة توقف الأرنب سريعاً عن الصراخ وقد لا يصرخ أكثر من مرة أو مرتين بعد ذلك بل يبقى صابراً على عذابه حتى اليوم التالي عندما يأتي الصيد فيهمى على رأسه بضربة تقضي عليه .

بدا ، وهو الذي كان في طفولته يتغذى حياة ديدان الأرض ، يتخيل عذاب الأرنب وأوجاعه بسبب ساقه المكسورة ، فأو كانت المسكة رديئة — وذلك عندما تكون من إحدى الساقين الخائفتين — فلا بد أن يكافح في أثناء الساعات التالية حتى تجرد أسنان الفخ الحديدية عظيمة الشاق عما يكسوها من لحم . ولو أمكن للحيوان أن يتخلص من سجنه بسبب عيب في الفخ فسيفضي نحوه لاحتالة في الحقل القريبة وذلك بسبب ما لحق ساقه من عطب . أما إذا كانت المسكة جديدة ، وذلك عندما تكون من إحدى الساقين الأماميتين ، فلا بد أن تنكسر العظمة وتمزق الساق بسبب ما يأت به الحيوان من محاولات يائسة للهرب .

ومرت نصف ساعة ، وانطلقت صرخة أخرى من الأرنب . ولما كان « جود » لا يستطيع الصبر دون أن يخلص الحيوان عما به من آلام . قام وارتدى ثيابه على

عجل ونزل السلم في ضوء القمر وسار عبر الوادى المغطى بالعشب الأخضر في اتجاه الصوت إلى أن بلغ السياج المحيط بمدينة الأرملة، وهناك وقف وأصاح السمع إلى رنين الفخ وهو دملق بجسم الحيوان الذى يتأوى من الألم . وعندما رأى الأرنب أمامه ضربه بسهم كفه على مؤخرة عنقه فزهقت روحه في الحال .

وفى أثناء عودته شاهد امرأة تطل برأسها من حائط نافذة تقع في الدور السفلى من الكوخ المجاور ، وسمع صوتا وهذا يتحدث إليه ، وكانت « سر » تقول :  
« إنه أنت . أليس كذلك ؟ »

— « نعم يا عزيزتى . »

— « لم أستطع قط أن أنام ، ثم سمعت الأرنب، وأخذت رغما عنى أفكر في سبب عذابه حتى شعرت بضرورة النزول إليه وقتله . غير أننى في غاية السرور لأنك ذهبت إلى هناك قبلى . يذبحى ألا يسمح للناس باستعمال هذه الفخاخ الحديثة . أليس كذلك ؟ »

« وهنا كان « جود » قد بلغ النافذة ، وكانت منخفضة بحيث استطاع أن يرى النصف الأعلى لسو واضحا أمامه . ومدت يدها إليه ووضعتها فوق يده بينما كان وجهها الذى غمره ضوء القمر يتطلع إليه في قلق ظاهر .

وقال : « وهل حال الصوت بينك وبين النوم ؟ »

— « لا : كنت يقظانة ! »

— « وكيف كان ذلك ؟ »

— « أوه ! ماذا أقول . . الآن ؟ إنى أعرف أنك بسبب معتقداتك الدينية تظن أن المرأة المتزوجة التى تعاني في حياتها الزوجية اضطرابا من النوع الذى أعانيه الآن ترتكب ذنبا لا يغتفر وخاصة لو أنها اتخذت من أحد الرجال نجيا لها كما هو حالى معك . وددت لو أننى لم أفعل ! »

قال : « لا تمنى ذلك أيتها العزيزة . يحتفل أننى اعتقدت ذلك في الماضي ، أما

الآن فقد دب الانفصال بين نفسي ومعتقداتي .

— « عرفت ذلك . عرفت ذلك . هذا هو السبب في أنني أقسمت ألا أتعدى على معتقداتك ، ولكنني سعيدة برؤيتك ، وإنني حقاً لم أقصد أن أراك مرة أخرى ، وكنت عازمة على ألا أراك ثانية ، ولا سيما أن الرابطة الأخيرة التي تربطنا وهي المعجوز « دروزيلا » لم يعد لها وجود الآن . »

وأمسك « جود » بيدها وأخذ يغمرها بالقبلات ويقول : « هناك رابطة أخرى أقوى من تلك . لن آبه بعد الآن بمعتقداتي وآرائي الدينية . لنذهب جميعها إلى الجحيم . دعيني أذهب بجانبك حتى وإن كنت أحبك فعلاً . . . . . وحق إن كنت . . . »

— « لا تقلها . أعرف ما تقصد إليه . ولكنني لا أستطيع أن أسمع بكل هذا . والآن فلتظن ما يحلو لك . . . . . ولكن لا تضغط على لتضطرن للإجابة عن أسئلتك ! »

— « ليتك كنت سعيدة . هذه أهمني . ولا يهم بعد ذلك أمري . »

— « لن يكون هذا . فقلاياون هم الذين يمكن أن يقدروا مشاعري . يقول البعض إن تعاسي مرجعها طبيعتي المتقلبة ، أو ما يشابهها من عوامل ، ويدينوني تبعاً لذلك . غير أن مأساتي ليست كأي مأساة أخرى تخلقها قصة حب عادية تنشأ في مجتمع متمدين ، ولكن مأساة خاصة بغيرهم ، إذ أن ذوى الظروف العادية يجدون راحتهم في الفراق . ربما يكون من الخطأ أن أطلعك على مأساة حياتي لو أن في مقدوري أن أقصها على أي إنسان آخر . ولكنني وحيدة في العالم ، ولا مفز لي من التحدث إلى شخص ما . اسمع يا « جود » ، قبل أن يقر عزمي على الزواج منه لم أفكر طويلاً في معنى الزواج ، وإن أدركت كنهه ، وكان ذلك غباء مني ، ولا أتمس بالأعذار لنفسى . لم أكن صغيرة حينئذ ، وظننت أنني دلي درجة كبيرة من الخبرة ، إلى أن اندفعت في ذلك المأزق الذي وقعت فيه بكل تمهور وغباء في دار المعلمات . إنني واثقة من أن المرء لا بد أن يجازي عن الذنب الذي

يأتيه عن جهل . أعتقد أن ما حدث لي وقع لكثير من النساء ، ولستكنهن استسلمن  
لقد رهن بينما تمردت أنا . عندما تنظر الأجيال الصاعدة إلى الوراء متأملة العادات  
البربرية والاتجاهات التي سادت الحقبة التي عشناها وابتأينا بها أسوء حظنا فما  
عسى أن يقولوا ، .

— « يا للدرارة التي تنطوى عليها نفسك . كم أتمنى . كم أتمنى . . . » .  
— « لا بد أن تذهب الآن » .

وفي لحظة اندفاع انحنيت على حافة النافذة ووضعت وجهها فوق شعره وهي  
تبكي ، ثم طبعت على رأسه قبلة صغيرة لا تكاد تحس ، وبعدها مباشرة تراجعت  
مسرعة حتى لا يحيطها بذراعيه إذ كان لا بد له أن يفعل . وأغلقت . النافذة وعاد  
هو إلى كوخه .

### ( ٣ )

ترددت اعترافات « سو » في مخيلة « جود » طول الليل وملأته حزناً . وفي  
الصباح التالي ، عندما حان وقت رحيبها ، رآها سكان الحى تسير في صحبة رفيقها  
وتزل التل متجهة نحو الطريق الخالى من الناس والمؤدى إلى « ألفردستون » .

ومرت ساعة قبل أن يعود « جود » في الطريق نفسه . وعندما عاد بدت على  
وجهه مسحة من الابتهاج لانتحلو من التمسوس والمجازفة ، ودل ذلك على أن حادثاً ما  
وقع .

وقف الاثنان في الطريق الخالى . وكانا على وشك الافتراق . وقادتهما حالتهم  
النفسية المفعمة بالتموتر والانفعال إلى تساؤل حائر عن المدى الذي ينبغي أن  
تصل إليه صداقتهم العميقة . حتى كادا يشتبكان في مشاجرة كلامية . وقالت له  
وعيناها مفعمتان بالدموع إن طالب اللاهوت مثله لا يليق به أن يفكر في تقبيلها ،  
حتى في موقف الوداع كما ود في تلك اللحظة أن يفعل . ثم سلبت بأن القبلة في جد  
ذاتها لا تدل على شيء ، بل المهم هو الدافع إليها ، فلو كانت على اعتبار أنها من

صديق لصديق أو من قريب لقريب فلا اعتراض ولا ملادة . أما إذا منحت بدافع الحب فلا يمكن أن تسمح بها . لذا قالت له : « أقتسم لي أنك لن تقباني قبلة المحبين ؟ » .

لكنه لا يرضى ، فينفصل الاثنان في خصام ، ويقطع كل في اتجاهه مسافة عشرين أو ثلاثين ياردة ، ثم يدير كل منهما وجهه للآخر في لحظة واحدة . وتلك النظرة تقضى على مظهر التحفظ الذي يدعيه كل منهما لنفسه ، وسرعان ما اندفع كل منهما في اتجاه الآخر منجذبا لإياه في شوق عميق ، وارتقى كل منهما في أحضان الآخر مغرقا إياه في فيض من القبلات . وعندما راح كل منهما يسير في طريقه كان الانفعال واضحا على وجهيهما . أما من جهته هو فكان قلبه يدق دقا عنيفا متواصلا .

كانت القبلة نقطة تحول في خطه « جود » للمستقبل . فعندما عاد إلى الكوخ وأخذ يفكر تكشفت أمامه حقيقة واحدة : فائن كانت قبلته لهذا المخلوق الأثيري تعتبر ، وسط حياته المليئة بالذنوب ، أنقى لحظة فيها ، فإنه — ما دام يغذى في نفسه هذه العاطفة غير المشروعة — يصبح جنديا وخادما لدين يعتبر الحب الجنسي ، وهذا أضعف الإيمان ، لعنة من لعنات الحياة . كل ما تحدث عنه « سو » في حرارة لم يعد الحقيقة مجردة عن كل شيء ، ففي استماتته في الدفاع عن حبه وتشبهه القوى بما يحمل لها من عاطفة مشبوبة اتهام صريح له باعتباره أستاذاً من أساتذة الأخلاق السائدة في عصره . فهو عاجز بطبيعته . هو عاجز بمركزه الاجتماعي ، عن القيام بدور الداعية لمذهب مسلم به .

وبما يثير العجب أن طموحه في المرة الأولى لتحقيق تفوق في مجال الدراسة الأكاديمية تعثر بسبب امرأة ، كما أن طموحه في المرة الثانية إلى تحقيق رسالة في مجال الدين وقف كذلك بسبب امرأة . فتساءل : « هل النساء هن المعلومات أم الأوضاع المفتعلة للأشياء ؟ وهل يقع اللوم كله على ذلك النظام الذي تتحول فيه الدوافع الجنسية العادية إلى نفاق عائلية ومصائد بيئية تحتجز الراغبين في الرقي وتعوق سيرهم ؟ » .



كانت رغبته الملحة أن يصبح ، مع شيء من التواضع ، نبيا لأقرانه المكافئين من بنى البشر دون التفكير فى أى نفع شخصى . وعلى الرغم من ذلك ، فبسبب وجود زوجته بعيدة عنه فى عصمة رجل آخر ، بينما هو غارق فى حب ضال وعاطفة شاردة ، والمحبوبة بسببه ساخطة على حياتها متردة على مصيرها ، جعله كل ذلك ينزلق إلى درك سفلى كاد يفقد فيه احترامه حسب الأوضاع المتعارف عليها .

لم يجد فى نفسه القدرة على التفكير أكثر من ذلك ، ولم يبق له إلا أن يواجه الواقع ، وهو أنه يحبل نفسه بخادعا كعلم دين يلتزم القانون .

وفى غسق ذلك اليوم ذهب إلى الحديقة حيث حضر حذرة صغيرة وضع فيها كل ما يملك من كتب دينية ومراجع ومؤلفات تبحث فى علم الأخلاق . وكان يعرف أنه فى بلاد المؤمنين الصادقين هذه لا يباع الجانب الأكبر من تلك المراجع بشئ يزيد كثيرا على ثمن المهمل من الأوراق ، لذا رأى أن يتخلص منها على هذه الصورة حتى ولو كانت فى فعلته بمنجية بقليل من المال لإشباع رغبته فى إتلافها . وبعد أن بدأ يشعل النار فى بعض النشرات الصغيرة أخذ يمزق المجلدات الكبيرة إلى قطع صغيرة بقدر ما سمح به جهده ، وشرع ينشر القصاصات فوق اللهب مستعينا فى ذلك بمنزلة ذات شعب ثلاث ، فسرت النار وأضاءت المساحة الخلفية للنزل وحظيرة الخنازير كما أضاءت وجهه ، وظلت تشتعل حتى أتت على كل ما فى الحفرة .

وعلى الرغم من أن أحدا لم يكن يعرفه فى تلك الناحية ، فإن أصحاب الأكواخ القريبة شرعوا أثناء مرورهم به يتحدثون إليه من خلال سياج الحديقة قائلين :

« إنك تحرق مخلفات قريبك المتوفاة » . « حقا تنراكم الأشياء فى الزوايا والأركان عندما يعيش المرء ثمانين عاما فى بيت واحد . »

كانت الساعة قد أشرفت على الواحدة صباحا قبل أن تتحول إلى رماد تلك الأوراق

والأغلفة السميكة لمجلدات «جيريمي تايلور» و «بتار» و «دوديريدج» و «باني»، و «بوسى» و «نيومان» وغيرهم، ولكن الليل كان هادئاً ساكناً، وكلما أدار الأوراق في النار وقلب بالمذرة القصاصات أخذ شعوره بأنه لم يعد مخادعاً انفسه يخف ثم يتلاشى، وبدأ السلام يعود إليه. وقد يكون من الممكن أن يستمر في تفكيره واعتقاده، غير أنه في حالته الجديدة لم يكن مضطراً إلى الترام عقيدة بعينها، وإن يقيد نفسه بدين يضطره إلى ممارسته في نفسه قبل أن يطالب الآخرين باعتناقه. والآن ستجعله عاطفته لسو يقف موقف المذنب العادى لا موقف المنافق الخادع.

في تلك الأثناء كانت «سو»، بعد أن تركته في مطلع اليوم، قد بلغت المحطة وفي عينها دموع غزيرة ندما على ما بدر منها من عودة إليه واستسلام لقبلائه. وما كان ينبغي له أن يتظاهر أمامها بالبراءة والخاو من عواطف الحب، وبذلك يدفعها إلى الاستسلام لشعور يجعلها تأتى ما يمارض مع التقاليد، إن لم يدخل في نطاق الذنوب المقررة. كانت تميل إلى هذا الاعتبار الأخير، إذ كان منطقها من النوع المعقد تعقداً خاصاً، فكانت تعتقد أن الشيء قبل أن يتم من الجائز أن يكون لإنجازه من الأمور الصالحة. أما إذا تم فعلاً فقد أصبح خطأ، أو بمعنى آخر ما كان صحيحاً نظرياً يصبح عكس ذلك عملياً.

وترنح صوته من الأسى وهى تقول لنفسها في عجلة ودموعها تنهمر على خديها: «كنت أمانة غاية في الضعف. كانت قبائلى له ملتبسة كقبلة الحبيب الحبيبه. كانت حقاً كذلك. إن أكتب إليه بعد الآن، أو على الأقل إن أرسله لفترة طويلة. وذلك حتى أستعيد ما ضيعت من كرامة. سيتراجع بنى خطاباً غداً صباحاً، وسيأتى الغد، ثم اليوم التالى، ثم اليوم الذى بعده، من غير أن يقسم الخطاب، وآمل أن يتعذب بهذا. لسوف يعانى كثيراً وتتوتر أعصابه، وهذا ما أرجوه. سأشعر حتماً بالسعادة لو حدث له هذا».

ثم فاضت في عينها دموع العطف على «جود» للآلام التى تنتظره والى سيعانيتها على يديها، واختلطت هذه الدموع بتلك التى تذرفها حزناً على نفسها.

ثم تراءت لها صورة الزوجة الصغيرة الرقيقة المتزوجة من صاحب الشخصية المنفرة المنبوذة . صورة الفتاة الأنثوية الملائكية التي لا تصاح بحكم مزاجها الرقيق وأعصابها المرهفة للقيام بواجباتها الزوجية نحو « فيلوتسون » أو أى رجل آخر . تراءى لها ذلك وهى تسير فى الطريق على غير هدى فاضطربت أنفاسها وأحست بألم فى عينيها من كثرة ما حملت أمامها فى قلبى يائس .

وفى محطة الوصول قابلها « فيلوتسون » وعندما رآها مبللة الفكر ظن أن اضطرابها لابد أن يعزى إلى الآثار الحزينة المتخلفة عن موت قريبتها وجنازتها . وشرع يتحدثها عما فعله فى يومه وكيف أن صديقه « جيلنجهام » ، وهو زميل قديم من زملاء المهنة ، زاره فى بيته . وبينما كان « فيلوتسون » و « سو » بجواره فى الحافلة المتجهة إلى المدينة ، قالت له بلا مقدمات وفى صوتها نغمة واضحة تدل على الندم والرغبة فى تعذيب النفس ، وكانت فى تلك اللحظة تتطلع إلى الطريق الأبيض وإلى الصفيين المحيطين به من شجيرات البندق :

« ريتشارد . سمحت للسيد « فاوى » أن يمسك يدى فترة طويلة . لا أعرف رأيك فى هذا وما إذا كنت تعتقد أنه عمل خاطئ . »

وأعاد كلامها إليه حواسه إذ من الواضح أنه كان غارقا فى دوامة من أفكار ذات طبيعة مختلفة كل الاختلاف وأجابها دون اكتراث . « أوه . وهل فعلت هذا حقا ؟ ولم فعلت ذلك ؟ »

— « لا أدرى . كل ما هنالك أنه رغب فى هذا فسمحت له . »

— « أرجو أن يكون سره ذلك . يخيل إلى أنه لم يأت بجديد . »

واعتصم كل منهما بحبل الصمت . ولو كانت هذه قضية معروضة أمام أحد القضاة من ذوى السلطة المطلقة ، لكان من الجائز أن يرى أمامه حقيقة جديرة بالملاحظة ألا وهى أن « سو » باحت بسر خطيئة صغيرة بينما تسترت على أخرى كبيرة ، إذ أنها لم تذكر كلمة عن القبلية .





ولما لم يكن في المقصورة سرير ألقى على الأرض قطعة من السجاد وصنعت  
لنفسها فراشا صغيرا استلقت عليه في أضيق ركن .

وعندما وقع بصره عليها نهضت من مكانها زائغة البصر وكانت ترتعش .

وصاحت في وجهه تقول : « ما كان ينبغي لك أن تقتحم على المكان هكذا .  
لا يليق بك أن تفعل ذلك . أرجوك في حرارة أن تذهب من هنا . إنى ألع عليك  
في ذلك » .

وكان منظرها يشير العطف وهي في قيصها الأبيض تقف في الركن المظلم ضارعة  
متوسلة ولقد أقلقه ذلك كثيرا وملا قلبه حزنا عليها . أما هي فظلت في توسلاتها  
حائرة إياه ألا يقلقها .

قال : « عاملتك بعطف ومنحتك كل ما طلبت من حرية ومن القسوة أن  
يكون شعورك نحوى على هذه الصورة . »

وقالت وهي تبكي : « نعم أعرف ذلك . أعرف أننى مخطئة وأننى شريرة .  
لأنى آسفة أشد الأسف ولكنى لست وحدى الملوثة على ذلك . »

— « ومن الملوثة إذن ؟ هل أكون أنا ؟ »

— « لا ! لكننى لا أعلم . قد يكون القضاء والقدر هو الملوثة وقد تكون  
الأمور بوجه عام هى الملوثة فكل شئ أصبح خفيفا قاسيا . »

— « لا فائدة ترجى من الكلام الآن ومثل هذا الحديث في هذه الفترة من  
الليل لا بد أن يسيء إلى كل منا . إذ لم نكن حريصين في كلامنا فإلزام الخادمة  
ستسمع ما يدور بيننا . فذكرى فقط ماذا يكون موقفنا لو أن قسيسا في هذه المنطقة  
رآنا ونحن على هذه الحال . إنى أكره مثل هذه المواقف الذائبة يا « سو » . إن  
عواطفك لتخلو من النظام والاتساق . ولكننى ان أفرض نفسى عليك بعد الآن  
وكل ما أنصحك به ألا تغلق الباب غلقا محكما حتى لا أجذك مختنقة صباح الغد . »

وعندما نهض في الصباح التالي أسرع بالتطلع إلى داخل المقصورة ولكن  
« سـو » كانت قد نزلت إلى الدور السفلي تاركة الركن الصغير المنى بخيوط  
العنكبوت وهو المكان الذى أمضت فيه ليلتها .

وقال في مرارة : « يا الممدى الذى تبلغه كراهية المرأة عندما تفوق هذه  
الكراهية في قوتها الخوف من العناكب ! »

وفي الصباح وجدها جالسة على مائدة الفطور وشرع الاثنان يأكلان دون أن  
ينبس أحدهما بكلمة بينما يسير أهل الحى على الإفريز أمامهما ، أو بالأحرى  
جوانب الطريق حيث كانت الأفاريز نادرة في تلك الناحية — وهو يعاود على  
أرضية الغرفة قدمين أو ثلاثة ، والمارة وهم سائرون في طريقهم يومئون برءوسهم  
للزوجين السعيدين ويحيونهما تحية الصباح .

قالت دون مقدمات : « ريتشارد ! هل تسمح أن أعيش بعيدا عنك ؟ »  
« سـ » « بعيدا عنى ؟ هذا ما كنت تفعلينه عندما تزوجتك وإلا فما معنى الزواج  
إذن ؟ »

« سـ » « إن تحبني لو أخبرتك . »

« سـ » « لا أعترض على أن أعرف . »

« سـ » « لأننى ظننت أنى عاجزة عن فعل أى شيء آخر . تذكر أنك قبل ذلك  
بوقت طويل حصلت على وعد منى بأن أنزوجك . بعد ذلك ، وبمرور الزمن ،  
أسفت على أننى منحتك هذا الوعد . وحاولت أن أجد وسيلة مقبولة للتحلل منه .  
ولما لم أستطع صرت لا أقيم وزنا كبيرا للأصول والتقاليد المارعية . أنت تذكر  
الفضائح التى ذاع خبرها وكيف أننى طردت من دار المعلميات بعد كل الذى تحمّلته  
من أجل إلحاقى بها . لقد فزعمت أما فزع لطردي من الدار وبدأ لى أن الشئ  
الوحيد الذى كان فى مقدورى أن أفعله حينئذ هو أن أترك خطوبتنا تسير فى  
مجرأها الطبيعى . طبعاً أنا ، من بين جميع الناس ، ما كان ينبغى لى أن أقيم وزنا

لما قيل لأن كل ما قيل لم يتعد الأمور التي لم أعتد أن آتية لها قط . ولما كنتى أحسست بالجبن ، كما هى عادة النساء ، وبذلك انهارت دعائهم تحررى . ولولا ظهور هذه الاعتبارات على مسرح الحوادث لرفضت أن أتزوجك وبذلك كنت أسىء إلى شعورك مرة واحدة فقط وههنا أفضل من أن أتزوجك فأسىء إلى شعورى طول حياتى معك . لقد كنت كريما معى غاية الكرم فلم تعر الإشاعات التي انطلقت عنى أى اهتمام .

-- « من واجبنى أن أخبرك أنتى فكركت فى هذه الإشاعات وسألت قريبك عن مدى صحتها . »

قالت فى دهشة بمزوجة بالآلم . « حقا ! »

-- « لم أشك فيك . »

-- « ولما كنتى تحررت ا »

-- « وثقت بكلامه . »

وهنا أغرورقت عيناها بالدموع وقالت : « لو أنه سر ما تحررت ا »

ولما كنتى لم تجبني . هل تسمح لى بالرحيل ؟ اعرف كم هو شاذ أن أطلب . .  
-- « إنه شاذ . »

-- « ولما كنتى أصر على طابى ، ينبغي أن توضح قوانين الزواج وفقا لأمزجة الناس وهذه لا بد أن تنصف . إذا كان الناس مختلفين فى شخصياتهم فلا بد للبعض منهم أن يعانى من نفس القواعد التي تجلب الراحة للآخرين ا هلا أذنت لى ؟ »

-- « ولما كنتى تزوجنا . . . »

وانفجرت تقول : « ما جدوى التفكير فى القوانين والشرائع إذا كانت تجلب التعاسة للإنسان فى حين أنه يدرك أنه لم يرتكب ذنبا . »



— « ولست أكنك ترتكبين ذنبا بعدم حبك لى . »

— « إبنى أحببك ! ولست أكنى ما كنت أظن أن الأمر - سوف يكون أكثر من مجرد . . . عندما يعيش الرجل مع المرأة فى حياة زوجية بينما يحس أحدهما نحو الآخر بنفس ما لدى من إحساس فذلك معناه الزنا مهما كانت الأوضاع تتفق مع شرائع القوانين . والآن ، دأندا قد قلت لك كل شىء . هلا أذنت لى يا ريتشارد ؟ »

— « إنك تؤلمينى باسوزانا بالحقاك هذا . »

... لم لا تتفق على أن يحرر كل منا الآخر ؟ كان العقد من صنعنا وعلى ذلك فى مقدورنا أن نلغيه . لا أقصد أن يكون الإلغاء قانونيا بالطبع ولكن يمكن أن يكون معنويا وخاصة أنه لم تقم بيننا مصالح جديدة كأطفال يحتاجون إلى رعايتنا . يمكننا أن نصبح صديقين كما يمكننا أن نلتقى دون أن يبعث هذا اللقاء الألم فى نفس أى منا . أنوسل إليك يا « ريتشارد » أن تكون صديقا لى وأن ترحبنى . الموت مصيرنا بعد بضع سنوات وعندما ماذا يهم لو أرحمتنى وخففت من قيودى لحظة ؟ أكاد أجزم أنك تعتبرنى مجنونة أو مغرقة فى الحساسسية أو سخيقة التمسكير ! على أى حال ، لم يطلب منى أن أعانى من مصير فرض على فرضا ولا يسىء إلا لى أنا وحدى ؟ »

— « ولست أكنه يسىء لى . لقد أقسمت بأن تمهينى . »

— « نعم وهذه هى المسألة ! إنى مضطربة وهكذا كنت دائما ! من الإجماع أن يقيد المرء نفسه بحب واحد أو بعقيدة واحدة ومن الحق أيضا أن تعهد بحب طعام خاص أو شراب معين . »

— « وهل معنى معيشتك بعيدا أنك ستعيشين بمفردك ؟ »

— « لو صممت أقول نعم . ولست أكنى أقصد أن أعيش مع « جود » . »

— « باعتبار أنك زوجته ؟ »

— « بالاعتبار الذى اختاره » .

وأخذ فيلوتسون « يتلوى فى مكانه بينما استمرت تقول : « كل من يترك الدنيا تختار له النظام الذى يسير عليه فى حياته يصبح فى غير حاجة إلى ملكاته باستثناء ملكة واحدة مستمدة من عالم القرد : القارة على التقليد . تلك هى كلمات « جون ستيوارث ميل » ، قرأتها فى كتاب . لم لا تعمل بها ؟ كانت أمنيته دائما أن أفعل ذلك » .

قال وهو يزفر من شدة الألم : « وماذا يعنينى من جون ستيوارث ميل ؟ كل ما أرجوه أن أعيش حياة هادئة . هل بضرك أن أقول لى حشرت مالم يخضر على بالى ، قبل زواجنا ، حشرت أنت تحبين ومازلت تحبين « جود فاوى ا » .

— « تستطيع أن تظل فى حرك طالما أنت بدأت ذلك فعلا . ولكن هل تعتقد أننى ، لو كنت حقا كما تقول ، أطلب منك أن تسمح لى بالذهاب إليه والحياة معه ؟ » .

وجاءت دقات جرس المدرسة تنقذ « فيلوتسون » من الإجابة عن سؤال ظن أنه ينطوى على استغلال صارخ لروح الحجل عنده . سؤال أطلقته فى لحظة يأس أخيرة . لقد بدأت تصبح بالنسبة إليه مخلوقا غامض الغاوية يحيره ويضنيه لذا لم يتردد فى أن يضيف إلى طباعها الشاذة وشطحات خيالها المشبوب أغرب طلب يمكن ازوجة أن تتقدم به .

وفى ذلك الصباح سار الاثنان معا إلى المدرسة كعادتهما كل يوم ودخلتا إلى فصلها وكان فى استطاعته أن يراها من خلال الحاجز الزجاجى كما أدار عينيه فى اتجاهها .

وفى أثناء قيامه بما يستوجهه التدريس من حديث واستماع نقاضت جبهته وانعقد حاجباه ، من كثرة ما تجمعت الأفكار وتصارعت داخل رأسه وفى النهاية انتزع قطعة من الورق من كراسه أمامه وكتب فيها الآتى :

« ما علمت به يحول بيني وبين قيامي بعمل . لا أدري » ما أقوم به الآن . هل أنت حقا جادة فيما تطلبين ؟ » .

وطوى الورقة طيات صغيرة ثم تناولها لأحد الصغار طالبا منه أن يعطيها لسو ، فانطلق الطفل في غرفة الدرس متجها إليها . ورأى زوجته وهي تلتفت إلى الغلام ثم تتناول منه الورقة ، كما رأى رأسها البليل منعنيا فوق الورقة ، وشفتيها الرقيقتين وهما تتصلبان قليلا لتحولا دون ظهور انفعالات على وجهها تحت عيون الأطفال

ولم يستطع أن يرى يديها إذ كانت قد انتقلت من مكانها وسرعان ما عاد الغلام دين أن يحمل ردا على خطابها . وبعد دقائق جاءه غلام من غلمانها وبيده ورقة صغيرة تشبه تلك التي سبق أن بعث بها إليها . وقرأ الكلمات الآتية :

« إنني آسف أشد الأسف إذ أقول إنني ما زلت جادة في طلبتي . »

وبدا على « غياوتسون » كأنما اضطرابه زاد فاختلف حاجباه وتقلصا مرة أخرى . وبعد لحظة استدعى نفس الغلام وسأله رسالة أخرى تقول :

« يعلم الله أنني لا أريد أن أقف في طريق رغبة معقولة من رغباتك . وكل ما أبغيه أن أعمل على راحتك وإسعادك ، ولكنني لا أستطيع أن أوافق على فكرة سخيصة شاذة نقول بذهابك إلى حبيبك لتعيشي معه إذ بذلك لا بد أن نفقدين احترام الناس جميعا ، كما لا بد أن يحدث لي نفس الشيء . »

وبعد لحظة حدثت في الفصل حركة مشابهة وجاء الرد التالي :

« أعرف أنك تحب الخير لي ولكنني لا أود أن أحظى باحترام الناس . »

« وإن تحقيق التنمية الإنسانية في أرق صورة من صور التنوع والاختلاف ، كتعبير « هامبلدت » ، كاتيك المفضل ، هو في رأي أهم بكثير من اكتساب احترام الناس . إن ميولي واتجاهاتي لاشك متردبة وأنت تراها كذلك ، بل إنك تراها

في حالة يرثى لها ! لو حلت بيني وبين الذهاب إليه فهلا منحتني هسادة الطالبة الوحيدة ألا وهي أن تسمح لي بالبقاء في بيتك منفصلة عنك ؟ .

ولما لم يرسل إليها رداً على ما طلبت كتبت مرة أخرى تقول : « أعرف ما يدور في تفكيرك ولكن ألا تستطيع أن تكون رفيقاً بي ؟ أرجوك ، بل أترسل إليك أن تشفق على . ما كنت أطلب اللون منك لو لم أكن أعاني مما لا طاقة لي به . مامن امرأة ودت أكثر مني لو أن حواء لم تقع في المخطور وبذلك كان يمكن أن تسود الجنة » كاعتقاد بعض المسيحيين البسطاء « أنواع من المحاولات البسيطة التي لا تنجح فيها ولا ضرر . ولكنني لست الآن بهازلة . ترفق بي حتى لو لم أكن رفيقة بك . لسوف أرحل . لسوف أهاجر من هذه البلاد . سأذهب إلى أي مكان وبذلك لن أسيب لك أي متاعب . »

ومضت ساعة وبعدها جاءها رده :

« لا أود أن أعذبك وأنت تعلين ذلك جيداً . امنهيني بعض الوقت وأؤكد لك أنني أوافق على هذا الرجاء الأخير الذي توجهين به إلي . » وجاءته كلمة منها أخيرة :

« أشكرك من كل قلبي يا « ريتشارد » . أنا لا أستحق منك كل هذا العطف ، وظل « فيلوتسون » طوال يومه يرفقه من خلال الحاجز الزجاجي بينما أحس أنه وحيد قائمه كما كان قبل أن يعرفها . غير أنه كان أميناً على وعده فوافق على أن يعيشا في البيت منفصلين . وفي مبدأ الأمر ، عندما تقابل على مائدة الطعام ، بدا عليها أنها أكثر تقبلاً لحياتها الجديدة وإن كانت دقة موقفيها بدأت تترك أثرها على طبيعتها ومزاجها فبدأت أعصابها مشدودة كأوتار القيثارة وأخذت تتحدث بالفاظ وكلمات غامضة منكسكة حتى تقطع عليه سايل الكلام .

( ٤ )

وكما تعود أن ينزل ، ظل « فيلوتسون » ساهراً حتى ساعة متأخرة من الليل في محاولة لتنظيم المواد التي جمعها في أثناء إشباع هوايته للأثار الرومانية ، وكان

قد أهملها في الفترة الأخيرة . والذرة الأولى منذ أن استأنف العمل في ميدان هوايته المفضلة ، أحس أن حبه القديم لها بدأ يعود في قوة فئسي الزمان والمكان . وعندما عاد إلى نفسه وأوى إلى فراشه كانت الساعة تقارب الثانية صباحا .

لقد أصبح الآن مشغولا شاردا إلى حد أنه على الرغم من أنه صار يؤثر النوم في الجانب الآخر من المنزل ، توجه إلى الغرفة التي كان يقطنها مع زوجته عندما استأجر البيت لأول مرة والتي أصبحت خاصة بهما وحدهما منذ أن دب الشقاق بينهما ، فدخلا وشرع يمزح ، إلا أنه دون أن يشعر .

ومن الفراش الجاور صدرت صرخة مدوية تصحبها حركة سريعة . وقبل أن يدرك أين كان ، وقع بصره على « سو » وهي تنهز والتماس يملأ جفניה ورأها وهي تهب واقفة على أرض الغرفة في الناحية الأخرى من السرير وهي الناحية الجاورة للنافذة . وكانت هذه محتفية ببعض الشيء بخاف ظنة السرير . وبعد لحظة سمعها وهي تفتح الراداة . وقبل أن يدرك أنها ترمي إلى أكثر من استنشاق بعض الهواء ، كانت قد قفزت إلى قاعدة النافذة وألقت بنفسها وسط الظلام . وبعدما سمع صوت ارتطام جسدها بالأرض .

ونزل « فيلوتسون » السلم ركضا والرعب يملأ قلبه . وبعد أن فتح الباب الخارجى صعد الدرجات القليلة المؤدية إلى سبلح الطريق وللحال شاهد على الحصى أمامه كومة بيضاء . فالتحنى فوقها وأخذها بين ذراعيه وبعد أن حملها إلى القاعة أجلسها على مقعد وأخذ يتلبلل النظر إلى وجهها على الضوء المترافى للشمعة إذ كان قد وضعها في مجرى الهواء وثبتها على آخر درجة من درجات السلم .

ووجد « فيلوتسون » أنها ما زالت على قيد الحياة إذ أنها نظرت إليه بعينين لا تعيان شيئا . وعلى الرغم من أن عينيها لم تكونا كبيرتين بشكل خاص ، فقد أصبحتا كذلك الآن . وأخذت تتحسس جانبا وتدعك ذراعها كما لو كانت تحس بالآلم وبعدها ، نهضت واقفة وهي تتحاشى النظر في عينيها .

— « شكر الله فما زلت على قيد الحياة . لقد نجوت وإن كانت نجاتك بسبب خارج عن إرادتك . أرجو ألا تكونى أصابت إصابة بالغة » .

لم تكن سقطتها بالشيء الخطير ، ومن الجائز أن قرب النافذة من الأرض وارتفاع مستوى الطريق كانا السبب في ذلك . وباستثناء خدش في المرفق ورض في الجنب فإن الضرر الذي لحقها لم يكن يبنى بال .

وبدأت تقول وما زالت تشرح عنه بوجهها الأصفر : « كنت مستغرقة في النوم عندما أزعجني شيء ما - كان حارا مفرعا - أعتقد أنني رأيتك ، وهنا بدأت تعود إلى حالتها الطبيعية فتوقفت عن الكلام .

وكان ردائها معلقا فوق الباب فتناولته « غياوتسون » ولفَّ به جسدها ونفسه كثيرة . قال لها في حزن إذ أن دلالات هذا الحادث جعلته ينظر إلى نفسه وإلى كل شيء نظرة عابسة : « هل أساعدك في الصعود إلى أعلى المنزل ؟ »

— « لا . أشكرك يا « ريتشارد » إصابتى طفيفة للغاية . أستطيع السير » .

قال لها في لهجة آلية كالوكان في الفصل يلتقي درسا : « ينبغي أن تغلق باب غرفتك بالمفتاح وفي هذه الحالة لن يستطيع أى إنسان أن يفتحه حتى عن طريق المصادفة » .

— « حاولت ذلك ولم أستطيع فأقفل جميع الأبواب لا تعمل » ،

وكان كلامها هذا يدل على أن مظاهر الأمور ما زالت على حالها دون تحسن . ثم أخذت تصعد السلم في ببطء . وفي تلك الأثناء سقط ضوء الشععة الممتهز على قوامها . وظل « غياوتسون » بعيداً عنها ولم يحاول الصعود حتى سمعها وهي تدخل غرفتها وبعد ذلك أوصد الباب الأمامى بالمازللاج . وعند عودته جالس على الدرجات السفلى للسلم مسكاً إحدى الدرجات بإحدى يديه ومتسكئاً بجمهته فوق الأخرى وظل هكذا وقتاً طويلاً . لقد كان منظره هكذا يثير الشفقة في قلب كل من يراه . وأخيراً رفع رأسه وزفر زفرة يعلن بها عن أن المهمة التي يعيش من أجلها لا بد أن تسير في طريقها المرسوم سواء كان يعيش مع زوجة أو لا .

وتناول الشمعة وارتقى السلم متجها إلى غرفته الخاوية ، وكانت تقع في الجانب الآخر من الدور العلوى .

وإلى أن جاء المساء التالى لم يقع حادث من شأنه أن يشير الموضوع مرة أخرى بينه وبين زوجته . وعقب المدرسة مباشرة خرج من « شاستون » سيرا على الأقدام بعد أن أعلن عن عدم حاجته إلى احتساء الشاي ودون أن يخبرها بالجهة التى يقصدها . ونزل منحدر المدينة مخترقا طريقا وعرأ يتجه نحو الشمال الغربى وظل فى سيره إلى أن تغيرت معالم الأرض وتحولت من البياض الصخرى إلى السجاد الطمى ، وشرع يسير فى الرواسب الطينية المتخلفة عن الأنهار القديمة حيث تل « دانكليف » هو العلامة للسافر ، ونهر « ستور » يتدفق ظلما فى ظلام .

وتلفت خلفه أكثر من مرة وحملت عيناه وسط ظلة المساء المتكاثفة وعلى خط الأفق وراه ظهرت « شاستون » ظهوراً ضعيفا .

فوق الهامة البيضاء ليلا دور والنهار ينصرم انصراما (١)

وتألات الأضواء الحديثة الاشتعال وخرجت من النوافذ وكان لها بريق ثابت خيل إليه أنه يتجه إليه وحده . أما إحدى النوافذ فقد كانت نافذته هو ومن ورائها استطاع أن يرى البرج ذا الشرفات لسكنيسة « الثالوث الأقدس » . لقد كان الهواء مشوبا برطوبة صادرة عن التربة الطينية المتماصة التى يقف عليها ولم يكن كالهواء فى المنطقة العليا بل كان غاية فى اللطف والرخاوة بحيث إنه بعد أن سار ميلا أو ميلين ، أحس بحاجته إلى أن يمسح وجهه بمنديله .

وبعد أن سار وتل « دانكليف » إلى يساره ، تقدم داخل الظل فى ثبات كما يفعل الرجل عندما يتجول بالليل أو بالنهار فى منطقة خبر طبيعتها منذ كان طفلا . لقد كان مجموع ما قطعه يقرب من أربعة أميال ونصف .

(١) من شعر « وايم بيرنز » .

« حيث يستمد نهر « ستور » قوته من ينابيع ستة صافية السلسيل » (١)

وذلك عندما عبر راغداً من رواند نهر « ستور » . وبلغ « ليدنتون » وهي مدينة صغيرة لا يزيد سكانها على ثلاثة أو أربعة آلاف نسمة ، وهناك سار قاصداً مدرسة البنين ودق باب بيت الناظر .

فتح الباب طالب من طلاب المعلمين وكان يقضى فترة التمرين العملي عند السيد « جيلنجهام » ناظر المدرسة . وعندما سأل « فيلوتسون » عما إذا كان الناظر موجوداً بالمنزل أجابه الطالب بالإيجاب ثم تركه ومضى ، فأخذ « فيلوتسون » يتحسس وحده الطريق إلى داخل البيت . وفي النهاية وجد صديقه وكان يعيد بعض الكتب إلى أماكنها بعد أن استعان بها في إلقاء دروس المساء وعندما انعكس ضوء المصباح على وجه « فيلوتسون » اتضح أنه وجه أصفر كئييب باقيا إلى وجه « جيلنجهام » الذي تميز بالهدوء والرزانة . لقد كان الاثنان في صباهما رقيقين ، كما كانا قبل الآن بسنوات عديدة زميلين في الدراسة بكلمة المعلمين في « وندونستتر » .

— « إنتى سعيد برؤيتك يا « ديك » . ولكنك لست على ما يرام ! هل فى الأمر شيء ؟ » .

وتقدم « فيلوتسون » دون أن يحير جواباً ، وأغلق « جيلنجهام » خزانة المكتب وتقدم نحو الزائر وهو يقول : « عجباً ! لم أرك أخيراً . منذ متى لم أرك ؟ منذ أن تزوجت ؟ ذهبت لزيارتك كما تعلم ولكنك لم تكن بالبيت . حقاً يا لها من مسيرة شاقة وخاصة بعد حلول الظلام لهذا أنتظر حتى تنال الجو ويطلع النهار قبل محاولة القيام بهذه الرحلة الشاقة مرة أخرى . على أى حال يسعدنى كثيراً أن أراك وقد أسرعت أنت بالبحى دون أن تنتظر تغير الجو » .

— « لقد جئت يا « جورج » لأفسر لك الأسباب التى تدعونى إلى الإقدام

(١) من شعر الشاعر « درايتوت » .



على ما أنا على وشك أن أقدم عليه وذلك حتى تكون على بينة من دوافعي لو تشكك الناس في صحة تصرفي ، ومن الجائز أن يفعلوا ذلك بل من المؤكد أنهم سوف يفعلون . على أنني أرى أن أى شيء ، مهما يكن ، أفضل مما أنا فيه الآن . أرجو الله أن يجنبك المحنة التي أقاسى منها هذه الأيام .

... « استرح الآن . أنت طبعاً لا تقصد أن هناك شيئاً بينك وبين السيدة فيلوتسون ؟ » .

— « بل إنني أعني ذلك . إن ما يميزني هو أنني أهم حباً بزوجتي بينما هي لا تحبني . ليس هذا فحسب ولكنهما - ولكنها - على أية حال إن أقول شيئاً . أنا أعرف شعورها وكنت أفضل لو تخمّل لي الكراهية ؟ » .  
— « اصمت يا رجل » .

— « الحزن في قصتي هو أنني الشخص الذي يلام على كل شيء » . لقد كانت ، كما تعلم ، إحدى طالبات المعلمات وكنت أتولى تدريبها وعملت على استغلال ضعف خبرتها بأمور الحياة وأخذت أدعوها للخروج مني ، بل دفعتها للدوافقة على خطبة طويلة قبل أن تدرك حقيقة عواطفها من نهوى . بعد ذلك التقت بشخص آخر ولكنها قامت بتنفيذ وعدها بالزواج تنفيذاً أعمى ،  
... « وهل هي تحب الشخص الآخر ؟ » .

— « نعم وتهم بشئونه اهتماماً خاصاً وإن كانت حقيقة شعورها من نحوه ما زالت لغزاً بالنسبة لي وله أيضاً على ما أعتقد ، وقد يكون الأمر كذلك بالنسبة لها . إنها مخلوقة من أعجب من قابلت في حياتي . على أية حال صدمتني في أمرها حقيقةتان التفاهم العميق ، بل التشابه التام بينهما وبين صديقتها فهو أحد أقرابهما وهذا يفسر جزءاً من هذه الحقيقة إذ يبدو عليهما أنهما شخص واحد شطر شطرين . أما الحقيقة الثانية فتبدو في بغضها المتأصل لشخصي باعتباري زوجها وهذا على الرغم من أنها تميل إلى باعتباري صديقاً . ما عدت أحتمل أكثر ،

احتملت . لقد كلفت بأمانة لتغيير هذا الوضع ولكن لم أحظ بأى نجاح . لأننى لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك كما أنى لا أستطيع أن أجاريها فى محاوراتها ففى أكثر منى اطلاعا وأكثر ثقافة ويتألق عقلها كمنجعة من ماس بينما ينطق عبقلى كمنجعة ورق احترقت وتلاشت . إنها تفوقتى بهراجل ، ، .

— « لسوف تتغير فى الوقت المناسب ، .

— « كلا ، مطلقا . أحب أن أقول لك --- ولكننى أفضل ألا أخوض فى مثل هذه الأمور الآن --- إنها لن تغير ما بنفسها وأنا أعرف أسباب ذلك . سألتنى ، وكان سؤلها فى حزم هادى ، إذا ما كانت تستطيع أن تتركنى وتذهب إليه . لقد بلغ الأمر غايته فى الليلة الماضية عند ما دخلت غرفتها مصادفة فكدفت بنفسها من النافذة . على هذا النحو القوى كان خوفها منى ! لقد تظاهرت بأنها كانت تحلم ولكن كان ذلك مجرد وسيلة لتهدئى . وعند ما تقفز امرأة من النافذة دون أن تفكر إذا كانت معرضة للوثة أولا فلا يخطئ الإنسان فى اكتشاف الدافع لها على ذلك . ولما كان الوضع هكذا ، توصلت إلى قرار هو أن « من الخطأ الاستمرار فى تعذيب إنسان مثلنا وإن أكون أنا النقط الغليظ القلب الذى يقبل مثل هذا الأمر مهما كلفنى ذلك من شئ » .

— « ما ذا --- وهل تسمح لها بالرحيل ؟ ومع حبيلها ؟ » .

— « أما مع من ترحل فهذا من شأنها هى . سأسمح لها بالرحيل معه قطعا لو كانت هذه رغبتها . أعرف أننى عند ما أمنحها موافقتى لا أستطيع أن أدافع عن نفسى لا فى مجال المنطق ولا فى مجال الدين كما لا أستطيع أن أوفى بين رغبتها والمبادئ التى نشأت فيها . شئ واحد فقط أعرفه الآن جيدا . أعرف أن هناك شيئا فى أعماق نفسى يصرخ معلنا أننى ارتكبت خطأ جسيما إذا لم أجبه --- إلى ما تطلب . إنى كغيرى من الرجال أعتقد صادقا لو أن زوجا من الأزواج طلبت منه زوجته مثل هذا الطلب المناقض للعقل فالطريق الوحيد الذى يمكن أن يكون طريق الحكمة والشرف هو أن يرفض الزوج مثل هذا الطلب وإن يضع زوجته

في حُرز مغلف . وقد تقدم أيضا على قتل حبيبها . ولكن مثل هذا الإجراء أيعتبر  
حقا طريق الحكمة والشرف أم أنه يشعر المرء بحقارته وأنا نيته ؟ ليس في وسعي  
الآن أن أجيب عن هذا السؤال واسكنني بكل بساطة أستوحى غريزتي وأترك  
المبادئ جانبا . أو أن شخصا قادته قدماه إلى السير وسط مستنقع وصرخ يطلب  
المساعدة للخروج من ورطته ألا يصبح من واجبي أن أمنحه هذه المساعدة لو  
كان ذلك في مقدوري ؟ » .

— « ولكن — دعني أقل ، هناك مشكلة الجيران . ثم المجتمع — ماذا  
يحدث لو أن كل فرد ... » .

— « دعنا من ذلك فإن أنظر للأمور نظرة فلسفية بعد الآن . إنني أرى فقط  
ما يقع تحت عيني » .

قال « جيلانجهم » وقد تجهم وجهه : « على أي حال يا « ديك » أنا لا أوافقك  
على استلهم غريزتك في مثل هذا الموقف . أقول لك الحق أنني لفي غاية العجب  
من أن شخصا وقورا مكافئا مثلك يمكن أن يوافق لحظة واحدة على مثل هذا  
الجنون . قلت لي عنها عند ما زرتك في المرة الماضية إنها غريبة ' قلب وأعتقد الآن  
أنك أنت الغريب القليل ! » .

— « ألم يسبق لك أن وقعت أمام امرأة أنها في أعماقها صالحة وتستعطفك  
لكي تطلق سراحها ؟ هل كنت مرة هذا الرجل الذي تتضرع إليه امرأة وتفرقه  
في فيض من الابتهاال ؟ »

— « أقول بكل امتنان لم يسبق لي أن كنت ذلك الرجل . »

— « إذن لا أظن أنك في موقف تستطيع معه أن تدلي برأي أو تسهم  
بنصيحة . كنت أنا ذاك الرجل وهنا تبدو قيمة الشهامة والرجولة حقا . ولما  
كنت قد عشت من حياتي عددا وفيرا من السنوات بعيدا عن النساء ، لم يكن

لدى أقل فكرة من أن مجرد اصطحاب سيده إلى الكنيسة ووضع خاتم في أصبعها  
يخلق مأساة كتلك التي أعيشها مع زوجتي الآن والتي تتقاسمها معا . »

— « على أى حال قد أعذرك في السماح لها بهجرتك على شريطة ألا تربط حياتها  
بحياة شخص آخر . أما أن تسير وفي أعقابها من يطارحها الغرام فذلك ما يجعل  
الامر مختلفاً . »

-- « ليس الامر كما تقول . هب أنها — كأغلب الظن بها — تقبل الصبر  
على محنتها وتفضل ذلك على أن يدفعها لإنسان إلى أن تعد بالعيش في منأى عن  
الشخص الذي تحبه فما العمل ؟ هذه بالطبع قضيتها هي وهي قضية تختلف اختلافا  
كليا عن الخاتلة الناشئة عن العيش مع زوج تخونه . على أى حال ، لم يبد منها  
أنها تنوى حقا أن تعيش معه عيشة الأزواج ، وإن كنت أعتقد أنها ترمى إلى  
تحقيق ذلك . وبقدر ما يقودني إليه فهمي ليس الشعور المتبادل بينهما مجرد دافع  
حيواني أو انفعال شهوى وهذا أسوأ ما في المسألة كلها إذ يدفعني ذلك إلى الإيمان  
بأن عاطفتها لا بد دائمة . فأتى أن أخبرك في الأسابيع الأولى من الزواج ، وكان  
شعور الغيرة عليها أقوى ما يكون وقبل أن أعود إلى صوابي ، خبأت نفسي في  
المدرسة ذات مساء وكنا يجلسان هناك معا فسمعت كل ما قاله . أنا الآن  
أشعر بالحنين لمساكني هذا وإن كنت أعتقد أنني كنت وقتئذ أمارس حقا شرعا .  
وجدت من خلال أحاديثهما أن عاطفة هائلة أو حبا عظيما تسرب إلى الرابطة  
الموجودة بينهما وطهرها من كل شائبة تشوبها . رغبتهما السكبري أن يكونا معا  
أن يتقاسما الانفعالات والحلجات ، أن يشتركا في الأحلام والأمان . »

— « أحبا أفلاطونيا إذن ! »

— « أقول لا . بل هو حب على طريقة الشاعر « شيلي » وهذا إلى الواقع  
أقرب . إنهما يذكرا نبي ب . . . ما اسمها ؟ - « لاؤون وسيثنيا » . وهما أيضا  
يشبهان قليلا « بول وفرجينيا » . كلا ففكرت أحسست أنني في جانبهما قلبا  
وقالبا . »

— « لكن لو فعل كل الناس كما تريد هي أن تفعل ، فلا مناص من وقوع تفكك عام في الحياة العائلية ولن تصبح العائلة وحدة المجتمع . »

قال « فيلوتسون » في حزن : « نعم أغلب الظن أنني أضرب في واد آخر . لم أكن قط ممن يحسنون التفكير المنطقي المنظم وأنت تذكر ذلك جيداً . ومع ذلك ، ألحق أقول لك ، لم لا نعتبر الأساس في الأسرة الزوجة والأطفال لا الزوج . »

— « يا إلهي . المرأة رأس المجتمع ! هل هذا ما تقصد إليه يا « هاري ؟ » .. وهل تبشر هي الأخرى بهذا المبدأ ؟ »

— « لا لا لا . . . بل إنها ضعيفة الاعتقاد بأنني أفوقها في هذا النمط من التفكير . على أي حال ، كل ذلك حدث في الساعات الاثنتي عشرة الأخيرة . »

— « سوف يكون لهذا العمل أسوأ الأثر على الناس في هذه الناحية . يا إلهي . ما الذي سيقوله أهل « شاستون » . . . »

— « لا أقول إن هذا التأثير يمكن أن يحدث . لا أدري . لا أدري تماماً . . . وكما سبق أن قلت ، لست سوى إنسان يستلمهم شعوره لا عقله . »

قال « جيلنجهام » دعنا الآن نبحث الموضوع في هدوء ولشرب شيئاً في أثناء حديثنا . وهنا قام إلى أسفل السلم حيث أحضر زجاجة من نبيذ التفاح وأخذ كل منهما كأساً منها وبعدها استمر « جيلنجهام » يقول :

« أعتقد أنك مشقت النفس تأمه الفكر فعليك أن تعود إلى منزلك وتعد نفسك لتحمل القليل من نزواتها ولكن عليك ألا تدعها تذهب . سمعت من كل الناس أنها مخلوقة رقيقة جذابة . »

— « آه ، حقاً وهذا ما يبعث المرارة في النفس . حسن إن أبقى بعد الآن إذ أمامي مسيرة طويلة على أن أقطعها . »

وفي صحبة صديقه سار « جيلنجهام » جزءاً من الطريق . وعندما افترقا أفصح

عن أمه في أن تكون الاستشارة ، على ما فيها من غرابة ، تجديدا لما كان بينهما من صداقة قديمة . أما كلماته الأخيرة التي دوت خلال الظلام فكانت - « عليك بها ولا تركها . » ورد « فيلوتسون » قائلا « نعم . نعم ! »

وعندما أصبح « فيلوتسون » وحده بين أطباق الليل ، وما من صوت سوى هدير المياه في روافد النهر قال يحدث نفسه : « وأنت أيضا أيها الصديق « جيلنجهام » . خاتمتك الحبيبة كما ضانت الآخرين ! » .

أما « جيلنجهام » فكان يقول في نفسه في أثناء عودته : أظن أن الصانع على الوجه جدير بأن يعيدها إلى صوابها وهذا ما أعتقد أنه ضروري في موقف كهذا .

وجاء الصباح التالي وفي أثناء تناول الفطور قال « فيلوتسون » لسو : « في استطاعتك أن تذهبي ومع أي شخص تريدين وأنا أوافق على ذهابك دون قيد أو شرط » .

وبمجرد أن انتهى « فيلوتسون » إلى هذا القرار بدأ ينظر إليه على أنه القرار الحق الذي يتناول على كل شك . إن الصفاء الواضح الذي أوجده في نفسه شعوره بأنه يقوم بواجبه حيال امرأة ألفتها المقادير تيمت رحمته - كاد يقهر حزنه على تركها .

ومرت بضعة أيام وحل المساء الذي فيه يجلسان معا لتناول طعام العشاء لآخر مرة . وكان المساء مليداً بالغيوم عاصف الريح ومثله لا بعد نادرا في مثل هذه المنطقة المرتفعة . كم انطبعت في ذاكرته البصرية صورتها وهي تخطر في رشاقة وسط الردهة كي تشاركه الشاي ! بالأمس من صورة مؤثرة لخلق جميل ، ضاوى البدن ، لدن العود ، له وجه كامل الاستدارة وعليه مسحة من شجوب من كثرة ما عانى من قلق الأيام والليالي . مسحة توحى بإمكانيات فاجعة تتعارض وما يصدر عن هذا الوجه من خفة ومرح في لحظات الصفاء والتجلى . لقد انطبعت في ذاكرته صور محاولاتها لتناول هذه القطعة من الكعك أو تلك وعجزها عن التهام شيء منها . أما سلوكها المضطرب الذي أوجده خشيته من أن تخرجه تصرفاتها فكان

من الممكن أن يفسره من ليس له بالموقف خبرة بأنها مستأداة من أن « فياوتسون » قد أقحم نفسه عليها خلال اللحظات القليلة الباقية لها في المنزل .

— « ينبغي أن نتناول مع الشاي شريحة من اللحم أو بيضة أو أى شيء آخر فلن نستطيع السفر دون طعام . » وتناولت منه شريحة اللحم وبدأ الاثنان يتبادلان الحديث في موضوعات تدور حول المنزل وشؤونه مثل أن يجد مفتاح هذه الخزانة أو تلك والديون الصغيرة التي سددت والتي لم تسدد وغير ذلك من توافه الأمور .

قال وهو يحاول أن يدخل على نفسها شيئاً من الهدوء : « أنا بطبيعتي أعزب كما تعلمين بنسو فلن يضيرني أن أعيش وحيداً كما يضير بعض الرجال الذين عاشوا فترة في صحبة زوجاتهم . ثم إنه هناك تلك الهواية العظيمة التي تشغل بالي وهو البحث المسعى : « الآثار الرومانية القديمة في إقليم وسكس ! » . لا بد أن تشغل هذه الهواية كل ساعات فراغي » .

وقالت في رقة زائدة : « لو أنك في أى وقت أرسلت إلى بعض المخطوطات لأنسخها كما تعودت أن تفعل في الماضي ، أعدك أن أنجزها في أقصر وقت يمكن . إنني مازلت راغبة في التعاون معك كصديق » .

وفكر « فياوتسون » لحظة ثم قال : « لا ! إذ قررنا الانفصال ينبغي أن يكون انفصالنا كاملاً ولهذا السبب أود ألا أوجه إليك أية أسئلة كما أود منك ، بصفة خاصة ، ألا تزوديني بأية أخبار عن حركاتك وسكناتك أو حتى عن عنوانك . والآن كم من المسال ستحتاجين إليه إذ لا بد أن يكون معك بعض النقود كما تعلمين .

— « لم يدر بخليدي يا « ريتشارد » أن أعتمد على تقودك في مساوئاتي للانفصال عنك . إنني لست في حاجة إلى المسال ولدي ما يكفي من الفترة طويلة كما أن « جود » لا بد أن يعاونني » .

« أفضل ألا تذكرى عنه شيئاً لو كان ذلك لا يضيرك في شيء . أنت « طمنة السراح » تماماً ولك أن تختاري الطريق الذي تسلكين » .

— « هذا جميل ولكنني أود أن أقول إنني جمعت بعض الملابس الخاصة وبعض الحاجيات الشخصية وأود منك أن تلقى نظرة أخيرة على حقيبتي قبل أن أغلقها . وبالإضافة إلى ذلك لدى لفافة صغيرة سيضمها « جود » إلى حاجياتها . »

— « إن أسمح لنفسى بالبحث في حاجياتك . أود أن تأخذى الجانب الأكبر من أثاث البيت فلا أحب أن يثقل على . ثمة علاقة عاطفية بينى وبين قطع معينة من هذا الأثاث وهى التى كانت تخص أمى قبل وفاتها . أما باقى القطع فيمكنك أن ترسلى فى طلبها عندما تريدن . »

— « وهذا ما لن أفعله على الإطلاق . »

— « سترحلين بقطار السادسة والنصف أليس كذلك ؟ »

الساعة الآن السادسة إلا ربعا .

— « لا يبدو - لا يبدو عليك أنك حزين لفراقى يا « ريتشارد » ! »

— « أوه لا - ربما لا . »

— « أحبك كثيرا لمسلحك . ومن العجيب أنني أحبك بمجرد أن أنظر إليك على اعتبار أنك معلمى القديم وليس زوجى ولن يصل بي التظاهر إلى القول إننى أحبك لأنك تعلم أنني أحبك كصديق لحسب - وهكذا تبدو لى . »

وتندت عينا « سو » بالدموع لحظة لهذه السوانح وأخيراً جاءت الحافلة الزاهية إلى المحطة فصعدت فيها وعاون « فيلوتسون » فى وضع حاجياتها فوق سقف السيارة وبعدها تظاهر بتقبيلها فى أثناء توديعها . وعند ما أدركت ما رعى إليه فعلت هى الأخرى نفس الشيء . وتأثير ما بدا على الاثنين فى أثناء الوداع من رضا واستبشار ، استقر فى ذهن السائى أنها ذاهبة لزيارة قصيرة .

وعند ما عاد « فيلوتسون » إلى البيت صعد إلى أعلى المنزل ثم فتح النافذة ونظر فى الاتجاه الذى سارت فيه الحافلة وسرعان ما غابت الضجة الناشئة عن دوى العجلات . عند ذلك نزل إلى الدور السفلى ووجهه متقاهس كوجه من تطفح



نفسه بالآلم فوضع قبعته على رأسه وغادر المنزل سائراً مسافة ميل في طريق العربية  
ثم استدار فجأة وعاد إلى البيت مرة أخرى .

وبمجرد أن عاد سمع صوت صديقه « جيلنجهام » وكان يجلس في الغرفة  
الأمامية .

— « لم أجد أحداً بالمنزل ولما كان الباب مفتوحاً دخلت وجلست . لقد  
وعدتك بالحقى . »

— « نعم وأشكرك كثيراً يا « جيلنجهام » لحيثك الليلة . »

— « وكيف حال السيدة ... » .

— إنها على ما يرام . رحلت وهذا كوبها الذى احتست فيه الشاي منذ  
ساعة فقط وهذا طبقها الذى ... » وهنا تخرج صوته في حنجرتة فعجز عن  
الكلام وأدار وجهه وهو يدفع بالأكواب والصحاف جانباً .

وقال في صوت متجدد : « بهذه المناسبة ، هل أقدم لك قليلاً من الشاي ؟ »

وقال « جيلنجهام » وهو يشارد الفكر : « لا — نعم . لا يهم ذلك كثيراً .  
تقول رحلت ؟ » .

— « نعم — إننى أملى استعداد لأن أموت من أجلها ولكننى لا أقبل أن  
أقسو عليها تحت ستار القانون . رحلت لتلحق بحبيبها . لا أدرى شيئاً عن  
مشروعاتها المستقبل ومهما يكن من أمر هذه المشروعات فإنى أوافق عليها كل  
الموافقة . »

وكان في زبرات صوت « فيلو تسون » من العزم والتصميم ما قطع الطريق على  
صديقه وحال بينه وبين التعليق على كلامه وأخيراً قال : « هل أتركك الآن ؟ » .

— « لا . لا . لقد رحمتنى بمجيئك . لدى بعض الأشياء ولا بد أن أقوم  
بتنظيمها وإعادتها إلى أماكنها فهلاً عاونتنى على ذلك ؟ » .

ووافق « جيلنجهام » . وبعد أن صعد الاثنان إلى الغرف العليا من المنزل فتح « فيلووتسون » بعض الأدراج وشرح يخرج الأشياء الخاصة بسو ثم وضعها في صندوق كبير واستمر يقول : « رفضت أن تأخذ معها ما عرضت عليها أن تأخذه من هذه الأشياء » عند ما انتهيت إلى رأى بشأن رحيلها ومستقبلها قررت أن أتنازل لها عن كل شيء . »

— « بعض الرجال ما كانوا ليقبلوا غير الاتصال » .

— « فكرت في كل هذا ولم أقبل أن أضرب موضع المناقشة . كنت وما زلت أكثر الرجال تمسكا بتقاليد الزواج . والواقع لم يسبق لي أن وقتلت قط حيال الزواج وما يتعلق به من نظم وأخلاق موقفة الناقد ولكن « حقائى » هيئة صدمتني وعجزت عن مقاومتها . » واستمر الاثنان يقومان في صمت بأعمال الحزم والشدة والنقل وعند الانتهاء منها جميعا أغلق « فيلووتسون » الصندوق وأدار المفتاح في قفله .

قال : « والآن ها هي جميع حاجياتها ولم تعد مهمة هذه الأشياء أن تجعل « سو » في عيني بل في عيني شخص آخر ! » .

## ( ٥ )

وقبل هذا بأربع وعشرين ساعة كانت « سو » قد فرشت من كتابه الخطاب التالي لجود :

« الأمر كما أخبرتك فأنا راحلة غدا مساء . يعتقد « ريتشارد » كما اعتقد أنا ، أن سفرى يجب أن يتم بعد الظلام إذ بذلك يكون أقل إنارة لفضول الناس . أشعر بالخوف بسيطر على مشاعرى لذا أطاب منك أن تنابى على رصيف محطة « ميلشستر » . سأصل قبل الساعة بعايل . إني دليبا رائقة من جيئك في الوقت المحدد ولستنى أحس بأننى خائفة وهذا مايجب أنى أرسل إليك أن تأتى في العيد .

كان . فياوتسون ، رفيقا بي غاية الرغى من أول الأمر إلى نهايته ! والآن أتركك حتى نلتقى .

وبينما كانت الحافلة تسير ، هي المسافرة الوحيدة ، وتنزل بها الطريق المنحدر مخلفة وراءها المدينة الجبلية ، أخذت «سو» تتطلع إلى الطريق خلفها والحزن يكسو وجهها وإن لم يبد عليه أثر التردد .

ووقف القطار الذي كانت تمرى أن تستقله وكان وقوفه كما هي العادة إثر إشارة من المسافرين الراغبين في الصعود إليه . أما بالنسبة لسوق كان من الغرابة بمكان أن شيئاً كبيراً وكثيلاً كالحظائر يمكن أن يكفى عن السير ويفى بإشارة من يدها هي الحاربة من بيتها وذووجها .

وبدأت الرحلة التي استغرقت عشرين دقيقة تقارب من نهايتها وشرعت تجمع أمتعتها استعدادا للزول . وبمجرد أن توقف القطار على رصيف « ميلشستر » شاهدت يدا تستقر على مقبض باب الحربة وبعدها رأته « جود » أمامها وللحال دخل المقصورة التي يجلس فيها وكان يعمل في يده حقيبة سوداء ويلبس حلة أيام الأحاد وأسميات الإجازات . لقد كان في متروحه يبدو غرض الإهذاب أنيق البزة وفي عينيهِ يتقد قلب حبه لها .

وفي انفعال شديد تناولت يده بكلماتها وأخذت تتأوه وتزفر وتئن في  
تتابع مستمر وتقول : « جود ، « جود ، إني . . . إني في غاية الفرح . . . في  
غاية السرور . هل نزل في هذه المحطة ؟ »

— لا بل سنبقي منقأ هنا . أحضرت معي كل أمتعتي وبالإضافة إلى حقيقتي هذه وضعت في التظلم حقيقتي الأخرى كبيرة . »

«ولیکن ألا نزل هنا؟ ألسنا من مبین البقاء هنا؟»

-- : ليس في استطاعتنا أن نفعل ذلك . ألا تنظرون ! الجميع هنا يعرفوننا

وهم يعرفونني بصفة خاصة اشتريت تذكرتين لا لدبريكهام وهاك التذكرة الجديدة حيث إن تذكرتك تنتهى هنا . »

قالت : « ظننت أننا سنبقى هنا . »

— « ان يكون بقاؤنا هنا بالأمر المناسب »

— « آه . حقا . »

— « لم يكن لدى وقت حتى أكتب لك محمدا المكان الذى نستقر فيه . إن مدينة « الدبريكهام » أكبر كثيرا من هذه المدينة وعدد سكانها يربو على السبعين ألفا وما من أحد يعرف عنا شيئا هناك . »

— « وهل انقطعت عن العمل فى الكاندرائية هنا ؟ »

— « نعم فالموضوع كله جاء دون مقدمات وتسلمت رسالتك فجأة . كان الواجب بقتضى أن أعمل حتى ينتهى الأسبوع ولسكنفى ادعيت أن عذرا طارئا يضطرني إلى ترك العمل وبذلك سمح لى بتركه . إنى لعلنى أتم الاستعداد لأن أترك العمل فى أى يوم وفقا لما تأمرين به أيتها العزيزة «سو» . من أجلك أهجر كل شيء . »

— « يمدنى قلبى أننى أسىء إليك إساءة كبرى فأنا هدمت مستقبلك فى أن تصبح أحد رجال الدين كما قضيت على تقدمك فى مهنتك الحالية، بل إننى أتيت على كل شيء ! » .

— « لم تعد الكنيسة الآن شيئا بالنسبة لى . لتبقى كما هى فلن أصبح » أحد القديسين المقانلين الذين يترقون صفوفا صفوفا إلى أن تبلغ نيران تقواهم قدسهم الأعلى ، إن كان هناك حقا شيء كهذا ! أما قدسى أنا فليس فوق ولكن هنا . »

قالت وفى نبرات صوتها نفس الانفعال : « ويحى ما أسوأنى من امرأة تعمل على هدم حياة الرجال وإفساد سبلهم ! » ولكن سرعان ما استعادت هدوء نفسها، وطفقت تقول : « كان طيبا للغاية عندما سمح لى بالرحيل . هاك خطاها وجدته على المائدة صباح اليوم وهو موجه إليك » قال وهو يلقى بنظره إلى الخطاب :

« نعم إنه ليس بالشخص المجرد من الصفات الحميدة . إنى خجل من نفسى لسكراميتى إياه لأنه تزوجك ! » .

قالت والابتسامة على شفتيها : « وفقاً للقانون الذى يحكم نزوات النساء . أظن لابد لى من أن أتدله فجأة فى حبه لأنه سمح لى بالرحيل دون أن أتوقع ذلك وكان معى غاية فى النبيل . ولستكننى غاية فى برود العاطفة ، أو قل غاية فى نكران الجميل أو ما يشبه ذلك إذ على الرغم من كل ما أظهره نحوى من كرم ، ما شعرت أننى نادمة على ما بدر منى رغبة فى البقاء معه كزوجة . ومع ذلك فأنا أحب فيه اتساع أفق التفكير ، كما أننى أحترمه أكثر من أى وقت مضى » .

وغمغم « جود » يقول : « لو كان أقل كرماً مما هو الآن لتعقدت أمورنا ولاضطرت إلى أن تهربى منه رغم إرادته .

— « ما كنت لأفعل شيئاً كهذا . »

واستقرت عينها « جود » بعيداً عنها وأخذ يفكر . ثم عاد يقبلها فجأة وهم بتقبيلها مرة أخرى وعندئذ قالت له : « لا مرة واحدة فقط . أرجوك يا « جود » . »

قال : « هذه فسوة منك . » ثم نزل على رغبته . وبعد فترة صمت بدأ يقول : « حدث لى شيء غاية فى الغرابة . وصانى من « أرايلا » خطاب تطلب منى أن أطلقها وتقول إنى لابد أن أمنحها الطلاق رحمة بها ، إنها تود أن تزوج من ذلك الرجل الذى سبق أن تزوجته على أن يكون زواجها منه فى هذه المرة بالطريقة القانونية وهى تتوسل إلىكى أعاونها على تحقيق ذلك . »

— « وماذا فعلت ؟ »

— « وافقتها . فى مبدأ الأمر ظننت أنى لو وافقتها فلا بد أن تقع فى المتاعب بسبب زواجها الثانى وأنا لا أريد أن أسوء لىها بطريقة من الطرق فإنا بأفضل منها . غير أننى وجدت أنه ما من أحد هنا يعرف شيئاً عن هذا

الزواج ، كما تحققت أن الإجراءات لن تكون صعبة على الإطلاق . لو أرادت أن تبدأ حياتها من جديد فأبدي من الأسباب القوية ما يدعوني إلى عدم الوقوف في سبيلها . »

--- « وإذن ستصبح حراً ؟ »

— « نعم سأصبح حراً . »

وقالت بنفس التثنية الذي اتسم به سلوكها في تلك الليلة :

« وإلى أين نحن ذاهبان ؟ »

— « إلى » ألدريكهام « كما قلت . »

— « ولكن ألا يكون الوقت متأخراً للغاية عندما نصل إلى هناك ؟ »

— « نعم . فسكرت في ذلك ولهذا السبب أبرقت إلى » فندق الاعتدال « لحجز غرفة لنا . »

— « واحدة ؟ »

--- « نعم واحدة . »

ونظرت إليه وقالت وهي تطأطأ رأسها وتخفيها في ركن المقصورة : « توقعت منك أن تفعل هذا وإنني أخدمك لو لم أقل ذلك . ولكنني لم أتصد هذا الذي يدور بخديك . »

وفي لحظة السميت الى قلت ظال ينظر إلى المقعد المقابل بعينين جامدتين خاليتين من أى تعبير وأخيرا قال : « حسنا ! حسنا ! »

وظل صامتا ، وعندما لاحظت شعوره بالخيفة قربت وجهها من خده وهي تقول في نبرات غير واضحة : لا تتضايق مني أيها العزيز . »

قال : « ما من ضرر وقع وليكننى فهمة شيئاً آخر . هل غيرت رأيك فجأة؟ »

قالت وهى تبسم : « ليس من حقك أن تسألنى مثل هذا السؤال وإن أجيبك ! »

— « يا أعز الناس إلى ، إن سعادتك بالنسبة لى تفوق كل شيء . على الرغم من أننا نكاد نأخذ بتلابيب بعضنا فى كثير من الأحيان . لى أجد فى إرادتك قانوناً لا بد من طاعته . أرجو أن أكون بالنسبة إليك أكثر من مجرد مخلوق أنا . والآن افلى ما يملوك ! »

وبدأت الحيرة على وجهه وهو يقول : « ولكن من الجائز أن حقيقة الأمر هى أنك لا تحبيننى ، وليست أنك أصبحت حريصة على التقاليد . وبقدر ما أكره التقاليد . وفقاً لتعاليمك . بقدر ما أرجو وأتمنى أن تكون هى العامل الأساسى فى موقفك ، وليس الافتراض الآخر الذى يملؤنى رعباً ! »

وحق فى هذه اللحظة التى تشجع على الصراحة ، لم تستطع أن تكون صريحة تماماً فيما يتعلق بقلبها . ذلك اللفز الغامض . وقالت فى عجلة كمن يريد أن يتهرب من موقف مؤلم : « تستطيع أن تنزى ذلك إلى الخور الطبيعى فى نفسى ، الخور المتصل بطبيعته المرأة عندما تقع الواقعة وتتأزم الأمور . قد أشاركك الشعور فى أنه من حق أن أعيش معك على طريقته ابتداء من هذه اللحظة وقد أحبذ الرأى القائل إنه فى مجتمع سليم يكون والد الطفل المولود من امرأة شيئاً خاصاً بها وحدها بقدر ما يكون شكل ثيابها الداخلية من أخص أمورها ولا يجوز لمخلوق أن يوجه إليها أسئلة فى هذا الشأن . ولما كنت الآن حرة وكانت حريتى نتيجة لنبل أخلاقه وكرم نفسه ، أفضل كثيراً أن أكون على شيء من التزم . لو كان فى الأمر هروب أو لو أنه طاردنا وهددنا بإطلاق النار علينا لكان الموقف مختلفاً ولتصرفت بطريقة أخرى ! ولكن يا « جود » إياك أن تضغط على أو توجه إلى نقدا . عليك أن تفترض أننى خالية من الشجاعة التى تقسم بها آرائى . أعرف أننى مخلوق نعس يملأ اليأس نفسه وطبيعته لىست جياشة بالعواطف كطبيعته . »

وقال في هدوء : « لقد فكرت وكان طبيعيا ذلك الذى فكرت فيه ، ولكن  
إذا لم نكن حبيبين لم نكن شيئا . أنا على يقين بأن « فيلوتسون » يظن أننا  
حبيبان . هاك انظرى ما يتضمنه خطابه لى . » وهنا فتح الخطاب الذى سبق أن  
أعطته له وأخذ يقرأ : « إنى أشرت شرطا واحدا فقط : أن تكون رفيقا معها  
رفيقا بها . أعرف أنك تهيم بها حبا ولكن حتى الحب يمكن أن يتجاوز على القسوة  
فى بعض الأحيان . لقد خلقتا لبعضكما البعض وهذا واضح ومحسوس لكل عاقل ذى  
عينين . لقد ظهرت فى حياتى الزوجية الصغيرة وكنت بالنسبة لسكينا الشخص  
الثالث « المريب » . إنى أقولها مرة ثانية : احرص على « سو » . »

وقالت والدموع تترقق فى عينيها : « ياله من مخلوق طيب . » وبعد لحظة  
تفكير أضافت تقول : « كان مندما لاندرد فلم يعترض على رحيلى - بل مستسلما !  
لم يحدث قط أن كنت على وشك أن أهيم به حبا كما كنت عندما اتخذ العدة لراحتى  
فى أثناء رحلتى إليك ، وعندما عرض أن يزودنى بالمسال ومع ذلك ، لم أكن  
أحمل له حبا . لو أننى فقط أحس نحوه بقليل من الحب الذى تحمله الزوجة  
لزوجها فما لاشك فيه أننى أعود إليه وأنى لأعود حتى فى اللحظة الراهنة ! »

— « ولكنك لا تحبينه أليس كذلك ؟ » .

— « هذا حق فيما لها من حقيقة رهيبة ! » .

قال فى غضب : « أكاد أقول ولا أنا ولا أى إنسان ! فى بعض الأحيان  
يا « سو » عندما أتضيق منك يخيّل إلى أنك عاجزة عن الشعور بالحب الحقيقى ! »

قالت وهى تنسحب من أمامه وتذهب بعيدا عنه متطلعة إلى الظلام المحيط  
بها : « ليس هذا بالحسن منك ولا من الأخلاص ! » .

ثم أردفت تقول فى صوت مجروح دون أن تنظر إليه : « من الجائز أن حبي  
لك لا يشبه حب بعض النساء ولكن يسرنى أن أكون معك وإنه لسرور يتميز  
برقة سامية ولا أود أن أتمادى فى هذا السرور فأخاطر بفقده فى غمار المحاولة



للاستزادة منه ! وكامرأة حيال رجل ، أدركت تماما ما في محبي من خطر .  
أما باعتبار أنه أنا وأنت ، فقد صممت على أن أبقى في أنك لا بد واضع رغباتي  
فوق شهواتك . لا تحدث في هذا أكثر من ذلك أيها العزيز « جود » .

« ان أفعل وخاصة لو تشبب ذلك في جعلك تلومين نفسك . ولكن هل  
تحيينني حقا يا سو ؟ قولي إنك تحيينني ! قولي إنك تحيينني ربيع حب لك أوحى  
أقل من ذلك وعندئذ أَرْضَى ! » .

— « تركتكم تقبلني أليس في هذا ما يسكني من دلالة ؟ » .

— « مرة فقط أو حوالى ذلك » .

— « حسنا - لا تكن ولداً شرها » .

ومان بحسبه إلى الوراء وكف عن التطلع إليها فترة طويلة . لقد عادت إلى  
ذاكرته الآن تلك القصة القديمة في ماضى حياتها التي تدور حول طالب الجامعة ،  
ذلك المسكين الذي عاملته بنفس الطريقة التي تعامله بها الآن ورأى نفسه ضحية  
ثانية في ذلك المصير المحزن .

وغنم يقول : « ياله من هرب عجيب ! من الجائز أنك في علاقتك بفيلوتسون  
جعلت مني مخلب القط ! أؤكد لك أن الأمر ليمدو كذلك وبخاصة عندما أراك  
هناك تجلسين هادئة هكذا . »

وقامت من مكانها واقتربت منه وهي تقول متلطفة : « والآن يجب الاتغضب ،  
لن أسمح لك بذلك . قبلتني ولم يمض على ذلك وقت طويل ومع ذلك لم أحقد  
عليك وأعترف لك يا جود . فقط لا أريد أن تفعل ذلك مرة أخرى وبخاصة  
في ظروفنا الراهنة . ألا ترى ! » .

لم يستطع أبدا أن يعارضها عندما كانت في مقام الدفاع عن نفسها وكانت  
تدرك هذه الحقيقة جيدا . وجلس الاثنان متجاورين متشابكي الأيدي وظلا  
كذلك حتى أيقظتها فكرة طارئة وقالت :

— « ان أستطيع أن أذهب معك إلى » فندق الاعتدال ، هذا خاصة بعد تلك البرقية . »

— « ولم لا ؟ »

— « في مقدورك أن تدرك السبب . »

— « حسن جدا . لا بد أناسفند آخر . نخيل إلى في بعض الأحيان أنك بسبب زواجك من « فيلوتسون » حبيب فضيحة سخيفة تتظاهرين بأنك تعتنقين أفكارا متحررة بينما أنت ترسفين في أغلال القانون الاجتماعي تماما كأي امرأة أخرى من أعرف ا ، . »

— « تعوزني الشجاعة التي تناسب وأفسكارى المتحررة كما قلت من قبل . لم أتزوجه أبدا بسبب الفضيحة ولكن في بعض الأحيان تتغلب على المرأة رغبتها الطبيعية في أن تحب . وهي وإن كان الألم يعتصرها ليجرد تفكيرها في أنها تعامل رجلا بقسوة فإنها تشجعه على حبها بينما هي لا تحبه إطلاقا ، وعندما تراه وهو يتعذب ، يستيقظ ضميرها فتبذل قصارى جهدها كي تصالح خطأها . »

— « تعنين ببساطة أنك غازلت هذا المسكين بفجور وبعدها تبت عن هذا الإثم . ثم لكي تصالحى ما أفسدت تزوجته على ما في ذلك من تعذيب قاتل لك . »

— « لو نظرت إلى الموضوع على هذه الصورة القاسية أقول إن الأمر كان قريبا من ذلك . ذلك نفسه والفضيحة وإخفاؤك عنى ما كان ينبغى أن تبلغنى لياه قبل ا ، . »

استطاع أن يرى أنها محزونة باكية لنقده إبادا فشرع بواسيها بقوله : « هونى عن نفسك أيتها الغالية . اقتائنى لو أردت . تعلمين أنك بالنسبة لى العالم كله مهما تفعلين . »

قالت وهي تسمح دموعها المتساقطة على خديها : « نعم أنا غاية في السوء ولا مبادئ لى . أعرف أن هذا هو ما يدور بخلدك . »

« إن ما يدور بخلدى وأعرفه أنك «سو» الغالية وأنه ما من طول أو عرض وما من أمور موجودة الآن أو ستتمخض عنها الأيام يمكن أن تبعدنى عنك » .

وهى وإن كانت غاية فى السفسطة فى أمور عديدة كانت فى نواحي أخرى بسيطة كالأطفال بحيث أرضاها كلاله ووصلا إلى نهاية الرحلة وكانا على أحسن حال . وكانت الساعة أشرفت على العاشرة عندما وصلا إلى «الدبريكهام» عاصمة «وسكس» الشمالية .

ولما كانت ترفض الذهاب إلى «فندق الاعتدال بسبب الصيغة التى كتبت بها البرقية» راح يبحث عن فندق آخر وتطوع أحد الشبان لحمل متاعهما إلى «فندق جورج» وكان هو نفس الفندق الذى أقام فيه «جود» فى صحبة «أرايلا» فى المرة التى تقابلا فيها بعد انفصالهما لعدة سنوات .

ولما كانا قد دخلا الفندق من باب آخر ، وبسبب انهماك «جود» ، لم يتعرف المكان فى أول الأمر . وبعد أن احتل ، كل منهما غرفته نزلا إلى قاعة الطعام حيث تناولوا عشاء خفيفا . وفى اللحظة التى غاب فيها «جود» عن المكان تحدثت النادلة إلى «سو» قائلة :

« أظن يا سيدتى أتتى أذكر قريبك أو صديقك أو مهما كانت علاقته بك وقد حضر إلى هنا ذات مرة وكان الوقت متأخرا كما هو الآن وفى صحبة زوجته وكانت سيدة أخرى بكل تأكيد ويطارحها نفس الغرام » ،

قالت سو وفى قلبها ألم خاص : «أوه ، حقا ؟ وإن كنت أعتقد أنك لابد أن تكونى مخطئة . كم من الوقت مضى على ذلك ؟ »

« منذ حوالى شهر أو شهرين . كانت سيدة ممثلة الجسم أنيقة المظهر . كانا يحتلان هذه الغرفة . »

وعندما عاد وجلس الاثنان للعشاء كان يبدو على سو الضعف والتعب . وفي تلك الليلة ، عندما افترقا ليذهبا كل منهما إلى غرفته ، قالت في نغمة حزينة : « اسمع يا «جود» ، أنا لا أحس هذه المرة بنفس الأحاسيس اللطيفة المفرحة التي أشعر بها عادة عندما نكون سويا . إنى أكره هذا المكان ولا أتحمّل البقاء فيه . لدى شعور بأننى لا أحبك الآن بنفس القدر الذى تعودت أن أحبك به فى الماضى ! » .

— « كم يبدو عليك القلق والملل أيتها العزيزة . لم تتغيرين هكذا ؟ » .

— « لأنه كان قبوة منك أن تأتى بى إلى هنا ! » .

— « ولماذا ؟ » .

— « كنت هنا مع « ارايلا » من فترة قصيرة — أتبالى ، والآن لقد قلتها ! » .

قال «جود» وهو يتلذذ حوله : « يا الله . حقا ، حقا إنه نفس المكان . لم أدرك ذلك قبل الآن . على أى حال يا «سو» ليس فى جيبك معنى إلى هنا شيء من القسوة طالما جئنا باعتبار أننا من أسرة واحدة ، مجرد قرييين فى فندق واحد » .

— « متى جئتما إلى هنا ؟ خبرنى . خبرنى . »

— « فى اليوم السابق مباشرة على مقابلى لك فى « كرايستمينستر » عندما عدنا إلى « ميريجرين » سويا . أخبرتك حينئذ بأمر هذه المقابلة » .

— « نعم . قلت لى إنك قابلتها ولاكنك لم تبج لى بكل شيء . إن ما أخبرتنى به حينئذ هو أنك تقابلتما كشخصين غريبين لم يسبق لهما أن تزوجا . لم تقل لى إنك تصالحت معها وقضيت على ما كان بينكما من خلاف » .

قال فى حزن : « لا . لم نتصالح بعد . لا أستطيع يا «سو» أن أوضح لك كل شيء الآن . »

— « لم تكن أمينا معي . أنت يا من كنت آخر أمل لي في الحياة ! إن أنسى لك هذا . أبدا . مطلقا ! »

— « واسكن أيتها العزيرة « سو » . كبايت رغبتيك دائما أن تكون أصدقاء وهذا هو السبب في أننا لسنا الآن بعشيقين ! هذا السلوك منك يندلج على كثير من التناقض وعدم الاستقرار ! »

— « قد تنسب الغيرة إلى قلوب الأصدقاء . ! »

« لا أوافقك على ذلك . إنك ترفضين التنازل لي عن أى شيء . بينما تطالبينني بأن أتنازل لك عن كل شيء . لا تنسى أنك كمت في ذلك الوقت على علاقة طيبة مع زوجك . »

— « لا . لم أكن كذلك « يا جود » . واحسرتاه ! كيف تفكر هكذا ! »  
لقد فكرت في أن نقيم سويا في غرفة واحدة حتى لو لم تكن نقصد شيئا من وراء ذلك . .

وهنا كان الألم قد أبرح بها إلى حد أن « جود » اضطر إلى أن يذهب بها إلى غرفتها ويغلق الباب لئلا يسمع الناس ما كان يدور بينهما من حديث .

— « أكانت هذه هي الغرفة ؟ إنها هي ! أرى من نظرتك أنها هي . إنى أرفض أن أقيم في هذه الغرفة . أوه . لم يكن من الأمانة في شيء أن تلتقي بها مرة أخرى ! أما أنا فقد قهرت من النافذة ! »

— « واسكن يا « سو » . تذكرى أنها زوجتى الشرعية ولو لم ... » .

وركعت « سو » . ودفنت وجهها في الفراش وأخذت تبكي .

قال « جود » : « لم أرفيك هذه الدوافع المجنونة قبل الآن . هذا الشعور الشاذ النكد غريب على . ينبغي ألا أقربك ومن الواجب على أى إنسان آخر ألا يفعل ذلك ! »

— « عجباً . ألا تدرك حقيقة شعورى ؟ لم لا تفهمنى ؟ لم أنت غليظ القلب هكذا ؟ أقول لك إننى قفرت من النافذة ! »

— « وهل قفرت حقاً من النافذة ؟ »

— « لا أستطيع التفسير . »

كان صادقا عندما قال إنه لا يدرك جيداً حقيقة شعورها . غير أنه يفهمها بعض الشيء ، ولم يغير ذلك من حبه .

واستمرت تقول : « ظننت أنك لا تهتم بأى مخلوق آخر سواى ولا تريد أن ترى فى العالم كله شخصا إلا أنا . »

قال « جود » وقد برح به الحزن كما برح بها : « هذا حق فأنا الآن لا أهتم بأحد ، كما أننى لم أهتم بأحد ! »

— « واسكن لا بد أنك شغلت كثيرا بها وإلا — . »

— « لا . لم يحدث ذلك . أنت أيضا لا تفهميننى وهكذا الحال مع كافة النساء . لم تضعين نفسك فى هذا المأزق دون داع ؟ »

ورفعت رأسها من فوق السرير وانفجرت قائلة : « لولا ذلك لذهبت معك إلى فندق الاعتدال ، كما اقترحت على أن أفعل إذ أننى كنت على وشك الاعتقاد بأننى أخصك . »

قال فى برود : « ما من نتيجة لهذا الآن ! »

— « ظننت طبعاً أنها لم تسكن قط زوجتك بالمعنى الحقيقى طالما أنها هجرتك من تلقاء نفسها منذ سنوات عديدة . إن فهمى لهذا الموضوع هو أن انفصالا كانفصالك عنها وكانفصالى عنه وضع حداً للزواج . »

قال : « لا أستطيع أن أستطرد فى الحديث دون أن أسيء إليها وأنا لا أريد أن أفعل ذلك . ومع هذا فن واجبى أن أخبرك بشيء واحد سوف يضع حداً

لهذا الزاع بيننا . لقد تزوجت رجلاً آخر . تزوجته زواجا حقيقية يا ! لم أعرف شيئاً عن هذا الموضوع إلا بعد أن تقابلنا هنا في هذا الفندق .

— « تزوجت آخر ؟ هذه جريمة — حسب نظر العالم وإن كان لا يؤمن بذلك » .

— « والآن ها أنت عدت إلى طبيعتك مرة أخرى . أجل إنها جريمة لا تؤمنين بها في أعماق نفسك وإن كنت تسلمين بها مضطرة . إنى ان أشكوكها ! ومن الواضح أن ضميرها هو الذى حثها على أن تطالب منى الطلاق حتى تستطيع الزواج مرة أخرى من هذا الرجل بطريقة شرعية . وهكذا يصبح من الواضح أننى لن أراها مرة أخرى » .

— قالت في نغمة أكثر رقة وهى تهتم واقفة : « وهل حقاً كنت تجهل كل شيء عندما قابلتها ؟ » .

— « لا أعرف شيئاً . فإذا نظرنا إلى هذه الظروف فأعتقد أن من واجبك ألا تغضبى أيتها العزيرة ! » .

— « لست بغاضبة ولا مكنتى ان أذهب إلى « فندق الاعتدال » .

وضحك وقال : « ما عليك ! طالما أنا بقربك فإننى سعيد نسبياً . إن الأمر همدى يعلو على أشخاصنا الفانية — إنه يتعلق بأرواحنا . أنت أيتها الروح ، أيتها المخلوق الأثيرى . أنت أيتها العزيرة الحلوة ، أيتها الشبيح الفاتن . أكاد لا أصدق أنك من لحم ودم كالآخرين وعلى ذلك عندما أضع ذراعى حول جسدك أكاد أحس بهما وهما يحترقان كيما نك كإنه من هواء ! اغفرى لى إذا كنت فظاً على حد تعبيرك . تذكرى بادعائنا القرابة ونحن غرباء فبح نصبناه . وإن العداوة التى كانت بين آبائنا أضفت عليك فى عيني جاذبية أقوى وأعرق من إحساس الجدة الذى يخلقه التعارف العادى لأول مرة » .

وأخذت تستعطفه وهى تميل عليه وتقترب منه وهما يهمان بالوقوف وهى

تقول : « أسمعني تلك الأبيات الجميلة من قصيدة وايبيسيكيديون ، للشاعر «شيللى»  
إذ أحس أنني المقصودة بهذه الأبيات . ألا تعرفها ؟ » .

أجابها فى حزن : « أكاد لا أحفظ شيئاً من الشعر » .

— « حقاً ! إذن هاك بعضاً من هذه الأبيات » .

« ثمة مخلوق كثيراً ما التقت روحى به

فى هيامها المجنح فى العالم العلوى .

ملاك من السماء يذوب رقة و ليس له بين البشر قرين

وتحت نقابه الشفاف يبرز قوام أنثوى يتألق نورا » .

فى هذه الأبيات إطراء لا أستحقه وعلى ذلك ان أستمر . ولكن قل لى

تحدث عني ! قلها ! » .

— « نعم أيتها العزيزة ولها مثلك تماماً » .

— « لى أصنع عنك الآن . ولا بد أن تقبلنى مرة واحدة — هنا . قبله

ليست بالطويلة للغاية . »

ووضعت طرف أصبعها على خدها فى دلال . وفعل ما أمرت به .

وقالت : « إنك قطعاً تهتم بى كثيراً جداً ! أليس كذلك ؟ وذلك على الرغم

من أننى — أننى — أنت تعلم قصدى ! » .

قال وهو يزفر : « نعم يا صغيرتى ! » ثم ودعها وانصرف .

( ٦ )

وبعودته إلى بلدته « شاستون » ليعمل معلماً ، حظى « فينوتون » ، باهتمام  
سكانها وأيقظ النائم من ذكرياتهم عنه . وهؤلاء إن لم يكرموا لصفاته المتنوعة ،  
كما يمكن أن يكرم فى أى مكان آخر ، إلا أنهم كانوا يكرمونه له شعوراً بالإخلاص



والمحبة . وحين عاد بعد وصوله بينهم بقليل بزوجة جميلة جمالا يمكن أن يكون ، على حد قولهم ، ضارا به لو لم يكن حذرا إزاء أمر كهذا ، فإنهم شعروا بفرحه كبرى لمقامها بين ظهرا نبيهم .

والفترة عقب فرارها من ذلك المنزل ، لم يش غيباب « سو » تعليةا فكانها في المدرسة أمكن شغله بعد أيام قليلة بمعاونة أخرى شابة . ومر هذا التغيير هو الآخر دون أن يفتبه إليه أحد إذ أن وظيفة « سو » كانت مؤقتة . وبعد انقضاء شهر من الزمان ، وبسبب بعض التصريحات الخاصة التي أدلى بها « فيلوتسون » عن جهله بمصير زوجته ، بدأ فضول الناس يلعب دوره في مأساة المعلم . وفي النهاية وقر في أذهان أهل البلدة أن « سو » خدعت زوجها وفرت . وجاءت مظاهر القلق في حياة المعلم وفقدانه الحماسة في عمله مصداقا لما جال في خاطر الناس من ظنون .

« وفيلوتسون » وإن كان قد أمسك لسانه عن الكلام أطول فترة استطاعها - باستثناء موقفه مع صديقه جيلنجهام - فإن أماتته وصراحتها ما كانتا لتسمحان بأن يظل على حاله هذه عندما بدأت الإشاعات تتناول بالسوء سلوك « سو » وعندما أخذت هذه الإشاعات تمتد خارج نطاق البلدة . وفي صباح يوم اثنين ، زار المدرسة رئيس الإدارة وبعد أن فتش أعمالها جذب « فيلوتسون » جانبا وقال له في صوت خفيض حتى لا يسمعه الأطفال :

— « أرجو أن تغفر لي سؤالى هذا طالما أن الأمر أصبح يدور على ألسنة الجميع . هل كل ما يقال عن أحوالك العائلية صحيح ؟ هل رحيل زوجتك ليس لمجرد الزيارة بل هروب خفي مع عشيق ؟ إذا كان الأمر كذلك فإني أعزبك » .

قال « فيلوتسون » : ليس في الأمر سر .

— « هل رحلت لزيارة بعض الأصدقاء ؟ » .

— « لا » .

— « إذن ما الذي حدث ؟ » .

— « رحلت في ظروف من شأنها عادة أن تدعو الناس إلى أن يشاطروا  
الزوجة العزاء . ولكنني منحتها موافقتي » .

وبدا على الزائر الكبير أنه لم يفهم . واستمر « فيلوتسون » يقول في  
اقتضاب : « ما أقول هو الحقيقة بعينها . استأذنتني في الرحيل مع عشيقها  
فأذنت . ولم لا ؟ إنها امرأة رشيدة وهذه قضية تتعلق بضميرها وليس بشخصي .  
لم أكن سجانها . وليس في طاقتي أن أفسر الموضوع أكثر من ذلك ولا أرغب  
أن يناقش تصرفاتي إنسان » .

وبدأ الأطفال في الفصل يلحظون وجهي الرجائين وما بدا عليهما من مظاهر  
الجد والاهتمام . وعندما عادوا إلى بيوتهم تحدثوا إلى أهليهم مشيرين إلى وجود  
أنباء جديدة في موضوع السيدة « فيلوتسون » . ولقد قالت خادمة السيد :  
« فيلوتسون » - وكانت فتاة صغيرة من المترددات على المدرسة - إن المعلم عاون  
معاونة كبيرة في جمع متاع زوجته وشده وحزمه كما قدم لها كل ما طلبت من  
مال ، وكتب خطابا رقيقا لعشيقتها الشاب حائا إياه على العناية بها والحرص على  
راحتها . وبعد أن درس المسئول موقف « فيلوتسون » من كافة نواحيه عاد  
يتحدث مع بقية أعضاء الهيئة المشرفة على المدرسة . وفي نهاية الأمر طاب هؤلاء  
من « فيلوتسون » أن يذهب إليهم ليجتمعوا به اجتماعا خاصا . واستمر الاجتماع  
فترة طويلة في نهايته عاد المعلم إلى البيت وكان كعادته شاحب الوجه منهوك القوى  
فوجد « جيلنهام » في انتظاره .

قال « فيلوتسون » وهو يلقي بجسده المنهوك على أحد المقاعد : « الأمر كما  
قلت . طلبوا مني أن أستقيل من الوظيفة معللين ذلك بمساعي الفاضح مع زوجتي  
لأنني منحتها حريتها اعتقادا مني بأن في بقائها معي عذابا لها أو : كما قالوا ، لأنني  
تسرت على اقترافها جريمة الزنا . ولكنني ان أستقيل » .

— « لو كنت في مكانك لاستقيلت » .

— « أما أنا فلا . فالموضوع لا يخصهم ولا يؤثر بأى حال على عملى . فى مقدورهم أن يفصلونى إذا ودوا ذلك » .

— « والسكنك لو خلقت مشكلة فقد يصل الموضوع كله إلى الصحافة وبعدها ان تجد مدرسة أخرى تقبل استخدامك . يجب أن تدرك أنهم ينظرون إلى ما فعلت على أنك معلم قبل كل شىء . تتولى تربية الشباب وثقتهم . ومن واجبهم أن يتدبروا أثر تصرفاتك فى أخلاق أهل المدينة . وفى نظر عامة الناس يعتبر موقفك من المواقف التى لا يمكن الدفاع عنها . يجب أن تسامح لى بأن أقول ذلك » .

ومع ذلك فإن « فيلو تسون » ما كان لينصت لهذه النصيحة الطيبة . بل إنه قال : « لا يهمنى ما يقولون وإن أترك وظيفتى وسأبقى فيها حتى يأمروا بطردى منها والسبب هو أننى لو استعقلت فى ذلك اعتراف صريح بأننى أسأت التصرف بينما يزداد اقتناعى يوما بعد يوم بأننى فى نظر السماء ووفقا لجميع القواعد الإنسانية الطبيعية المستقيمة ، تصرفت تصرفا سليما » .

وأدرك « جيلنجهام » أن صديقه العنيد لن يتمكن من الاحتفاظ بموقف كهذا فتوقف عن الحديث . والواقع أنه فى الوقت المناسب وبعد فترة ، ربع ساعة مرت ، وصل الخطاب الرسمى المتضمن الفصل إذ ظل أعضاء الهيئة المشرفة على المدرسة مجتمعين لكتابة عقب مغادرة « فيلو تسون » الاجتماع مباشرة . أما رده فكان أنه ان يوافق على قرار الفصل ودعا إلى اجتماع عام على الرغم مما بدا عليه من انهيار دفع صديقه إلى أن يتوسل إليه ليظل فى المنزل . وعندما وقف « فيلو تسون » ليشرح للمجتمعين أسباب معارضته لقرار الهيئة ، أبدى من الحرج والبراهين كتلك التى سبق أن أبداها لصديقه « جيلنجهام » ، كما أصر على القول بأن المسألة برمتها لا تعدو أن تكون موضوعا خاصا بعنیه وحده ولا يعنى أحدا غيره . ورفض المجتمعون أن يقبلوا وجهة النظر هذه وكانوا عند رأيهم من أن الحياة الخاصة للمعلم لا بد أن تدخل فى نطاق سلطتهم حيث إن مثل هذه

التصرفات لا بد أن تمس أخلاق من يشرف على تربيتهم وتعليمهم . عند ذلك قال إنه يرفض الموافقة على أن عملا من أعمال الخير والرحمة يمكن أن يسيء إلى الأخلاق .

وهب سكان المدينة المحترمون وأفرادها من الأغنياء المعارضة « فيلوتسون » ووقفوا ضده وقفة رجل واحد ولكن بما أدهشه أن عددا يبلغ اثني عشر أو أكثر انبروا للانتصار لآرائه وهبوا للدفاع عنه .

ولقد بينا آنفا أن « شاستون » كانت القاعدة لجماعة غريسية مسلية من الوافدين الذين يترددون على المعارض والأسواق التي تقام في أنحاء وسكس أثناء شهور الصيف والخريف . و « فيلوتسون » وإن لم يسبق له أن يتحدث إلى أحد من أعضاء هذه الجماعة ، فإنه اكتشف لدهشته ، أنهم يدافعون عن موقفه بكل شجاعة وثبات بما قوى أمله الضئيل في الانتصار . وتضمنت الجماعة اثنين من العمال الموسمين ، وصاحب إحدى حوانيت ضرب النار ، وبعض النسوة العاملات في حشو بنادق التصويب ، واثنين من مدربي الملاكمة ، وسيدتين من صانعات المكاس ، وأحد باعة خبز الزنجبيل ، وأحد أصحاب الأراجيح ، وأحد أصحاب أجهزة القوة والشجاعة .

هذه الجماعة السكرية من المؤيدين ، وقليل غيرهم من ذوى الآراء المستقلة الذين لم تخل حيائهم العائلية من أزمات طارئة ، أقبلوا على « فيلوتسون » وشدوا على يده في قوة ، وبعدها عبروا في الاجتماع عن آرائهم في شجاعة مما تمخض عنه نشوب معركة عامة ، انشطرت فيها إحدى السبورات وتحطم زجاج ثلاث نوافذ وانسكب الحبر على قميص أحد أعضاء مجلس المدينة وأصيب أحد رجال الدين في رأسه إصابة جاءته من طرف خريطة لفلسطين بل إن الرأس اخترقت الخريطة عند المنطقة التي فيها مدينة « السامرة » ، واندثرت غبار المعركة دن كدمات فوق العيون وأنوف دامية . وبما زاد في فزع الجميع أن أنف رجل الكنيسة لم ينبج هو أيضا من هذا المصير بسبب لكمة جاءته من إحدى العاملات في تنظيف المداخل

وكانت متحمسة لمبدأ تحرير المرأة مما دعاها إلى الانضمام إلى جماعة « فيلوتسون » .  
وعندما رأى هذا الأخير الدماء تسيل على وجه رجل الدين أخذ يتوجع أسفا  
على ما وصات إليه الأمور وندم على رفضه الاستقالة عندما طلب منه ذلك .  
وأخيرا عاد إلى بيته منهوك القوى ، عليل الجسد إلى حد أنه في اليوم التالي لم  
يستطع أن يغادر فراشه .

وكان هذا الحادث المصعبك المبكى فاتحة مرض خطير له فرقد في فراشه وحيدا  
كسير النفس وكان في حالته مثلا للرجل في منتصف العمر الذي اكتشف بعد  
فوات الأوان أن حياته بنواحيها العائلية والعقلية معرضة للفشل والأحزان .  
وفي بعض الأمسيات جاء « جيلنجهام » لزيارته . وجرى ذكر « سو » على لسانه  
في مناسبة من المناسبات .

فقال « فيلوتسون » : إنها لاتهتم بي أقل الاهتمام ! ولماذا تهتم بي ؟

— « إنها لاتعلم أنك مريض . »

— « هذا أفضل ليكلينا . »

— « وأين تعيش الآن مع عشيقها ؟ »

— « في ميلشستر » على ما أعتقد . على الأقل كان يعيش هناك من وقت ليس

بعيد . »

وعندما عاد « جيلنجهام » إلى بيته أخذ يفكر فيما سمعه من « فيلوتسون »  
وأخيرا كتب إلى « سو » رسالة قصيرة خالية من الإهضاء وكان الأهل في استقبالها  
لها ضئيلا إذ كانت « وجهة إلى « جنود » بعنوان تيسيس الناحية .

وعندما وصلت الرسالة إلى ذلك المكان أعيد إرسالها إلى « ميريجرين » في شمال  
وسكس ومنها إلى « ألدوبريكهام » عن طريق الشخص الوحيد الذي كان يعرف  
عنوانه وهو الأرملة التي عنيت بقرية العجوز أثناء مرضها .

ومرت أيام ثلاثة وذات مساء ، وكانت الشمس على وشك المغيب وأشعتها

الذاهبة نكسو منخفضات «بلاكور» في غمامة وروعة وتجعل نوافذ «شاستون» تبدو لأعين الفلاحين العاملين في ذلك الوادي كأنها شواظ من نار ، خيل للربض أنه يسمع وقع أقدام تدخل المنزل . وبعد لحظة جاءه صوت دق هادئ على باب الخدع ، ولم ينبس بكلمة وهو يرى الباب يفتح في حرص وتدخل «سو» .

كانت ترتدى ثوبا من أثواب الربيع الخفيفة وكانت في دخولها لطيفة سريعة كشبح يتنقل من مكان إلى آخر ، بل كغراشة تطير ثم تحط حطاً رقيقاً هيناً .

وأدار لها عينيه وبعدها اندفع الدم إلى وجهه وبدأ عليه أنه يحاول أن يسكبج دوافعه الأولى للكلام .

وقالت وهي تنحنى فوقه وفي عينيه علامات الخوف والرهبة : « ليس لدى ما أفعله هنا ولكنني سمعت أنك مريض وأن حالتك خطيرة . ولما كنت أدرك أنك تعترف بوجود عواطف أخرى بين الرجل والمرأة خلاف الحب الجسدي لذا جئت لأراك » .

— « لست في حالة خطيرة أيتها الصديقة العزيزة . إنني فقط أشكو توجعاً بسيطاً » .

— « لم أعرف ذلك وأخشى أن المرض الخطير يجب أن يكون المبرر الوحيد للحضور » .

— « نعم نعم . وكنت أود ألا تأتي . لم يمض على فراقنا وقت طويل - هذا كل ما قصدت إليه . على أي حال لنفيد من لحظتنا الراهنة . أنت لم تسمعي عن المدرسة على ما اعتقد ؟ » .

— « لا - وماذا عنها ؟ » .

— « إنني فقط راحل من هنا إلى مكان آخر إذ است على وفاق مع المسؤولين عن إدارة المدرسة - وعلى ذلك سوف نفترق - هذا كل ما في الأمر » .

ما كانت «سو» تشك لحظة واحدة ، سواء في اللحظة الراهنة أو مستقبلاً ،

فى وجود المتاعب التى لحقت بفيلوتسون من جراء سماحه لها بالرحيل ، ولم يبد عليها قط أنها تفكر فى مثل هذا الأمر أو توليه شيئاً من عنايتها إذ لم تصنعها أية أخبار من « شاستون » ، وظل الاثنان يتحدثان فى موضوعات بسيطة عابرة وعندما حل موعد الشاى وجاءت الخادمة تحمل أدواته ذهلت الصغيرة عندما وجدت أن فنجانا آخر لابد أن يعد لسو إذ كان اهتمام الصغيرة بقصة حياتهما يفوق كل ما توقعها من فتاة مثلاً . وبينما هى تنزل السلم رفعت عينيها وبديها فى استغراب مضحك . وفى أثناء احتسائهما للشاى ذهبت « سو » إلى النافذة وقالت وهى غارقة فى تفكير عميق :

— « يا له من غروب بديع يا « ريتشارد » ، » .

— « فى أغلب الأمسيات يبدو الغروب من هذا المكان آية فى الإبداع الإلهى وذلك لأن أشعة الشمس تخترق طبقات الضباب المتكاثفة فى الوادى . ولكننى أخسر كل هذه الأشعة ولا أفيد منها شيئاً إذ أنها لا تدخل إلى هذا الركن الضيق المقبض الذى أنام فيه » .

— « ألا تود أن ترى هذا الغروب بالذات ؟ إنه يشبه السماوات وقد فتحت » .

— « نعم . ولكننى لا أستطيع » ،

— « سأساعدك » .

— « لا ، فالسرير لا يتحرك » .

— « ولكن سترى ما أرى إليه » .

وذهبت « سو » إلى حيث توجد مرآة متحركة وبعد أن أمسكتها بيدها . رفعتها إلى مكان قريب من النافذة حيث تلتقط أشعة الشمس . وأخذت تحرك المرآة حتى انعكست حزم الضوء على وجه « فيلوتسون » .

قالت : « تستطيع الآن أن ترى الشمس العظيمة الحمراء إلى متى تأكدة من أنها ستساعدك وآمل كثيراً أن يحدث ذلك » .

— كانت تتحدث في حنان كطفل يستغفر والديه وكأ لو كانت على استعداد للقيام بأي شيء في سبيله .

وابتسم « فياوتسون » في مرارة وهو يقول : « يالك من مخلوق عجيب » .  
واستمر يغمغم والشمس تنضو في مقلتيه وهو يقول :  
« ما أعجب بجميئك لرؤيتي بعد كل الذي حدث بيننا » .

وقالت في عجلة : « لا تجعلنا نعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى . يجب أن أركب الحافلة حتى ألتقي القطار إذ لا يعلم « جود » بمجيئي إلى هنا . لم يكن بالمنزل عندما بدأت هذه الرحلة لذا يجب أن أعود الآن وأن أعود دون تمهل . لنقيا يا « ريتشارد » في غاية الفرح لأن صحتك تتحسن . أنت لا تذكرني . أليس كذلك ؟ كم كنت معي غاية في اللطف والرفقة » .

وقال في صوت أجش : « يسعدني أنك تعتقدين ذلك ، لا . مطلقا . أنا لا أكرهك » .

وانتشر الظلام بسرعة في الغرفة المقبضة في أثناء حديثهما المتقطع . وعندما جاءت الشموع وحل وقت رحيل « سو » وضعت يديها في يده ، أو قل سمحت ليدها بأن تنزلق بين يديه إذ كانت بطبيعتها تميل في حركتها إلى الخفة الواضحة . وبمجرد أن أغلقت الباب خلفها صرخ يقول : « سو » ، إذ لاحظ في اللحظة نفسها أن الدموع تغطي وجهها وعلى شففتيها رعشة .

لم يكن من الصواب استرجاعها - وأدرك ذلك وهو يتتبعها بنظره ولكنه عجز عن فعل أي شيء . أخيرا عادت .

أخذ يغمغم قائلا : « سو . ألا نودين أن ننسى فتيهين ؟ سأصفح عنك وأغض البصر عن كل شيء » .

قالت في تعجل : « لا تستطيع ، لا تستطيع ، لا تستطيع الآن أن تفعل ذلك » .



- « إنه زوجك الآن . تقصدين طبعاً أنه أصبح كذلك ؟ » .
- « لك أن تفترض ما تريد . إنه على وشك أن يحصل على الطلاق من زوجته « أرابيلا » .
- « تقولين زوجته . لم أسمع قبل الآن أن لديه زوجة » .
- « كان زواجاً فاشلاً » .
- « مثل زواجك ؟ » .
- « مثل زواجي . إنه يسعى للطلاق منها وذلك لخيرها بقدر ما هو لخيره . كتبت إليه راجية أن يطلقها إشفافاً عليها حتى تستطيع أن تتزوج من جديد وتحيا حياة شريفة ووافق على ذلك » .
- « أمزوج هو ، وهل تقولين إنه يتركها بدافع من مصلحتها ؟ آه ، نعم من الخير لها أن يطلق سراحها . ولكنني لا أحب أن أسمع هذه النغمة . في مقدوري أن أعفو يا « سو » .
- « لا . لا . لا تستطيع أن تستعيدني الآن بعد ما بدر مني من ندالة يدل عليها ما فعلت ! » .
- في تلك اللحظة بدا على وجهها ذلك الرعب المتأصل الذي كثيراً ما ظهر كلما تحول « فيلوتسون » من الصديق إلى الزوج والذي جعلها تصطنع أى دفاع يحميها من ظهور عواطف الزوجية فيه .
- أخيراً قالت : « يجب أن أعود الآن وسأؤ مرة أخرى . هل تسمح بذلك ! » .
- « لا أطلب منك أن تذهبي حتى في هذه اللحظة بل إنى أطلب منك أن تبق » .
- « أشكرك ما صنعت يا « ريتشار » ولكن لا بد أن أعود . لا أستطيع أن أبقى طالما أنك لا تشكو مرضاً خطيراً بعكس ما كنت أظن » .

— « إنها تخصه هو . تخصه من قمة رأسها إلى أخمص قدميها » . قال ذلك في نبرة ضعيفة فلم تسمعه وهي تفاق الباب خلفها . إن خوفها من ارتداده إلى سابق انفعالاته العاطفية مضافا إلى ذلك خجلها من نفسها لتصرفها المنطوي على الاستهتار بالأصول . كل ذلك طبع ساوكتها بطابع الولاء المتغير وحال بينهما وبين الكشف أمامه عما وصلت إليه حتى تلك اللحظة العلاقة الناعمة بينهما وبين « جود » .

ورقة « فيلوتسون » في فراشه يناوى من الألم كراقد وسط نار مستعرة . كان يتوجع وهو يتأمل تلك الخلوقة الأنيقة التي تمثل مزيجا من الإقبال والإدبار والتي تحمل اسمه . يتأملها وهي تعود نافرة إلى بيت عشيقها .

وكان « جيلنجهام » يبدى من الاهتمام بأمور « فيلوتسون » والاهفة على أحواله ما دعاه إلى ارتقاء التل والذهاب إلى « شاستون » مرتين أو ثلاثا كل أسبوع على الرغم من أن الرحلة في الذهاب والإياب تؤلف مسيرة تسعة أميال كاملة لا بد من إنجازها في الفترة بين تناول الشاي والعشاء عقب عمل يوم شاق في المدرسة . وعندما جاء في المرة الثانية عقب زيارة « سو » ، كان « فيلوتسون » في الدور السفلي من المنزل ولاحظ « جيلنجهام » أن ما كان يبدو على صديقه من قلق قد حل محله من الاتزان والشباب ما أثلج صدره .

قال « فيلوتسون » : « جاءت إلى هنا بعد آخر زيارة لك » .

— « لا تقل إن التي جاءت هي السيدة « فيلوتسون » ا » .

— « نعم . إنها هي » .

— « حسن . لقد تصالحتما إذن ؟ » .

— « لا . جاءت فقط للزيارة وربت على وسادتي بيدها البيضاء الصغيرة

ومثلت دور الحاضنة الأريية لنصف ساعة ثم عادت من حيث أتت » .

— « حقا ؟ خسئت إن لم تكن فارغة العقل نافهة ! » .

— « ماذا تقول ؟ » .

— « لا شيء . لا شيء » .

— ماذا تقصد ؟ — .

— أقصد أنها امرأة طائشة متعاقبة ذات نزوات جامحة . لو لم تكن زوجتك — .

— إنها ليست كذلك . إنها تنحصر رجال آخر بالاسم والقانون . كنت أفكر — والفكرة نبئت في حديث جرى بيني وبينها لإشفاقا عليها — أنه يجدر فض العلاقة القانونية القائمة بيني وبينها فضلا حاسما ولا سيما أنني أستطيع الآن ذلك بعد أن عادت إلى ورفضت رجائي بالبقاء مع أنني أوضحت لها أنني قد صرحت عنها . وفي اعتقادي أن هذه الحقيقة يمكن أن تمنحني الفرصة لعمل ذلك وإن كنت لا أود أن أقدم على شيء من هذا الآن . ما جدوى الاحتفاظ بها مقيدة إلى إذا لم تكن تخصني ؟ . أعرف — وأنا واثق بما أقول — أنها ستحسب هذه الخطوة من جانبي وستعتبرها ناعمة لها إلى أقصى الحدود إذ على الرغم من أنها تعطف على وتشفق على آلامي ، بل وتبكي بالدمع حزنا على مأساتي ، وذلك باعتباري مجرد صديق ورفيق ، فإنها لا تهوى على مجرد النظر إلى على اعتبار أنني زوجها . إنها تفتني . إنها تذكرني ولا فائدة من إنكار هذه الحقيقة . إنها تفتني والطريق الوحيد الذي يتفق مع الكرامة والرجولة ، بل والرحمة أيضا ، أن أنهم ما بدأت . كذلك من صالحها لأسباب عملية كثيرة أن تستقل عني . لقد حطمت مستقبلي تحطيا بسبب القرار الذي اتخذته لصالحنا وإن كانت لا تعرف عن ذلك شيئا . إنى ألمح في الأفق فقرا شاملا سوف يلزمي حتى يماتي فلن يقبل أحد على استخداعي وإن أكون معلما بعد اليوم . ومن المحتمل أنني وقد فقدت وظيفتي ، سأجد عملا يمكنني من أن أعيش الجزء الباقي من حياتي على أبسط مستوى ومن الأوفق أن أتعمل مصري وحدي . وينبغي إخبارك الآن أن ما جعلني أفكر في طلاقها هو ما سمعته من أن « جود فاولي » على وشك القيام بالشيء نفسه .

— « حقا . وهل هو أيضا متزوج ؟ يا لها من عاشقين على درجة كبيرة من الغرابة » .

— « حسن ما تقول . لست في حاجة إلى رأيك في هذا بل أود أن أقول إن موافقتي على طلاقها لن يسمي . إلهي في شيء ، بل إن هذا قد يهيئ لها سعادة لم تكن تحلم بها حتى هذه اللحظة إذ يصبحان قادرين على الزواج كما كان ينبغي أن يفعلوا في أول الأمر » .

ولم يتسرع « جيلنجهام » في التعليق على ما سمع ولكنه بعد لحظة قال في هدوء إذ كان من عادته أن يحترم الآراء التي لا تحظى بموافقة :  
 — « قد اختلف معك في الدافع لك على هذا التصرف ولكنني أظن أنك على حق في قرارك هذا إذا كان في وسعك أن تضعه موضع التنفيذ . على أني أشك مع هذا في أنك مستطيع ذلك » .

## البَابُ الْخَامِسُنْ

فِي الدِّبْرَكَامِ وَأَمَاكُنْ أُخْرَى



« جانبك الأثيرى ، وكل الجوانب  
 النارية المختلطة فيك ، وإن كانت  
 بطبيعتها لها ميل علوى ، ما زالت  
 بطبيعة السكون مغلوبة على أمرها -  
 هنا فى الكتلة المختلطة المسماة بالجسد » .  
 « ماركوس أتو نينوس »

## في الدبركهم وأما كن أخرى

(١)

أما عن الشكوك التي أبدأها «جيلنجهام» فسيظهر ما كان من أمرها سريعا  
لو مررنا بالأشهر السكتية والأحداث التي تلت وقائع الفصل السابق وبلغنا أحدا  
من آحاد فبراير من العام التالي .

كانت «سو» تعيش مع «جود» في «الدبركهم» في نطاق العلاقات نفسها التي  
نشأت بين الاثنين منذ لحقت به عقب رحيلها عن «شاستون» في العام السابق .  
وكانت أخبار المحاكم وقضاياها لا تصل إليهما إلا كالصوت القادم من بعيد .  
ومن حين إلى آخر يتسلمان رسالة لا يفهمان مضمونها .

وكعادتهما ، اجتمعا على إمائدة الفطور في المنزل الصغير الذي يحمل اسم «جود»  
وكان قد أستاجره بخسمة عشرين جنيها في السنة يضاف عليها ثلاثة جنيهات وعشرة  
شلنات أخرى نظير أجور وعوائد إضافية وأثاثه بما آل إليه من أشياء قديمة بالية  
تنخص قريته المتوفاة . ومع ذلك كلفه نقل هذه الأشياء إلى بيته الجديد من  
(ميريچرين) ما يفوق ثمنها . أما «سو» ، فأدارت المنزل وتولت أموره .

ودخل الغرفة ذلك الصباح وكانت «سو» تمسك خطابا تسلته لتوها . وبعد  
أن قبلها قال : «حسن وماذا فيه ؟» .

— «أصبح الآن نهائيا ذلك الحكم الأول الصادر في قضية «فيلوتسون»  
والذي نطق به القاضي قبل ستة أشهر» .

قال «جود» وهو يهيم بالجلوس : «حقا» .

وكانت قضية «جود» التي أقامها ضد أرابيلا ، انتهت نفس النهاية منذ شهر  
أو شهرين وصدر فيها الحكم لصالح «جود» وللقضيتان من قلة الأهمية بحيث لم تشر  
إليهما الصحف وإن نشرت الأسماء وسط قائمة طويلة من القضايا .



قال « جود ، وهو يتطلع إلى وجه محبوبته في لهفسة : والآن يا دسو ، قد أصبح لك مطلق الحرية في أن تتصرفي كما تشائين . »

— « وهل لنا الآن أن نتصرف كما لو أن كلا منا لم يتزوج من قبل قط ؟ »

— « ها ، أصبح كل منا حراً من كل قيد باستثناء شيء واحد وهو أن القسيس قد يرفض القيام بمراسم الزواج مرة أخرى . »

— « ولستكني دهشة ! هل تظن حقاً أن هذا هو موقفنا الآن ؟ إن الأمر يكون عادة هكذا ولكن بنتا بنى شعور مؤلم بأنني حصلت على حريتي تحت ستار من الادعاءات الكاذبة ! » .

— « وكيف ؟ » .

— « لو عرفت حقيقة موقفنا لما صدر الحكم على هذه الصورة . أليس عدم دفاعنا هو الذي جعل المحكمة تفترض فروضا خاطئة ؟ وعلى ذلك ، هل حريتي قانونية مهما كانت كاملة ؟ »

قال في خبث : « ولم سمحت لهذه الحرية أن تتحقق عن طريق الادعاءات الكاذبة ؟ ليس أمامك سوى نفسك فلو ميتها لو أردت . »

— « أتوسل إليك ألا تكون سريع الغضب هكذا في مثل هذه الأمور . أرجوك أن تقبلني كما أنا . »

— « حسن جداً أيتها العزيزة سأفعل ، ربما كنت على صواب . أما عن سؤالك فلم نكن ملزمين بأثبات أي شيء . بل هو شأن المحكمة . على أي حال ، نحن الآن نعيش معا . »

— « نعم . ولكن ليس كما يمتقدون . »

— « هناك أمر واحد مؤكد وهو أنه ، بصرف النظر عن القرار ، يبطل الزواج عندما يبطل . هذه هي فائدة كوننا من الفقراء المنعمين فإن هذه الأمور

تم من أجهاننا بباريئة تقليدية سريعة وهذا نفس ما حدث معي أنا « وأرايلا ،  
فكم خشيت أن يكتشف زواجها الثاني فتعاقب ! ولكن لما لم يكن من يهتم بنا ،  
فلم يتحر أحد عنها ولم يشك فيها إنسان . أما لو كنا من عليه القوم لعانينا متعاقب  
لا تنتهي واضاعت أيام وأسابيع في البحث والتحري » .

وشديدا فشيئا اكتسبت « سو » بهجة حبيبتها التسابعة من الأحساس بالحرية  
واقترحت أن يذهبوا للتجوال بين الحقول حتى لو كانها ذلك حرمانهما من غذائهما  
الساخن . ووافق « جود » وصعدت « سو » إلى الطابق العلوى من المنزل وارتدت  
ثوبا زاهى اللون استغفالا بحريتها . وبمجرد أن رأى « جود » ذلك ارتدى هو  
الآخر رباط عنق زاهى اللون .

قال : « لنسر الآن متشابكى الأذرع كأي خطيبين فلنسا الحق الشرعى فى  
ذلك » .

وظل الاثنان يتجولان بلا هدف خارج المدينة ويضربان فى الطريق الذى يعلو  
الأراضى المنخفضة المحيطة بالبلدة على الرغم من أن تلك الأراضى كانت تسكسوها  
الثاوج فى ذلك الوقت من السنة . وامتدت أمامهما الحقول عارية من كل لون وزرع  
وإن لم يشعر العاشقان بما حولهما لانشغالهما التام بموقفهما الجديد .

... « والآن يا عزيزتى لسوف نتمكن من الزواج بعد فترة معقولة » .

قالت « سو » فى تراخ : « نعم أظن أنه أصبح ذلك الآن فى مقدورنا » .

... « وهل تنوى الزواج فعلا ؟ »

... « أكره أن أقول لا أيها العزيز « جود » غير أنى فى هذا الموضوع أحس  
بنفس الشعور الذى ما انفك يحاصرني دائما . ما زلت أشعر بالخوف من أن الرباط  
الدائم قد يطفىء جذوة حبه لى ، ويقلل من حدة حبه لك كما كان الحال دائما بين  
آبائنا الراحلين » .

— « ولكن ما العمل الآن ؟ لأننى مغرم بك كما تعلمين يا د س . »

— « أعلم ذلك تماما ، غير أننى أفضّل أن نذلل نغيش حبيبتين كما نحن الآن ولا نتقابل إلا أثناء النهار . لأنى على يقين أن ذلك أفضّل بالنسبة للبرأة على الأذل وخاصة عندما تكون واحدة من عواطف الرجل نحرما . ومن الآن فصاعدا لا داعى لأن نهتم كثيرا بالمظاهر . »

قال « وجود » فى شيء من السكابة : « أعترف بأن تجربة كل منا فى الزواج لم تكن ناجحة ولا مشجعة وقد يعود ذلك إلى طبيعة كل منا أو إلى حظنا السيء . أما عنا نحن الاثنين . . . »

— « وكيف يكون الحال لو اجتمع اثنان كل منهما غير راض . أظن أن الحال لا بد أن يصبح أسوأ مما كان . أعتقد أننى بدأت أشعرك يا « جود » وذلك بعد أن أصبح لك الحق فى أن تصل حياءك بحياتى عن طريق إجراء حكومى رسمى . يا إلهى ! إنه لأمر فظيخ وحثير ! وهذا على الرغم من أننى أثق بك أكثر من أى رجل آخر فى العالم طالما أننا لم نتقيد بقيد كما نحن الآن . »

قال معاتباً : « لا ، لا تقولى لأننى سوف أتغير . » ومع ذلك كان فى صوته أيضاً ما ينم عن الريبة .

— « وبدون النظر إلى كليهما وما فينا من شذوذ مؤسف ، ليس من طبيعة الرجل أن يشعر بالحب نحو إنسان ما لو قيل له : إنه يجبر على حب ذلك الإنسان بل يصبح احتمال حبه لذلك الإنسان أكبر لو طالب منه أن يكف عن حبه له . فمثلاً لو تضمنت مراسم الزواج يميناً يقسمه الرجل على ألا يحب زوجته ويوقع الطرفان على اتفاق ألا يحب أحدهما الآخر ابتداء من لحظة التوقيع وذلك تمشياً مع مبدأ احتفاظ كل منهما ببعده فى الحب ، وطالب منهما كذلك أن يتجنبا الظهور أمام الناس ، ففى مثل هذه الحال لا أشك فى أن عدد المحبين بين الأزواج سوف يزيد كثيراً عما هو الآن . حاول أن تتخيل كم من المقابلات السرية سوف تتم بين الأزواج والزوجات الذين يحشون فى ذلك القسم . سوف ينسكرون ولا شك أن

أحدهما قابل الآخر . تصور أيضا التساق فوق نوافذ حجرات النوم والاختباء داخل المخادع ! هنا يصبح احتمال انطفاء جذوة الحب بعيدا للغاية .

— « نعم . ولكن حتى لو اعترفنا بإمكان ذلك أو باحتمال حدوث شيء قريب منه فلن تكونى المرأة الوحيدة فى العالم التى ترى ذلك ، أنت أيتها العزيزة الصغيرة «سو» ، فالتناس يتزوجون لمجرد أنهم لا يمكنهم أن يقاوموا الدوافع الغريزية المركبة فيهم وهذا على الرغم من أن الكثيرين منهم يدركون تماما أنهم مقبلون على سعادة قصيرة الأجل لقاء متاعب تدوم مدى الحياة . لا شك أن آباءنا وقفوا على هذه الحقيقة وهذا لو كانوا مثبنا فى رأى . ومع ذلك فإنهم تزوجوا وذلك لأنهم أحسوا بالدوافع الطبيعية والعواطف الأصيلة . أما أنت يا «سو» فخلق أثيرى ليس للسكان العادى تأثير عليك ، ولو سمحت لى أقول ينقصك الدافع الغريزى الحيوانى مما يتيح لك فرصة تغليب المنطق بينما نحن النساء الذين جباننا من طينة رخيصة لا نستطيع أن نفكر بطريقةك »

وتنهات «سو» وهى تقول : « حسن . أعترف الآن أن الأمر قد ينتهى بالاشقاء الكلينا وإنى است بالمرأة الشاذة التى تظنها فالنساء اللاتى يفضان الزواج أقل بكثير مما تظن ، إلا أنهن يقدمن على الزواج لما يجابهن من كرامة ولما يترتب عليه من مرابا اجتماعية ، أما أنا فإنى على أتم الاستعداد للاستغناء عن هذه الكرامة وذلك السكسب الاجتماعى . وبمجرد أن انتهت من ذلك عاد «جود» إلى شكواه القديمة وهى أنه ، مهما بلغ عمق صداقتهما ، لم يصدر عنها ولو مرة واحدة اعتراف صريح صادق بأنها تحبه ، أو حتى أنها يمكن أن تفعل ذلك . وقال وقد زادت شكوكه حتى بلغت درجة الغضب : « كم أخشى ألا تتمكنى من أن تهينى حبا ! إنك على درجة كبيرة من التحفظ والجود ! إنى أعلم أن كثيرا من النساء يعلن من غيرهن كيف أنهن يجب ألا ييجن للرجل بالحقيقة الكالة . ولكن عاطفة الحب فى أسمى صورها ينبئ أن تقوم على أساس من الإخلاص التام مثل هؤلاء النساء ، لأنهن لسن رجالا ، يجهان أن الرجل عندما يستعيد ذكرياته عن النساء اللاتى سبق أن كان معهن على علاقات عاطفية فإن قلبه

لا ينفك ينبض بالحسب لمن كانت تتخذ الإخلاص نبراسا لسلوكها وهكذا الحال بالنسبة للرجال . إن روح الانتقام لتربص بالمرأة التي تسكر من التماص وتتخذ من الإقبال والإدبار لعبة تسكر من ممارستها والقيمة المحترمة لكل ذلك فقد انهما لعطف من أحبوها وأحسنوا الظن بها .

أما « س.و. » التي كانت ترسل يبصرها إلى بعيد فقد اكتفى وجهها مسحة ملؤها الشعور بالجرم وأجابته فجأة في صوت ينم عن المأساة التي تضطرم في أعماقها : « لا أظن أنني أعجب بك اليوم كما كنت أعجب بك من قبل يا «جود» ! » .  
— « أنت لا تعجبين بي ! ولم ذلك ؟ » .

— « حسن . إنك لست بال مخلوق الطيب إذ يغلب عليك طابع الوعظ ومع ذلك أعتقد أنني سيئة للغاية وتافهة إلى الحد الذي أحتاج عنده إلى من يعظني في قوة ! » .

— « لا . أنت لست سيئة . أنت غالية . ولكنك كالسمكة الذلقة كلما حاولت انتزاع اعتراف منك » .

— « إني حقا سيئة الخلق ، عنيدة ، وبني كثير من العيوب ! لا فائدة ترجى من التظاهر بأنني لست كذلك ! والناس الطيبون لا يحتاجون للتأنيب كما أحتاج أنا إليه . أما وقد أصبحت وليس لي أحد سواك ، وليس ثمة من يدافع عني ، من أشق الأمور علي ألا أتترك لي حرية تقرير الطريقة التي سأعيش بها معك ، وما إذا كنت سأزوج أو لا ! » .

— « سو ، باريقة وحبيلة قلبي . إني لا أود إرغامك على الزواج هي أو على أي شيء آخر . تأكدى أنني لا أود أن أفعل شيئا من هذا . لا يليق بك أن تكونى نسكدة إلى هذا الحد ! والآن دعينا من الكلام في هذا الموضوع ولنمض كما كنا من قبل . دعينا في الفترة الباقية نتكلم عن المراهي والفيضان ومستقبل المزارعين وعما نخبئه لهم الأيام القادمة » .

وعقب هذا لم يشر أحد منهما إلى موضوع الزواج واستمر كذلك لبضعة أيام وذلك على الرغم من أنهما كانا دائمي التفكير فيه إذ أنهما عاشا طول الوقت متجاورين ولا يفصلهما عن بعضهما سوى دهلين ضيق ، وكانت «سو» قد بدأت تعاون «جود» في عمله معاونة ذات أثر إذ بدأ مؤشرا في تشييد بعض النصب الحجرية التي تقام عند رموس الأضرحة . كان يحتفظ بهذه النصب في الغناء الواقع خلف منزلها الصغير وكانت «سو» في أثناء فترات فراغها من الأعمال المنزلية تنقش له الأحرف كي ينحتها على أرجح هذه الشواهد كما كانت تقوم بطلاء هذه الأحرف عقب فراغه من نحتها . لقد كانت حرفة «جود» تعتبر من الأعمال الوضيعة وعمله فيها يقل كثيرا عن عمله السابق كبناء للكنائس . أما زبائنه فكانوا يتألفون من الفقراء الذين يطمنون حبه ويعرفون أن الرجل الذي يثقاضى أجراً رخيصاً يدعى «جود فارلى» بناء الآثار ( وهو اللقب الذي كتبه أمام اسمه على اللاقطة الأمامية المنزل ) . كان هؤلاء الفقراء يقصدونه لنحت اللوحات التذكارية الرخيصة التي يقيمونها لموتاهم . ولقد بدا عليه الآن أنه من الوجهة المالية أكثر استقلالا عن ذي قبل وكانت مساعدة «سو» له هي الوسيلة الوحيدة التي تجمعها تعيش معه دون أن تكون عبئا عليه ، وهذه كانت أمنيتها الكبرى .

## ( ٢ )

وذات مساء ، قبيل نهاية الشهر ، حدث أن عاد «جود» لتوّه بعد سماعه محاضرة في التاريخ القديم في القاعة العامة التي لم تكن تبعد كثيرا عن منزله . وعندما دخل إلى البيت كانت «سو» ، التي لم تخرج أثناء غيابه ، قد أعدت له طعام العشاء . وعلى غير عادتها لم تنبس بكلمة وجلس ثم التقط صحيفة يومية مصورة وراح يقرأها وبعدها رفع بصره إلى وجهها فراه مضطربا .

قال : « هل أنت منقبضة يا «سو» ؟

وصمتت برهة ثم قالت : « لدى رسالة لك » .

— « هل زارنا أحد اليوم ؟ » .

— « نعم زارتنا سيدة . » وهنا اختلج صوتها ثم جلست واضعة يديها في حجرها ونظرت إلى النيران المشتعلة في المدفأة وقالت : لا أدري إذا ما كنت مخطئة أو مصيبة فيما بدر مني من تصرف ا » واستمرت تقول : « أخبرتها أنك لست بالمنزل . وعندما قالت أنها ستنتظرك أخبرتها أنك لن تتمكن من مقابلةا . »

— « ولم فعلت ذلك يا عزيزتي ؟ أغلب الظن أنها كانت في حاجة إلى كي أصنع لها نصبا . هل كانت ترتدى ملابس الحداد ؟ » .

— « لا . لم تكن تشيح بالسواد ، ولم تكن تريد إقامة نصب . خيل إلى أنك لا تود مقابلةا . » عند ذلك نظرت إليه في حرج وتوسل .

— « ولكن من تكون هذه السيدة ؟ ألم تخبرك ؟ » .

— « لا . رفضت أن تذكر اسمها ولكنني أعلم من هي ، أو على الأقل أظن أني أعلم . إنها أرابيلا ا » .

— « ليرحمنا الله ا أي شيء يا ترى يجعل « أرابيلا » تأتي إلى هنا ؟ وماذا دعاك للاعتقاد بأنها هي ؟ » .

— « من الصعب على أن أقرر شيئاً . لكنني كنت موقنة أنها هي . بل لأنني أحس أنها هي قطعاً وذلك من الضوء الذي كان يشع من عينيها عندما نظرت إلى . كانت امرأة بدينة فظة » .

— « على أي حال لا أستطيع أن أسمى « أرابيلا » فظة إلا في طريقة حديثها ، ومع ذلك فقد تكون كذلك الآن بتأثير عملها في المشرب . لقد كانت على درجة من الوسامة عندما عرفتأ أول مرة » .

— « وسيمة ا - ولكن نعم ا - إنها كذلك ا » .

— « أظن أني رأيت رعشة في فك الصغير . حسن لنذع ذلك جانباً إذ أنها لا تعني شيئاً بالنسبة لي الآن . لقد تزوجت زواجا شريفاً من رجل آخر فوالذي يدعوها إذن للحضور إلى هنا فتوقع بنا الاضغراب ؟ » .

— « أمتأكد أنت أنها تزوجت ؟ ألدريك معلومات وثيقة بذلك ؟ » .

— « لا . ليس لدى معلومات وثيقة ولستكن زواجها الجديد كان السبب في أنها طلبت مني أن أطلقها . لقد أرادت هي ، كما أراد ذلك الرجل ، أن يعيش الاثنان معاً بطريقة شريفة وهذا ما فهمته منها » .

— « واحسرتاه يا « جود » إنها هي ! إنها « أرابيلا » بعينها ! » قالت ذلك وهي تصرخ وتغطي عينيها بيدها : « أشعر بتعاسة كبيرة . ومهما يسكن السبب الذي جاءت من أجله يبدو كل ذلك كأنه القأل السيء . أظن أنك لن تراها ولن تقابلها أبداً . أليس كذلك ؟ » .

— « لا أظن أنني سأقابلها ومن المؤلم لي أن أتحدث إليها الآن . إنه لأمر مؤلم بالنسبة لي ولها على السواء . وعلى أى حال فقد ذهبت بلا رجعة . هل قالت إنها ستعود ؟ » .

— « لا . لم تقل ذلك . ولستكنها غادرت المكان ولم تسكن رغبة في ذلك » . ولم تستطع « سو » أن تتناول في العشاء شيئاً من الطعام إذ كان من طبيعتها أن تنزعج لآتفه الأمور . أما « جود » فتأهب للذهاب إلى حجرة نومه بمجرد انتهائه من تناول العشاء . ولم يكذب يصل إلى نهاية السلم بعد أن أحكم غلق الباب وبعد أن حرك النار في المدفأة إذ به يسمع صوت قرع على الباب . وفي الحال خرجت « سو » من غرفتها التي كانت دخلتها تواسم همست في نبرات تنم عن الفزع الشديد : « إنها هي ثانية ! » .

— « وكيف عرفت ؟ » .

— « لقد طرقت الباب في المرة الماضية بنفس الطريقة » . واستمع الاثنان إلى الطارق وجاءهما الصوت ثانية . ولم يكن بالبيت أحد من الخدم ، فكان لزاماً على أحدهما أن يقوم بفتح الباب .

قال « جود » : « سأفتح أحد النوافذ أولاً إذ مهما كان القادم لا يمكن أن نسمح له بالدخول في مثل هذا الوقت من الليل » .



ثم ذهب إلى حجرته وأزاح غطاء النافذة وكان الطريق خاليا من أى شخص  
إلا من شيخ واحد وكان لسيدة تسير في الطريق ذهابا وجيئة وفي يدها مصباح  
وكانت على بضعة أقدام من المنزل .

قال « جود » : « من بالباب ؟ » .

أجاب الصوت النسائي من الخارج وكان صوت « أرابيلا » قطعاً : « هل هذا  
أنت يا سيد « فاول » ؟ » .

وأجاب « جود » بالإيجاب ، وسألته « سو » وكانت لا تزال تقف بجوار  
الباب وقد انفرجت شفتها من الدهشة : « هل هي « أرابيلا » ؟ » .

قال « جود » : نعم « يا عزيزتى إنها هي . »

وقال مخاطباً الشيخ : « ماذا تطلبين يا « أرابيلا » ؟ » .

قالت في خنوع ظاهر : « لى آسفة لإزعاجك غير أنى جئت قبل الآن وأود  
أن أقابلك الليلة لأمر هام لو كان هذا ممكناً . لى فى ضائقة لىلى من يساعدى . »  
— « وهل أنت فى ضائقة حقاً ، ؟ » .

— « نعم » .

وتلت ذلك فترة صمت . ولقد جاش فى صدر « جود » شعور بالمشاركة ،  
شعور مقلق جعله يحس بالضيق . وأخيراً قال : « لىكن ألىست الآن متزوجة ؟  
ترددت « أرابيلا » قليلاً ثم قالت : « لا يا « جود » لىلى لىست متزوجة .  
رفض فى النهاية أن يتزوجنى . لى فى مأزق سىء وآمل أن أحصل قريباً على وظيفة  
ساقية فى مشرب إلا أن ذلك يحتاج إلى وقت وتجدنى الآن فى حالة من التعاسة  
الشديدة وذلك للمسؤولية المفاجئة التى ألقى على بعد أن كانت أرىحت عفى منذ  
كنت فى أستراليا . لولا ذلك ما كنت لأقدم على إزعاجك . صدقتى ما كنت  
لأقلقك لولا ذلك . لى أود أن أطلعك على كل شىء . » .

وظلت «سو» تهملق فيما يجري أمامها وتوترت أعصابها بشكل مؤلم إذ كانت تسمع كل كلمة تقال وليكنها لم تتفوه بشيء .

وقال «جود» وفي صوته نغمة صانف : « لا أظن أنك ستجاءى حاجة إلى المال يا «أرابيلا» ؟ » .

— « لى ما يبنى لأن أدفع أجرة مبيتى الليلة . جميع أنتى حصلت على شيء من النقود وليكنها لا تكاد تسكنى لعودتى . »

— « وأين تقيمين الآن ؟ » .

— « مازلت أقيم فى لندن » . وضمت بإعطائه عنوانها وليكنها استطردت تقول : « أخشى أن يسمعى أحد ، ولهذا لا أحب أن التحدث بصوت عال عن أشياء تخصنى . بهذا لو أمكنك أن تنزل وتبقى معى قليلا حتى فندى «الأمير» حيث أمضى الليلة وعند ذلك يكتفى أن أشرح لك كل شيء . أرجوك أن تأتى مراعاة لما كان بيننا فى الماضى ا » .

وقال وقد تمالكته الحيرة وسيطر عليه الارتباك : « يالها من مسكينة ! أظن من واجبنى أن أستمع إلى ما تود قوله فهذه خدمة بسيطة ولا يمكن أن يتبع عنها أى شئ ، ولا سيما أنها ستعود إلى لندن غدا . »

ومن ناحية الباب جاء صوت يرجوه فى الحاج ويقول : « تستطيع أن تذهب إليها غدا يا «جود» . أرجوك ألا تذهب الآن ! هذه حيلة منها لتوقعك فى شركها . إنى لا أشك أبدا فى أن هذه مجرد حيلة تطابق تماما ما أقدمت عليه فى الماضى من حيل . لا تذهب يا عزيزى ، إنها امرأة تمتلىء نفسها بحقير الدوافع وإنى أرى ذلك فى هيئتها وأسمعه فى صوتها ا » .

قال «جود» وهو يتجه ناحية السلم : « وليكننى سأذهب ولا تحاولى أن تقبلى فى طريقى . يعلم الله أننى لا أحبها الآن ولكن لا يمكن أن أقسو عليها . »  
وصرخت «سو» وقد اتتاها الذهول : « وليكنها ليست زوجتك وأنا... »

قال «جود» : «وأنت لست كذلك بعد يا عزيزي ا» .

— «ولكنك ان تذهب معها . أليس كذلك ؟ لا تذهب . بقى معى هنا أرجوك . أرجوك أن تبقى هنا . «جود» لا تذهب معها إذ لا يمكن اعتبارها زوجتك أكثر مما يمكن اعتبارى أنا كذلك ا» .

وقال «جود» وهو يلمع قطبعتة في عزم : «بل يمكن اعتبارها زوجتى أكثر منك . اعترفى الآن بذلك . أردت أن تصبحى زوجتى وضربت طويلا لتحقيق ذلك ، ولكن ها أنا لم أحصل منك على شيء مقابل انكار ذاتى . لا بد أن أمنحها شيئاً من نفسى وأستمع إلى ما تتلفف على الإفشاء به . لا أعتقد أن رجلاً يستطيع أن يفعل أكثر مما أفعله الآن » .

وكان فى هيئة «جود» شيء خفى جعلها توفى بالأطائل من وراء معارضته . ولم تفه بشيء . ولكنّها عادت إلى حجرتها فى استسلام ظاهر كأنها الشهيدة . وكانت تسمع صوت أقدامه وهو يهبط السلم ثم سمعته وهو يفتح الباب ويغلقه خلفه فهبطت هى الأخرى فى سرعة وهى تتنحب فى صوت مسموع وقد تناست كرامتها بعد أن أحست أنها وحيدة فى المنزل وكثيراً ما يحدث ذلك للمرأة عندما تكون وحدها . أصاحت السمع وكانت تعلم طول المسافة بين المنزل والحان التى أشارت إليه «أرابيلا» . وكان الجريق إلى الحان يقطع فى دقائق سبع ، لو سار الاثنان بخطى عادية بينما لا بد أن يحتاجا إلى سبع أخرى للعودة . فإذا لم يعد «جود» فى ظرف أربع عشرة دقيقة فعنى ذلك أنه تاركاً فى الطريق . ونظرت «سو» إلى الساعة وكانت تشير إلى خمس دقائق بعد العاشرة والنصف .

وكان هناك احتمال أن يدخل الاثنان إلى الحان إذ لا بد أن يصلاه قبل موعد الإغلاق فتقنعه «أرابيلا» بشرب شيء معها . ولا يعلم إلا الله ما سوف يحل بعد ذلك من مصائب ونكبات .

وظلت «سو» تنتظر في توتر صامت وكان يبدو كأن دهرًا انقضى عندما  
فتحت «جود» الباب ثانية وظهر أمامها .

وأطلقت صرخة فرح تدل على ما في نفسها من نشوة وبدأت تقول : «كنت  
على يقين أنك موضع ثقة ! كم أنت طيب ! » .

— « لا أستطيع أن أجدها في أي جزء من هذا الطريق ولقد خرجت وليس  
في قدمي سوى الخلف . هامت على وجهها ظنا منها أنني من قسوة القلب بحيث  
رفضت طلبها كلية . يا لها من امرأة مسكينة . عدت لأرندى حذائي فإسماء  
بدأت تمطر » .

وقالت «سو» وقد اجتاحتها موجة من خيبة الأمل المشوبة بالغيرة :  
« ولكن لم تتعب نفسك هكذا من أجل امرأة أساءت إليك كثيرا ؟ »

— « ولكنها امرأة ضعيفة يا «سو» وكانت في يوم من الأيام موضع  
اهتمامي ولا يمكن أن أتحول إلى وحش في ظرف كهذا » .

قالت وقد استبد بها الانفعال : « ولكنها لم تعد زوجتك ! يجب  
ألا تخرج للبحث عنها . هذا خطأ كبير إذ لا يمكن أن تلحق بها . إنها الآن غريبة  
بالنسبة إليك . كيف تنسى شيئا كهذا أيها العزيز الغالي » .

وقال «جود» وهو مستمر في ارتداء حذائه : « إنها تبدو كما كانت دائما ....  
نفس المخلوق الموغل في الخطأ : المفرق في الإهمال . إن ما أصدره رجال القانون  
في لندن من أحكام لا يمكن أن يؤثر على العلاقة الحقيقية التي تربطني بها . وهي وإن  
لم تكن تعتبر زوجتي في الوقت الذي كانت فيه في استراليا تعيش مع رجل آخر ،  
فهى زوجتي الآن » .

— « ولكنها لم تكن ! هذا رأي بكل دقة وهنا تكن المأساة ! حسن .  
ستعود فورا بعد بضع دقائق . أليس كذلك أيها العزيز ؟ إنها من الوضاعة ،  
والفظاظة بحيث لا يجدر بك أن تتحدث إليها طويلا وكذلك كانت دائما » .

— « لسوء الحظ قد أكون فظاً مثلها ! لأننى أحمل فى نفسى جرائم لكل ألوان الضعف الإنسانى ، ولأنى أعتقد تماماً أن ذلك هو السبب فى أننى وجدت من السخف أن أصبح فى يوم من الأيام قسيساً . لقد شفيت تماماً من آفة تعاطى الخمر ، ولست أدرى أية رذيلة جديدة سوف تثور فى أعماقى . لأننى أحبك يا « سو » ، وإن كنت ضحية فى صحبتك وأضعت الكثير من عواطفى دون مقابل ! إن كل ما هو فاضل ونيل فى يديك . إن خلوك من كل ما هو فظ هو الذى سيتسامى بروحى ويمكننى من أن أقوم بأعمال لم أكن أحلم يوماً بها ، أو أن يقوم بها أى رجل آخر . ما أحسن أن يعظ المرء الناس فى ضبط النفس وفى ندالة الاستبداد بالمرأة . ليت أولئك الفضلاء الذين أدانونى فى الماضى فيما يخص بآرايلا وأمور أخرى يقفون الموقف المعذب بالأمل الذى وقفته معك خلال تلك الأسابيع الأخيرة ! أظن أنهم ، لو فعلوا لآمنوا بأننى فى خضوعى المستمر لرغباتك مارست قدراً يسيراً من ضبط النفس على الرغم من بقاءى معك هنا فى منزل واحد لا يفصل بيننا مخلوق . »

— « نعم . كنت معى غاية فى الطيبة يا « جود » ، أعرف ذلك أيها الحامى العزيز ، ! »

— « حسن . لجأت إلى « آرايلا » طالبة مساعدتى فن واجبى أن أخرج وأتحدث لهما على الأقل ، . »

قالت وهى تنفجر باكياً : « لا أستطيع أن أقول أكثر بما قلت ! لو كان لابد أن تذهب فلامناس من ذهابك ! ليس لى أحد سواك يا « جود » ، وهأنت تهجرنى . لم أكن أعلم أنك كذلك - لا يمكننى أن أحتمل . لا أستطيع . لو كانت تخصك لاختلف الأمر ، . »

— « أو لو كنت أنت تخصينى . »

— « حسن جداً إذن . لو كان لابد لى فلامناس . أما وقد اخترت أنت

ذلك فإننى أوافق . لسوف أصبح زوجتك ، فقط لم أقصد ذلك ! ولم تكن  
 رغبتى أن أتزوج ثانية أيضا ! ولكن نعم . لى أوافق . لى أوافق . لى أحبك .  
 كان ينبغي أن أعرف أنك لا بد مننتصر فى النهاية بالنظر إلى طريقة حياتنا هذه ،  
 وجرت عبر الحجرة وألقت بذراعيها حول عنقه وهى تقول : « أنا لست  
 المخلوق البارد الخالى من الجنس . هل أكونه لأننى أجعلك بعيدا عنى ؟ لى  
 متأكدة من أنك لا تظن ذلك . انتظر ترى « لى أخصك أليس كذلك ؟  
 لى أذن » .

— « وسأعد لزواجنا غدا ، أوفى الوقت الذى ترغبين » .

— « نعم يا « جود » .

قال وهو يعانقها فى رقة : « إذن فسأدعها تذهب . أشعر أنه من الظلم لك  
 أن أراها وقد يكون من الظلم لها . لى لست مثلك أيتها العزيزة ولم تكن أبدا . لى  
 من العدالة أن أقول ذلك . لا تبك بعد الآن . هاك ، هاك ، هاك . » قد قبلها  
 على جانب وعلى الآخر وفى الوسط ثم أغلق الباب الأمامى بالرتاج .

وكان الصباح التالى مطيرا . وعند الإفطار قال فى مزح : « والآن يا عزيزتى .  
 بما أن اليوم هو السبت فإنى أنوى أن أطلب من الكنيسة أن تعان فى الحال  
 قرار اعتزامنا الزواج حتى ينشر باكر لأول مرة وإلا فسندخس أسبوعا كاملا .  
 إن قصر الإعلان على الكنيسة يكفى أليس كذلك ؟ لسوف يوفر لنا جنمها أو  
 جنميين . »

وفى شروق وافقت . ولسكن عقلها حينئذ كان مشغولا بشيء آخر . وفارقتها  
 روح الدعابة واستقرت على ملامح وجهها مسحة من الكآبة .

غمغمت تقول : « أشعر أنى كنت غاية فى الانانية ليلة أمس . كان تصرفى يتم  
 عن قسوة واضحة ، أو ما هو أسوأ من ذلك . كانت قسوة منى أن أعامل « أرابيلا »  
 هذه المعاملة . لم ألق بالآلى كونها فى ضائقة ولا إلى ما كانت تود أن تحدثك عنه .

قد يكون ما وددت أن تحدثك عنه شيئاً له ما يبرره حقاً . ذلك على ما أعتقد دليل جديد على سوء خلقى ! للحب قننته العمياء ، وبخاصة عندما تدخل المنافسة . إن حبي على الأقل له هذه الصفة السيئة حتى لو تجرد منها حب غيرى من الناس . إنى أتساءل عما يكون قد حل بها ؟ أرجو أن تكون تلك المرأة المسكينة قد وصلت الحان سالمة .

قال فى هدوء : « نعم وصلت سالمة . »

— « أرجو ألا تكون قد حيل بينها وبين الدخول أو أنها اضطرت إلى أن تجوب الطرقات تحت وابل المطر . هل يضيرك أن أرتدى معطف المطر وأذهب لأرى إن كانت تمسكنت من الدخول أو أنها اضطرت إلى أن تجوب الشوارع فى المطر ؟ أيضيرك أن أذهب لأرى إن كانت تمسكنت من الدخول ؟ كنت أفكر فيها طوال الصباح . »

— « حسن . وهل ترين أن ذلك ضرورى ؟ إنك لاتدريين إلى أى حد يمكن لأرابيلا أن تنقد نفسها من المأزق . ومع ذلك إذا كنت ياعزيزتى ما زلت تودين التوجه للسؤال عنها يمكنك أن تفعل . »

لم يكن هناك حدود لما ينتاب « سو » من شعور بالرغبة فى التكفير عما بدر منها مما كان يبدو عجيبياً ولا مبرر له . وعندما يراودها هذا الإحساس كان من عاداتها أن تذهب إلى من تعتقد أنها أسامت لإيهم بتصرفاتها ، وكانت فى ذلك تختلف عن جميع الناس . ولما كان « جود » يعرف عنها ذلك لم يدهش عندما أبدت رغبتها فى زيارة « أرابيلا » .

وأضاف قائلاً : « عندما تعودين سأذهب إلى الكنيسة لأسجل إعلان زواجنا المرتقب . ألا تأتين معى ؟ »

ووافقت على ذلك وخرجت بعد أن ارتدت معطفها وحملت مظلتها الصغيرة تاركة إياه يقبلها كفيها شام وكانت تبادل قبلاته بطريقة لم تعودها من قبل .

لقد تغيرت الأوضاع دون شك وقالت والحزن يبدو في ابتسامتها : « لقد وقع الطائر الصغير في الفخ أخيرا ! »

غير أن « جود » قال بلهجة التأكيد : « بل وضع في القفص لحسب . » وسارت في الطريق الموحد حتى وصلت إلى الحانة التي ذكرتها « أرايلا » في حديثها ولم تكن تلك لتبعد كثيرا عن المنزل . هناك علمت أن « أرايلا » لم تغادر الحانة بعد ، وعندئذ أرسلت إليها « سو » تقول إن صديقا من شارع الربيع حضر لرؤيتها . وكان هذا هو نفس الشارع الذي يقطنه « جود » وقد دفعتها إلى هذا التصرف حيرتها حيال الطريقة التي تكشف بها عن نفسها لأرايلا ، تلك التي سبقتها في الاستحواذ على عواطف « جود » . وطلب منها عامل الحانة أن تصعد السلم وقادها إلى إحدى الحجرات وكانت حجرة نوم « أرايلا » التي لم تكن استيقظت بعد . عندئذ وقفت على أطراف أصابعها مترددة حتى جاءها صوت « أرايلا » من الداخل يقول : « ادخلي وأغلق الباب خلفك . » وفعلت « سو » ما أمرت به .

كانت « أرايلا » ممددة على السرير مولية وجهها شطر النافذة ولم تدر رأسها في الحال . أما « سو » فكانت من الخبث بحيث تمت في قرارة نفسها — على الرغم من شعورها بالندم — لو أن « جود » يرى منافستها في ذلك الوضع وضوء الصباح منعكس على وجهها . كان من الممكن لأرايلا أن تبدو جميلة من زاوية جانبية في ضوء الصباح ، ولكن مسحة البرود كانت واضحة عليها ذلك الصباح . ووقع بصر « سو » على جمالها الذي عكسته المرأة المقابلة فأبهجها ذلك حتى بدأت تعجب لتلك العاطفة الجنسية الوضيعة التي اتبعتها وكرهت نفسها من أجلها .

وقالت « سو » في رقة : « جئت لأؤكد من أنك وصلت سالمة ليلة أمس وهذا كل ما في الأمر . خشيت أن يقع لك حادث عقب مغادرتك المنزل ؟ »

قالت « أرايلا » وقد دفعت رأسها إلى الخلف وألقت بها فوق الوسادة في



حركة تنم عن خيبة الأمل كما اختفى من وجهها كل أثر للهمزة التي حاولت أن تخلقها فوق وجهها خلقا : « كم يبدو ذلك بسيخيفا ! ظننت أن القادم هو - صديقك - أقصد زوجك أيتها السيدة » فأولى ، وأعتقد أنك هكذا تسمين نفسك . »

قالت « سو » : « قطعاً لا . »

— « أوه . ظننت أنك فعلت ذلك حتى لو لم يكن السيد » فأولى ، هو زوجك في الواقع فالأدب هو الأدب في كل ساعة من ساعات الليل والنهار . »  
قالت « سو » في حدة : « لا أدري ما تعنين . إنه يخصني لو أتيت إلى ذلك . »  
— « لم يكن يخصك بالأمس . »

توردت وجتمتا « سو » وقالت : « وكيف عرفت ؟ »

-- « من طريقة كلامك معي عند الباب . حسن يا عزيزتي ، لقد أسرعرت وأظن أن زيارتي في الليلة الماضية عاونت على ذلك . ها... ها . ولا يمكنني لا أود أن أبعده عنك . »

وتطلعت « سو » إلى المطر في الخارج ، كما نظرت إلى أثاث الغرفة القذر ووقع بصرها على خصلات الشعر الصناعية الخاصة بأرايلا — تلك الخصلات التي تدلت فوق المرأة تماماً كما كان الحال عندما كانت زوجة لجود وتمنت « سو » في قرارة نفسها لو أنها لم تأت أبداً إلى ذلك المكان . وفي فترة الصمت التي تلت ، جاء صوت طرق على الباب ودخلت الخادمة وفي يدها برقية تحمل اسم « السيدة كارليت » ،

وفضت « أرايلا » البرقية دون أن تنهض واختفت من وجهها نظرة القلق . وبعد أن غادرت الخادمة الغرفة قالت « أرايلا » في رقة : « إنني شاكرة لك قلقك علي ، ولكن ليس هناك داع لإحساسك هذا . يرى رجلى أنه لا يمكنه الاستغناء عني بعد كل الذي حدث وهو يعلن استعداداه للوفاء بوعده بأن يتزوجني هنا من جديد . كما وعدني بذلك . انظري . لقد أرسل هذه البرقية رداً على واحدة

كنت أرسلتها له . « ورفعت » أرابيلا ، البرقية أمام عيني « سو » لتقرأها ولكن هذه لم تعرفها التفاتنا واستمرت « أرابيلا » تقول : إنه يطلب مني أن أعود إليه فالخان التي يملكها في « لامبيث » لا بد أن تغلق إن لم أعد إليه ، ولن يلعب بي لعب الولدان بالأكركلما تناول شيئاً من الخبز وذلك بعد أن يشدنا القانون إلى بعضنا شداً . أما بخصوصك أنت فإنني أنصحك بأن تعمل على إغراء « جود » وتدفعه إلى أن يأخذك أمام الكاهن في الحال وبذلك ينتهي الأمر . هذا ما أفعله لو كنت في مكانك . أقول ذلك بصفتي صديقة أيتها العزيزة .

قالت « سو » في كبرياء جامد : « إنه في انتظار ذلك في أى يوم » .

— « إذن دعيه بحق السماء . فالحياة مع الرجل بعد الزواج تكون أكثر جاذبة ، كما أن الأوضاع المادية تتحسن . بعد ذلك لو نشبت بينه وبينك بعض المشاجرات ، أو دفع بك إلى خارج البيت فإنك تلجأين إلى القانون ليحميك ولا يمكنك عمل ذلك إذا لم تكوني مرتبطة معه برباط الزواج ، إلا إذا اعتدى على حياتك أو حطم لك رأسك بقضيب من حديد . وحتى في حالة إغراضه عنك — وأقول لك ذلك كصديقة وكامرأة — تتحدث إلى إحدى بنات جنسها ، إذ ليس ثمة ضمان لما يأتيه الرجل من أفعال — فسوف يتبقى لك الاثاث وإن ينظر إليك المجتمع على اعتبار أنك سارقة . سأزوج ، رجلى من جديد وهو لا يمانع في ذلك الآن فالزواج الأول كان به خطأ بسيط في الإجراءات وأخبرته في برقيتي التي أرسلتها إليه بالأمس والتي جاءت هذه رداً عليها إنني على وشك أن أتصالح مع « جود » وأظن أن ذلك أخافه . ما من شيء كان يمنعني من ذلك لولاك أنت . وظلت « أرابيلا » تقول وهي تضحك : « في هذه الحال كم صارت قصة كل منا تختلف تماماً منذ اليوم ، لجود يبدو مغفلاً رقيقاً بمجرد أن يرى أمامه امرأة في ضائقة وبخاصة عندما تتحايل عليه قليلاً . تماماً كما كان يفعل مع الطيور والحيوانات . ومع ذلك فإن الأمور تسير سيراً حسناً كما تربن طالما أنني تصالحت مع زوجي ولأنني لذلك أعفو عنك وكما قلت لك ، أنصحك أن تضعي الأمر في

شكله القانونى بأسرع ما يمكن . سوف تصادفك متاعب جمّة فى المستقبل إذا لم تفعل ذلك » .

قالت « سو » وقد زاد شعورها بالكرامة : « قلت لك إنه يطلب منى أن أتزوجه لنجعل زواجنا الطبيعى عملا قانونيا . وكان برغبتي تماما إنه لم يتزوجنى فى اللحظة التى كنت فيها حرة » ،

قالت « أرايلا » وهى ترمى ضيفتها بنظرة ملؤها النقد الساخر : آه ، إذن سبق لك الزواج مثلى تماما . وهل هربت من الأول كما فعلت أنا ؟ ، قالت « سو » فى سرعة : « أسعدت عباها ! يجب أن أذهب . »

وأجابت الأخرى وهى تنهض من السرير فجأة بحيث اهتزت الأجزاء الناعمة من جسدها : « وأنا أيضا يجب أن أنهض وأخرج ! »

وقفزت « سو » جانبا فى هلع مما جعل « أرايلا » تضع يدها فوق كتفها وتقول : « يا إلهى . إننى لست سوى امرأة ولست بشيطان . انتظري لحظة يا عزيزتى . لقد أردت فى الواقع أن أسشبر « جود » بخصوص عمل ما ، كما أخبرتك . لقد جئته من أجل ذلك وليس لأى شىء آخر . هل يمكنه أن يقابلنى فى اللحظة لآتحدث إليه ؟ أظن أنك لا توافقين ؟ حسن سأكتب له عن ذلك الأمر . لم أرد أن أكتب له فى هذا ولكن لا يهم « سأكتب » .

( ٣ )

وعندما وصلت « سو » إلى المنزل كان « جود » فى انتظارها عند الباب كى يصحبها لإتمام الخطوة الأولى فى زواجهما . لقد أشبهت بذراعه وسارا معا فى صمت كما هى عادة الرفقاء الأوفياء . ورأى أنها مشغولة فامتنع عن سؤالها . أخيرا قالت : آه « جود » لقد كنت أتحادث إليها . وددت لو لم أفعل اومع ذلك فن الأفضل أن يذكرنا غيرنا بأمرنا » .

— « أرجو أنها كانت مهيبة » .

— « نعم . إننى — إننى لا أملك إلا أن أعجب بها ، هونا ما . إن طبيعتها لا تخلو من النبل وإنى سعيدة لأن كل متاعها انتهت فجأة . » وهنا شرحت لجود كيف أن زوج « أرايلا » أرسل إليها يستدعيها وبذلك ستتمكن من استعادة وضعها السابق . »

وأخذت « سو » تقول : « أشرت فى حديثى معها إلى موضوعنا . وإن ما قالته فى هذا المقام جعاني أحس أكثر من أى وقت مضى كيف أن الزواج الشرعى ما هو سوى وضع مهين إلى حد لا يرجى معه إصلاح . إنه نوع من الشراك يستهدف اقتناص رجل . إنى لا أطيق التفكير فيه . لىتنى لم أعدك هذا الصبح بالسباح لك ، بإعلان زواجنا . »

— « أوه — لا تفلقي بسببى فأى وقت يناسبنى . ظننت أنك تفضلين الانتهاء من هذه المهمة على وجه السرعة ، الآن . »

— « فى الواقع لا أشعر برغبة فى ذلك الآن أكثر مما كنت من قبل . ربما كنت أشعر بالقلق مع أى رجل آخر ولكن أظن يا عزيزى من بين الفضائل التى تميز عائلتنا قد يكون العناد ، وعلى ذلك فإننى غير قلقة على فقدانك بالمرة . أشعر الآن أنى حقاً لك وأنت حقاً لى . فى الواقع أشعر بالطمأنينة أكثر من ذى قبل فضميرى مرتاح من جهة « ريتشارد » الذى له الآن الحق فى الاستمتاع بحريته . شعرت أننا كننا نخدعه من قبل . »

— « إنك عندما تتحدثين هكذا يا « سو » تبدين وكأنك إحدى سيدات الحضارات الكبرى التى قرأت عنها فى ماضى الأيام التى ضيعتها فى قراءة الآداب القديمة . وإنك لتبدين كذلك أكثر مما تبدين مجرد مواطنة بين مواطنات إحدى ممالك عالمنا الراهن . أ كاد أتخيه — لك وأنت تقولين لى إنك ، فى تلك الأيام الخاليات ، كنت لتوك تتحدثين إلى صديق قابله وأنت تسيرين فى « الطريق المقدس » حيث سمعت منه آخر الأنباء عن « أوكتافيا » و « أوليفيا » أو أن تقولى إنك كنت تستمعين إلى بلاغة « أسبازيا » أو كنت ترقين « بير » كشييتيليس ،

وهو يجلس النظر إلى « فينوس » التي أحبها أخيراً ، بينما راحت « فرين » تشكو من وقفتهما في وضع معين .

وكانا قد بلغا الآن مسكن الكاهن . وهنا تراجعت « سو » بينما تقدم « جود » إلى الباب . كانت يده على وشك أن تقرعه عندما صاحت به تقول : « جود » .

والتفت لأميها وهنا قالت : « على رسلك . هل يضايك ذلك ؟ » . وعاد إلى جوارها .

وقالت في خجل . « دعنا نفكر قليلاً . رأيت الليلة في المنام حلماً مزعجاً للغاية ..... كما أن « أرابيلا » قالت ..... » .

قال « جود » : « وماذا قالت « أرابيلا » ؟ » .

— « قالت إن الناس عندما يرتبطون بالزواج يمكن للمرأة أن تلجأ للقانون إذا ضربها زوجها ، كما شرحت لي كيف أن هؤلاء الأزواج عندما يتشاجرون ..... هل تعتقد يا « جود » أنك عندما تلجأ إلى القانون لتأخذني ، هل تعتقد أننا سوف نسعد أكثر مما نحن الآن ؟ إن النساء والرجال في عائلتنا يصبحون غاية في كرم الأخلاق عندما تعتمد الأمور على حسن نواياهم ، غير أنهم ينفرون بشدة عندما يرغبون على أمر من الأمور . هلا خشيت الاتجاه الذي يفرضه الإلزام القانوني والذي سوف ينشأ دون أن نشعر به ؟ ألا تظن أن مثل ذلك الإلزام سوف يفقد عاطفة بيننا تستمد أصولها من مجرد شعورنا بحرية التصرف في شأنها ؟ » .

— « الحق أقول لك يا حبيبتي إنك بدأت تخيفيني بكل هذه التوجسات ! حسن . دعينا نعود الآن ونفكر في الأمر ملياً » . وطفح وجهها بالاشم و قالت : « نعم . لسوف نفعل ذلك » .

وأدار الاثنان ظهرهما لباب منزل الكاهن واستندت « سو » إلى ذراع « جود » وكانت تغتمم أثناء عودتهما قائلة :

«- أيمكن الدراء أن يمنع النحلة من التجوال أو حلقات رقبة الحمامة من التغير؟ لا . ولا يمكن تقييم الحب ..... » .

وأعاد التفكير في الموضوع أو قل أجلا التفكير فيه . ومن المؤكد، أنهما أجلا الزواج وظهرتا كأنهما يعيشان في جنة حاملة .

وبعد أسبوعين أو ثلاثة ظلت الأمور كما هي ولم تعلن الكنيسة أى أنباء عن زواجهما المرتقب كما لم يسمع «كان» الدبركهام، شيئاً عن هذا الزواج .

وبينما كانا يؤجلان ويؤجلان جاءت في صباح يوم من الأيام جريدة ومعها خطاب من «أرابيلا» وكان الوقت قبل الفطور . وعندما رأى «جود» خط «أرابيلا» صعد وأخبر «سو» بالأمس .

وعندما علمت «سو» بذلك ارتدت ملاسها على عجل ونزلت السلم وفتحت الجريدة بينما فتح «جود» الخطاب . وبعد أن ألقت نظرة على الجريدة أشارت بأصبعها إلى فقرة فيها ولكن «جود» كان منشغلاً تماماً بقراءة الخطاب فلم يلتفت إلى «سو» لفترة .

قالت : «انظر !» .

فغظ وقرأ . وكانت الجريدة من الجرائد المحلية التي توزع في جنوب لندن فقط : وكان الإعلان المشار إليه ليس إلا إعلاناً عن زواج تم في كنيسة القديس يوحنا في شارع واترلو باسم «كارتليت - دون» ، ولم يكن الزوجان المشار إليهما في الإعلان سوى «أرابيلا» وصاحب الحان .

وقالت «سو» في هدوء : «هذا شيء جميل وإن كان بعد حدوثه بجميع من المشين لنا أن نقوم بشيء مثله وإني لمسرورة ، وعلى أى حال أظن أن «أرابيلا» تجد الآن من يعولها على الرغم من كل الأخطاء التي ارتكبتها . ومن الأوفق أن تكون هذه فكرتنا عنهما فهذا أفضل من أن نشعر بالضيق منها . وينبغي لي أنا الأخرى أن أكتب لريتشارد وأسأل عن أهواره وكيف تسير ...»

وعلى الرغم من كل ما قالته ، كان «جود» لا يزال منهمكا في القراءة . وبعد أن ألقى نظرة خاطفة على إعلان الزواج قال في صوت مضطرب : « استمعى إلى هذا الخطاب وارشدنى إلى ما ينبغى أن أقول أو أفعل ؟ » .

حان القرون الثلاثة . . . « لامبيث » .

عزيزى «جود» ( وان أدعى الابتعاد هناك فأدعوك السيد فاولى ) . أرسل إليك اليوم جريدة لتقرأ فيها وثيقة مفيدة . وثيقة تثبت أننى تزوجت مرة أخرى من « كارتليت » وذلك يوم الثلاثاء الماضى . ها قد انتهى هذا الموضوع أخيرا وطوى إلى الأبد والسكن . الشيء الذى يهمنى أن أخبرك به أكثر من موضوع زواجى هو ذلك الموضوع الشخصى الخاص الذى أردت أن أحدثك عنه عندما جئت زائرة فى « الدبركهام » . لم يكن فى استطاعتى حينئذ أن أخبر صديقتك به وكنت أفضل كثيرا لو أننى استطعت أن أحدثك عنه مشافهة إذ كان لا بد أن يتيح لى ذلك فرصة الشرح المستفيض أكثر من الكتابة . الواقع يا «جود» على الرغم من أننى لم أذكر لك شيئا عن هذا من قبل ، هناك طفل جاء ثمرة لزواجنا السابق ولقد حدثت الولادة فى « سيدنى » بعد ثمانية أشهر من افتراقنا وكنت عندئذ أعيش مع أبى وأمى ويمكننى أن أقدم الدليل على كل ذلك فى سهولة ويسر . كنت على علم بأن أمرا كهذا لا بد أن يحدث عقب افتراقنا وكنت أعيش مع والدى فى ذلك الوقت واحتدم النزاع بينى وبينهما لذلك اعتقدت أنه ليس من الأوفق أن أخبرك بمولد الطفل . كنت فى ذلك الوقت أبحث عن عمل مناسب لذا تولى والداى أمر الطفل الذى ظل يعيش معهما منذ ذلك الحين . هذا هو سبب امتناعى عن إخبارك بحليلة الأمر عندما تقابلنا فى « كرايستمينيستر » . كما أننى لم أشر إليه فى الإجراءات القانونية . لقد بلغ الآن سنا تمكنه من إدراك ما يجرى حوله وكتب لى والداى يقولان إنهما يجدان صعوبة كبيرة فى الحصول على الرزق بينما أقيم أنا فى بيجووحة . ويقولان أيضا إنه ليس هناك مبرر لأن يعوق الطفل سبلهما بينما له والدان على قيد الحياة . لأننى على أتم الاستعداد لأن استقدمه إلى هنا فى الحال واسكنه لم يبلغ بعد السن التى تمكنه من أن يؤدى عملا فى المشرب

وان يصبح كذلك قبل مرور عدة سنوات وقد يعتبره « كارتليت » غائبا في طريق حياته . على أى حال قام والدائى بإرساله إلى فعلا وكان ذلك بمعاونة بعض الأصدقاء الذين تصادف جميعهم من استراليا . أود منك أن تأخذه عند وصوله إذ أننى لا أدري ما عساي فاعلة به هنا . إنه ولدك شرعا وأقسم لك على ذلك وإذا ادعى أحد انه ليس كذلك فلك أن تعتبره من الكاذبين الأشرين . ومهما يكن ما فعلته من قبل أو ما سوف أفعله من بعد ، فقد كنت دائما أمينة لك منذ تزوجنا حتى غادرت بيتك وسأظل دائما مخصصة لك .

« ارايلا كارتليت »

كانت نظرة « سو » تتم عن الاكتئاب وقالت في صوت خافت : « وماذا عسالك فاعل يا عزيزى ؟ »

ولم يحر « جود » جوابا وظلت « سو » ترقبه في قلبي واضح وهى تزفر زفرات مسموعة .

وقال في صوت خفيض : « إن ما فى الرسالة صدمة لى ، وقد تكون الحقيقة وإن كنت لا أتبينها . فى الواقع لو كان مولده فى الوقت الذى أشارت إليه فى خطابها فهو فعلا ابنى . ولا أرى سببا لعدم اخبارها لإياى بوجود هذا الطفل عندما تقابلنا فى « كرايستمينيستر » وعندما ذهبت معها فى تلك الأمسية إلى هناك . آه . لأننى أتذكر الآن أنها قالت إن أمرا يقلقها ويهمها كثيرا أن تخبرنى به ، لو قدر لنا أن نعيش سويا مرة أخرى . »

وقالت « سو » وقد فاضت غيضاها بالدموع : « يا للطفل الصغير المسكين . يخيل لى أنه ما من أحد يرغب فيه . »

كان « جود » استعاد رباط جأشه وهنا قال : « أية فكرة تلك التى لا بد أن يكون هذا الطفل كونها لنفسه عن الحياة سواء كنت أنا أباه أو لم أكن لا بد أن أقرر أنى لو كنت من الناحية المادية أحسن حالا ، ما ترددت لحظة فى التفكير فى حقيقة نسبته . كنت فى الحال آخذه وأنشئه دون اعتبار لتلك المشكلة التافهة ،



مشكلة نسبه ولن يكون . ماذا يهيم لو أن الطفل ينتسب إليك عن طريق الدم أم لا ؟ إن كل الصغار الذين يعيشون في زماننا هم في جملتهم أبناء لكل البالغين الذين يعيشون في نفس الزمن ولهم الحق علينا في رعايتهم . أما تلك العناية الزائدة التي يبديها الآباء لأبنائهم وكرهم لأطفال غيرهم فإنها تبدو وكأنها الشعور الطبقي ، أو القومية ، أو مبدأ إنقاذ نفس إنسان دون غيره من النفوس ، أو غير ذلك من المبادئ التي لها مظهر الفضائل وإن كانت لا تعنى في حقيقتها سوى الأثرة الحفيرة .

وقفت « سو » من مكانها وقبلت « جود » في حب غامر وقالت : « نعم إنه لكذلك أيها العزيز . لسوف نأتى بالطفل إلى هنا . إذالم يكن هذا الطفل حقاً طفلك فسيكون ذلك أفضل . كم أتمنى ألا يكون ذلك الطفل ابنك على الرغم من أنه من الواجب على ألا يكون شعورى نحوه هكذا . وإذا كان هذا الطفل ليس من صلبك فكم أتمنى أن نريه ونرعاه على أنه ابننا بالتبني . »

— « حسن . يجب أن نفترض ما يسعدك أيها الرفيقة العزيزة الغريبة الأطوار . على أى حال ، أحس أنى لا أود أن أترك هذا الطفل المسكين فريسة للإهمال وسوء المعاملة . تصورى حياته في حان من حانات حى « لامبيث » وما يتعرض له فيها من تيارات ومؤثرات شريرة . تصورى أن يقدر له العيش مع أم لا ترغب في وجوده ولا تراه إلا لماماً ، وزوج أم لا يعرفه . وقد يأتى يوم ليس يبعيد عندما يجد الغلام ، ابنى ، نفسه وهو يقول : ( اللعنة على النهار الذى ولدت فيه والليلة التى قيل فيها إن طفلاً فى الطريق ) . »

— « أوه ، كلا لا تقل هذا ،

— « أعتقد أنه بما أننى المدعى عليه فإننى فى الواقع مستحق لحضائنه على ما أعتقد . »

— « سواء نعم أو لا ، يجب أن نأخذه . أرى ذلك . وسأبذل كل ما فى وسعى لأكون له بمثابة الأم ولا بد أن تكون هناك وسيلة للصرف عليه . سوف

أبذل جهداً أكبر في عملي . إنني أتساءل متى يصل .

— « في بحر أسابيع قليلة على ما أعتقد . »

— « كم أود — متى توافينا الشجاعة لتزوج يا « جود » ؟ »

— « أظن أنها ستوافقيني عندما توافيك أنت أولاً فالأمر بيدك أنت كلية .  
قولها فقط وستنفذ . »

— « قبل أن يصل الصبي ؟ »

— « بالتأكيد . »

وغمغمت ، « سو » تقول : « قد يتيح له ذلك جواً طبيعياً أكثر . »

وعلى ذلك كتب « جود » خطاباً راجياً في صيغة رسمية للغاية لإرسال الغلام بمجرد وصوله ولم يشر إلى ما أحدثته هذه الأنباء من دهشة أو يصرح بكلمة واحدة عن رأيه في نسب الصبي ولم يذكر شيئاً عن أن موقفه حيال « أرابيلا » ما كان ليتغير لو أنه علم بوجود الطفل في حينه .

وفي القطار العائد إلى « الدبركهام » في حوالى العاشرة في الليلة التالية ، أطل من إحدى مركبات الدرجة الثالثة وجه صغير شاحب لطفل . كانت له عيناان كبيرتان مدعورتان ويرتدى رباطاً للعنق مصنوعاً من صوف أبيض ويعلق فوقه مفتاحاً تدلى حول رقبته بقطعة من خيط عادي . كان المفتاح براقاً يجذب الانتباه بتأثير تألقه العرضي في ضوء المصباح . وفي شريط قبعته ثبتت تذكرته النصفية وظلت عيناان مثبتتين معظم الوقت في ظهر المقعد أمامه ولم تتجولا ناحية النافذة حتى عندما كان القطار يدخل إحدى المحطات ، أو عندما ينادى على أسمائها . وفي المقعد الآخر جلس راكبان أو ثلاثة واحد منهم امرأة عاملة في حجرها سلة بداخلها قטיפطة مخططة ومن حين لآخر تفتح المرأة غطاء السلة فتخرج القטיפطة رأسها وتأتي بمركات مسلية يضحك منها الركاب باستثناء الصبي حامل المفتاح والتذكرة وكان يرقب المرأة بعينيه الواسعتين اللتين بدتا كأنهما تقولان في صمت :

« يصدر كل الضحك عن سوء فهم . مع النظرة الصائبة لا يوجد شيء تحت الشمس يشير الضحك . »

ومن وقت لآخر عندما يقف القطار كان الكمسارى ينظر داخل المقصورة ويقول للغلام : « حسن جدا يا رجلى . صندوقك فى عربة الحفائب فى أمان . » ويحييه الصبي : « نعم » ودون أن يبدى انفعالا يحاول أن يبتسم ويفشل .

وكأنه الكبير يمثل دورا فلا يحسن التمثيل . وتتكشف الحقيقة من خلال ثغرات : وكأن تنوءا فى الأرض من أعوام قديمة مظلمة لاح الآن وهو يرتفع بالطفل إلى مستوى عمره الصغير الحالى وبخاصة عندما التفت بوجهه خلفه ملقيا ببصره إلى خضم عميق من الرمل ومتظاهرا بأن ما رآه لا يعنيه .

وعندما أغتمن الركاب الآخرون أعينهم واحداً بعد الآخر ، وحتى عندما كورت الهرة جسمها داخل السلة بعد أن أتعجها بجهود قيامها بالألعاب المضحكة ، ظل الصبي كما كان تماما . وبدا حينئذ أكثر يقظة وكأنه مقيد بمسوخ لا يفعل شيئا سوى التطلع فى وجوه رفاقه ، كما لو كان يرى حياتهم بأكلها وليست ، جسومهم فقط .

هذا غلام « أرابيلا » وكانت بإهمالها المعهود قد تأخرت فى الكتابة بشأنه لجود وظلت كذلك حتى الليلة السابقة لوصول السفينة التى أفلته عند ما لم تستطع التأجيل أكثر من ذلك على الرغم من أنها كانت تعلم بوقت وصول الطفل منذ أسابيع ، وعلى الرغم من أنها ، على حد قولها ، قامت بزيارة « ألدبركهام » فى المقام الأول لتكشف عن أمر الصبي وعن موعد عودته . وفى اليوم الذى تلقت فيه رد « جود » كان الطفل وصل فعلا إلى ميناء « لندن » وكانت الأسرة التى جاء فى صحبتها واصلت سفرها بعد أن وضعت فى عربة متجهة إلى « لامبيث » وودعه أفرادها بعد أن أرشدوا السائق إلى عنوان منزل أمه .

وعندما وصل الصبي إلى حان القرون الثلاثة ، أطالت « أرابيلا » النظر إلى

ابنها وعلى وجهها تعبير كاد يقول : « إنك تبدو تماما كما توقعت » . وقدمت له طعاما شهيا وأعطته بعض المال . وعلى الرغم من أن الوقت متأخر أرسلته إلى « جود » في أول قطار وذلك لأنها لم تكن تريد أن يراه زوجها الذى كان بالخارج وقتذاك .

وبلغ القطار محطة « ألبركهام » ونزل الصبي على الرصيف ووقف بجوار صندوقه . وأخذ الكيسارى منه تذكرته وبعد أن أدرك تفاهة ما معه من متاع سأله أين يذهب وحده في ذلك الوقت من الليل ؟

وقال الصغير دون أن يبدو عليه أى تأثر : « إني ذاهب إلى شارع الربيع . »

— « عجباً ! إنه يبعد كثيراً من هنا ، في الريف بعيداً وسيكون القوم نياماً . »

— « على أن أذهب إلى هناك . »

— « لا بد من عربة لصندوقك . »

— « لا . لا بد أن أسير . »

— « حسن . ألا تفضل أن تترك صندوقك هنا ثم ترسل في طلبه . هنالك

حافلة تصل إلى نصف الطريق ولكن لا بد أن تمشي بقيته . »

— « لست بخائف . »

— « ولم لم يحضر أصدقاؤك الملاقاة ؟ »

— « أظن أنهم لم يملوا بمقدي . »

— « ومن هم أصدقاؤك ؟ »

— « لا تريد والدتي أن أقول . »

— « كل ما يمكنني أن أفعله الآن هو أن أحفظ لك بهذه . والآن امش

بأسرع ما تستطيع . »

ولم ينبس أحدهما بكلمة بعد ذلك وخرج الصبي إلى الشارع يتلفت حوله ليتأكد من أنه ليس هناك من يتبعه أو يرقبه ، وبعد أن سار مسافة قصيرة سأل عن الشارع الذى يقصده ف قيل له أن يسير فى خيل مستقيم حتى يصل إلى خارج المدينة .

وراح الطفل فى زحف منتظم رتيب فيه صفة الآلية كأنه الموجهة أو المسممة أو السحابة . واتبع تعليماته بكل دقة دون التحديق المتسائل فى أى شىء ، وكان من الممكن رؤية أن أفكار الغلام عن الحياة مختلفة عن أفكار الغلمان الآخرين . فالأطفال يبدأون بالتفاصيل ويتدرجون منها إلى العام . إنهم يبدأون بالقرب وبالتدرج يفهمون العام أما الغلام فيبدو أنه بدأ بعموميات الحياة دون الاهتمام بالخصوصيات . فبالنسبة إليه كانت المنازل والأشجار والحقول الغامضة البعيدة تبدو له ليست مجرد آبنية من الآجر أو أشجار مبتورة الرأس أو مزارع ، بل كأنها الإسكان البشرى فى معناه العام والانبثاق والعالم الواسع المظالم .

ووجد الطريق إلى الدرب الصغير وطرق باب منزل « جود » . وكان « جود » قد آوى لتوه إلى الفراش ، و « سو » على وشك أن تدخل حجرتها الملاصقة عندما سمعت الطرق ونزلت .

قال الصبي : « هل هذا حيث يسكن والدى ؟ »

« ومن هو ؟ »

« السيد « قاولى » . هذا اسمه . »

وركضت « سو » إلى غرفة « جود » وأخبرته فأسرع بالانزول بأقصى ما استطاع وإن بدا بتأثير قلقها بطيئاً .

وسألت حالما جاء « جود » : « ماذا ؟ أهو ... هكذا سريعاً ؟ » وتفتتعت تقاطيع الغلام ولحاة ذهبت إلى حجرة الجلوس الصغيرة المجاورة ورفع « جود » الطفل حتى أصبح فى مستوى عينيه وظل ينظر إليه فى حنان حزين وهو يقول

إنه لو علم أنه قادم بهذه السرعة لذهب لاستقباله ، ثم أجلسه مؤقتا في مقعد ليتريح بينما ذهب يبحث عن « سو » التي اضطرب إحساسها المرهف ، كما علم . ووجدتها في الظلام منحنية فوق كرسي كبير . فأحاطها بذراعه وبعد أن وضع وجهه بالقرب من وجهها ، همس قائلا : ما الأمر ؟

— « ما تقوله » أرايلا ، حقيقى - حقيقى ! إنى أراك فيه . »

— « حسن ، ذلك شيء واحد فى حياتى كما ينبغى ، على أى حال . »

— « ولكن النصف الثانى منه .. هى ! وهذا ما لا أطيعه ! ولكن ينبغى أن

أتحمل - سأحاول اعتماد ذلك . نعم ، ينبغى ! »

— « إنك غimore يا « سو » الصغيرة ! إنى أسحب كل الملاحظات عن تجردك من الجنس - ذلك لا يهم . الزمن يصلح الأشياء . . . . « سو » أيتها العزيرة . لدى فكرة . لشوف نعلنه وندر به بقصد إلحاقه بالجامعة . إن ما عجزت عن تحقيقه فى شخصى قد أتمكن من تنفيذه عن طريقه ، إنهم يجهلون الأمور أسهل على الطلاب الفقراء الآن . ألا تعلمين ؟ » .

قالت : « يالك من حالم » . وبعد أن أمسكت بيده عادت معه إلى الطفل ونظر الغلام إليها كما نظرت هى إليه . وقال متسائلا : « أتكونى أنت أمى الحقيقية أخيرا ؟ » .

— « لماذا ؟ هل أبدا مثل زوجة أبك ؟ » .

— « حسن . نعم . باستثناء أنه يبدو مغرما بك وأنت به . هل يمكننى أن أدعوك أمى ؟ » .

ثم بدت على الطفل نظرة فيها لطفة وشرع يبكى . عندما لم تستطع أن تمنع نفسها من فعل نفس الشيء فى الحال فهمى قيامة تستطيع أقل ريح من انفعال قادم من قلب إنسان آخر أن تجعلها تهتز فى سهولة .

قالت وهى تضع خدها على خده لتخفى دموعها : « تستطيع أن تدعونى أمك

لورغبت يا عيزى ! » .

قال « جود » في هدوء مفتعل : « ما هذا الذى حول عنقك ؟ » .

— « مفتاح حقيبتى فى المحطة » .

وأحدنا ضجة كبيرة كى يعدا له بعض العشاء . وأقاما له سريرا مؤقتا وضعا فيه بعد فراغه من تناول الطعام حيث نام لتوه . وذهب كلاهما ونظرا إليه وهو نائم .

وغنم جود يقول : « لقد دعاك أمه مرتين أو ثلاثا قبل أن راح فى النوم . ألا يبدو غريبا ذلك القول منه ! » .

وقالت « سو » : لا كان لذلك دلالة . لدينا الآن ما نفكر فيه فى هذا القلب الصغير الجائع أكثر مما فى كل نجوم السماء . أعتقد يا عزيزى لا بد لنا من أن نتدبر بالشجاعة ونغلب على احتفال الزواج . لافائدة من الكفاج ضد التيار وإنى أحس بنفسى وأنا أمتزج مع بنات جنسى . أوه يا « جود » لسوف تحببى فى إعزاز بعدهما . أليس كذلك ؟ إنى أود صداقة أن أكون عطوفة على هذا الطفل وأن أكون له أما وإن إعطاءنا الوضع القانونى لزواجنا قد يجعل ذلك أسهل على » .

## ( ٤ )

أما محاولة « جود » و « سو » التالية ، وهى ثانى محاولتهما للزواج ، فكانت أكثر تصميما إذ بدأت فى الصباح التالى لوصول الطفل العجيب إلى منزلهما .

وجداه معتادا على الجلوس فى صمت ، ووجهه المتعب الرهيب متجمد ، وعيناه مستقرتين على أشياء لا يراها فى العالم المسمى .

قالت « سو » : « وجهه يشبه قناع « ميلبومين » . ما اسمك يا عزيزى ؟ هلا أخبرتنا ؟ » .

.... « يدعوننى الغلام أبو الزمان دائما . إنه لقب تمكى لأبى أبدو غاية في الهرم كما يقولون » .

قالت « سو » فى سنان : « وإنك تتكلم هكذا أيضا . من العجيب يا «جود» أن هؤلاء الأطفال الخارجين للتبليغية يأتون دائما من بلاد جديدة ؟ ولكن ما اسمك فى العهد ؟ » .

.... « لم أعمد قط » .

.... « ولم كان ذلك ؟ » .

.... « لأنه لومت فى دينوتى فسيوفر ذلك تكاليف الجنازة المسيحية » .  
قال أبوه فى شيء من خيبة الأمل : « عجباً ! اسمك ليس بجود إذن ؟ »  
.... وهز الغلام رأسه وقال : « لم أسمع به » .

وقالت « سو » بسرعة : طبعاً لا ! طالما أنها كانت تسكرهك طول الوقت !  
قال « جود » : « سنجدله يتعمد » . وقال لسو فى صوت خفيض : « فى اليوم الذى تزوج فيه » . غير أن بحى « الطفل » أربك . وجعاهما يسمان بالخبيل . ولما كان لدهما فكرة عن أن الزواج فى مكتب الموثق يكون بعيداً عن أنظار الناس أكثر من ذلك الذى يتم فى الكنيسة على يد كاهن ، قررا أن يتحاشيا الكنيسة هذه المرة . وذهب كلاهما سوياً إلى مكتب الناحية للتبليغ : لقد أصبحا رقيقين دائماً بحيث لم يأتيا أى أمر هام إلا فى صحبة بعضهما البعض .

ووقع « جود » فاولى « نموذج التبليغ » وكانت « سو » ترتب من فوق كتفه أصابعه وهى تسكتب . وبينما كانت تقرأ التسميات الأربعة الأساسية التى لم ترها أبداً من قبل ( ومن تحتها اسمها واسم « جود » ) والتى يصبح حب كل منهما للآخر أبدياً ، بدا وجهها مبهوماً بشكل مؤلم .

« اسم ولقب الخارجين » - إنهما طرفان الآن وليسا بعاشقين ، هكذا فكرت ، « الحالة الاجتماعية » - فكرة مفترقة - « المنصب أو الوظيفة » - « السن » -



عنوان السكن ، - « مدة الإقامة » .. « الكنيسة أو اسم المكان الذي سوف يتم فيه الزواج » - « الحى والمقاطعة التى يسكن فيها كل من الطرفين » .

وفى طريق العودة قالت : « هذه تفسد العاطفة ، أليس كذلك ؟ تبدو أنها تجعل من المسألة أمرا من أمور الحياة اليومية وهذا أسوأ من إمضاء العقد فى الكنيسة . هناك شيء من الشاعرية فى الكنيسة . ولكن سنحاول إنهاء هذا أيها العزيز الآن » .

— « سوف نفعل . « ما قيمة أن يخاطب الرجل زوجته ولا يأخذها ؟ ليذهب ويعود إلى بيته لئلا يموت فى المعركة ويأخذها رجل آخر . هكذا قال المشرع اليهودى » .

— « كم أنت عالم بالأسفار المقدسة يا « جرد » . كان ينبغي حقا أن تكون قسيسا ، أما أنا فأستطيع فقط الاستشهاد بأقوال الكتاب العاديين » .

وخلال الفترة التى سبقت استخراج الشهادة كانت « سو » أثناء قيامها بمهام البيت تسير فى بعض الأحياء أمام المكتتب وتلقى نظرة عابرة . ورأت على الحائط الإعلان الدال على القيد القوي الذى سوف يربطهما . لم تستطع أن تتحمل منظره فبعد تجربتها السابقة فى الزواج بدت كل شاعرية وصالحها وقد استنزفت حيويتها بعد أن وضعت قضيتها الراحنة فى نفس الذصيلة . كان من عادتها أن تسحب الصغير أبا الزمان من يده وتخيملت أن الناس يظنون أنه ولدها ، ونظروا إلى إجراءات الزواج المراقبة على أنها تهريج لخدائ قديم .

فى غضون ذلك ، صمم « جود » على أن يصل حاضره بماضيه بدرجة بسيطة وذلك بأن يدعو إلى حفل قرانه الشخص الوحيد الذى بقى له على وجه الأرض والذي كانت له علاقة بحياته السابقة فى « ديرين » .. الأرملة « ايدلين » صديقة قرينته العجوز وممرضتها فى مرضها الأخير . لم يتوقع أنها ستأتى ، ولكنها جاءت وجلبت هدايا غير عادية على شكل تفاح ومربى ومقراض الذبالة وطبق تصديرى قديم ومدفأة وكيس ضخمة به ريش أوزة لعمل حشية لمخدة نوم . وأعطيت الحجرة

الزائدة في منزل « جود » حيث آوت مبكرة ، وحيث استطاعا أن يسمعاهما من خلال السقف السفلي وهي تردد في أمانة الصلاة الربانية في صوت مرتفع وبقا لتوجيهات « قواعد فروض الصلوات » .

ولما لم تستطع النوم ، ولاكتشافها أن « سو » و « جود » مازالا مستيقظين فلم تكن الساعة تتعدى العاشرة بعد ، أرادت ملابسها ثانية ونزلت وجلسا جميعا بجانب النار حتى ساعة متأخرة . وكان أبو الزمان معهم ، وإن لم يحسوا بوجوده لأنه لم يتكلم قط .

قالت الأرملة : « حسن . لست ضد الزواج كما كانت قريبكم العجوز وأرجو أن يكون زواجا سعيدا لكما من جميع نواحيه هذه المرة . ما من أحد يستطيع أن يتمنى ذلك أكثر منى بالنظر إلى ما أعرفه عن أسرتيكما وأعتقد أنه أكثر مما يعرفه الآن أى إنسان آخر على قيد الحياة . لقد كانوا سيئى الحظ فيما يتعلق بذلك والله يعلم . »

وتنفست « سو » في صعوبة .

واستمرت ضيفة الزفاف تقول : « كانوا دائما قوما طيبى القلب كذلك - ما كانوا ليقموا ذبابة لو علموا . ولكن أشياء وقعت تسىء إليهم ولقد عانوا كثيرا - ما من شك هذا ما فعله من تدور حوله القصة التى يتداولها الناس - لو كان حقا أحد أفراد أسرتيكما . »

قال « جود » : « ماذا كان ذلك ؟ »

— « حسن . تلك القصة ، كما تعلمان ، عن ذلك الذى شئى على حاجب التل بالقرب من البيت الأسمر - على بعد قليل من الميلية بين « ميريجرين » و « الفردستون » ، حيث يتفرع الطريق الآخر . ولكن ، يا إلهى . كان ذلك فى عهد جدى ، وقد لا يكون ذلك الشخص أبدا واحدا من قوهكما . »

وغهم « جود » : « أعرف جيدا أين أقيمت المشنقة . ولكننى لم أسمع بهذا أبدا . ماذا - هل هذا الرجل - سلفى وسابق « سو » قتل زوجته ؟ » .

-- « لم يكن ذلك بالضبط . هربت منه إلى أصدائهما ومعها طفلتهما ، وبينما كانت هناك ، مات الطفل . أراد الجثة ليدفنها حيث دفن قومه ، واسكنها ما كانت لتتنازل عنها . وجاء زوجها في الليل ومعه عربة واقتحم المنزل ليسرق النعش ، واسكنه ضبط . ولما كان غميذا ، رفض أن يقول لم اقتحم المنزل فحموا ذلك على حمل السرقة . هذا هو السبب في أنه شقيق وصيلب على تل البيت الأسمر . لقد جنت زوجته بعد موته . ولكن قد لا يسكون حقيقة أنها ينتسب إليكما أكثر مني . »

ومن ظل المصطفى جاء صوت صغير بطيء كأنه خارج من الأرض . « لو كنت أنت يا أمي ، لما تزوجت أبي ! » هذا ما قاله أبو الزمان الصغير لخاله لأنهم كانوا نسوه .

وقالت « سو » مهددة : « أوه ، إنها مجرد قصة » .

وبعد هذا العرض المثير من الأرملة ليلة الاحتفال . وفقا وعادا بعد أن تمنيا لضيافتهما ليلة طيبة .

وفي الصباح التالي وكان توتر أعصابها قد زاد بمرور الساعات . أخذت « سو » « جود » جانبا في غرفة الجاوس قبل بدء الاحتفال وقالت ملتصقة بصدرة وقد تندت رموشها : « «جود» أحب أن تقباني في تجرد . ان تعود هذه اللحظة ثانية . أليس كذلك ؟ وددت لو أننا لم نبدأ العملية . ولكن أظن أننا لا بد أن نستمر . كم كانت تلك القصة التي سمعناها أمس مفرعة ! لقد أفسدت اليوم أفكاري . إنها تجمعني أشعر كما لو كان مصير مفجع لازم عائلتنا ، كما حدث لبيت « أتربوس » . » قال اللاهوتي السابق : « أو بيت جيرو بوم » .

-- « نعم - إنها تبدو مغامرة طائشة تقوم بها نحن الاثنين بزواجنا ! سأقسم لك بنفس الكلمات التي رددتها أمام زوجي الآخر ، وسأقسم لي بنفس الكلمات التي أقسمت بها لزوجتك الأخرى ، دون اعتبار للدرس الزادع الذي علمتنا إياه تلك التجارب ! »

قال : « إذا كنت قلقة فإن ذلك يشقيني . املت في أنك ستحسين بالفرح  
أما إذا لم يحدث لي-مكن ما يكون . لافائدة من التظاهر . إنها مهمة قبيحة بالنسبة  
لك وهذا يجعلها كذلك بالنسبة لي ! » .

وغنغمت : « كل شيء يبدو بنضاض كما كان في ذلك الصباح .. هذا كل ما في  
الامر . لنذهب الآن » .

وتحرك نحو المكتب المذكور والذراع في الذراع ولا يصحبهما من الشهود  
سوى الأرملة « أدلين » . وكان اليوم باردا معتما وهب على البلدة ضباب رطب  
جاءها من نهر « التايمز » وعلى درجات السلم المؤدى إلى المكتب الآثار الموحلة  
لأقدام الداخلين ، وعند المدخل عدد من المظلات المبللة . وبداخل المكتب  
تجمع عدة أشخاص ولاحت لنا أن زواجا بين جندي وشابة ما زال دائرا .  
وفي المؤخرة وقفت « سو » و « جورد » والأرملة بينما كان هذا دائرا وأخذت  
« سو » تقرأ إعلانات الزواج على الحائط . كانت الغرفة مكانا كيميائيا لاثنتين لها  
مزاجهما وإن كان التردد بين عذبا عاديا تماما . وكتب القانون ذات الأغلفة  
الجلدية القديمة تغلى إحدى الحوائط وفي أماكن أخرى نسخ من دليل مكتب  
البريد ومراجع أخرى . كذلك رزمة من <sup>منشئ سورالزيمية</sup> الصحف مربوطة بشريط آخر  
موضوعة حول المكان وفي فراغ من الحائط ثبتت بعض الخزائن الحديدية في  
حين أن الأرضية الخشبية الدارية للغرفة ، كمنصة المدخل ، ملهت بأثار الزائرين  
السابقين .

كان الجندي متبرما نائرا ، والعروس خجلة حزينة ، ومن الواضح أنها  
ستصبح سريعا أما وفوق إحدى عينيها كدمة زرقاء . وحملتهما الصنيرة سرعان  
ما انتهت وخرج الزوجان وأصدقاؤهما يتعثران وقال أحد الشهود لجورد و « سو » ،  
عندما مر بهما بطريق الصدفة كأنه يعرفهما من قبل : « انظر إلى هذين القادمين !  
ها ، ها ! لقد خرج هذا الرجل من السجن هذا الصباح ، أما المرأة فقد قابلته عند  
باب السجن وجاءت به إلى هنا رأسا . ودفعتم كل التكالييف » .

وأدارت «سو» رأسها فرأت رجلا رث الهيئة حليق شعر الرأس وبندراعه امرأة لها وجه عريض مغطى بالبثور ولونه أحمر من أثر الشراب والرضاء لأنها كادت تحتقن رغبة عزيزة ، وبطريقة ماحنة حيا الزوجان الخارجان وسارا في طريقةهما أمام «جود» و«سو» التي أخذت إحجامها يتزايد . لقد تراجعت والتفتت إلى حبيبها واتخذت منها شكلا فم طفل يوشك على الاستسلام للحزن .

-- «جود» -- لا أحب البقاء هنا ! ليتنا لم نأت . بصيبي المكان بالرعب .  
لأنه يبدو غير طبيعي للغاية كندرة حبنا ! ليتنا يتم في الكنيسة لو كان لا بد له أن يتم . ليس الحال هناك على هذا الابتذال !

وقال «جود» : يا فتاتي العزيزة ، كم تبدين مضطربة شاحبة ! .

— «لا بد أن يتم هنا الآن على ما اعتقد ؟» .

— «لا . . . قد لا يكون ضروريا» .

وتكلم مع الكاتب وعاد يقول : «لا يمكن ألا نتزوج هنا أو في أي مكان ، يمكن أن نتزوج في كنيسة ، وإذا لم يكن بنفس الشهادة فبأخرى سيمعطينا إياها على ما أظن . على أي حال ، دعينا نخرج من هنا يا عزيزتي حتى تهدئي وحتى أهدأ أنا أيضا ، ثم نتحدث» .

وخرجا خلسة كمن ارتكبا ذنبا وأغلقا الباب دون جلبة وأخبرا الأرملة التي كانت قد بقيت عند المدخل أن تعود إلى المنزل وتنتظرهما هناك . وقالا إنهما سيدعوان أية أشخاص من المارة ليكونوا شهود الزواج إذا لزم الأمر . وعندما بلغا الشارع عرجا على طريق جانبي مهجور وظلا يسيران فيه جيئة وذهابا تماما كما فعلا منذ مدة عندما توجهوا إلى بناء السوق في «مياشستر» .

— «والآن يا عزيزتي . ماذا عنا نافعان ؟ إننا نتورط في الموضوع وهذا ما يدهشني . ومع ذلك أي شيء يسرك يسرنى» .

— «ولسكن أيها العزيز «جود» . إنني أقلقك ! وددت أن يتم الزواج هناك . أليس كذلك ؟» .

— « حسن . في الحقيقة عندما دخلت شعرت أنني لا أهتم كثيرا بإتمام الزواج . لقد أحرزني المكان كما أحرزك - فهو قبيح . حينئذ فكرت فيما قلته هذا الصباح عن ضرورة زواجنا . »

وسار الاثنان على غير هدى حتى توقفت وبدأ صوتها الصخير من جديد :  
« ومن الضعف أيضا أن تتذبذب هكذا . ومع ذلك فهذا أفضل بكثير من أن تتصرف في تهور مرة أخرى . . . . كم كان ذلك المنظر فظيعا بالنسبة لي ! ذلك التعبير في الوجه المترهل لتلك المرأة وقد دفعها إلى أن تهب نفسها لطريد السجون هذا ، ليس لساعات قليلة كما ينبغي بل طيلة حياتها ، كما لا بد أن تفعل . أما من المخلوق المسكين الآخر فلسكى تنجو من عار اسمي تنج عن ضعف شخصيتها ، فإنها هبطت بنفسها إلى العار الحقيقي الكامن في الخضوع لطاغية احتقرها - رجل تحاشته مدى حياتها وكان ذلك فرصتها الوحيدة للخلاص . . . هذه هي كنيسة أبروشيتنا . أليس كذلك ؟ هنا المكان الذي كان لا بد أي يتم فيه الزواج ، لو قننا به بالطريقة العادية ؟ يبدو أن قداسا أو شيئا يدور فيها الآن . »

وذهب « جود » وأطل برأسه إلى الباب وقال : « يا للعجب . إنه زفاف هنا أيضا . يبدو أن الجميع يصنعون نفس الشيء اليوم . »

وقالت « سو » إنها تعتقد أن الزيجات تتم بكثرة بمناسبة انتهاء الصوم الكبير إذ في أثنائه تتم عقود الزواج وأضاف : « دعنا نصفي ثم نرى كيف يكون شعورنا عندما يجرى زواجنا في الكنيسة . »

وتسلل الاثنان وجلسا في مقعد خلفي وراقبا ما يجرى عند المذبح . أما العروسان فهما يتتبعان للطبقة الوسطى الموسرة وكان الزفاف في مجموعه على درجة عادية من الجمال والأهمية . واستطاعا أن يريا الزهور وهي تهتز في يد العروس حتى من ذلك البعد ، واستطاعا أن يسمعا ترديدها الآلى للكلمات التي بدا عقلا كأنه لا يفهم لها معنى بسبب توثرها النفسى . وظل « جود » و « سو » يصغيان وأخذ كل منهما يرى نفسه على انفراد عندما تعرض لنفس الموقف المنظور على التضحية بحقوق الذات .

وهمست « سو » تقول : « لا يعنى الزفاف بالنسبة لتلك المسكينة ما يعنيه بالنسبة لى بعد أن اكتببت فيه خبرة أكبر . وكما ترى أنهما جديدان على التجربة وهما يتقبلان المراسيم كأنها أمر طبيعى . أما وقد أدركنا نحن عن طريق التجربة ما فى هذه المراسيم من رهبة مؤثرة أو كما أدركت أنا على الأقل عن طريق تجربتى الخاصة وما انبثق عنها من شعور عليل . أجد أنه مما لا يتفق والقانون الأخلاقى أن أذهب بنفسى وأفعل نفس الشيء ثانية بعينين مفتوحتين . إن يجيئ إلى هنا ورؤيتى هذا أخافان من زفاف يتم فى السكنيسة بقدر ما أخافنى زفاف يتم فى مكتبة التوثيق . كلانا ضعيف متردد يا « جود » وإن ما يثق فيه الآخرون أحس أنا نحوه بشكوك وما عدت أومن ثانية بجدوى تلك البهود التعسفة التى تتضمنها العقود » .

عندئذ حاول الاثنان أن يضحكا وظلا يتناقشان همسا فى موضوعهما . وقال « جود » إنه هو أيضا يعتقد أن كليهما حساس وما كان الواجب أن يولدا إطلاقا ، وما كانا ليرتبطا بأكثر المغامرات مناقضة للعقل بالنسبة لهما ، ألا وهى الزواج .

وارتعشت خطيبته وسألته فى اهتمام إذا ما كان يحس حقا بأنهما يجب ألا يذهبا بغير اكتراث ليوقعا ذلك التعهد ثانية ؟ وقالت : « لأنه لشيء مفزع لو نظن أننا وجدنا أنفسنا غير أقوياء بهذا ، ومع إدراكنا لهذه الحقيقة يصبح إقدامنا على الزواج عملا ينطوى على الغش » . وقال « جود » : « هذه هى الحقيقة فاعرفيها لو أردت ولكن تذكرى دائما أنتى ان أقدم على الزواج إلا إذا رغبت أنت فى ذلك » .

وبينا استولت الحيرة على « سو » فيما ينبغي أن تقول ، أخذ « جود » يعترف بأنه على الرغم من اعتقاده بضرورة الإقدام على الزواج أحجم عنه الخوفه من الفشل فيه ، تماما كما كان شعورها هى أيضا وقد يكون شذوذ طبيعتهما هو الذى أوحى إليهما بهذا الخوف لأنهما يبدوان مختلفين عن غيرهما من سائر الناس لذا قال : « لئنا مرهنا الحس بشكل مريع ، تلك هى فى الواقع مشكلتنا يا « سو » .

— « أظن هناك من هم على شاكلتنا أكثر مما نظن » .

— « حسن . وإني لأعرف أن فكرة العقد طيبة وسليمة بالنسبة للكثيرين دون شك ، ولكن في حالتنا قد يقصر العقد عن تحقيق غرضه لما في تكييفنا الطبيعي من غرابة . فنحن من تزهق لديهم الروابط العائلية المفروضة بالقوة كل أثر للورد والإنعلاص » .

وأصرت « سو » على أنه ليس في طبيعتهم ما يمكن أن يعتبر شاذاً وأن جميع الناس هكذا .

— « أصبح كل إنسان يشعر بنفس شعورنا . إننا سابقان قليلاً . هذا كل ما في الأمر . بعد خمسين أو مائة عام ستتصرف سلالة هذين الزوجين وتحس أسوأ منا . سيرى هؤلاء الأحفاد أجيال الإنسانية المتصارعة أوضح مما نراها نحن الآن باعتبارها نماذج تشبهنا وقد تكاثرت في قبح وسيتملكهم الخوف فلا ينتجونها » .

— « يبدو هذا كأنه سطر من الشعر المرعب ..... على الرغم من أنني أحسست هذا بنفسى في إخوتي في الإنسانية في فترات الضيق » .

وهكذا تسارا إلى أن قالت « سو » في جلاء أكثر :

— « طيب - والمشكلة العامة ليست من شأننا فلم نعذب أنفسنا بها ؟ ومهما اختلفت الأسباب فإننا نصل إلى نفس النتيجة وهي أنه من الخطأرة لكيما بالذات أن نقسم قسماً يظل مفعوله سارياً مدى الحياة ، وعلى هذا يا « جود » دعنا نعود إلى المنزل دون أن نقضى على سحلبنا نعم . كم أنت كريم يا صديقي . إنك تدعنا لكل نزواتي » .

— « إنها لتتفق كثيراً مع نزواتي » .

وخلف عامود قبائها قبلة صغيرة بينما جذب موكب العرس وهو يدخل مقعدى الأبروشية انتباه كل واحد من الموجودين . وعندئذ ذهبها خارج البناء وبجوار



الباب انتظرا حتى عادت عربتان أو ثلاث ، وكانت قد ذهبت للحظة ، وبعدها خرج إلى ضوء النهار الزوج والزوجة الجديدان وهنا تنهدت « سو » وقالت :

— « إن الزهور في يد العروس توشى بالخزن كالأكاليل التي أحاطت بعجول الضحية في قديم الزمان ! » .

— « ومع ذلك يا « سو » إن موقف المرأة ليس أسوأ من موقف الرجل . هذا ما تعجز عن إدراكه بعض النساء . وبدلاً من أن يعترضن على الأحوال ، يعترضن على الرجل ، الضحية الأخرى ، تماماً كما نحمل سيادة في الزحام على رجل لأنه احتك بهما بينما هو في الواقع مجرد أداة عاجزة لأنه تعرض للضغط الذي سلط عليه » .

— « نعم .. بعضهن هكذا بدلاً من الاتحاد مع الرجل ضد العدو المشترك وهو الإجماع » . وهنا كان العروسان قد استقلا العربة فتعحرك « جود » و « سو » مع بقية المتسكعين . واستمرت « سو » تقول : « لا ، لا تدعنا نفعل ذلك - على الأقل الآن » .

وبلغا البيت . وبينما كانا يمران أمام النافذة وقد تأبط الواحد ذراع الآخر ، أبصرا الأرملة وهي تنظر إليهما . وعندما دخلا البيت صرخت ضيفتهما : « حسن . عندما رأيتهما تقتربان من الباب وفي وجهيكما حب ظاهر قلت لنفسى ها هما قد صبا أخيراً على التنفيد » . وباختصار أشارا إلى أنهما لم يفعل شيئاً .

— « ماذا . وهل لم تزوجا حتماً ؟ يا للدهشة . عشت أخيراً لأرى اثنين مثلكما يفسدان مثلاً قديماً يقول : « تزوج في عجلة واندم بعدها على مهل » . آن لى أن أعود ثانية إلى « ميريجرين » . واحسرتاه لو كانت هذه هى نتيجة الأفكار الجديدة ! فى أيامنا لم يتوقع أحد أن يخاف من الزواج ولا من أى شيء آخر إلا من فوهة مدفع أو من خزانة خالية ! عندما تزوجت المرحوم زوجى لم نفكر فى الأمر أكثر مما لو كنا نلعب لعبة شائقة » .

وهمست « سو » تقول في لهجة عصبية :

« لا تخبرى الصبي عندما يدخل . سيظن أن كل شيء سار على ما يرام ومن الأوفى ألا نناجئه بالخبر حتى لا يدمش ويتحير . طبعاً تأجل الزواج فقط لغرض التدبر . إذا كنا سعيدين كما نحن الآن فإذا بهم الآخرين ؟ » .

( ٥ )

إن مسجل الأفعال والتغيرات المزاجية لا يجد نفسه مضطراً إلى الإفصاح عن آرائه الشخصية بصدد النقاش الخطير السابق . أما أن الاثنين كانا سعيدين - بين فترات الأحزان - فقد كان هذا مما لا يتقبل الشك . وعندما برهن الظهور غير المتوقع لطفل « جود » في المنزل على أنه ليس بالحادث المقلق كما بدا أولاً ، بل إنه كان شيئاً جلب إلى حياتهما معنى جديداً رقيقاً يتميز بطبيعة سامية مشرقة ، فإن ذلك دعم سماعاتهما أكثر مما أساء لإيهما .

وبكل تأكيد ، مع مخلوقين لطيفين متحمسين مثلهما ، جاب مجيء الطفل معه أيضاً تفكيراً كثيراً للمستقبل وخاصة لأن الطفل كان يبدو حينئذ محروماً من كل فرص الطفولة المألوفة . لكن الاثنين حاولا أن يصرفا من ذهنيهما - ولومؤقتاً على الأقل - أية آراء متطرفة في الموضوع .

توجد في « دوسكس » العليا مدينة قديمة بها تسعة أو عشرة آلاف نفس ، وهذه تدعى « ستوك بير هيلز » . إنها تنهض بكنيسة الهزيلة الجامدة القديمة وضاحتها الجديدة ذات الأجر الأحمر وسط مثلث خيالي تقع عند رموسسه الثلاثة مدن « الدبركهام » و « وتنستر » و « كورترشوت » المحطة العسكرية الهامة . وخلال المدينة يمر الطريق الغربى العظيم الآتى من لندن بالقرب من نقطة يتفرع عندها إلى شعبتين ، ثم يتصل ثانية في مكان يبعد عشرين ميلاً ناحية الغرب . من هذا التفرع والاتصال اعتادت أن تنشأ ، قبل ربط هذا المكان بالسكة الحديد ، مشكلة الاختيار بين هذين الطريقين . لكن المشكلة الآن اختفت كما اختفى مالك العقار الذى يدفع الضريبة النسبية ، وسائقى عربات البضائع ، وسائقى عربات البريد ، أوائلئك

الذين عانوا منها ومن الجائز أنه لم يعد الآن أى فرد من سكان «ستوك بير هيلز» يعرف أن الطريقين اللذين ينفصلان عند هذه المدينة ياتقيان مرة أخرى ، إذ لم يعد أحد الآن يترك الطريق الغربى الكبير يومياً .

والشيء المألوف الآن كثيراً فى «ستوك بير هيلز» هو مدافنها وتقوم وسط بعض المناظر الأثرية الجميلة القائمة بجوار السمكة الحديد ، فى حين أن الكنائس والمقابر الحديثة البناء ، والشجيرات الجديدة تبدو كلها نائية المظهر وسط الخرائب المتداعية والأبنية القديمة المغطاة بالنباتات المتسلقة .

وفى يوم معين ، مع ذلك ، فى نفس العام الذى وصلنا إليه فى هذه القصة - والشهر فى مطلع يونيو - وملاح البلدة تثير اهتماماً قليلاً على الرغم من أن زواراً كثيرين يصلون بالقطارات ، أخذت بعض القطارات المتجهة جنوباً تفرغ ركابها بشكل خاص هنا . إنه أسبوع معرض «وسكس» الزراعى الكبير الذى تمتد مساحته كثيراً وتغطى المداخل الواسعة للديانة مثل خيام جيش محاصر . صفوف من الخيام والأكواخ والأكشاك والسرادات والامروقة المسقوفة والمداخل ذوات الأعمدة - كل أنواع الإنشاءات المؤقتة - تغطى الحقل الأخضر لمسافة نصف ميل مربع . أما جماعات الزوار فتسير خلال المدينة فى كتلة واحدة وتتجه رأساً لأرض المعرض . والطريق إلى هناك تحف به نوافذ عرض وأكشاك وبائعون جوالون ، وهؤلاء يحولون الطريق إلى المعرض إلى ساحة للبيع والشراء ويقودون بعض غير المتبصرين إلى التخفيف من محتويات جيوبهم بشكل واضح قبل وصولهم إلى أبواب المعرض الذى جاءوا أصلاً للتفرج عليه .

إنه اليوم الشعبى ، يوم الشان ، ومن قطارات الرحلات السريعة يدخل قطاران آتيان من اتجاهين مختلفين ويقفان فى المحطتين المتلاصقتين فى نفس اللحظة تقريباً . أحدهما ، كعديد القطارات التى سبقته ، يجرى من لندن ، والآخر يجرى من «الدبركهام» . ومن قطار لندن يهبط اثنان أحدهما رجل قصير منفتح الأوداج

له كبرش مستدير وقدمان صغيرتان ، وهو بذلك يشبه النحلة الدوارة ونصحه  
امرأة لها قوام معتدل ووجه متورد ترتدى ثيابا صنعت من نسيج أسود مغطى  
كله بحبات من الخرز جعلتها تلمع كأنما التحفت بدرع :

وأخذا يتلفتان حولها . أما الرجل فكان على وشك أن يكرى عربة كما فعل  
الآخرون عندما قالت المرأة : « لا تسكن متعجلا يا « كارتليت » فالمسافة إلى ساحة  
المعرض ليست كبيرة . دعنا نذهب إلى هناك سيرا على الأقدام فقد تتاح لي فرصة  
شراء قطع من الأثاث أو الصيني . لقد مضت أعوام منذ جئت إلى هنا - ولم آت  
قط منذ عشت كفتاة في « الدبركهام » واعتدت أن آتي في صحبة صديقي الشاب في  
رحلة سريعة » .

وفي صوت أجش قال زوجها صاحب حان القرون الثلاثة في « لامبيث » :  
« إنك لا تستطيعين أن تحملى معك في قطار الرحلات أثاثا وزليلا » .

وكان الاثنان قدما توأ من الحانة التي تقع - كما ذكرت - أرابيلا ، في خطابها  
لجود ، في ذلك الحى الغنى الأهل بالسكان الذى يهوى أهله شرب الخور  
الراقية . وأقام الاثنان في ذلك الحى منذ أن اجتذبتهم إليه تلك الكلمات التي  
قرأها في أحد الإعلانات . أما هيئة صاحب الحان فدلت بوضوح على أنه هو  
أيضا ، كزبائنه العديدين ، منقشيا بالخرز التي يبيعها لهم كأسا بعد كأس .

قالت الزوجة : « سأطاب إذن من البائع أن يرسلها لو كان من بينها ما يستحق  
الاقتناء » .

وأخذ الاثنان يتجولان وما كادا يدخلان البوابة حتى جذب انتباه الزوجة  
رجل وامرأة وبصحبتهم طفل ، وقدم الثلاثة من الرصيف المقابل حيث وقف  
القطار القادم من « الدبركهام » .

قالت « أرابيلا » : « يا للعجب ! » .

وقال « كارتليت » : « وما ذلك ؟ »

... ..

— « من تظن هذين الشخصين ؟ ألا تعرف الرجل ؟ » .

... ..

— « لا . »

... ..

— « ولا حتى من الصور التي أربتك إياها ؟ » .

... ..

— « هل هو فاولي ؟ » .

... ..

— « لأنه هو بعينه » .

... ..

— « حسن . ربما . رغب في التجوال داخل المعرض مثلنا . » وكان اهتمام

« كارتليت » ، بمجرد فائرا بشكل واضح رغم ما أظهره نحوه من اهتمام قبل أن

يصبح سحر أرا بيلا ونزواتها وضمائرها المستعارة وهم مائتها التي تظهر على وجهها

ثم تحتفي وفقا لرغباتها ، مجرد قصة تروى في عذراء الأناقة والجمال .

ونظمت « أرا بيلا » خطواتها وخطوات زوجها بحيث أصبح الاثنان يسيران

مباشرة خلف « جود » و « سو » والطفل ، وساعدها على تحقيق ذلك دون أن

ينكشف أمرها تيار المشاة المتدفق . لقد كانت إجاباتها على ملاحظات « كارتليت » ،

غامضة وقصيرة إذ كان الفريق الثلاثي الذي يتقدمها يستحوذ على انقباضها . أكثر

من أي شيء آخر . قال « كارتليت » : « لا يبدو لي أن كلا من الاثنين مغرم بالآخر

وهما مغرمان بطفلهما أيضا » .

... ..

— « طفلهما ! ليس هذا بطفلهما » .

... ..

قالت أرا بيلا ذلك في نوبة من الانفعال الغريب المفاجيء واستمرت تقول :

« لم يمس على زواجهما من الوقت ما يكفي لأن يكون بينهما طفل » .

ولكن على الرغم من أن غريزة الأمومة المتأججة في صدرها كانت من القوة

بحيث دفعتها إلى القضاء بعنف على ملاحظة زوجها عن الطفل ، إلا أنها أقرت

بعد تفكير قصير ألا تكون صريحة في هذا الموضوع أكثر مما يجب إذ لم تكن

معلومات السيد « كارتليت » ، عن ذلك الطفل ، طفل زوجته ، تزيد على أنه يعيش

وراء البحار مع جده وجدته .

« لا أعتقد ذلك . إنها تبدو صغيرة السن للغاية » .

— « إنهما مجرد حبيبين ، أو أنهما تزوجا حديثا ومكلفان برعاية الطفل كما هو واضح لكل إنسان » .

وسار الجميع قدما . أما « سو » ، الذاهلة و « وجود » ، وهما المعنيان هنا ، فقد صمما على أن يجعللا من هذا المعرض الزراعى الذى يقع على بعد عشرين ميلا من مدينتهما رحلة يوم تجمع ما بين الرياضة والمتعة بالإضافة إلى الثقافة وذلك نظير تكاليف ضئيلة ، ولما لم يحصرا تفكيرهما فى نفسيتهما فقط فقد جلبا معهما أبا الزمان الصغير كي يحاول إثارة فضوله وحمله على الكلام والحركة كما يفعل غيره من الغلمان وذلك على الرغم من أنه كان - إلى حد ما - يجد من حريتهما فى الكلام وفى تبادل الملاحظات الحرة الشائقة أثناء رحلتهما التى استمتعا بها إلى درجة كبيرة . غير أنهما سرعان ما نسيا وجوده وظلا يتبادلان الحركات والإيماءات العاطفية الرقيقة التى ما كان لأكثر الناس شعورا بالحنج أن يوفقوا إلى إخفاؤها ، والتى يمكن لمذنب الشخصين - وهما فى وسط غريب عليهما - أن يخفياها بمجهود أقل مما لا بد أن يبذلاه لو كانا فى بلدهما . وكانت « سو » وهى فى ملابسها الصيفية تبدو خفيفة الحركة وشيقة كطائر بينما أصابعها الدقيقة الممسكة بالمظلة البيضاء تبدو وكأنما لا تلبسها ، بل أن تقبض عليها ، وكأنما أية هبة من هبات الريح كانت قادرة على أن تطيح بالمظلة وتلقى بها فى الحقل المجاور . أما « جود » فكان يرتدى حائه الرمادية الفاتحة المخصصة للأجازات والأعياد وكان بجوار « سو » يبدو غورا جفا . ولم يكن ذلك لمظهرهما الجذاب فحسب ، بل لأسلوبها الرقيق فى الحديث وطريقتها الودودة فى التصرف ، وذلك التفاهم الكامل الذى يبدو واضحا فى كل حركة وسكنة من حركتهما وسكناتهما ويقوم بينهما مقام الكلام وجعلهما يبدوان وكأنهما شطران من كل لا يتجزأ .

ووصل الاثنان ومعهما الطفل إلى حيث يدفعون رسوم الزيارة وداف الجميع من الحاجز وخلفهما « أرايلا » وزوجها . وعندما أصبح الجميع داخل

المعرض ظهر واضحا لعيني « أرابيلا » أن « جود » و « سو » يجدان مشقة في إثارة الطفل وتحريك اهتمامه بما حوله فكلا أشارا إلى ما حولهما شارحين له كل شيء ، كانت سحابة من الحزن تستقر على وجهيهما لعجزهما عن القضاء على شعوره بعدم الاكتراث .

قالت « أرابيلا » : « انظر كيف تلتصق به ! أعتقد أنهما لم يتزوجا بعد وإلا لما التصقا هكذا . عجي ! » .

— « ولكنني أظن أنك قلت أنه تزوجها فعلا ؟ » .

— « سمعت أنه كان على وشك أن يفعل ذلك . هذا كل ما في الأمر . سيقوم بمحاولة أخرى بعد أن أجل الزواج مرة أو مرتين . لإنهما يتخيلان وهما يسيران سويا أنه ما من أحد غيرهما في هذا المكان . لو كنت في مكانه لجلت من مجرد الشعور بأنني أجعل من نفسي أمام الناس أضحوكة سخيفة » .

— « إنني لا أرى في سلوكهما ما يلفت النظر وما كنت لألاحظ أن كلا منهما يحب الآخر لو لم تخبريني أنت بذلك » .

وأضافت « أرابيلا » تقول : « إنك لا تلاحظ شيئا بالمرة » . والحقيقة أن نظرة « كارتليت » للحميين أو الزوجين لم تكن تختلف عن نظرة بقية الزوار لها ، أولئك الذين لم يكشفوا بصرهم العادي ما كانت « أرابيلا » تميزه بعينها الحادتين .

وأضافت « أرابيلا » تقول : « لقد سحرته تلك المرأة . لكنها جنية من جنات الأساطير . انظر كيف يسترق النظر إليها ويركز بصره عليها . إنني أميل إلى الاعتقاد بأنها لا تهتم به بقدر اهتمامه بها . إنها في رأيي لا تبدو من ذوات القلوب الدافئة وإن كانت تحبه بقدر ما تسمح به عواطفها ويده أن يجعل قلبها يخفق له أكثر وأكثر لو أنه بذل معها شيئا من الجهد وإن كان هو من البساطة بحيث يهجز عن القيام بشيء من هذا القبيل . انظر إنهما الآن متجهان نحو حظيرة خيول العربات . هيا إلى هناك » .

— « لا أود أن أرى خيول العربات . ليس من شأننا أن نفتنى خطوات هذين الاثنين . إن كنا جئنا إلى هنا لمشاهدة المعرض دعينا نشاهده بالطريقة التي نختارها كما أنهما شاهدانه بطريقةتهما الخاصة . »

— « حسن . ما رأيك في أن نتفق على مكان نلتقى عنده بعد ساعة . لنتقابل عند تلك الـ « نيمة » التي تبيع المرطبات والتي تقع هناك وبذلك يسير كل منا في طريقه مستقلا عن الآخر ؟ وفي هذه الحال تتفرج أنت على ما يروقك وأفعل أنا نفس الشيء . »

ولم يتردد « كارليت » في قبول هذا الاقتراح وعلى ذلك افترقا فاتجه هو إلى حيث يشرب شيدان من البيرة أما « أرابيلا » فسارت في نفس الاتجاه الذي سار فيه « جود » و « شو » . وقبل أن تدركهما ، وجدت نفسها أمام وجه باسم ولم يكن سوى وجه « آني » رفيعة ضباها .

وانفجرت « آني » في نوبة من الضحك الصادر من القلب بمجرد إدراكها أن الصدفة وحدها هي المسبوبة عن هذه المقابلة . وحالما استعادت « آني » هدوءها قالت :

« لا أزال أسكن بالقرب من هذا المكان وسأزوج قريبا ولكن خطيبي لم يتمكن من الحضور إلى دنسا اليوم إذ جاء عدد كبير منا اليوم بقطار الرحلات وإن كنت فقدت الآن الاتصال بهم . »

— « هل قابلت « جود » ومعه صديقه الصغيرة أو زوجته أو مهما كانت قرابتها له ؟ كنت الآن بالقرب منهما . »

— « لا . لم أر أحدا منهما منذ سنين ! »

— « حسن . إنهما الآن في مكان لا يبعد كثيرا من هنا . نعم ها هما الآن ، لهما بالقرب من ذلك الحصان الرمادي . »

— « آوه . وهل هذه هي صديقه الحالية ؟ هل قلت زوجته ؟ وهل تزوج ثانية ؟ »



— « لا أدري ! »

— « إنها جميلة . أليس كذلك ! »

— « نعم . ليس بها ما يشير الشكوى أو يدعو إلى الغضب وإن كانت عاطلة عن الحسن إذ أنها نحيلة ضعيفة ولا تستقر على حال . »

— « وإنه حسن الطلعة هو الآخر ! كان ينبغي ألا تفرطى فيه يا « أرايلا » . »

غمغمت هذه تقول : « لا أدري شيئاً . »

وضحكت « آنى » وقالت : « هكذا أنت يا « أرايلا » ! دائماً تودين رجلاً غير رجلك . »

— « حسن . وهل من امرأة لا تود ذلك ؟ »

أما عن هذه المخلوقة التى تسير معه الآن فهى لا تعلم شيئاً عن حقيقة الحب — على الأقل ما أسميه حباً ! أستطيع أن أرى من وجهها أنها لا تعرف ،

— « ومن الجائز أيتها العزيزة أنك لا تعرفين شيئاً عما تسميه هى حباً . »

— « أنا على ثقة من أننى لا أرغب فى ذلك ! آه . إنهما يتجهان صوب مبنى الفنون . إننى أود أن أشاهد بعض الصور . ما رأيك فى أن نذهب إلى هناك ؟ يا الله . يخيل لى أن جميع سكان « وسكس » تجمعوا فى هذه البقعة . هالك الدكتور « فيلبرت » . إنى لم أره منذ سنين ويعبدو أنه لا يتقدم أبداً فى السن . كيف حالك أيها الطبيب « فيلبرت » ؟ كنت أقول لى لك لم تكبر عما كنت عندما عرفتك وأنا صغيرة . »

— « هذا بكل بساطة لأننى أتعاطى الدواء فى وعده . إن العلية منه لا تكلفنى أكثر من شلدين وثلاثة بنسات وكل غلبة ممورة بخاتم الحكومة ضمانها من التقايد . والآن دعينى أسدى لك هذه النصيحة ألا وهى أن تفعلى مثلى وتشتري ذلك الدواء الذى سوف يمنحك نفس الوقاية من آثار الزمن ؟ فقط شانمان ونصف . »

ومن جيب صدرته أخرج الطبيب علبة صغيرة ووجدت « أرابيلا » نفسها مدفوعة إلى شرائها .

وبعد أن دفعت الثمن أضاف الطبيب يقول : « في الوقت ذاته تأكدى أنك الراححة أيتها السيدة - طبعاً است السيدة » فالولى ، بل أنت الآنسة « دون » التى كانت يوماً من سكان « ميربحرين » ؟

— « نعم . ولكن اسمى الآن السيدة » كارتليت . »

— « آه . إذن لقد أضعته ؟ كان شاباً لامعاً ! وكان تلميذى كما تعلمين . وعلمته اللغات القديمة . وصدقينى لقد عرف فى فترة وجيزة قدر ما أعرف تقريباً . »

قالت « أرابيلا » فى اقتضاب : « فقدته » ، ولكن ليس بالطريقة التى تظننها . لقد حررنا المحامون . انظر إنه هناك وما زال مليئاً بالحياة والنشاط وها هو ذا يسير فى صحبة هذه الشابة وأصبحنا على أبواب معرض الفن . »

— « آه - ويحى ! إنه مغرم بها على ما يظهر . »

— « يقولان إنهما أقرباء . »

— « القرابة فى هذه الحال لا بد أن تصبح ستاراً مناسباً لعواطفهما . »

— « نعم هذا ما دار فى خلد زوجها دون شك عندما طلقها .... هل نلتقى نظرة على الصور أيضاً ؟ »

وسار هذا الثلاثى عبر الساحة الشعبية ودخلوا مبنى الفنون . أما « جود » و « سو » ومعهمما الغلام فكانوا قد وصاوا إلى نموذج موضوع عند طرف المبنى ووقفوا أمامه دون أن يدركوا ما أثاروه من اهتمام بهم ، وظلوا يرمقونه باهتمام عظيم لفترة طويلة قبل أن يغادروه . وبعدهم مباشرة وصلت « أرابيلا » ومعها رفيقةاها . وكان النموذج يحمل لافتة كتب عليها : « هذا النموذج يمثل كلية الكاردينال فى « كرايستمينيستتر » . قام بمنحته « ج . فالولى » و « س . ف . برايدميد » .

وقالت « أرابيلا » : « لقد كانا يمبران غن إعجابهما بما صنعا . ذلك خلق

« فاولى » تماماً فهو دائم التفكير فى الجامعة وفى « كرايستميستى » بدلا من الاهتمام بمعله ا . .

وظلت « أرابيلا » ورفيقاها يتطعمون بشغف إلى الصور ثم ساروا حتى وصاروا إلى حيث تعزف الفرقة الموسيقية . وبينما الجميع ينصتون إلى الموسيقى التى كان بعض العسكرين يعزفونها ، جاء « جود » و « سو » والطفل ووقفوا فى الناحية المقابلة . لم تهتم « أرابيلا » إذا كانوا قد تعزفوها ، ولكنهم كانوا بحياتهم فى شغل شاغل عنها فلم يلحظوها وهى مختفية وراء حجائها المارصع بالمارز . ومشيت خارج دائرة المستمعين ومرت خائف المحبين اللذين سحرتهم بشكل غير متوقع حركاتهما فى ذلك اليوم . وعندما تنحصتهما من الخلف بكل دقة لاحظت أن يد « جود » تقبض على يد « سو » والاثنان يقفان متلاصقين كى مخفيا - كما تصورا - هذا التعبير الصامت عن استجابتهم المتبادلة .

— « يا لها من أحقرين كطفلين » . بتلك الكلمات همست « أرابيلا » ثم راحت تلحق برفيقها وسارت فى صحبتها فى صمت بحيث بدا أنها مشغولة بأمر هام . وفى تلك الأثناء كانت « آنى » أبدت للطبيب على سبيل اندعابة ملاحظة تتعلق بتشوق « أرابيلا » لزوجها السابق .

قال الطبيب لأرابيلا وهو يسر فى أذنها : « هل تودين شيئا كهذا أيتها السيدة « كارتليت » ؟ إنه ليس مركبا وفقاً لدستور الأدوية العادى ، ولكن فى بعض الأحيان يطالب منى شيئا كهذا . ثم أخرج من جيبه قنينة بها سائل شفاف وقال : « هذه تحتوى على أكسير الحب وهو كذلك الذى كان القدماء يتعاطونه فيحصلون منه على أفضل النتائج . لقد توصلت إلى سر تركيبه بعد أن قرأت كثيرا من المناوطات القديمة ودرستها جيدا ولم يخب تأثيره مرة واحدة » .

وقالت « أرابيلا » فى فضول واضح : « ومم يتركب ؟ » .

— « حسن . لأنه يصنع من خلاصة مركزة مأخوذة من قلوب الحمام وفى حالة عدم وجود عدد كاف من هذه تستخدم قلوب الحمام ، وتلك الخلاصة ما هى

إلا إحدى المواد الداخلة في تركيب هذا الدواء . لقد احتججت إلى مائة قلب تقريباً لأحصل منها على ما يملأ هذه الزجاجية الصغيرة !

— وكيف تحصل على ما يكفيك من الحمام ؟

— سأطالعك على السر . لأنني أجيء بقطعة من الصخر الملحي الذي يحبه الحمام كثيراً وأضعها في برج فوق سطح منزلي فسرعان ما يجتمع حولها عدد كبير من الحمام القادم من كل الاتجاهات ، من الشرق والغرب والشمال والجنوب . بهذه الطريقة أحصل على العدد الذي أريد . أما طريقة استعمال هذا الدواء فهي أن تجعل الرجل الذي تحاو ابن الفوز بحبه يشرب عشر قطرات منه بعد أن تضعها له في شرابه . لا تنسى أنني لم أكن لأخبرك بكل هذا لو لم أشعر أنك تنوين الشراء حقاً ! ما رأيك ؟ هل تجعليني موضع ثقتك وتشترين ؟

— حسن للغاية . لا مانع عندي من أن أشتري زجاجة من هذا الدواء لأعطيها لصديقة كي تجربها مع من تحب ، وأخرجت « أرايلا » قطعة من ذات الشملات الخمسة وهو الثمن المطلوب ، ثم تناولت القنينة وخبأتها في صدرها الكبير . وبعد أن قالت إنها على موعد مع زوجها وقد حان وقت اللحاق به ، سارت في اتجاه المشرب الذي يبيع المربطات بينما كان « جود » ورفيقته والعلام ذهبوا جميعاً إلى القسم الخاص بالزهور وهناك تزودت منهم « أرايلا » بنظرة خاطفة وكانوا يقفون أمام مجموعة من الورود المتفتحة .

وظلت « أرايلا » ترقبهم لبضع دقائق ثم واصلت السير لتلاحق بزوجها وكانت في تلك اللحظة لا تحمل له أي ود . هناك وجدته يجلس على مقعد من مقاعد المشرب ويتحدث إلى إحدى الساقيات وكانت ترتدي ملابس زاهية وتقدم له المشروبات الكحولية .

وقالت « أرايلا » في حنق : « ألا يكفيك ما تنفسيه كل يوم من وقت يضيع في مثل هذا العمل ! إنك ما قطعت خمسين ميلاً تاركاً مشربك لتأتي إلى مشرب آخر . تعال . سر معي لتريني المعرض كما يفعل الأزواج مع زوجاتهم !

خسأت ! يظن المرء أنك ما زلت صـغيراً لم تتزوج بعد وليس لديك سوى  
نفسك ترعاها ! » .

— « ولكننا اتفقتنا على أن نتقابل هنا ولم يكن أمامي سوى أن أنتظرك ! »  
وعادت « أرايلا » تقول وهي تكاد تتشاجر مع أي شيء ، مع الشمس ذاتها  
لأنها تشرق عليها : « حسن . والآن تقابلنا فـهـيـا بنا . » وغادر الاثنان الخيمة :  
ذلك الرجل ذو الكرّش المستدير وتلك المرأة ذات الوجنتين المتوردتين وكان  
الرجل والمرأة يبدوان وقد تعكّر مزاجهما واضطربا من المشاكسة والتناحر  
اللذين أحاقا بهما كما يحرقان بأي زوج وزوجة .

وفي تلك الأثناء كان المحبان الضريان ومعهما الغلام ما زالا يتسكعان في قسم  
الزهور وكان بالنسبة لـذوقهما الرفيع المدرك للجمال والمقدر له ، يبدو قصراً  
خياليا مسحوراً . وكانت وجنتا « سو » الشاحبتان تعكسان اللون القرمي الذي  
أضفته الورود الحمراء عليها من كثرة النظر إليها . أما المناظر الهيمجة والهواء  
العليل والموسيقى الشعبية وما يبعثه الخروج في صحبة « جود » وقضاء يوم معه من  
سعادة تأخذ بمجامع القلوب ، كل هذه جعلت الدم يجري حاراً في عروقها وأفاض  
على عينيها بريق الحياة . لقد هوت الورود . وشهدت « أرايلا » « سو » وهي  
تحاول أن تستلقي « جود » في معرض الزهور أطول وقت ممكن بينما راحت تحفظ  
أسماء الورد أسماءاً كما راحت تقرب وجهها من أزهارها المتفتحة كي تستنشق  
عبرها الفواح .

وكانت تقول : « كم أود أن أدفن قلبي في قلب هذه الزهور العريزة . لكنني  
أعتقد أن لمسها مخالف للتعاليم . أليس كذلك يا جود ؟ » .

وقال « جود » : « هذا صحيح يا صغيرتي العريزة . ثم أخذ يدفعها بيده . بداعبها  
حتى كاد أنفها يلمس كئوس الأزهار » .

— « سيقبض علينا رجل الشرطة وحينئذ سأقول له إنني الذئب ذئب  
زوجي ! » .

ثم نظرت «سو» إلى «جود» وابتسمت بطريقة أدركت بها «أرابيلا»  
 الشيء الكثير عما يعتلج بينهما من حب . وغنم «جود» يقول :  
 «أسعيدة أنت ؟» .

وأومات برأسها .

— «ولم ؟ هل لأنك جئت إلى معرض «وسكس» الزراعى الكبير أم لأننا  
 جئنا سوياً ؟» .

— «لأنك تحاول دائماً أن تجعلنى أعترف بكل أنواع السخافات . لأننى سعيدة  
 طبعاً لأننى أرتفع بمستوى العقل عند ما أشاهد هذه المحاريث البخارية وتلك  
 الآلات الحديثة التى تقطع وتبذر وتحصد من تلقاء نفسها وكل هذه الآبقار  
 والخنازير والماشية ذات السلالات الممتازة» .

كان «جود» راضياً تماماً عن هذه المحاوره بينه وبين رفيقته المراوغة إلا أنه  
 عند ما بدا لها أنه نسى السؤال ولم يعد ينتظر منها جواباً استمرت تقول :  
 «أشعر وكأننا عدنا إلى مرجح الإغريق القدماء وأغلقتنا عيوننا فما عدنا نرى  
 الأحزان والأمراض ونسينا ما علمته للبشرية خمسة وعشرون قرناً . الواقع أنه ،  
 كما يقول أحد علماء «كرايستميست» ، اللامعين الأفذاذ : «ليس للإنسان إلا ظل  
 واحد فقط» . ونظرت «سو» إلى الطفل العجوز الذى عجزت هى و «جود»  
 عن إثارته على الرغم من اصطحابهما إياه ليرى كل ما يمكن أن يثير طفلاً فى مثل سنه .

أقد عرف ما كان يتحدثان عنه ويفسكان فيه . قال : «لأننى آسف غاية الأسف  
 يا أبى وأنت يا أمى ولستكنى أرجو ألا تهتما بى فليس لى فى هذا حيلة . كان لا بد  
 أن أحب هذه الزهور كثيراً جداً لو لم أظل طوال الوقت أفكر فى أنها تذوى  
 بعد أيام قليلة» .

## (٦)

ومنذ اليوم الذى تأجل فيه زواج «جود» من «سو» أخذ النسيان الذى كانا يعيشان فى غماره يتبدد وأزيمحت الأستار التى تخفى حياتهما عن أنظار الناس ، وأصبحت تلك الحياة موضوعا للحديث والنقاش يخوض فيه أناس غير «أرابيلاء» . لقد كان سكان شارع الربيع وما يحاوره من أحياء لا يفهمون ولا يحاولون أن يفهموا ما يدور برأس «جود» و «سو» من أفكار وعواطف ومواقف ومخاوف . ولم تكن الحقائق الغريبة التى دل عليها ظهور الطفل فى حياتهما ظهورا مفاجئا ، ومناداته لهما على اعتبار أنهما والداه وفشلهما فى زواج كانا ينويان عقده فى مكتب العقود حتى لا يدرى به أحد ، وما صحب ذلك من إشاعات عن قضايا مقامة فى المحاكم كل هذا لم يسكن له سوى معنى واحد بالنسبة لأوساط الناس .

كان أبو الزمان - وظل هذا اسمه الذى عرف به على الرغم من أنه اكتسب رسميا اسم «جود» - يعود من مدرسته فى مساء كل يوم فيردد ما يسمعه من زملائه الصغار من أسئلة وملاحظات مما أدخل الحزن والأسى على قلبى «جود» و «سو» .

والنتيجة أن «جود» و «سو» ، بعد المحاولة التى قاما بها فى مكتب التوثيق بوقت قصير ، سافرا - إلى لندن كما اعتقد الناس - لبضعة أيام واستأجرا شخصا ما للعناية بالصبي . وعندما عادا أعلننا بطريقة غير مباشرة تخلو من التعمد وبذل الجهد أنهما أخيرا تزوجا زواجا شرعيا . أما «سو» وكانت تدعى سابقا بالسيدة «براردهيد» ، فاطلقت على نفسها الآن اسم السيدة «فاولى» . ولقد أيد ذلك كل التأييد مسحة الاستسلام التى اتسم بها سلوكهما لبضعة أيام .

غير أن الخطأ الذى ارتكباه (وفقا لرأى الناس) بذهاهما سرا إلى لندن كى ينجزا مهمتهما ، ساعد على أن تحتفظ حياتهما بالمغموض الذى اتسمت به من قبل ، ووجدا أن علاقتهما بجيرانهما لم تتحسن كما كان متوقعا بعد عودتهما من

لندن ، بل أصبح الغموض الذى يعيشان فيه لا يقل إثارة لاهتمام الناس عن فضيحة عفا عليها الزمن .

وكان صبي الحجاز وصبي الجزائر يرفعان لسو قبعتيهما احتراماً كلما جاءا إلى بيتهما فى مهمة . أما الآن فلم يعودا يهتمان بإظهار ذلك الاحترام ، كما أن زوجات العمال كلما قابلنهما فى الطريق ظالن يتطلعن أمامهن حتى لا تلتقى عيونهن بعينيها .

لم يحاول أحد أن يسئ إليهما وهذا حتى إلا أن جواً كثيفاً بدأ يزحف على نفسيهما وخاصة عقب رحلتهما التى قاما بها إلى المعرض وكان هذه الزيارة قد جلبت عليهما شراً مستطيراً . كانت طبيعتهما من النوع الذى يتأثر مثل هذا الجو السائد حولهما ووجدوا فى نفسيهما ميلاً للعمل على التحفيف منه وذلك بأن يبدلا بأقوال صريحة قوية . غير أن محاولتهما لإصلاح الأمور جاءت متأخرة بحيث لم تجد شيئاً .

ولقد كف الناس الآن عن أن يطلبوا منهما إقامة نصب أو وضع مرثيات شعرية وبعد مرور شهر أو شهرين — وكان الخريف قد حل — أدرك « جود » أن عليه أن يعود مرة ثانية إلى مزاوله الأعمال التى تتطلب منه التجوال وهى لون من الأعمال التى لا ينجح فيها كثيراً وخاصة فى ذلك الوقت بالذات لأنها لا تفي بالديون التى تراكت عليه بسبب تكاليف القضايا التى رفعها فى العام السابق .

وذات مساء ، جلس يشارك « سو » والصبي الطعام كالمعتاد . قال : « أفكر فى ألا أبقى هنا أكثر من ذلك . الحياة هنا تناسبنا ولا شك ولكننا لو ذهبنا إلى حيث لا يعرفنا أحد فسنشعر بالراحة وتتاح لنا فرص أفضل . على هذا لا بد من أن ننتهى لإقامتنا هنا ، على ما فى ذلك من إزعاج لك أيتها العزيزة المسكينة ! » . وكانت تتأثر دائماً كلما تخيلت نفسها موضع إشفاق من الآخرين وحزنت .

لم تلبث أن قالت : « حسن . است آسفة . تحزننى كثيراً الطريقة التى ينظر إلى الناس بها هنا . لى تكلفت الكثير من جراء كراه هذا البيت وتأثيره من أجلى



ومن أجل الصبي ، وإنك لا تريده لنفسك وعلى ذلك فالنفقات لا لزوم لها .  
ولكن أيها العزيز «جود» مهما تفعل وأيان نذهب فلن أدعك تنزع الطفل مني .  
فإني الآن عاجزة عن تركه ! والسحابة التي تكسو ذهنه الصغير تجعله لدرجة كبيرة  
مثارا لعطفي ، وأرجو أن أزيلها يوما . إنه يحبني كثيراً فلن تأخذه مني ،  
أليس كذلك ؟ .

— « بكل تأكيد إن أفعل يا فتاتي الصغيرة العزيزة . سوف نحصل على سكن  
جميل أينما ذهبنا . من الجائز أن نتنقل كثيراً وأعمل في مكان ثم أتركه إلى  
مكان آخر ، .

— « سأقوم أنا الأخرى بعمل شيء ، دون شك وذلك حتى — حتى —  
حسن . الآن لا يمكنني أن أكون نافعة في النقش على الشواهد وواجبي أن أحاول  
عملاً آخر ، . قال في حزن : « لا تتمجلى في البحث عن عمل فأنا لا أريدك أن تفعل  
ذلك . ليتك لا تفعل يا «سو» يكفيك أن تهتم بالصبي وبه نفسك ، . وجاء  
طرق على الباب وقام «جود» ليرى من الطارق واستطاعت «سو» أن تسمع  
الحديث التالي : هل السيد «فاولي» في البيت ؟ إن المقاولين المعمارين  
«بايلز وويليز» يودان أن يعرفوا ما إذا كان يمكنه أن يعيد كتابة الوصايا العشر  
في كنيسة صغيرة بتوليان تجديدها وتقع في الريف المجاور .  
فذكر «جود» ثم قال إنه يمكنه القيام بهذا العمل . واستمر الرسول يقول :  
« ليست هذه بالمهمة الفنية على أية حال فقسيس الكنيسة رجل محافظ وهو يرفض  
إدخال أى تجديد على الكنيسة خلاف التنظيف والترميم ، .

تمت «سو» ، وكانت ممن يعارضون بشدة ما يجلبه التجديد الكامل الشامل  
من أضرار : «يا له من عجوز رائع ، .

واستمر الرسول يقول : « لقد أصلحت الوصايا العشر من طرفها الشرقي أما  
بقية الحائط فلم يمس إذ أنه لا يسمح للمقاول بالاقتراب منها والحفر فيها بالطريقة  
المتبعة ، .

واتفق الاثنان على شروط العمل وبعدها عاد « جود » إلى الداخل وقال في مسرح: « هاك انظري - لدينا عمل جديد ، وإنه اعمل على أى حال وفي استطاعتك أن تعاونى فيه - أخيرا فى استطاعتك أن تجربى . ستكون الكنيسة لنا وحدنا حيث أن بقية الأعمال أنجزت » .

وفى اليوم التالى خرج « جود » إلى الكنيسة ولم تكن تبعد أكثر من ميلين . فوجد أن ما قاله رسول المقاول صحيح فالواح القانون اليهودى توارى سمو ووقار وهامة قدس الأقداس تشكل الحليمة الأساسية اطراف المذبح وتندمج فيه بالأسلوب الدقيق الذى ساد فن البناء فى القرن الماضى . ولما كان إطار هذه الألواح صنع من مصيص قصود به الزخرف أصبح من غير الميسور إنزالها لترميمها . انهار جزء من هذه الألواح من الرطوبة فاحتاج إلى التجديد . وعندما فرغ « جود » من ذلك وانتهى من تنظيف اللوح كله بدأ يحدد الحروف المتآكلة . وفى الصباح التالى جاءت « سو » ترى ما يمكنها أن تقدمه على سبيل المساعدة ، وأيضا لأنها أحبا أن يكونا سويا .

لقد أعطاها سكون المبنى وفراغه الثقة فشرعت تلون حروف اللوحة الأولى بعد أن اعتلت منصة ثابتة واطئة كان « جود » قد أقامها . ورغم ثباتها صعدت « سو » إليها فى وجل - أما هو فشرع يرمم جزءا من اللوحة الثانية . وكانت راضية جداً عن قدرتها ، تلك التى اكتسبتها أيام كانت تكتب الآيات وتلونها لمحل العاديات الكنسية فى « كرايستمينيستر » . لم يكن هناك احتمال فى أن شخصا ما يمكن أن يقتحم وحدتهما ، واختلط حديثهما بزقزقة الطيور وحفيف أغصان أكتوبر من خلال نافذة مفتوحة .

ومع ذلك ، لم يترك الاثنان هكذا آمنين مطمئنين لفترة طويلة . لحوالى الساعة الثانية عشرة والنصف سمعا وقع أقدام على الحصى الخارجى . بعده دخل الكاهن العجوز وأمين الكنيسة ، وعندما تقدما ليريا ما أنجز بانت عليهما الدهشة لاكتشافهما أن ثمة شابة تعاون فى العمل . لقد سارا حتى انتهيا إلى جناح

من أجنحة الكنيسة ، وفي تلك اللحظة فتح الباب ثانية ودخل آخر — وكان ضئيلا هذه المرة وكان أبو الزمان يبكي .

كانت «سو» قد أخبرته أين يستطيع أن يجدها أثناء ساعات اليوم المدرسى .  
وهنا نزلت من مكانها العالى وقالت : « ماذا جرى يا عزيزى ؟ » .

— « لم أستطع أن أبقى لأتناول غدائى فى المدرسة لأنهم قالوا ... » ووصف كيف أن بعض الأولاد كانوا يعبرونه بالحديث عن أمه المزعومة فخرت «سو» وراحت إلى «جود» ساخطة . خرج الصبى إلى فناء الكنيسة وعادت «سو» إلى عملها . فى نفس الوقت فتح الباب ثانية ودخلت السيدة ذات المريلة البيضاء والننى تتولى تنظيف الكنيسة وعلى وجهها أمارات الجاد . لقد تعرفت فيها «سو» واحدة لها أصدقاء فى شارع الربيع وتزوره . ونظرت منظر الكنيسة إلى «سو» وفقرت فاتها ورفعت يديها ، فن الواضح أنها تعرفت على رفيقة «جود» كما تعرفت عليها هذه الأخيرة . بعد ذلك جاءت سيدتان وبعد أن تحدثتا إلى الخادمة سارتا هما أيضا وراغبتهما يد «سو» وهى تمر بفرشاتها فوق الحروف واستمرتتا تراقبانهما فى تحد وهما متكئتان على الجائط الأبيض حتى اضطربت وارتعشت بشكل واضح .

وذهبتا إلى المؤخرة حيث وقف الآخرون يتحدثون فى زهرات خفيضة وقالت لأحدهن ولم تقبين «سو» أيهما — «إنها زوجته على ما أظن ؟»

وجاء الجواب من الخادمة : « يقول البعض نعم ، والبعض لا ... »

— « تقولين لا ؟ ولكن ينبغى أن تكون ، أو تكون زوجة شخص ما ذلك يبدو واضحا ! »

-- « هذا أو ذاك ، لم يمض على زواجهما إلا أسابيع قليلة للغاية . »

-- « زوج من الناس عجيب ذلك الذى يلون اللوحتين ! ما أعجب أن يفكر «بايلز وويليز» فى شيء ككراه هذين الشخصين ! »

وافترض الوكيل أن « بايلز وويليز » لم يعلما بأن ثمة شيئاً يسمى . وبعدها فسرت إحدى السيدتين ما قصده عندما قالت عنهما إنهما يتدسجان بالغرابية .

أما الاتجاه المحتمل للحديث المكتوم الذى جاء بعد ذلك فأتضح معالمه عندما شرع الوكيل يتحدث عن واقعة خاصة وكان حديثه فى نبرة استطاع كل الموجودين فى الكنيسة أن يسمعوها ، وإن كان من الواضح أن القصة أوحى بها الموقف :

« حسن . والآن . إنه لشيء عجيب ، ولكن سبق أن قص على جدى قصة غريبة عن واقعة تنافى الأخلاق حدثت عندما كانت الوصايا العشر ، تظلى بالألوان فى كنيسة خارج هذه البلدة بالقرب من « جايميد » التى يمكن الوصول إليها من هنا سيرا على الأقدام . كانت الوصايا العشر فى تلك الأيام تظلى بحروف موشاة بالذهب فوق أرضية سوداء . وتلك كانت الطريقة قبل أن أعيد إصلاح تلك الكنيسة التى أتحدث عنها . لا بد أن ذلك حدث منذ أعوام بلغت المائة إذ أن الوصايا احتاجت إلى الإصلاح ، كما هو الحال فى كنيستنا هذه ، وكان عليهم حينذاك أن يستخدموا بعض الرجال من « ألدبركهام » ليقوموا بهذه المهمة . وأراد المقاولان فى ذلك الحين أن يتما العملية قبل يوم أحد معين فاستمر الرجال يعملون حتى ساعة متأخرة من مساء السبت السابق على الأحد . ولم تكن تلك رغبتهم إذ أنهم ما كانوا يتقاضون أجرا عن ساعات العمل الإضافية كما هو الحال الآن .

وفى ذلك الوقت لم يكن الناس يعرفون الدين بمعناه الصحيح ، لا البناءون منهم ولا الكتبة ولا غيرهم من سائر الشعب ، وكان على القسيس ، الذى يبحث الرجال على الاستمرار فى العمل ، أن يمنحهم شراباً كثيراً أثناء فترة ما بعد الظهيرة فإذا حل المساء أخذ الرجال يرسلون فى شراء كميات أخرى من الشراب ويفضلون الأنواع ذات التأثير القوى . كان الوقت يمضى بهم والليل يتقدم وهم يفرطون فى الشراب حتى بلغ بهم الأمر أن وضعوا الزجاجات والأتداح فوق مائدة التقديم داخل الهيكل وجلس الجميع فى حلقة يرحون وظلوا يملأون أقدماحهم ويشربون . وتقول القصة إنهم ما كادوا يتبادلون الأنخاب حتى سقطوا جميعاً

فأقضى الوعى . لم يدر أحد منهم كم ظلوا على تلك الحال ولكنهم عندما أفاقوا كانت هناك عاصفة عاتية تهب ورأوا فى ظلام الليل شبحاً قائماً له ساقان رفيفتان ، ومشعوذا يقف على السلم الخشبي وينجز لهم ما تبقى من أعمالهم . وعندما أدركهم النهار استطاعوا أن يروا أن العمل تم بالفعل وما كانوا ليمتنعوا أبداً عن إنجازه . عندئذ عادوا إلى بيوتهم وما سمعوه بعد ذلك مباشرة كان عن فضيحة كبيرة وقعت فى الكنيسة فى صباح ذلك الأحد ، إذ عند ما جاء الناس وبدأت الصلاة شاهد الجميع الوصايا العشر وقد حذفت من كل وصية منها « لا ، الناهية . أما القوم الطيبون فامتنعوا عن حضور القداس هناك لفترة طويلة وكان لابد من إحضار الأسقف ليعيد تدشين الكنيسة . تلك هى القصة كما اعتدت أن أسمعها عندما كنت طفلاً . لابد أن تمنحوها ما تستحق من أهمية ولكن هذه القصة اليوم ذكرتني بها كما قلت . »

وألقى الزوار نظرة أخيرة كما لو كانوا يتأكدون إذا ما كان « جود » و « سو » هما الآخران قد حذفا « لا » وبعدها خرج الجميع من الكنيسة متفرقين . حتى المرأة العجوز خرجت آخر الجميع . أما « جود » و « سو » اللذان لم يتوقفا عن العمل فأعادا الطفل إلى مدرسته وظللا بلا كلام حتى اكتشف « جود » عندما نظر إلى رفيقته فى إمعان أنها نيكى فى صمت .

قال : « لا عليك أيتها الزميلة . إنى أعرف كنه ذلك . »

— « لا أحتمل أن يظن هؤلاء وغيرهم أن الناس يصهبون أشراراً لمجرد أنهم يفضلون العيش بطريقةهم . هذه الآراء فى الواقع هى التى تحول أفضل الناس طوية إلى مستهترين ويصهبون فى واقع الأمر لا خلاق لهم . »

— « إياك وفقدان الشجاعة ! لم تكن هذه سوى قصة فكاكية . »

— « آه . ولكننا أوحينا له بها ! أخشى أن أكون أسأت إليك بمجيئى إلى هنا بدلا من أن أساعدك ! . »

لم تكن فكرة كونهما مصدر الإيحاء فى تلك القصة من الأمور المقبولة فى

موقف كموقفهما . ومع ذلك ، لم يمتز وقت طويل حتى رأت أن موقفهما ذلك الصباح كانت له ناحيته الساخرة فمسحت دموعها وراحت تضحك .

قالت « سو » : « ومع ذلك ، فن المضحك حقاً أن نقوم نحن الاثنان من دون الناس جميعاً بطلاء الوصايا العشر . أنت المرتد عن الكنيسة وأنا ، ما أنا عليه من وضع ماذا أقول عنه .... يا الله » .

ثم وضعت كفها على عينيها ثانية وأخذت تضحك ضحكا صامتا متقطعا حتى أصبحت واهنة تماما .

قال « جود » في خفة : « هذا أفضل . ها قد عدنا إلى صوابنا ثانية . أليس كذلك يا صغيرتي ؟ » .

وتنهدت « سو » بينما مدت يدها لتناول الفرشاة واعتدلت في جليستها وهي تقول : « أوه ، ولكن الموقف خطير : على أى حال . ولكن ألا ترى كيف أنهم يعتقدون أننا غير متزوجين ؟ إنهم يرفضون أن يصدقوا ذلك . إنه أمر غير عادي » .

قال « جود » : « لا يهمني سواء اعتقدوا ذلك أم لا . لن أبذل جهداً أكبر » .

وجلسا للغداء ، وكانا قد أحضرا طعامهما حتى لا يضيعان وقتاً . وبعد أن فرغا منه وأوشكا على استئناف العمل من جديد ، جاء إلى الكنيسة في تلك اللحظة رجل عرفه « جود » فلم يكن سوى المقاتل « ويليز » الذي أوما برأسه لجود وانتحى معه جانبا ليمتحدث إليه . لقد بدأ المقاتل الحديث وكان يشعر بالخرج لدرجة جعلته يتنفس في صعوبة وقال : « الآن لقد وصلتني شكوى بشأنك . لا أود أن أتعرق في المسألة إذ أنني دون شك لم أكن أدرى بما هناك ولكنني سأطلب منك لسوء الحظ أن تترك العمل إذ أنني سأكف غيرك بإنجازه . من الأفضل أن يتجنب المرء كل ما من شأنه أن يجلب عليه المضايقات ومع ذلك فسأدفع لك أجر أسبوع » .

وكان « جود » من الثبات بحيث لم يثر أية ضجة ، ولقد نقده المفاول أجرد ورحل وبعدها جمع « جود » أدواته ومسحت « سو » فرشاتها وأخيرا تقابلت عيونهما .

قالت وقد عادت إليها نغمتها الحزينة : « كم كنا من السداجة بحيث اعتقدنا أنه باستطاعتنا أن نقوم بهذا العمل ! طبعاً ما كان يجدر بنا - كان ينبغي ألا - آتى ا ،

قال « جود » : « لم يدر بخلدى أن أحدا يأتى هنا ويرانا معا ! لم يكن هناك مفر لما حدث أيتها العزيزة ولا أود بالطبع أن أسىء إلى المفاول بإصرارى على البقاء . » وجلس الاثنان بلا كلام لبضع دقائق وبعدها خرجا من الكنيسة . وعندما بلغا الصبي ، استأنف ثلاثتهم سيرهم الصامت إلى « الدبركهام » .

وكان « فاوى » مازال على شىء من التحمس للدعاية لحق الناس فى التعليم . وبالنظر إلى سابق خبرته فى ذلك الميدان، بذل جهودا كبيرة للدعوة إلى مبدأ « تكافؤ الفرص » ولجأ إلى أية طريقة ميسرة له مهما كانت بسيطة . كان قد التحق عضواً بجمعية تستهدف تحسين أحوال العمال . وأنشئت حوالى الوقت الذى وصل فيه إلى البلدة ولما كان أعضاؤها شباناً من كافة المذاهب والنحل فمنهم أتباع الكنائس التقليدية، وأنصار المبدأ القائل بتكامل الكنيسة مع شعبها ، والمعمدانىون ، والقائلون باندماج الأقاليم الثلاثة ، وأتباع الفلسفة اليقينية ، وغيرهم - ولم تكن طائفة الشكوكيين قد سمع عنها فى هذا الوقت - ورغبتهم الوحيدة المشتركة تطوير عقولهم بتكوين رابطة قوية تلم شملهم . لقد كان الاشتراك المالى زهيداً والمكان مريحاً ، كما كان نشاط « جود » وصفاته الممتازة ، وخاصة ما عرف عنه من القدرة على اختيار الكتب والإفادة منها ، وقد أوجدتها لديه الأعوام التى عاشها فى نضال مع سوء الطالع - عاملاً أرتقى به إلى صفوف الهيئة المشرفة على الرابطة .

وعقب طرده من أعمال الترميم فى الكنيسة بأسميات قليلة ، وقبل حصوله على أى عمل آخر ، توجه لحضور اجتماع الهيئة سابقه الذكر وكان الوقت متأخراً

والجميع هناك . وبينما يسير أمامهم رمقوه بنظرة فيها ارتباب ولم يحبوا مقدمه بكلمة فأدرك أن شيئاً له صلة به كان إما موضع بحث أو موضع نقاش . واتجه حديث المجتمعين إلى بعض الأمور العادية وأعان أن عدد المشتركين نقص فجأة . ونهض أحد الأعضاء . وكان حين النية حقاً ومستقيم الطوية - وبدأ يسرد ألقاها عن أسباب ذلك كما ذكر أنه يجدر بهم أن يتمنعوا في دستورهم لأنه إذا لم تكن الهيئة محترمة وإذا لم يكن الأعضاء في خلافاتهم على الأقل ، على مستوى أخلاقي معين فلا بد أن يهبطوا بالجماعة كلها إلى الحضيض . لم يقل أحد في حضور «جود» أكثر من ذلك ، ولكنه أدرك المقصود من هذا فابجبه نحو المائدة وكتب في الحال استقالته . هكذا أصبح الشخصان المخرقان في الحساسية مرغمين شيئاً فشيئاً على الرحيل . ثم بدأت الديون تنراكم وأخذنا يقسم لان عما يمكن لجود أن يفعل بالاثاث خالته القديم الثقيل لو قدر له أن يترك البلدة إلى مكان آخر بعيد ؟ لقد دفعه ذلك ، كما دفعته حاجته للبال ، إلى إقامة مزاد وإن كان يفضل كثيراً ألا يفرط في الاثاث العزيز على نفسه .

وجاء يوم البيع ولآخر مرة أعدت « سو » الفطور لنفسها ولجود وللطفل في مطبخ المنزل الذي كان « جسود » أسسه بماله . وتصادف أن كان اليوم عطيرا والأكثر من ذلك أن أحست « سو » بوعكة .

ولما كانت غير راغبة في ترك « جود » المسكين في مثل تلك الظروف المحزنة إذ كان مضطرا إلى البقاء قليلا ، لذا نفذت اقتراحا تقدم به وسيط البيع وهو أن تأوى إلى حجرة بالدور العاوى أخليت من أثاثها وبذلك منع المزايدون من دخولها . هنا عثر عليها « جود » ومعها الطفل وحقايبهم القليلة وسلاحهم وحرهم ومقعدان ومنضدة ولم تكن هذه لتعرض في المزاد ، وجلس الاثنان يتحدثان ويتفكران .

وبدأ وقع الأقدام يسمع على السلم العاوى صعودا وهبوطا وكان الفادون يفحصون قطع الاثاث التي كان بعضها نديما أنريا فاكسب قيمة فنية مؤقته .



وحاول المشترون مرة أو مرتين أن يفتحوا باب الحجرة . ولكي يحمي « جود » نفسه من الفضوليين كتب كلمة « خاص » على رقعة من الورق وثبتها على الباب .

ولم يلبث الاثنان حتى وجدا أن زبائن المزداء جاءوا بحثا وراء تاريخهما الشخصى وأسلوب حياتهما القديم بدلا من شراء الأثاث ، وبدأوا يخوضون فى تلك الموضوعات إلى حد غير متوقع ولا يحتمل . وحتى تلك اللحظة لم يكن « جود » و « سو » اكتشفوا حقيقة الفردوس الذى عاشا فيه أخيرا دون وعى منهما ! وفى صمت تناولات « سو » يد رفيقها ونظر كل منهما إلى الآخر بينما طرقت أسماعهما بعض الملاحظات العابرة وكانت شخصية أبى الزمان بما فيها من غرابة وغموض مادة خصبة للتلميح والتعريض من جانب المشتريين . وأخيرا بدأ البيع فى الحجرة السفلية واستطاع الاثنان أن يسمعا الدلال وهو يبيع كل قطعة معروفة لديهما . ولقد كانت القطع الممتازة فى بعض الأحيان تباع بأثمان بخسة فى حين بيعت العادية بثمن غير متوقع .

وتنهى فى ثقل وقال : « الناس لا يفهمونا وإننى سعيد إذ قررنا الرحيل . »

— « السؤال إلى أين ؟ »

— « إلى لندن . هناك يمكن لله أن يعيش كما يهوى . »

— « لا... ليس لندن يا عزيزى . إنى أعرفها جيدا . سنكون غير سعديين هناك . »

— « ولماذا ؟ »

— « ألا يمكنك أن تقبأ ؟ »

— « هل لأن « أرابيلا » هناك ؟ »

— « ذلك هو السبب الأساسى . »

— « ولكن في الربف سأكون دائماً قلقاً لئلا يصادفنا ما صادفناه أخيراً .  
ولإني لا أنوي أن أقلل من وقع التجربة بالشرح لشيء واحد يتلخص في قصة  
الغلام . فإسكى أعزله عن ماضيه صممت أن ألزم الصمت . وإني الآن برمت بترميم  
الكنائس ولا أود أن أقبل هذا العمل لو عرض علي . »

— « ليتك تعلمت الكلاسيكي القوطي فنهمجي على أى حال . كان  
« بيوجين » مخطئاً و« رين » محقاً . تذكر الشكل الداخلى لكاتدرائية  
« كرايستمنيستر » ، المكان الأول تقريباً الذى فيه نظر كل منا في وجه الآخر .  
إن تحت الجمال الكامن في تلك التفاصيل النورماندية يستطيع المرء أن يرى  
تفاهة أولئك المتوحشين غلاظ الأكباد ، وهم يحاولون تقليد النماذج الرومانية  
المندثرة معتمدين فقط على قدر ضئيل من التقاليد الغامضة . »

— « نعم . كدت تحولينى إلى ذلك الرأى بما قلتىه من قبل . ولكن في وسع  
المرء أن يعمل ، وفي وسعه أن يحتقر ما يعمله الآخرون . لابد أن أعمل شيئاً  
قوطياً كان أو كلاسيكياً . »

قالت وهى تهتم في قلق : « ليتنا نستطيع نحن الاثنين أن نجد وظيفة ليس  
للسلوك الشخصى دخل فيها . إني لست مؤهلة للتدريس كما أنك لست مؤهلة للمعمار  
السكنى . عليك إذن أن تتخصص في بناء محطات السكك الحديدية والجسور  
والمسارح وقاعات الرقص والغناء والفنادق وكل شيء لا يمت للدين بصلة . »

— « إني لست بارعاً في ذلك . . . . ليتنى أعود خبازاً ! لقد نشأت في  
رحاب هذه المهنة مع خالتي كما تعلمين . غير أنه ، حتى الخباز لابد أن يكون  
تقليدياً حتى يصبح له زبائن . »

— « لابد أن تكون له مقصورة للسكك وخبز الجنزبيل يستخدمها في  
الأسواق والمعارض حيث يمكن التساهل في أى شيء . إلا صنف البضاعة . »

وتحول مجرى أفكارهما عندما سمعا الدلال يقول : « والآن انظروا إلى هذا

المقعد الأثرى المصنوع من خشب البلوط . إنه نموذج لامثيل له للأثاث الانجليزى القديم وهو جدير باهتمام جميع الباحثين عن التحف النادرة .

قال « جود » : « كان هذا يخص جدى الأكبر . لبتنا استطعنا أن نحفظ بهذا للشيء العتيق ا . »

وواحدة بعد أخرى بيعت القطع وانتهى اليوم . أما « جود » والاثان الآخران فقد شعروا بالتعب والجوع ، ولكن بعد الحديث الذى سمعوه ، خجلوا من الخروج بينما المشترون يتهاونون لترك البيت . وعلى الرغم من ذلك ، ظل الدلال منشغلا ببيع القطع الأخيرة وأصبح من الضرورى أن يسرع الثلاثة بالخروج رغم المطر لينقلوا متاع « سو » إلى سكنهم المؤقت .

— « والآن إلى الصفحة التالية : « زوجان من الحمام ، كلها حيوية وسمنة - تصلح فطيرة لذيذة لغداء الأحد القادم » .

كانت فترة الترقب التى صاحبت بيع هذه الطيور من أشق الفترات التى مرت بسو إذ كانت شديدة التعلق بها وعندما أدركت أنها لن تتمكن من الاحتفاظ بهذه الحمامات حزنت لفراقها أكثر مما حزنت لبيع الأثاث كله . وحاولت أن تمنع دموعها من السقوط عندما سمعت الثمن التافه الذى قدره المشترون للحمامات العزيزات ، وعندما رأت كيف يرتفع الثمن قليلا قليلا ثم يرسو الشراء على أحد المزايدين . كان الشارى تاجر طيور بمحل قريب فكان بما لا يقبل الشك أن تلك الحمامات قدر عليها الموت قبل حلول يوم السوق التالى .

وعندما لاحظ « جود » حزن « سو » الشديد على الحمامات ، قبالها وقال إنه لا بد أن يتوجه إلى السكن الجديد ليرى ما إذا كان معدا لاستقبالها . كان يمكن أن يذهب مع الغلام ثم يرسل فى استدعائها حالا . وعندما تركت بمفردها انتظرت صابرة ولكن « جود » لم يعد . أخيرا خرجت وكان الطريق خاليا ، وعندما مرت ببائع الطيور الذى لم يكن يبعد كثيرا عن منزلها القديم ، شاهدت حماماتها

في سلة لها عطاء بقرب باب المتجر . فدومتها عاطفتها حينئذ إلى أن تتصرف وفقاً لما أوعت به طبيعتها ، وساعدها على ذلك حاول الظلام إذ أن المساء جاء فتلفتت حولها بسرعة ونزعت الوتد الذي يربط الغطاء ثم سارت . وعندما رفع الغطاء طارت الحمامات بعد أن أحدثت جلبة قدم بائع الطيور على أثرها وأخذ يسب ويلعن .

وصلت « سو » إلى المكان الجديد وهي ترتعش فوجدت « جود » والصبي يعدانه حتى يصير مريحاً فقالت وقد تلاحت أنفاسها : « هل يدفع الشارون الثمن قبل تسلم البضاعة ؟ » .

— « نعم . أعتقد ذلك ولكن لم تسألين ؟ » .

— « لأنني ... لأنني أنيت عملاً شائناً » .

وراحت تشرح له ما حدث وهي تشعر بالندم على ما فعلت .

قال « جود » : « لا بد أن أدفع الثمن للبائع إذا لم يتمكن من الإمساك بها ولكن لا تقلني يا عزيزتي » .

— « كان من الحماقة أن أفعل ذلك . أوه ، ولكن لم يكون القتل والذبح هو القانون السائد في الطبيعة ؟ » .

وأجاب الصبي في اهتمام بالغ : « وهل الأمر كذلك يا أمي ؟ » .

وأجابته « سو » في حماسة وقوة : « نعم ! » .

وقال « جود » : « على الحمامات أن تنال فرصتها الآن وحالما نسوى حساباتنا بعد البيع وندفع ديوننا سنرحل من هنا » .

قال أبو الزمان في قلبي واضح : « وإلى أين ؟ » .

— « لا بد أن نخفي وجهتنا عن الناس فـكون كالسفينة التي تبهر ولا يسمح لربانها بقراءة تعليمات الإبحار إلا في عرض البحر ! غير أنه يجب أن نتجنب

الذهاب إلى « الفردستون » أو « ميلشستر » أو « شاستون » أو « كرايستمينستر » .  
أما فيما عدا ذلك فلنا أن نذهب حيثما نريد .

— « ولم لا نذهب إلى هذه الأماكن يا أبي ؟ » .

— « بسبب سحابة تجمعت واستقرت فوق رؤوسنا على الرغم من أننا لم نرتكب خطأ » في حق إنسان ، ولم نسيء إلى إنسان ، ولم نخش إنساناً ، هذا وإن كنا قد فعلنا ما اعتقدنا أنه الحق .

### ( ٧ )

من ذلك الأسبوع لم يتجول « جود فاولي » و « سو » في بسلامة  
« الدبركهام » .

لم يعلم أحد بالمكان الذي ذهبا إليه ويعود ذلك في المقام الأول إلى أن أحداً  
لم يهتم بذلك . لقد كان من السهل على أي فرد لديه شيء من حب الاستطلاع أن  
يقتفي أثر هذين الشخصين الغامضين ويكتشف دون كبير مشقة أنهما استخدما المهارة  
اليدوية الممتازة التي يتمتع بها « جود » كي يعيشا حياة متغيرة تعتمد على الأسفار  
والتنقل . ولم تكن مثل هذه الحياة لتخلو من المتعة لفترة من الزمن .

وكما سمع « جود » عن مكان يحتاج أهله إلى نحات يستطيع النحت على الحجر  
الجيري أو الرمل ذهب إليه رأساً ، وهو في ذلك بفضل الأماكن التي تبعد كثيراً  
عن تلك التي كنتم فيها عوازل الإزعاج له واسو . وكان من عادته أن يجهد ويجهد  
في كل عمل يسند إليه ، سواء طال وقته أو قصر ، وبظل هكذا إلى أن يتممه  
وبعدها يرحل .

هكذا مر عامان ونصف على التمام . في بعض الأحيان كان يرى وهو يقيم  
دعائم النوافذ ذات التقسيمات الرأسية في قصر من قصور الريف ، أو يبني حاجزاً  
صخرياً أمام قاعة إحدى البلديات ، أو يكسو بالأحجار واجهة أحد الفنادق في  
« ساندبورن » ، أو يقيم متحفاً في « كاستربريدج » . وفي أحيان أخرى كان يرى

وقد ذهب بعيدا إلى « أوكسينبريدج » ، أو حتى إلى « ستوك بيرهيلز » . وفي الأوقات التي تلت ذلك ذهب إلى « كينيتبريدج » ، وهي مدينة مزدهرة بالأعمال لا تبعد أكثر من اثني عشر ميلا إلى الجنوب من « ميريجرين » ، حيث عرفه أهلها جيدا وهذا أقصى ما ذهب إليه أثناء اقترابه من قريته : إذ لحساسيةته الشديدة تحاشى العمل في الأماكن حيث من المحتمل أن توجه إليه أسئلة عن حياته ومستقبله من قبل أناس عرفهم في شبابه الذي كان ممتلئا حماسة وطموحا ، وأيام حياته الزوجية القصيرة المتعسة .

في بعض هذه الأماكن كان لا بد أن يبقى شهورا ، وفي بعضها الآخر أسابيع قليلة فقط . وإن كراهيته العجيبة المفاجئة لأعمال المعمار الكندي -- مهما كان مذهب الكنيسة التي تجري هذه فيها -- تلك التي نشأت من شعوره بأن الناس لا يفهمونه فقد لازمته بكل قوة ، ولم يكن مبعثا خوفا من تأنيب الناس له بقدر إفراط في الحساسية أقعده عن طلب الرزق لدى قوم يستهجنون طرائقه : وكذلك شعوره بالتناقض الواضح بين معتقداته السابقة وسلوكه الحالي . وما من ظل للمعتقدات التي حملها معه عند ما ذهب إلى « كرايستمينيستر » لأول مرة بقى معه الآن . كانت حالته العقلية تقترب من تلك التي كانت عليها « سو » عند ما قابلها لأول مرة .

وفي أمسية سبت من مايو ، بعد رؤية « أرابيلا » لها في المعرض الزراعي بما يقرب من ثلاث سنوات ، تقابل مرة أخرى مع بعض الذين كانوا هناك .

وفي « كينيتبريدج » كان معرض الربيع ، ومع أن تلك السوق القديمة تضاعفت مساحتها كثيرا عما كانت في الأزمان السابقة ، إلا أن الشارع الطويل المستقيم للبلدة بدا عند الظهيرة منظرا جذابا . في تلك الساعة جاءت إلى المدينة مختربة طريقها الشمالي -- من بين غيرها من العربات -- عربة صغيرة ولم تلبث أن توقفت أمام باب فندق خاص . ومن العربة نزلت سيدتان الأولى ، وهي السائقة ، كانت عادية من أهل الريف ، والثانية معتدلة القوام تتشج بالسواد الكامل الدال على أنها

أرملة . كان رداؤها الأسود أنيقا في حبيكته فبدأت بذلك غريبة المظهر قليلا وسط ما أحاط بها من هرج ومرج مألوفين في معرض ريفي .

قالت الأرملة لرفيقتها عند ما تقدم منها رجل ليتولى أمر العربة والخيول :  
«إني ذاهبة لأرى أين يكون يا «أني» . بعد ذلك سأعود لأقابلك هنا ثم ندخل معا إلى حيث نتناول بعض الطعام والشراب . أحس بقواي تخور .»

وقالت الأخرى : « بكل سرور وإن كنت أفضل أن نزل بأحد الفنادق العادية إذ إن نحصل على شيء كثير بإقامتنا في هذه المنازل المفروشة .»

قالت الملتحجة بالسواد مؤنبة : «والآن يا صغيرتي لا تستسلمي للشهوات الجاهحة . هذا هو المكان المناسب لنا ... حسن جدا . سنلتقي بعد نصف ساعة إلا إذا أتيت معي لنعرف الأرض التي ستقام عليها الكنيسة الجديدة .»  
-- « لا يهمني ذلك . إني استطاعتك أن تخبريني .»

وسارت المرأتان بعدئذ كل في طريقها ، فذات الرداء الأسود راحت تسير في اهتمام وكأنها معزولة تماما عما كان يجري حولها من أمور .  
وبعد استفسارات جاءت إلى دريئة تخفي حفاثر وأساس لبناء يقام .  
وفوق الألواح الخارجية للدريئة علقت لاققتان كبيرتان تعلنان أن الحجر الأساسي للكنيسة المزمع بناؤها سوف يوضع في الساعة الثالثة من أصيل ذلك اليوم ،  
وسوف يتولى ذلك واعظ من لندن يتمتع بين قومه بشهرة واسعة .

وبعد أن ظفرت السيدة الملتحفة بالسواد بهذا القدر من المعلومات عادت أدراجها ثم سمحت لنفسها بالتفرج على نشاط المعرض . وبعد فترة جذب انتباهها كشك صغير يبيع الكعك وخبز الجوزييل وكان مقاما بين غيره من المنشآت التي تفوقه في الأهمية وحسن المظهر . كان مغطى بقماش ناصع البياض وتديره سيده شابة يلوح عليها أنها جديدة على هذا النوع من العمل يعاونها غلام له وجه مئمن الأضلاع .

غمرمت الأرملة تقول : « يا للعجب . هذه زوجته « سو » — إنها هي حقا ،  
واقربت من الكشكش وقالت دون تردد :

« كيف حالك أيتها السيدة » فأولى ، ؟ » .

وتغير لون « سو » عند ما تعرفت على « أرابيلا » من خلال القناع الأسود  
الشفاف الذى يغطى وجهها .

وردت فى جفاء : كيف حالك أنت أيتها السيدة « كارتايت » ؟ .

وعندما لاحظت ما فيه « أرابيلا » من حداد بدأ صوتها حنونا على الرغم  
منها وأضافت : « ماذا ؟ هل فقدت ... » .

— « زوجى المسكين . نعم . مات فجأة منذ ستة أسابيع ولم يترك لى مالا  
يذكر على الرغم من أنه كان زوجا عطوفا . ومهما بلغت أرباح أصحاب الحانات  
فإن الأرباح تعود عادة إلى الذين يقطرون الخور وليس لمن يبيعونها بالتجزئة .  
وأنت يا عجوزى الصغير . أتوقع أنك لا تعرفنى ؟ » .

قال أبو الزمان وكان قد تعلم الآن الكلام بلغة أهل « وسكس » :  
« نعم أعرفك . أنت المرأة التى ظننتها أوى لفترة حتى اكتشفت أنك لست  
كذلك » .

— « حسن . لا يهم ذلك . إنى صديقة » .

وقالت « سو » فجأة : « لذهب يا « جوى » بهذه الصينية إلى المحطة . هناك  
قطار آخر على وشك الوصول على ما أظن ؟ » .

وعند ما اختفى استمرت « أرابيلا » تقول : « ان يكون على شىء من الجمال  
أبدا . يا للمسكين . هل يدري أنى حقا أمه ؟ » .

— « لا . إنه يظن أن هناك سرا يكتبنف نسبه وهذا كل ما فى الأمر .  
سيخبره « جود » بكل شىء عند ما يكبر قليلا » .



-- « ولكن كيف حدث أنك تقومين بمثل هذا العمل ؟ يا للعجب ! » .  
 -- « هذا شيء مؤقت -- مجرد فكرة نلجأ إليها عادة عند ما نكون في ضائقة » .

-- « إذن ما زلت تعيشين معه ؟ » .

-- « نعم » .

-- « تزوجتما ؟ » .

-- « بالطبع » .

-- « وأنجبتما ؟ » .

-- « اثنين » .

-- « وآخر في الطريق كما أرى ! » .

وتلوت « سو » تحت وطأة الأسئلة الثقيلة المباشرة وبدأ فيها الصغير الرقيق يرتعش .

-- « يا إلهي . يا إله السموات والأرض . ما الذي يجعلك تبكين ؟ ليس في هذا ما يشين » .

-- « أنا لا أبكي لأنني أحس بالحجل . لا ليس الأمر كما تظنين ! ولكن يبدو من الأمور المفجعة حقاً أن نتجب أطفالاً وإنه لعمل يتطالب من الطموح ما يجعلني ، في بعض الأحيان ، أشك في أحقيتي لهذا العمل » .

-- « هوني عليك أيتها العزيزة . ولكنك لم تخبريني لم تقومين بمثل هذا العمل ؟ كان « جود » دائماً من النوع المتكبر المتعالى على أى نوع من العمل فضلاً عن البيع على قارعة السوق » .

-- « قد يكون زوجي تخير منذ ذلك الحين قليلاً . إنى متأكدة من أنه لم يعد متكبراً الآن ! » . وارتعشت شفتها « سو » للمرة الثانية ثم قالت : « إنى أعمل هذا لأن أصابه في مطلع هذا العام وهو يقوم ببعض أعمال البناء في قاعة

للموسيقى في بلدة «كوارتشوت» وكان يتحتم عليه أن يعمل في المطر إذ أن العمل لا بد أن ينجز قبل حلول يوم معين . لقد تحسن كثيراً الآن إلا أننا أمضينا وقتاً طويلاً مشحوناً بالمتاعب . وعاشت معنا أرملة عجوز عاوانتنا كثيراً وانكبتها على وشك الرحيل الآن .

— « حسن . وأنا أيضاً أتمتع باحترام الناس وأشكر الله ومنذ وفاة زوجي أشغل نفسي بأمور هامة . لم اخترت أن تبني خبز الجوزيل ؟ » .

— « تلك مجرد صدفة . كانت نشأته الأولى في مخبز فألم بكل ما يتعلق بالمخبز وصناعاته وخطر له أن يجرب صنعها حيث لا يتطلب عملها مغادرة المنزل . إننا نسميها فطائر « كرايستمينيستر » . وهي تلاقى نجاحاً كبيراً » .

— « لم أر مثلاً . يا للعجب ! إنها نوافذ وأبراج ومشربيات ! والله إنها لذيذة للغاية . » وقالت ذلك بعد أن تناوأت إحداها والتمهتها دون كلفة .

— « نعم . إنها تذكر بكليات « كرايستمينيستر » . نوافذ مشرعة ومماش . انظري أكانت نزوة من نزواته أن يصنعها من الكعك والفطائر ؟ »

ضحكت « أرابيلا » وقالت : « ألا يزال يضرب على وتر « كرايستمينيستر » حتى في كعكه ؟ هذا هو « جود » .... عاطفة طاغية .... يا له من مخلوق حبيب وسيظل كذلك دائماً ! » .

وتنهدت « سو » وبدأت مكتئبة بمجرد أن سمعت ما يوجه إليه من نقد .

— « ألا توافقيني على ذلك ؟ كوني صريحة . هذا هو رأيك على الرغم من أنك مغرمة به كثيراً ! » .

— « طبعاً « كرايستمينيستر » نوع من الرؤيا الدائمة بالنسبة له وأعتقد أنه ان يشفى من الإيمان بها . إنه مازال يظن أنها مركز للفكر الرفيع الأبدي على الرغم من أنها وكر لمعلى المدارس التأفهي الذين من سماتهم الخضوع في جبن للتقاليد البالية » .

كانت « أرابيلا » تسأل « سو » واهتمامها موجه لطريقة تفكيرها أكثر من كلامها وقالت :

« ما أعجب أن يبيع امرأة السكك وتتكلم هكذا ! لم لا تعودين للتدريس في المدارس ؟ » .

وهزت « سو » رأسها وقالت : « لأنهم لن يقبلوني » .

— « بسبب الطلاق ، أظن ؟ » .

— « ذلك وأشياء أخرى . ولا يوجد ذاع لذلك . لقد تنازلنا عن كل طموح ولم يكن هناك من هو أسعد منا حتى داهمه المرض » .

— « أين تسكنان ؟ » .

— « ان أجيب » .

— « هنا في « كينيدي بريدج » ؟ » .

وأوضحت حالة « سو » أن تنبؤها العشوائي كان صائباً .

واستمرت « أرابيلا » تقول : « ها هو الصبي يعود ثانية ، إنه طفلي وطفل « جود » .

وتطايرت شرارة من عيني « سو » وصرخت تقول : « يجدر بك ألا تلقى بذلك في وجهي » .

— « حسن جداً . وإن كنت أكاد أشعر أنني أود أن أحفظ به نفسي . ولكن يا الله . إنني لا أود أن أنتزعه منك . لا . ان أذنب مرة أخرى بمثل هذا الحديث الدنس وإن كنت أعتقد أن لديك من أطفالك ما يكفيك ! إنني واثقة من أنه يجد معك خير رعاية ولست بالمرأة التي تنفذ ما أراده الله . لقد بلغت حالة عقلية أكثر استقراراً » .

— « حقاً ! ليتني أستطيع أن أفعل ذلك » .

قالت الأرملة وكانت تتكلم من أعماق نفس جادة مستقرة تقسم ليس فقط بالامتياز الروحي بل الاجتماعي كذلك : « عليك أن تحاولي ، إنني لا أتفاخر بعودتي لحظيرة العقل ولسكني لم أعد إلى ما كنت عليه قبل وفاة «كارتليت» . كنت أسير أمام الكنيسة في الشارع المجاور ودخلتها لأحتضني فيها من المطر . شعرت بحاجتي إلى ما يعينني على خسارتي وترددت على الكنيسة بانتظام واكتشفت في ذلك عزاء عظيم . واسكني تركت لندن الآن كما تعلمين وأعيش في « ألفردستون » في الوقت الحاضر مع صديقتي « آني » ، حتى أكون قريبة من بلدتي القديمة . لم أجد اليوم لأشاهد السوق . سيضعون هذا المساء حجر الأساس للكنيسة الجديدة وسيتمولى هذا واعظ مشهور من لندن . لهذا جئت مع « آني » ، ويجب أن أعود الآن لأقابلها .

وهذا ودعت « أرايلا » ، « سو » وانصرفت .

## (٨)

وفي الأصيل استطاعت « سو » والقوم الآخرون الذين كانوا يصخبون حول سوق « كينيتبريدج » أن يسمعوا ترتيلا صادراً من داخل الدريئة المنصوبة في نهاية الشارع . والذين استرقوا النظر من فتحات الدريئة استطاعوا أن يروا جمعاً من الناس في ملابس فضفاضة ممسكين بكتب التراتيل حول الحفائر المخصصة لحوائط الهيكل . ووسط هؤلاء وقفت « أرايلا » ، كارتليت في ثيابها السوداء وكان لها صوت صاف قوي وكان من الميسور تمييزه من بين الأصوات الأخرى وهو يعلو وينخفض حسب أنغام الترتيل وصدرها المسكتنز يفعل نفس الشيء .

كان بعد ذلك بساعتين في نفس اليوم ، وبعد أن احتست المارانان الشاي في الفندق الذي نزلتا فيه ، بدأت « آني » والسيدة « كارتليت » رحلة العودة عبر المنطقة المرتفعة المفتوحة التي تمتد بين « كينيتبريدج » و « ألفردستون » ، وكانت « أرايلا » في حالة تفكير إلا أن أفكارها لم تكن تدور حول الكنيسة الجديدة كما حسبت « آني » ، أول الأمر .

أخيراً قالت « أرايلاً ، فى ضجر : لا . إنه شىء آخر . جئت إلى هنا لليوم وليس فى تفكيرى سوى « كارتليت » المسكين ونشر تعاليم الإنجيل عن طريق ذلك الاجتماع الجديد الذى بدأ هذا المساء . غير أن شيئاً آخر وقع فغير بجرى تفكيرى تماماً . « آنى » ، لقد سمعت عنه ثانية ، كما أنى رأيتها .

— « عن تحديثين ؟ » .

— « سمعت عن « جود » ورأيت زوجته ومنذ حدث ذلك وجدت أننى ، على الرغم منى ومع أننى كنت أرتل الترانيم بكل قوتى ، لم أستطع أن أكف عن التفكير فيه على الرغم من أنه ليس من حق أن أعمل ذلك ، بما أننى من عضوات الكنيسة » .

— « ألا تستطيعين أن تركزى اهتمامك فيها ذكره واعظ لندن اليوم وتحاولى بذلك أن تتخلصى من خيالاتك وأوهامك ؟ » .

— « ركزت فسكرى فعلاً فى ذلك الذى تقولين ولكن قلبى الشريك كان يشرد على الرغم منى » .

— « حسن . إننى أفهم تماماً كيف يكون الذهن شاردًا تأثراً فذلك يحدث لى أحياناً . آه لو تعلمين ما أراه فى أحلامى أحياناً فى هذه الليالى على الرغم منى ، صندئذ كنت تعرفين مدى الصراع الذى يعتمل فى نفسى » .

وكانت « آنى » ، هى الأخرى بدأت تتعلق بحبيبها بعد أن خدعها وهجرها . وقالت « أرايلاً ، فى لهجة تنم عن الألم : « وكيف أعالج هذه الحالة ؟ » .  
— « بوسعك أن تأخذى خصلة من شعر زوجك الراحل وتثبتها فى دبوس أسود ثم تنظري إليها كل ساعة من ساعات النهار » .

— « ليست لدى أية قدرة ! - وحتى لو كان ، لما كان ذلك مجدياً . . .  
بعد كل الذى قيل عن نعم هذا الدين ، أتمنى أن أسترجع « جود » ثانية » .  
— « لا بد أن تحاربى بشجاعة هذا الشعور طالما أنه يخلص أخرى . شىء

آخر يفيد في هذه الحالة فعندما تصيب الأرامل هذه الشهوانيات فإنهن يذهبن إلى قبور أزواجهن بعد غروب الشمس ويقفن هناك فترة ومن مطاطات الروس .

— « أف لك . إنى أعلم بقدر ما تعلمين ما يجب أن أفعله . فقط لأقوم به . »  
وساقت المراتان العربية في صمت على طول الطريق المستقيم حتى أشرفت على بلدة «ميريجرين» التي كانت لا تبعد كثيرا على يسار طريقهما .

وأخيرا بلغت المراتان نقطة التقاء الطريق العام بالطريق الفرعى المؤدى إلى تلك القرية التي أشرف برج كنيسة منها على المنحدر الجاور . وعندما سارتا أبعد فأبعد ، ومرت أمام المنزل المنعزل الذى سكنته « أرايلا » و « جود » فى الشهور الأولى لزواجهما والذى فيه ذبحا الخنزير ، عجزت « أرايلا » عن ضبط نفسها أكثر مما فعلت وانفجرت تقول : « إنه بالنسبة لى أكثر مما هو بالنسبة لها . أى حق لها فيه ؟ أود أن أعلم ! ليتنى أستطيع أن آخذه منها لو كان ذلك فى وسعى . »  
— « تمالك . هكذا تفكرين ولم يمض على وفاة زوجك أكثر من ستة أسابيع . صلى لمتغلبى ! » .

— « ليمكن فى ذلك حثفى . الشعور هو الشعور . ان أنافق أكثر من ذلك وهاك المنشورات ! » .

وسحبت من جيبها حزمة من المنشورات التي كانت أحضرتها بقصد توزيعها فى السوق والتي وزعت منها بالفعل عددا . وفى أثناء حديثهما ألقت جميع ما تبقى من الحزمة داخل الدغل .

— « حاولت هذه الطريقة ولكننى فشلت . لا بد أن أبقى كما ولدت ! » .  
— « كفى . أنت محتاجة يا عزيزتى . والآن تعالى إلى البيت فى هدوء واشربى قدحا من الشاي ولتمتنع عن الحديث عنه وإن نمشى فى هذا الطريق ثانية إذ أنه يؤدى بنا إلى حيث نلتقى به وذلك يشيرك . لموقف تتحسنين سريعا . »

وشياً فشيئاً هدأت «أرابيلا» وعبرتا الطريق وعندما بدأنا في نزول التل شاهدنا أمامهما رجلاً كبير السن يمشي الهويناء وجسمه على شئ من الضخامة ويبدو مغرقاً في التفكير . كان يحمل في يده سلة وملابسه تقسم ببعض الإهمال وفي مظهره شئ لا يمكن تحديده يوحى بأنه يتولى بنفسه إدارة بيته وشراء لوازمه ويبدو كأنه لا يثق في أحد ولا يصادق أحداً . كان الواضح أنه لا يستطيع إلا أن يفعل ذلك فلم يكن لديه من يتولى عنه هذه الأمور ، لم يبق من الرحلة سوى نزول التل ، وعندما توقعت المرأة أن الرجل يتجه نحو «الفردستون» دعته للركوب فقبل . وظلت «أرابيلا» ترمقه وأخيراً قالت : «لو كنت غير مخطئة فأنتى أتحدث إلى السيد «فيلوتسون» .»

وأدار الرجل وجهه ونظر إليها وقال : «نعم . اسمى «فيلوتسون» واسكننى لا أستطيع أن أتعرفك باسميتى .»

— «إنى أذكرك جيداً عندما كنت معلماً في مدرسة «ميرييجرين» وكنت إحدى تلميذاتك . كنت أمشى يوماً إلى المدرسة قادمة من «كريسكوب» فلم يكن فى بلدنا سوى معلمة واحدة وطريقةك فى التدريس تفضل طريقةها .

واسكنك لن نتذكرنى كما ينبغي أن أذكرك . اسمى «أرابيلا دون» .

وهز الرجل رأسه فى أدب وقال : «لا . لا أذكر الاسم وبصعب التعرف فى هيئتك النامية الحالية ، على الطفلة النحيلة التى لاشك كنتيها أيام الدراسة .»

— «حسن . كان الشحم واللحم يفدانيان عظامى دائماً . على أى حال إنى أعيش الآن مع بعض الأصدقاء فى مكان قريب من هنا . أظنك تعرف من تزوجت ؟ أليس كذلك ؟»

— «لا . لا أعرف .»

. — «تزوجت «جود فاولى» وكان أيضاً أحد تلاميذك ، أو على الأقل .

أحد تلاميذك في الفصول الليلية . ولكن لفترة على ما أظن . لقد عرفته أكثر بعد ذلك إذا كنت غير مخطئة .

قال « فيلوتسون » وقد انتفض في مكانه : « يا إلهي . يا إلهي . أنت زوجة « فاولي » ؟ حقا - كانت له زوجة ! وإنه .... لقد فهمت .... » .

— « طلقها - كما فعلت أنت بزوجتك - وقد يكون طلقها لأسباب أخرى أهم من أسبابك » .

— « حقا ؟ » .

— « حسن . من الجائز أنه كان على صواب عندما طلقني فذلك كان أفضل لكليتنا ولقد تزوجت بعد ذلك بفترة قصيرة وسار كل شيء على ما يرام حتى توفي زوجي منذ مدة . أما أنت فلا أشك أنك كنت على خطأ » .

قال « فيلوتسون » وقد راوده شعور مفاجيء بالمرارة : « لا . أفضل ألا أتحدث عن ذلك الآن . ولكنني مقتنع بأن ما فعلته هو الصواب وهو العدل ويتفق مع الأخلاق . عانيت كثيرا بسبب تصرفي هذا وبسبب آرائي ومع ذلك ما زلت أومن بما فعلت وما زلت مصرا على رأيي على الرغم من أن فقدانها تسبب في فقدانى للأمور كثيرة هامة » .

— « فقدت بسببها مدرستك ومكتبك المحترم . أليس كذلك ؟ » .

— « لا أهتم بالحديث عن ذلك . عدت أخيرا إلى هنا - إلى « ميريجرين » أقصد » .

— « وهل تدير المدرسة الآن ثانية كما كنت ؟ » .

كانت وطأة الحزن أقوى من أن تجعله ينجح في إخفاء شعوره فقال : « إنني هناك ولكن ليس كما كنت . عدت إلى المدرسة بعد أن عانيت الكثير . لم أعد إلا لأن رجوعي كان هو المخرج الوحيد الباقى لى . إنها شيء صغير ولكننى عدت إليها بعد أن رجأت إلى الشمال وراودنى الأمل طويلا ولكن كل آمالي خابت



وعدت إلى درجة الصفر بكل ما في ذلك من هوان . هذا المكان هو الملبأ الوحيد  
أمامي وإنني أحب فيه الهدوء . وكان القسيس يعرفني قبل أن صدر عني ذلك  
التصرف الشاذ تجاه زوجتي وقبل أن دمر ذلك المسلك مستقبلي كعلم . لقد قبل  
أن يستخدمني بعد أن أغلقت كافة المدارس أبوابها في وجهي . ومع ذلك وعلى  
الرغم من أنني أتقاضى خمسين جنيهًا في السنة وفوق ذلك مائتين من الجنيهات من  
مصادر أخرى إلا أنني أفضل هذه الحياة على أن أغامر فأعرض لأن يقف ماضٍ  
في سبيلي . ولسوف يحدث ذلك لو أنني غيرت مكان إقامتي .

— « أنت على حق فالقناعة كنز لا يفنى وأقد فعلت هي نفس الشيء . »

— « هل تتسدين أنها ليست على ما يرام من الناحية المالية ؟ »

— « قابلتها بالصدقة في « كينيتريدج » اليوم ولا أستطيع أن أقول إنها  
على ما يرام . إن زوجها مريض وهي قلقة على صحته . لقد ارتكبت خطأ شنيعا  
حيالها وإنني أصر على رأيي هذا وإنك لتستحق ما نالك من انهيار لبيتك وضياح  
لكيالك بسبب تصرفك واعذرتني لو استعجحت لنفسى قول ذلك . »

— « وكيف ؟ »

— « كانت بريئة . »

— « هذا هراء . إنهما لم يحاولا حتى أن يعترضا على القضية . »

— « ذلك لأنهما لم يهتما . كانت حينئذ بريئة تماما بما أكسبك حريتك .  
ورأيتهما بعد صدور الحكم مباشرة واقتنعت بذلك الرأي بعد أن تحدثت إليهما .  
وأمسك « فيلوآسون » بحافة العربة المفتوحة وبدأ حزينا مهموما بسبب  
ما سمع وقال : « ومع ذلك رغبت في الرحيل . »

— « هذا صحيح ولكن كان الواجب يحتم عليك ألا تسمح لها بذلك وهذه  
هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها وضع حد لنزوات مثل أولئك النساء صاحبات  
النزوات الشاذة سواء كن برينات أم مذنبات — وكان لابد لها أن تعود يوما . »

إننا جميعا نفعل ذلك . بل إنها العادة . وكل شيء يستوى في النهاية . ومع ذلك ، اعتقد أنها مازالت مفرمة برجلها — ههنا كان منه . لقد تسرعت في تصرفك حيالها . ما كنت لأسمح لها بالرحيل ، كنت أقيدها وعندئذ لا تلبث روح العناد عندها أن تنهار . نحن النساء لا نجدى في ترويضنا شيء كالظلم والقسوة . والأكثر من ذلك أن القوانين كلها في جانبك . عرف موسى ذلك . ألا تذكر قوله ؟ »

— « ليس الآن يا سيدتى — يؤسفنى أن أقول ذلك »

— « وتسمى نفسك معلما ! اعتدت على التفكير في ذلك عندما قرأوها في الكنيسة وكنت أقول : « لن يكون الرجل مذنباً . أما المرأة فتعيش في ظل الإجحاف . » ما أشد قسوة الشرائع علينا نحن النساء . ولكننا يجب أن نبسم ونصبر . على أى حال إنها تضرس الآن بتأثير ما أكلت من حصرم . »

قال « فيلوتسون » فى حزن مرير : « نعم إن القسوة هى القانون المهيمن على الطبيعة والمجتمع ولا هرب لنا من ذلك . »

— « حسن . لا تنس أن تجرب الطريقة الى اقترحتها عليك فى المرة القادمة أيها الرجل العجوز . »

— « لا يمكننى أن أجيبك الآن يا سيدتى فما عرفت الكثير عن طبيعة النساء . »

وكانت العربة قد وصلت إلى المشارف المنخفضة المحيطة بالفردستون ومرت بإحدى الطواحين عندما اخترقت الحدود الخارجية للبلدة وقال « فيلوتسون » إن الطاحونة ترشده إلى المكان الذى يرغب فى الذهاب إليه فتوقفت العربة ونزل منها وحياهما تحية المساء وسار فى طريقه مفكرا مهموما .

وفى تلك الأثناء ، على الرغم من أن « سو » كانت موفقة بشكل واضح فى بيع الكعك فى سوق « كينتبى بى درج » إلا أنها فقدت روح المرح التى كانت بدأت تحس به وحل محله شعور بالحزن مرجعه ذلك النجاح الذى أحرزته .

وعندما فرغت من بيع كل فطائر دكر ايسممينيستر ، حملت السلة الفارغة والقماش الذي كانت تغطي به بضاعتها وغادرت المكان ومعها الصبي بعد أن عاهدت لايه بحمل بقية الاشياء : وسلك الاثنان طريقا ضيقا وسارا فيه مسافة نصف ميل وقابلا سيدة عجوز تحمل طفلا يرتدى ملابس قصيرة ، وكانت تجر بيدها الأخرى طفلا آخر .

وقبلت دسو ، الطفاين وقالت : « كيف حاله الآن ؟ »

أجابت السيدة « أيدلين » في بساطة : « أحسن . لا تفتني عليه . قبل أن تصعدى السلم سيكون زوجك في أحسن حال . »

وسار الجميع في منعطف ووصلوا إلى بعض الأكواخ التي غطيت بمربعات من البلاط وكانت تحيط بها بعض الحدائق وأشجار الفاكهة ودخاوا إحداها وسرعان ما وجدوا أنفسهم في حديقة صغيرة وهناك ألقوا التحية على دجود ، وهو يجلس في مقعد كبير وكان من الواضح أنه يمر بمرض خطير وذلك من ملاحظته التي زادت رقة ومن نظرة التوقع التي بدت على وجهه والتي جعلته كالطفل وهو ينتظر عودتهم .

وقال وفي عينيه نظرة اهتمام أعضاء وجهه :

— « ماذا ؟ وهل بعثها كلها عن آخرها ؟ »

— « نعم بعث البواكي والجمالونات والنوافذ وكل شيء . »

ثم أطلعتهم على النتائج المالية للبيع وترددت قليلا وأخيرا أخبرته عندما أصبحا منفردين ، بأمر مقابلتها لأرابيلا ، تلك المقابلة التي لم تتوقعها كما أخبرته بترملها .

وشعر دجود ، بانحلال في جسمه وقال : « ماذا . وهل تعيش هنا ؟ »

وقالت دسو : « لا ، بل إنها تعيش في ألفردستون . »

وظل وجه « جود » على حزنه فأضافت « سو » تقول وهي تقبله في حرارة :  
« ظننت أنه من الأوفى أن أخبرك بما حدث . »

— « نعم . يا إلهي ! » أرايلا ، ليست في أعماق لندن بل هنا ! لأنها  
لا تبعد أكثر من اثني عشر ميلا من هذا المكان . وماذا تفعل في « الفردستون » ؟  
وأخبرته « سو » بكل ما تعلم وأضافت تقول : « إنها تزور الكنائس وتحدث  
عنها . »

وقال « جود » : « حسن . ربما كان من مصلحتنا أننا انتوبنا الرحيل . إنني  
أشعر بتحسن كبير اليوم وسأكون مستعدا للرحيل في مدى أسبوع أو اثنين .  
في هذه الحال يمكن للسيادة « إيدلين » أن تعود إلى بيتها ، يالها من عجوز مغلصة  
عزيرة . إنها الصديقة الوحيدة لنا في هذه الدنيا ! »

وقالت « سو » وفي صحتها قلبي : « وأين تظن عسانا نذهب ؟ »

وعند ذلك اعترف « جود » بما كان يحول في خاطره وقال إنها ستكون مفاجأة  
لها أن تعلم ، بعد ما كان قد انتواه من تجنب الأماكن القديمة ، إن شيئا جعله  
يفكر طويلا في « كرايستمينيستر » فطلب منها أن يعودا إلى هناك ، إن كان ذلك  
لا يضايقها . وماذا يهم حتى لو تعرف الناس عليهما ؟ كانت حساسيتهما الزائدة هي  
التي جعلتهما يهتمان بما يقوله الناس . أما الآن فيمكنهما ، على الأقل ، أن يظلا  
يبيعان هناك كما لو عجز عن العمل . لم يكن لديه شعور بالخجل من الفقر ، ومن  
يدري فقد يستجمع قواه في مدى وجيز فيستطيع أن يفتح هناك ورشة لنحت  
الأحجار يديرها بنفسه .

وقالت « سو » وهي تفكر : « ولكن لم الاهتمام « بكرائستمينيستر » ؟ إن  
« كرايستمينيستر » لا تهتم بك في شيء أيها العزيز المسكين ! »

— « إنني أعتد بها اهتماما كبيرا ولا يسعني إلا أن أفعل ذلك فأنا أحب ذلك  
المكان على الرغم من أنني أعلم أن تلك البلدة تكره الرجال الذين هم على شاكلي —

أولئك الذين يدعون بالانصاميين ، كم تحتقر تلك البلدة ما اكتسبته من مهارة في صناعات يدوية عديدة في حين كان الواجب أن تكون هي أول من يحترمهم . إنها تسخر من أخطائنا في النطق وفي التقدير في حين كان الواجب عليها أن تقول « أرى أنك في حاجة إلى المساعدة أيها الصديق ! » ولكن ، على الرغم من كل ذلك ، إنها قذبة العالم كله بالنسبة لي وذلك بسبب أحلام شبابي ولا أستطيع تغيير ذلك الشعور . من يدري فقد تكون « كرايستمينيستر » استيقظ ضميرها وبذلك تظهر لي شيئاً من كرم الأخلاق . إن هذا ما أرجوه ! كم أتشوق للعودة إلى هناك — ربما لأموت هناك ! يمكنني ذلك في أسبوعين أو ثلاثة على ما أظن . سيكون شهر يونيو قد حل وأود أن أكون هناك في يوم معين بالذات . »

وكان حله هذا الذي عاد إليه من القوة بحيث لم يمض أسبوعان أو ثلاثة حتى كان « جود » و « سو » والطفل قد جاءوا إلى المدينة ذات الذكريات العديدة ، وحتى كانوا يطأون أرضها فعلاً ويستقبلون شمسها الساطعة التي تنعكس على جدرانها القديمة المتداعية .



# الباب السادس

في « كرايستمينيستر » ثانية





« ... وزلت بالصوم جسدها .  
 وجميع المواضع التي كانت تفرح فيها  
 من قبل ملاتها من تناف شعر  
 رأسها . »

استير « الأسفار المحزونة »

« اثنان يذويان

المرأة وأنا

كلانا يموت في استسلام

بعد أن آوينا هنا في الظلام . »

« روبرت براوننج »

## فى « كرايستمينيستى » ثانىة

( ١ )

وعند وصولهم ، كانت المحطة تعج بشباب يضعون على رؤوسهم قبعات من القش ويرحبون بفتيات يشبهن مستقبليهن شبيها كبيرا ويرتدين أجمل الملابس وأخفها .

قالت « سو » : يبدو المكان مريحا حقا ! — ولكن اليوم عيد الشكر ! ما أخبك يا جود فقد جئت إلى هنا اليوم عامدا !

وفى هدوء أخذ يد الطفل الصغير وأخبر غلام « أرايلا » ، ألا يبتعد كثيرا فى حين عنيت « سو » بأكثر أطفالها .

قال « جود » : « نعم قلت لنفسى فى استطاعتنا أن نأتى إلى هنا اليوم كما نستطيع فى أى يوم آخر . »

قالت جازعة وهى تنظر إليه من أعلاه إلى أسفله : « ولكن أخاف أن يحزنك ذلك ! » .

— « أوه . ينبغى ألا أجعل هذا يؤثر فى عملنا . لدينا الكثير مما لابد أن تنجزه قبل أن نستقر فى هذا المكان . السكن أول شىء . »

ولما كانا قد تركا المتاع فى المحطة ؛ وكذلك أدوات « جود » ، مشى الجميع فى الطريق المألوف وكان مزدحما بالمحتفلين بالعيد الذين تدافعوا فى نفس الاتجاه . وعندما وصلوا إلى الميدان الكبير وأوشكوا على أن يتجهوا إلى حيث يجدون سكننا ، تطلع « جود » إلى ساعة الميدان وإلى الزحام المسرع وقال :

— « لنذهب ونرى الموكب ولايهم السكن الآن ! فى وسعنا أن نحصل عليه بعد ذلك . »

وسألت : « ألا يجدر بنا أن نزيح عن كاهلنا أولا موضوع السكن ؟ »

لكن روحه كانت وكأنها وراء العيد فساروا معاً في شارع «تشيف» يحمل  
هو بين زراعيه أصغر أطفاله ، بينما تقود «سو» طفلتهما الصغيرة وبجوارهم  
يسير غلام «أرابيلا» مفكراً صامتاً. كانت هناك جماعات من الشقيقات الجميلات  
في ملابس رقيقة ومعهن آباؤهن الأجلاف المبهضو الجناح الذين ما عرفوا  
الطريق إلى كلية في شبابههم ، هؤلاء وبناتهم ساروا في حى الأبناء والأشقاء الذين  
يحملون كتابات واضحة تعلن بأنه ليس بين البشر من هو جدير بالعيش في هذه  
الأرض حتى يحى. هنا ليزود نفسه بالعلم الآن .

قال «جود» : « كل فرد من أولئك الشبان يذكرني بفشلى . إن اليوم درس  
في عاقبة الادعاء ! فهو يوم المذلة بالنسبة لى ! ولولم تسرعى لتجدى ، أيتها العزيزة  
الغالية ، لذهبت إلى الكلاب بلا رجعة من اليأس » .

فلما رأت من وجهه أنه على وشك أن يصاب بإحدى انفعلاته العاصفة  
المتجهة نحو تأنيب الذات قالت «لو أننا اتجهنا مباشرة إلى الاهتمام بشئوننا لكان  
ذلك أفضل أيها العزيز . إنى واثقة من أن هذا المنظر سوف يثير فيك الاحزان  
القديمة وإن يسكون فيه نفع ! » .

— « حسنأ حيث إننا قرييون » ستتفرج عليه الآن » .

وداروا إلى اليسار بجوار الكنيسة ذات المدخل الإيطالى والأعمدة الخزونية  
المغطاة بقدر كبير من النباتات المتسلقة . وسار الجميع في الزقاق حتى ظهر أمام  
عينى «جود» المسرح الدائرى وفوقه ذلك المصباح المعروف لجميع الناس والذي  
برز في عقله كألرمز الحزين لآماله المضیعة ، إذ من تلك البقعة بالذات سبق أن وقف  
متأملاً مدينة الكلمات في ذلك الأصيل الذى خصصه لتأملاته العظيمة التى أقنعتته  
بعدها بعدم جدوى محاولته ليصبح ابناً للجامعة . واليوم ، فى الفضاء الممتد بين  
هذا البناء وأقرب كلية ، تجمعت جمهرة من الناس فى حالة توقع وانتظار . وفى  
قلب الزحام كان هناك ممر خال يحده حاجزان من الخشب ، ويمتد من باب الكلية  
حتى باب البناء الكبير الواقع بينها وبين المسرح .

وصاح « جود ، في انفعال مفاجيء : « هنا المكان الذي سرعان ما يمرون فيه » ، ثم زحم الجميع متقدما إلى الأمام واتخذ لنفسه مكانا قريبا من الحاجز وهو ما زال يحتضن أصغر أطفاله ، بينما حرصت « سو » ومعها بقية الأطفال على أن تكون خلفه مباشرة . وكانت الحشود تزحف خلفهم وتسد جميع المسالك وانشغل أفرادها بالكلام وتبادل النكات والضحك بينما توقفت العربات الواحدة بعد الأخرى أمام الباب الجانبي للكلية وبدأ ينزل منها عدد من الشخصيات الوقورة المتدثرة بالعباءات الكبيرة الحمراء ، وكانت السماء بدأت تتلبد وتقتم وأخذ الرعد يدوى في جنباتها من لحظة إلى أخرى .

ارتعش أبو الزمان وقال هامسا : « كأننا حقا في يوم الحشر ! » .

وقالت « سو » : « ما هؤلاء سوى رجال الثقافة والعلم ! » .

وحينما كانوا ينتظرون سقطت فوق رؤوسهم وأكتافهم قطرات كبيرة من المطر وبدأ التأخير يترك أثره في نفوسهم . فعادت « سو » إلى إعلان رغبتها في عدم البقاء .

قال « جود » دون أن يلتفت إليها : « ان يطول بنا الانتظار الآن » .

ولكن الموكب لم تظهر بوادره . وبقصد التسلي وقضاء الوقت ، تطالع أحد الواقفين في الصفوف المتراصة إلى واجهة أقرب الكليات إليه وسأل عن معنى الكتابات اللاتينية في وسط الواجهة ففسرها « جود » وكان يقف بالقرب من السائل . ولما وجد أن الأفراد القريبين منه يصغون في اهتمام إلى ما يقول ، راح يصف زخارف الطُرك ( وكان قد درسها قبل ذلك بسنوات ) ويتنقد بعض التفاصيل المعمارية في واجهات كليات أخرى في المدينة .

وأخذت الجوع . ومن بينهم رجلا الشرطة عند الأبواب ، يحملون في « جود » كما حمل أهل « لايبكا » في القديس بولس إذ كان جود معرضا للإغراق في التحمس لأي موضوع يثار . وبدأت الدهشة تتضح على وجوههم لأن غريبا

مثله يستطيع أن يعرف عن أبنية مدينتهم أكثر منهم ، وأخيرا قال أحدهم :  
عجبا ! أعرف ذلك الرجل . كان يعمل هنا منذ سنوات إنه يدعى « جود فاولي » ،  
ألا تذكرون يا قوم أننا كننا ندعوه سنخريه معلم الأزقة لا تجاهه الواضح في هذا  
السبيل ؟ إنه متزوج على ما أظن . ذلك طفله إذن . لا بد أن « تايلور » يعرفه  
فهمو يعرف كل إنسان .

كان المتكلم يدعى « جاك ستاج » وكان « جود » قد عمل معه في إصلاح أعمدة  
الكلية . أما « تايلور » فكان يُرى واقفا عن قرب . وبمجرد أن سمع اسمه  
يتردد ، صاح على « جود » عبر الحاجزين قائلا : « شرفتنا بعودتك ثانية .  
أيها الصديق » .

فرد جود بإيماءة من رأسه التحية .

— « يبدو أنك لم تقم بأية أعمال عظيمة برحيلك ؟ » .

ووافق جود على هذا أيضا . وقال شخص آخر :-

— « لم يفعل غير خلق عدد آخر من الأفواه عليه أن يملأها بالطعام ! »

أما الصوت فكان جديدا ، يسمع لأول مرة وعرف « جود » صاحبه وكان  
العم « جو » من عمال البناء الذين سبق أن عرفهم .

وقال جود في لهجة مرحة إنه لا يستطيع أن ينكر هذا القول . ومن ملاحظة  
إلى أخرى نشأ بينه وبين أفراد الجمع الواقف ما يشبه الحديث العام وفي أثنائه  
سأله السمكري « تايلور » هل ما زال يتذكر « قانون الإيمان » باللاتينية وليلة  
التحدى في الحان ؟

قال « جود » : « واسكن الأقدار لم تسكن في صفك ؟ ولم تسكن مواهبك بالتي  
تكفيك لكي تنتصر في المضمار » .

وقالت « سو » وهي تتوسل إليه : « إياك والرد أكثر من ذلك ! » .

وغنم أبو الزمان يقول في حزن وهو يقف في الزحام مغمورا لا يظهر منه شيء : « لا أعتقد أنني أحب » كرايستمينيستر « ! » .

ولكن عندما وجد « جود » نفسه مركز فضول الجمع وهدف أسئلتهم وتعليقاتهم لم يشعر برغبة في الامتناع عن الدخول في أحاديث مفتوحة ليس في الدخول فيها ما يشين . وبعد لحظة أثاره الموقف وقال في صوت عال مخاطبا الحشد المصغى : « أيها الإخوان . إنها مشكلة صعبة على أي شاب . تلك المشكلة التي كان على أن أصارعها ، والتي يوليها الألوف اهتمامهم في اللحظة الراهنة من هذا العهد المضطرب فيتمسألون هل يسلكون دون تدبر الطريق الذي يحدون أنفسهم فيه دون اعتبار لاستعدادهم لمثل هذا العمل ، أم يتدبرون حقيقة واقعهم ومقدرتهم ثم يعملون على إعادة تشكيل سلوكهم تبعاً لذلك ؟ لقد حاولت أن أفعل الأمر الثاني وفشلت ولكني لا أسلم بأن فشلي دليل على خطأ رأيي ، وأن نجاحي يثبت صحته . وإن كنا هكذا نقيس اليوم مثل هذه المحاولات - أقصد ليس بصحتها الأصلية ولكن بنتائجها المتغيرة . ولو كنت انتهيت بأن أكون كواحد من أولئك السادة المتشجنين بالعباءات الحمراء والسوداء الذين نراهم الآن يذلفون إلى هذا المكان لقال كل منكم : « انظروا ! ما أحكم هذا الشاب الذي يسير بوحى من طبيعته ! أما وقد انتهيت نهاية لا تفضل أبداً بدايتي فإنكم تقولون : « انظروا ما أنفه عقل ذلك الشاب الذي تسيره نزواته الطائشة .

ومهما يكن من الأمر ، فإنه فقري وليست أرادتني التي قبلت الهزيمة . لا بد من جيلين أو ثلاثة حتى ينجزوا ما حاولت أن أقوم به في جيل واحد . وأما دوافعي واهتماماتي ، وقد تسمى بالأحرى عيوب وورذائل ، فكانت من القوة بحيث أعاققت تقدمي أنا المجرد من حميد الصفات ، أنا الذي كنت ميتاً كسمكة ، أنا نيا كخزير فأضعت الفرصة التي كان لا بد أن تفودني إلى أن أصبح أحد البارزين في المجتمع . وقد تسخرون دني - وإنني راغب تماماً في أن تفعلوا ذلك - فأنا ولاشك مادة مناسبة لهذا . واسكنني أظن أنكم لو علمتم ما تعرضت له من آلام طيلة هذه السنوات القليلة المنصرمة ، لأخذتكم الشفقة بي ، ولو أدرك هؤلاء السادة

(وأوما برأسه ناحية الكلية التي بدأ الأساتذة وأعضاء الهيئات الجامعية يصاون  
لأياها فرادى) هذا ، فن الجائز أنهم كانوا يفعلون نفس الشيء . .

قالت امرأة : « يبدو قطعاً أنه مريض ومنهار . هذا صحيح ! ، وبدأ وجهه  
« سو ، أكثر انفعالا ، ولكن على الرغم من أنها كانت في وقتها تالاق جود  
فإنها لم تكن ظاهرة تماماً .

— « قد أعمل صالحاً قبل موتى — أن أصبح أمثلة حية بخيفة لما ينبغي  
على المرء ألا يفعله وبهذا أجعل من حياتى عبرة . ومن الجائز أنى كنت ضحية  
رخيصة لروح الفلق العقلى والاجتماعى الذى يجعل الكثيرين فى أيامنا هذه  
تعسا . ! ،

وقالت « سو ، فى صوت هامس والدموع تملأ عينيهما عندما لاحظت حالة  
« جود ، العقلية . « لا تقل لهم ذلك ! لم تكن أنت ذلك . لقد كلفت فى نبل  
لتسكيب المعرفة ولن يلوهم سوى أحقر الناس نفسا ! ،

— « ماذا ترون فى رجل فقير مريض؟ ليس هذا أسوأ ما بى . لى أعيش فى  
فوضى المبادئ — وأضرب فى الظلام على غير هدى — وأتصرف بوحى من  
فطرتى إذ ما من مثال أحذيه . ومن ثمانية أو تسعة أعوام ، عندما جئت إلى هنا  
لأول مرة ، كانت لدى مجموعة كاملة من الآراء المحددة ولكنها نهوت تدريجياً .  
وكما تعمقت تزعزعت ثقى . ليس لدى ما أفعله الآن سوى أن أتبع الميول التى  
تسبب لى وحدى وتسعد فى الواقع أعز الناس لى . والآن أياها السادة هذا ردى  
على ما أردتم أن تملوه عن أحوالى . ليمه ينفعم ! ليس فى وسعى الآن أن أشرح  
لكم أكثر من ذلك : ألاحظ أن هناك خطأ فى تفكيرنا الاجتماعى وهذا لا يمكن  
أن يكتشفه إلا رجال ونساء يتمتعون ببصيرة أعمق من بصيرتى — لو قدر لهم  
حقاً أن يكتشفوا هذا الخطأ — على الأقل فى زماننا « من ذا يستطيع أن يعرف  
ما هو خير للإنسان فى هذه الدنيا ؟ ومن ذا يستطيع أن يتنبأ بمصير أى فرد  
يعيش تحت الشمس ؟ ، وهتف النظارة : « مرحى ، مرحى ! ، قال « تابلور ،

السمكري : « أجدت الوعظ ! » والتفت إلى الواقفين بجواره وقال : « عجباً !  
أى واعظ جوال من المنتشرين في هذه النواحي ، هذا الذى يحل محل أحد الآباء  
أثناء إجازته ، لن يقبل أن يلقى مثل هذه الموعظة قبل أن ينقد عليها جنبها  
كاملاً ! أليس كذلك ؟ أقسم ما من واحد من هؤلاء يرضى بأقل من ذلك ! وحتى  
حينذاك لابد أن تأتية الموعظة مكتوبة . أما هذا الذى أمامكم فلا يعدو أن  
يكون واحداً من الطبقة العاملة ! »

وكنوع من التعليق الموضعى على ملاحظات « جود » ، جاء في تلك اللحظة  
أحد الأساتذة متشحاً بزيه الرسمى وكان متخلفاً عن بقية أقرانه . كان يابث إذ أن  
الحصان الذى كان يجر عربته رفض الوقوف بها في المكان المخصص لها فاضطر  
الاستاذ ، وكان مستأجراً للعربة ، إلى القفز منها والسير على قدميه وعندئذ نزل  
السائق وأخذ يركل الحيوان في بطنه .

قال « جود » : « لو أمكن حدوث ذلك عند مداخل الكليات في أكثر مدن  
العالم ثقافة وديناً ، فما الذى سنقوله عن المدى الذى وصلنا إليه في مجال الرقى ! »  
قال أحد رجال الشرطة وكان منهمكاً مع زميل له في فتح الأبواب الكبيرة  
المواجهة للكلية : « النظام ! صن اسانك أيها الرجل حتى يمر الموكب ؟ »

وهطل المطر غزيراً وزاد هطوله أكثر من ذى قبل ففتح كل من كان يحمل  
مظلة مظلته ، ولم يكن « جود » واحداً من هؤلاء . أما « سو » فتحمل مظلة صغيرة  
لا تحجب من الشمس أو المطر إلا القليل . وشجب وجهها وإن كان « جود » لم  
يلحظ ذلك حينئذ . وهمست تقول وهي تحاول أن تحميه بمظلتها من المطر :  
« دعنا أيها العزيز نواصل السير . لننالم نعرث على مسكن بعد وتذكر أن كل  
أشياننا مازالت في المحطة وأنت لم تسترد حتى الآن صحتك تماماً . أخشى أن يضر  
بك هذا البلى ! » قال « جود » : « لأنهم قادمون الآن . دقيقة واحدة وسأرحل  
بعدها ! »

ودقت الأجراس ست دقائق وبدأ النظارة يحشدون في النوافذ المحيطة



واخذت صفوف عمداء الكليات والأساتذة الجدد في ملابسهم الحراء والسوداء.  
تمر عبر خياله كما تمر السكواكب البعيدة عبر منظار مكبر .

وأثناء سير هؤلاء ردد بعض العارفين أسماءهم . وعندما بلغوا مسرح «رين»  
القديم المستدير ، ارتفعت الهتافات إلى السماء .

صاح «جود» : « لنذهب إلى هناك ! ، وعلى الرغم من أن السماء بدأت الآن  
تمطر بشدة لم يبد عليه أنه يشعر بذلك . وسار الجميع إلى بناء المسرح . هنا  
وقفوا فوق القش الذي فرشت به الأرض للتخفيف من صوت ارتطام العجلات  
بأحجار الطريق وكان وقوفهم بجوار التماثيل الصخرية المتآكلة بفعل الصقيع  
والتي أحاطت بالبناء من كل نواحيه تطل في تجهم شاحب على ما يجري حولها  
وتطل بصفة خاصة على أولئك المتهاجرين «جود» و«سو» وأطفالها وكانما  
تطل على مخلوقات هزلية لم يكن لوجودها هناك من داع . قال في لهفة : « ليتنى  
أستطيع الدخول ! اسمعى . قد أتمكن بوقوفى هنا من أن أتصيد بضعة كلاب  
من الخطبة اللاتينية فالنوافذ مفتوحة . »

وفيما عدا دقائق الأرق ، وهتافات الجماهير وصياحهم بين كل فقرة وأخرى  
من فقرات الخطاب البليغ ، لم تجلب وقفة «جود» في المطر إلى فهمه من اللاتينية  
المكتوب بها الخطاب أكثر من كلمة رنانة قرعت سمعه من حين لآخر بنهايتها  
المألوفة .

وتنهى بعد لحظة وقال : « حسن . إنى دخيل حتى نهاية أيامى ! والآن  
سأذهب يا عزيزتى الصابرة . كم كان لطيفاً منك أن تقضى فى المطر كل هذا الوقت  
اتمنى لى فرصة إشباع ولهى ! ان أهتم بعد الآن بهذه البقعة الملعونة وأقسم بروحى  
على ذلك ! ولكن . ما الذى جعلك ترعشين هكذا عندما كننا عند الحاجز ؟  
وكم أنت شاحبة يا «سو» . »

— « رأيت «ريتشارد» بين الجمع فى الناحية الأخرى . »

— « آه - حقا ؟ » .

— « من الواضح أنه جاء لمشاهدة الاحتفال مثلنا وعلى ذلك فن المحتمل أنه يسكن مكانا لا يبعد عن هنا كثيرا . لقد كان دائما يحس نحو الجامعة بنفس الحنين الذي تحس به أنت ولكن بصورة أخف . لا أظن أنه رأى وإن كان لا بد سمعك وأنت تتحدث إلى الناس . ولكن لم يبد عليه أنه رأى » .

— « حسنا . لنفترض أنه رأى . هل يخاو عقلك الآن من كل ما يتعلق به يا عزيزتى ؟ » .

— « نعم . أظن ذلك . ولكننى ضعيفة . وعلى الرغم من إدراكى أننا على صواب فى كل تصرفاتنا أحسست نحوه بفرع غريب ، برهبة أو برعب من تقاليد لا أومن بها . يتلبنى هذا الشعور من حين إلى آخر وكأنه نوع من التشل يزحف إلى رويدأ رويدأ ويجعلنى حزينة للغاية ! » .

— « بدأت تتعبين يا « سو » . أوه ، نسيت أيتها العزيزة . هيا ! لا بد أن نرحل من هنا فى الحال لنفتش عن مكان ننزل فيه » .

وأخذا يفتشان عن مكان يقضيان فيه ليلتهما وأخيرا وجدا مكانا بدا مناسباً لهما فى « مياوبولين » وهى بقعة لم يقو « جود » على مقاومة سحرها - وإن لم تكن كذلك بالنسبة لسو . والبقعة زقاق ضيق ملاصق لمؤخرة كلية جامعية ، ولكن ليس لها بها أى اتصال . أما المساكن الصغيرة فكانت معتمة كئيبة بتأثير الأبنية الجامعية العالية التى لا تمت الحياة بداخلها بأية صلة لحياة سكان الزقاق الضيق وكأن الحياتين ليستا فى كوكب واحد وإن لم يكن يفصلهما سوى سمك الحائط . وكانت كلمة « الإيجار » مكتوبة على مزارين أو ثلاثة فطرق القادمون باب أحدها ففتحت لهم سيدة وبدلا من أن يوجه « جود » حديثه إليها قال فجأة : « آه ! اسمعوا ! » .

— « ماذا ؟ » .

— « ألا تسمعون الأجراس آية كنيسة هذه ؟ النغمات مألوفة ! » ،  
وبدأت موجة أخرى من دقات الأجراس تقبل من مكان بعيد . وقالت  
صاحبة البيت في حدة : « لا أدري ! وهل طرقت للسأل عن ذلك ؟ » .

قال « جود » وهو يعود إلى نفسه : « لا . إننا نسأل عن غرفة » .  
وتفحصت السيدة شكل « سو » ثم قالت : « ليس لدينا ما نؤجره » . وأغلقت  
الباب . وبدأ « جود » مملوبا على أمره ، والطفل محزونا وقالت « سو » :  
« دعني الآن يا « جود » أحاول . أنت تجهل الطريقة . ووجدوا مكاناً ثانياً  
لا يبعد عن الأول كثيراً ، ولما هنا نظرت صاحبة السور واللام والطفلين  
الصغيرين وقالت في أدب : « آسفة إننا لا نؤجر لمن لديهم أطفال » . وأغلقت  
الباب هي الأخرى .

ورمت الطفلة الصغيرة شفيتها وبكت في صمت من شعور خفي بأن ثمة متاعب  
في الأفق وتهد الغلام وقال : « لا أحب « كرايستمينستر » ! هل الأبنية العظيمة  
العتيقة سجون ؟ » .

وقال « جود » : « لا . بل كليات جامعية ومن الجائز أن تتعلم فيها في يوم  
من الأيام » .

وأجاب الغلام : « أفضل ألا أفعل ! » .

قالت « سو » : « والآن سنحاول مرة أخرى . سأشد معطاني حول جسدي  
أكثر . إن مجيئنا من « كينيتبريدج » إلى هنا هو كالاستجير من الرضاء بالنار !  
كيف أبدو الآن يا عزيزي ؟ » .

قال جود : « إن يلاحظ أحد الآن ما بك » ،

وكان هناك منزل آخر فقاموا فيه بمحاولتهم الثالثة . كانت المرأة هنا أكثر  
لطفاً ولما لم يكن لديها مكان تستغنى عنه ووافقت فقط على إيواء « سو » ،  
والاطفال على أن يذهب « جود » إلى مكان آخر . لقد قبل هذا الوضع كأم

لا مندوحة عنه خشية أن يمتد بهم البحث إلى ساعة متأخرة . واتفقوا معها على أجر الإقامة وعلى الرغم من أنه كان كبيرا بالنسبة لقدرتهم على الدفع ، لم يكن بوسعهم الاعتراض لئلا يتخرج الموقف قبل أن يتمكن « جود » من الحصول على مكان أكثر دواما . وفي هذا المنزل احتمات « سو » حجرة خلفية بالطابق الثاني وبداخلها مقصورة صغيرة للأطفال . وجلس « جود » وتناول قدها من الشاي وأسعده أن يجد النافذة تطل على مؤخرة كلية أخرى . وبعد أن قبل الأربعة ، رحل ليأتي ببعض الضروريات وليبحث عن مكان لنفسه .

وعقب انصرافه صعدت صاحبة البيت للتحديث مع « سو » والتعرف شيئا عن ظروف الأسرة . ولم يكن لدى « سو » شيء من فن المراوغة فبعد أن روت عدة وقائع عما صادفهم أخيرا من متاعب وتشريد جهلت اسماعها صاحبة البيت تقول لها فجأة : « أحقا أنت متزوجة ؟ » .

وترددت « سو » ثم قالت في اندفاع إن كلا منهما كان تعسا في الزواج الأول . ولرعبها من فكرة الامتزاج من جديد في وحدة لا يمكن فصمها ، وخشية أن تطفئ شروط العقد بينهما ، ومع رغبةتهما في العيش سويا ، عجزا فعلا عن أن يجدا الشجاعة لتكرار الزواج على الرغم من أنهما حاولا ذلك مرتين أو ثلاثا . وعلى ذلك ، فعلى الرغم من أنها ، بالمعنى الذي فهمته ، اعتبرت نفسها امرأة متزوجة إلا أنها في نظر صاحبة البيت لم تكن كذلك .

وبدا الحرج على صاحبة البيت فنزلت إلى الطابق السفلي ، أما « سو » فجلست بجوار النافذة ذاهلة ترقب المطر وقطع صمتها صوت شخص يدخل البيت وبعدها سمعت صوت رجل وامرأة يتحدثان في الممر تحتها . وكان زوج صاحبة البيت قد وصل وهذه تشرح له ظروف مجيء المؤجرين أثناء غيابه .

وارتفع صوت الرجل في غناب مفاجيء يقول : « والآن ، من يريد مثل هذه المرأة هنا ؟ قد تلد ! وفوق ذلك ألم أقل إنى لا أريد أطفالا ؟ القاعة والسلم غطيا حديثا بالطلاء ولا يجوز تعريضهما لعبثهم ! كن عليك أن تدركي أنهم في

مأزق لجيئهم على هذه الصورة . إنك قبلت أسرة بينما أوصيت بالآ تقبلي سوى رجل بمفرده .

واستطردت الزوجة في دفاعها عن وجهة نظرها ولكن كظهر . أصر الزوج على رأيه إذ سرعان ما سمع الطرق على باب « سو » وظهرت المرأة .

قالت : « يوسفنى أن أقول لك يا سيدتى إنى لا أستطيع أن أعطيك الحجرة الأسبوع كله . إن زوجى يعارض وعلى ذلك لا بد أن أطلب منك أن ترحلى . لا أمانع فى بقائك الليلة فالوقت أصبح متأخرا ولكن يسرنى أن تستطيعى الرحيل فى الصباح الباكر . وعلى الرغم من أنها عرفت أن من حقها البقاء أسبوعا ، لم ترد « سو » أن تثير نزاعا بين الزوجة والزوج فقالت إنها سترحل كما طلب منها . وعندما خرجت صاحبة المنزل أطلت « سو » مره أخرى . وحالما وجدت أن المطر قد توقف اقترحت على الصبي ، بعد وضع الطفائين فى الفراش ، أن يخرجوا للبحث عن مكان آخر وحجزه للصباح التالى حتى لا يعارذوا بقسوة كما حدث لهم فى ذلك اليوم .

وعلى ذلك ، فبدلا من أن تفتح حقائبها التى كان « جود » أرسلها لتوه من المحطة ، تسالت مع الصبي إلى الطرقات الرطبة وإن لم تكن سيئة . كانت « سو » قد صممت ألا تزجج زوجها بنبا مغادرتها المنزل الجديد فى حين يكون هو نفسه فى موقف حرج فيما يتعلق بعثوره على مكان يبيت فيه . وفى صحبة الصبي تجولات فى هذا الشارع وذاك . وعلى الرغم من أنها حاولت استئجار غرفة فى اثنى عشر منزلا إلا أنها صادفت من الصعاب ما فاق تلك التى قابلتها عندما كانت فى صحبة « جود » ولم تجد من يعدها بأن يؤجر لها حجرة فى اليوم التالى . وكانت كل صاحبة منزل تنظر نظرة فيها شك لامرأة وصبي يستفسران فى الظلام عن « أوى » . وقال الغلام وقد أحاطت به المخاوف : « كان من الواجب ألا أولد . أليس كذلك ؟ » .

وأخيرا عادت « سو » وقد أنهكتها التعب تماما ، إلى المكان الذى لا تجد فيه ترحيبا وإن كان على الأقل المكان الوحيد الذى تأوى إليه مؤقتا . وأثناء غيابها

ترك «جود» لها عنوانه ، ولكن لإدراكها مدى ما به من ضعف ، ظلت ثابتة على عزمها ألا تزوجه حتى اليوم التالي .

( ٢ )

جلست «سو» في الغرفة تنظر إلى أرضها العارية - وكان المنزل أكبر قليلا من كوخ قديم داخل الحرم الجامعي - وانتقلت بصرها إلى المنظر خارج النافذة العارية . وأمام «سو» بمسافة ، عكست الحوائط الخارجية لكلية «ساركوفاجوس» كل ما انطوت عليه قرونها الأربعة من كتابة وتزمت وقدم وألفت به داخل الغرفة الصغيرة التي احتملتها وبذلك حالت دون دخول نور القمر بالليل وضوء الشمس بالنهار .

وإلى الراء من تلك الكلية ، أمكن لسو أن تميز السمات العامة أيضا لكلية أخرى ثالثة . وفكرت في التصرف العجيب الذي أوحى به العاطفة المتأججة في قلب رجل بسيط العقل - تلك التي دفعت «جود» المتفاني في حبها وحب الأطفال إلى أن يقودهم إلى هذه البقعة المقبضة لجرد أنه ما زال واقعا تحت تأثير حله . وحتى الآن ، لم يكن سمع في وضوح الرفض الجارح لرغبته التي سبق أن رددتها تلك الحوائط الجامعية .

وترك فشلهما في الحصول على حجرة ، وعدم وجود مكان في هذا المنزل ، أثرا عميقا في نفس الغلام . بدا كأن رعبا مستترا سيطار عليه . وقطع الصمت الخيم عندما قال : « أماء . ماذا نفعل غدا ؟ » .

قالت سو في يأس : « لا أدري ! أخشى أن يسبب هذا ضيقا لا يبيك » .

— « ليت أبي كان على ما يرام وله مكان بينما ! »

— « ان الأمر لا يهم ! » .

— « هل أستطيع أن أفعل شيئا ؟ »

— « لا ! ليس أمامنا سوى المتاعب والشدائد والألم ! »

- « رحل أبي ليعطينا نحن الأطفال مكانه . أليس كذلك ؟ »
- « هذا جزء من الحقيقة . »
- « أن يكون المرء خارج الحياة أفضل من أن يكون داخلها . أليس كذلك ؟ »
- « نعم ، يا عزيزي . »
- « وبسببنا أيضا نحن الأطفال لا يستطيعون أن تجدى سكننا لا نقا ؟ »
- « يتعرض الناس على الأطفال في بعض الأحيان . »
- « إذن لو كان الأطفال يسبون كل هذه المتاعب لم ينجبهم الناس ؟ »
- « أوه ، لأن هذا هو قانون الطبيعة . »
- « ولكننا لا نطلب أن نولد ؟ »
- « لا . على التحقيق ! »
- « وما يزيد الأمر تعقيدا بالنسبة لي أنك لست أرى الحقيقة وكان في استطاعتك أن ترفضيني لولا أنك أردت ذلك . ما كان ينبغي أن آتي إلى هنا — تلك هي الحقيقة ! لقد سببت لهم المتاعب في أستراليا وهأنذا أسبب لكم المتاعب هنا . ليتني لم أولد ! »
- « لم يكن لك دخل في ذلك ، أيها العزيز . »
- « أعتقد أنه عند ولادة الأطفال غير المرغوب فيهم لا بد من قتلهم في الحال قبل أن تدب فيهم الروح ولا يسمح لهم أن يكبروا ويسعوا في الأرض ! »
- « ولم تجب دسو ، كانت تفكر حائرة كيف تعامل هذا الطفل المارق في التأمل . »
- أخيرا قررت ، بقدر ما سمحت به الظروف ، أن تكون أمينة صريحة مع من شاركها متاعبها كأنه الصديق العجوز .

قالت في تردد : « سيكون في أسرتنا قريباً جداً شخص آخر » .

— « وكيف ؟ » .

— « سيكون لنا قريباً طفل آخر » .

وقفز الصبي في فرع هائل وهو يقول : « ماذا ؟ ، يا إلهي ! أماء ! ترغبين في آخر بينما لديك كل هذه المتاعب بسبب ما عندك منهم ! » .

وترقرقت الدموع في عينيها وغمغمت تقول : « نعم . أريده . ويوسفني هــذا » .

وانفجر الصبي باكياً وهو يقول : « أنت لا تهتمين ، لا تهتمين ! ، وأضاف مؤنباً : « كيف يمكن يا أماء أن تكوني هكذا شريرة قاسية في حين أنك ما كان ينبغي أن تفعل ذلك حتى تتحسن أحوالنا المالية ويستعيد أبي صحته ! هانت ذى تلقين بنا كلنا إلى متاعب أخرى ! هانحن أولام هنا بلا مكان نأوي إليه والدينا مضطربان لانفصال عنا ، وسنطرد غداً . ومع ذلك تنوين زيادة عددنا طفلاً آخر حالاً ! إنك تفعلين ذلك عادة ! إنك ... إنك ... » وظل يسير في الغرفة ذهاباً ورجيئة وهو يلتحجب .

قالت تدافع عن نفسها وعندها يعلو ويهبط في انفعال يشبه انفعاله : « لا بد أن تسامحنى . إنى عاجزة عن التفسير ولسوف أفعل عندما تكبر . يبدو كما لو كنت فعلت ذلك عادة في الوقت الذي تحاصرنا فيه المتاعب ! لا أستطيع التفسير أيها العزيز ! لم يحدث ذلك عن عمد — لم تكن لي حيلة فيه ! »

— « نعم . تعمدت ذلك ولا يمكن أن يكون غير ذلك ! ليس لأحد أن يتدخل في حياتنا هكذا إلا بموافقتك . إن أسأحك ، أبداً ، أبداً ! إن أصدق أبداً أنك تهتمين بي أو بأبي أو بأى منا ! »

ونفض ثم اختفى في المقصورة وكان بها فراش على الأرض وسمعته وهو يقول :



« لو ذهبنا نحن الأطفال من هنا فلن تكون هناك مشكلات بالمرة ! » وصاحت دون وعى منها : « لا تقل ذلك يا عزيزي ولكن اذهب ونم . »

وفي الصباح التالى استيقظت عقب السادسة بقليل وقررت النهوض قبل الإفطار لتسرع بالذهاب إلى الفندق الذى نزل فيه « جود » لتخبره بما جرى . ونهضت فى هدوء كى تتجاشى إزعاج الأطفال الذين كانوا قطعاً يحسون بالتعب من أثر الإنهاك الذى أصابهم فى الليلة السابقة .

ووجدت « جود » يفطر فى المنزل الصغير الذى اختار السكنى فيه إيوفراًجر غرفتها المرتفع ، وهناك شرحت له حالة التشرد التى لا بد أن تواجهها عقب طردها فقال إنه كان قلقاً عليها طول الليل . ولما كان الوقت صباحاً ، لم يبدطلب مغادرتها لمسكنها من الأمور المؤسفة كما بدا هكذا فى الليلة السابقة ، ولم يحزنها أنها فشلت فى الحصول على مسكن آخر كما حدث لها أولاً . وكان « جود » متفقاً معها على أن الأمر لا يستحق منها إصرارها على حقها فى البقاء أسبوعاً ووجد أنه من الأوفى لها أن تتخذ الإجراءات العاجلة لمغادرة المكان .

قال « جود » : « لا بد أن تجميئوا إلى هنا اليوم أو يومين . هذا المكان غير مريح ولا يناسب الأطفال ولكن سيكون أماننا وقت أطول للبحث . وتوجد أماكن عديدة فى الضواحي — فى الحى القديم فى « بيرشيباء » . افطرى معى الآن بما أنك هنا ، يا عصفورى . هل أنت واثقة من أنك بخير ؟ سيكون لديك متسع من الوقت للعودة والإعداد لطعام الأطفال قبل استيقاظهم بل الواقع لئننى سأذهب معك . »

وانضمت إليه فى وجبة سريعة ، وبعد ربع ساعة خرجا معاً لنقل أمتعتها بأسرع ما يمكن من البيت الذى رفض أهله لإيواءها . وعندما وصلا إلى المكان وصعدت هى إلى الطابق العلوى ، وجدت أن كل شئ فى حجرة الأطفال هادئ تماماً فأخذت تنادى على صاحبة البيت طالبة منها فى صوت مرتعش أن تتفضل بإحضار غلاية الشاى وشئ من الطعام لافطور الأطفال . وعندما أجابتها صاحبة

البيت إلى ما طلبت في تراخ واضح ، أخرجت « سو » من جيبيها بيضتين كانت قد أحضرتهم معها ووضعتهم في الغلاية ، ثم نادى على « جود » ليوقف بجوار النار حتى يتم نضج البيضتين فيقدهما من الأظفار عند استيقاظهم في حين راحت هي تناديهن وكانت الساعة قد أشرفت على الثامنة والنصف .

ووقف « جود » وقد انحنى فوق الغلاية وأمسك الساعة في يده ليضبط بها الزمن الذى تنضج فيه البيضتان وكان بذلك يولى ظهره للحجرة الداخلية حيث يرقد الأطفال وهنا صدرت عن « سو » صرخة مفاجئة جعلته يستدير في فزع . لقد رأى أن باب الحجرة ، وبالأحرى المقصورة الداخلية ، - وبدأ كأنه تحرك بقوة على مفصله عندما دفعته إلى الداخل - قد فتح وأن « سو » انهارت على الأرض أمامه . وعندما أسرع لمساعدتها على النهوض ، أدار عينيه جهة الفراش الصغير المنصوب على قوائم خشبية وهنا لم ير أثرا للأطفال . وفي حيرة أدار بصره في الغرفة وفي ظهر الباب رأى خطافين التعليق الملابس وقد تدلت منهما جثتا طفلتهما الصغيرين بحبل ملتف حول عنق كل منهما بينما بالقرب منهما علق جسد « جود » الصغير من مسمار في الحائط بنفس الطريقة . وبالقرب من الصبي رأى « جود » مقعدا مقابلا ، كما رأى عيني الصبي الجاحظتين ومازالتا تشخصان في اتجاه الحجرة ، بينما كانت عيون الطفل والطفلة مغلقتين .

وبتأثير الفزع الغريب القاتل الذى أصابه بالشلل ترك « سو » ممددة على الأرض وقطع الحبل بمطواة صغيرة وألقى بالأطفال الثلاثة على الفراش ، غير أن لمس أجسادهم في لحظة الإمساك بهم دل على أنهم فارقوا الحياة . بعد ذلك أمسك « سو » التى كان الإغماء ينتابها في نوبات متتالية ووضعها في سرير في الحجرة المجاورة بعد أن نادى فى أنفاس لاهثة على صاحبة البيت ثم جرى يبحث عن طبيب .

وعندما عاد ، كانت « سو » قد أفاق من إغمائها ووجد المرأتين العاجزتين منخبتين على الأطفال في جهد يائس لإفاقتهم ، وكونت الأجساد الثلاثة الصغيرة منظرا أطيح بما لديه من ضبط النفس .

ودخل عليهما أقرب طيبب للبيت واسكن ، كما استنتج « جود » ، كان حضوره لاداعي له . كان الأطفال قد تعدوا مرحلة الإنقاذ إذ على الرغم من أن الأجساد الصغيرة لم تكن باردة تماما ، إلا أن الطيبب عرف أنها علفت فترة تزيد على الساعة . والاحتمال الذي رجحه الوالدان فيما بعد عاتب أن أصبحا قادرين على التفكير الهادئ أن الصبي عندما استيقظ من نومه أخذ يتطلع بنظرة إلى نافذة الحجرة وهو يفتش عن « سو » . وعندما لم يجدها اتنا به نوبة من اليأس العميق جعلت أحداث اليوم السابق تصيبه بمزاج معتل . وفوق ذلك ، عثروا فوق الأرض على ورقة مكتوب عليها بخط الصبي ، وكانت المكتوبة بالقلم الرصاص الذي يحمله معه دائما : « علمتها لأننا أكثر مما ينبغي » .

وعندما رأت « سو » هذه الورقة انهارت أعصابها تماما وغمرها شعور فظيع بأن حديثها مع الطفل كان الشبب المباشر في المأساة ودفعها ذلك إلى أن تقع فريسة لنوبات من الألم النفسى المرير الذى لا يمكن تهدئته . وعلى الرغم من معارضتها نقلوها إلى حجرة فى الدور السفلى من المنزل وهناك ظلت راقدة وجسدها النحيل يهتز بتأثير ما صدر عنها من زفرات متصلة وعيناها فى السقف معلقة وصاحبة البيت تبذل جهودا يائسة لتهدئتها .

من هذه الغرفة استطاعوا أن يسمعوا الناس وهم يسرون فى الطابق العلوى فطلبت « سو » أن تعود إلى هناك ولم يقنعها بالبقاء فى مكانها إلا تأكيد السيدة لها بأنه لو كان هناك أمل ولو ضعيف فى إنقاذ الأطفال فإن وجودها ان يكون بنى نفع فى هذا المجال ، كما ذكرتها بواجبها فى المحافظة على نفسها لئلا تعرض حياة الجنين للخطر . وكان استفسارها لا ينقطع ، أخيرا نزل « جود » ، وأخبرها بأنه لا أمل يرجى فى إنقاذ أحد من الأطفال . وبمجرد أن أصبحت قادرة على الكلام ، أخبرته بما قالته للصبي وكيف أنها تعتقد أنها السبب فى ما حدث .

قال « جود » : « لا . لقد كان فى طبيعته أن يفعل هذا . يقول الطيبب هناك غلمان بجود الصغير يشبهون وسطنا ولهم طبيعة لم نعهد لها فى غلمان الجيل السابق . م (٢٩)

هؤلاء هم نتاج فلسفة جديدة في الحياة وهم يبدون كأنهم قادرون على إدراك أهوال الحياة قبل أن يبلغوا من السن ما يسكبهم القدرة على مقاومة هذه الأهوال. إنه يقول هذه بداية عهد جديد سوف يشمل العالم كله وفيه يعترف الناس عن الحياة .. هذا الطبيب شخص له تفكير متقدم ولكنه عاجز تماما عن تقديم أية تعزية لنا .

كان « جود » قد كبت حزنه في قلبه مراعاة لها ، ولكنه انهيار الآن ودفع هذا « سو » إلى بذل الجهود لمواساته ، كما كان له بعض الأثر في تخفيف ما أحست به هي من تأنيب شديد . وعندما انصرف الجميع سمح لها برؤية الأطفال .

كان وجه الصبي يعبر عن القصة الكاملة المواقف التي مروا بها . وعلى جسده الصغير ارتسمت كل علامات سوء الطالع والظلال التي خيمت على زواج « جود » الأول ومادار حول زواجه الأخير من حوادث وما تخلله من أخطاء ومخاوف وذنوب كان المحور ، والبؤرة ، والتعبير الموجز . وبسبب تهور هذين الوالدين توجع ، ولعدم توافق امرجتهما اهتز . ومن عثراتهما قضى نحبهما .

وعند ما خيم السكون على المنزل ، ولم يكن بوسعهما أن يفعل شيئا سوى الانتظار لما يتكشف عنه التحقيق القضائي . انكسر في الغرفة صوت مكتوم ضخم خفيض من خلف الحوائط السمكية الواقعة وراء المنزل .

قالت « سو » وقد توقفت تنفسها المر تبك : ما هذا ؟ .

« إنه صوت الأرغن في كنيسة الكلية وأعتقد أن عازف الأرغن يقوم بالتدريب على هذا النشيد من المزمور الثالث بعد السبعين ويقول : « أحقا أحب الرب اسرائيل ؟ » .

وأخذت « سو » تبكي في صوت مسموع مرة أخرى وقالت : « أطفال ! أطفال ! ما يحزنني هو أنهم لم يسيئوا لخلق قط ! فلم يؤخذون مني بينما أظن أنا على قيد الحياة ! » .

ونخيم السكون مرة أخرى وفي النهاية قطعته شخصان يتحدثان في الخارج .  
وقالت « سو » في صوت إلى الآنين أقرب :

لأنهم ولا شك يتحدثون عنا لقد أصبحنا أمثلة أمام العالم وأمام الملائكة  
وأمام الناس . وأصاخ « جود » السمع ثم قال : « لا . لأنهم لا يتحدثون عنا .  
لأنهما اثنان من رجال الدين . مختلفان في الرأي ويتناقشان في « الموقف في الشرق » .  
يا إلهي - إنهما يتناقشان في « الموقف في الشرق » بينما الحقيقة كلها تنى » .

وحل السكون ثانية ثم أصابت « سو » نوبة جديدة من الحزن لا يمكن  
السيطرة عليها فشرعت تقول : « شئ شيء خارج عن إرادتنا يقول لنا دائماً لا !  
ففي أول الأمر قال هذا الشئ : « ان تناولوا ما تبتغونه من علم ! » ثم قال : « ان  
تكونوا قادرين على العمل » . والآن ها هو ذا يقول : « ان تحبوا بعضكم  
بعضاً ! » .

وحاول أن يهدئ من ثورتها فقال : « هذا صدى ما في نفسك من مرارة  
أيتها العزيزة » .

— « ولكن هذه هي الحقيقة ! » .

على هذا الحال انتظرا وذهبت « سو » مرة أخرى إلى حجرتها وأصرت على  
أن تترك ثوب الطفل وحذاءه وجوربه كما هم وكانت كلها موضوعة على مقعد عندما  
فارق الحياة ، وذلك على الرغم من أن « جود » حاول جامداً أن يخفي هذه الأشياء  
عن نظرها . وكلها هم بالاقتراب من هذه الأشياء كي يزيحها عن مكانها رجته في  
حرارة أن يتركها في مكانها ، بل لأنها ثارت في وجه صاحبة البيت عندما حاولت  
هي الأخرى أن تخفي عنها هذه الأشياء .

كان « جود » يخاف فترات الصمت التي مرت بها أكثر من نوبات الانفعال  
التي أصابتها من حين لآخر . وعقب نوبة من تلك صرخت تقول : « لم لا نتحدث  
إلى يا « جود » ؟ لا تهرب مني ! لأنى لا أحتمل الوحدة التي تصيبني عندما تحول  
نظرك عني ! » .





— « جاء ذلك في كورس مسرحية « أجاممنون » . لقد استقرت تلك العبارة في ذهني دائماً منذ الحادث الذي وقع لما أخيراً . »

— « جود ، أيها المسكين إنك فقدت كل شيء ! لقد فقدت أكثر مما فقدت أنا إذ يكفيني أنني قد حصلت عليك ! ما أغرب أن تكون على هذه الدرجة من العلم والثقافة نتيجة لجهودك ، وعلى الرغم من ذلك يصبح الفقر والخيبة من نصيبك ! » ،

وعقب هذه الأحاديث كان حزنها يرتد إليها بكل عنف .

وأخيراً جاءت هيئة التحقيق وألقت نظرة على الجثث ثم بدأت البحث والتحرى وبعدها جاء ذلك الصباح الحزين الذي حدد للجنائز . وعلى أثر ما نشرته الصحف من أوصاف للحادث جاء إلى المكان متسكعون فضوليون من كافة الأنواع وقفوا وكأنهم لا عمل لهم سوى أن يحصوا عدد النوافذ وأحجار الحوائط وزاد من فضول هذا الجمع ما أحاط بالعلاقة بين الأبوين من غموض . وعلى الرغم من أن «سو» حرصت على السير خلف جثث الأطفال حتى القبر ، إلا أن أعصابها انهارت في اللحظة الأخيرة وخرجت النعوش من المنزل في هدوء بينما نامت هي في سريرها . واستقل «جود» العربة وحالماً بدأت في التحرك زال كثير من القلق الذي جثم على صدر صاحب البيت إذ لم يبق أمامه الآن سوى «سو» ومتاعها وكان يأمل في التخلص من ذلك كله في اليوم ذاته وبذلك يقضى قضاء تاماً على ما أصاب بيته من سوء السمعة والضرر المدمر من جراء ما قامت به زوجته من السماح لأولئك الأغراب بالإقامة فيه . وفي أصيل نفس اليوم تشاور صاحب البيت مع مالك العقار واتفق الاثنان على أنه لو نشأت لدى الناس أية شكوك حول المنزل ولياقته بتأثير الفاجعة التي وقعت فيه ، فإنهما لا بد أن يحاولا تغيير رقبته .

وعندما تأكد «جود» من أن النعشين ( وفي الأول جثة «جود» الصغير وفي الثاني جثتا الطفلين الصغيرين ) قد ووريا التراب ، رجع مسرعاً إلى «سو» ،



ولما وجدها نائمة في حجرتها لم يشأ أن يزعجها . وبالنظر إلى قلقه عليها ، عاد ثانية ليطمئن عليها حوالى الساعة الرابعة وكانت صاحبة البيت تظن انها ما زالت ترقد في حجرتها غير أن المرأة عادت إليه تقول إن « سو » ليست موجودة في حجرة النوم وليس ثمة أثر لقبعتها أو معطفها مما دل على أنها تركت البيت . وأسرع إلى الحان الذى كان يبيع فيه . ولكنه لم يجدها هناك . وحاول أن يفكر في احتمالات أخرى فذهب إلى المقابر وهناك توجه رأسا إلى المكان الذى تمت فيه مراسيم الدفن وكان المتسكعون الذين اجتذبهم المأساة إلى هناك تفرقوا الآن ولم يبق منهم أحد . كان هناك رجل بيده جاروف يحاول أن يهيل التراب على الأطفال الثلاثة وهناك أيضا امرأة مضطربة النفس تذكره وتحننه وتمسك بذراعه وهى تقف وسط الحفرة التى لم يتم ردمها بعد . ولم تكن المرأة سوى « سو » ترتدى ملابسها الملونة التى ما فُكرت فى استبدالها بملابس الحداد التى اشتراها « جود » لها . فكانت تلك الملابس الملونة توحى بمحزن أعظم كثيرا من ذلك الذى تثيره فى النفس الملابس السوداء التقليدية التى يلبسها الناس عندما يفقدون عزيزا لديهم . وعندما وقع نظرها على « جود » خرجت من الحفرة فى جنون وقالت : « إن هذا الرجل يهيل التراب على صغارى واسكننى ان أدعه دون أن أراهم مرة أخرى ! أود أن أراهم ! لم أكن أدري أنك ستأخذهم منى هكذا بينما كنت نائمة ! لقد وعدتني بأن تدعنى أراهم مرة أخرى قبل دفنهم واسكنك لم تف بوعده بل انتزعتهم منى ! وا حسرتاه يا « جود » إنك أنت أيضا تقسو على » .

قال عامل المقبرة : « تريد منى أن أفتح لها المقبرة مرة أخرى حتى ترى الجثث . من واجبك أن تأخذها إلى البيت إذ من الواضح أن هذه المسكينة لا تعي شيئا . لا يمكننى أن أفتح المقبرة ثانية الآن يا سيدتى فعودى مع زوجك إلى المنزل واهدنى واشكرى الله على أنك سوف ترزقين قريبا بطفل يخفف من شدة حزنك عليهم » .

واسكنها ظلت تقول له فى استعطاف : « ألا يمكننى أن أراهم مرة أخرى — مرة واحدة فقط ! أريد أن أراهم دقيقة واحدة يا « جود » . ان يستغرق ذلك منى

وقتاً طويلاً واسوف يرمحنى ذلك كثيراً يا «جوده» . سأطيعك دائماً وان أخاف لك أمراً بعد اليوم . هلا سمحت لى بذلك يا «جوده» ؟ سأعود فى هدوء إلى المنزل بعد ذلك وان أطلب رؤيتهم بعد اليوم ! هلا أجبني إلى طلبي ؟ لم تمنعوني من رؤيتهم ؟ » .

وظلت على هذه الحال مما دعا «جود» إلى أن يحزن عليها حزناً شديداً جعله يفكر فى محاولة إقناع الرجل كي يفتح المقبرة ، ولكنه أدرك أن ذلك لا يجدى شيئاً بل قد يزيد من حدة حزنهما واعتقد أنه لا مناص من أن يعود بها إلى المنزل فى الحال . وأخذ يتجاول عليهما ويمس لها فى رقة وهو يلف ذراعه حول وسطها ليستندها حتى رضخت واقتنعت بترك المقبرة .

لقد رغب فى أن يحصل على عربة ليعود بها إلى البيت ، ولكنه لما كانت ظروفهما الاقتصادية دقيقة ، لأمته على هذا التصرف وسارا سويا فى بطنه وكان «جود» يرتدى ملابس سوداء بينما هى فى ملابس حمراء وعلى وجهها نقاب أسمر . وكانت خطتهما أن يمتدلا فى ذلك المساء إلى بيت جديد ، إلا أن «جود» لم يجد ذلك أمراً عملياً . وفى النهاية دخل البيت الذى أصبح الآن بغيضاً لهما . وآوت «سو» إلى فراشها دون إبطاء واستدعى الطبيب .

وانتظر «جود» طول الليل فى الطابق السفلى وفى ساعة متأخرة للغاية جاءه النبأ بأن طفلاً ولد له قبل مواعده وأن ذلك الطفل جاء كغيره جثة هامدة .

### ( ٣ )

وعلى الرغم من أن «سو» كانت تتمنى الموت من صميم فؤادها فقد أخذت تتأمل للشفاء كما حصل «جود» مرة أخرى على وظيفة فى صنعة القديمة وانتقل إلى سكن جديد فى اتجاه «بيرشيبيا» ولا يبعد كثيراً من كنيسة «الطقوس» المسماة بكنيسة «القديس سيلاس» .

وجلس الاثنان صامتين تروعهما نذر العدا المباشرة الذى كانا يشعران به فى كل ما أحاط بهما أكثر مما روعهما جمودهما المعطل . كانت الخيالات الغامضة

والصور الغريبة تطارد « سو » في الأيام التي أضاء فيها عقلها كنجم فرأت الحياة وكأنها مقطع شعري أو أغنية عاطفية دججت في حلم . لقد بدت الدنيا شيئاً رائعاً حقاً عند ما تخضع للتفكير يتأرجح . أما في اللحظة الكاملة فهي شيء سخييف لا يرجى له صلاح .

قالت في حزن : « لا بد من الخضوع ! إن كل الغضب القديم للقوة العليا قد ساط علينا نحن مخلوقاتنا الضعيفة ولا بد لنا من الاستسلام وما من فرصة للاختيار لا مناص من ذلك ! » .

كان : « إنها فقط حرب ضد الإنسان والظروف التي لا ذاب لها ، وغرغمت تقول : « هذا حق ! ويحيي فيم كنت أفكر ! أصبحت بمن يؤمنون بالخرافات كالمتوحشين من سكان الغابات ! ولكن مهما كان عدونا وكيفها كانت طبيعته فقد خضعت واستسلمت . لم تعد لي قوة أحارب بها وقد هنت مني العزيمة وهزمت . لقد هزمت تماما ! ... » لقد أصبحنا مرثاة أمام العالم ، وأمام الناس ! إلى أردد ذلك الآن دائماً .

— « وأنا أحس بنفسي الشعور ! » .

— « وماذا نفعل الآن ! إنك تجد الآن عملاً ولكن تذكر أنك ستظل فيه طالما أن قصة حياتنا لا يعرفها إنسان . وبمجرد أن يشاع أن زواجنا لم يتم رسمياً فسيطردونك من وظيفتك كما فعلوا في « الدبركهام ! » .

— « لا أدري على التحقيق ومن الجائز أنهم لن يفعلوا . ومع ذلك ، أعتقد أن الوقت قد حان لنجعل زواجنا رسمياً وذلك بمجرد أن تصبحي قادرة على الخروج . »

— « تظن ينبغي ذلك ؟ » .

— « بالتأكيد . »

وأطرق منهكراً ثم قال : « بدوت أخيراً في نظر نفسي وكأنني واحد من تلك الجماعة الكبيرة التي يتحاشاها الفضلاء من الناس ، تلك المسماة بجماعة المضللين

تدهشني هذه الحقيقة كلها فكبرت فيها ! لم أكن مدركا لها من قبل ، كما لم أدرك أنني أسأت إليك في شيء . إذ أنني أحبك أكثر من نفسي ، ومع ذلك لا أشك في أنني أحد هؤلاء الرجال ! أحيانا أسائل نفسي هل من بين هؤلاء المضللين من هو ساذج قصير النظر مثلي ؟ أيجل يا دسو ، هذه هي حقيقتي . لقد خدعتك ! كنت دائما نموذجاً ممتازاً ، مخلوقة مهيبة أرادت لها الطبيعة ألا تمسسها يد . ولست أكنى لم أستطع أن أتركك وشأنك ! » .

قالت دسو ، في سرعة : د لا . لا يا د جود ، ! لا تنهم نفسك بما ليس فيك . لو كان من يلام فأنا هي ، .

« لقد أيدت في تصميمك على ترك د فياوتسون » ولولاي من الجائز أنك ما كنت لتحثيه على السماح لك بالرحيل . »

— « كان لا بد أن أفعل هذا . أما عنا فإن عدم ارتباطنا بعقد قانوني هو الظاهرة المنقذة لوحدةنا . بهذه الطريقة نحاشينا تعريض الزواج الأول لكل منا للهانة . ونظر إليها في شيء من الدهشة إذ بدأ يدرك أنها ليست دسو ، التي عرفها في عهدهما الأول وقال : « أتقولين مهانة ؟ » .

قالت والكلمات ترتعش على شفثتها : « نعم إذ اتتا بتي أخيرا بخاوف رهيبه ، شعور فظيع بالذنب لشناعة ما أقدمت عليه من تصرفات . تراودني الآن فكرة أنني ما زلت زوجته ! » .

— « زوجة من ؟ » .

— « ريتشارد ، » .

— « يا إله السماوات والأرض . ولم هذا أيتها العزيزة ؟ » .

— « أوه . لا يمكنني التفسير الآن ! الفكرة فقط تراودني ، » .

— « إنه ضحكك . خيال سقيم يخلو من التحلل أو المعنى ! لا تجعله يزحجك ، » .

وتنهدت دسو « في قلبي . »

ومما خفف عليهما وفع هـ هذه المناقشات وما تشير في نفسيهما من ألم أن أوضاعهما المالية أصابها شيء من تحسن لو حدث لهما في مطلع حياتهما لا دخل عليهما البهجة إذ حصل «جود» لحاجة على عمل دائم وثيق الصلة بمهنته القديمة وحدث ذلك بمجرد وصوله إلى «كرايستمينيستر» . وعاونته جو الصيف على استعادة صحته ومرت الأيام في تشابه بل وكان ذلك شيء يشكر الله عليه كثيرا بعد كل ما عاناه من تقلبات الأيام وما حملت له هذه من مناجات ، وبدا وكأن الناس نسوا تماما أنه كانت له في يوم من الأيام انحرافات سيئة .

كان يصعد يوميا إلى مشربيات الكلمات وعقودها العليا ولم يكن يسمح له بدخولها من قبل . وظل يقوم بتجديد الصنخور المتداعية داخل النوافذ الصغيرة ذات العوارض الرأسية ، وطالما تمنى أن تسنح له فرصة الوقوف أمامها والتطلع منها ، وكان يقوم بعمله كما لو أنه الشيء الوحيد الباقي له في الحياة .

هذا كل ما طرأ عليه من تغيير . وانشغل بعدله إلى حد أنه ما عاد يتردد على السكنايس - شيء واحد فقط أفاق باله أكثر من أى شيء آخر . ففيما يتعلق به وبسو ، ذهب كل منهما في تفكيره في اتجاه مضاد وبدأ ذلك منذ أن وقعت المأساة إذ بينما علمته الأحداث أن تكون نظراته إلى الحياة والقوانين والعادات والعقائد واسعة ، لم يكن لهذه نفس التأثير على «سو» وطريقة تفكيرها في الحياة فلم تعد نفس المرأة أيام أن كانت حرة يجرى تفكيرها كالبرق الخاطف في مجالات التقاليد والأوضاع الثابتة في المجتمع ، تلك التي احترمها «جود» في الماضي وأصبح الآن لا يؤمن بها .

وفي مساء معين من أمسيات الأحاد عاد «جود» متأخراً قليلاً فلم يجد «سو» بالبيت ولم يطل غيابها إذ عادت لتوها وكانت تبدو صامتة مفسكرة .

قال وعلى وجهه مسحة من الفضول : «فيما تفكرين أيتها المرأة الصغيرة ؟» .  
— « لا أستطيع أن أوضح في دقة ! أعتقد أننا كنا طوال هذا الوقت على قدر كبير من الأناقة والتقصير . بل إنني أعتقد أننا من الملحدن المفرطين ،

كانت حياتنا محاولة فاشلة لإرضاء نزواتنا ، غير أن إنكار الذات هو الطريق  
الأسنى . ينبغي أن نذل الجسد ، ذلك المرعب - لعنة آدم ، .

وغنمهم يقول : « سو ! ماذا دهاك ؟ » .

— « ينبغي أن نضحى بأنفسنا دائماً على مذبح الواجب ! لم أحاول في الماضي  
إلا القيام بما يدخل السرور على نفسى . لقد استحققت ما أصابنى من كوارث !  
ليتنى أستطيع أن أنزع من نفسى كل عوامل الشر وأن أقضى على كل ذنوبى وكل  
أساليب حياتى الخاطئة ! » .

— « كم أنت تتعذرين أيتها العزيزة ! إنك لست بالمرأة الشريرة فغرائزك  
الطبيعية سليمة تماماً ومن الجائز أنها ليست من النوع الملتهب كما كنت أتمنى ،  
ولكنها طيبة وغالية ونقية . وكما قلت دائماً ، أنت أكثر النساء اللاتى عرفتهن  
تجرداً من روح المادة وأقنهن شعوراً بالجنس . لِمَ تتعذرين بهذه الطريقة المختلفة ؟  
لم نكن أنايين إلا عندما كانت فى أنايتنا فائدة ، لإنسان . كنت عادة تقولين  
إن الطبيعة البشرية نبيلة وصابرة على الأسى وليست شريرة أو فاسدة . وأخيراً  
ظننت أنك تقولين الحق . أما الآن فتغيرت نظرتك وانعكست تماماً . »

— « أريد قلباً متواضعاً وعقلاً مطهراً ولم أحصل عليهما بعد ! »

— « كنت شجاعة فى تفكيرك كما كنت كذلك فى إحساساتك واستحققت  
من الإعجاب أكثر مما أعطيتك . كانت نفسى مترعة بالعقائد الجامدة فعمزت  
حينئذ عن إدراك الحقيقة . »

— « لا تقل ذلك يا «جود» ! ليتنى أستطيع أن أقتنع من حياتى كل كلمة  
شجاعة قلتها وكل فكرة جريئة خطرت لى ، بل إن إنكار الذات هو الآن كل  
شئ أفكر فيه ! ليتنى أستطيع أن أحترق نفسى إلى أقصى حد . ليتنى أنخس جسدى  
بالأبر حتى يذوب فيزول ما بى من شر ! »

قال «جود» وهو يضم وجهها الصغير إلى صدره وكأ أنه يضم رضيعاً : « كفى !

إنه الحزن هو الذى صيرك هكذا ! مثل هذا التأنيب ليس لك ولا تستحقينه أيتها الزهرة الرقيقة بل إنه للنحشرات الحفيرة التى تدب على الأرض وإنما ان تحس بذلك الذى تحسينه !

وبعد أن ظلت فى مكانها لحظة قالت : « ينبغى ألا أبقي هكذا ! »

— « ولِمَ لا ! »

— « أسمى ذلك انفاسا فى الملمات . »

— « مازالت على نفس النهج ! ولستكن هل على الأرض ما هو أفضل من أن يحب أحدها الآخر ؟ »

— « نعم يتوقف ذلك عن نوع الحب . إن حبك - حبنا - هو الخطأ . »  
— « ان أسمح بأن تنفوهى بمثل هذا الكلام ياسو ! تعالى . متى ترغبين فى أن نذهب إلى إحدى الأبروشيات لنسجل فيها زواجنا ؟ »

وصمتت برهة ثم رفعت عينيهما فى ضيق وهمت تقول : « كلا ! مطلقا . »  
ولما لم يدرك تمامها معنى قولها قابل معارضتها فى تجهم وسكت . ومرت بضع دقائق اعتقد خلالها أنها نامت ولستكنه تكلم فى لطف واكتشف أنها طول الوقت متيقظة أخيرا اعتدلت فى جلستها وتنهأت .

قال . « ثمة عطر عجيب ينموح منك الليلة ، بل ثمة جو لا يمكن وصفه يحيط بك يا دسو . لا أقصد هذا العطر وذلك الجو اللذين يخلقهما التفكير والتعقل فقط بل العطر والجو اللذين يخلقهما الملابس . إنه نوع من الرائحة تشبه رائحة الخضروات أعرفها جيدا ولستكننى لا أستطيع أن أذكرها . »

— « إنها بخور . »

— « بخور ؟ »

— « حضرت القديس فى كنيسة « القديس سيلاس » وتشبعت بالبخور . »

— : « أوه - « القديس سيلاس »

— : « نعم وإني أذهب إلى هناك أحيانا . »

— : « حقا . وهل تذهبين إلى هناك ! »

— : « كما ترى يا « جود » ، إني أحس بالوحدة هنا في أثناء النهار عندما تكون في عملك وإني أبقى هنا أفكر في — أفكر في — . » وتوقفت عن الكلام حتى يزول ما في حنجرتها من حشيرة مفاجئة ثم استمرت تقول : « تعودت الذهاب إلى هذه الكنيسة فهي قريبة من هنا » .

— : « أوه . حسن . بالطبع لا أعارض في ذلك . كل ما هنالك أن هذا التصرف يبدو غريبا . أظن أنهم يدركون عند ما تكونين هناك أى نوع من الناس يصلى بينهم ! » .

— : « ما ذا تقصد يا جود » .

— : « إنك ملاحظة لو اردت الصراحة » .

— : « لم تؤلمني هكذا أيها العزيز وأنا في محنتي ! ومع ذلك أعلم أنك لا تقصد إيلاي ولكن ينبغي ألا تقول ذلك » .

— : « ان أفعل . ولكنني أشعر بدهشة شديدة ! » .

— : « حسن . أود أن أخبرك بشيء آخر يا « جود » . ان تغضب مني أليس كذلك ؟ فكرت طويلا في الأمر بعد وفاة أطفالي . لا أظن أنه ينبغي أن أكون زوجتك أو أن أعيش معك على هذا الاعتبار بعد الآن » .

— : « ما ذا تقولين ؟ ولكنك زوجتي بالفعل ! » .

— : « هكذا من وجهة نظرك أنت ولكن » .

— : « طبعاً كنا نخشى الطقوس الدينية ونفس الشيء كان يمكن أن يحدث لغيرنا من لهم نفس الظروف إذا كانت لديهم نفس الدواعي القوية للخوف إلا أن التجربة



أثبتت أننا أسأنا الحكم على أنفسنا وبالفنا في تقدير مظاهر العجز فينا . إذا كنت قد بدأت تحترمين الشعائر الدينية وتقدسين الطقوس الكنيسية كما يبدو هذا واضحا فأنى أعجب لأنك لا تطالبين بالتنفيذ في الحال ! أنت زوجتى دون جدال يا «سو» ، زوجتى من جميع النواحي إلا من ناحية القانون . ما ذا قصدت بالكلام الذى تفوهت به الآن ؟ .

— « لا أعتقد أننى زوجتك ! » .

— « لا تعتقدين ذلك ! ولكن افترض أننا قمنا بمراسم الزواج هل كنت فى هذه الحال تشعرين أنك زوجتى ؟ » .

— « لا . وحتى فى هذه الحال ما كنت لأشعر أننى زوجتك ، بل إن شعورى يكون أسوأ مما هو الآن » .

— « لم كل هذا الالتواء والتناقض أيتها العزيزة ؟ » .

— « لأننى أخص «ريتشارد» . »

— « آه - لقد نوهت لى من قبل عن هذا الوهم السخيف ! » .

— « كان ذلك مجرد شعور غامض فى نفسى ولمكننى كلما تقدم بى الوقت أشعر أننى أكثر اقتناعا بأننى أخصه هو ولا أخص أحدا غيره » .

— « يا لى ! كم تغيرت ! » .

— « نعم . قد يكون الأمر كذلك ! » .

وبعد مرور عدة أيام ، وفى غسق إحدى الأمسيات ، كانا يجلسان فى نفس الغرفة الصغيرة فى الطابق السفلى عندما سمعا طرقا على الباب الأمامى لمنزل النجار حيث كانا يقيمان ، وبعد فترة قصيرة سمعا طرقا على باب حجرتيهما نفسها وقبل أن يفتحا الباب تولى القادم هذا العمل بنفسه وظهرت أمامها امرأة تقول : « هل السيد » فولى « موجود ؟ »

وانتفضت «سو» و«جود» بينما أجاب الأخير بطريقة آلية يقول إنه موجود ولم يكن القادم سوى «أرابيلا» .

دعائها في فتور. إلى الداخل فدخلت وجلست على المقعد المجاور للنافذة وحينئذ استطاعا أن يريا هيئةها من خلال الضوء. ولما كنهما عجزا عن أن يريا في وضوح ما كنهما من إدراك حقيقة هئيتها ومظاهرها العام. غير أنه كان ثمة ما يدل على أنها كانت تمر بظروف عسيرة إذ لم تكن مرتبة المندام كما كانت في حياة «كارليت».

وظل ثلاثتهم يحاولون الدخول في حديث ثقيل على النفس يدور حول الفاجعة التي أحس «جود» أن من واجبه أن يحيطها علما بها في أسرع وقت ممكن فكتب لها بذلك ولم ترد على خطابه. قالت: «لم أستطع أجيء لحضور الجنازة، ومع ذلك إنني شاكرة لك دعوتي لحضورها. قد قرأت القصة كاملة في الصحف وشعرت أن وجودي غير مرغوب فيه. لا. لم يكن باستطاعتي أن أحضر تشييع الجنازة. وكررت ذلك وكان يبدو عليها العجز المطلق عن الوصول في حديثها إلى قمة الفاجعة، لذلك تعثرت الكلمات على شفيتها وخرجت كلمة مذبذبة وأخذت تقول: «ولكنني سعيدة بعثوري على القبر. وبما أن هذه هي حرقك يا «جود» فستتمكن من أن تقيم الأطفال المساكين لوحة أنيقة تكون شاهدا على قبرهم».

وقال في انقباض: «سأفهم لهم نصيبا».

-- «كان الفلام ابني ومن الطبيعي أن أشعر بالحزن لفقده».

-- «هذا ما أرجوه. أما نحن فقد شعرنا من ناحيتنا بذلك».

-- «أما الطفلان الآخران فلم أحزن كثيرا على موتهما لأنهما ليسا طفلاي وهذا أمر طبيعي».

-- «طبعاً».

وجاءت زفرة حارة من الركن الذي قبع فيه «سو» واستمرت السيدة «كارليت» تقول: «تمنيت دائماً أن يظل طفلي معي وفي هذه الحال ما كان ليحدث ما حدث! ولما كنتني لم أشأ طبعاً أن انتزع من زوجتك».

وجاء صوت «سو» يقول : «لأننى لست زوجته» .

ونزلت هذه الكلمات المفاجئة نزول الصاعقة على سمع «جود» .

وقالت «أرابيلا» : «أرجو المَعذرة . تأ كدى أننى لم أكن أعلم أنك لست زوجته !» .

وأحس من صوت «سو» ونبرته الغريبة أن آراءها الجديدة تكن وراء كلماتها ولكن هذه كانت بالنسبة لأرابيلا تتضمن من المعانى ما يفوق معناها الظاهر . وبعد أن أظهرت «أرابيلا» دهشتها لتصريح «سو» استجمعت قواها وظلت تتحدث فى بلاغة متعمدة عن طفلها هى وحرصت على أن تظاهر من أجله حزناً متكلفاً تستهدف من وراءه إراحة ضميرها المعذب لأنها لم تهتم به فى أثناء حياته أقل اهتمام . وأشارت إلى الماضى وعادت تستشهد بسو إلا أنها لم تتأق منها أى جواب إذ كانت هذه غادرت الغرفة دون أن يحس بها أحد . واستمرت «أرابيلا» تقول فى نفمة جديدة : «قالت إنها ليست زوجتك ! ما الذى يدعوها إلى مثل هذا القول ؟» .

قال فى اقتضاب : «لا أستطيع أن أقول شيئاً» .

-- «لأنها زوجتك . أليس كذلك ؟ أخبرتنى ذات مرة أنها كذلك» .

— «لأننى لا أعترض على ما قالت» .

-- «آه . هذا حق ! على أى حال حان وقت رحيلى . سأقضى الليلة فى هذه الناحية وهذا ما جعلنى أرى من واجبى أن أحضر إليك لأراك بعد كل وقتنا المشتركة . إننى أقيم فى نفس المشرب الذى عملت به كساقية وسأعود غداً إلى «الفردستون» . لقد عاد أبى أخيراً وأعيش معه الآن» .

قال دون أن يظهر شيئاً من الاهتمام : «وهل عاد من استراليا ؟» .

— «نعم . لم تسر الأمور سيراً مرضياً . لقد أمضى هناك أوقاتاً شديدة إذ ماتت أمى على أثر إصابتها بالدوسنطاريا . ماذا تسمون أنتم هذا المرض هنا ؟» .

وعاد والدى منذ مدة قصيرة ومعه اثنان من إخوتى الصغار واستأجر كوخا صغيرا بالقرب من منزلنا القديم وأنا الآن أعاونه فى إدارته .

لقد كانت زوجة « جود » السابقة تتبع طريقة واحدة لا تتغير تبدو فيها وكأنها حسنة التربية حتى عندما غادرت « سو » المكان . لهذا لم تستمر الزيارة أكثر من بضع دقائق ظلت تتصرف خلالها فى احتشام . وعندما خرجت أحس بارتياح كبير فذهب إلى السلم ونادى على « سو » إذ كان قلقا عليها .

لم يسمع ردأ على ندائه وقال النجار صاحب البيت إنه لم يرها . لقد شعر « جود » بالحيرة واستولى عليه الفزع لغيابها إذ كان الوقت متأخرا . ونادى النجار زوجته التى توقعت أن « سو » توجهت إلى كنيسة القديس سيلاس كعادتها فى الفترة الأخيرة .

قال « جود » . « هذا مستحيل . فالكنيسة مغلقة فى هذه الساعة من الليل » .  
— « إنها تعرف الشخص الذى يحمل المفتاح وهى تحصل عليه كلما أرادت ذلك » .

— « كم من الزمن مر عليها وهى تتردد هكذا على الكنيسة ؟ » .

— « أظن بضعة أسابيع » .

وسار على غير هدى فى اتجاه الكنيسة التى لم يزرها منذ كان يسكن فى تلك الناحية قبل ذلك بسنوات عدة عندما كانت آراؤه أكثر تصوفا مما هى الآن . كانت البقعة مهجورة والسكن الباب كان مفتوحا فرفع المزلج فى هدوء ودفع الباب خلفه ووقف فى الداخل ساكنا تماما . كان السكون الخيم يبدو وكأن صوتا ضعيفا يتخلله ويمكن تفسيره على اعتبار أنه تنفس أو نجيب وكان الصوت آتيا من الطرف الآخر للكنيسة . وعندما تحرك « جود » فى ذلك الاتجاه وسط الظلام الذى خفف من حدته ضوء الليل الضعيف المتسلل من الخارج تلاشى صوت أقدامه فى البساط السميك الذى فرشته به أرض الكنيسة .

استطاع جود أن يرى في أعلى المنبر صليبا ضخما لا تينيا . كان في حجمه يقرب من الصليب الحقيقي الذي فرض أن يكون هذا تذكارا له . كان الصليب معلقا في الهواء بأسلاك رفيعة لا تراها العين ومرصعا بأحجار كريمة كبيرة الحجم تشرق في خفوت لتعكس شعاعا من النور يتسلل من خارج الكنيسة إلى داخلها إذ كان الصليب يهتز يمينا ويسارا في حركة لا تكاد تحس . وفوق الأرض هناك كومة من الملابس السوداء وهذه مصدر النحيب الذي سمعته . كان جسد «سو» هو الذي أمامه إذ كانت قد انبطحت بكل جسدها على الأرض .

وهمس يقول : « سو » ! .

وكشفت له عن وجهها فتألا في الظلام شيء أبيض .

قالت في حدة : « ماذا تريد مني هنا يا « جود » ؟ كان يجب عليك ألا تحضر . أردت أن أكون وحدي ! لم تطفلت بالدخول إلى هنا ؟ » .

وأجابها مما تبا إذ أصيب في صميم قلبه من لهجتها وقال : « كيف استطعت أن تسأليني هذا السؤال ؟ أنا الذي أحبك أكثر من نفسي — أكثر . أوه ، بل أكثر كثيرا من حبك لي ! ماذا دفعك إلى أن تتركيني وتأتي إلى هنا بمفردك ؟ »

— « لا تؤنبني يا « جود » ، فإنني لا أحتمل منك كل هذا النقد . اطالما أخبرتك بذلك قبلا . لا بد أن تقبلني كما أنا . إنني شقية حطمني ضاللي وشرودي ! لم أحتمل أن أرى « أرايلا » في بيتك فشعرت بالتهاسة المطلقة ورأيت ألا مفر من مجيئي إلى هنا . إنها تبدو وكأنها ما زالت زوجتك ويبدو « ريتشارد » وكأنه زوجي ! » .

— « ولكن لا أهمية لها بالنسبة لكليتنا ! » .

— « نعم أيها الصديق ، إنهما كل شيء بالنسبة لنا . إنني أنظر إلى الزواج الآن نظرة مختلفة . لقد انتزع أطفالني هذا ! إن قتل ابن « أرايلا » ، لأولادي كان حكما صارما فالشرعي يقضى على غير الشرعي . ماذا أفعل ! إنني امرأة شريرة وإنني أحقر من أن أختلط بالآدميين العاديين » .

قال وقد أوشك على البكاء : « يا للهول ! من الظلم البالغ لك وبما لا يتفق وطبيعة الأمور أن تعاني من تأنيب الضمير على هذه الصورة الشاذة في حين أنك لم ترتكبى خطأ ما ! » .

— آه .. أنت لا تدري ما أنا عليه من سوء ! » .

ورد عليها في قوة وحاسة فأثلا : « بل أعرف هذا جيدا ! أعرفه بكل جزئياته وتفصيلاته . لقد جعلتني أكره المسيحية كنظام كهنوتي ، والمسيحية كآسلوب من أساليب التصوف وغير ذلك من الأسماء والصور إن كان ذلك هو مصدر النكسة التي خللت بك . ما أعجب أن تنزل امرأة بنفسها إلى هذا الخنيز - امرأة لها من شاعرية النفس وعمق البصيرة وصفاء الجوهر ما يجعلها أمنية كل قلب وأنشودة كل إنسان بحيث تشعر نفوس عقلاء الدنيا بالفخر لمعرفتها ! يسعدني كثيرا أنني أصبحت بعيدا كل البعد عن أمور الدين فيا لفرحة نفسي لو كان الدين يفسدك على هذه الصورة !! » .

— « أنت حانق على يا « جود » وتعاملني بقسوة ولا ترى الأمور على حقيقةتها » .

— « إذن تعالى إلى البيت معي أيتها العزيزة وحينئذ ربما أغير رأيي . لقد ثقل على الحمل وهما أنت ذى أيضا أصابك التفكير . « ولف ذراعه حول خصرها ثم أنهضها من فوق الأرض ولمكنها فضلات أن تسير دون مساعدته . وقالت في صوت رقيق حلو فيه رجاء : « إنني لا أكرهك يا « جود » بل أحبك كما كنت دائما . كل ما هنالك أنتى يجب ألا أحبك بعد الآن . نعم . يجب ألا أحبك بعد الآن ! » .

— « لا أستطيع أن أصدق ذلك » .

— « ولكنني انتهيت إلى قرار وهو أنني لست زوجتك ! إننى أخصه هو . لقد ارتبطت به ارتباطا مقدسا مدى الحياة ولا يمكن أن يحل شيء هذا الرباط » .

— « واسكننا بالتأكيـد زوج وزوجة لو كان ثمة وضع كهذا فى العالم . إنه زواج يمت للطبيعية ذاتها بأقوى الأسباب ويتفق كل الاتفاق مع قوانينها » .

— « واسكنه ليس زواج السماء . لقد عقدلى هناك زواج آخر سـجل تسجيلا أبديا فى كنيسة « مياشيستر » . »

— « سو . سو . إن عذاب الحزن هو الذى أوصلك إلى هذه الحالة التى لا تخضعين فيها للمنطق أو العقل فبعد أن أقعنتى برأيتك فى أمور كثيرة أجـدك الآن أصبحت لجأة وقد داخلتك الشكوك فى صحة أوضاعنا دون سبب واضح وهذا أنت ذى تعزين إلى كل ما قلته وآمنت به من قبل لمجرد العاطفة الطارئة ! . إنك بذلك تقضين على كل ما تبقى فى نفسى من حب للكنيسة أو احترام لتعاليمها بصفتى تابع قديم من أتباعها المؤمنين . إن مالا أستطيع أن أفهمه فيك هو تنسرك العجيب لمبادئ الأصلية التى درجت عليها وطريقة تفكيرك القديمة . هل جميع النساء هكذا أم أن هذا عيب فيك خاصة ؟ هل المرأة وحيدة مستقلة فعلا أم أنها مجرد كم ضئيل لقيمة له بمفرده ؟ كم ناديت بأن الزواج ما هو إلا عقد قبيح . وإنه لكذلك فى رأي . وكم عارضت فيه بكل قواك وأظهرت ما ينطوى عليه من عيوب اكنا فى الماضى سعداء تماما ولا أرى سببا يحول دون ذلك الآن . إننى فى ظلام ولا أفهم شيئا مما يحيط بى ! » .

— « آه أيها العزيز « جود » . مرجع ذلك هو أنك كالأصم الذى يرقب الناس وهم يستمعون للموسيقى فيقول فى نفسه : « ماذا يرقبون ؟ ليس ثمة ما يرقبونه ، بيد أن الواقع هو أن ثمة شيئا يرقبونه » .

— « فى قولك هذا قسوة وهو لا ينطبق على حالتى . لقدت حررت نفسك من الأفكار القديمة والعادات البالية كما علمتني كيف أفعل ذلك . والآن هأنت ذى تعودين إلى الوراء وتعارضين نفسك . أعترف بأننى كنت مخطئا خطأ جسيما فى تقدير مزايالك » ،

— « يا صديقى العزيز ويا صديقى الوحيد لا تسكن قاسيا فى حكمك على ا

ليس في يدي أن أهرب من طبيعتي . لاني مقتنعة بأنني على حق . بل لاني على ثقة بأنني أرى النور أخيرا ، ولكن ويحي ! كيف أستطيع أن أفيد من هذا النور . .

وسارا سوريا حتى أصبحنا خارج البناء . وعندما عادت لتعيد إليه المفتاح قال وقد خالجه قدر ضئيل من الأمل وخاصة عندما وجد نفسه في الطريق العام المفتوح أمامه : « أيمن أن تكون هذه هي الصبية ، نفس الصبية التي جلبت صور عهود الوثنية وتمثيلها إلى هذه المدينة المتعمقة في المسيحية ؟ أيمن أن تكون هي نفس الصبية التي سخرت من الآنسة « فمتوفر » عندما داست بكعب حداثها هذه التماثيل ؟ أيمن أن تكون هي التي قرأت للأورخ « جيبون » وحفظت أشعار « شيللي » ودرست فلسفة « جون ستيوارت ميل » ؟ أين أنت أيها العزيز « أبولو » وأنت أيتها العزيزة « فينوس » الآن . .

قالت وهي تلتحج : « لا ، لا — لا تكن شديدا على هكذا سببا وأنتي أشعر الآن بالتمعاسة . لاني لا احتمل ذلك ! كنت خاطئة فلا أستطيع الآن أن أقارعك الحجة ولقد أخطأت عندما تعاليت في غرور ! لقد وضعت عودة « أرابيلا » نهاية لكل شيء . لا تلمني فلومك يحز في نفسي كالسكين ! « وألقي « جود » بذراعيه حول جسدها واحتواها بكلتا يديه وظل يقبلها في قوة وحرارة قبل أن تتمكن من منعه . وظلا يسيران حتى وصلا إلى نزل صغير فقالت وهي تكبت في عينيها الدموع : « هل تمنع في أن تحصل لي على سكن هنا ؟ » .

— « سأفعل لو كانت هذه حقاً رغبتك . ولكن هل هذه رغبتك حقاً ؟ دعينا نسير حتى باب البيت وهناك سأحاول أن أفهمك أكثر » .

وعاد الاثنان إلى حيث يقطنان . وقالت لئلا لا ترغب في تناول العشاء وصعدت في الظلام إلى الدور العلوي وأضاءت النور وعندما استدارت وجدت أنه لحق بها وكان يقف عند باب الفرفة فأتجهت إليه ووضعت يدها في يده وقالت : « أسعدت مساء » .



— « ولكن يا « سو » ، ألا نعيش سويا هنا ؟ » .

— « وعدت أن تفعل ما أطلبه منك ! » ،

— « والآن قد أكون أخطأت عندما ناقشتك دون مراعاة للذوق السليم .  
قد يكون من الأوفق لنا أن نفترق طالما أننا لم نتمكن من عقد زواجنا بأمانة في  
أول الأمر بالطريقة التقليدية القديمة . قد لا يكون العالم على درجة من التنور  
تكفي لتفهم تجربة كتجربتنا ! ومن نكون نحن حتى نخيل إلينا أننا نستطيع أن  
نكون الطليعة في هذا الميدان ! » .

— « يسعدني على كل حال أن تدرك كل هذا الآن . لم آت ما أتيت قط عامدة .  
لقد أنزلت وسقطت بدافع من الغيرة والانفعالات العنيفة » .

— « ولكنني لا أشك أن الحب كان من بين الدوافع . ألم تحبيني ؟ » .

— « نعم أحببتك ولكنني وددت أن يقف الأمر عند هذا الحد وأردت  
أن نبقى مجرد اثنين تعاهدا على الحب » .

— « ولكن المحبين لا يمكن أن يظلوا هكذا مدى الحياة » .

— « النساء يمكنهن ذلك أما الرجال ، فلا ، لأنهم لا يريدون أن يظلوا هكذا .  
إن المرأة العادية التسمو على الرجل العادي في هذا المقام إذ أنها لا تاتي نداء الغريزة  
بل تتجاوب مع العاطفة فحسب . كان ينبغي علينا أن نعيش في وحدة ذهنية ولا  
نعدو ذلك قط » .

— « كنت أنا السبب في هذا التغيير المشؤم كما قلت ذلك قبلا : حسن لك  
ما تشائين ! ولكن الطبيعة البشرية لا يمكن إلا أن تكون هي الطبيعة البشرية » .

— « نعم هذا بالضبط ما ينبغي أن نتعلمه - والذي يجب أن نتعلمه هو ضبط  
النفوس » .

— « أكرر هذا لو كان أحدنا هو الملام لكنت أنا وليس أنت » .

... « لا . بل أنا الملامة . كل ذنبك أنك خضعت للطبيعة . وليس ذلك إلا تعبيراً عن رغبة الرجل في امتلاك المرأة وهذا تعبير طبيعي للغاية . أما خطيئتي فلم يكن أساسها الرغبة المتبادلة حتى دفعني الحسد إلى التفوق على « أرابيلا » . فأت لنفسى ينبغي من باب الإحسان أن أدعك تقترب منى وأعتقدت أن من الانانية اللعينة أن أعذبك كما عذبت من قبل صديقي الأول . غير أنني ما كنت لأستسلم لك لو لم تقض على مقاومتي بتهديدي بالعودة إليها . انكشف عن الكلام في هذا الموضوع الآن ! هلا تركتني لحظة بمفردي ؟ » .

وانفجر « جود » يقول : « نعم . ولكن يا « سو » ، يا زوجتي — وأنت كذلك أُمّامي وأمام الله ! لقد كان تعنيفي لك من قبل في مكانه ! أنت لم تحبيني قط بالقدر الذي به أحببتك . أبداً ، أبداً . ليس قلبك عامراً بالحب بل إن قلبك لا يحترق بعاطفة الحب ! أ كاد أقول إنك تتأسبين لعالم الجن وليس لعالم الإنسان ! » .

— « إنني لم أحس نحيوك بالحب في بادئ الأمر يا « جود » . إنني أعترف لك بذلك . عندما عرفتك لأول مرة أردت منك فقط أن تحبني . لم أقدم على التقرب منك وإثارة عاطفتك نحيوي ولكن الحنين الغريزي الذي يهدم خاق بعض النساء — وليست العواطف الجائعة — الحنين لجذب الانتباه ثم الاستئثار بالشخص كاه دون اعتبار للضرر الذي قد يصيبه : هو الذي سيطر على تصرفاتي . وعندما وجدت أنني أرقعتك في حبائلي شعرت بالخوف بعد ذلك ، ولا أدري كيف حدث ذلك ، لم أطق أن أتركك ترحل عني إذ ربما ذهبت إلى « أرابيلا » مرة أخرى وعلى ذلك دُفعت إلى حبك دفعا . ولكن هأنذا ترى أنه مهما انتهى الأمر بنا إلى الحب الصادق إلا أن حب الذات والقسوة والرغبة في أن أجعل قلبك يتعذب من أجلى دون أن يتعذب قلبي من أجلك كانت هذه كلها هي البداية » .

— « والآن هأنذا ترى تزيدين من قسوتك بهجرك لإيبي » .

— « آه . نعم ! كلما تعثرت في تصرفاتي زاد الضرر الذي أوقعه بالآخرين » .

— « واأسفاه يا « سو » . قال « جود » ذلك وقد تملكه شعور بالخطر

المفاجيء فاستمر يقول : « لا تفعل شيئا ينافي المبادئ الأخلاقية لأغراض أخلاقية . لقد وجدت فيك خلاصى الاجتماعى فابق معى بحق الإنسانية ! أنت تدركين أى شخص ضعيف أكون . إنك تعرفين العدوين اللدودين للذين أعانى منهما كثيرا وهما ضمني حيال النساء وانغمسى فى الشراب . لا تتركينى وحيدا لا لشيء إلا لتتذى نفسك فألجأ إلى هذين العدوين يا «سو» لقد ابتعدت عن هذين العدوين طالما كنت . أنت ملاكى الحارس ! منذ أن كنت لى تمكنت من اجتياز هذه التجارب دون خطر الوقوع فريسة لها . ألا تساوينى سلاقتى تضحيتك ببعض هذه المبادئ الجاهلة ؟ إننى فى رعب اثلا - لو هجرتى - تتكرر معى مأساة الخنزير الذى عاد يتبرخ فى الوحل بعد أن اغتسل ! » . وانفجرت «سو» فى البكاء وقالت : « ولكن يجب ألا تفعل ذلك يا «جود» ! إنك لن تفعل ذلك ! صلّ من أجلى صباحا ومساء ! » .

وقال فى نفذة رقيقة : « لا تشغلى بالك من ناحيتى ولا تحزنى . لقد قاسيت ويشهد الله على ذلك . قاسيت بسبيلك فى الماضى وهأنذا أعانى من جديد . لكن قد يكون ما أقاسيه الآن أدل مما أتأسينه فالمرأة هى التى يصيبها الضرر الأكبر فى النهاية » .

-- « هذا صحيح » .

-- « إلا إذا كانت المرأة لا قيمة لها على الإطلاق وتستحق الاحتقار . فى هذه المرة ليس الأمر كذلك على كل حال ! » .

وتنفست «سو» فى ارتباك مرة أو مرتين ثم قالت : « أخشى أن يكون الحال كذلك هذه المرة أيضا ! والآن يا «جود» أسعدت مساء ، أرجوك ! » .

-- « هل يجب ألا أبقي حتى ولا مرة واحدة فقط ؟ مرة كالمرات العديدة السابقة ؟ واحسرتاه يا «سو» يا زوجتى ! لم لا تسهجين لى بذلك ؟ » .

-- « لا . لا . إننى لست بزوجتك ! إننى بين يديك الآن فلا تحاول إغرائى بالبقاء بعد أن سرت كل هذه المرحلة ! » .

— « هذا حسن للغاية . إننى طوع أمرك وإنى مدين لك بهذه الطاعة أيتها العزيزة وذلك مقابل تقصيرى فى طاعتك فى مبدأ الأمر . يا إلهى كم كنت أناانياً ! ربما — ربما — أفسدت حالة من أسى حالات الحب وأنقاه . والآن المنفصل كما أردت وليذهب كل فى طريقه ابتداء من هذه اللحظة » .

وذهب « جود » إلى السرير وأمسك بإحدى الوسادتين اللتين كانتا فوقه وألقى بها على الأرض .

ونظرت « سو » إليه وانحنى فوق حافة السرير وبكت وهى تغمرهم فى نبرات متقطعة : « إنك لا ترى أنها مسألة ضمير بالنسبة لى وليست نتيجة كره لك وإننى أقول ذلك مرة أخرى ! غير أننى لا أستطيع أن أزيد على ذلك حرفاً . إن قلبى لينفطر حزناً وأخشى أن يقضى ذلك على كل ما بداته » .

قال وهو يستدير ليمترك الغرفة : « أسمعيت مساء » .

فقالت وهى تنفض فى مكانها : « ولكن أرجوك أن تقبأنى ! إننى لا أقوى على احتمال — ! » .

واحتضنها وقبل وجهها الباكى كما لم يفعل من قبل وظلا صامتين حتى قالت : « إلى اللقاء ! إلى اللقاء ! » ودفعته عنها فى رفق لتحرر نفسها من قبضته وحاولت أن تخفف من وطأة حزنهما فقالت : « سنظل دائماً أصدقاء أعزاء على الرغم من كل شيء . أليس كذلك ؟ سيرى كل منا الآخر من حين إلى حين . نعم وسنندى كل هذا ، وسنحاول أن نعود إلى ما كنا عليه قبلاً » .

ولم يسمح لنفسه بالكلام ولكنه استدار وهبط السلم .

( ٤ )

فى « ميريجرين » عاش الرجل الذى شرعت « سو » الآن تنظر إليه فى صميم نفسها على اعتبار أنه الزوج الذى ليس لرابطته معها انفصام . وفى اليوم السابق على فاجعة الأطفال ، رأدا « فياوتسون » وهى تقف مع « جود » تحت وابل

المطر في « كرايستمينيستر » وهما يشاهدان الموكب الجامعي . غير أنه حينئذ لم يذكر شيئاً لرفيقه « جيلنجهام » الذي ، لسكونه صديقاً حميماً له ، أقام معه في القرية سابقة الذكر وهو الذي اقترح الرحلة إلى « كرايستمينيستر » .

قال « جيلنجهام » : « فيم تفكر ؟ في الدرجة الجامعية التي لم تتمكن من الحصول عليها ؟ » .

قال « فيلوتسون » في غلظة : « لا . بل أفكر في شخص معين رأيتَه اليوم . وبعد لحظة صمت قال : « أفكر في « سوزانا » .

— « رأيتها أنا أيضاً » .

— « لم تقل شيئاً » .

— « لم أشأ أن أوجه انتباهك إليها . ولكن بما أنك رأيتها فعلاً كان الواجب يقضى بأن تقول : « كيف حالك يا من كنت يوماً عزيزة ؟ » .

— « كان هذا واجباً . ولكن ما رأيك في أنني كنت متأكداً من أنها بريئة عندما طلقته وأني كنت مخطئاً تماماً . نعم بكل تأكيد ! هذا قبيح أليس كذلك ؟ » .

— « حرصت منذ ذلك الحين على أن تعوضك . ظاهرياً على أي حال » .

— « هذه سخريّة رخيصة . كان الواجب أن أنتقارها بكل تأكيد » .

وفي نهاية الأسبوع عندما عاد « جيلنجهام » إلى مدرسته باقرب من « شاستون » ذهب « فيلوتسون » إلى سوق « الفردستون » كما هي عادته وهو يفكر ويعيد التفكير فيما أنبأته به « أرابيلا » في أثناء هبوطه التل الذي عرفه جيداً قبل « جود » وإن كانت قصته هو تركت في هذا التل أثراً يفوق ذلك الذي تركه « جود » فيه . وحالما وصل « فيلوتسون » إلى البلدة اشترى كعاداته الهجيفة اليومية . وعندما جلس في حان صغير ليشرب ما ينعشه بعد أن سار على قدميه خمسة أميال أخرج الجريدة من جيبيه وبدأ يقرأ وهنا وقعت عيناه على : « انتحار

عجيب لأطفال بناء . . . ولكنونه بطيء التأثير آلمه الحادث وحيره لدرجة ليست بالقليلة لأنه لم يستطع أن يدرك السن التي ذكرتها الجريدة على أنها سن الغلام الأكبر . ومع ذلك لم يكن هناك شك في أن كلام الجريدة كان حقيقيا بطريقة أو بأخرى .

قال وهو يفكر في « سو » وفي ربحته من تركها إياه : « أمثلا الآن كأس احزانهما ! » .

ولما كانت « أرايلا » استقرت في « ألفردستون » ، وبسبب ذهاب المعلم إلى السوق كل سبت ، لم يكن عجيبا أن يتقابلا مرة أخرى بعد أسابيع قليلة عقب عودتها مباشرة من « كرايستمينستر » . حيث مكثت أطول مما انتوت وذلك لترقب « جود » بعين والهة على الرغم من أنه لم يرها في تلك الأثناء . كان « فيلو تسون » في طريق عودته عندما قابل « أرايلا » وهي تقرب من البلدة

قال : « إنك تحمين السير في هذا الطريق أيتها السيدة » كارتليت « أليس كذلك ؟ » .

قالت : « بدأت ذلك الآن مرة أخرى . إنه المكان الذي عشت فيه فتاة وزوجة وكل ماضى حياتى بحلوله امتزج بهذا الطريق . هذا الماضى تحرك فى نفسى أخيرا إذ زرت « كرايستمينستر » . نعم رأيت « جود » .  
— « آه ! وكيف يتحملان مصائبهما الأليم ؟ » .

— « بطريقة غاية فى العجب . غاية فى العجب حقا ! إنها لا تعيش معه الآن . علمت ذلك كحقيقة واقعة قبل عودتى من هناك مباشرة وأدركت هذا التحول من ملاحظة سلوكهما عندما زرتهما » .

— « لا تعيش مع زوجها ؟ عجبا ! أعتقد أن الكارثة لا بد أن تقوى ما بينهما » .

— « إنه ليس زوجها على أى حال . إنها لم تزوجه بالفعل على الرغم من

أن الناس يظنون أنهما زوجان منذ فترة طويلة ، وبدلاً من أن تجمعهما هذه المأساة فيسرعان بالزواج وينتھيان منه بالطريقة الشرعية المألوفة اتتا بتها هوجة من التدين العجيب ، كما فعلت أنا عندما فقدت « كارتليت » . غير أن تعلقها بالدين هو من نوع أكثر جنونا . تقول - حسبي سمعت - إنها ما زالت زوجتك أمام السماء وفي نظر الكنيسة - زوجتك وحدك ولا يمكن أن تكون زوجة لأي رجل آخر .

— « حقا ؟ انفصلا ! » .

— « كان الولد الأكبر كما تعلم ولدى - » .

— « عجبا ! ولدك ؟ » .

— « نعم ذلك المسكين الصغير . جاء نتيجة لزواج شرعى تماما وأحمد الله على ذلك . أظن أنها تحس - قبل أى شيء آخر - أننى أنا التى كنت أستحق أن أكون فى مكانها » لكننى غير متأكدة من ذلك . أما عنى فأننى سأرحل قريباً من هنا فى أب يجب أن أرحاه ولا يمكننا أن نعيش فى مكان صاخب كهذا . آمل قريباً أن أجد عملاً كساقية فى إحدى حانات « كرايستمينستر » أو فى بلدة كبيرة أخرى .

وافترق الاثنان وبعد أن سار « فيلوتسون » بضع خطوات توقف ثم عاد وناداهما .

— « ماذا كان ، أقصد ، ما هو عنوانهما الآن ؟ » .

وأخبرته « أرابيلا » بالعنوان .

— « أشكرك . أسمعدت مساء » .

وابتسمت « أرابيلا » ابتسامة رهيبة فى حين استمرت فى سيرها وأخذت تتسلى باستعراض خطواتها طول الطريق ابتداء من الأشجار الضخمة حتى بيوت الصدقة الواقعة عند أول شارع فى البلدة .

وفى تلك الأثناء كان « فيلوتسون » يسير صعوداً فى اتجاه « ميريجرين » . ولأول

مرة خلال فترة طويلة عاش وعينه على الغد . وعندما كان يمر تحت الأشجار الكبيرة وسط البقعة الخضراء المؤدية إلى المنزل المتواضع الملحق بالمدرسة ، توقف هنيهة وتحميل « سو » وهي تخرج من البيت للملاقاته . ما من رجل ، مسيحياً كان أو وثانياً ، تعذب بسبب خبه للخير أكثر من « فيلوتسون » عندما سمح لسو أن تتركه وتذهب . لقد جاءت اللطائف من حراس الفضيحة وانها لت عليه من كل ناحية بدرجة فاقت قدرة البشر على التحمل كما عاش في فقر مدقع إذ لم يتبق له من مال سوى دخله الضئيل من مدرسة القرية ( حيث عانى قسيسها من عداوة الناس لمصادقته إياه ) . وكثيراً ما فكر « فيلوتسون » فيما قالته « أرابيلا » من أنه كان ينبغي أن يكون أكثر شدة في معاملته لسو ، وكيف أن روحها العنيدة كانت لابد أن تهزم في النهاية . إلا أن عدم اكتراثه برأي الآخرين ، هذا الذي كان يقوم على غير أساس من المنطق السليم ، بل الذي قام على العناد وإهمال المبادئ التي نشأ عليها ، كل ذلك بالإضافة إلى اعتقاده الراسخ بصواب تصرفه حيال زوجته هو الذي حال بينه وبين تغيير أسلوب معاملته لها .

إن المبادئ التي يمكن للشعور أن يوجهها في اتجاه معين ، يمكن أن تتعرض لمثل هذه الكارثة في اتجاه آخر . فالدوافع التي دعمته إلى أن يمنح « سو » حريتها ، هي نفسها التي جعلته يحمل عليها في قرارة نفسه لحياتها مع « جرد » . لقد كان « فيلوتسون » لا يزال بطريقته العجيبة يتمناها ، وإن لم يرق هذا التقي إلى درجة الحب وسرعان ما أحس أنه يرضيه كثيراً أن تعود إليه طالما يمكن أن تتم هذه العودة دون ضغط أو إكراه .

غير أن الحيلة هنا كانت واجبة وهذا ما اكتشفه « فيلوتسون » ليقنطع بها السخط الجارف النابع من احتقار الناس له . أما عناصر الحيلة فكانت جاهزة أمامه فلو أعاد « سو » إليه وتزوجها مرة ثانية باعتبار أنه كان مخطئاً في موقفه حيالها مما قاده إلى الحصول على الطلاق بطريقة خاطئة ، فإنه بذلك يحس ببعض الراحة ويستطيع أن يستأنف حياته القديمة وقد يعود إلى مكانه في مدرسة « شاستون » أو حتى يلتحق بالكنيسة كواعظ مؤهل .



وفكر في أن يكتب «جيلنجهام» ليعرف وجهة نظره ويجعله يبدى رأيه فيما اتواء من إرسال خطاب لها . وأجاب «جيلنجهام» أنه ، بطبيعة الحال ، ما دامت رحلت فن الأوفى أن تظل كما هي . قال : لو كان لا بد لسو أن تكون زوجة لرجل فلا شك أن زوجها هو الذى أنجبت منه أطفالا ثلاثة واحتمات بسببه مثل هذه المغامرات الفاجعة . ولتعلق هذا الرجل بها تعلقا يكاد يفوق ما هو مألوف في مثل هذا الموقف ، قد يعطى الاثنان زواجهما الصيغة القانونية في أقرب وقت وبذلك يسير كل شئ . بشكل طبيعى مقبول وبطريقة منظمة .

قال «فيلوتسون» وهو يحدث نفسه متعجبا : «ولكن ان ترضى «سو» بذلك - ان ترضى - إن «جيلنجهام» شخص واقعى أما «سو» فتأثرة بعواطف سكان «كرايستمينستر» وتعاليمهم . أستطيع أن أدرك جيدا حقيقة آرائها فيما يختص بعدم انفصام الزواج وأعرف من أين جاءت بها . هذه ليست آرائى ولكننى سأفيد منها كثيرا .

وكتب إلى «جيلنجهام» يقول : «أعرف أننى مخطئ تماما ولكننى لا أوافقك على رأيك . أما كونها عاشت معه وأنجبت منه أطفالا فشعورى (على الرغم من أننى لا أستطيع أن أسوق إدفاعا منطقيا أو خلقيا بالطريقة التقليدية المألوفة) أن هذا لا يعدو أن يكون درسا استكمالات به تعليمها . سأكتب لها لأعرف منها إذا ما كان ذلك الذى أخبرتنى به «أرابيلا» صحيحا أم لا .

وبما أنه صمم على الكتابة حتى قبل أن يستشير صديقه ، رأى ألا يطلع هذا الأخير عما اتواء . وعلى كل حال ، تلك كانت طريقة «فيلوتسون» فى التصرف دائما .

وجه «فيلوتسون» إلى «سو» خطابا كتبته فى عناية وذلك لمعرفة بطبيعتها ومزاجها العاطفى . ثم دس فى ثنايا السطور شيئا من الصرامة التى تشبه صرامة قضاة «رادمانثوس» ، كما أخفى فى عناية شعور المرطقة حتى لا يدخل الخوف إلى قلبها . لقد ذكر فى خطابه أنه نوى إلى علمه أن آراءها فى الحياة تغيرت إلى حد

كبير فرأى من واجبه أن يعبر هو أيضا عن رأيه الذى تعدل كثيرا إثر الأحداث التى تلت فراقهما . قال إنه لن يخفى عليهما أن عاطفة الحب لم يكن لها دخل فى محاولة اتصاله بها وإنما نشأ الاتصال نتيجة لرغبته فى ألا يجعل من حياتهما - فشلا منجمعا - كما انتهت إليه فى الماضى بتأثير تصرفه الذى حسب أنه قام فى حينه على مبادئ العدل والخير والتعقل .

قال «فيلوتسون» أيضا إنه أكتشف أن الاندفاع فى تيار الانفعالات الفطرية التى لا ضابط لها ولا سند من الحق والعدل ما كان ينفذه من القصاص فى عصر سارت فيه مدنية عريقة فن الضرورى فى هذه الحال أن يتصرف المرء على أساس من شعور ناضج نابع من الإيمان بالعدالة والحق . وهذا لو أراد الإنسان أن يتمتع بقدر من الراحة مع الشرف بعيداً عن عاطفة فطرية بدائية كحب الشفقة . وفى خطابه أيضا اقترح على «سو» أن تأتى إليه فى «ميريير» .

وبعد أن فسكر ملياً للردة الثانية حذف الفقرة التى قبل الأخيرة . وبعد أن أعاد كتابة الخطاب أرسله فى الحال وأخذ ينتظر الرد فى قلق بالغ .

وبعد بضعة أيام ظهر خيال يتحرك فى الضباب المحيط بضاحية «بيرشيبا» فى «كرايستمينستر» تجاه الحى الذى اتخذته «جود فاوولى» مكانا لإقامته منذ أن انفصل عن «سو» . على باب مسكن «جود» جاءت دقة خفيفة مترددة . كان الوقت مساء لذا كان «جود» فى البيت . وبإلهام فطرى خفى ففر فى اتجاه الباب وفتحته .

— «هلا خرجت إلى هنا؟ أفضل ألا أدخل . أود أن ... أن أتحدث إليك - وأذهب معك إلى المقابر» .

هذه الكلمات المرتعشة خرجت من فم «سو» ، فارتدى «جود» قبعته وقال: «إن وقوفك فى الخارج يعرضك للبرد . أما إذا كانت هذه رغبتك فلن أقول شيئا» .

— « هذه رغبتى . وإن تبقى معى طويلا . »

كان « جود » على درجة كبيرة من التأثير بحيث عجز عن التحدث فى أول الأمر وكانت هى أيضا إذ بدت وكأنها حزمة من الأعصاب خلت من كل قوة دافعة . وسار الاثنان خلال الضباب وكأنهما شهبان قادمان من عالم سفلى وظلا كذلك لفترة طويلة دون صوت أو حركة .

قالت بعد فترة وكان صوتها يسرع حيناً ويبطئ حيناً : « أود أن أخبرك حق لا تسمع بالنبا عن طريق الصدفة . سأعود إلى « ريتشارد » . لقد وافق بكل نبل على الصفح عني . »

— « تعودين ؟ وكيف تستطيعين - . »

— « سيمتزوجنى من جديد . ذلك من أجل المحافظة على المظاهر ولكى يقنع العالم الذى لا يرى الأمور على حقيقتها . اسكننى طبعاً زوجته . ما من شيء غير ذلك . »

وانقلب عليها فى فزع وحشى وقال : « واسكنك زوجتى ! نعم إنك كذلك ، أنت تعلمين ذلك . لقد ندمت دائماً على الخطيئة التى ارتكبتها عندما هربنا وعدنا ندعى ، محافظة منا على المظاهر ، أننا تزوجنا زواجا شرعياً . أحبتك كما أحبتنى وعشنا سوياً وهذا اب الزواج . ما زال كل منا يحب الآخر ولانى لأدرك ذلك يا « سو » على ذلك فزواجنا لا يعد لاغياً . »

قالت وقد بدت يائسة من أن تستطيع كبح جماح نفسها : « نعم أعلم كيف تنظر إلى هذه المسألة ولسكننى ، على حد قولك ، سأتزوجه ثانية . دعنى أصارحك بأنك أنت أيضاً - ولا تغضب من قول هذا يا « جود » - يجب أن تعود إلى « أرابيلا » . »

— « يجب أن أعود إلى « أرابيلا » ؟ يا إلهى ! وماذا بعد ذلك ؟ ماذا يكون الحال لو تزوجنا زواجا شرعياً كما كنا على وشك أن نفعل ؟ » .

— « كنت أحس بنفس الشيء . كنت أشعر بأن زواجنا ليس سليماً . كنت أعود إلى « ريتشارد » دون إجراء جديد ، لو طاب هو منى ذلك . ولكن الحياة وطرقها لها قيمة معينة » . وعلى ذلك من رأيي تكرار مراسم الزواج . أرجوك ألا تقضى بسخريتك ومناقشاتك على ما بي من حياة وأرجوك ألا تفعل ! كنت قوية في وقت من الأوقات ، أعرف ذلك ، وقد أكون عاملتك بقسوة ولكن أرجوك يا « جود » أن تقابل السيئة بالحسنة ! إنى أضعف منك الآن . لا تحاول الاقتصاص منى ، ولكن كن شفيقاً . كن شفيقاً بي — أنا المرأة — المسكينة الشريرة التى تحاول أن تصلح ما فسد ! » .

هز رأسه فى يأس وقد اغرورقت عيناه بالدموع . كانت كثرة فقدانها للأطفال تبدو وكأنها حطمت قدرتها على التفتك - تكبير السليم وأن بصيرتها التى كانت حادة فى وقت من الأوقات أصابتها الآن غشاوة وقال فى صوت مبهوح : « كل ما نقولينه خطأ فى خطأ . أنت تنزلين . أنت تنحرفين . يا إلهى أكاد أجن . هل يهملك أمره ؟ هل تحببينه ؟ أنت تعلمين أنك لا تحببينه . ستكون حياتك معه نوعاً من الدعارة المغلفة بالتعصب الدينى . ليسأخنى الله إذ قلت ذلك . نعم هذا ماستكون عليه حياتك معه » .

— « إننى لا أحبه ولا بدلى من أن أعترف بذلك والندم العميق المرير على نفسى ! ولكننى سأحاول أن أتعلم كيف أحبه وذلك بأن أطيعه » .

وظل يجادلها مرة بالعقل وأخرى بالتوسل . غير أن عقيدتها كانت من كل ذلك فى حصن حصين . بدا وكأن عقيدتها هذه هى الشيء الوحيد فى الدنيا الذى قرر قرارها على احترامه وكأن تصميمها على ذلك يجعلها لا تقيم وزناً لأية فكرة أو رغبة أخرى .

قالت فى نبرات حاسمة : « كنت عادلة فى موقفى منك فعملت على أن تعرف الحقيقة كاملة وأن أقوم أنا نفسى بإطلاعك عليها لئلا تحس بالمهانة إن جاءك خبرها عن طريق آخر . لقد اعترفت لك أيضاً بالحقيقة الخطيرة ألا وهى اننى

لا أحبه . لم أكن أدري أنك ستسكون خشناً معي هكذا . كنت على وشك أن أطلب منك ... » .

— « تطلبين مني أن أدعك تذهبين ؟ » .

— « لا . بل أن ترسل حاجياتي لو سمحت . ولكنني أظن أنك لن تسمح » .

— « ولم لا أسمح ؟ سأرسلها لك بالطبع . ماذا ؟ ألا يحضر هو لاصطحابك ؟ ألا يأتي إلى هنا ليتزوجك ؟ أهله لا يتنازل » .

— « لا ، لن أدعه . سأذهب إليه برغبتى كما رحلت عنه . سنتزوج في كنيسة صغيرة في « ميريجرين » . »

كانت حلاوة حلاوة حزينة عندما تميدت عن عنادها الخاطيء فلم يستطع إلا أن يغالب دموعه تأثراً وشفقة وقال : « لم أعرف في حياتي امرأة تدفع ثمن القدم عن طيب خاطر كما تفعلين يا « سو » ! لا يكاد المرء يتوقع منك أن تسيري في طريق ماعلى أنه الطريق السوى المعقول حتى تنحرفين وحتى تغيري خط سيرك ! »

— « دعك من ذلك الآن ! يجب أن أودعك يا « جود » ولكن أيتك تذهب معي إلى المقابر ليسكون وداعنا هناك بجانب قبور أولئك الذين ماتوا ليرشدوني إلى خطأ آرائي » .

واستدار الاثنان ناحية القبور حيث فتحت لهم الأبواب بناء على طلبهما . كانت « سو » قد ترددت كثيراً على المكان لذا عرفت الطريق إليه حتى في الظلام فبلغاه ووقفوا صامتين .

— قالت : « أود أن أفترق عنك هنا في هذا المكان » .

— « ليسكن » .

— « لا أظن بي القسوة لأنني تصرفت عن عقيدة . إن تعلقك بي وتفانيك

في حبي لا نظير لها يا « جود » ! إن فشلك في هذا العالم - لو كنت حقاً فشلت - هو في صالحك ، ولا يؤولك عليه إنسان . تذكر أن أفضل الناس في البشرية كلها وأعلامهم مقاماً هم أولئك الذين لا يحرزون نجاحاً أرضياً فكل شخص ناجح هو في واقع الأمر مخلوق أناني وكما جاء في سفر كورنثوس : « المحبة لا تطالب ما لنفسها » .

— « لنقف سوياً عند هذا الإصحاح أيتها العزيزة المحبوبة دائماً وعند هذا المعنى من معانيه نفترق أصدقاء . ستبقى آيات هذا الإصحاح بيننا يذهب كل ماعداها بما نطلق عليه كلمة دين » ،

— « حينئذ لا تجادل في هذا الوداع يا جود ، يا رفيق في الخطيئة وأعز صديق ا » .

— « الوداع يا زرجتي المختلطة - الوداع ا » .

( ٥ )

وفي الأصل التالى ، كان ضباب « كرايستمينيستر » المألوف ما زال يكسو كل شيء وهبته « سو » الذميلة لا تتميزها العين إلا بصعوبة وهى تسير فى اتجاه المحطة .

أما « جود » فإنه فى ذلك اليوم لم يطاوعه قلبه للتوجه إلى عمله . وعجز عن التوجه إلى أى مكان يقع فى الاتجاه الذى يحتمل أن تمر فيه « سو » بل اتخذ اتجاهها مضاداً وسار فى طريق مظلم كثيب تبدو مناظره اعينيه عاطلة عن الجمال وتظهر أشجاره متهاوية وحيث يكمن الصل ويشتد السعال ولم يسبق له الذهاب فيه قط .

وغمغم يقول فى تعاسة : ذهبت « سو » عني - ضاعت منى ا » .

أما هى فكانت فى تلك الأثناء قد استقلت القطار ووصلت إلى طريق «الفردستون» حيث صعدت إلى الترام الذى نقلها إلى البلدة وكانت قد طلبت إلى «فيلوتسون» ألا يحضر للقاءها . فرغبتها ، كما ذكرت فى خطابها ، أن تحضر إليه وإلى قلب بيته بإرادتها .

كان الوقت مساء الجمعة واختار المعلم تلك الأمسية لأنه يحصل عادة على إجازة في الرابعة من ذلك اليوم تستمر حتى صباح الاثنين التالي . واستقلت العربية الصغيرة التي استأجرتها لتأخذها إلى « ميريجرين » ووقفت بها كإرغبت في زاوية الشارع الضيق الذي يبعد نصف ميل عن القرية . بعد ذلك استأنفت العربية سيرها بما تحمل من متاع قليل أتت به «سو» . وبينما العربية تعود فارغة بعد أن أوصلت المتاع إلى بيت « فيلوتسون » . التقت بها «سو» وسألت السائق عما إذا كان قد وجد باب بيت المعلم مفتوحا فأجابها السائق بالإيجاب ، كما أخبرها أن حاجياتها حملها المعلم بنفسه إلى داخل البيت .

كانت «سو» تستطيع الآن أن تدخل «ماريجرين» دون أن تثير فضولا كبيرا ، فإنها عبرت الطريق من ناحية البئر وسارت تحت الأشجار حتى المدرسة الجديدة الجريئة في الجهة المقابلة ورفعت مزلاج الباب دون أن تفرعه وفي منتصف الغرفة وقف « فيلوتسون » ينتظرها تحقيقا لرغبتها .

قالت وقد بدت شاحبة مرتعشة وهي ترمي على مقعد قريب : « إني عدت يا «ريتشارد» لا أكاد أن أصدق أنك تسامح زوجتك ! » .

قال : « غفرت لك كل شيء أيتها العزيزة «سوزانا» . »

ودهشت الكلمات الجمالة وإن قد صدرت منه بطريقة تقايدية جامدة . واستجمعت قواها وقالت : « إن أطفالي مانوا ومن الخير أن يحدث لهم ذلك ! إني على الأغلب فرحة . كانوا ثمرة للخطيئة وقد ما قربا فإحتي أنعلم كيف أعيش ! فونهم الخطوة الأولى لتطهير نفسي . ذلك هو السبب في أنهم لم يموتوا عبيثا ! هل أقبلي ؟ »

وتأثر « فيلوتسون » من كلماتها التي تدعو إلى الشفقة ومن لهجتها حتى أنه فعل أكثر مما اقتوى وانحنى يقبل خدها . وتراجعت قليلا وارتعش جسدها لملمس شفثيه فغاص قلبه إذ كانت رغبته فيها ما زالت حية في جسده وقال : « هل ما زلت تنفرين مني ؟ » .

— « يا عزيزى حضرت إليك وسط المطر وكنت أشعر برعشة تسرى فى جسدى . » قالت ذلك وهى تصطنع ابتسامة تدل على أنها تفسن الفهم وقالت : « متى يتم زواجنا ؟ قريباً ؟ » .

— « فى رأى باكر صباحاً وهذا إذا كنت حقاً توافقين . سأرسل للقسيس لأبلغه بوصولك . وأطلعته على كل شىء وهو موافق تماماً . يقول إن زواجنا سيفتح لنا الطريق إلى نهاية منتصرة مرضية . هل أنت متأكدة من نفسك ؟ لم يفت الأوان بعد لو أردت أن ترفضى الزواج أو لو دار فى ذلك أنك لاتستطيعين تنفيذ ما عزمت عليه . »

— « نعم . نعم أستطيع . إننى أود أن يتم سريعا . أخبره أخبره حالا ! إن قوتى تمتحن بما نحن مقدمون عليه . لا يمكننى الانتظار أكثر من ذلك . »

— « إذن تناولى بعض الطعام والشراب ثم اذهبي إلى حجرتك فى منزل السيدة « إبدلين » سأخبر القسيس بأن الزاج سيكون فى الثامنة والنصف صباحاً وهذا إذا لم يكن الوقت مبكراً ، بالنسبة لك . إن صديقى « جيلنجهام » هنا سيساعدنا فى إتمام المراسم . كان لطيفاً منه أن يحضر من « شاستون » على الرغم من بعدها وما فى مجيئه من مشقة . »

وعلى عكس طبيعة المرأة التى تلاحظ عيناها الأشياء فى سرعة ، بدت « سو » وكأنها لم تلح شيئاً بما حولها ، أو لم تر شيئاً مما فى الغرفة التى جلست فيها . غير أنها عندما قامت لتعبر القاعة كي تخلع عنها الفرو الذى يدفئ يديها ، صدرت عنها زفرة وأصبح وجهها أكثر شحوباً . لقد كانت نظرتها تشبه نظرة متهم محكوم عليه بالإعدام عندما يقع بصره على كفه .

قال « فيلوتسون » : « ماذا ؟ » .

كان غطاء المكتب مفتوحاً وعندما وقعت قطعتى الفرو فوقه وقعت عيناها على وثيقة أمامها فقالت « ليفيلوتسون » : « أوه . لا ! إنها مجرد مفاجأة مضحكة ! » وحاولت وهى تعود إلى مكانها من المساعدة أن تحول صرختها إلى



ضحكة . قال « فيلوتسون » : « آه . نعم . وثيقة الزواج . وصلت لتوها » .  
ولحق بهما « جيلانجهام » وحاولت « سو » أن تصطنع معه الرقة فتحدثت في  
كل الموضوعات التي اعتقدت أنها تهمة ما عدا الحديث عن نفقتهما على الرغم من  
أن هذا الموضوع كان يهمه أكثر من غيره . وتناولت في خضوع بعض الطعام  
وتأهبت البيت في المكان الذي أعد لها والذي لم يكن يبعد كثيرا عن المنزل .  
وعبر « فيلوتسون » معها الساحة الخارجية الخضراء ، وعندما وصلا إلى منزل  
السيدة « ايدلين » أقرأها السلام وعاد .

وسارت العجوز مع « سو » إلى حجرتها الموقنة وساعدتها على فك أمتعتها .  
ومن بين الملابس التي أخرجتها « سو » قميص للنوم حلى بتطريز جميل فقالت في  
سرعة : « أوه . لم أدر أن ذلك وضع هنا ! لم أكن أقصد أن يوضع هنا . هاهو  
آخر مختلف » . وأخرجت قميصا جديدا ولكنه عبارة عن ثوب عادي تماما خال  
من أى تطريز وكان مصنوعا من قماش رخيص خشن الملمس .

وقالت السيدة « ايدلين » : « ولكن هذا أجمل الاثنين . أما ذاك فلا يعدو  
أن يكون كالاثواب الخشنة التي يتحدث عنها الكتاب المقدس » .

— « نعم . قصدت أن يكون كذلك . أعطاني القميص الأول » . وتناولت  
القميص الجميل وأخذت تمزقه بكل قوتها حتى دوى صوت تمزيقه في البيت وكأنه  
نعيق الجوم .

— « ولكن يا عزيزتى ! مهما ... » .

— « هذا قميص عليه مسحة من الإثم . إنه يدل على شيء لا أحس به .  
اشتريته منذ وقت طويل . اقتنيته لإرضاء لجود . يجب أن أمرقه » .

ورفعت السيدة « ايدلين » يديها في دهشة بينما ظلت « سو » تمزق القميص في  
عصبية واضحة وتقطعه إلى قطع صغيرة ألقت بها إلى النار .

وقالت الأرملة : « كان يمكن أن تمنحني إياه . إن قلبي يتحطم وأنا أرى

هذا التطريز الجميل وهو يلقى في النار . ما كان يجوز لمثل هذا القميص أن يحترق هكذا ، ولكن لا يمكن لمثل هذا القميص أن يكون نافعا لـعجوز مثلى . هذا القميص راحت أيامه وانقضت بالنسبة لى منذ زمن بعيد ، .

— « إنه لشيء لعين . إنه يذكرنى بما أريد أن أنساه ! ، . وعادت تقول :  
« إنه لا يستحق إلا أن يلقى به فى النار ، .

— « يا إلهى . كم أنت شديدة ! لم تستعملين مثل هذه الكلمات ولم تتوقعين النار وعذاب جهنم لصغارك الأبرياء الذين فقدتهم ؟ لأننى لا أسمى ذلك منك ندينا وأقسم على ذلك ، .

وارتمت «سو» على السرير وهى تبكى وتقول : « لا تقولى ذلك . لا تقولى ذلك ! يكاد ذلك يقتلنى ! ، . وظلت كذلك وقد هزها الحزن وانزلت على ركبتيها .

وقالت الأرملة « ابدلين ، وقد بدت على وجهها علامات الاستياء : « سأسدى لك نصيحة . يجب ألا تتزوجى هذا الرجل مرة ثانية ! إنك ما زلت تحبين الآخر ، .

— « بل لا بد أن أعود إليه - إنى زوجته ! ، .

— « هراء ! إنك زوجة الآخر . أما عن رفضك القسم ثانية أمام الهيكل كما فعلتما فى المرة الأولى ، فما ذلك سوى تكريم لضعيركما ، لو اعتبرنا ظروفكما ، وكان من الممكن أن تظلا هكذا حتى تنصلح الأمور فى النهاية . على أى حال لم يكن هذا من شأن أى إنسان بل هو من شأنكما وحدكما ، .

— « يقول «ريتشارد» إنه سيمعيدنى إليه ويتحتم على أن أعود إليه ! أما لو رفض ذلك فعندئذ فقط لا يتحتم على أن أترك «جود» وأسكن - ، . وعادت إلى صمتها وقد أخفت وجهها فى أغطية السرير بينما غادرت الأرملة الحجرة .

وكان « فيلوتسون » فى تلك الأثناء قد توجه إلى صديقه « جيلانجهام » فراه

جالسا إلى مائدة العشاء . ونهض الاثنان وخرجا إلى الساحة الخضراء ليدخنا قليلا . وكان النور يضيء حجرة « سو » وخاف الستائر ظال يتحرك من حين إلى آخر .

من الواضح أن سجر « سو » الذي لا حد له أثر على « جيانجهم » إذ بعد لحظة قال : « ها قد نلتها في النهاية ولا يمكن أن تعود إليه بعد الآن » سقطت الثمرة بين يديك .

— « نعم . أظن أنني كنت على صواب عندما صدقتها . أعترف أن ذلك منى أناية . وبصرف النظر عن أنها ، بما هي عليه من جمال ، تعتبر أكثر مما يستحق رجل عتيق جامد التفكير مثلها إلا أنها سوف ترد لي اعتباري في نظر رجال الدين وفي نظر المحافظين الحريصين على التقاليد الذين لم يغفروا لي عندما سمحت لها بالرحيل ، وعلى ذلك أسترجع إلى حد ما مكافئي الأولي . »

— « حسن . لو رأيت أن تزوجها للمرة الثانية فبحق السماء لا ترجى . » كنت دائما أعارض في أن تفتح باب القفص وأن تدع الطائر يذهب بمثل هذه الطريقة الانتحارية . وكان من الجائز أن تصبح الآن مفتشا ، أو من رجال الأكليروس ، وذلك لو لم تضعف أمامها في مبدأ الأمر .

— « أعترف أنني ألحقت بنفسى ضرراً لا يمكن إصلاحه . »

— « ما دمت أعدتها إليك فتمسك بها . »

وفي هذه الليلة كان « فياوتسون » أكثر ميلا للتماس . لم يهتم بالاعتراف في جلاء بأن إعادة « سو » إليه لا تدل في حقيقتها على شيء من الندم على أنه سمح لها بالرحيل في المرة الأولى بل كانت ، في المقام الأول ، دافعا غريزيا يتمحدي التقاليد والمهنة .

قال : « نعم سأفعل ذلك . إنني الآن أكثر معرفة بالمرأة ، ومهما تضمن إطلاق سراحها من عدالة فلقد كان في هذا الحادث قليل من المنطق بالنسبة لشخص يفتنق آرائي . »

ونظر « جيلنجهام » إلى « فيلوتسون » وتساءل في عجب عما إذا كان من الممكن للروح الرجعية التي أوجدتها في نفسه ضحكات الساخرين ورغباته الجسدية أن تجعله قاسياً عليها قسوة صريحة تحمل محل عذابه الشكلي المنحرف .

واستمر « فيلوتسون » يقول : « أدرك أن لا جدوى من الخضوع للنزوات . وكان بقوله هذا يحاول التصرف بما يناسب الموقف . « لقد ثرت في وجه تعاليم الكنيسة إلا أنني فعلت ذلك بحسن نية . ما أعجب النساء في نفوذهن بحيث يدفعن الرجل لإظهار العطف في غير موضعه ! وعلى كل إنى أعرف نفسى الآن خيراً عن ذى قبل . « قليل من الاستعداد العادل قو . . . » .

— « نعم . ولكن ينبغي فقط أن تقبض على الزمام شيئاً فشيئاً . لا تكن عنيفاً في بادئ الأمر . لا بد أن تقبل في الوقت المناسب شروطك مهما تكن . » .

ولم يكن تحذير « جيلنجهام » لفيلوتسون بالامر الضروري وإن كان الأخير لم يصرح بذلك بل قال : « أذكر ما قاله راعي كنيسة « شاستون » بعد الضجة التي أثيرتها عندما منحتها موافقتى على الرحيل في صحبة عشيقها . قال القسيس حينئذ : « إن الشيء الوحيد الذى يمكن أن تمنعه لتصالح من موقفك وموقفها هو أن تعترف بزلتك . إنك لم تحاول أن تسكب جماعها بقوة وحكمة . فعليك أن تعيدها إذا أمكن ، وبعد ذلك تصبح حازماً معها » . « ولكننى كنت عنيداً في ذلك الوقت فلم أهتم . بل إنى ، بعد الطلاق لم أحلم أنها يمكن أن تفكر في هذا العمل . » .

وفرقعت برابة كوخ السيدة « ايدايين » وبدأ شخص يعبر الطريق في اتجاه المدرسة . قال « فيلوتسون » : « مساء الخير » .

وقالت السيدة « ايدايين » : « أهذا أنت يا سيد « فيلوتسون » ؟ كنت على وشك أن أذهب لأراك . كنت معها في الطابق العلوى أساعدها على فك أمتعتها وأقول لك الحق يا سيدي هذا الزواج يجب ألا يتم » .

— « ماذا ؟ أتقصدين الزفاف ؟ » .

— « نعم . إنها ترغب نفسها عليه تلك الصغيرة المسكينة ! ليس لديك أدنى فكرة عن مدى ما تعانيه . لم أكن يوماً من المؤيدين للدين المتجسسين لأموره ، كما لم أكن من معارضيهِ ولكن ليس من الصواب في شيء أن ندعها تفعل ذلك ، سيقتول الجميع بالطبع كان كرماً وتساحاً منك أن تقبلها زوجة لك مرة ثانية . أما أنا فلا أعتقد ذلك » .

قال « فياوتسون » في تحتفظ رزين وقد جعلته المارضة ناشداً بشكل غير منطقي : « هذه رغبتنا ، وأنا راض . إن خطأ كبيراً سوف يصاح » .

— « لا أصدق ذلك . إنها زوجته إذا كان لا بد لها من أن تكون زوجة لآي رجل . لقد أنجبت منه ثلاثة أطفال وهو يحبها حباً شديداً ومن الخجل حقاً ، بل من الجبن والخسة أن تدفع إلى السير في هذا الطريق . يا لها من مخاوق ضئيل صغير ينتفض رعباً ! ليس لها من يساندها وهي لا تدع الرجل الوحيد الذي يمكن أن يكون صديقاً لها يقترب منها . عجيبي ! ما الذي جعلها تفكر بهذه الطريقة ! » .

قال « فياوتسون » في لهجة خشنة : « لا أدري ولكن من المؤكد أنني لست بالشخص الذي دفعها إلى ذلك وإن تصرفاتها كلها لتتم بمحض إرادتها وحدها . هذا كل ما لدى الآن . لقد تغيرت آراؤك كثيراً أيتها السيدة « ايدلين » لم يكن ذلك من طبعك أبداً » .

— « حسن . كنت أعلم أنك ستفاجأ بما أقول ولكن لا يهمني فالحقيقة هي الحقيقة » .

— « إنني لم أفاجأ أيتها السيدة « ايدلين » فأنت خير من جيرانى ولكن يجب أن يسمح لي بأن أتصرف حسب ما أراه مناسباً لي واسوزانا وعلى ذلك أظن أنك لن تأتي معنا إلى الكنيسة . أليس كذلك » .

— « لا . ليتني أشفق لو استطعت الذهاب . لا أدري ما سوف تتمخض عنه

الأيام . لقد تحول الزواج إلى هذا الأمر الخطير الذى تراه اليوم ، إلى حد أن المرء يخشى لئلا يكون له به دخل . فى زماننا لم نهتم بأمور الزواج كل هذا الاهتمام وعندما دخلت أنا والمرحوم زوجى فى زمرة المتزوجين ظللنا نمرح طوال الأسبوع وشربنا جميع خمر الأبروشية . واضطررنا إلى اقتراض مبلغ صغير لنبدأ به الحياة فى بيتنا .

وعندما عادت السيدة « ايدايين » إلى كوخها قال « فيلوتسون » ، « لجلينجهام » وكانت نفسه منقبضة : « لا أدري هل ينبغى لى أن أتزوجها ، على الأقل بهذه السرعة ؟ » .

— « ولیم ؟ » .

— « لو أنها ترغب نفسها على الزواج منى وتخالف غريزتها لا اثنى . إلا لهذا الشعور الجديد بالواجب أو الدين - فربما من الواجب أن أنكرها تنتظر قليلا . » .  
— « الآن وقد سرت فى الموضوع إلى هذا الحد لا ينبغى أن تراجع . ذلك رأى » .

— « لا أستطيع أن أؤجله الآن ، هذا حق . ولكننى شعرت بالشك عندما صدرت منها تلك الزفرة الصغيرة عند رؤية وثيقة الزواج » .

— « والآن أيها العجوز لا تدع مجالا للشكوك . سأقوم غدا بمصاحبتها إلى الهيكل وتسليمها لك تسليما منى على اعتبار أنها زوجتك . لقد عذبنى ضميرى دائما لأننى لم أفعل فى اقناعك عندما عارضتني أول مرة والآن وقد بلغنا هذه المرحلة ان أرضى عن نفسى إذا لم أساعدك على إصلاح الأمر » .

وأوما « فيلوتسون » برأسه . وعندما أدرك مدى ما كان عليه صديقه من صلابة أصبح أكثر صراحة معه وقال : لا شك أن الناس عندما يعلنون بما فعلته سيقرر الكثيرون منهم أننى كنت مغفلا . ولكنهم لا يعرفون « سو » كما أعرفها . وعلى الرغم من أنها خداعة جدا فإن طبيعتها أمينة فى جوهرها بحيث لا أظن أنها

أنت يوما عملا يخالف ضميرها . أما كونها عاشت مع « فاولي » ، فذلك لا يعنى شيئا . وعندما تركتني وذهبت لإليه ، كانت تظن أنها تصرفت في حدود حقها . أما الآن فإنها تفكر بطريقة أخرى .

وحل الصباح التالى وواجه هذان الصديقان ، كل من وجهة نظره ، توضيحية تلك المرأة بوقوفها عند المذبح تحقيقا لما أسمته انتصار المبادئ . وذهب فيلوتسون ، ليحضر « سو » ، من بيت السيدة « ايدلين » ، عقب الثامنة بضع دقائق وكان ضباب اليوم السابق أو اليومين السابقين ، قد زحف من ناحية الأراضى المنخفضة وانتقل الآن فى ذلك المكان وامتلات الأشجار الخضراء من رطوبته وحواتها إلى غيث كبير القطرات . أما العروس فكانت تنتظر متأهبة بالقبعة وكل شيء . لم يسبق لها فى حياتها أن بدت كالزنبقة التى دل عليها اسمها كما بدت فى الضوء الباهت لذلك الصباح وكان توتر أعصابها قد أثر على لحمها وعظامها من كثرة ما أصابها من تطهر وما حملته من هموم ، ومن شعورها بالندم بحيث بدت أصفر حجا وذلك على الرغم من أنها لم تكن بادية فى أيام الصحة المزدهرة .

قال المعلم وهو يتناول يدها فى تواضع نبيل : « هل أنت مستعدة ؟ » واسكنه كبح الدافع إلى تقبيلها عندما تذكر بالأمس جفولها الذى لازم عقله بصورة تمسة .

ولحق بهما « جيلنجهام » ، وترك الجميع بيت الأرملة « ايدلين » ، التى أصرت على عدم الاشتراك فى مراسم الزواج .

قالت « سو » : « أين الكنيسة ؟ » ، إذ كانت لم تعش فى تلك البلدة بعد هدم الكنيسة القديمة ، وبمأثر مشاغلها نسيت الجديدة .

قال فيلوتسون : « إنها هناك » . وسرعان ما أطل عليهم البرج وسط الضباب ضخما وقورا . كان الكاهن قد عبر الطريق إلى البناء الأصيل للكنيسة وعندما دخلوا جميعا قال بطريقة لطيفة : « يكاد المكان يكون خلوا من الشموع » .

وهمست « سو » وهى تلمث : « هل تريدنى حقاً ؟ هل تود يا « ريتشارد » أن أكون زوجتك ؟ » .

« بكل تأكيد أيتها العزيزة . أريدك قبل كل شئ . فى العالم » .

ولم تزد « سو » حرفاً ، وللمرة الثانية أو الثالثة أحس « فيلو تسون » أنه لا يتبع فى مـ لـ كـه مـ مـها نزعتـه الإنسانية الأولى التى جعلته يتركها ترحل من قبل .

ووقف الخمسة معاً وهم الكاهن والكاتب والزوجان وجيلنجهام ثم بدأت مراسم الزواج وسارت بالطريقة التقليدية وعند المدخل وقف قروبان أو ثلاثة ، وعندما جاء الكاهن إلى عبارة « ما يجمعه الله » ارتفع صوت سيده تقول فى نبرة مسموعة : « أحقما جمعهما الله ؟ » .

لقد كانت مراسم الزواج تسير وكأنها تربط شبيحيهما اللذين وفقاً لذلك الموقف من سنوات عدة فى « ميلشستر » . وعندما وقعا فى السجل . تقدم الكاهن وهنأ الزوج والزوجة لأنهما أنيا عملاً نديلاً صالحاً يدل على تسامح الطارتين وقال وهو يبتسم : « ( كل ما له نهاية حسنة فهو حسن ) لقد أسعدك الله فى زواجكما بعد أن أنقذ حياتكما وكأن ناراً طهرتها » .

وغادر الزوجان البناء وكان خالياً تقريباً . وعبرا الطريق إلى المنزل الملحق بالمدرسة وهما تركهما « كبلنجهام » إذ كان عليه أن يعود إلى بيته فى ذلك المساء . وقبل أن يرحل تقدم لهنئة العروسين وقال وهو يودع « فيلو تسون » الذى سار معه بضع خطوات : « الآن سأقضى هذه المرة على أهل بلدتك قصة جميلة وسوف يقول الجميع قطعاً : « لقد أحسن صنعاً » .

وعندما عاد المعلم كانت سو تتظاهر بالقيام ببعض الأعمال المنزلية كما لو كانت تعيش هناك ولكن الخوف ظهر عليها عندما اقترب منها فارتسمت على عيها علامات تأنيب الضمير ،

قال « فيلو تسون » فى حزن : « طبعاً يا عزيزتى إنى لا أنوى التطفل على خاوتك



الشخصية أكثر مما فعلت من قبل ، ومن مصلحتنا اجتماعيا أن أفعل ذلك وهذا هو التبرير إذا لم نرد أن نأخذ بالمنطق .  
وانفردت أسارى « سو » قليلا .

( ٦ )

المكان ، باب مسكن « جود » على مشارف « كرايستمينستر » - بعيدا عن تخوم كنيسة القديس سيلاس - حيث عاش من قبل ، وهذا ما أحزنه إلى حد المرض . وكان المطر ينهمر في حين وقفت عند المدخل امرأة تتشج بالسواد وتحدث إلى « جود » وهو يمسك بيده الباب .

— « لاني وحيدة ، فقيرة ، شريفة ، هذا هو ما آل إليه حالى طردنى أبى من البيت بعد أن افترض منى كل ما معنى من مال ليستعين به فى عمله ، وبعد ذلك اتهمنى بالكسل فى حين كنت فى الواقع أبحث عن عمل . هأنذا ترانى وحيدة فى العالم فإن لم تأخذنى إليك وتعاوننى على الحياة فلا مناص من ألجأ إلى إحدى دور العجزة ، أو إلى ما هو أسوأ . الآن فقط بينما كنت أسير فى طريق احتسك بـ طالبان من طلاب الجامعة وأخذنا يغازلاننى . ويصعب على امرأة أن تحافظ على عفتها حيث يوجد كل هذا العدد من الشبان صغرى السن .

كانت السيدة التى تقف وسط المطر وتكلم هكذا هى « أرابيلا » فى مساء اليوم نفسه الذى زفت فيه « سو » إلى « فيلوتسون » .

قال « جود » فى برود : « لاني آسف لحالك ولستكننى أقيم هنا بالاجر » .

— « إذن أنت تطردنى ؟ » .

— « سأعطيك ما يكفى لشترى طعاما ولتستأجرى مكانا تأوين إليه بضعة أيام » .

— « ولكن ، ألا نستطيع أن نعطف على وتبلى عندك ؟ لا أستطيع أن

أتحمل الذهاب إلى نزل عام لأقيم فيه . ثم لأنى وحيدة تماما . أرجوك يا د جود ،  
وأستحلفك بسالف أيامنا !

قال مندفعاً : لا . لا . لا أود أن أعود بهذا كرتى إلى تلك الأمور ولو  
تحدثت عنها فلن أمارك .

قالت « أرايلا » : « على ذلك أعتقد أننى لابد راحلة من هنا . »

ومالت برأسها على الحائط وأخذت تبهكى وتنتحب . قال ، جود ، : « يضم  
البيت كثيرين غيرى وليس عندى سوى مقصورة صغيرة ملحقة بحجرتى احتفظ  
فيها بأدوات العمل القليل من الكتب التى تبقت ! »

— « ذلك سوف يكون قصراً بالنسبة لى ! »

— « ما من فراش فيها . »

— « يمكن وضع ما يشبه الفراش على الأرض . ذلك يرضينى . »

ولم يستطع « جود » أن يكون فظاً معها وشعر بالحيرة فيما عساه أن يفعل  
فاستدعى الرجل الذى أجر له الحجرة وأخبره أن السيدة من معارفه وأنها فى حاجة  
شديدة إلى مكان تأوى إليه .

قالت « أرايلا » : « إنك قد تتذكرنى كساقية فى حان « الخروف والراية »  
سابقاً . وأهأنى أبى اليوم فتركته ورحلت ولا نقود معى ! »

وأجاب المالك بأنه لا يتذكر ملامح وجهها ثم قال : « ومع ذلك لو كنت  
صديقة للسيد « فاوى » فسنبذل كل ما فى وسعنا لتأويك يوماً أو يومين ، وهذا  
لو جعل السيد نفسه مسئولاً عنك . »

قال « جود » : « نعم . نعم . فى الواقع إنها فاجأتنى تماماً ، ولكننى أود  
أن أساعدها على الخروج من هذه الشدة . »

أخيراً اتخذت بعض الترتيبات وأعد سرير المقصورة الملحقة بحجرة « جود »

حتى تصبح مريجة ، لأرابيلا ، وبذلك تخرج من المأزق الذى لم يكن لها يد فيه على حد قولها وحتى تعود إلى بيت أبيها ثانية .

وبينما كانا فى انتظار الانتهاء من هذه الترتيبات قالت ، أرابيلا ، : « أظن أنك تعرف الأخبار ؟ » .

— « أستطيع أن أحزر ما ترمين إليه ولاكننى لا أعلم شيئاً » .

— « وصلتني رسالة اليوم من « آنى » التى تسكن فى « الفردستون » . سمعت لتوها أن الزفاف تم أمس » .

— « لا أود الحديث فى هذا الموضوع » .

— « لا لا . بالطبع أنت لا تريد ذلك وكل ما هناك أن ذلك يدل على أى نوع من النساء هى ! » .

— « قلت لك لا تتحدثى عنها ! إنها حمقاء ولاكنها ملاك أيضا . يا للغالية الصغيرة ! » .

— « لو أن الزواج تم فعلا فسيتيح له ذلك فرصة العودة إلى وظيفته القديمة وهذا ما يقوله الجميع وتقوله « آنى » أيضا . سيفرح لذلك كل محبيه بما فيهم المطران نفسه » .

— « لإرحمىنى يا « أرابيلا » ! وفى الوقت المناسب استقرت « أرابيلا » فى المقصورة الصغيرة . وفى أول الأمر لم تقترب من « جود » بل راحت تسعى وراء شئونها التى كانت ، كما أخبرته عندما تقابلا على السلم ، عبارة عن محاولة للحصول على وظيفة فى المهمة التى تفهمها جيدا . وعندما اقترح « جود » عليها أن تذهب إلى « لندن » على اعتبار أنها مركز تجارة الخمر هزت رأسها وقالت : « لا ! إنها مليئة بالمغريات ويسكننى حان متواضع فى الريف قبل هذا » .

وفى صباح الأحد التالى ، عندما كان يتناول فطوره فى وقت متأخر طلبت

منه في رقة أن يسمح لها بالاشتراك معه في شرب الشاي فتمد كسر برادها ولا تستطيع  
أن تشتري غيره إذ كانت المتاجر عندئذ مغالقة .

قال « جود » في عدم اكتراث : « نعم . لو أردت ذلك » .

وبينما الاثنان يجلسان في صمت قالت « أرايلا » فجأة : « يبدو أيها العجوز  
أنك دائم التفكير . لطف عليك ا » .

— « نعم . إنني كذلك » .

— « أعرف أن تفكيرك مركز فيها . لا شأن لي بذلك ولكنني عرفت كافة  
أنباء الزفاف . لقد تم بالفعل وهذا لو أردت أن تعلم » .

— « وكيف استطعت ؟ » .

— « ذهبت إلى « الفردستون » لأحضر بعض الأشياء التي كنت تركتها  
هناك واستطعت أن أقابل « آني » وهي على علم بكل شيء . إذ لها أصدقاء في  
« ميريبورن » .

ولم يرد أن يوافق على هذا العرض ولكن شوقه للحقيقة جعله يتصرف على  
عكس رغبته . وأخيرا ربح حب الاستطلاع المعركة ضد الحسكة والزناة وقال :  
« تستطيعين أن تسألي عن ذلك لو أردت . لم أسمع شيئاً من هناك . لا بد أن الزفاف  
تم في نطاق ضيق للغاية - وهذا لو كانا قد تزوجا » .

— « ليس لدى المال لأذهب ثم أعود ومعنى الحقيقة ، ولولا ذلك لذهبت  
« هنا أنتظر حتى أحصل على بعض المال » .

قال وقد نفذ صبره : « يمكنني أن أدفع لك تكاليف الرحلة » . وهكذا دفعته  
لهفته اللطمثنان على « سو » ومعرفة ما تم في أمر زواجها إلى إرسال آخر رسول  
يمكن أن يفكر في اختياره لمثل هذه المهمة .

وذهبت « أرايلا » بعد أن طلب منها أن تعود في القطار الذي يصل في

السابعة مساءً . وبعد أن رحلت قال : « لَمْ طلبت منها أن تعود في موعد معين ! إن « سو » أصبحت لا تعنى شيئاً بالنسبة لى ، ولا حتى بالنسبة للشخص الآخر ! » وبعد أن فرغ من عمله لم يقاوم رغبته في التوجه للحظة لمقابلة « أرايلا » مدفوعاً إلى استطلاع الأنباء حلوها ومرها في سرعة محومة لا يعرف مصدرها . وطوال الرحلة كانت « أرايلا » تحرك هزماًتها وهي تحس بالنصر . وعندما خطت إلى الأمام لتنزل من القطار كان وجهها يتسم ولم يزد « جود » عن أن قال : « حسن ؟ » قال ذلك بوجه عابس يخلو من أى أثر الابتسام .

— « لقد تزوجا » .

وحاد يقول : « نعم . حدث هذا دون شك ! » .

ولكن « أرايلا » لاحظت الجهد الشديد الذى بدا على شفثيه وهو يتكلم وقالت : « تقول « آنى » - إنها سمعت من قريبتها « بيلندا » التى تعيش فى « ميريجرين » أن كل شىء تم فى جو غريب مليء بالأحزان ! » .

— « ماذا تقصدين ؟ ألم تسكن تلك رغبته فى أن تزوجه ثانية ؟ وهو ! ألم تسكن هذه رغبته ؟ » .

— « نعم . هذا صحيح . أرادت أن تزوجه لغرض معين ولم ترد الزواج بالمعنى الآخر . لقد ضايق ذلك الزواج السيدة « ايدلين » فصرحت بكل ما فى صدرها لفيلوتسون ، ولكن « سو » كانت فى كرب من هذا الزواج حتى أنها أحرقت أجمل قصاتها تطريزا ، ذلك الذى اعتادت أن تلبسه عندما كانت تعيش معك . لقد فعلت ذلك حتى تمحيك من ذاكرتها تماماً . ولو كان هذا هو شعورها فيجب أن تزوجه . لأننى معجبة بتصرفها هذا وإن لم يوافقنى البعض على ذلك . وتنهدت « أرايلا » ثم قالت : « إنها تشعر أنه زوجها الوحيد وأنها لا يمكن أن تنتمى إلى أى رجل آخر ما دام هو على قيد الحياة . ربما كان هذا هو نفس شعور امرأة أخرى تعرفها أنت أيضاً ، وتنهدت « أرايلا » للمرة الثانية .

وصاح « جود » يقول : « لا أريد منك أى تمثيل » .

قالت « أرايلا » : « إنى لا أسمى هذا تمثيلا فإننى أشعر حقا نفس شعورها ، ، » .

وختم « جود » ذلك الحديث عندما قال فى لهجة قاطعة : « حسن . الآن علمت كل ما أردت . شكرا لما زودتنى به من معلومات . ان أعود الآن إلى مسكنى ، وتركها وانصرف . »

وأخذ « جود » فى تعاسته وانقباضه يتجول فى كل جزء من المدينة سبق أن ارتاده فى صحبة « سو » . وظل كذلك حتى أصبح لا يدرى إلى أين يذهب . أخيراً . فكر فى أن يعود ليعيش فى بيته ، ولما كان لكل الفضائل رذائل ، ولما كان لجود أيضا قدر من الرذائل فإنه عرج على حان للشراب ، وكان ذلك للمرة الأولى منذ أشهر عدة ، وهى من بين النتائج العديدة المترتبة على زواجهما ، لم تفكر « سو » فى هذه النتيجة ولم تعرفها أى اهتمام .

فى هذه الأثناء عادت « أرايلا » إلى البيت ولما كان المساء انصرف دون أن يعود « جود » فخرجت بنفسها فى التاسعة والنصف واتجهت فى أول الأمر إلى حى يقع فى أطراف البلدة بالقرب من النهر حيث يسكن والدها وحيث افتتح أخيراً متجر صغيرا لبيع لحوم الخنازير ، وقالت « أرايلا » لوالدها : « حسن . على الرغم من أنك طردتنى فى ذلك المساء جئت لزيارتك ، لدى ما أقول ، أظن أننى سأزوج وسأستقر مرة أخرى ولكن عليك أن تساعدنى وأظن أنك لن تمتنع عن أداء هذه الخدمة بعد الذى قدمته لك من خدمات ، ، » .

— « سأقدم على أى شىء للخلاص منك ، ، » .

— « حسن للغاية . سأذهب الآن لأبحث عن رجل وأخشى أن يكون خرج هائما على وجهه ويجب أن أعود به إلى البيت . كل ما أطلبه منك ألا تغلق الباب الليلة فقد أضطر إلى المبيت هنا لو حدث وتأخرت ، ، » .

— « كنت أظن أنك ستملين ادعاء الأهمية لنفسك وتبتعدين عني ، ، » .

— وكل ما أطلبه منك الآن هو ألا تغلق الباب ، .

عادت « أرابيلا » مرة أخرى إلى حيث يسكن « جود » . وبعد أن تأكدت أنه لم يعد إلى بيته بدأت تفقش عنه . وراحت تفكر في الطريق التي لابد أن يسلكها وقادها تفكيرها إلى الذهاب مباشرة إلى الحان التي اعتاد في الماضي التردد عليها وحيث عملت في مشربها فترة قصيرة . ولم تكذب تفتح الباب الذي كتب عليه « مشرب خاص » حتى وقعت عيناها عليه وكان يجلس في الضوء الخافت داخل إحدى مقصورات الشراب وقد تركزت عيناها على الأرض في نظرة تخالو من كل تعبير وعندما دخلت وجدته يشرب البيرة . ولما لم يلحظها تقدمت وجلست بجانبه .

رفع « جود » رأسه وقال دون أن تبدو عليه الدهشة : « هل جئت لشربي شيئاً يا « أرابيلا » ؟ إنى أحاول نسيانها . هكذا كل ما في الأمر اـ لكننى لا أستطيع وإنى عائد إلى البيت » . رأت أنه وإن كان قد بدأ في تعاطي الشراب إلا أنه كان حتى تلك اللحظة قد تعاطى منه قدراً قليلاً .

— « حضرت فقط للبحث عنك أيها العزيز . أنت متوعلك . لابد أن تتعاطى شراباً أفضل من هذا » .

ونادت على الساقية وقالت : « اشرب » ليكيير ، فذلك يناسب رجلاً متعلماً أكثر من البيرة . اشرب « الماراشينو » أو « الكوراشوا » الصرفة أو المحلاة أو « براندى » الفراولة . لسوف أعالجك أيها الفتى المسكين اـ » .

— وكل هذه الأنواع عندى سواء ولا أهتم بنوع معين . ليكن براندى الفراولة . أساءت إلى « سـو » . أساءت إلى إساءة بالغة لم أكن أتوقعها . أخلصت لها وكان الواجب أن تخلص لى اـكى تنقذ روحى . داست على روحى بالأقدام اـ سكن الخطأ ليس خطأها . يا لها من فتاة صغيرة مسكينة . إنى وائق من ذلك » .

لم يظهر كيف حصلت « أرابيلا » على المال ولكنها طلبت خيراً لها وله

ودفعت الثمن . وعند ما فرغا من شرب الكأسين طلبت غيرهما وارتاح « جود ، إلى أن التي تقوده في تعاطي هذه المسكرات شخص يعرف دخائل هذا الأمر جيداً . وظلت « أرابيلا ، متخلفة كثيراً بالنسبة لجود في مجال الشراب ولكنها على الرغم من أنها كانت ترتشف الخمر في حين أنه كان يجرعها ، فإنها تناولات منه فقط القدر الذي لا يجعلها تفقد وعيها — ولم يكن ما شربته بالقليل بدليل اللون القرمزي الذي كسا وجهها .

كانت نفمة حديثها معه في تلك الليلة مهدئة ومواسية وكأسا قال « لا يهمني ما يحدث لي ، — وكان يكرر هذه العبارة بين الحين والحين — ردت « ولكن ذلك يهمني كثيراً ، وحانت ساعة الإغلاق فاضطرا إلى الخروج وعندئذ لفت « أرابيلا ، ذراعها حول وسطه وقادت خطواته المترنحة .

وعند ما بلغا الطريق العام قالت : « لا أدري ما سيقوله صاحب الدار عندما يراني أعود بك على هذه الصورة . أتوقع أن تكون الأبواب أغلقت وسيضطر إلى النزول ليفتح لنا ، .

... « لا أدري . لا أدري ، .

— « هذا أسوأ ما يصادفه الإنسان هند ما لا يكون له بيت خاص . أقول لك يا جود ما يجدر بك أن تفعله . تعال إلى بيت أبي — أصلحت ما بيني وبينه قليلا اليوم . أستطيع أن أجعلك تدخل دون أن يراك إنسان ، وفي صباح الغد ستكون على ما يرام ، .

قال « جود ، : « أى شئ . — أى مكان فإذا يهمني الآن ؟ ، وسارا معاً كالأى محبين وكان ذراعها ما زال يطوق وسطه . أخيراً لف ذراعها حول وسطها وإن لم يكن يقصد من ذلك إظهار الحب ولكنها فعل ذلك لمجرد شعوره بالاعتماد وعدم التوازن والحاجة إلى من يستند إليه .

قال متلعثما : « هذا — هذا هو المكان الذي أحرق فيه الشهداء ، . قال



ذلك عندما عبرنا طريقا واسعا . « إنى أتذكر ما قاله « فولر » فى كتابه الذى أسماه « الدولة المقدسة » ويذكرنى مرورنا من هنا بما قاله « فولر » ذلك العجوز . يقول « فولر » فى كتابه « الدولة المقدسة » إنه عندما أحرق « ريدلى » قام الدكتور « سميت » بإلقاء موعظة تقوم على الآية الثالثة عشرة من سفر « كورنثوس » وتقول : « إن سميت جسدى حتى أحرق ولكن ليسلى محبة فلا أتنفخ شيئا » إنى أتذكر هذه الآية كلما مررت من هنا . إن « ريدلى » كان ... » .

— « نعم بالضبط . جميل منك ذلك يا عزيزى حتى لولم توجد علاقة بين هذا وموضوعنا الحالى » .

... « عجباً ! أجل توجد ! إننى أعطى جسدى ليحرق ! ولكن آه أنت لا تفهمين ! لا بد من « سو » لتفهم مثل هذه الأمور ! وأنا الذى أغربتها — تلك الصغيرة المسكينة ! والآن رحلت ولا يهمنى أمر نفسى ! افعلنى ما تشائين ! ومع ذلك إنها صنعت ما صنعتته لترضى ضميرها . مسكينة هذه الصغيرة « سو » ! .

— « فلتشقى ! أقصد أظن أنها كانت على حق » .

وأصاب « أرابيلا » الفواق وهى تقول : « إن لى عواطفى أيضا مثلها تماما وأشعر أنتى أنتى إليك فى نظر السماء وليس لأى شخص آخر أن يفرقنا حتى الموت . إنه — هى — إن الألوان لا يفوت أبداً — هى — على الإصلاح ! » .

هنا كانا قد وصلا إلى بيت والدهما ففتحت الباب بخفة وتلست طريقها فى الظلام من أجل النور .

ولم تسكن الظروف تختلف كثيرا عن ظروفهم عندما ما دخلا الكوخ فى « كريسكومب » وكان ذلك منذ زمن طويل كالم تسكن دوافع « أرابيلا » الآن تختلف عنها فى ذلك الوقت . ولكن « جود » لم يفكر فى ذلك وإن فعات هى .

قالت بعد أن أحكت غلق الباب : « لا يمكننى العبور على الثقاب يا عزيزى . لكن ، هذا لا يهم . تعال من هنا وسر بمنتهى الهدوء » .

قال : « إن المكان مظلم وكأنه قطعة من قار ، .  
 -- « هات يدك لأقودك . هاك . اجلس لأخلع لك حذاءك فإني لا أريد  
 أن أوقظه ، .

-- « من ؟ ، .

-- « أبي قد يشير ضجة ، .

وخلعت له حذاءه ثم همست : « والآن إمسك بي . لا يهم ثقلك . اصعد --  
 واحد ، اثنين ، ثلاثة ... ، .

قال وقد فارقته وعيه : « ولكن هل نحن الآن في بيتنا القديم بالقرب من  
 « ميريجرين ، ؟ إنني لم أدخله منذ سنوات ١ هـ ، ١ وأين كنتي ؟ هذا ما أود  
 معرفته ، .

-- « إننا في منزلي أيها العزيز حيث لا يتجسس عليك أحد فيعرف كم أنت  
 مريض . والآن -- هيا لنصعد ... ثلاثة ، أربعة -- هذا هو . والآن سنواصل  
 الصعود ، .

## ( ٧ )

كانت « أرابيلا » تعد الفطور في الحجرة الخلفية من الطابق السفلي لهذا الكوخ  
 الصغير الذي استأجره أبوها . مدت رأسها داخل المتجر الصغير الذي افتتحه  
 أمام المنزل لبيع لحم الخنزير وأخبرته بأن الفطور أعده . أما « دون » ، ففي محاولته  
 الظهور بمظهر الجزار المتخصص في لحم الخنزير -- إذ ارتدى قميصا متسخا بالدهن  
 وتمنطق بحزام تدلت منه قطعة من الصلب -- فقد أقبل عليها سريعا .

قال في تراخ : « يجب أن تلزمي المتجر هذا الصباح على أن أتوجه إلى  
 « لمبسدون » ، لأبتاع بعض الأخشاب ونصف خنزير ، كما على أن أذهب إلى أماكن  
 أخرى . إذا كنت تعيشين هنا فلا بد أن تمدى يد الممونة ، في الفترة الأولى على  
 الأقل حتى تسير الأمور ، .

ونظرت في وجهه - نظرة مجردة من العاطفة وقالت : « حسن ، عن اليوم  
لا أستطيع القبول ، لدى مفاجأة في الطابق العلوى ، » .

— « وماذا تكون هذه ؟ » .

— « لدى زوج ا » .

— « لا ا » .

— « نعم . إنه « جود » . عاد إلى » .

— « زوجك القديم الاصلى ؟ حسن . على اللعنة ا » .

— « أحببته دائما وهذا ما لا بد أن أصرح به » .

وقال « دون » في انفعال مفاجىء وهو يرمى إلى أعلى ويقول : « واسكن  
كيف حدث أن وصل إلى فوق ؟ » .

— « لا تسألنى أسئلة محرجة يا أبى . ما ينبغي أن تفعله الآن هو أن تحتفظ  
به هنا حتى أعود أنا وهو إلى ما كننا عليه » .

— « وكيف ؟ » .

— « نتزوج » .

— « آه . حسن . هذا أغرب ما سمعت في حياتى . الزواج ثمانية من الزوج  
القديم بينما في العالم كل هذا العدد من الشباب الصاعد ! في رأى أنه لا يعتبر ربما .  
لو كنت في مكانك لبحثت عن زوج جديد » .

— « هل من العجيب أن ترغب الزوجة في استعادة زوجها القديم لأسباب  
متعلقة باحترام الناس لها ولو أنه من جهة الرجل ، عندما يرغب في استعادة  
الزوجة التي هجرها ، ماذا أقول ، لا بد أن يثير عمل كهذا ضحك الناس ا » .

وهنا أخذت « أرابيلا » نوبة من الضحك الصاخب وشاركتها في ذلك والدها  
وإن لم يكن صوته مرتفعاً بصوتها .

وبعد أن استرجمت وقارها القديم قالت : « كن مهذباً معه يا أبت وسأتولى أنا الباقي . أخبرني هذا الصباح أنه يحس بصداع يكاد يجعل رأسه ينفجر ويكاد لا يعرف أين هو ولا يحجب في ذلك لو فكرنا في أنواع الخور التي شربها ليلة الأمس . لا بد أن نجعله يشعر هنا بالمرح والرضا ولا نتركه يعود إلى الغرف المقبضة التي يقيم فيها . ومهما افترضت منك من مال فسأرده لك . والآن يجب أن أصعد لأرى كيف هو الآن . يا للعزير المسكين »

وصعدت السلم وفتحت باب حجرة النوم في رفق زائد واختلست النظر . وعندما وجدت أن شمشونها حليق الشعر نائم ، دأبت إلى السرير ووقفت تتأمل . لقد بدا وهج الحمى على وجهه من أثر عريضة الليلة السابقة وقمل من مسحة الإعياء التي اتسم بها مظهره العادي ، كما أن رموشه الطويلة وحاجبيه الداكنين وشعره الأسود المموج وذقنه ، بدت كلها فوق الوسادة البيضاء وكأنها أكل السمات الجسمية للرجل الذي ما زالت « أرابيلا » تدرك بغرائزها الدنيا أنه شيء خليق بها أن تستولى عليه . كان من أزم الأمور لها أن تستعيد « جود » وذلك لأنها فقيرة في الرزق والسمعة . بدت وكأن نظراتها الواهية نفذت إلى أعماقه إذ توقف تنفسه السريع وفتح عينيه ، وعندئذ قالت : « كيف حالك الآن يا عزيزي ؟ إنه أنا - « أرابيلا » .

— « آه . أين أنا . نعم إنى أتذكر ! لقد آويتيني . أنا شرير ، ضائع ، مريض ، يائس ، سىء إلى أقصى حد ! هذه حقيقة قتيلى » .

— « إذن ابق هنا . ليس بالبيت سوى أنا وأبى ويمكنك أن تستريح حتى تستعيد صحتك تماما . سأقول لهم ، أهل مكان عملك ، إنك مريض » .

— « إنى لأعجب ماذا يقولون عنا في البيت الذى نسكنه ! » .

— « لسوف أذهب إليهم وأفسر لهم كل شيء . قد يكون من الأفضل أن تتركنى أدفع ما عليتنا من نفود هناك لئلا يظنون أننا هربنا » .

— « نعم . ستجدين في جيبي نفودا كافية » .

ودون أن يكثر بشيء أغلق عينيه لأنه لم يحتمل ضسوء النهار في مقلتيه المحمومتين ، وبدأ كأنه راح في إغفاءة من جديد . وبعد أن أخذت « أرابيلا » كيس نقوده وغادرت الغرفة في هدوء . ارتدت ملابس الخروج وتوجهت إلى المسكن الذي غادراه في الليلة السابقة .

ولم تكبد تمر نصف ساعة حتى ظهرت « أرابيلا » من جديد عند المنعطف تسير إلى جوار صبي يحرق عربة عليها كل حاجيات « جود » ، وكذلك حاجياتها التي كانت أخذتها معها إلى ذلك المسكن . كان « جود » يعاني من آلام جسمية بسبب ما أصابه من انهيار في الليلة السابقة ، كما يعاني آلاماً نفسية بسبب فقدانه « سو » وخضوعه « لأرابيلا » بطريقة لاشعورية إلى حد أنه عندما رأى حاجياته القليلة تفتح وتوضع أمام عينيه في هذه الغرفة الغريبة واختلطت حاجياته بملابس امرأة ، لم يذكر مطلقاً كيف جاءت تلك الحاجيات إلى ذلك المكان أو ما الذي دل عليه مجيئها .

قالت لأبيها في الطابق السفلي : « والآن لا بد أن نحفظ في المنزل في هذه الأيام القليلة القادمة بكثير من الخبز الجيد . إنني على علم بطبيعته ولو أصابته حالة الحزن العميق الذي ينتابه أحياناً فإن يعيدني إليه ولن يجعل مني مخلوقاً محترماً وبذلك ستضع مني فرصتي الوحيدة الباقية لي في الحياة وسأترك لهموم والشدائد . لا بد أن يظل منشرح الصدر . لديه قليل من المال في صندوق التوفير . لقد أعطاني حافظة نقوده لأدفع ثمن أى شيء . حسن . تلك هي وثيقة الزواج ولا بد أن أحفظ بها جاهزة للاستعمال حتى أقتنصه بمجرد أن يصفو مزاجه . يجب عليك أن تدفع ثمن الخبز فإن قليلاً من الأصدقاء وحفلاً صاخباً هما ما نريد ، ولو كان في مقدورنا القيام بأى شيء فسوف ينطوى هذا على دعاية للبتجر ، كما سأجد فيه عوناً لي .

— « ذلك ميسور لأي إنسان يحصل على طعام وشراب . نعم . هذا ينطوى على دعاية للبتجر . هذا حق ، .

وبعد ثلاثة أيام ، شفى « جود » قليلا من النبض الخفيف في مقاتليه ورأسه ،  
ولكنه ظل على حيرته العقلية البالغة بسبب ما زودته به « أرابيلا » في فترة  
مرضه - حتى تصون على حد قولها ، روح البهجة لديه - وعلى الأخص ذلك  
الحفل الهادى الطروب الذى اقترحه ونفذته لتشجنته حتى نقطة الانفجار .

كان « دون » قد افتتح لتوه دكانه الصغير الفقير لبيع لحم الخنزير والسجق  
ولم يكن لديه أحد من الزبائن . وأيا كان الأمر فإن الحفل أعلن عن الدكان  
جيدا واكتسبت أسرة « دون » شهرة وإن كانت سيئة بين طبقة معينة من سكان  
« كرايستمينستر » لم تعرف الطريق إلى الكليات الجامعية ولا اختصاصات هذه  
الكليات وأساليبها . وسئل « جود » إذا ما كان يود أن يقترح أى ضيف بالإضافة  
إلى أولئك الذين اقترحهم « أرابيلا » وأبوها وفى مزاج مكتئب ينطوى على  
استهتار مطلق ، ذكر العم « جو » و « ستاج » ووسيط البيع ذلك الفاسد ،  
وآخرين ممن تذكر أنهم كانوا من المترددين الدائمين على الحان المشهورة فى فترة  
إدمانه على الشراب قبل سنوات . كذلك اقترح اسمى « فريكز » و « باور أوبليس »  
ووافقته « أرابيلا » فيما يختص بالرجال ، ولكنهما عارضت فى دعوة النساء .

رجل آخر عرفاه كان السمكرى « تايلور » وهو على الرغم من أنه يقيم فى نفس  
الشارع ، لم يدع للحفل ولكنهما كانا عائدا إلى بيته فى ساعة متأخرة من ليلة  
الحفل ، مر بالمتجر ليلتأخر بعض الأكارع . لم يكن فى المتجر شئ منها ولكنهما  
وعند بضعهما فى الصباح التالى . وعندما جاء يطلب أكارعه . ألقي نظرة إلى الغرفة  
الخلفية فرأى المدعوين وقد جلسوا فى دائرة يلعبون الورق ويمتسون الخمر  
ويمرحون ويمتنعون أنفسهم بطرق شتى على حساب الجزار « دون » .

وعاد « تايلور » إلى بيته لينام ، وفى أثناء مغادرته البيت فى الصباح التالى  
سأل نفسه فى دهشة كيف انتهى الحفل . لقد قرر أن الأمر لا يستحق منه أن  
يتوجه إلى المتجر فى تلك الساعة المبكرة من الصباح كي يحصل على ما قد طلبه من  
أكارع إذ توقع أن يسكون الجزار وابنته ما زالنا نائمين لإفراطهما فى الشراب  
والجوع حتى ساعة متأخرة من الليل . وعلى الرغم من ذلك ، عندما مر بباب بيت

« دون » ، وجد بابه دفتوحا واستطاع أن يسمع أصواتنا في الداخل على الرغم من أن ردادات ثلاجة اللحم لم تكن أسدلت فسار ودق على باب غرفة الجلوس وفتح .

قال في دهشة : « حسن . بكل تأكيد ! »

كان الضيوف والمضيفون يلعبون الورق ويدخنون ويتحدثون بالضبط كما تركهم قبل إحدى عشرة ساعة وكان المصباح مضاء والستائر مسدلة مع أنه كان قد مضت ساعتان على بزوغ النور في الخارج .

صاحت « أرايلا » وهي تضحك : « نعم . هانحن كما رأيتنا تماما . ينبغي أن نخجل من أنفسنا . أليس كذلك ؟ ولكن هذا نوع من الاحتفال بالبيت الجديد وأصدقائنا ليسوا في عجلة . ادخل ياسيد « تايلور » واجلس . »

لم يكن السمكري ، أو بالأحرى تاجر الخردة ، بالذي يرفض مثل هذه الدعوة ، فدخل وجلس ثم قال : « سأفقد شلنا ولكن لا يهم . حسن . حقا كدت لأصدق عيني عندما نظرت إلى الداخل ! خيل إلى أنني عدت ثانية إلى الليلة الماضية وجأة . »

— « فعلا . صلب للسيد « تايلور » . »

ولاحظ الآن أنها تجلس بجوار « جود » وذراعا حول وسطه . أما « جود » فارتسمت على وجهه كبقية الجماعة مادل على مدى إقباله على الشراب . واستمرت « أرايلا » تقول في حياء جاعلة لونها الأحمر الناشيء عن الخمر يبدو بقدر الإمكان وكأنه حمرة الخجل التي تسكسو وجه عذراء صغيرة : « حسن . في الواقع كنا متلهفين على العودة إلى وضعنا الشرعي . قررت أنا و « جود » إصلاح ما بيننا بعقد العقدة ثانية إذ اكتشفنا أن الواحد منا لا يستطيع أن يستغنى عن الآخر . اتفقنا ، كفسكرة نيرة ، أن نسهر حتى يطالع النهار وعندئذ نذهب ونتمه لفورنا . »

وبدا « جود » كأنه لا يهتم كثيرا بما أعلنته « أرايلا » أو بأي شيء آخر

وأوجد دخول ، تايلور ، بين أفراد المجموعة أثرًا منعشا وظل أفرادها جالسين إلى أن همست « أرابيلا » في أذن أبيها تقول : « والآن نستطيع أن نذهب » ،

— « ولكن القسيس لا يعلم . »

— « نعم . أخبرته بالأمس أننا نأتى فيما بين الثامنة والتاسعة فثمة أسباب تتعلق بالكرامة تدعونا إلى إتمامه فى وقت مبكر دون جلبة بقدر المستطاع وذلك لأن هذا هو زواجنا الثانى مما قد يثير فضول الناس لو علموا به . لقد وافق « جود » على ذلك كل الموافقة .

— « حسن للغاية . لئننى على استعداد . »

قال أبوها ذلك ونهض يهز جسده .

قالت لجود : « والآن أيها العجوز العزيز . هلم بنا كما وعدت . »

— « ومتى وعدت أى شيء ؟ » قالها — هو الذى جعلته « أرابيلا » مخمورا بفضل خبرتها السابقة فى عالم الخمر . بل كادت الآن أن تعيده ثانية إلى صوابه — أو جعلته يبدو كذلك فى أعين الغرباء . وقالت « أرابيلا » متظاهرة بالحيبة : « وعدتني عدة مرات أن تزوجنى بينما كنا نجلس هنا الليلة . سمعوك هؤلاء السادة » قال « جود » فى عناد : « لا أذكر ذلك . هناك امرأة واحدة فقط واسكننى ان أذكر اسمها فى هذا المكان المذنس ! » .

والتفتت « أرابيلا » إلى أبيها الذى قال : « والآن ياسيد «فاولى» كن شريفاً ، عشت مع ابنتى هنا ثلاثة أو أربعة أيام على اعتبار أنك سوف تتزوجها . ما كنت بالطبع لأقبل مثل هذه الأوضاع فى بيتى لو لم أعرف ذلك . ويستدعى الشرف منك أن تتزوجها الآن . »

قال « جود » فى حماسة وهو يهب واقفاً : « لا تقل شيئاً يمس شرفى ! أفضل الزواج من عاهرة بايلون على أن آتى ماينافى الشرف ! لئننى لا أقصدك يا عزيزتى ولكنك مجرد تشبيه بليغ وهو ما يسمى فى كتب اللغة بصيغة المبالغة » .



قال «دون» : «احتفظ بتشبيهاتك لنفسك وادفع ديونك لأصدقائك الذين يأوونك» .

— «لو كان الشرف يقتضي أن أتزوجها — وهو ما أظن أنه الواقع الآن على الرغم من أنني لا أعلم كيف جئت إلى هنا إذ أن علي في ذلك لا يزيد على علم رجل ميت — فإني سأتزوجها وليساعدني الله على ذلك وإني لم أتصرف بما يناق الشرف مع أية امرأة أو مع أي حي . لست بالرجل الذي يريد أن ينقذ نفسه على حساب الضعفاء» .

قالت «أرابيلا» وقربت خدها من خده : «هيا . لاتفق بالآلية يا عزيزي . اصعد إلى الدور العلوي واغسل وجهك ورتب هندامك وبعدها نذهب في الحال لنصلح ذات البين مع أبي» .

وتصافح الاثنان وسعد «جود» في صحبة «أرابيلا» إلى الدور العلوي ثم نزل وبدا مرتب الهندام هادئا ، كما بدت هي الأخرى كذلك وجاءت بصاحبها أبوها واتجه الجميع إلى خارج البيت .

قالت للضيوف وهي في طريقها إلى الخارج : «لا تنصرفوا فقد أمرت الخادمة بأن تعد الفطور ونحن في الخارج وعندما نعود ستمناولوه سويا فإن قدحا من الشاي الساخن لابد أن يعيد الوعي إلى كل منكم قبل أن يعود إلى بيته» . وعندما اختفت «أرابيلا» ومعه «جود» والجزار ، ثأب الضيوف وبدأوا يفتقون تدريجيا من تأثير الخمر وحاولوا أن يناقشوا الموقف في اهتمام بالغ وكان «تايلور» أكثرهم يقظة فناقش الأمور بطريقة متزنة للغاية .

قال : «لا أود أن أتكلم بالسوء في حق أصدقاء لنا ولكن يبدو عجيبا أن نرى زوجا وزوجة يتزوجان من جديد . لو كان هذان الزوجان عجزا عن الاتفاق في المرة الأولى عندما كان عقلاهما لينين فإني أعتقد أنهما ان يتفقا في المرة الثانية» .

— «ألا تظن أنه سيتزوجها؟» .

- « لقد أخرجته المرأة يالاً لاجاء إلى شرفه ، وعلى ذلك سيتزوجها » .  
 — « لا أظن أن الزواج سيتم بهذه السرعة إذ أنه لم يعد وثيقة لمثل هذا الزواج ولم يفعل أى شىء آخر » .  
 — « يرحمك الله ! أعدتها هى . ألم تسمعها وهى تنهى والدها بذلك ؟

قال « تايلور » وهو يشعل غليونيه ثانية من المصباح الغازى : « على أى حال إذا أردت أن تحكم عليها جزءا ، جزءا ، فهى ليست بالشىء القبيح وخاصة لو نظرت إليها فى ضوء الشموع . لا تنس أن العملة التى تداولتها الأيدي لا يمكن أن تبدو جديدة كغيرها التى خرجت منها من دار السك . ولكن بالنسبة لامرأة جابت الآفاق وذهبت إلى أركان الدنيا الأربعة فهى تعد مقبولة نوعا ما . قد تكون سميكة نوعا وفيها غلظة ضلوع الخنزير ولكننى أحب المرأة التى لا تسقطها نفحة الريح » .

وتبعت الأعين حركات الخادمة وهى تعد للفظور بوضع المفروش على المائدة التى كانوا يستخدمونها فى الشراب . فعلت الفتاة ذلك دون أن تنظف المائدة من آثار الخمر . وكانت الستائر قد أزيحت عن النافذة وبدأ جو البيت وكأن الصباح تقدم ومع ذلك غلب النعاس بعض الضيوف وهم فى مقاعدهم بينما ذهب بعضهم إلى الباب وأخذوا يطيلون النظر فى الطريق أمامهم وعلى رأس هؤلاء « تايلور » الذى عاد بعد فترة وهو بغمز بعينيه ويقول : « بحق السماء إنهم عائدون وأغاب الظن أن المؤامرة نجحت ! » .

وقال العم « جو » وهو يتبعه إلى الداخل : « لا بل أعتقد أنه أصبح حرونا فى اللحظة الأخيرة . إنى أراهم يسرون بطريقة غريبة وهذا دليل على مدى قولى » .  
 وظل الجميع ينظرون فى صمت تام حتى سمعوا الجنبه الناشئة عن جماعة الرفاف وهى تدخل البيت وكانت « أرابيلا » أول الداخلين ونم وجهها فى وضوح عن أن خطتها كالت بالنجاح .

قال « تايلور ، وهو ينحنى لها بما يشبه الاحترام : » أرجح أنك أصبحت الآن السيدة « فاوى » ؟ .

وقالت « أرايلا » فى رقة متصنعة وهى تخلع قفازها وترفع يدها اليسرى فى وجهه : « بكل تأكيد أصبحت السيدة « فاوى » من جديد . ها هو القفل والمفتاح انظر ا على أى حال كان فى منتهى اللطف مئى وكان حتما رجلا نبيلاً وشهما . أقصد القسيس ! لقد حدثنى بعد انتهاء المراسم وكان فى حديثه رقيقاً كغلام ساذج . قال : ( أهنئك من كل قلبى أيتها السيدة « فاوى » إذ أننى بعد أن سمعت قصتك وقصة زوجك أصبحت الآن أعتقد أنك فعلتما ما هو صواب . أما عن ذنوبك فى الماضى كزوجة وذنوبه كزوج فأغلب ظنى أن العالم لا بد أن يغفر لكما إذ غفر كل منكم للآخر ) . نعم . كان لطيفاً للغاية وكان نبيلاً وكان شهما . لقد عاد يقول ( إن الكنيسة لا تعترف فى عقيدتها بالطلاق وهذا لو أردتم الدقة ولا تنسوا ما قلته لكما أثناء الاحتفال بالزواج ، بل يجب ألا يغيب ذلك عن ذاكرتكما فى خروجكما ودخولكما ، إن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان ) . نعم كان رجلاً لطيفاً وكان شهما نبيلاً . ولكنك يا « جود » كنت تتصرف بطريقة أثارت ضحك الناس جميعاً وجعلتك موضع الهزؤ والسخرية ، كنت تمشى فى استقامة وتشدد قامتك بحيث من ينظر إليك يظن أنك تدرب نفسك على أن تصبح من رجال الفضاء على الرغم من أننى كنت واثقة من أنك كنت ترى الشيء شيئاً طويلاً الوقت وذلك من الطريقة المرتبكة التى قدشت بها عن أصبعى .

وقال « جود » متلعثماً : « قلت إننى على استعداد لأن أفعل أى شيء كي أأنقذ شرف امرأة ونفذت ذلك فعلاً » .

— « حسن . هنا يا عزيزى نتناول بعض الطعام » .

وقال فى تبولد ظاهر : « أود - بعض الويسكى » .

— « هراء يا عزيزى . ليس الآن ! لم يبق لدينا منه شيء . سيزيل الشاى

الغشاوة عن رؤوسنا وسرعان ما ننتعش كالبلابل » .

— « حسن . ها قد تزوجتك . قالت لئننى يجب أن أعود إليك وأن  
أتزوجك من جديد وما قد فعلت دون إبطاء هذا هو الدين الحق . ها . ها . ها ،

### ( ٨ )

وحل عيد القديس ميخائيل وانقضى وكان « جود » وزوجته ، وقد عاشا  
فترة قصيرة فى منزل والد « أراييلا » عقب زواجهما الثانى ، قد اكتريا مسكنهما  
فى الدور العلوى من منزل أكثر قرباً من منزل المدينة .

وفى الشهور القليلة التى تلت زواجه الثانى ، لم يعمل « جود » سوى بضعة  
أيام فلم تكن صحته على ما يرام بل إنها أصبحت الآن منهارة وهو يجلس فى مقعد  
كبير أمام المصطفى ويسعل كثيراً .

كانت « أراييلا » تقول له : « اشتريت المتاعب بأجنس الأثمان وذلك يعودتى  
إليك مرة ثانية » على أن آويك كاية — وتلك هى النتيجة ! سأضطر إلى عمل  
السجق والمرق الأسود والتجوال بهما فى الطرقات ، كل ذلك كى أحول زوجا  
عاجزاً لم يكن هناك ما يدعو إلى الارتباط به إطلاقاً . لم لم تحافظ على صحتك بدلاً  
من أن تمخدع الناس هكذا ؟ كانت صحتك على ما يرام . وقت الزفاف ! ، .

وقال وهو يضحك فى مرارة : « آه نعم أفكر الآن فى الشعور اللاحق الذى  
أحسست به عندما ذبحنا الخنزير أثناء زواجهما الأول وأحس الآن أن أكبر قسط  
من الرحمة يمكن أن ينزل على هو أن يصيبنى ما أصاب ذلك الحيوان وقتذاك ! ، .

ذلك هو نوع الحديث الذى أصبح الآن يدور بينهما كل يوم . أما مالك  
البيت فإنه سمع أن الاثنين غريبا الأطوار فشك فى أمر زواجهما وخاصة عندما  
رأى « أراييلا » تقبل « جود » ذات مساء وقد أحست نحوه بخنين مفاجئ .  
لقد كان المالك على وشك أن يطلب منهما الرحيل عن البيت إلى أن وصل إلى سمعه  
عن طريق الصدفة فى ليلة من الليالى صوتها بينما كانت تعنف « جود » فى كلمات مدوية

ورأها وهي ترميه بحذاء في رأسه فأدرك أن الحركة تعبر عن زواج حقيقي واستنتج  
أنهما محترمان فتوقف عن الكلام .

ولم تتحسن صحة « جود » وطلب يوما من « أرابيلا » بعد تردد طويل أن  
تؤدي له خدمة خاصة . وعند ما استفسرت منه في إهمال عن كنه تلك المهمة قال :  
« أطلب منك أن تكتبي لسو » .

— « ولمَ تريد مني بحق السماء أن أكتب لها ؟ » .

— « لستفسري منها عن حالها ولتعلمي إذا كانت ستحضر لرؤيتي لأنني مريض  
وأود أن أراها — مرة أخرى » .

— « ليس بالغريب عليك أن تهين زوجة شرعية بأن تطلب منها هذا » .

— « إنني أطلب ذلك منك حتى لا أوجه لك أية إهانة . إنك تعرفين تماما  
أنني أحب « سو » ولا أود أن أقلل من أهمية الموضوع بالنسبة لي » فالحقيقة  
مائلة أمامنا وهي أنني أحبها حقاً . وبوسعي أن أجد ألف طريقة كي أرسل لها  
الخطاب دون عليك ، ولكنني أود أن أكون صريحاً أميناً معك ومع زوجها .  
إن رسالة تكتبينها أنت وتطلبين فيها أن تحضر ، هي على أقل تقدير رسالة خالية  
من الفضيحة أو الدس الحقيق فلو كانت « سو » ما زالت تحتفظ بشيء من طبيعتها  
القديمة فإنها ستحضر » .

— « إنك لا تحترم الزواج في قليل أو كثير ولا تدرك حقوقه وواجباته » .

— « وماذا يهمك من آرائي . إنني فقير بائس ! هل يهم أحد في العالم أن  
يحضر لإنسان ليراني وليبقى معي نصف ساعة بعد أن صرت على حافة القبر ! .  
هيا . أرجوك يا « أرابيلا » أن تكتبي لها » واستمر يتوسل إليها ويقول :  
« قايي سلامة طويقي بقليل من كرم الأخلاق ! »

— « لا أظن أنني سأفعل ذلك ! » وأحس « جود » كأن ضعفه الجسدي

ذهب بكل ماتبقى له من كرامة وهو يقول : « ولا حتى مرة واحدة ؟ أرجوك ! »

— « ولِمَ تود أن تطالعها على حقيقة ما وصل إليه حالك ؟ إنها لا تريد أن تراك . إنها الفأرة التي غادرت السفينة الغارقة ! »

— « لا ... لا ! »

— « أما أنا فبقيت معك حتى النهاية . يا حماقتي ! كيف أحضر هذه الفاسقة إلى هنا ! »

وبمجرد أن خرجت الكلمات من فمها هب « جود » من المقعد . وقبل أن تعرف « أرابيلا » أين كانت ، ألقي بها على ظهرها فوق أريكة هناك وركع فوقها . وقال في صوت خفيض : « كلمة أخرى من هذا وسأقتلك هنا في الحال ! »

سأكون أنا الراجح على طول الخط لو فعلت ذلك ، أما موتى فلن يكون آخر شيء أربحه من وراء ذلك لذا لا تظني أنني أمزح بهذا القول ! »

وقالت وهي تلهث : « وماذا تريد مني أن أفعل ؟ »

— « عديني بالألا تتحدثي عنها أبدا . »

— « حسن للغاية . أعدك . »

قال في احتقار وهو يتركها تفات من قبضته : « سأصدقك . أما عن قيمة وعدك فلا أستطيع أن أقول . »

— « لم تستطع أن تذبج الخنزير ولسكنك تستطيع أن تقتلني ! »

— « آه . هانذا تغلبت على . لا أستطيع أن أقتلك - حتى في سورة غضبي . اسخري مني أذن ! »

وبعد ذلك أخذ يسعل كثيرا جدا وقدرت المدى الذي سوف يمتد إليه عمره وهي تنظر إليه في إشفاق وهو يمدد وجهه بمتقع وغفمت « أرابيلا » تقول : « لسوف أرسل في طلبها لو وافقت على أن أظل معك في الغرفة طول وقت بقائها هنا . »

لقد جعله الجانب الأرق من طبيعته ورغبته في أن يرى « سو » عاجزا عن رفض ما عرضت حتى في هذه اللحظة وهو في ذروة اهتمامه فأجابها لاهثا : « نعم . أوافق . فقط أبعث في طلبها . »

وفي المساء استفسر منها عما إذا كانت كتبت لها ف قالت : « نعم . كتبت رسالة أخبرها أنك مريض وطلبت منها أن تحضر غداً أو بعد غد . لم أرسلها بعد . »

وفي اليوم التالي تساءل « جود » عما إذا كانت أرسلت الخطاب حقاً . ولكنه لم يشأ أن يسألها ودعاه الأمل الأحمق الذي يقات على أنفه الأمور إلى الانتظار في قلق وتوقع . وكان يعلم مواعيد القطارات التي يحتمل أن تستقلها ويرهف السمع كلما سمع صوتاً يظن أنه صوتها .

لم تحضر ، ولكن « جود » رفض أن يخاطب « أرايلا » في الموضوع ثانية . أخذ يأمل ويتوقع طيلة اليوم التالي ولكنه لم تظهر كما أنه لم يلق منها أية رسالة . هنا قرر في أعماق نفسه أن « أرايلا » لم ترسل الخطاب قط على الرغم من أنها كتبتة فعلاً . كان في تصرفاتها ما أوحى بذلك وكان ضعفه الجسدي بلغ درجة جعلته ليأسه يحش بالهكاه في الأوقات التي لم تكن موجودة معه حتى لا تراه . وكانت شكوكه في الواقع على أساس قوى . أما « أرايلا » فظننت ، كغيرها من الممرضات ، أن واجبه حيال مريضها هو أن تعمل على تهيئته بطريقة ما غير إرضاء نزواته .

لم يعد يذكر لها شيئاً عن رغبته أو عن شكوكه غير أن تصميمها صامتاً خفياً نما في داخل نفسه ومنحه القوة كما منحه الاتزان والهدوء . وفي أحد الأيام ، وكان الوقت ظهراً ، عادت بعد غياب ساعتين في الخارج ودخلت حجرته فإذا بها تجد مقعده خالياً .

وارتمت بكل جسدها على السرير ثم جلست وفكرت في عمق وقالت : « والآن إلى أية مصيبة ذهب زوجي ! » .

وكانت الأمطار المنهمرة القادمة من الجهة الشمالية الشرقية تهطل دون انقطاع طوال الصباح . وعندما نظرت من النافذة إلى السيول المنهمرة من السماء شعرت أنه من المستحيل أن تصدق أن مريضا يستطيع المغامرة بالخروج إلى حيث ياق حتمه المؤكد ومع ذلك ، تملكها اعتقاد راسخ أنه خرج وأصبح ذلك الاعتقاد حقيقة واقعة عندما فتشت البيت وقالت : « لو كن مجنونا هكذا ، ليجد له ما يحدث ! لا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك » .

في تلك اللحظة كان « جود » في محطة السكة الحديد القريبة من « ألفردستون » يلف نفسه بطريقة غريبة وعلى وجهه بدا الشحوب واضحا وكان كأنه تمثال أثرى مصنوع من المرمر وكان المسافرون يحملون فيه كثيرا . وبعد ساعة ، وجسمه النحيل يكن داخل المعطف الكبير الطويل وقد انحنى حول جسده ملاءة ، غير أنه بلا مظلة ، وعلى هذه الحال رآه الناس وهو يقطع الطريق الموصول إلى « ميريجرين » وطوله خمسة أميال . على وجهه ارتسمت علامات التصميم الذي هو وحده دعامة . وإن أمدته ضعفه الجسدي بأساس واه . وعندما جاء إلى المنطقة المصعدة في التل ، شعر بمقاومة الريح لحركته وانكسرت أسرع السير . وفي الثالثة والنصف وقف بجوار البئر المعروف في « ميريجرين » والمطر قد احتجز الجميع داخل منازلهم فعبّر منطقة الحشائش إلى الكنيسة دون أن يلحظه أحد ووجدوها مفتوحة . هنا وقف يتطالع طويلا إلى المدرسة حيث استطاع أن يسمع المنبرات الموسيقية للأصوات الشابة التي لم تتعلم أنين الخليفة .

انتظر حتى خرج من المدرسة غلام صغير . ويظهر أنه سمح له بالخروج قبل الميعاد لسبب أو آخر ورفع « جود » يده وجاء الغلام .

— « اذهب من فضلك إلى البيت الملحق بالمدرسة واطلب من السيدة « فيلوتسون » أن تتفضل بالحضور إلى الكنيسة لمضغ دقائق » .

وراح الصبي وسمعه « جود » يترك باب المسكن . أما هو فسار إلى داخل الكنيسة . كان كل شيء جديدا ما عدا بقايا صخرية قديمة من قطع تبهت بعد



تجديد البناء وثبتت في الحوائط الجديدة فوقف بجوار هذه القطع التي بدت شبيهة بمن ماتوا من أهل ذلك المكان وكانوا أجداده وأجداد «سو» .

وعند المدخل سمع صوت أقدام خفيفة لم يزد على أن يكون صوت سقوط قطرة مضافة إلى الغيث المنهمر وتلأت حوله .

— «أوه - لم أكن أظن أنه أنت - لم أكن أظن - أوه يا «جود» .»  
وانتاب تنفسها نوبة هستيرية أعقبها نوبات أخرى وتقدم نحوها ولكنها أفافت لنفسها بسرعة وقفلت راجعة .

أخذ يقول لها متوسلا : «لا تذهبي - لا تذهبي ! هذه مرتى الأخيرة ! ظننت أن انتظاري هنا سيكون أقل طفلا من دخولي إلى بيتك ولن أجيء بعد الآن فلا تكوني إذن عديمة الرحمة . سو ، سو ! نحن نتصرف تصرفا حريفا «والحرف يقتل !» .

قالت وقد ارتعش فيها وانهمرت الدموع من عينيها بينما سمحت له بالاقتراب منها : «سأبقى . إن أكون قاسية ! ولكن ، لم حضرت وأنت هذا العمل الخاطيء . بعد ذلك العمل الصائب الذي قمت به ؟» .

— «أى عمل صائب ؟» .

-- «زواجك ثانية من «أرايلا» . جاء ذلك في جريدة «أفردستون» . لم تكن قط زوجة لإنسان غيرك يا «جود» - بالمعنى الصحيح للكلمة . على ذلك أحسنت صنعا - أوه ، أحسنت صنعا باعترافك بهذا - وبإعادتها إليك ثانية» .

— «يا إله السموات ! وهل هذا كل ما أتيت لأسمعه ؟ إن كان في حياتي ما يحيط من قدر الإنسان وبعده عن الفضيلة ، شيء أكثر شذوذا فهو هذا العقد الدنس الذي عقده مع «أرايلا» والذي تسمينه بالتصرف السليم ! وأنت أيضا - أنت تسمين نفسك زوجة «فيلوتسون» ! زوجته ! أنت زوجتي» .

— «لا تجمعني أهرب منك - لم أعد أحتمل ! ولكن دلي هذا إلى مصممة» .

— « لا أستطيع أن أفهم كيف فعلتها - كيف عقلتها - لا أستطيع ! » .

— « دعك من ذلك : إنه زوج رفيق بى - وإنى - إنى - نصارعت وناضلت وصمت وصليت . تقريبا أخضعت جسدى تماما . ويجب ألا - أرجوك - توقظ - »  
— « وإها لك أيتها الحفقاء الصغيرة . العريضة . أين عقلك ؟ يبدو أنك تعانين من فقدان ملكاتك ! من الممكن أن أتجادل وإياك لو لم أعلم أن امرأة فى مثل حالتك الوجدانية لا يجدى معها مخاطبة عقلها . أو هل الحقيقة هى أنك تخدعين نفسك . كما هى الحال مع كثير من النساء ، عندما يقفن هذا الموقف فلا يعترفن فى محبة ما يتظاهرن به ولا يهتمن سوى الاستمتاع بترف عاطفة خلقة اعتقاد مزيف ؟ » .

— « ترف ! كيف يمكن أن تكون بهذه القسوة ؟ » .

— « أنت أيتها العريضة ، الحزينة ، الرقيقة . أنت الخطام المقبض لعقلية كانت ناهضة مفتوحة وكان من حظى أن أمتع بها ناظرى ! أين ذهب احتقارك للتقاليد ؟ لو كنت فى مكانك لحاربت حتى الموت فى شجاعة !  
استدارت فى سرعة وقالت : « إنك تسحقنى وتكاد تهيننى يا جود ! أغرب عنى ! » .

— « سأفعل . لن آتى لرؤيتك ثانية ، حتى لو كان لدى القوة التى ان تواتبنى مرة أخرى ، « سو » « سو » ... أنت لا تستحقين الحب ! » .

وبدأ صدرها يعلو وينخفض وهى تقول : « لا يمكننى أن أتحملك وأنت تقول ذلك ! » واستقرت عيناهما عليه لحظة ثم استدارت سريعا وقالت فى اندفاع :  
« لا تحقرنى لا تهقرنى ! قبلنى أجل ، قبلنى مرات عديدة وقل إننى است جمانة ولا خداعة حقيرة - لا أحتمل ذلك ! » .

ثم اندفعت نحوه واستمرت تقول وهى تضع فمها فوق فمه : « يجب أن أقول لك - أجل يجب - يا حبي العزيز ! إن ما حدث لا يزيد عن مجرد إجراءات كعسية - زواج ظاهرى أقصد ! لقد اقترحه هو فى مبدأ الأمر ! » .

— « وكيف ؟ » .

— « أقصد أنه مجرد زواج صوري لم يزد على ذلك أبدا منذ أن عدت إليه ! ،  
وضمها إليه في قوة واعتصرها بين ذراعيه وغمر وجهها بالقبلات وهو يقول :  
« سو ! لو أمكن للبؤس أن يذوق طعم السعادة فهذه لحظة سعادتي ! استحلفك  
بكل مقدساتك أن تقول الحق ولا تسكذي . أما زلت تحبينني ؟ » .

— « نعم . أنت تعلم تمام العلم ! ولكن يجب ألا أفعل هذا ! — يجب  
ألا أبادلك القبلات كما أفعل الآن ! » .

— « ولكن افعل ! » .

— « ومع ذلك فأنت عزيز على للغاية ! — وكم تبدو مريضا . » .

— « وهكذا أنت أيضا ! شيء آخر ، لذكرى أطفالنا الصغار المتوفين —  
أطفالك وأطفالي ! »

وأصابتها السكاك كضربة فأحنت رأسها وقالت لاهثة : « لا... لا أستطيع  
أن أستمع في هذا ! ولكن هاك أيها العزيز وهاك . إنني أرد لك قبلاتك — نعم ،  
نعم ! والآن لا بد أن أكره نفسي لهذه الخطيئة مدى الحياة . »

— « لا... دعيني أقدم برجائي الأخير . أنصت إلى هذا ! عدت لزوجتي  
الأولى وعدت لزوجك الأول ولم نكن في تمام قوارنا . أسكرت لأفعلها . وكنت  
في نفس الحال . كنت نشوان بخمر « الجن » وكنت نشوانة بخمر العقيدة . أي  
من النشوتين لا بد أن تقضى على التهيؤات النبيلة . . . دعينا إذن نفض عنا  
أخطاءنا ونهرب معا ! »

— « لا . ثانية لا !... لم تغريني إلى هذا الحد يا « جود » ؟ هذا منتهى  
القسوة... ولكنني تغلبت على نفسي الآن ! لا تتبعني — لا تنظر إلى .

أتركني شفقة في ! » وركعت داخل الكنيسة إلى الجهة الشرقية منها وفعل  
« جود » كما طلبت . لم يدر رأسه ، ولكننه حمل ملاءته ولم تسكن « سو » قد

رأتها ، وخرج مسرعا . وعندما مر بطرف الكنيسة سمعت نوبات سـمـالـه  
فاختلطت بصوت المطر المتساقط على النوافذ . وبدافع أخير من الحب الإنسانى  
الطليق من كل قيد قفزت وكأ أنها تهرع لتجده ، ولـسـكـنـها جثت على ركبتيها ثانية  
وغطت أذنيها بكففيها حتى اختفى آخر صوت له .

في تلك اللحظة كان قد وصل إلى رأس الساحة الخضراء التى يخرج منها  
الطريق المتجه إلى المزارع حيث اعتاد فى صباه أن يخيف الغربان . هنا استدار  
ونظر خلفه مرة إلى البناء الذى ضم « سو » ثم واصل السير وهو يعلم أن عينيه  
لن تقعا على ذلك المنظر مرة أخرى .

فى فصلى الخريف والشتاء تنتشر فى إقليم « وسكس » دوائر باردة ولكن  
أكثرها يأتى فى أثناء هبوب رياح من الشرق ، أو أخرى من الشمال وتتركز  
حول المنخفض القريب من البيت الأسمر حيث يلتقى الطريق المؤدى إلى  
« الفردستون » بالطريق القديم المسمى بطريق « ريدجواى » . فى هذا المكان  
تسقط أول ثلوج الشتاء وتبقى هناك أمطاره ذات القطرات التى توشك على التجمد .  
فى هذا المكان أيضا يتأخر ذوبان الصقيع فى حين يبدأ فصل الربيع وتتوالى أيامه .  
وهنا فى قبضة الرياح الشمالية الشرقية وتحت وابل الأمطار المنهمرة تـلـس «جوده»  
طريقه وهو غارق فى البلل وكانت حركته البطيئة الناتجة عن فقدانه لسابق قوته  
لا تكفى لـكـى يظل على شىء من الدفء . جاء إلى صخرة الطريق وافتش الملاءة  
وجلس يستريح فى ذلك الجو المطير .

وقبل أن يستأنف سيره ، اتجه نحو الصخرة وتحسس ظهرها بحثا عن كتاباته .  
وكانت السكتات ما زالت هناك وإن أزال الطحالب معظمها . وسار تاركا وراءه  
البقعة التى نصبت فيها المشقة لأحد أسلافه وأسلاف « سو » ثم نزل التل .

وعندما جا . إلى « الفردستون » كان الظلام قد حل فتناول قدحا من الشاى  
لأن الرعدة القاتلة التى بدأت تزحف عليه تغزو عظامه جعلته لا يتحمل الصوم .  
والـكـى يـصـل إلى بيته ، كان عليه أن يستقل الترام وبعدها يركب القطار على مرحلتين

مع انتظار طويل عند أحد التقاطعات . وحتى العاشرة لم يكن قد وصل إلى  
« كرايستمينستر » .

## ( ٩ )

وعلى الرصيف وقفت « أرابيلا » تنظر إلى « جود » من أعلاه إلى أسفله .  
قالت : « هل ذهبت لرؤيتها ؟ » .

أجاب وهو يرتعش من أثر البرد والرطوبة : « نعم فعلت » .  
— « حسن . يحسن بك أن تسير الآن إلى البيت » .

وكان الماء يتساقط منه وهو يمشى واضطر إلى أن يتكىء على الحائط ليسند  
نفسه وهو يسعل .

— « قضيت على نفسك بفعلاتك هذه أيها الرجل ، لا أدري إذا ما كنت  
تدرك ذلك ! » ،

— « نعم أدركه . . تعمدت ذلك » .

— « ماذا ! أكننت تقصد أن تتنحرج ؟ » .

— « بالتأكيد » .

— « حسن . ليرحمي الله ! أنقتل نفسك من أجل امرأة ؟ » ،

« استمعى إلى يا « أرابيلا » تظنين أنك أقوى منى وهذه حقيقة واقعة إذا  
اعتبرنا القوة البدنية إذ في مقدورك أن توقعينى على الأرض كما توقعين لعبة خشبية  
صغيرة . لأنك لم ترسل الخطاب في ذلك اليوم ولم أستطع حينئذ أن ألومك على  
مستلكك ولكننى لست من الضعف في نواح أخرى كما تظنين . لقد انتهيت يبنى  
وبين نفسى ، وأنا حبيس حجرى بسبب ما أصاب رئتى من التهاب ، إلا أنه لم  
يبق لى في الحياة سوى رغبتيين ، أولهما أن أرى امرأة محببة ، وثانيهما أن أموت .  
كان في استطاعتى أن أحقق هاتين الرغبتين في ضربة واحدة لو أننى قمت بهذه

الرحلة وسط الأمطار وهذا ما فعلته بالضبط . لقد رأيتها لآخر مرة وبعدها قضيت على نفسي ووضعت حدا للحياة محومة كان يجب ألا تبدأ أبدا ! .

— « يا إلهي . إنك حقا تتحدث حديثا فيه تسام بالانفس ! ألا تشرب شيئا ساخنا يدفئك ؟ » .

— « لا . أشكر . دعينا نصل إلى البيت » .

وسارا معا بجوار الكليات الصامتة وهو يتوقف بين الحين والحين .

— « إلام تنظر ؟ » .

— « تميؤات سخيقة . أرى بطريقة ما أشباح أولئك الموتى ثانية وهى التى رأيتها عندما سرت فى هذا الطريق فى المرة الأولى ! » .

— « يالك من مخلوق عجيب ! » .

— « يبدو أننى أراهم وأكاد أسمع حفيف أنوابهم . لكننى لا أتدبرهم كهم كما كان الحال فى المرة الأولى . لأننى لا أؤمن إلا بعدد قليل منهم . إن علماء الدين وشراحه والمدافعين عنه ومن هم على شاكلتهم من يؤمنون بالميتة فيزيقا والطغاة وغيرهم أصبحوا الآن لا يثيرون اهتمامى إذ أن كل ذلك فقد سحره فى عيني من وطأة الحقائق الرهيبة فى الحياة وقوة طحنها لنا » .

وفى ضوء المصباح دل التعبير الذى بدا على وجهه الذى كان يشبه وجه جثة ميتة ، على أنه فعلا يرى بعين خياله أناسا يتحركون أمامه . ومرت لحظات كان يقف فيها ساكنا عند أحد العقود كأنما يرتب شجعا يخرج من بينها . بعد ذلك يتطلع إلى إحدى النوافذ كن يحاول أن يتعرف خلفها وجهها مألوف . وبدا كأنه يسمع أصواتا لذا أخذ يكرر ألفاظا كما لو كان يحاول تفهم معانيها .

— « يبدو أنهم يستخرون منى ! » .

— « من ؟ » .

— «أوه . كنت أحادث نفسي ! أقصد الأشباح التي تملأ المكان هنا وتندس بين عقود الكليات ونوافذها . في الأيام الماضية كانت هذه الأشباح تنظر إلىّ في ود وخاصة أشباح رجال مثل «أديسون» و «جيبون» و «جونسون» والدكتور «براون» والأسقف «كين» .

— «هيا أسرع أي أشباح تلك التي تتحدث عنها ؟ ما من أشباح هنا . ما من أحياء هنا ولا أموات ماعدا رجلا واحداً من رجال البوليس ولم يسبق أن رأيت الطرقات خالية مثلها أراها الآن» .

— «تصورى ! شاعر الحرية اعتاد أن يمشى هنا ! وهناك أيضا سار شاعر الأحران وطبيبها العظيم» .

— «لا أود أن أسمع عنهم شيئاً إننى أضيق بذكرهم» .

— «إن «والتر رالى» يحيلنى من ذلك المنعطف . كذلك يتطلع إلى «ويكليف» و «هارفى» و «هوكر» و «أرنولد» و «جمع غفير من أشباح العلماء كتاب المحاورات» .

— «قلت لك إننى لا أود أن أسمع أسمائهم . ماذا يهمنى من أناس ماتوا وانقضى أمرهم ؟ أقسم بذات نفسى أنك تملك نفسك عندما تقع تحت تأثير الخمر وتبدو حينئذ أكثر يقظة مما أنت الآن» .

قال : «يجب أن أستريح لحظة» .

وبينما وقف ليستريح أمسك باقضببان وراح يقبس بعينيه ارتفاع واجهة الكلية وهو يقول : «هذا فن «روبريك» القديم وذلك فن المقابر ، وفى أعلى ذلك الطريق الضيق أرى «كروتيذر» و «ثيودور» ، وفى المنخفض هناك أرى كلية الكاردينال بواجهتها الطويلة ونوافذها ذات الحواجب السامقة التي تبدو وكأنها تعبّر عن الدهشة المؤدبة الرقيقة للجامعة وهى تتطلع إلى وإلى ماقت به من جهود وما قدمته للبرية من خدمات» .

— « تعال معي وسأعالجك ا . »

— « حسن للغاية . ساعدني يا « أرابيلا » كي أعود إلى البيت إذ أنني أشعر بالاضطراب البارد المنبعث من المراعى المحيطة بكلية الكاردينال وكأنه مخالب الموت تأخذ بتلابيبي وتجذبني إليها شيئاً فشيئاً ، وكما قالت « أنتيجون » ابنة « أوديب » الملك إنى لا أحسب في عداد الأحياء ولا في عداد الأشباح ولكن عندما أموت يا « أرابيلا » سوف ترين روحي وهى تهيم هنا وهناك بين هذه الكليات الجامعية ا . »

— « أف لك ا قد لا تموت على كل حال . إنك أيها المعجوز مازلت قويا . »

كان الوقت ليلاً فى « ميريجرين » وكان المطر الذى بدأ ينهمر وقت الأصيل لم يبد عليه أية علامة تدل على أن حدثه أوشكت أن تخف . وفى اللحظة عينها التى عندها كان « جود » و « أرابيلا » يسيران فى شوارع « كرايستمينيستر » ويتجهان إلى بيتهما ، كانت الأرملة « إيدايين » تعبر الأرض الخضراء وتفتح الباب الخلفى لبيت المعلم وقد تعهدت أن تفعل ذلك قبل أن تأوى إلى مخدعها وذلك كي تساعد « سو » فى أعمال البيت .

كانت « سو » ممن يرتسكن فى أعمال المطبخ وهى عاجزة عن القيام على شئونه إذ لم تكن سيدة منزل ماهرة على الرغم من أنها حاولت أن تصبح كذلك . وكانت تفقد صبرها كلها واجهت دقائق الأعمال المنزلية .

— « ليساعلك الله . لم أقومين بنفسك بهذه الأعمال بينما جئت أنا خصيصاً لأقوم بها ؟ كنت تعلين أنني سأحضر . »

— « أوه ، لا أعلم ، نسيت ا لا . لم أنس . ولكننى كنت أقوم بذلك العمل لأروض نفسى . وقمت بغسل السلم بالفرشاة منذ الثامنة . يجب أن أدرب نفسى على الواجبات المنزلية إذ أنني أهملتها قبل الآن وما كنت لأخس بأى خجل لذلك . »

— « ولم تدربين نفسك على مزاولة تلك الأعمال ؟ قد يعمل زوجك فى



مدرسة أفضل من هذه ويصبح قسيساً عندما يحين الحين وفي هذه الحالة ستحتفظين  
في بيتك بخادمين إذ من المؤسف حقاً أن تفسدى جمال يديك البديعتين .

— « لا تتحدثي عن يدي الجميلتين أيتها السيدة » [يدلين] ، فإن جسدي الجميل  
هذا كان هو السبب في أن أخسر نفسي خسرانا مبيهاً .

— « أف لك ! أليس لديك من تتسلىن معه بالحديث ؟ إنك تجعليني أفكر في  
الروح وأمورها ولكن يبدو أن خطأ ما وقع الليلة أيتها العزيزة . هل زوجك  
غاضب عليك ؟ » .

— « لا . إنه لا يغضب أبداً . لقد آوى إلى فراشه لينام في ساعة مبكرة » .  
— « إذن فماذا هناك ؟ » .

— « لا يمكنني أن أقول شيئاً . ارتكبت خطأ اليوم وأود أن أزيل  
آثاره . حسن ، سأطلعك على الأمر . كان « جود » هنا وقت الأصيل واكتشفت  
أنني ما زلت أحبه ! إنني أحبه بطريقة أخجل من ذكرها ! لا يمكن أن أقول  
لك أكثر من ذلك ! » .

قالت الأرملة : « آه . قلت لك أن ذلك سيحدث » .

— « ولكن يجب ألا يحدث شيء كهذا ! لم أخبر زوجي بمجيء « جود » إذ  
لا داعي لإفلاقه بشأن هذا الأمر إذ أنني أنوي ألا أرى « جود » مرة أخرى .  
اسكنني سأريح ضميري من ناحية « ريتشار » وذلك بأن أكفر عن فعلتي وهذا  
أقصى ما أستطيع أن أفعله ولا بد أن أفعله ! » .

— « ما كنت لأفعل ذلك طالما أنه يرضى بأن تسيّر الأمور كما هي الآن وقد  
استمر الحال هكذا ثلاثة أشهر وكل شيء على ما يرام » .

— « نعم . إنه يوافق على أن أعيش بالطريقة التي أختارها واسكنني أحس  
أن في هذا تضحية من جانبه يجب ألا أقبلها منه . ومن الواجب ألا أقبل منه مثل  
هذه التضحية . لا يجوز أن أرغمه على التسليم بها وإن كان هذا الوضع يخفف

كثيراً من الضيق الذى أحس به . غير أننى لا بد أن أكون أكثر عدلاً فى معاملته ... ويحى ! إنى ألوم نفسى الآن كثيراً على ضعفى وقصورى ! » .

قالت السيدة « إيدلين » فى كثير من الفضول : « ما الذى لاتحبيه فيه ؟ » .  
— « لا يمكننى أن أخبرك بشيء . هذا أمر لا يمكننى أن أفصح عنه والشئ المحزن حقاً أنه ما من أحد يوافقنى على ما أراه أنه السبب فى شعورى بهذا وعلى ذلك فلا عذر لى . »

— « وشل أخبرت « جود » يوماً بذلك ؟ » .

— « أبداً . »

قالت الأرملة فى صوت خفيض : « فى أيام شبابه سمعت قصصاً غريبة عن الأزواج . قيل إنه عندما كانت الأرض مسكونة بالقديسين والقديسات اتخذت الشياطين بالليل شكل الأزواج وبذلك كانوا يوقعون النساء المساكين فى حبائلهم ويسلبون لهم متاعب كثيرة . لكننى لا أدري لم أفكر فى ذلك الآن فهمى لا تزيد عن مجرد قصة . ما أكثر المطر وأشد الريح هذه الليلة ! على أية حال ، لا تتعجلى تغيير الأوضاع يا عزيزتى ولكن فكرى فى الأمر ملياً . »

— « لا . لا ! » سخرت كل جهودى كي أكون رفيقة به ولا بد أن أروض نفسى الضعيفة على النجاح فى ذلك وبأسرع ما يمكن قبل أن تنهار قواى . »

— « لا أظن أن من واجبك أن تغالبي طبيعتك وما من امرأة يتوقع منها المرء ذلك . »

— « هذا واجبى وسوف أتجرع كأسى حتى الثالثة . »

وبعد نصف ساعة ، وعند ما ارتدت السيدة « إيدلين » ، شالها وقبعتها لتغادر البيت ، بدت « سو » وكأن رعباً غامضاً تملكها . وجعلت عينها وقالت فى توسل وهى تنظر نظرات زائغة مضطربة : « لا لا . لا ترحلى أيتها السيدة « إيدلين » . » .

— « ولكن حان وقت النوم يا طفلى » .

— « نعم ولكن ثمة حجرة خالية وكانت من قبل حجرتى . إنها معدة تماماً فأرسل إليك أن تبقى فيها أيتها السيدة « إيدلين » ، سأحتاج إليك غداً صباحاً » .  
— « أوه . حسن . أنا لا أعارض لو كانت هذه رغبتك إذ ان يحدث شيء  
الكوخى الصغير القديم ذى الحوائط الأربع سواء قضيت الليلة هنا أم لا » .

وبعد ذلك أحكمت « سو » غلق الباب ثم هبطت المراتبان السلم معاً .

وقالت « سو » : « انتظرى هنا أيتها السيدة « إيدلين » . سأذهب إلى حجرتى القديمة لحظة » .

واستدارت بعد أن تركت الأرملة على عتبة الباب وتوجهت إلى حجرتها التى كانت مخصصة لها وحدها ولم يدخلها أحد منذ أن وصلت إلى « ميريجرين » . وبعد أن دفعت باب الحجرة جثت بجوار السرير دقيقة أو دقيقتين ثم نهضت وأخذت قميص نومها وخلعت ملابس النهار وخرجت إلى السيدة « إيدلين » وكان ثمة صوت رجل يغط فى الحجرة المقابلة . وألقت تحية المساء على السيدة « إيدلين » بعد أن أوت هذه إلى الحجرة التى أخلتها « سو » لتوها .

وفتحت « سو » مزلاج باب الحجرة المقابلة وانهارت بكل جسدها كأنما اتبها شعور بالإغماء ثم نهضت ثانية وفتحت باب الغرفة قليلاً ثم صاحت :  
« ريتشارد ! » وعند ما خرجت الكلمة من فمها اهتز جسدها بشكل ملحوظ .

وانقطع الغطيط لحظة ولكن لم يجها أحد فأحسنت بالارتياح وقففت راجعة إلى حجرة السيدة « إيدلين » وقالت : « هل نمت أيتها السيدة « إيدلين » ؟ »  
قالت الأرملة وهى تفتح الباب : « كلا أيتها العزيزة فأنتى عبوز بطيئة الحركة ويتطلب خلع ملابسى وقتاً طويلاً . لأننى لم أفرغ بعد من حل أربطة ملابسى الداخلية » .

— « إني — إني لا أسمعك ! من المحتمل -- من المحتمل -- » .  
— « ماذا تقصدين يا طفلة ؟ » .

وقالت وهي تلهث : « قد يكون مات ! في هذه الحال أصبح طليقة وحينئذ أستطيع أن أعود إلى « جود » آه ... لا — بل هناك « أرايلا » لقد نسيتها كما نسيت الله ! » .

— « دعينا نعود ونصيحخ السمع . إنه ينفط من جديد واسكن المطر والريح من الشدة بحيث لا يمكنك أن تسمعي شيئاً إلا بين الحين والحين » .  
وتراجعت « سو » وهي تبحر ساقمها — جراً وقالت : « أسعدت مساء مرة أخرى أيتها السيدة « إيدلين » ! إني آسفة لازعاجك » . وعادت الأرملة أدراجها مرة ثانية .

وعندما أمست « سو » بمنزلها عادت إلى وجهها مسحة التوتر والحيرة وهمست تقول : « يجب أن أفعل ذلك . يجب أن أذهب إليه . يجب أن أذهب إليه ! يجب أن أتجرع كأسى حتى النهاية ! » ثم نادى عليه مرة ثانية وقالت : « ريتشارد : » .

— « ماذا ؟ أهذا أنت يا « سوزانا » ؟ »

— « نعم » .

— « ماذا تريدان ؟ ماذا هنالك ؟ انتظري لحظة » . وجذب بعض أجزاء ملابسه وجاء إلى الباب وقال : « نعم ؟ » .

— « عندما كنا في « شاستون » رأيت أن أقفز من النافذة وفضلت ذلك على أن أدعك تقترب مني ولم أعمل من جهتي على تعديل هذا المسلك حتى الآن . جئت الآن أطلب منك أن تعفو عني وأرجوك أن تسمح لي بالدخول » .

— « قد تكوني قد جئت نتيجة شعورك بأن ذلك واجب عليك ! ولكنني لا أود أن تأتي إليَّ على عكس رغبتك الطبيعية كما قلت لك من قبل » .

انتظرت لحظة ثم قالت مرة أخرى : « ولست أكنى أرجوك أن تسمح لي بالدخول . أرجوك أن تفعل ذلك ! أخطأت حيالك في الماضي ومازلت كذلك حتى اليوم . وملت من الحثوق أكثر مما أستحق . لم أكن أقصد أن أحدثك عن ذلك ولست قد يكون من الأوفق أن أفعل ذلك الآن إذ في أصيل يومنا هذا ارتكبت خطيئة في حقك . »

— « وكيف ؟ »

— « قابلت « جود » ، لم أكن أدري أنه جاء و... »

— « حسن ؟ »

— « قبلته وسمحت له بأن يقبلني . »

— « أوه ... القصة القديمة ! »

— « ريتشارد » . لم أكن أدري أننا سنبادل القبلات حتى وجدت أننا نفعل ذلك فعلا ! »

— « وكم مرة حدث ذلك ؟ »

— « تبادلناها مرات عدة . إنني أشعر بالذعر كلما تذكرت ذلك وأقل ما يمكنني أن أفعله الآن لا كافر عن خطيئتي هو أن آتي إليك هكذا . »

— « تعالى . هذا العمل منك ينطوي على شر كثير بعد كل الذي فعلته لك ! هل لديك شيء آخر تودين أن تعترفي لي به ؟ »

كانت تنوى في قرارة نفسها أن تقول : « ولست أكنى ناديتك وقلت له يا حبيبي ! ، إلا أنها ، باعتبارها في موقف التوبة ، أخفت جزءا من الحقيقة وظل هذا مجهولا لا يعلم به « فيلوتسون » . واستمرت تقول : « ان أراه بعد اليوم . لقد ذكرني بالماضي فضعفت أمامه . وتحدث عن - الأطفال - . ولست ، كما قلت لك إنني سعيدة . إنني سعيدة لأنهم ماتوا يا « ريتشارد » ، ولأن ذلك يخفي معالم حياتي الماضية ! »

— « حسن . فيما يتعلق بقولك إن تربته بعد اليوم - تعالى - هل تقصدين ذلك حقا ؟ »

كان في صوت « فيلوتسون » ما يدل على أن الأشهر الثلاثة التي انقضت منذ إعادة زواجه من « سو » لم تكن مرضية كما توقع أن تكون برغم صبره وكرم أخلاقه وسماحة نفسه .

— « نعم . نعم ! »

— « هل تقسمين بالإنجيل على ذلك ؟ »

— « أقسم . »

وذهب إلى الحجرة ثم عاد ومعه أنجيل صغير أسمر اللون وقال : « والآن ليكن الله في عونك » .

وأقسمت .

— « حسن للغاية ! » .

— « والآن أتوسل إليك يا « ريتشارد » يا من أتمنى إليه وحده ويا من أرغب في إكرامه وطاعته تنفيذ ذاك القسم الذي أقسمته ، أتوسل إليك أن تدعني أدخل » .

— « فكري في الأمر مليا . إنك تعطين معنى ما أنت مقدمة عليه . لقد كانت عودتك إلى البيت شيئا ، أما هذا فشيء آخر مختلف تماما لذا فكري مرة أخرى » .

— « فكرت وأنا التي أود هذا ! » .

— « هذا دليل على روحك السمحة ومن المحتمل أن تكوني على صواب ففي حالة كهذه عند ما يكون ثمة حبيب على قيد أنملة يصبح من ألزم الأمور على المرء أن يكمل الزواج الناقص خشية هذا الحبيب . لكنني أذكرك للمرة الثالثة والأخيرة » .

— « إنها رغبتي أنا ! أوه يا إلهي ! » .

— « ولم تقولين أوه يا إلهي ؟ » .

— « لا أدري ! » .

— « أجل بل أنت تدرين واسكن ... » .

ثم أخذ يمعن النظر في جسدها النحيل الضعيف وهي قابضة أمامه في ملابس النوم وسرعان ما قال : « على أية حال كنت أظن أن الأمر لا بد أن ينتهي هكذا فلست مدينًا لك بشيء بعد هذه العلامات واسكنني سأخذك بقولك وسأعفو عنك » .

واف ذراعه حول خصرها وهم بحملها واسكنها جعلت منه .

وقال وفي صوته نبرة حازمة لأول مرة . « ماذا دهاك ؟ إنك تجفلين مني ثانية ؟ إنك تفعلين كما فعلت في المرة الأولى ! »

— « لا يا « ريتشارد » . أنا — أنا — كنت أفكر — » .

— « هل ترغبين في المجيء إلى هذه الغرفة أم لا ؟ » .

— « نعم » .

— « وهل تدركين معنى ذلك ؟ » .

— « نعم فمن واجبي أن أفعل ذلك ! » .

ووضع « فيلوتسون » الشمعة على الصوان القريب وقاد « سو » إلى الداخل ورفعها بين يديه وقبلها وسرعان ما كست وجهها نظرة تدل على الاستمزاز والنفور واسكنها أخذت تصر على أسنانها حتى لا تغلت من بينها صرخة ..

كانت السيدة « إيدلين » في ذلك الوقت قد خلعت ملابسها وأوشكت أن تأوى إلى فراشها لولا أن قالت في نفسها : « آه — يحسن أن أذهب وأرى إن كانت الصغيرة بخير . ما أشد الريح وما أكثر المطر الليلة ! » .

وخرجت الأرملة ووقفت على عتبة البيت فرأت أن «سو» اختفت فقالت «آه . يا لها من مسكينة ! إننى أصدق الآن أن الأفراح هذه الأيام كالجنائزات . خمسة وخمسون عاما انقضت منذ تزوجت زوجي ! تبدلت الأمور منذ ذلك الحين ! » .

### ( ١٠ )

تحامل وجوده على نفسه واسترجع قواه قليلا وعمل في مهمته لبعضة أسابيع . وعقب عيد الميلاد ، مع ذلك ، انهارت صحته مرة أخرى .

وبالمال الذى كسبه من عمله في الفترة الأخيرة استطاع أن ينتقل إلى مسكن أقرب إلى قلب المدينة من مسكنه الأول . على أن «أرابيلا» رأت أنه قد لا يقوى على القيام بعمل يذكر لمدة طويلة فاستبد بها الغضب لما حدث من تغيير منذ أن عاد كل منهما إلى الآخر . كانت دائما تقول : «لأشفقن لو لم تكن أنت الرابع في هذه الصنفقة التى تمت بيننا أخيرا وحصلت في آخر الأمر على مرضة بالجمان وذلك بعودتك إلى ! » .

لم يكن «جود» ليكتث بما كانت تقوله «أرابيلا» بل نظر إلى ما صدر عنها من سوء المعاملة نظرة ساخرة لا تخاو من روح الدعابة . لكن شعوره في بعض الأحيان كان جادا فكم من مرة فكر وهو طريح الفراش في مدى الهزيمة التى منيت بها أحلام شبابه وكثيرا ما قال : «لكل رجل قدرة ولو بسيطة في ناحية من الحياة ولستكننى لم أبرع أبدا في حرفة نحت الأحجار ، وبصفة خاصة في ناحية الصقل والتشيت فإن تحريك القطع الكبيرة من المسخور ينهك دائما قواي ، وكثيرا ما كنت أقرض في العمارات الكبيرة لليارات الهواء الشديدة وذلك قبل إرساء النوافذ في مواضعها . فتصيبني نزلات البرد وأغاب ظنى أن هذا هو مصدر ما بي الآن من مرض . لستكننى كنت أحس دائما بقدرتي على شيء واحد ، وذلك لو أنيحت لي الفرصة . كنت قادرا على تجميع الأفكار ونقلها إلى الآخرين . إننى لأتساءل هل كان للبهدين من كبار المفكرين والمنشئين من القدرة مالى ؟ إننى قليل النفع في الحياة ولستكننى عندي هذه الخبرة الخاصة . لقد شعاع أن الفرصة



ستتاح قريباً لطلاب العلم الفقراء مثلى كى ينالوا حظهم من العلم وهناك خطط تستهدف جعل الجامعة غير مقصورة على الفئة القليلة التى ترتادها الآن كما تستهدف توسيع دائرة نشاطها . ليس لدى علم كبير بذلك إذ مضى العهد .. مضى العهد وراح بالنسبة لى ! ومضى أيضا بالنسبة لأناس أفضل منى كثيرا !

وقالت « أرابيلا » : « كيف تستطيع أن تهمس بهذا الكلام وتظل تتمتم به على هذه الصورة ؟ كنت أظن أنك تغلبت الآن على هيامك بالكاتب وجنونك بها وفى استطاعتك أن تفعل ذلك لو كانت لديك الرغبة لتشرع فى ذلك . ولكنك الآن اسوأ مما كنت عندما عقدنا زواجنا الأول . »

وفى مرة من هذه المرات وهو يحادث نفسه ناداها دون وعى منه بقوله : « سو » . قالت « أرابيلا » فى غضب شديد : « أرجو أن تنتبه جيدا للشخص الذى نتحدث إليه . إنك تسمى سيدة محترمة باسم هذه ... ثم نذكرت ما حدث لها فى المرة الأولى فماتت الكلمات على شفقتها ولم تصل إلى سمعه . »

وبمرور الزمن ، وعندما رأت كيف تسير الأمور وكيف أنها لم تعد تخشى منافسة « سو » قالت فى نوبة من الكرم المفاجئ : « أظن أنك تتوق لرؤية صديقتك - « سو » ؟ حسن . إنى لا أعارض فى أن تأتى إلى هنا . يمكنك أن تستدعيها لو أردت . »

— « لا أود أن أراها ثانية . »

— « أوه يا لهذا من تغيير كبير ! » .

— « لا تخبريها بأى شيء عني سواء عن مرضى أو أى شيء آخر . لقد اختارت طريقها فدعيها تسير فيه ! » .

وذات يوم تلقى « جود » مفاجأة إذ جاءت السيدة « إيدلين » من تلقاء نفسها لزيارته . ولما كانت « أرابيلا » أصبحت الآن لا تسكتثر به أو بأمره العاطفية ، غادرت الغرفة وتركته بمفرده مع السيدة « إيدلين » . وبدون تفكير سأل « جود »

عن «سو» وقال في جفاء وهو يتذكر ما سبق أن أخبرته به : « أظن أنهما مازالا يعيشان كزوجين ولكن بالاسم فقط ! » .

وترددت السيدة « إيدلين » في الإجابة وأخيرا قالت : « لقد تغير الحال الآن . وبدأت في تغيير الوضع منذ مدة قصيرة - بدأت هذا التغيير بدافع من رغبةها المطلقة » .

قال في لهفة : « ومتى بدأ هذا التغيير ؟ » .

— « بدأت في نفس الليلة التي زرتها فيها ، ولكن تصرفها كان على سبيل القصاص من نفسها . لم يكن هو رغباً في ذلك ولكنها أصرت عليه » .

— « سو » - يا عزيزتى « سو » - يا قرّة عينى ، أيتها البلهاء الغالية ! هذا يفوق قدرتى على الاحتمال ! لا تجزعى أيتها السيدة « إيدلين » من كلامى . لئن اضطر إلى الحديث مع نفسى لأننى أنام هنا بمفردى وأظل هكذا ساعات طويلة . كان تفكيرها بالنسبة لتفكيرى كالنجم بالنسبة لمصباح غازى صغير . كانت ترى خرافاتى وكأنها بيوت العنكبوت سرعان ما تمحوها بكلمة منها . ولكن النكبة المريعة حلت بنا فنقدت تفكيرها استقامته وبريقه وارتدت هى إلى عالم الظلام . ما أعجب هذا الفرق بين الرجال والنساء ، فبينما المواقف والظروف تعمل على تطوير آراء الرجال فإنها فى الوقت ذاته تعمل على تضيق آفاق النساء بلا استثناء . والآن حلت الطامة الكبرى ! ما أعجب أن تسلم نفسها هكذا إلى من تبغضه وذلك فى سبيل خضوعها لشكليات لا قيمة لها ! . تلك المخاوة الرقيقة المرفهة الحس التى تخاف من ظلمها والنّى يكاد الذسيم يدعى بفانها كيف تجرؤ على فعل ذلك ! أما عن «سو» وعنى فبذل زمن طويل عندما كنا نعيش أيامنا وعندما كانت عقولنا صافية وحبنا صادقا بلا خوف ، لم نكن حينئذ نعيش فى عهدنا ! كانت أفكارنا تسبقنا سبقا كبيرا مما جعلها عديمة الجدوى بالنسبة لنا لذا كانت المقاومة التى قوبلت بها هذه الأفكار قد حوالتنا إلى مخاوة رجعية التفكير كما أصابتنى بالتفكير والدمار . إيه أيتها السيدة « إيدلين » ! هذا ما أفعله دائما وهكذا أعود إلى نفسى

أحاسبها على ما فعلت وأنا راقد في هذا المكان . لاشك أن حديثي يضجرك ضجرا شديدا .

— « لا . مطلقا يا ولدى العزيز . يمكنني أن أصغى إليك طول اليوم . »

وعندما فكر « جود » مليا فيما جاءت به السيدة « ايدلين » من أخبار زاد قلقه وشرع من جراء آلامه النفسية يتكلم كلاما قاسيا يدور حول التقاليد والمعتقدات الاجتماعية مما سبب له نوبة شديدة من نوبات السعال . ثم سمع الاثنان طرقا على الباب الخارجى . وعندما لم يفتح أحد للطارق اضطرت السيدة « ايدلين » إلى أن تتوجه إلى الباب لتفتحه بنفسها .

قال القادم في لهجة مؤدبة : « إتنى الطبيب . »

وكان الشخص النحيل الضامر الذى طرق الباب هو الطبيب « فيلبيرت » وكانت « أرابيلا » أرسلت في استدعائه .

قال الطبيب : « وكيف حال مريضى اليوم ؟ »

— « أوه حاله سيء - سيء للغاية ! يا للمتمكين ! فنحن أن أطلعت على بعض الأخبار أثاره ما سمع وشرع يهذى بكلام شديد ويتحدث بأشياء لا تليق ، والذنب فى ذلك ذنبى وعلى أية حال يجب أن نلتمس له الأعذار وأسأل الله أن يغفر له . »

— « آه ، سأصعد لرؤيته . وهل السيدة « فاولى » فى البيت ؟ »

— « إنها ليست هنا الآن ولكنها ستعود حالا . »

وصعد « فيلبرت » . وعلى الرغم من أن « جود » كان يتعاطى الأدوية التى وصفها له ذلك الطبيب الماهر وظل يتجرعها فى استسلام كلما صبتها له : « أرابيلا » فى فمه ، إلا أن مزاجه الذى اضطرب بتأثير ما سمع من حديث السيدة « ايدلين » جعله ينفجر فى وجه الطبيب معلنا رأيه فيه فى صراحة خارقة وكلمات لاذعة مما جعل يكرر رجعا وينزل السلم مهرولا . وعند الباب قابل « أرابيلا » فوقفا يتحدثان وكانت السيدة « ايدلين » غادرت البيت . استفسرت « أرابيلا » عن

حالة زوجها ولكنها عندما شاهدت الطبيب غاضبا صانعا دعوته إلى تناول شيء من الشراب فوافقت على الفور .

قالت : « سأحضر لك الشراب هنا فليس بالمنزل اليوم أحد سواي . »

وأحضرت له « أرابيلا » زجاجة خمر وكوبا فبدأ يجرع الخمر وبدأت « أرابيلا » تكرر بالضحك المكبوت وقال الطبيب وهو يضم شفتيه : « ما هذا يا عزيزتي ؟ » .

ضحكت « أرابيلا » مرة أخرى وقالت : « إنها قطرة من نبيذ وفيها شيء تعرفه . لقد وضعت في النبيذ قطرة من إكسير الحب الذي صنعته لي في الماضي وابتعته منك في المعرض الزراعي . ألا تذكر ؟ » .

« بل أذكره . نعم أذكره جيدا . بالك من خبيثة ماهرة ! ولكن عليك أن تهبي نفسك للنتائج » .

وهمست في أذنه وهي تتضاحك وتقول : « لا تحاول فسيجمعنا زوجي » وقادته إلى خارج البيت ثم عادت وهي تقول لنفسها : « حسن ! إن النساء الضعيفات لا بد أن يتأهبن لأيام الشدة . وإذا مات زوجي المسكين الذي يرقد الآن في الطابق العلوي ، وهذا ما أظن أنه سوف يقع سريعا ، فلا بد لي من أن أجعل المجال أسمى مفتوحا ولم يعد لي الآن حق الاختيار كما كان الحال عندما كنت أكثر شباهاً . على ذلك لا بد أن أستجيب للكهل إذا عجزت عن الحصول على الشاب ! » .

## ( ١١ )

إن الصفحات الأخيرة التي يخطها يراع مؤرخ هذه الأحداث عن حياة هذه الشخصيات، تتناول بالوصف المنظر داخل مخدع « جود » وخارجه ، عندما دارت الأيام وعاد الصيف المورق مرة أخرى .

أصبح وجهه الآن نيميلاً لدرجة أن أصدقاءه القدامى ما كانوا يعرفونه . وكان الوقت أصيلاً وكانت « أرايلا » أمام المرأة تطوى جداول شعرها وتلفها حول يد المظلة بعد تسخينها في لهب الشمعة وتمير الجزء المحمي منها فوق الحاصلات السائبة . وعندما انتهت من ذلك اصططعت غمازة . وبعد أن ارتدت ملابسها ألقت نظرة عابرة على « جود » . كان يبدو أنه نائم على الرغم من أنه في وضع بين الجاوس والرقاد إذ كان مرضه يمنعه من التمدد الكامل .

وجلس « أرايلا » مرتدية قبعتها وقفازها وانتظرت كما لو كانت تتوقع من يأتي ليحل مكانها بجوار « جود » . ومن الخارج جاءت أصوات دلت على أن البلدة في احتفال ، وإن كان القليل منه يمكن رؤيته من الغرفة . وبدأت الأجراس تفرع وتسالت النغمات إلى الداخل من خلال النافذة المفتوحة وأخذ الرنين يلف حول رأس « جود » ويدور كالطنين .

كانت هذه النغمات تقلق بال ، « أرايلا » التي قالت في نفسها أخيراً : « لم لم يحضر أبني؟ » .

وألقت بهصرها ثانية إلى « جود » وهي تتفحص حياته الذاتية كما فعلت مرات ومرات أثناء الشهور المنصرمة . وبعد أن نظرت إلى ساعته ، وكانت معلقة على الحائط ، نهضت في تمليل . أما هو فظل نائماً . وبعد أن وصلت إلى قرار ، تسالت من الخرفة وأغلقت الباب في هدوء ثم هبطت السلم .

كان البيت خالياً ، إذ كان من الواضح أن المغريات التي دفعت « أرايلا » إلى الخروج كانت هي التي دعت السكان الآخرين إلى فعل نفس الشيء قبل ذلك بوقت طويل .

كان اليوم دافئاً ، رائقاً ، مثيراً ، فأغلقت الباب الأمامي وأسرعت إلى شارع « تشيف » . وعندما اقتربت من المسرح أمسكتها أن تسمع نغمات الأرغن إذ كان الاستعداد للحفل موسيقي قادم قائماً على ساق وقدم . ودلفت تحت أحد

العقود المؤدية إلى كلية « ألدجيت » حيث كان الرجال ينصبون خيمة كبيرة حول الفناء المربع استعداداً للحفل راقص يقام في ذلك المساء داخل القاعة . أما الناس الذين قدموا من الريف لقضاء اليوم فكانوا يتنزهون فوق العشب . وسارت « أرايلا » في الممرات المغطاة بالحصى ودخلت تحت أشجار اليزفون الضخمة ولما وجدت أن المكان يميل إلى السكآبة فمادت إلى الطرقات الرئيسية وأخذت ترقب العربات التي تنقل القادمين لحضور الحفل الموسيقي - أعداداً كبيرة من رجال الجامعة مع زوجاتهم ، وطلاباً يزاحمون على الأبواب ومعهم رفيفات مرحات . وعندما أغلقت الأبواب وبدأ الحفل الموسيقي ، سارت في طريقها .

واخترقت النغمات القوية الصادرة عن الحفل الموسيقي الستائر الصفراء التي غطت النوافذ المفتوحة الكائنة فوق أسطح المنازل وسبحت في الهواء الساكن الذي هب في الشوارع الضيقة . سارت « أرايلا » مسافات بعيدة وتسالت إلى الحجرة التي رقد فيها « جود » وكان ذلك في نفس الوقت الذي اتنا به فيه نوبة من السعال أيقظته . وعندما أصبح قادراً على الكلام ، غمغم يقول وعينه ما زالتا مغمضتين : « قليل من ماء من فضلك » .

ولم يتلقى رجاءه سوى الغرفة المهجورة . وسعل ثانية حتى تمزق صدره - وهو يقول في نغمة أكثر ضعفاً : « ماء - قليل من ماء - سو » - « أرايلا ! » .

وظل السكون مخيماً على الحجرة . ثم قال وهو يلهث ثانية : « حلقى . ماء - سو » - عزيتى - قطرة ماء . أرجوك - أرجوك ! » .

ولم يأت الماء وبدأت نغمات الأُغن ضعيفة كطنين نحلة ثم اندفعت في قوة لا يوقفها شيء .

وبينما ينتظر وملامح وجهه تتغير وتبديل مبهرة عما يحس به من ألم ، جاءت الصيحات والهمهمات تترى وكأنات تصدر من مكان عبر النهر . وغمغم يقول :

وآه . نعم ! ما أعجب الأعيب القدر ! هأنذا طريح الفراش بينما «سو» في مأزق خائق .

وتكررت الهاتفات وعامت حتى طغت على نغمات الأرغن وزادت التغيرات التي طرأت على وجه «جود» وهمس في ضعف وشهيقاته المتعبستان الجافتان تتحركان في صعوبة بالغة :

« ليت اليوم الذى ولدت فيه لم يطلع ولم يأت الليل الذى حملت فيه الأم صبياً جنيناً » .

( هاتفات )

« لينقلب ذلك اليوم ظلاماً لا يعتمد على الله من فوق ولا يشرق عليه نهار .  
ليكن ليلاً قائماً لا يسمع فيه هاتف » .

( هاتفات )

« لم أمّ في الرحم ؟ وعندما خرجت من البطن لم لم أسلم الروح ؟ . . .  
فكنت الآن مضطجعا ساكناً . ونمت مستريحاً » .

( هاتفات )

« هنالك الأسرى يطمئنون جميعاً لا يسمعون صوت المسخر . . . والصغير  
كالكبير هناك والعبد حر من سيده . . . لم يعطى للشقى نور وحياة في مرارة  
النفس ؟ » .

في تلك الاثناء كانت « أرابيلا » تجوب الطرقات لتكشف الستار عما يجري  
ثم اختصرت الطريق بأن سارت في شارع ضيق ثم ولجت زقاقاً مظلماً وسارت  
فيه حتى وصلت إلى ساحة الكاردينال . كانت الضجة يتردد صداها في كافة جوانبها  
كما كانت الأزهار تجملها ويزيد من بهاء هذه الساحة انعكاس ضوء الشمس البهيج .  
لقد كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق في لإقامة حفل راقص . وأوماً لها  
نجار كان من قبل زميلاً لجود ، والعمال يقومون بتنميد طريق يصل بين المدخل

وسلم القاعة ويغطيه بساط أحمر زاهى اللون . وجاءت إلى المكان غربات محملة بالأزهار الممتلحة ذات الألوان البهيجة لى تصف على الجانبين والسلم الرئيسى مغطى بقاش أحمر . وهبطت « أرابيلا » السلم وهى تلتق بتحياتها لهذا العامل وذلك وتعتمد فى ذلك على معرفتها لهم وسمحوا لها بالتجوال بينما كانوا يقومون بتغيير بلاط الأرضية وتزيينها استعدادا للحفل الراقص وكانت ساعة الكاتدرائية الضخمة تدق الخامسة معلنة بدء الصلاة .

قالت « أرابيلا » لأحد الرجال : « لا مانع عندى من أن أقوم بجولة هناك مع صديق يلف ذراعه حول خصرى ويراقبنى ولكن يا إلهى ، يجب أن أعود سريعا إلى البيت فلدى كثير من الأعمال والرقص ليس لى ! » .

وعندما بلغت المنزل قابلها « ستاج » عند الباب وفى صحبته بناء ان أو ثلاثة من زملاء « جود » وقال الأول : « كئنا نعزم الذهاب إلى النهر لنشاهد سباق القوارب ولئكننا توقفنا نساء عن صحة زوجك » . وقالت « أرابيلا » : « إنه ينام فى هدوء . أشكركم » .

— « هذا عظيم للغاية . هلا أرحت نفسك فترة أيتها السيدة «فاولى» وجئت معنا ؟ اسوف يفيدك ذلك كثيرا » .

قالت : « نعم . أرغب فى الذهاب فإنى لم أر سباقا للقوارب من قبل ، وسمعت إنه شىء مشير » .

— « تعالى معنا ! » .

وتطلعت « أرابيلا » فى لطفة إلى الشارع الممتد أمامها ثم قالت : « كم أتوق لمصاحبتكم ! انتظروا إذن لحظة حتى أصعد بسرعة وأطمئن عليه . أعتقد أن أبى يجلس معه الآن لذا أظن أننى سأعود إليكم سريعا » .

وانتظر الرجال بينما دخلت « أرابيلا » إلى البيت ولم يكن أحد من سكانه موجودا فى الطابق السفلى إذ كانوا جميعا قد ذهبوا إلى النهر لمشاهدة السباق .



وعندما وصلت إلى حجرة النوم اكتشفت أن والدها لم يعد بعد .

قالت في ضيق : « لم يأت؟ إنه يود أن يشاهد السباق وهذا هو السبب » .

وعلى الرغم من ذلك ، عندما استدارت ناحية السرير ، أشرق وجهها إذ رأت أن « جود » يبدو نائما ممددا وليس في وضع رأسي كما تعود أن يفعل ليمتجاشي نوبات السعال . كان قد انزلق من مكانه فتمدد جسده على السرير . وعندما نظرت إليه ثانية ، جنفت ثم عادت إلى السرير . كان وجهه في بياض الشمع وازدادت ملاحظته بالتدريج جمودا . لمست أصابعه وكانت باردة على الرغم من أن جسده ما زال دافئاً ، ثم وضعت أذنهما على صدره فوجدت أن كل شيء بداخله أصبح ساكنا . لقد توقفت الضربات التي ظلت ما يقرب من ثلاثين عاما . وفي الفترة التي تلت شعورها المفزع بما حدث ، طرقت أذنيها النغمات الواهنة لفرقة عسكرية أو غيرها قادمة من النهر وفي نبرة غضب قالت : « ما أعجب أن يموت في هذه اللحظة ! ولم يموت الآن بالذات ! » .

وبعد أن سرحت بفكرها لحظة توجهت إلى الباب وأغلقتها في هدوء وهبطت السلم ثانية .

قال أحد العمال : « هاهي ذي نزل ! كدنا نعتقد أنك ان تعودى . هيا بنا ، يجب أن نسرع لنحصل على مكان مناسب . كيف حاله ؟ ألا يزال ينام في هدوء ؟ بالطبع لا نود أن نجبرك على الحجى لو أنه ... » .

وقالت في سرعة : « أوه نعم — إنه ينام توما عميقا وإن يستيقظ الآن » . وساروا مع الحشود المتجهة إلى شارع الكاردينال وسرعان ما بلغوا الجسر وبدأوا يتمتعون بأبصارهم بالقوارب الرشيقية وهي تنطلق على صفحة الماء أمامهم ثم ساروا في زقاق موصل للطريق المحاذي للنهر ، وكان اليوم حارا كثير الغبار والمكان شديد الزحام ولم يكند يمضى على وصولهم وقت طويل حتى بدأ العرض الكبير للقوارب . وأخذت المجاديف تضرب سطح النهر بقوة محدثة أصواتا شبيهة

بالقبعات العالية ، وبخاصة كلما نزلت عمودية على سطح الماء . وقالت «أرابيلا» :  
«أوه يا للعجب . ما أعجب هذا المنظر ! إني سعيدة بمجيئي . فوق ذلك - لا يمكن  
أن يسبب غيابي عن البيت أى ضرر لزوجي ! » .

وفي الناحية الأخرى من النهر . وفي داخل السفن المسكتظة بالناس كانت  
هناك جماعات كبيرة من النسوة ذوات الجلال الآخذ بمجامع القلوب ارتدين ملابس  
أنيقة متعددة الألوان . والعلم الأزرق ، وهو علم المتمدن الذى تولى تنظيم حفل  
القوارب ، هو مركز الاهتمام للجموع المحتشدة حيث تجمعت تحته فرق الموسيقيين  
ذات الملابس الحمراء الذين عزفوا الأنغام التى تطرقت إلى سمع «أرابيلا» عندما  
كانت تقف فى حجرة الموت . كان هناك طلاب مختلفو النحل يستقلون قوارب فى  
صحبة الصديقات والحلان وكلهم يرقبون فى حماسة باللغة القارب الذى تراهنوا عليه  
وهو يخترق الماء ذهابا ورجيئة . وبينما كانت «أرابيلا» ترقب المنظر المثير أمامها  
شعرت بأن أحدا يلمسها فى صدرها . وعندما استدارت وجدت نفسها أمام  
الطبيب « فيلبرت » .

قال الطبيب وهو يغمز لها بإحدى عينيه : « دواء الحب هذا كان له تأثير  
شديد علىّ . لم تحطمين قلب إنسان مسكين مثلى هكذا ! » .

— « إن أتكلم عن الحب اليوم » .

— « ولم لا ؟ اليوم عطلة عامة » .

ولم تجبه «أرابيلا» . ولف فيلبرت ذراعه خلسة حول خصرها وفى غمار  
الزحام مرت هذه الحركة دون أن يلاحظها إنسان . وعندما شعرت بذراعه حول  
خصرها ظهر على وجهها تعبير معقد غريب ، ولكنها ظلت تطيل النظر إلى النهر  
دون أن تحول عينيهما عنه وكأنها لا تشعر باحتضانه لها .

وتدفق الزحام كالموج المتلاطم ودفع «أرابيلا» وأصدقاءها أمامه حتى  
أوشكوا جميعا على السقوط فى النهر وكان من الجائز أن تضحك من أعماق نفسها

للصخب الممتع الذى تلا ذلك لولا تلك النظرة التى انطبعت فى مخيلتها والتى شخصت  
لها من وجه يشبه التمثال بياضا وحرمتها من الانتشاء .

ووصل السباق المائى إلى ذروته فى المرح والخبور عندما بدأ الناس يفوضون  
متصايحين بين الكسب والخسارة بينما غادرت النسوة ذوات الملابس الحمراء  
والصفراء والزرقاء أما كنهن على ظهور القوارب وبدأت الجموع كلها تتحرك  
مغادرة المكان .

وصاحت « أرايلا » : « حسن — كل شىء طيب للغاية . ولكننى يجب أن  
أعود فورا إلى زوجى المسكين ، على ما أعتقد . أبى هناك ، أظن ذلك ، ولكن  
ينبغى أن أعود . »

— « وفيم العجلة ؟ »

— « حسن . لا بد أن أذهب — يا للصبيبة ! »

وعند المدخل الضيق حيث صعد الناس قادمين من الطريق المحاذى لشاطئ  
النهر إلى الجسر ، تجمع هؤلاء فى كتلة واحدة متفجرة — وكانت « أرايلا »  
و « فيلبرت » يكونان جزءا من هذه الكتلة مما جعلهما يظلمان لحظة بلا حراك .  
وتأففت « أرايلا » من ضغط الزحام وبدأت تفقد حبلها إذ فى تلك اللحظة خطر  
ببالها خاطر وهو أنه لو اكتشف أحد أن « جود » مات فى الغرفة وحده فإن تحقيقا  
قد يصبح شيئا لا مفر منه .

قال الطبيب وقد قربته منها الجماهير المتدافعة فلم يكن فى حاجة للالتصاق بها  
من تلقاء نفسه « يا لك من مخلوق قلق يا حبي ، أصبرى . لا يمكنك الخروج  
الآن ! »

ومضى ما يقرب من عشر دقائق قبل أن يفك الحصار حولها واستطاع المرور .  
وبمجرد أن وصلت إلى الشارع ، أسرعت السير بعد أن منعت الطبيب من  
مصاحبته .

لم تتوجه رأساً إلى بيتها بل ذهبت إلى مسكن امرأة تتولى تجهيز الموتى الفقراء للدفن وطرقت الباب وقالت : « قضى زوجى المسكين نحبه الآن . أيمكنك أن تأتى وتعديه للدفن ؟ »

وانتظرت « أرايلا » فترة سارت بعدها المرأتان وهما يدلفان فى صعوبة خلال الجمع المتأنتى المتدفق من المراعى المحيطة بكلية الكاردينال بينما العربات التى تزحم الطريق تؤشك أن تلقيهما أرضاً . قالت « أرايلا » : « يجب أن أمر على « القندلفت » بشأن الجرس أيضاً . إنه يسكن بالقرب من هذا المكان ، أليس كذلك ، سأقابلك عند باب بيتى . »

وعندما كانت الساعة العاشرة مساءً كان « جود » يرقد مسجى فى مسكنه وقد غطى جسده بملاءة وكان مشدوداً كسهم . ومن خلال النافذة الموارية تسالت أنغام مرحلة قادمة من قاعة للرقص فى شارع الكاردينال .

وبعد مرور يوهين على موت « جود » كانت السماء كما هى خالية من السحب والجو ساكن . وهناك شخصان يقفان بجانب التابوت المفتوح الموضوع فى نفس حجرة النوم الصغيرة إذ كانت « أرايلا » تقف فى ناحية والسيدة « ايدلين » فى الناحية الأخرى ، وكل منهما يتطلع إلى وجه « جود » ، وكانت جفون السيدة « ايدلين » أصبحت حمراء من أثر التعب والإنهاك . وأخيراً قالت : « كم يبدو جميل الطلعة ! »

قالت « أرايلا » : « نعم واسكنه الآن مجرد جثة وسيمة . »

كانت النافذة كما هى مفتوحة انهموية الحجر ، والوقت ظهراً وظل الهواء النقي فى الخارج ساكناً هادئاً . ومن بعيد جاءت أصوات ، كما جاء صوت واضح للأشخاص يدقون الأرض بأرجلهم .

وغمغمت السيدة العجوز : « ما هذا الصوت ؟ »

— « أوه . هذه أصوات أساتذة الجامعة وهم وقوف على المسرح يمتحنون

الدرجات الشرفية لدوق « هامتو نشاير » والكثيرين غيره من الطبقة الممتازة .  
لأنه أسبوع التذكر كما نعلم . أما الهنات فصادرة عن طلاب العلم من الشباب  
الجامعي .

— « أجل . الشباب من ذوى الصدور القوية والرائات السليمة . وليسوا  
كولدنا المسكين هنا . »

ومن وقت إلى آخر طرق سمع المرأتين كلمات متناثرة من خطاب يلقى وكانت  
الكلمات تدل من نوافذ المسرح المفتوحة وتدخل إلى هذا الركن الساكن حيث  
بدت على ملامح « جود » المرمرية ما يشبه الالبسة ، في حين بدت كتيبه القديمة  
زرية الهيئة ، كاللؤلؤ بجوار هذه الأصوات المرححة القادمة من خارج الغرفة .  
كانت المكتبة نسخا قديمة راح أوانها وكانت من مؤلفات كتاب عظام « كمبرجيل »  
و « هوراس » ، ومن بين المكتبة نسخة يونانية للعهد الجديد وقد تمزقت  
صفحاتها وانكشفت جوانبها من كثرة الاستعمال .

كانت هذه المكتبة مرصوفة على رف بالقرب من السرير ومن بينها كثير  
من المؤلفات التي لم تفارق « جود » وكلها ملوثة بنهار الصبح وأثارها إذ كان  
من عادته أن يتناول بعضها لبضع دقائق أثناء فترات الراحة التي تتخلل ساعات  
العمل . ودقت الأجراس في حبور وانتشرت نغماتها في جو المخدع .

وانتقلت عينا « أرايلا » من « جود » إلى السيدة « ايدلين » وقالت :  
« أنظنين أنها ستأتى ؟ »

— « لا أستطيع القول . أقسمت على ألا تراه ثانية . »

— « كيف تبدو ؟ »

— « منهوكة تعسة ، يا للسكينة ! أكبر بأعوام وأعوام عما شاهدتها آخر  
مرة . امرأة هامة خائرة . إنه هو — وهي لا تقوى على هضمه ، حتى في هذه  
الظروف ! »

مطبعة المسالوم  
١٨١ شارع بور سعيد بالسيدة زينب

## محتويات الكتاب

صفحة	
١ — ٧	المقدمة . . . . .
٩٤ — ١	الباب الأول : في « ميريجرين » . . . . .
١٦١ — ٩٥	الباب الثاني : في « كرايستمينستر » . . . . .
٢٥٧ — ١٦٣	الباب الثالث : في « ميلشستر » . . . . .
٣٣٨ — ٢٥٩	الباب الرابع : في « شاستون » . . . . .
٤٢٧ — ٣٣٩	الباب الخامس : في « ألديركهام وأماكن أخرى » . . . . .
٥٤٨ — ٤٢٩	الباب السادس : في « كرايستمينستر ثانية » . . . . .

# منتدى سور الأزبكية

[WWW.BOOKS4ALL.NET](http://WWW.BOOKS4ALL.NET)

<https://www.facebook.com/books4all.net>